نوادر الأصول
في معرفة أحاديث الرسول

تأليف
أبي عبد الله محمد الحكيم الترمذي

الجزء الأول

تحقيق وتعليق
الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح
الدكتور
السيد الجميلي

دار الريان للتراث

الطبعـة الأولـى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع الحقوق محفوظة

يطلب من

دار الريان للتراث

الادارة : ٣٥٠ شارع الأهرام - الجيزة تليفون / ٨٥٤٦٨٧ - ٨٥٢٠١١

القاهـــــرة : ١٧٧ شارع الأهرام - تليفون - ٥٣٦٥٩٩
معرض ٨ بجراج الأوبرا .
٤٣ أ شارع رمســيس .
١ شارع البورصة من شارع قصر النيل تليفون / ٧٧٧٥٩١
١ شارع أحمد سعيد - بالعباسية .
ميدان أحمد عرابى - سفنكس - المهندسين .

مصر الجديدة: ٢٢شارع الأندلس - خلف المريلاند - تليفون / ٢٥٨٢٠١٤

الاسكندرية : سيدى بشر - طريق الكورنيش - برج رامادا (الدور الأول) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى هدى السالكين الطريق وفتح أمام عباده أبواب الرحمة. والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة وهداية للعالمين قدوة أهل الحق والباحثين عن اليقين. أما بعد،،،

فإن السلوك إلى رب العالمين هو الشامة الدائمة التى بها يقف الإنسان من ربه على مكانته. متفاعلاً ماضياً فى طريق الله.

والسلوك إلى الله سبحانه وتعالى ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشىء عن استشعار القلب عظمة المعبود. ولعل من بشائر اجتباء الله سبحانه وتعالى أن هيأ رجالاً وضحوا المعالم على هدى القرآن الكريم وسنة النبى الصادق الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد كان الحكيم الترمذى من علماء القرن الثالث الهجرى من هؤلاء الرجال الذين وضعوا القواعد، وبحثوا عن الأصول، وأقاموا الأسس والوسائل. وبحق كان اهتمام الحكيم الترمذى بالسلوك طابعاً بارزاً ترك أثاره فى مؤلفاته ومنهجه وأسلوب حياته.

ولما كانت رغبتنا الأكيدة أن نقدم للناس ما يتصل بحياتهم ويمس أخص الخصائص فيهم رأينا أن نقدم للحكيم الترمذى كتاب «نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول» أشهر كتب الحكيم وأكثرها تداولاً فى القديم والحديث. وقد ذكرت كتب التراجم أن علماء نيسابور تلقوا عن الحكيم هذا الكتاب لما رحل إليها فى عام ٢٨٥ هـ ورووه عنه.

وكتاب «نوادر الأصول» جمع الحكيم فيه مائتين وواحداً وتسعين حديثاً سمى كلاً منها أصلاً ثم أخذ فى شرح الحديث بعد روايته ومن خلال شرحه يستنبط ما يفهمه من الحديث .

ونوادر الأصول التى جمعها الحكيم ترسم الطريق السوى فى العبادات والمعاملات والسلوك والأخلاق .

وهذا الكتاب فريد فى موضوعه وقد انفرد الحكيم الترمذى بهذه النوادر من الأصول القائمة على أحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه . وأمتنا الاسلامية وهى تخطو فى الطريق الحق جدير بها أن تستلهم الصواب ، وتدرك العلامات المضيئة ، والمعالم الهادية ، فى يقظة الحس ، وحيوية النفس ، وصحوة الضمير ، واستواء الخلق فى طريق الفطرة الصحيحة .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بالكتاب

الدكتور
السيد الجميلى

الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

القسم الأول
حياة الحكيم الترمذى وعصره

- مولد الحكيم وعصره .
- نشأة الحكيم وثقافته .
- شيوخ الحكيم وأساتذته .
- مجاهدات الحكيم وسلوكه .
- لماذا كان الترمذى حكيماً؟ .



مولد الحكيم وعصره

يعتبر الحكيم الترمذى من أعظم الشخصيات الإسلامية التى يعتز بها التاريخ الإسلامى، فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى، كانت بداية لتفتح ينابيع المعرفة التى ظلت مؤثرة فى حضارة العالم قروناً طويلة.

ظهر الحكيم فى فترة حرجة كانت أحوج ما يكون إلى الحكيم حيث خط المسار، ووضع للنفس المنهاج، حتى تستجيب لنوازعها الخيرة.. وقد ولد الحكيم: أبوعبدالله محمد بن على بن الحسن بن بشَر الترمذى (١) من عائلة تنتمى إلى العرب (٢)، فى العشرة الأولى من القرن الثالث الهجرى «القرن التاسع الميلادى» (٣).

وكان أبوه من رواة الحديث الذين رحلوا فى سبيله، واشتغلوا بروايته، فقد ترجم له الخطيب البغدادى، وذكر أنه نزل بغداد، وحدث بها (٤)، وقد روى الحكيم كثيراً عن والده فى كتبه المتعددة، وكانت أمه أيضاً من أهل الحديث، فقد روى عنها، وجاء ذلك فى كتابه «الرد على المعطلة» (٥). وكذلك كان جده لأمه من أهل الحديث (٦). وثبت أنه أخذ الحديث عن بعض

---

(١) السبكى «طبقات الشافعية الكبرى» جـ٢ ص١٤٥ الطبعة الأولى البابى الحلبى. والذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ٢ ص٦٤٥ الطبعة الثالثة، الهند. والبغدادى «هداية العارفين» جـ٢ ص١٥، ١٦ ط استنبول، تركيا. وابن حجر «لسان الميزان» جـ٥ ص٣٠٨ ط حيدر آباد، الهند.

(٢) الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص١٣ ط دار الكتاب العربى بمصر.

(٣) الدكتور أربرى وعلى حسن «الرياضة وأدب النفس» ص٣ ط الحلبى ١٣٦٦هـ مصر.

(٤) الخطيب البغدادى «تاريخ بغداد» جـ١١ ص٣٧٣ ط الخانجى بمصر.

(٥) الترمذى «الرد على المعطلة» مخطوط بلدية الاسكندرية فنون متنوعة رقم ١٤٥.

(٦) الدكتور الجيوشى «منازل العباد من العبادة» ص٧ ط دار النهضة العربية بمصر.

مواطنيه [٧].. من كل ذلك يتبين للباحث والدارس أن الحكيم فتح عينيه أول ما فتح على حلقات العلم، والحديث، والدرس، وأنه أحيط بهذا الجو النقى، وتلقت مسامعه أول ما تلقت كلمات الله، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، يهتف بها أبوه، كما تهتف بها أمه، ولهذا كان لكتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه السلطان كل السلطان على اتجاهاته، وتفكيره، وسلوكه، ومنهجه، وخطاه [٨].

ومما يلاحظ أن كتب التراجم والطبقات لم تذكر تاريخاً لمولد الحكيم الترمذى، ولم تحاول أن تستنتج تاريخاً تقريبياً له، على عادة القدماء، فانهم لم يكونوا يقدمون على ذلك ما لم يكن تحت أيديهم نص يستندون اليه، وان كانت الكتابات جميعها تشير إلى أنه: رأى النور فى الربع الأول من القرن الثالث الهجرى.. وعذر كتاب التراجم والطبقات والمؤرخين فى ذلك: أن الحكيم لم يكن قد عرف من شأنه ما يجعل المؤرخين يرصدون تاريخ ميلاده، ولم يقدم هو لهم ما يعينهم على معرفة مولده [٩].

هذا والذهبى يذكر أنه رحل إلى نيسابور سنة خمس وثمانين ومائتين، وأنه عاش حتى بلغ الثمانين [١٠].. ومعنى ذلك أنه ولد على التقريب سنة خمس ومائتين [١١].

وابن حجر العسقلانى يذكر أن الأنبارى سمع من الحكيم الترمذى سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة، وانه عاش نحواً من تسعين سنة [١٢].. ومعنى ذلك أنه ولد على وجه التقريب سنة ثلاثين ومائتين [١٣].

---

(٧) الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص١٤ دار الكتاب العربى بمصر.
(٨) الدكتور الجيوشى «منازل العباد من العبادة ص٧.
(٩) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد من العبادة» ص٧ دار النهضة العربية.
(١٠) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ٢ ص٦٤٥ ط الهند.
(١١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٣٣ ط مجمع البحوث بالأزهر.
(١٢) ابن حجر «لسان الميزان» جـ٥ ص٣١٠ ط الهند.
(١٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ٢ ص٢٣.

يقول الدكتور بركة : ورواية الذهبي — كما نرى — لا تتعارض مع رواية ابن حجر، بل تمهد لها وتساندها .

لكن الاستنتاج بأنه ولد على وجه التقريب سنة ثلاثين ومائتين ، معارض بما ورد في كتب التراجم من أنه ولد في أوائل القرن الثالث ، ومن أنه صحب أبا تراب النخشبي ، وأحمد بن خضرويه ، الصوفيين المشهورين ، ومن أنه روى عن قتيبة بن سعيد الثقفي ، وعن صالح بن عبد الله الترمذي ، وعن الحسن بن شقيق البلخي .. فمن الملاحظ أن أبا تراب النخشبي توفي عام خمسة وأربعين ومائتين ، وأن أحمد ابن خضرويه وقتيبة بن سعيد قد توفيا عام أربعين ومائتين ، وأن صالح بن عبد الله قد توفي عام نيف وثلاثين ومائتين ، ويقال أن الحسن بن عمر بن شقيق قد توفي عام ثلاثين ومائتين (١٤) .

والدكتور بركة بعد أن يذكر تواريخ وفاة من صحبهم الترمذي ، ومن روى عنهم يصل إلى مقولة تقول : فإذا كان الحكيم الترمذي قد ولد عام ثلاثين ومائتين ، كان معنى ذلك أنه بلغ من العمر عشر سنين وقت وفاة أحمد بن خضرويه ، وقتيبة بن سعيد ، وخمسة عشر عاماً عند وفاة أبي تراب النخشبي .. وإذا أمكن أن يتحمل الحديث في هذه السن ، بصورة من صور الاحتمالات .. فكيف تثبت صحبة الطريق والسلوك في مثل هذه السن ؟ ويتابع الدكتور بركة كلامه فيقول :

« ثم إذا علمنا أن الحكيم الترمذي لم يتجه الاتجاه الصوفي إلا بعد أن تجاوز السابعة والعشرين من عمره ، وأن هذه الصحبة لا بد أن تكون قد وقعت له بعد هذه السن .. أمكن لنا أن نستنتج — باستخراج هذه الأعوام السبعة والعشرين من الأربعين ومائتين التي توفي فيها أحمد بن خضرويه — أن الحكيم الترمذي كان موجوداً عام ثلاثة عشر ومائتين — وإذا أضفنا أن هذه الصحبة استمرت عاماً أو عامين أو أكثر، لأمكن أن نستنتج — بأقل وجوه التقريب — أنه قد ولد قبل عام عشرة ومائتين (١٥) .

---

(١٤) المصدر السابق ص ٣٤ .

(١٥) الدكتور عبد الفتاح بركة « الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية » جـ ١ ص ٣٥ .

وهذا يتفق مع ما ذكرته كتب التراجم من أنه ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، ومع ما استنتجه الذهبى ــ بعد أن أورد أنه رحل إلى نيسابور عام خمسة وثمانين ومائتين ــ من أنه عاش حتى بلغ الثمانين (١٦) .

إذ معنى ذلك أنه ولد عام خمسة ومائتين للهجرة ، ومن الممكن إذن أن نتفق مع الذهبى فيما يخص تاريخ ميلاده (١٧) .

ولئن كان لكتب التراجم العذر فى السكوت عن ذكر مولد الحكيم .. فإن الباحث لا يجد العذر المقبول فى التضارب الواسع الذى يجده عند المؤرخين بالنسبة لوفاته ، بعد أن عاش حياة طويلة عريضة خاض خلالها معارك ، وتعرض لمحن ، ومصادرات حرمت عليه حتى الالتقاء بالناس .. مما يمكن أن يقال معه أنه شغل الدنيا وشغل الناس ، ومع ذلك فاننا نجد الخلاف على تاريخ وفاته يمتد إلى أن يبلغ خمسة وسبعين عاماً .. فبينما يهدى الاستنتاج القائم على الملاحظة الدقيقة ، أن وفاة الحكيم كانت بعد ٣١٨ هـ (١٨) .

وذلك لما يرويه ابن حجر أن الأنبارى سمع منه سنة ٣١٨ هـ . وهذا يعنى أن وفاته كانت بعد هذا اللقاء (١٩) .. لذا أصبح من الممكن أن نتفق مع ابن حجر العسقلانى ، فيما يتعلق بتاريخ وفاته ، لا سيما إذا سجلنا ما ذكره فريد الدين العطار فى كتابه « تذكرة الأولياء » من أنه عاش مائة وخمسة عشر عاماً (٢٠) .

فليس صحيحاً ما ذكره صاحب « كشف الظنون » فى مواضع من كتابه ، وكذلك صاحب « سفينة الأولياء » من أنه توفى سنة ٢٥٥ هـ . ولعل مرد هذا خطأ من الناسخ .. فليس معقولاً أن يبلغ الخلاف فى وفاة الحكيم هذا الفارق الضخم (٢١) ومما يدفع الباحث إلى رفض التاريخ المذكور أن الحكيم نفسه

---

(١٦) الذهبى « تذكرة الحفاظ » جـ ٢ ص ٦٤٥ .

(١٧) الدكتور بركة « الحكيم الترمذى » جـ ١ ص ٣٥ .

(١٨) الدكتور الجيوشى « منازل القاصدين إلى الله » ص ٧ ط دار النهضة العربية .

(١٩) ابن حجر (لسان الميزان) جـ ٥ ص ٣١٠ .

(٢٠) عثمان إسماعيل يحيى مقدمة كتاب « ختم الأولياء » ص ٩ ط المطبعة الكاثوليكية بيروت .

(٢١) الدكتور الجيوشى مقدمة « منازل العباد » ص ٨ .

يتحدث فى رسالته «بدوالشأن» عن رؤى رأتها زوجته فيقول : «ثم رأت لسنتين أوثلاث ، وذلك يوم السبت ضحى لعشربقين من ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين» [٢٢] .

وكذلك لايقبل الباحث القول : بأن وفاته كانت سنة ٢٨٥ هـ لأن هذا التاريخ معارض بما ذكره السبكى والذهبى من أن الترمذى قد رحل إلى نيسابور سنة ٢٨٥ هـ حيث أقام بها مدة يدرس الحديث ، وهناك تلقى عنه عدد من محدثيها [٢٣] .

والباحثون لا يوافقون الدكتور على حسن عبد القادر والدكتور آربرى فيما ذهبا اليه من قولهما أنه : يمكن أن نستنتج أن أباعبدالله مات عند نهاية القرن الثالث الهجرى ، وأقرب مايكون أن ذلك كان فى حدود سنة ٢٩٦هـ ـــ٩٠٣م [٢٤] . وذلك لرواية ابن حجر من أن الأنبارى سمع من الحكيم الترمذى سنة ٣١٨ هـ . ولعل هذا مما دعا بعض المؤرخين المحدثين من الغربيين إلى اعتبار وفاة الترمذى سنة ٣٢٠ هـ .

لذلك يرجح أهل البحث أن يكون الحكيم الترمذى قد ولد عام خمسة ومائتين ، وأنه عمر مائة وخمسة عشر عاماً ، وأنه توفى عام عشرين وثلاثمائة للهجرة [٢٥] .. ومعنى هذا أن الحكيم عاش عمراً مديداً ، كان خلاله عاملاً دءوباً باحثاً ، لايفتر عن المجاهدة أوالدرس أوالرياضة ، تشهد بذلك آثاره وكتبه ورسائله [٢٦] .

ولد الحكيم الترمذى بمدينة ترمذ ، ومدينة ترمذ تقع داخل الأقاليم الإسلامية

---

(٢٢) الحكيم الترمذى «بدو وشأن أبى عبد الله» ص٣٠ فقرة ٢١ تحقيق عثمان إسماعيل ط بيروت .

(٢٣) السبكى «طبقات الشافعية» جـ٢ ص٢٤ . والذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ٢ ص٦٤٥ .

(٢٤) الدكتور آربرى والدكتور على حسن عبد القادر مقدمة كتاب «الرياضة وأدب النفس» ص١١ ط البابى الحلبى ١٣٦٦ هـ .

(٢٥) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ١ ص٣٥ .

(٢٦) الدكتور الجيوشى «منازل العباد من العبادة» ص٨ .

التى تخضع للاتحاد السوفيتى. ومات الحكيم ودفن بترمذ، وقبره معروف الآن فى خرائب «ترمذ» القديمة.. يقول بارتولد: «ونجد بين الأبنية فى خرائب المدينة القديمة، ضريح الولى أبى عبد الله محمد بن على الترمذى. وهذا الضريح من المرمر الأبيض. وقد ذكر «بوسلافسكى»: أن هذا الأثر لا يفوقه من حيث الصنعة والمادة أى أثر آخر من الآثار القديمة التى عرفت حتى الآن فى هذه النواحى»(٢٧) والراجح أن يكون قد بنى فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى). وهو اليوم أجمل الآثار بين أطلال ترمذ، ومن أجملها فى آسيا الوسطى(٢٨).

وترمذ(٢٩) التى ولد فيها الحكيم — كما يؤخذ من لقبه — مدينة على الضفة الشمالية لنهر جيحون بالقرب من مصب نهر سرحان(٣٠).

وكانت البوذية هى السائدة فى «ترمذ» إبان الفتح الإسلامى، فقد كان بها اثنا عشر معبداً، ونحو ألف راهب، وكان على ترمذ وقتذاك أمير عظيم الشأن، لقبه: ترمذ شاه. وكان بها حصن منيع بشرف على النهر، وفى عام ٧٠هـ «٦٨٩—٦٩٠م» فتح ترمذ موسى بن عبد الله بن حازم، واستقل بحكمها خمسة عشر عاماً(٣١).

وقد شهدت «ترمذ» بعد الفتح الإسلامى، نشاطاً فكرياً ملموساً، مما جعل ترمذ إحدى مراكز الثقافة الإسلامية الشهيرة، فى القرن الثالث الهجرى، فى منطقة ما وراء النهر.

وفى ترمذ نشأ عدد كبير من العلماء والباحثين والفقهاء والمحدثين، وتذكر

---

(٢٧) الدكتور آربرى وحسن عبد القادر «الرياضة وأدب النفس» ص ١١ ط البابى الحلبى.

(٢٨) المستشرق بارتولد دائرة المعارف الإسلامية ج ٩ ص ٢٨٦ ط كتاب الشعب.

(٢٩) بكسر التاء والميم — كما هو المعروف، أو بفتح التاء مع كسر الميم أو ضمها كما هو متداول على لسانهم «صفى الدين البغدادى مراصد الاطلاع جـ١ ص ٢٥٩» وترميذ وترمز «دائرة المعارف جـ٩ ص ٢٩٧».

(٣٠) بارتولد «دائرة المعارف الإسلامية» جـ٩ ص ٢٨٦.

(٣١) المصدر السابق ص ٢٨٦، والبلاذرى «فتوح البلدان» ص ٤٠٨.

دائرة المعارف الإسلامية : «أنه اشتهر من أهل ترمذ فى التأليف رجلان أولهما : أبوعيسى محمد بن عيسى الترمذى صاحب «كتاب الجامع والعلل وكتاب الشمائل المحمدية» المتوفى عام ٢٧٩هـ. والثانى : المحدث المتصوف أبوعبدالله محمد بن على الترمذى» (٣٢).

ومنطقة (خراسان) التى تقع فيها مدينة «ترمذ» من المناطق التى كانت فى العهد الإسلامى مسرحاً لكثرة المذاهب والمعتقدات، كان يباين بعضها أشد المباينة، وكان يعيش بعضها إلى جوار بعض، وكان ينحو بعضها ناحية خاصة من التعصب والغلو، فكان الجو الذى يسود هذا الأقليم، جواً من التباين والتعصب والاضطراب، يعيش على أرض تتقسمها الأهواء والمذاهب والنحل (٣٣).

ويذكر لنا المقدسى : أن مذاهب أهل الأقليم مستقيمة ـ أى أنهم على مذهب أهل السنة والحديث ـ الا فى سجستان، ونواحى هراة كرخ، واستراجان، فإن بها طائفة من الخوارج، وأما نيسابور فإن بها الشيعة والكرامية، ولهم فيها ظهور وغلبة، وللمعتزلة بها ظهور كذلك وليست لهم بها غلبة، وأما أهل «ترمذ» فهم جهمية، وأما أهل الرقة فهم شيعة، وأهل قندر قدرية، وأما أقليم ما وراء النهر وبخارى فان أولاد على به على غاية الرفعة، وأما الكرامية فقد كان لها ظهور فى أغلب مدن الأقليم وقد كان لها جلبة فى هراة، ومرج الشاة (٣٤).

أما فى التصوف فقد ظهر فى الأقليم لونان أساسيان: أحدهما : كان يميل إلى التفكير العقلى الفلسفى الجرئ، والآخر: كان يميل إلى تفكير أهل السنة والجماعة، هذا التفكير التقليدى المحافظ. أما الأول: فظهر فى الجنوب، وفى أماكن المعتزلة والمذاهب الفلسفية القديمة. وأما الآخر: فقد سار موازياً له،

---

(٣٢) المستشرق بارتولد «دائرة المعارف الإسلامية» جـ ٩ ص ٢٨٩ .

(٣٣) عبد المحسن الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٤٢ .

(٣٤) المقدسى «أحسن التقاسيم» ص ٣٢٣ .

ولكنه إلى الشمال منه، ولكن هذين التيارين اختلطا أخيراً عندما اتحدا فى الممرات الضيقة إلى أواسط آسيا (٣٥).

وعلماء تقويم البلدان يذكرون: أنه بجانب هذه المذاهب الإسلامية ــ التى عاشت فى البلاد ــ عاشت إلى جوارها فى هذه البلاد أيضاً بعض المذاهب والديانات الأخرى التى ظهرت قبل الإسلام، فقد كان ببخارى وما وراء النهر، طائفة كبيرة من اليهود، وأخرى من النصارى قليلة، كما كان بها أصناف كثيرون من المجوس (٣٦).

وكانت هذه الحركة حركة شاملة، واسعة النطاق، أوكانت اتجاهاً عاماً لثقافة هذا الأقليم فى هذا العصر، ولا أدل على ذلك من هذه الحقيقة الواضحة، وهى أن الكتب التى كانت خلاصة هذه الحركة العلمية، والتى استطاعت أن تفرض نفسها على أهل الحديث ترجع جميعها إلى هذا العصر وهذا الأقليم (٣٧).. ولعلنا ندرك مدى شمولها وانتشارها حينما نعرف أن أصحاب الصحاح الستة البخارى ٢٥٦ هـ. ومسلم ٢٦١ هـ. والترمذى ٢٧٩ هـ. وأبوداود ٢٧٥ هـ. والنسائى ٣٠٣ هـ. وابن ماجة ٢٧٣ هـ. وسواهم من أئمة الحديث، كانوا جميعهم من أبناء هذه المنطقة ورجالاتها (٣٨).

وأما الحركة الثانية فيسميها بعض الدارسين بحركة أصول الصوفية الأولى وهذه الحركة نشأت فى «بلخ» وما حولها، فى أواخر القرن الثانى، وأوائل

ولكى تستكمل الخصائص الأساسية المميزة لهذا الأقليم يستحسن أن نعرض لهذه الحركات المذهبية الخاصة التى أنفرد بها دون بقية أجزاء الدولة الإسلامية.. وأولى هذه الحركات بالذكر والتى يقترن اسمها دائماً باسم «خراسان» وما وراء النهر: حركة «أهل الحديث». وتبدو هذه الحركة واضحة جلية

(٣٥) عبد المحسن الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٤٤.

(٣٦) المقدسى «أحسن التقاسيم» ص ٣٢٣.

(٣٧) الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٤٥.

(٣٨) الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» للترمذى، ص ٥ ط دار التراث العربى-مصر.

القرن الثالث. وهذه الحركة لم تكن قد تميزت بعد بلون خاص سوى هذه المحاولات الأولية لتأسيس مذهب صوفى، والتى تمثلها طائفة من صوفية فى القرن الثالث الهجرى، حيث ظهرت لتعمل نحو جمع الحديث واستخلاص الصحيح منه.
«بلخ» الذين نستطيع أن نذكر منهم: الفضيل بن عياض «١٨٧هـ» وإبراهيم ابن أدهم، وحاتم الأصم «٢٣٧هـ» الذين يعتبرون أعلام الصوفية المسلمين[٣٩].

وأما الحركة الثالثة التى امتاز بها أقليم «خراسان» فهى تتصل بعلم الكلام، ونستطيع أن نتبين فى هذه الحركة، لونين متباينين.. مذاهب الكلام المتصلة بالسياسة، ومذاهب الكلام التى تتصل بأهل الرأى[٤٠].

فقد ترعرعت فى هذا الأقليم فرق المتكلمين من شيعة، ومعتزلة، وخوارج، بما فيهم المرجئة، والجهمية[٤١] ولم تقصر المذاهب الفقهية عن القيام بدورها فى هذا الأقليم، فقد كان التعصب بين أتباع أبى حنيفة والشافعى عنيفاً إلى حد الاقتتال وازهاق الأرواح[٤٢].

هذه هى المذاهب الإسلامية التى تكون خصائص أقليم خراسان، والتى ظهرت فى العصر الإسلامى. ونستطيع أن نذكر إلى جوارها طائفة أخرى من المذاهب غير الإسلامية، كانت تعيش فى هذه المنطقة قبل الإسلام، وامتد بعضها إلى العصر الإسلامى، تلك هى مذاهب المانوية، والمجوسية، والبوذية. أما المجوسية فقد كانت الديانة الشائعة فيما يعرف بأرض ايران. وأما المانوية فقد كانت تقع فى الجزء الشمالى، مما يلى جبال ايران من ناحية الغرب، حيث كانت تنتشر فى بعض البلاد.. وأما البوذية فقد أتت من ناحية الهند.. سائرة نحو الشمال، فاتخذت لنفسها مركزاً فى ترمذ وبلخ[٤٣].

(٣٩) المصدر السابق ص٤٦.
(٤٠) المصدر السابق ص٤٧ بتصرف واختصار.
(٤١) الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» للترمذى ص٦ ط دار التراث العربى.
(٤٢) المصدر السابق ص٦.
(٤٣) الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص٤٨.

هذا الخليط من المذاهب الإسلامية وغير الإسلامية، فقد كانت مركز هذا الأقليم، والبؤرة التى تجتمع فيها كل هذه المذاهب والنحل والأجناس (٤٤).

«وترمذ» المدينة التى نشأ بها الترمذى نفسها قد كانت صورة واضحة من

ويقول الدكتور الجيوشى: «كانت خراسان: أحد المراكز الثقافية الهامة فى تلك المنطقة.. تتفاعل مع هذه التيارات، وتتأثر بها، وتشارك فى صنع جانب منها أحياناً، إلى جانب نظيراتها من مراكز الثقافة النشطة فى ذلك الأقليم، مثل بخارى وسمرقند وبلخ ونيسابور، وكان الصراع الفكرى- بين رجال المذاهب والفرق الإسلامية، من فقهاء ومحدثين ومتصوفة وعلماء كلام، حول بعض المفاهيم الإسلامية، وكيفية تطبيقها- على أشده، إلى جانب الصراع بين الإسلام كقوة دينية وثقافية واجتماعية، وبين بقايا الديانات القديمة ومواريث سكان البلاد الأصليين التى توارثوها عبر القرون الطويلة» (٤٥).

وكان أمراً طبيعياً أن تتصارع المذاهب والأفكار فى تلك الحقبة من عمر الدولة الإسلامية، لأنها كانت فترة النضج إلى جانب الاطلاع على الأفكار التى نقلت إلى ساحة الفكر العربى من خلال الترجمات التى شجعها المأمون وأنفق عليها الكثير، حتى لونت فكر المتكلمين والفلاسفة وانعكس أثرها على بعض المذاهب التى أحب أصحابها أن يطعموا بها الفكر العام، فى تلك الحقبة من الزمن.. وكان من أثر ذلك أن ظهرت حركات فكرية أخرى تحاول أن تصد هذا التيار اليونانى، الذى يريد دعاته أن يجعلوا منه روافد للفكر الإسلامى (٤٦).

فى ذلك الجو المشحون بالصراع الفكرى والاجتماعى، والمائج بالحركة الدائبة، والدراسات النشيطة، نشأ الحكيم الترمذى، وترعرع، وتلقى ثقافته ومعارفه.

---

(٤٤) المرجع السابق ص ٤٤.
(٤٥) الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» للترمذى ص ٥.
(٤٦) الدكتور الجيوشى مقدمة «معرفة الاسرار» للترمذى ص ٧ دار النهضة العربية.

نشأة الحكيم وثقافته

إن الباحث فى حياة الحكيم الترمذى العامرة بالعلم، يدرك أن طفولة الحكيم «لم تكن طفولة عادية، مليئة بلهو الأطفال، وعبثهم ولعبهم، إذ لا يتصور أن يتعود ذلك ثم يفطم عنه دفعة واحدة، دون أن يحدث رد فعل عنيف، قد يتسبب فى نفوره من شيخه، ومن درسه، وهذا خلاف ما حدث، مما يدل على أن هذه الطفولة كان فيها نوع من التهيئة النفسية والذهنية لفترة الدرس الجاد فيما بعدها» (١).

لقد فتح الحكيم عينيه على حلقات العلم والدرس منذ بدأ يعقل، لأن أباه كان أحد علماء الفقه ورواة الحديث، كما يبدو من حديثه عنه، وقد أخذ أبوه يغرس فيه حب العلم وتحصيل المعارف، ويحمله على ذلك حملاً فى وقت مبكر، حتى امتلأ وقته منذ الصبا الباكر بالإقبال على الدرس وتحصيل العلم، بفضل تشجيع والده، وحثه على الاستزادة منه، مدفوعاً بحرص الأب، ومسئولية المربى، حتى أصبح العكوف على الدرس أمراً مألوفاً للحكيم فى سنه الباكر الذى يقطعه أترابه فى اللهو واللعب (٢).

وقد كان أبوه أستاذه الأول ــ ولعله استغنى بذلك عن التردد على الشيوخ فى صباه الأول ــ ويفهم مما كتبه الحكيم عن تعليمه فى هذه السن المبكرة أن أباه كان يدرس له علم الرأى والآثار، أوبعبارة أخرى علم الحديث والفقه، فقد كان أبوه محدثاً، ويروى الحكيم عنه فى كتبه جميعها (٣).

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٤٤.
(٢) الدكتور الجيوشى مقدمة كتاب «المسائل المكنونة» للترمذى ص٩.
(٣) المصدر السابق ص٩.

وهذا كله يجمله الحكيم في عبارة موجزة بقوله: «كان بدو شأني أن الله تبارك اسمه قيض لي شيخي – رحمة الله عليه - من لدن بلغت من السن ثمانياً، يحملني على تعلم العلم، ويعلمني ويحثني عليه، ويدئب ذلك في المنشط والمكره، حتى صار ذلك لي عادة وعوضاً عن اللعب في وقت صباى، فجمع لي في حداثتي علم الآثار وعلم الرأى» (٤).

ولا شك أن شيخ الحكيم – سواء كان والده أو غيره – قد وفق أيما توفيق في أن يجعل الحكيم على معرفة بعلمين من أهل العلوم الإسلامية، وهما علم الحديث، وعلم الفقه. ولا حاجة بنا لنكد الذهن، ونزداد في التفكير لمعرفة هذا الشيخ الذى ذكره الحكيم بأنه كان شيخاً له. طالما أن المصادر وكتب الطبقات والتراجم لم تبين لنا ذلك، ويكفى أن الله تبارك اسمه قيض له شيخاً.

ولا ندرى على وجه التحديد إلى أى مدى استمر هذا الشيخ يعلمه، ولا ندرى إذا كان هناك من الشيوخ الآخرين من تتلمذ عليه الحكيم في صباه، وفي صدر شبابه غير شيخه الذى ذكره – سواء كان والده أو غيره – لأن المصادر التى بأيدينا قد سكتت عن الحديث عن هذه الفترة من حياة الحكيم الترمذى (٥).

وإن كان مما لا شك فيه أن هناك من شيوخ الترمذى وأساتذته من قام بتعليمه إلى جانب والده أوشيخه، فكان يتردد على شيوخ ترمذ الآخرين ويأخذ عنهم، كما يأخذ لداته ونظراؤه. إلا أنه لم يذكر لنا واحداً منهم. ولعل مرد ذلك إلى أنه كان يرى أن ما تلقاه على أيديهم لم يخرج في نطاقه عما تلقاه على يد شيخه (٦).

والتاريخ لم يحدثنا متى توفى والده، وان كان من المؤكد أنه قام بالنصيب الأكبر في تثقيفه وتوجيهه في الفترة الأولى من حياته، ويؤخذ من كثرة روايته

---

(٤) الدكتور عثمان إسماعيل يحيى «بدو شأن أبى عبد الله» داخل كتاب «ختم الأولياء» ص ١٤ فقرة ١ ط بيروت.

(٥) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ١٦ ط دار النهضة العربية.

(٦) الدكتور الجيوشى مقدمة كتاب «منازل العباد من العبادة» ص ١٠.

عن أبيه في كتبه، أن أباه لم يمت إلا بعد أن بلغ سن الشباب، وحصل كثيراً من مسائل العلم(٧)، وليس صحيحاً أنه مات وهو صغير- كما يروى فريد الدين العطار في تذكرة الأولياء(٨).

وقد كان لتوجيه والد الحكيم له منذ الصبا الباكر أثر بالغ في تعلق الحكيم بالمعرفة وطلبها، والرغبة في الاستزادة من العلم، والاستعداد للرحلة من أجل ذلك، كما كانت العادة جارية بذلك في زمانه بالنسبة للطلاب الذين لم يعرفوا حدوداً تفصل بين بلد وآخر، والعلم لا وطن له، والرحلة في طلبه أمر لابد منه للمجتمع، حتى يتسنى للعلماء اكتساب الفوائد والكمال، ومباشرة التلقين والمحاكاة من الفطاحل الأعلام.

وإذا نظرنا إلى العلماء المسلمين في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، نجد أنهم لم يثنوا عزمهم، ولم يدخروا جهدهم، في سبيل القيام بهذا العمل الجليل.. فقد أولع أكثرهم بالرحلة من بلد إلى بلد، ابتغاء العلم وتحصيله، وحرصاً منهم على اقتناص شوارده، وتقص مسائله، وتتبع أطواره، وأحواله، ومعرفة كل ما يتصل بأئمته ورجاله. فجابوا الأقطار، وقطعوا الصحارى والقفار، ولم تعي هممهم بتحمل وعثاء السفر، ومشقات الرحيل، ولم يقعد بهم عن المضى إلى غاياتهم شظف من العيش وقلة من المال، مهما بعدت المسافات وطال زمن الاغتراب.

وقد روى المؤرخون كثيراً من أنباء تلك الرحلات التى قام بها طلاب العلم والعلماء، فقلما نجد عالماً منهم إلا له أكثر من هجرة، إلى أكثر من بلد فى أقطار مختلفة.

ورجال الحديث كانوا يرحلون إلى الأمصار المختلفة حتى يقيدوا الأحاديث بأسانيدها ورواياتها.. وهؤلاء المحدثون كانوا من أنشط الناس للهجرات، ومن أقدرهم وأصبرهم على تحمل عناء الارتحال، ووعثاء السفر.. وكان لابد لهم

(٧) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص١٦ ط دار النهضة العربية.

(٨) فريد الدين العطار «تذكرة الأولياء» جـ٢ ص٩٠ تحقيق نيكلسون نقلاً من كتاب الرياضة وأدب النفس للمستشرق آربرى والدكتور على حسن عبدالقادر ص٧.

من ذلك في سبيل طلب الحديث وتدوينه وتحقيق رواياته، والتأكد من صحته وإسناده، لأن رواته من الصحابة كانوا قد تفرقوا في الأمصار بعد الفتح، وقد أخذ الحديث عن هؤلاء الصحابة ـ المنبثين في البلاد ـ وطبقات التابعين ومن بعدهم، فكان على ألسنة المحدثين في كل مصر وبلد أحاديث، قد لا يتأتى لمحدثي الأمصار الأخرى معرفتها، لأنهم لم يقفوا عليها، ولم يسمعوا بها.

ومما سجله الأستاذ أحمد أمين في صحائف التقدير لهؤلاء العلماء قوله: «ترى العالم في المشرق» فإذا هو في الأندلس، وفيما هو في الأندلس إذا هو في العراق، وفيما هو في العراق إذا هو بمصر والشام.. لا يعوقهم فقر، ولا يفت في عزمهم صعوبة الطريق وأخطاره، سواء عليهم الصحراء وحرها، والبحار وأمواجها. إذ تغلغل في نفوسهم اعتقاد: أن طلب العلم جهاد، فمن مات في سبيله مات شهيداً. هذا إلى أن العلم عند كثير منهم أصبح مقصداً لا وسيلة، يقصد لذاته، ويرغب فيه للذاته (٩).

وحسب المفكر والباحث أن ينظر عبر التاريخ، ويستطلع سير الأعلام من العلماء «ليدرك إلى أي مدى كان طلاب العلم يرون الرحلة لهذا الهدف النبيل أمراً لازماً، وفرضاً لا بد من القيام به» (١٠).

لهذا اتفق الترمذي مع اثنين من أصدقاء العلم على القيام برحلة علمية يلقون خلالها شيوخ الحديث، وأهل المعرفة في مختلف الأمصار، ويتلقون عنهم العلوم، ويأخذون عنهم.. غير أن هذه المرحلة لم تتم بالنسبة إلى الحكيم فقد طلبت إليه أمه أن يبقى بجانبها يرعاها، ويقوم على شئونها، لأنه ليس هناك من يقوم بهذا الواجب سواه.. ويبدو أن والده كان قد توفي، كما أن المصادر المطلعة لا تشير إلى وجود أخوة له.. ولعل ذلك كان السبب الأكبر في تعلق أمه به، وحرصها على أن يكون معها في وحدتها ومرضها.

وما كان الحكيم البار بأمه أن يتخلى عنها في ذلك الوقت الذي تحتاج فيه

---

(٩) الأستاذ أحمد أمين «ظهر الإسلام» جـ٢ ص٤٠ ط بيروت.
(١٠) الدكتور الجيوشي «مقدمة المسائل المكنونة» ص١٠.

إلى من يرعاها، وإن كانت الرحلة المرتجاة، تملأ كل أحاسيسه، والشوق الجارف إلى التزود من المعرفة يشغل أيامه ولياليه، فانطلق صاحباه، وظل هو يبكى ضياع وقته، وإفلات الفرصة السانحة (١١).

وقد رسم الشاعر الفارسى فريد الدين العطار، صورة معبرة عن المشاعر المتضاربة التى اجتاحت كيان الحكيم، وتصارعت فى داخله، فيقول: «ذلك أنه كان قد عقد النية فى أول أمره على الرحلة لطلب العلم فى رفقة اثنين من إخوانه، وفى أثناء ذلك مرضت أمه، وقالت له: يا بنى إنى امرأة ضعيفة، لا عائل لى، ولا معين يعيننى، وانك المتولى لأمرى، فالى من تكلنى وتذهب؟ فنالت هذه الكلمات من نفسه، وعدل عن الرحلة، ومضى زميلاه فى سبيلهما. ثم مضى على ذلك بعض الوقت.. فبينما كان فى إحدى المقابر يبكى بكاء شديداً، ويقول: «ها أنذا قد بقيت جاهلاً مهملاً، وسيرجع أصحابى، وقد حصلوا على العلم» إذ به يرى أمامه فجأة، شيخاً مشرق الوجه. فسأله الشيخ عن سر بكائه، فأفضى إليه بحاله.. فقال له الشيخ: ألا أعلمك فى كل يوم شيئاً من العلم، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك.. فأجابه إلى ذلك. واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم، ومضت على ذلك أعوام.. ثم عرف بعد ذلك أن الشيخ هو الخضر عليه السلام، وأنه إنما حصل على هذا ببركة دعاء أمه (١٢)، وأضاف العطار إلى ذلك راوياً عن أبى بكر الوراق: «أن الخضر كان يأتيه ليعلمه كل يوم أحد، حيث كانا يتذاكران العلم، ويتجاذبان الحديث» (١٣).

---

(١١) الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» ص١٠ ومقدمة «منازل العباد» ص١٠ وكتاب «الحكيم الترمذى» ص١٧.

(١٢) تذكرة الأولياء ط نيكلسون جـ٢ ص٩١ــ٩٢ نقلاً من كتاب الحكيم الترمذى للدكتور الجيوشى ص١٧، ١٨. ونقلاً من كتاب الرياضة وأدب النفس ص٨.

(١٣) الدكتور آربرى وعلى حسن «كتاب الرياضة وأدب النفس». ص٨ وأبوبكر الوراق هو أبوبكر محمد بن عمر الحكيم الوراق الترمذى البلخى «القشيرى فى الرسالة» ص٣٦ وأبا نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء جـ١٠ ص١٣٧.

ويقول الترمذى : « وهكذا علمنى درساً كل يوم حتى انقضت ثلاث سنوات » (١٤) .

ويذكر الدكتور الجيوشى فى مقدمة تحقيقه لكتاب الترمذى « منازل العباد من العبادة أومنازل القاصدين إلى الله » : أنه وجد فى كتاب « الأدعية والطلسمات » المنسوب للترمذى : أن نوبات الحزن والبكاء كانت تهيج بالترمذى كلما تذكر الفرصة التى ضاعت منه ، ومخطوط الأدعية والطلسمات يصور نوبة من هذه النوبات التى كانت تنتاب الحكيم من حين لآخر. فقد جاء فيه : « فى يوم من أيام الجمع بينما كان الحكيم فى المسجد إذ تذكر الفرصة التى أفلتت منه بذهاب صاحبيه إلى العراق لطلب العلم ، وعدم تمكنه من صحبتها ، بعد اتفاقهم على ذلك ، وكان سبب تخلفه مرض أمه وعدم إذنها له بالسفر، فلما تذكر الحكيم ذلك غلبه النحيب والبكاء، فاجتمع المصلون من حوله يسألونه عن السبب ، وهو لا يستطيع أن يجيب لشدة ما غلبه من البكاء، حتى ظن بعضهم أنه يبكى لفقدان أمه، وظن الآخرون أنه ألم به مرض شديد لا يستطيع تحمل آلامه.. وذهب آخرون أن به طائفاً من الجنون ، جعله يبكى بدون سبب ، ولم يحر الحكيم جواباً، بل أخذ طريقه إلى خارج المسجد متجهاً إلى المقابر بالقرب منه ، وهناك سقط فاقد الوعى لما به من الألم، ولم يكد يفيق حتى وجد رأسه فى حجر شيخ وقور، يشع النور من وجهه ولحيته البيضاء، فنهض مسرعاً وحياه بأدب واحترام.. وأقبل الشيخ على الحكيم يسأله: هل تعرف من أنا؟ وأجاب الفتى: فليقل الشيخ.. إنى أنا أخوك الخضر جئت إليك بأمر من الله، وأحضرت معى كتاباً إذا التزمت مما فيه من وصايا وتعليم، فستصل إلى ما تريد وتتحقق لك أغراضك بتوفيق الله . وأدخل الشيخ يده فى جيبه وأخرج الكتاب ، ثم بين الشيخ للحكيم كيف يأخذ نفسه بتعاليم الكتاب ، وكيف ينظم حياته مع الناس ، ثم أجازه ودعا له » (١٥) .

---

(١٤) ص ٢٤٤

(١٥) نقلاً من مقدمة « منازل العباد من العبادة » للترمذى ص ١١ ومخطوط « الأدعية والطلسمات » وهو باللغة الفارسية وموجود بمكتبة أيا صوفيا تحت رقم ٨١٤ ومشكوك فى نسبته للترمذى ويبدو من عبارات المخطوط أن أحد المعاصرين للترمذى قد كتبه « الدكتور الجيوشى » .

وقد نستفيد من النص الذى ورد عن فريد الدين العطار، والنص الذى جاء فى مخطوط «الأدعية والطلسمات» مدى ما كان يختلج فى صدر الحكيم من الرغبة الملحة فى طلب العلم، حتى هيأ الله له من يعوضه ما فاته من أمر السفر، ويفتح له بسبب ذلك من فيوض الله وخزائن علمه التى لا تنفد.

ولكن هل كف الترمذى الحكيم عن التفكير فى مثل هذه الرحلة؟ وهل قنع بما نال من المعرفة عن طريق ما كشف له؟ يبدو أن الحكيم يرقب الفرصة حتى سنحت له، وما أن تهيأت له حتى أزمع الخروج إلى مكة، يحج إلى بيت الله الحرام، وكانت سنه إذ ذاك سبعاً وعشرون سنة. ويبدون أن ذلك كان بعد وفاة أمه.. ولئن كانت الرحلة مقصدها الأول هو الحج، فلا بأس من أن تغتنم لتحصيل ما لم يمكن تحصيله من قبل، ففى طريقه إلى البيت المحرم، مر بالعراق ليأخذ عن علمائه، وهناك عرج على الكوفة والبصرة يأخذ عن شيوخها، وبقى بها إلى شهر رجب من نفس العام، ثم شد رحاله إلى مكة وحل بها فى منتصف الشهر التالى، وظل مجاوراً للبيت المحرم ملتزماً لرحابه حتى حان وقت الحج، وكان يقضى أوقاته فى تلك الرحاب المقدسة فى العبادة والتضرع والدعاء إلى الله، وكان يكثر ويلح فى أوقات السحر من الليل عند باب الملتزم، ويبدو أنه داوم على ذلك خلال الأشهر الخمسة التى قضاها فى جوار البيت العتيق حتى ظفر بتوفيق الله له إلى تصحيح التوبة والخروج مما جل ودق، وأداء فريضة الحج، بعد هذا التمحيص الذى استمر خمسة أشهر متواصلة، انصهرت فيها نفسه، وأرهفت مشاعره، وانتعشت نوازع الخير فى داخله، واتصل قلبه بنور الله حتى أبصر طريقه (١٦).

وفى رسالة «بدو شأن أبى عبد الله» التى حققها الدكتور عثمان إسماعيل يحيى، يقول الحكيم عن هذه الرحلة: «حتى إذا قارب سنى سبعاً وعشرين أو نحوه، وقع على حرص الخروج إلى بيت الله الحرام، فتهيأ لى الخروج، فوقفت بالعراق طالباً للحديث، وخرجت إلى البصرة، فخرجت منها إلى مكة

(١٦) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» ص ١١، ١٢.

فى رجب ، فقدمت مكة فى بقية شعبان ، فرزق الله المقام بها إلى وقت الحج [١٧] .

والمتأمل فى هذا النص الذى تحدث فيه الترمذى عن رحلته يلاحظ أن الحكيم ذكر أنه مر بالعراق فى طريقه إلى مكة ، ويبدو أنه ذهب إلى بغداد ولم يقم طويلاً . وبالتالى لم يأخذ عن علماء بغداد كثيراً ، مما يجعل علماء بغداد شيوخاً له ، ويبدو ذلك واضحاً من تتبع ألقاب شيوخه من المحدثين ، فهم إما كوفيون أوبصريون ، وان كان لم ينص صراحة إلا على الذهاب إلى البصرة .

وقد كانت رحلته إلى مكة فتحاً جديداً فى طريق الوصول ، فقد حصل القسط الوافى من ألوان العلوم والمعارف الأخرى التى كانت سائدة فى عصره كالفقه ، والحديث ، والتفسير ، وعلم الكلام ، ورأى أنه بحاجة إلى القرآن الكريم الينبوع الذى لا ينضب له معين ، فسأل الله سبحانه وتعالى عند «الملتزم» وهو يطوف حول البيت أن يرزقه حفظ كتابه ، ويقول : «فرجعت وقد ألقى على حفظ القرآن فى طريقى ، فأخذت صدراً منه فى الطريق ، فلما وصلت إلى الوطن يسـر الله على ذلك بمنه حتى فرغت منه ، فأقامنى ذلك بالليل فكنت لا أمل من قراءته ، حتى أنه كان ليقيمنى ذلك إلى الصباح ووجدت حلاوته » [١٨] .

ولا شك أن إتقان الحكيم الترمذى للقرآن الكريم بعد إتقان علم الآثار وعلم الرأى . « كان ذا أثر بعيد فى اتجاهاته الفكرية وآرائه التى بسطها فى كتبه المختلفة ، مما يشعر بثقافته الواسعة ، ومعرفته العميقة بالقرآن الكريم وأسراره ، والسنة النبوية ومناهجها ، وانعكس ذلك انعكاساً واضحاً على كل ما كتبه ، بحيث لا تكاد تجد صفحة واحدة من كتبه إلا ويستشهد على ما يورده فيها من آراء بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية التى كان محصوله منها وفيراً » [١٩] .

---

(١٧) راجع الدكتور عثمان يحيى « بدو شأن أبى عبد الله » ص ١٤ ط بيروت .
(١٨) المصدر السابق ص ١٥ الفقرة الثانية .
(١٩) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة « معرفة الأسرار » ص ١١ .

وإذا كنا قد عرفنا أن والد الحكيم كان أحد علماء مدينة ترمذ ومحدثيها، وأن أمه كانت ذات معرفة بالحديث، وان لذلك الأبوين الكريمين، ما بدا واضحاً من اهتمام الحكيم بالعلم والمعرفة.. فان حياته الأسرية يبدو أنها كانت حياة موفقة، والبيوت التى تمتلىء قلوب أفرادها بالمعرفة والقرآن الكريم والسنة النبوية، ترفرف عليها آيات السعادة والأمن، وقد تحدث الترمذى الحكيم عن زوجته حديثاً طيباً، يشعر الباحث أنه كانت لها بعض التجارب الروحية، وكانت تشارك زوجها فى طريق الرياضة «والمعتقد أنها كانت على قدر لا بأس به من الصفاء الروحى، والسعى الحثيث فى الوصول إلى الله، وكان الحكيم رب أسرة كبيرة، فقد ذكر فى بعض رسائله أنه بلغ من العمر خمساً وستين، وأن له خمسة من البنين» (٢٠). وذكر لنا فريد الدين العطار: أن أبا عبد الله تزوج وأنجب أولاداً» (٢١). وأنه كان عنده خادمة ترعى أطفاله، وتقوم على شئونهم، مما لا يتهيأ الا لأهل الغنى واليسار (٢٢).

ومما يسترعى الانتباه فى حياة الحكيم الثقافية: أن الهجويرى صاحب كتاب «كشف المحجوب» يذكر «أن الحكيم قد قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب أبى حنيفة» (٢٣).. والباحث فى هذا الموضوع يجد أن المستشرق «نقولاً هير» (٢٤) يستبعد ذلك نظراً إلى أن أبا حنيفة توفى سنة خمسين ومائة للهجرة، ويوافق على هذا الاستبعاد الدكتور عبد الفتاح بركة ويقول: «ونحن نوافقه على ذلك، وان كان ابن عربى يذكر فى فتوحاته المكية أن الترمذى كان حنفى المذهب فى الأصل، قبل أن يعرف الشرع من الشارع، لكن على

---

(٢٠) الدكتور الجيوشى مقدمة «معرفة الأسرار» ص ١٥.

(٢١) نقلاً من كتاب «الرياضة وأدب النفس» المقدمة للدكتور آربرى وعلى حسن عبد القادر ص ١٠.

(٢٢) الدكتور الجيوشى مقدمة «معرفة الأسرار» ص ١٥.

(٢٣) الهجويرى «كشف المحجوب» تحقيق الدكتورة اسعاد عبد الهادى جـ ١ ص ٣٥٣ ط المجلس الأعلى بالقاهرة.

(٢٤) الدكتور نقولا هير مقدمة «بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص ٧ ط الحلبى ١٩٥٨.

فرض ما رجحناه من تاريخ ميلاد الترمذى، وأنه بدأ يدرس عام ثلاثة عشر ومائتين للهجرة، فانه ينبغى أن يكون هذا الشيخ (٢٥) قد جاوز حينئذ الخامسة والسبعين حتى يتهيأ له أن يكون قد درس على أبى حنيفة، ويدرس للترمذى بعد ذلك، وهذا فى غاية البعد» (٢٦).

واننى أرى أن البحث يهدى إلى أن ما ذكره الهجويرى يتفق مع الحقيقة العلمية. لأن الهجويرى من علماء القرن الرابع والخامس الهجرى، وكان كثير الرحلات فى التقصى فجاب الأقطار، وكان من اتباع الحكيم الترمذى، فإذا ما قال فقولته تحتاج منا إلى انعام نظر، وتدقيق فى العبارة، وتحليل للكلمات، وقد يراد من العبارة أن الحكيم «قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب مذهب أبى حنيفة» ويؤيد هذا ويدعمه ما ذكره ابن عربى (٢٧) من أن الحكيم كان حنفى المذهب فى الأصل، وابن عربى حجة فيما يقول، لأنه اطلع على مؤلفات الحكيم وكان بها خبيراً.

ويقف بجانب كل هذا أن منطقة خراسان كانت فى الفقه على مذهب أبى حنيفة، حتى يكاد يعم رقعتها، ويبلغ أطرافها، وكان يلاحقه مذهب الشافعى، يحاول أن يدركه فى أدنى بلاد الأقليم، ويكاد يقطع عليه طريقه فى بعض الأطراف العليا الشمالية وان نجح فى أن يعيش معه جنباً إلى جنب فى كثير من بلاد الوسط، وان تكن هذه الحياة سلسلة من التعصب والمغالبة (٢٨).

ولقد وصف المقدسى تفاصيل ذلك إذ يقول فى وصف «خراسان»: «والغلبة فى الأقليم لأصحاب أبى حنيفة» (٢٩).

وإذا كان السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى يعد الحكيم بين علماء

---

(٢٥) يلاحظ أن الدكتور عبد الفتاح نقل كلمة «الشيخ» عن المستشرق نقولا هير. لكن الكلمة وردت فى الترجمة العربية الصحيحة «على واحد من خواص أبى حنيفة» الهجويرى.

(٢٦) الدكتور عبد الفتاح بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٣٧.

(٢٧) ابن عربى «الفتوحات المكية» جـ٢ ص١١٤.

(٢٨) راجع الحسينى «المعرفة عند الحكيم» ص٤٢.

(٢٩) راجع المقدسى «أحسن التقاسيم» ص٣٢٣.

الشافعية، ويترجم له (٣٠).. فان ذلك راجع إلى مكانة الحكيم الفقهية، ويبدو أنه اهتم بفقه أبي حنيفة وفقه الشافعي، مما يسره لأن يكون من أهل الفتوى، وكانت الرسائل ترد اليه من شتى الأقليم، تطلب الفتوى فى شتى مسائل الحقيقة والشريعة. فجاء السبكى واطلع على مكانة الحكيم الفقهية فعده من الشافعية.

ومؤلفات الترمذى وان كانت لا تظهره فى ثوب الفقيه، فانها تقدم دليلاً واضحاً على إلمامه بكل فروع الفقه ومسائله فى أكثر مذاهبه.. فالترمذى فى مؤلفاته يناقش كثيراً من مسائل الأصول، كما يناقش طائفة من الأشباه والنظائر، والحيل والمخارج، وبقية علوم الفقه، ثم هو يعرض بعد ذلك فى مؤلفاته لأكثر أبواب الفقه، فيتكلم فى الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم.. أما تاريخ الفقه وتاريخ رجاله وتاريخ مذاهبه، والخصائص الأساسية المميزة لكل مذهب وفقيه، فقد كانت واضحة فى عقله وثقافته (٣١).

فالترمذى غزير المادة، واسع الثقافة، لم نشهد مثل ذلك عند غيره من مؤلفى عصره، لأن ثقافته تمتد إلى جميع فروع المعرفة فى عصره.. وثقافة الترمذى الأولى التى تطالعنا بين ثنايا مؤلفاته هى ثقافة المحدث الذى اتصل بجميع فروع الحديث. وإنا وان كنا لا نراه حريصاً على أن ينصرف إلى جمع الحديث على عادة المحدثين فى عصره، بل يقنع من ذلك بالاختيار فحسب. الا أننا نرى أنه فى اختياره للأحاديث تلك النزعة التى كانت تسيطر على هؤلاء الذين انصرفوا إلى جمع الصحاح أو السنن (٣٢).

فقد كان حريصاً كذلك على أن يقدم لنا طائفة من الأحاديث تضبط أعمال الفرد والجماعة فى الاعتقاد والعبادة والمعاملات، كما تتصل بمكارم الأخلاق الزهد (٣٣).

---

(٣٠) راجع السبكى «طبقات الشافعية» جـ٢ ص٢٤٥.
(٣١) راجع الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص٢٩.
(٣٢) راجع الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص٢٨.
(٣٣) راجع المصدر السابق ص٢٨ بتصرف.

وامتدت ثقافة الترمذى كذلك إلى التصوف، فهى تشهد بأنه اتصل بالصوفية وأخذ عنهم، وكتب لهم وعلى طريقتهم، وكان يقدم ما يضبط أعمال القلوب، واخضاع أعمال الجوارح لها، ويعمل على تنمية الجانب الروحى من الفرد والمجتمع.

شيوخ الحكيم وأساتذته

لا خفاء أن القارىء لمؤلفات الترمذى، يلاحظ أنه لم يتحدث عن شيوخ له، تعلم منهم، وأخذ عليهم. إلا من أشار إليه فى رسالته: «بدو وشأن أبى عبد الله» من قوله: «كان بدو شأنى أن الله ــ تبارك اسمه ــ قيض لى شيخى رحمة الله عليه، من لدن بلغت من السن ثمانيا يحملنى على تعلم العلم ويعلمنى ويحثنى عليه ويدأب ذلك فى المنشط والمكره.. فجمع لى فى حداثتى علم الآثار وعلم الرأى» (١).

وسواء كان هذا الشيخ والده أوغيره، فهو شيخ لا شك فى مشيخته، وقد تتلمذ عليه الحكيم وظل ملازما له، مستفيدا من علمه، حتى وصل الحكيم إلى الجمع بين علم الفقه، وعلم الحديث.

وحين تهيأ الترمذى للخروج لأداء فريضة الحج، وقف بالعراق طلبا للحديث، ولم يذكر لنا أسماء الشيوخ الذين التقى بهم فى بغداد والبصرة والكوفة، وأخذ عنهم، لكن كتب الرجال والطبقات ذكرت لنا بعض من أخذ عنهم. فالسبكى فى طبقاته يذكر: أنه درس الحديث على جماعة من خراسان والعراق، فذكر أباه، وقتيبة بن سعيد، وصالح بن عبد الله الترمذى، وصالح بن محمد الترمذى، وعلى بن حجر السعدى، ويعقوب الدورقى، وسفيان بن وكيع (٢).

---

(١) راجع الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» تحقيق الدكتور عثمان يحيى ص١٤. ضمن كتاب ختم الأولياء.

(٢) السبكى «طبقات الشافعية الكبرى» جـ٢ ص٢٤٥.

وذكر الذهبى ما يماثل ذلك عن شيوخه، وزاد: الحسن بن عمر بن شقيق، ويحيى بن موسى، وعتبه بن عبد الله المروزى، وعباد بن يعقوب الرواجينى (٣).

وابن حجر العسقلانى فى كتابه «لسان الميزان»: يذكر من شيوخه من غير ما ورد عند السبكى والذهبى ــ أبى عبيد، وابن أبى السفر، وعلى بن خشرم، ومحمد بن على الشقيقى (٤).

ولا يخفى على الباحث أن السبكى بعد أن ذكر أسماء الشيوخ التى أخذ عنها الحكيم الحديث فى خراسان والعراق قال: «وغيرهم» (٥).. والذهبى قال: «وطبقتهم» (٦).. وابن حجر قال: «وآخرين».. «وقد لقى الأئمة الكبار وأخذ عنهم وفى شيوخه كثرة» (٧)،

وهذا يعطينا أن الحكيم الترمذى قد تلقى الحديث على كثيرين من رجاله ومعرفة هؤلاء الرجال تحتاج إلى جهد بالغ، ومشقة فى البحث، نظرا لكثرة مؤلفات الترمذى المخطوطة، وقد هيأ الله للدكتور الجيوشى القيام بهذا العمل فأعطانا ثمانية وستين ومائة من أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم الحكيم.

ويقول الدكتور الجيوشى فى هذا: «ولو أردنا أن نحصر أسماء شيوخ الترمذى وخاصة من المحدثين، فما علينا إلا أن نقوم بعملية مسح لمؤلفاته، ونستعرض سلاسل الاسناد وتأخذ المحدث الأخير الذى تلقى عنه الحكيم مباشرة. وقد قمت بهذا فعلا مدفوعا بحب الاستطلاع، ومحاولة معرفة درجة شيوخ الحكيم من المحدثين، وما يتمتعون به من ثقة عند علماء الرجال، فكانت قائمة الأسماء هى نتيجة هذه السياحة الشاقة فى مؤلفات الترمذى وأغلبها مخطوطات تقارب

---

(٣) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ٢ ص٦٤٥.
(٤) ابن حجر «لسان الميزان» جـ٥ ص٣٠٨.
(٥) السبكى «طبقات الشافعية الكبرى» جـ٢ ص٢٤٥.
(٦) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ٢ ص٦٤٥.
(٧) ابن حجر «لسان الميزان» جـ٥ ص٣٠٨.

الستين بين رسالة وكتاب، وأغلب شيوخه من المحدثين المقبولين لدى علماء الحديث »(٨).

وهذا العمل الذى قام به فضيلة الدكتور الجيوشى من الأعمال العلمية التى أضافت إلى العلم ما يمكن الانطلاق منه إلى المزيد. ولا يخفى أن البحث قد يكشف عن معرفة شيوخ آخرين للترمذى.. واننا نجد أنه من المستحسن أن نذكر بعض الأسماء البارزة لشيوخه وأساتذته. ومن هؤلاء: على بن الحسن الترمذى والده وقد أورد ذكره أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ فى كتابه «تاريخ بغداد» على أنه: على بن الحسن بن بشير بن هارون الترمذى، وأنه حدث ببغداد عن شداد بن حكيم، وصالح بن عبد الله الترمذى، وأنه قد روى عنه محمد بن مخلد(٩).

ومن هؤلاء قتيبة بن سعيد الثقفى البلخى، وقد ورد ذكره فى «تاريخ بغداد»(١٠) ويؤخذ منه أنه كان يطلب علم الرأى، ثم وجه إلى تحصيل الأثر، فبدأ بالرحلة منذ كان شابا، ورحل إلى العراق، والمدينة، ومكة، والشام، ومصر، وسمع مالك بن أنس، والليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة، وبكر بن مضر، ويعقوب بن عبد الرحمن، وحماد بن زيد، وأبا عوانة، واسماعيل بن جعفر، وعبد الواحد بن زياد، وسفيان بن عيينة.

وروى عنه أحمد بن حنبل وأبو حيثمة زهير بن حرب، وأبو بكر بن أبى شيبة، والحسن بن محمد بن صباح الزعفرانى، والحسن بن عرفة، ويوسف بن موسى، وأبو داود السجستانى، وجعفر بن محمد بن شاكر الصائغ، وابراهيم الحربى، وموسى بن هارون، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، والبخارى ومسلم فى صحيحيهما، وخلق سوى هؤلاء. وكان حسن الخلق، واسع الرحل، غنيا من ألوان الأموال، من الدواب والابل والبقر والغنم، وكان كثير الحديث،

---

(٨) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٩ـ٥٢.

(٩) البغدادى «تاريخ بغداد» الجزء ١١ ص٣٧٣ ط القاهرة، وراجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ٢ ص٣٨.

(١٠) المصدر السابق الجزء ١٢ ص٢٦٤.

كما كان ثبتا فيما يرويه، صاحب سنة وجماعة، ذكره أحمد بن حنبل فأثنى عليه، وسئل عنه يحيى بن معين فقال: ثقة، وقال عنه قتيبة بن سعيد البقلانى: ثقة مأمون. وقال عنه عبد الرحمن بن يوسف بن خراش: قتيبة بن سعيد: صدوق.. ولد فى نحو خمسين ومائة للهجرة، وتوفى عن نحو تسعين عاما فى سنة أربعين ومائتين بقرية من «رستاق» بلخ تدعى بغلان كان قد أقام بها (١١).

ومن هؤلاء الرجال: صالح بن عبد الله الترمذى، وقد جاء ذكره فى «تاريخ بغداد» وفى «لسان الميزان» (١٢)، وقد سكن بغداد، وحدث بها عن مالك بن أنس، وحماد بن يحيى الأبح، وعبد الوارث بن سعيد، وعبثر بن القاسم، وشريك بن عبد الله، وجعفر بن سليمان، وفرج بن فضالة، وعمر بن هارون البلخى وغيرهم، وروى عنه عبد الله بن أحمد بن حنبل، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان وغيرهم.. قال أبو حاتم: هو صدوق. وقال ابن حبان فى تاريخ الثقات: صالح بن عبد الله الترمذى صاحب سنة وفضل (١٣).

ومن هؤلاء الحسن بن عمر بن شقيق البلخى، قال عنه صاحب «تاريخ بغداد» (١٤) أنه كان يتجر إلى بلخ، فعرف بالبلخى، قدم بغداد، وحدث بها عن أبيه وعن عبد الوارث بن سعيد، وجعفر بن سليمان، وغيرهم، كما روى عنه عبد الله بن أحمد بن حنبل، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، وموسى بن اسحاق الأنصارى، والحسن بن الطيب الشجاعى. وقال ابن أبى حاتم: سئل أبو زرعة عنه فقال: «لا بأس به» وسئل أبى عنه فقال: «صدوق». وقال محمد بن اسماعيل البخارى: الحسن — يعنى عمر بن شقيق: «صدوق» كما قال على بن محمد الحبيبى — بمرو — سألت أبا على صالح بن محمد جزرة

(١١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٣٩.
(١٢) البغدادى «تاريخ بغداد» جـ١ ص٣١٥ وابن حجر «لسان الميزان» جـ٣ ص١٧٦.
(١٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ١ ص٣٩.
(١٤) البغدادى «تاريخ بغداد» جـ٢ ص١٧٣.

الحافظ عن الحسن بن عمر بن شقيق فقال: «شيخ صدوق». ويقال أنه مات سنة ثلاثين ومائتين(15).

ومن هؤلاء: يعقوب بن شيبة بن الصلت، وهو يعقوب بن شيبة بن الصلت بن عصفور، أبو يوسف السدوسى، من أهل البصرة، ورد ذكره فى تذكرة الحفاظ وتاريخ بغداد(16)، كان من فقهاء البغداديين على قول مالك، وكان من ذوى السرو، كثير الرواية والتصنيف.. سمع على بن عاصم، وزيد بن هارون، وروح بن عبادة، وعنان بن مسلم، ويعلى بن عبيد، ومعلى بن منصور، ومحمد بن عبد الله الأنصارى، وأبا النصر هاشم بن القاسم، وأسود بن عامر، وأبا نعيم، وقبيصة بن عتبة، ويحيى بن أبى بكر، وكثيرا من أمثالهم، وكان ثقة، وصنف مسندا معللا لم يتممه(17).

ولو ذهبنا نستقصى شيوخه من رسائله، بهذه الكيفية لاتسع الأمر، ولوجدنا مصداق ما ذكره ابن حجر فى لسان الميزان، نقلا عن ابن النجار فى ذيله على تاريخ بغداد: من أن فى شيوخه كثرة إلا أنه يكفى ما ذكرناه منهم لمعرفة البحر الذى كان يستقى منه نشاطه العلمى.

على أنه لا يفوتنا أن نذكر أن الترمذى ـ كما جاء فى رواية فريد الدين العطار وكتاب «الأدعية» ـ قد تعلم فى فترة من فترات حياته، على يد الخضر، وكان الخضر يأتيه ليعلمه كل يوم، حتى انقضت ثلاث سنوات على ذلك(18).

فإذا أخذنا بروايات ما جاء فى تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار، ومخطوط «الأدعية والطلسمات» مأخذ القبول، فلا مناص ـ كما يقول الدكتور الجيوشى ـ

---

(15) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ1 ص40.

(16) نقلا عن الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ1 ص47، وانظر البغدادى «تاريخ بغداد» جـ14 ص281، ابن حجر «لسان الميزان» جـ2 ص141.

(17) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ1 ص43.

(18) فريد الدين العطار «تذكرة الأولياء» نيكلسون جـ2 ص91 ـ 92 نقلا عن كتاب: «الحكيم الترمذى» للدكتور الجيوشى ص17، 18 ومقدمة كتاب «الرياضة وأدب النفس» للمستشرق اربرى والدكتور على حسن ص8، ومخطوط الأدعية.

من عد الخضر شيخا للحكيم، بل يكون هو فقط شيخه فى مجال المعرفة الصوفية (١٩).

ويقول الدكتور الجيوشى: «اننا ــ هنا ــ أمام احتمالين: إما أن نرفض الرواية من أساسها، وحيثيات الرفض لاتعوزنا، ومن أقواها أنها لم تصح الاشارة إليها فى «بدوشأن أبى عبد الله» وحينئذ لا يمكن أن نعتبر الخضر أحد أساتذة الحكيم الترمذى. وإما أن نقبلها على مسئولية رواتها، وحينئذ نعتبر الخضر واحدا من شيوخ الحكيم، وخاصة أنه لم يرد فيما نسب إلى الترمذى من قريب أوبعيد اشارة إلى أحد من شيوخه إلا والده، وماروى حول الخضر(٢٠).

والخضر ــ بكسر الخاء مع سكون الضاد، وبفتح الخاء مع سكون الضاد وكسرها ــ لقب العبد الذى جاء فى قوله تعالى: «**فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما**» (٢١).. ولقب بهذا لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله. وقيل لأنه جلس على الأرض فاخضرت تحته، وكنيته أبو العباس. واسمه «بليا» وهو من نسل نوح، وكان أبوه من الملوك. وقيل كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا (٢٢).

قال شيخ الإسلام فى شرحه على البخارى فى كتاب «العلم»: واختلف فى الخضر أهو نبى، أورسول، أوملك، أوولى. والصحيح أنه نبى (٢٣). والصوفية يرون أنه ولى (٢٤).

ويرى البخارى، وابن المناوى، وأبو بكر بن العربى، وأبو يعلى بن الفراء، وابراهيم الحربى، وأبو طاهر العبادى، وآخرون: «أن الخضر غير موجود بجسده، وأنه مات».. لقوله تعالى: «**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد**» (٢٥).

---

(١٩) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٨.
(٢٠) المرجع السابق ص ٣٩.
(٢١) سورة الكهف: الآية ٦٥.
(٢٢) الجمل «الفتوحات الالهية» جـ٣ ص٣٥ ط الحلبى وشركاه.
(٢٣) الجمل «الفتوحات الالهية» جـ٣ ص٣٥.
(٢٤) الشيخ محمد زكى ابراهيم «قصة الخضر والصوفية» ص٧ ط العشيرة المحمدية ١٣٩٠هـ.
(٢٥) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

ويرى ابن الصلاح والثعلبي، والنووي، والحافظ بن حجر، وجماهير الصوفية، والعلماء، وأهل الصلاح، أنه حي بجسده، موجود يرزق (٢٦).

واننا نجد أن الإمام الألوسي في كتابه «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» يتناول موضوع الخضر بتوسع وافاضة ثم يقول: «ثم اعلم بعد كل حساب أن الأخبار الصحيحة النبوية والمقدمات الراجحة العقلية تساعد القائلين بوفاته عليه السلام أي مساعدة وتعاضدهم على دعواهم أي معاضدة ولا مقتضى للعدول عن ظواهر تلك الأخبار إلا مراعاة ظواهر الحكايات المروية. والله تعالى أعلم بصحتها عن بعض الصالحين الأخيار وحسن الظن ببعض السادة الصوفية فانهم قالوا بوجوده إلى آخر الزمان على وجه لا يقبل التأويل» (٢٧). ثم يذكر الألوسي أن ابن عربي في الفتوحات المكية الباب الثالث والسبعين يؤكد وجود الخضر عليه السلام حيا.ـ ويعلق الألوسي بعد ذلك بقوله: «وعلم منه القول برسالة الخضر عليه السلام وهو قول مرجوح عند جمهور العلماء والقول بحياته وبقائه إلى يوم القيامة» (٢٨.

وذكر الجمل في الفتوحات الالهية: أن الجمهور اتفق على أنه حي إلى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة (٢٩).

فكثير من العلماء يرون: أن الخضر أما أن يكون حيا بجسده وروحه، وليس ذلك ببعيد (والنتيجة أنه موجود).

وأما أن يكون حيا بروحه فقط، وروحه بحكم خصوصيته منطلقة من عالم البرزخ، طوافة بعالم الدنيا، متجسدة فيه. وليس ذلك ببعيد أيضاً.. فالنتيجة أنه موجود.. اذن فعلى القول بالحياة أوالممات هو موجود.. والقول بلقائه أورؤيته صدق محض، ومايروى عنه على ألسنة أهل الله، حقيقة واقعة (٣٠).

(٢٦) الشيخ محمد زكي ابراهيم «قصة الخضر والصوفية» ص٩.

(٢٧) الألوسي «روح المعاني» جـ٥ ص٣٢٨ ط ادارة الطباعة المنيرية بيروت ــ لبنان.

(٢٨) روح المعاني جـ٥ ص٣٢٩.

(٢٩) الجمل «الفتوحات الالهية» جـ٢ ص٣٥.

(٣٠) الشيخ محمد زكي ابراهيم «قصة الخضر والصوفية» ص١٠ ط مجلة المسلم عدد صفر ١٣٩٠هـ القاهرة.

فلا غرابة اذن أن يكون الحكيم الترمذى التقى بالخضر، وتعلم منه، وأخذ عنه.. يقول أبو بكر محمد بن عمر الوراق: مـن أصحاب الحكيم الترمذى: أعطانى الحكيم الترمذى كراسة قائلا: ألقها فى جيحون. فقال: فلم يطعنى قلبى، وأخفيتها فى منزلى، وجئته وقلت: ألقيتها. فقال: ماذا رأيت؟ قلت: لم أر شيئا. قال: لم تلقها. عد وألقها فى البحر. فرجعت وقد استحوز وسواس ذلك البرهان على قلبى، وألقيتها فى الماء. فانشق الماء وظهر صندوق مفتوح، فلما وقعت فيه. أغلق الغطاء. فعدت ورويت له ما حدث. فقال: الآن ألقيتها. وقلت: أيها الشيخ ما سر هذا؟ حدثنى به. قال: كنت قد صنفت تصنيفا فى الأصول والتحقيق، يعجز الفهم عن ادراكه، فطلبه منى أخى الخضر عليه السلام، فأمر الله تعالى الماء أن يوصله إليه [31].

وقد تردد فى كتب الطبقات أسماء ثلاثة من كبار شيوخ الصوفية، التقوا بالحكيم، وكانت له معهم صحبة، لقى أبو تراب النخشبى، وصحب يحيى بن الجلاء، وأحمد بن خضرويه [32].. وأبو تراب النخشبى من جلة مشايخ خراسان، والمذكورين بالعلم، والفتوة، والتوكل، والزهد، والورع. قال ابن الفرجى: «رأيت حول أبى تراب من أصحابه عشرين ومائة صاحب ركوة، قعودا حول الأساطين، ما مات منهم على الفقر إلا أبو عبيد البسرى وابن الجلاء».. وقال ابن الجلاء: لقيت ستمائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة: أولهم أبو تراب النخشبى» [34] ويحيى بن الجلاء كان من جلة مشايخ الشام، وكان عالما ورعا. ويقول اسماعيل بن نجيد: «كان يقال ان فى الدنيا ثلاثة

---

(31) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ1 ص354.

(32) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص37.

(33) السلمى «طبقات الصوفية» ص34 ط كتاب الشعب. وطبقات الصوفية تحقيق شريبة ص146 ط دار التأليف بالمالية بمصر.

(34) السلمى «طبقات الصوفية» ص34 وطبقات الشافعية جـ2 ص306، والطبقات الكبرى ص71.

من أئمة الصوفية لا رابع لهم : الجنيد ببغداد ، وأبو عثمان بنيسابور، وأبو عبد الله ابن الجلاء بالشام » (٣٥) .

وأحمد بن خضرويه ذكره أبو نعيم فى الحلية وأبو عبد الرحمن السلمى فى طبقاته ، وقد جاء عنه أنه من كبار مشايخ خراسان ، ومن مذكورى مشايخها بالفتوة . قيل لأبى حفص : من أجل من رأيت من هذه الطبقة ؟ قال : ما رأيت أحدا أكبر همة ، ولا أصـدق حالا من أحمد بن خضرويه (٣٦) .

هؤلاء كان للحكيم مع بعضهم صحبة ، ومع بعضهم الآخر لقاء . وهذا لا يعنى أنه كانت هناك تلمذة من الحكيم عليهم ، وانما هو لقاء الأقران والنظراء ، ولو كان هناك شىء من هذا لأخبرنا الحكيم عنه فى مجال عرضه لنا أطوار تقدمه الروحى ، وبحثه عمن يرشده طريقه (٣٧) .

ولا يغيب عن الباحث أن الحكيم قد تتلمذ على كتاب «الانطاكى» وقد وقع الكتاب فى يده ، فاهتدى عن طريقه إلى شىء من رياضة النفس . ويقول الحكيم فى ذلك : « ووقع إلى كتاب الأنطاكى فنظرت فيه فاهتديت لشىء من رياضة النفس ، فأخذت فيها » (٣٨) .

هذا الكتاب الذى يذكره الحكيم ، ويعزوه إلى الأنطاكى هو فى الحقيقة الشيخ الذى كان له أكبر الأثر فى حياة الحكيم الصوفية . فمن هو هذا الأنطاكى الذى يقصده الحكيم (٣٩) .

تذكر كتب التراجم بهذا اللقب ثلاثة من شيوخ الصوفية :

ــ أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكى ، من أقران بشر بن الحارث ، والسرى ، والحارث المحاسبى ، ويقال أنه رأى الفضيل بن عياض ، ومن

---

(٣٥) السلمى « طبقات الصوفية » ص ٤١ ط الشعب وص ١٧٦ بتحقيق نور الدين شريبة .
(٣٦) السلمى « طبقات الصوفية » ص ٢٥ ط الشعب .
(٣٧) الدكتور الجيوشى « الحكيم الترمذى » ص ٣٧ ط دار النهضة المصرية .
(٣٨) الترمذى « بدو شأن أبى عبد الله » ص ١٥ ضمن كتاب ختم الأولياء .
(٣٩) الدكتور بركة « الحكيم الترمذى » ص ١٨٧ .

اصحاب ابى العباس بن عطاء، والحريرى. من أهل بغداد، رحل إلى الشام ثم عاد، توفى سنة ٣٦٧ (٤٠).

ــ وأبو محمد عبد الله بن خبيق بن سابق الأنطاكى، صاحب يوسف بن أسباط وهو من زهاد الصوفية الأكياس فى أكل الحلال، والورعين فى جميع الأحوال، أصله من الكوفة، ولكنه من الناقلة إلى أنطاكية (٤١)، وطريقته فى التصوف طريقة النورى فإنه صحب أصحابه (٤٢).

ــ وأبو محمد عبد الله بن محمد، بغدادى المولد والمنشأ، صحب الجنيد وغيره، وكان فقيها على مذهب مالك، مات سنة ٣٣٤هـ.

قال الكلاباذى فى كتابه: «التعرف لمذهب أهل التصوف»: «فيمن صنف فى المعاملات: أبو محمد عبد الله بن محمد، وأبو عبد الله أحمد ابن عاصم الأنطاكيان، وعبد الله بن خبيق الأنطاكى» (٤٣).. فيا ترى: أى أنطاكى من هؤلاء وقع كتابه فى يد الحكيم؟ يقول الدكتور بركة: أنه بمقارنة النصوص التى أوردتها الكتب، خاصة ما ورد فى كتاب «حلية الأولياء» منسوبة إلى أحمد بن عاصم الأنطاكى، وجدنا أنها تكاد تنطبق فى كثير من أوجه الشبه والمطابقة مع ما ورد فى كتب الحكيم ــ أنه هو الأنطاكى المقصود، يقول القشيرى: ان أبا سليمان الدارانى كان يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته (٤٤).

(٤٠) الكلاباذى «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص٤٥ الطبعة الثانية. وانظر الشعرانى فى كتابه «الطبقات الكبرى» جـ١ ص٧١ ط صبيح. والسلمى «طبقات الصوفية» ص٣٣.

(٤١) انطاكية بتخفيف الياء قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهى من أعيان البلاد وأمهاتها. وكل شىء عند العرب من قبل الشام فهو «أنطاكى».. فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح، واستمرت فى يد المسلمين إلى أن سقطت فى أيدى الروم سنة ٣٥٣ هجرية. ثم استردت سنة ٤٧٧هـ «راجع معجم البلدان» جـ١ ص ٣٥٣ــ٣٥٩.

(٤٢) السلمى «طبقات الصوفية» تحقيق نور الدين شريبة ص١٤١، ط دار التأليف بالمالية بمصر.

(٤٣) أبو بكر محمد الكلاباذى «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص٤٥، ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(٤٤) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٨٨.. والرسالة القشيرية ص١٩.

وسواء كان هذا الأنطاكى أوذاك، فإن الحكيم قد اهتدى بعد النظر فى كتابه لشيء من رياضة النفس، فأخذ فيها، وأعانه الله عليها (٤٥).

وإذا أردنا أن نعزو الحكيم إلى أحدى المدارس الصوفية ـ كما يحلو لبعض الباحثين ـ فقد صحب أبا تراب النخشبى، وأحمد بن خضرويه، وهما من جلة وأكابر مشايخ خراسان وصاحب يحيى بن الجلاء البغدادى، وتتلمذ على كتاب «الأنطاكى» وهو من شيوخ مدرسة الشام ذات الصلة الوثيقة بمدرسة مصر. وكان على صلة وثيقة بمدرسة نيسابور الملامتية (٤٦) حيث كان أحد من ينتمون إلى هذه المدرسة تلميذا له وهو أبو على الحسن بن على الجوزجانى (٤٧) ولعل البحوث والدراسات الاسلامية تكشف عن شيوخ اتصل بهم الحكيم الترمذى.

وإذا كنا قد عرفنا: أن البحث العلمى، لا يرى مانعا من أن يكون الحكيم الترمذى قد التقى بالخضر، وأخذ عنه ـ كما جاء فى بعض الروايات ـ فإن الباحث يرى أن قصة التقاء الحكيم بالخضر ـ التى ذكرها فريد الدين العطار فى كتابه «تذكرة الأولياء» ـ كانت بدايتها قبل رحلة الحكيم إلى العراق والحج. التى بدأها حين بلغت سنه سبعا وعشرين عاما.

وليس هناك ما يمنع من أن يكون الحكيم التقى بالخضر بعد ذلك.. ولكن الذى يهمنا معرفته. أن الحكيم ذكر فى كتابه: «بدوشأن أبى عبد الله»: أنه بعد أن رجع إلى الوطن ـ بعد رحلة طلب العلم، وأداء فريضة الحج ـ أخذ يتتبع محامد الرب، ويلتقط محاسن الكلام، ويسترشد فى البلاد عمن يرشده الطريق، أويعظه بشىء. فلم يجد الشيخ الذى يطمئن إليه» (٤٨).

وهذا يعطينا دليلا على أن الحكيم كان يؤمن بقاعدة: «أخذ العلم والعمل

(٤٥) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ١ ص١٨٨.
(٤٦) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٤٤. ط الأزهر.
(٤٧) أبو العلا عفيفى «الملامتية والصوفية وأهل الفتوة» ص١٠٨ ط القاهرة ١٩٤٥م.
(٤٨) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص١٥ فقرة ٢.

من المشايخ ». وأن ضبط النفس بأصل يرجع إليه فى العلم والعمل لازم لمنع التشعب والتشعث (٤٩).

ولكن ماذا يفعل السالك الذى يطلب الطريق إذا لم يجد الشيخ الذى يأخذ عنه العلم والعمل؟ وماذا يفعل السالك إذا لم يجد الشيخ الذى يستريح له؟.

أيقف جامدا لا يتحرك ويقطع ما اتصل له من العلم والعمل؟ أم ينظر فيما تركه مشايخ العلم والمعرفة، من معالم تهدى إلى الطريق، وتأخذ بيد السالك؟.

ان الباحث بعمق يجد أن الصوفية الأولين يرون أن هناك طريقان للسالكين. ذكرهما ابن عجيبة فى كتابه: « الفتوحات الالهية » فقال: « هل يكتفى بمشاهدة الرسوم ومطالعة الكتب فى طريق الصوفية — أهل التوجيد الذوقى والمعرفة الحقيقية الوجدانية — أم لا بد من الشيخ؟.

وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة:

أولها: النظر للمشايخ. فشيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق، يعرف موارد العلم، وشيخ التربية تكفى عنه الصحبة لدين عاقل ناصح.

الثانى: النظر لحال الطالب، فالبليد لا بد من شيخ يربيه، واللبيب تكفى الكتب فى ترقيه.

الثالث: النظر للمجاهدات، فمجاهدة التقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها، والاستقامة تحتاج للشيخ، فى بيان الأصلح منها.. وقد يكتفى عنه اللبيب بالكتب ومجاهدة الكشف.. وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها.

يقول ابن عجيبة بعد أن أورد الأجوبة الثلاثة: «قلت: وهذا الجواب الأخير أقرب للصواب» (٥٠).. وقد ذكر ذلك أيضا الشيخ أبو العباس أحمد بن

---

(٤٩) زروق « قواعد التصوف » ص٣٩ ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(٥٠) ابن عجيبة « الفتوحات الالهية » ص٨٩ ط عالم الفكر.

أحمد بن زروق فى كتابه : «قواعد التصوف» حيث بين فى القاعدة رقم ٦٦ قول القائلين بالأكتفاء عن المشايخ (٥١) .

ويبدو أن الحكيم الترمذى كان قد قطع شوطا كبيرا لتحقيق الصفاء النفسى ، والسمو الروحى ، واكتساب المعرفة التى تقرب السالك من الله سبحانه وتعالى ، وتفتح الطريق أمامه للترقى فى منازل القرب التى لا يدنو منها إلا من تسلح بصفاء النفس ، ونقاء القلب ، واستقامة السلوك وشفافية الروح .

لهذا حين لم يجد من يرشده الطريق التزم بالعبادات حتى وقع فى مسامعه كلام أهل المعرفة ، ووقع إليه كتاب الأنطاكى فنظر فيه ، فاهتدى لشىء من رياضة النفس (٥٢) .

وقد يبدو للبعض بعد معرفة هذا عن الحكيم الترمذى أن يقول : أن الحكيم لم يكن يرى ما يراه كثير من شيوخ الصوفية من ضرورة حاجة السالك إلى شيخ يأخذ بيده ، ويدله على الطريق .. وإنما كان يرى أن التقدم الروحى للسالك يتوقف على مجاهداته ، وصدق رياضته ، ودأبه المستمر.

وقد ذكر بعض الباحثين : أن هذا الاتجاه عند الحكيم يؤكده ويزيده وضوحا ما كتبه الحكيم ردا على رسالة جاءته من الرى . ناقش الحكيم فى رده «جواب كتاب من الرى» قضية من القضايا الهامة التى شغلت فكر الصوفية ، ولهم فيها موقف يكادون يجمعون عليه ما عدا الحكيم — وبعض شيوخ التصوف — تلك القضية هى «كيفية الوصول إلى الله» وهل يحتاج السائر إلى الله أن يستعين بشيخ يأخذ بيده ، ويدله الطريق ؟ يكاد شيوخ الصوفية يؤكدون على حاجة السالك إلى شيخ يؤدبه ويعلمه ويبصره بمراحل الطريق ، يأخذ بيده إذا عثر ، ويشجعه إذا تراخى . إلا أن الحكيم الترمذى لا يتابع الشيوخ على هذا الرأى ،

---

(٥١) ابن محمد زروق «قواعد التصوف» ص ٤٠ .
(٥٢) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص ١٥ .

ولا يتفق معهم على ـ ضرورة هذا المنهج ـ وقد بدا رأيه واضحا من رده على صاحب الرسالة (٥٣).

وصاحب الرسالة يشكو للحكيم حاله، ويخبره أنه وصل إلى مقام لا يقوم فيه بعمل إلا بعد أن يرد عليه وارد إلهى يأذن له بالعمل. ومن المفهوم أن ذلك إنما يكون فى غير الفروض من الأعمال لأنها مطلوبة بمقضتى الأمر، فلا تحتاج إلى اذن جديد. أما أعمال التطوع فهى التى قامت المشكلة بشأنها.. ولكن هذا المريد أراد أن يتأكد من حاله ومقامه، فصحب رجلا يرجو على يديه فتحا أكبر، فكانت النتيجة أن فقد ما كان فيه، ولم يجد فى شيخه الجديد تعويضا عنه (٥٤).. وهنا نجد الحكيم الترمذى يوجه اللوم إليه على ما فعل. فما دام قد وصل إلى هذا المقام وجب عليه أن يلزمه، حتى يكون الله هو الذى يتولى تحويله عنه إلى مقام آخر.. أما أن يذهب إلى مخلوق مثله يلتمس منه المعونة على أمره، كأنه لم يرض بما أقامه الله فيه أو كأن هذا المخلوق يملك له عند الله شيئا، فجزاؤه الحرمان.. فهذا المريد قد تعجل ومثل هذه الأحوال تحتاج إلى مدة حتى يستحكم أمره فيها (٥٥).

يقول الحكيم فى جوابه: «ووصفت أن شأنك ومبتدى أمرك أنك نلت منزلة لا تعمل شيئا إلا باذن، ثم صحبت رجلا ممن ترجو الزيادة به، فتركت أمرك، وأقبلت عليه، فافتقدت الأمر الأول، وهكذا يكون شأن من يطلب الخالق بالمخلوق، الصادق فى الطريق يطلب ربه به لا بشىء سواه، ومبتداه كما أبتديت به أن لا تعمل شيئا إلا باذنه إلا الفرض الذى قد لزم الخلق، فكان هذا منك انقيادا للعبودية وتسليما للنفس إليه، فكان سبيلك أن تدوم على هذا حتى تنظر بما يكون منه بعد هذا (٥٦)».. وبعد أن أجمل الحكيم له

---

(٥٣) الدكتور الجيوشى «رسائل الحكيم الترمذى» ص ٤٦ تحقيق مجلة منبر الإسلام ع ٨ س ٤٠ القاهرة.

(٥٤) الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص ٢٨٠.

(٥٥) الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص ٢٨١.

(٥٦) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» تحقيق ص ٤٨ منبر الإسلام عدد ٨، والدكتور بركة تحقيق ص ٢٩٤ مجلة كلية أصول الدين العدد الأول

رأيه، أخذ يبين له الوسائل والطرق التى يرى أن الأخذ بها يوصل صاحبها إلى منزلة القرب من المولى عز وجل، يجمل هذا أولا فى قوله: «الصادق فى الطريق يطلب ربه به لا بشىء سواه» ثم يأخذ فى تفصيل هذه الوسائل وهو يرى أن مفتاح الأمر فى التوبة الصادقة مما أحدث، ثم مجاهدة النفس ورياضتها، واقرارها بالاستكانة لله والخضوع له، والتبرى من الحول والطول، والاقامة على ذلك مدة حتى تخلص النفس من شوائبها، وتصفو من كدورتها، وهذا هو الجانب الداخلى الذى لا يطلع عليه أحد وهو الجانب المهم.

ثم يرى الحكيم أن ذلك يبدأ بأن يصاحبه جانب عملى ظاهر يكون أيضاً بعيدا عن الرياء، ورؤية النفس، ويتحقق ذلك بأن يتطهر المريد، ثم يصلى ركعتين فى فضاء من الأرض بعيدا عن الناس والشهرة، ثم يلزم هذا حتى يفتح له الباب (٥٧).

وقد ذكر الدكتور بركة ــ بعد دراسة وتحقيق جواب الترمذى ــ «اننا نستطيع أن نلمح هنا أن الحكيم الترمذى لا يتفق مع رأى الكثيرين من أئمة التصوف فى ضرورة الشيخ للمريد، وتشديدهم فى ذلك إلى حد اعتبار الشيطان شيخ من لا شيخ له. بل نجد أنه هنا يفترض عقوبة الحرمان لمن اعتمد فى سلوكه على شيخ.

لكننا من جانب آخر نرى أن ذلك قد يكون بسبب أن هذا المريد لم يحسن اختيار الشيخ الماهر بالطريق. أولأن هذا المريد كان قد وصل إلى مقام معين لم يعد يحتاج فيه إلى مثل هذا الشيخ، وإنما يحتاج إلى الصبر فى انتظار ما تخرج له به رحمة الله.. على كل نجد هذا النص يفتح البـــاب بغير شك لمريد يسلك بغير شيخ (٥٨).

ويرى الدكتور الجيوشى: أنه يحق لنا أن ندعى أن الحكيم لم يكن له شيخ معين يأخذ بيده ويسدد خطاه، وأنه انتفع بما كتبه الأنطاكى.

---

(٥٧) الدكتور الجيوشى «رسائل الحكيم الترمذى» ص٤٧ منبر الاسلام.
(٥٨) الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص٢٨٢.

وقد آثر الحكيم أن يودع آراءه وأفكاره: كتبه ورسائله التى وصل إلينا منها عدد لا بأس به على الرغم من تباعد الزمن وامتداده.. وقد نقول أن الحكيم وضع أصول مدرسة تعتمد فى نقل أفكارها على ما تسجله فى الكتب والرسائل، وأن الأنطاكى كان هو الملهم الأول لطريقها فى كتابه: «دواء القلوب». وجاء الحكيم فعبد الطريق، وأوضح معالمه، وقدم له زادا كافيا من كتبه ورسائله العديدة، أودع هذا الاتجاه فى المقربين من تلامذته، ومن أشهرهم اثنان حملا اللواء بعده، وسارا على أثره، هما: أبو بكر الوراق الذى كان يسمى معلم الأولياء، والحسن بن على الجوزجانى الذى كان يلقب بجاسوس القلوب.. وكلاهما أودع أراءه وأفكاره: كتبه ورسائله (٥٩).

ومع كل هذا، فإن الباحث يجد البحث يقوده إلى القول: بأن الحكيم إذا كان ــ بعد عودته إلى الوطن ــ بحث عمن يسترشد به، فلم يتيسر له ذلك، حتى وقع إليه كتاب الأنطاكى فنظر فيه. ألا يجوز أن يكون بعد ذلك قد اتخذ له شيخا؟ وخاصة أنه يقر وجود الشيخ وملازمة السالك له، بدليل أنه بحث فى البلاد عنه..؟؟

وليس هناك ما يمنع من أن يكون «جواب كتاب من الرى» الذى أعده الحكيم الترمذى ــ ردا على صاحب الرسالة الذى طلب النصح من الحكيم ــ قد جاء لأن صاحب الرسالة كان وصل عن طريق شيخ له إلى المقام الذى وصل إليه. ثم شاء أن يصحب رجلا آخر يرجو الزيادة به، مما تحول الأمر معه إلى اعتقاد فى الشيخ الجديد.. ولذلك تضمنت توجيهات الحكيم فى الجواب: «أن الصادق فى الطريق يطلب ربه به لا بشىء سواه» وهذا من الحكيم لا يتعارض مع ملازمة السالك للشيخ، لأن الشيخ يرجع إليه فيما يرد، أو يراد (٦٠).. وقد يساعد على هذا الاستنتاج المثل الذى ضربه الحكيم لهذا المريد الذى صحب رجلا آخر يرجو الزيادة به. قال: «هو بمنزلة عبد السبى، لا يعرف أمر مولاه،

---

(٥٩) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد من العبادة» ص١٥.

(٦٠) محمد زروق «قواعد التصوف» ص ٣٩.

حتى إذا أتت عليه المدة بقدر ما يعرف أخلاق السيد وقصده ومراده، وضرر أمره ونفعه، وصلح للتفويض إليه أعطاه رأس ماله، وفوض إليه أموره، فهو يأخذ ويعطى فى ماله، و.يضع ويرفع ويسوس عبيده الذين هم دونه، ويشرف على أمور سيده، فلا يحتاج إلى اذن فى كل كلام. لأنه قد عرف أمر مولاه، واستبطنه، فصلح لتدبير أمره وسياسة عبيده، فإذا ذهب هذا العبد، وهو سبى بعد، فوضع يده فى يد سبى مثله لم يبلغ هذا المحل، ولم يصلح لتدبيره وسياسته، وهو مثله ضعيف، فقد ترك طريقه وضيع أمره» (٦١).

وقد تظهر تفسيرات أخرى للنص الوارد فى «جواب كتاب من الرى» إذا توفرت المعلومات الوافية المحيطة بهذه المراسلات، واتضحت المعالم حولها، وخاصة أن بعض مؤلفات الحكيم المخطوطة لم يكشف عنها النقاب بعد. وقد ذكر الهجويرى فى كتابه «كشف المحجوب» أن للحكيم الترمذى كتابا بعنوان: «تاريخ المشايخ» (٦٢). ويبدو أن هذا الكتاب اعتمد عليه الهجويرى فى ترجمته للائمة والشيوخ الأوائل (٦٣).. وهذا الكتاب لا يزال مصيره مجهولا، ولعل الوصول اليه يكشف عن معلومات ذات أهمية. وهناك كتاب آخر لا زال مفقودا وقد ذكره الحكيم فى رسالته «جواب كتاب من الرى» عنوانه: «سيرة الأولياء» (٦٤).

وإذا كان بعض الدارسين يرى أن الحكيم أسس مدرسة صوفية تقوم على نشر الكتب والرسائل، وأن المقربين إليه من تلامذته ساروا على نفس المنهج (٦٥).. وهذا يعنى أن هذه المدرسة لا تعتمد على الشيوخ، ولا تهتم بالمريدين.. فإن كتب التراث الإسلامى أفادت أن هناك طريقة باسم

(٦١) الحكيم الترمذى «رسائل الحكيم الترمذى» تحقيق الدكتور الجيوشى ص٤٨ منبر الإسلام ع٨ س٤٠.

(٦٢) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ١ ص٢٤٣ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٦٣) دكتورة سعاد «كشف المحجوب» المقدمة جـ١ ص١٤٥.

(٦٤) الحكيم الترمذى «جواب كتاب من الرى» ص٤٧ منبر الإسلام ع٨ س٤٠.

(٦٥) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد» ص ١٥.

« الطريقة الحكيميه » تنسب إلى أبى عبد الله بن على الحكيم الترمذى (٦٦) .. ويقول الهجويرى فى كتابه « كشف المحجوب » تحت عنوان « الحكيمية » : « أما الحكيميون فينتمون إلى الحكيم الترمذى » (٦٧) .. وهذا يوضح للباحث أن الحكيم كان شيخ طريقة ، وللطريقة مريدون ، ويقال للمريدين : « الحكيميون » ويضاف إلى كل هذا أن كتب الطبقات وتراجم الرجال أفادت أن مريدى الحكيم الترمذى ، أصبحوا شيوخا ، لهم مريدون (٦٨) .

وقد وجدنا فى رسالة للحكيم الترمذى ، يجيب فيها الترمذى عن أحد الأسئلة الورادة إليه عن كيفية السلوك . فيقول : « لا تدخل خلوتك حتى تعرف أين مقامك ووقوفك من سلطان الوهم ، فإن كان الوهم حاكما عليك فلا سبيل إلى الخلوة إلا على شيخ ، مميز ، عارف » (٦٩) .

ولا شك أن كلام الحكيم الترمذى فى هذه القضية يعد عند الباحثين وأهل المعرفة دليلا على اتخاذ الشيخ حيث كان الناس يفهمون أن مدرسة الحكيم تعتمد على بث أفكارها عن طريق الرسائل ونشر المعرفة ، دون الأهتمام بالشيوخ فى تربية المريدين فجاءت هذه الرسالة من الحكيم لتضعنا أمام حقائق مفيدة فى الطريق .

---

(٦٦) الهجويرى « كشف المحجوب » جـ١ ص١٣٦ .

(٦٧) الهجويرى « كشف المحجوب » جـ٢ ص٤٤٢ .

(٦٨) الهجويرى « كشف المحجوب » جـ١ ص٣٥٤ ، ٣٥٩ .

(٦٩) الحكيم الترمذى « كيفية السلوك » مخطوط ورقة رقم ١٤٧ مجموع ٣٥٣ خزانة تطوان . شمال المغرب .

مجاهدات الحكيم وسلوكه

ان كمالات الله تعالى لا تتناهى، وعظمته لا تطاول، وعطاءه للخلق لا يتوقف ولا ينقطع ورحمته بهم وسعت كل شيء.

ولقد جاءت رسالة الله تعالى إلى خلقه، ونزل وحيه إلى عباده، وفيه من كماله وعظمته ورحمته، ما يطبهم، ويصلح شأنهم، ويرتقى بهم إلى ما فيه خيرهم.. الأمر الذى يؤدى فطرياً إلى أن تتحرك نفس الإنسان من خمود، وأن تستيقظ من سبات، وأن تختلط فيها بواعث الرغبة بعوامل الرهبة، وأن تمتزج فيها دوافع الخوف وموجبات الرجاء.. ولا تلبث النفس متى تحركت هذه الحركة الصادقة، ونهضت فيها هذه النوازع الايجابية الا أن تحبس جهدها على الحق، وتوقف طاقاتها على الخير، وتجند امكاناتها للطاعة، وتألف طريقها إلى المعروف. ومع تساوى المسلمين فى العقيدة، واقامة الفرائض، فانهم يتفاضلون حسب استعدادهم وجهادهم فى تزكية أرواحهم، وتحليتها بالفضائل، وعلو الهمة فى طلب الله، ومحبته تعالى واثاره على ما سواه.

قال تعالى: **« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً »** ([1]).

وقال تعالى: **« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله »** ([2]).

والحكيم الترمذى قد نشأ فى بيت علم، والنشأة العلمية التى نشئها الحكيم

---

(١) سورة الأحزاب: الآية رقم ٢٣.

(٢) سورة فاطر: الآية رقم ٣٢.

كانت امتداداً لجهود أبيه من قبله، فأبوه على بن الحسن بن هارون الترمذى المحدث الذى حدث ببغداد.. ولا شك أن نشأة الحكيم كانت ذات تأثير عليه فى الأقبال على الدراسة وتفرغه لها، والاهتمام بها دون غيرها منذ حداثته (٣).

ولقد ظل الحكيم منذ نعومة أظفاره يدرس علم الآثار وعلم الرأى، وهذان العلمان من أسنى العلوم التى كانت تطلب فى عصره، بحيث يكفى الواحد منها لنسبة صاحبه الى سؤدد العلم وشرفه.. ويستحسن أن لا نغفل عن أن هناك أثراً صادف لدى الحكيم الترمذى استعداداً. فظل ينمو وينمو حتى ظهر أخيراً فى تحوله الصوفى، هذا الأثر هو مالاحظه الترمذى نفسه فى تفريقه بين أهل الرأى وأهل الحديث، من حيث الأخلاق والسلوك (٤).. يقول فى «المسائل المكنونة» تحت عنوان: «أصحاب الفقه وأهل الحديث»: «وأهل الحديث كثر تردد هذه الأخبار على أسماعهم فخلصت إلى النفوس منهم. شاءت أوأبت، فذللتها وقمعتها، وان لم يتصدوا لها، فرئى أثر ذلك وبركته عليهم» (٥).

«فلين القلب، ورقة الفؤاد، وخشوع النفس، وخضوع الجوارح» من المميزات التى امتاز بها أهل الحديث على وجه العموم، وهى فى نفس الوقت من الاستعدادات التى تهىء المرء للسلوك الصوفى، وقد كان أبوه من المحدثين، فلا غرو أن تنطبع هذه الصفات فى نفس ولده فتؤثر فيه وتجعله بدوره على استعداد كاف للسلوك الصوفى عندما تظهر دواعيه وتتهيأ أسبابه.

«ولم يكن الحكيم ممن تكفيه دراسة علم الرأى وعلم الآثار. بل لعله كان لا يجد فيها الذى كان يتشوق اليه بشوق غالب، ونفس طلعة، لا تهدأ ولا تستقر. وظل شعوره بهذا النقص كامناً فى أعماق نفسه، يوجهه من حيث لا يدرى فى وجهة أخرى، لم يكن يفكر فيها، ولا يلتفت اليها، بل كان ما يتميز به كل منها

(٣) انظر الدكتور بركة «الحيكم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٨٢.

(٤) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى وتطوره فى الولاية» جـ١ ص١٨٢ بتقديم وتأخير فى العبارة

(٥) الترمذى «المسائل المكنونة» ص٤٨ بتحقيق الدكتور الجيوشى ط دار التراث.

عن الآخر عاملاً من عوامل الصراع الخفى في نفس الحكيم الترمذى، ولم يجد هذا الشعور وسيلة إلى الظهور والتعبير عن نفسه إلا بعد أن بلغ الشيخ السابعة والعشرين من عمره، وألقى عليه حرص الخروج إلى بيت الله الحرام » (٦).

فأخذ أهبته للحج، وتابع رحلته إلى مكة، وقضى هناك فترة فى رحاب الكعبة، مجاوراً يدعو الله، ويتضرع اليه ويناجيه. وقد وصف لنا تلك اللحظات الحاسمة فى رسالته «بدوشأن أبى عبد الله» فقال: «فقدمت مكة فى بقية شعبان ورزق الله المقام بها إلى وقت الحج، وفتح لى باب الدعاء عند الملتزم، فى كل ليلة سحراً، ووقع على قلبى تصحيح التوبة، والخروج مما دق وجل، وحججت، فرجعت وقد أصبت قلبى، وسألته عند الملتزم فى تلك الأوقات أن يصلحنى، ويزهدنى فى الدنيا، ويرزقنى حفظ كتابه، وكنت لا أهتدى لشىء من الحاجات غير هذا، فرجعت وقد ألقى على حرص التحفظ للقرآن فى طريقى، فأخذت صدراً منه فى الطريق، فلما وصلت إلى الوطن يسر الله على ذلك بمنه، حتى فرغت منه، فأقامنى ذلك بالليل فكنت لا أمل من قراءته حتى أنه كان ليقيمنى ذلك إلى الصباح ووجدت حلاوته » (٧).

ومن هذا النص يكشف الحكيم الترمذى عن المرحلة الثانية من مراحل مجهوداته وسلوكه، فقد اتقن فى المرحلة الأولى علم الفقه والحديث، واستكمل ما يحتاج اليه من الأخذ عن المحدثين فى ترمذ والعراق والبصرة والكوفة.

ويبدو أن رحلة الحج هذه كانت بمثابة نقطة تحول فى حياة الحكيم الفكرية والروحية. حيث بدأ مرحلة الرياضة والمجاهدة والسعى الدائب إلى ما يقربه إلى الله، ويدنيه من رضاه.. لأنه وجد فى رحاب البيت الحرام متسعاً من الوقت، وصفواً من الزمن، يعود فيه إلى نفسه ليكتنه أسرارها، ويسبر أغوارها، فتنفست انفعالات كان تعتلج فى نفسه وبرزت من أعماقه أحاسيس، ملكت عليه الشعور، فاهتدى أول ما اهتدى إلى الدعاء.

---

(٦) الدكتور بركة « الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية » ص ١٨٢.
(٧) الترمذى « بدوشأن ابن عبد الله » ص ١٤.

والدعاء هو مخ العبادة، وله منزلة كبيرة عند الله، لأنه الحبل الذى يتعلق به الإنسان ليصله بربه، ويكون دليل القرب منه جل شأنه، ومنزلة الدعاء من العبادة كمنزلة الرأس من الجسد، فهو دعامة أساسية فى العبادة، والدعاء تعبير طبيعى عن احساس نفسى وشعور حى لدى الإنسان الذى يدرك وجود حقيقتين فى حياته: «الله والإنسان» ويدرك النسبة الحقيقية بين الوجودين: وجود الله الذى هو مصدر الغنى والكمال والافاضة فى هذا العالم، ووجود الإنسان وهو وعاء الفقر والحاجة والمسكنة، المتقوم بالافاضة، والعطاء المستمر.

والحكيم الترمذى بعد أن فتح له باب الدعاء، وقع على قلبه «تصحيح التوبة»، وتلك مرحلة من مراحل المجاهدات رأى الحكيم أنه لابد منها كى يخلص لله. لأن التوبة سبيل مهيع لاصلاح الفرد، وتشد الإنسان إلى الصلاح شداً، وتبعث فيه دائماً أمل الاستقامة، وتؤهله للخير والفضيلة.

وبعد فتح باب الدعاء، وتصحيح التوبة، وجد الترمذى نفسه يتجه نحو التصوف والسير فى طريقه، «بعدما حصل القسط الوافى من ألوان العلوم والمعارف الأخرى وقد ألقى بشقله إلى حفظ القرآن الكريم وهو فى طريق عودته، وتم له حفظه جميعه بعد وصوله إلى وطنه «ترمذ» وأخذ القرآن من احساسه وقلبه ووجدانه كل مأخذ، حتى كان يقطع الليل كله يتلوه إلى مطلع الفجر، وحتى وجد فى قلبه حلاوته، وانشراح صدره لنوره» (٨).

لقد تغير اذن — مركز الاهتمام، وانتقل انتقالاً كلياً، فلم يعد تهمه المعرفة العقلية لأنه قد حصل منها ما كان كافياً لمثله، ولكن الذى أصبح يهمه الآن ما هو مستكن وراء هذه المعرفة مما لا يدرك إلا بالذوق، ومما يشبع كلتا العاطفتين: عاطفة الجياشة نحو الله، ونحو معرفته، لذلك أخذ فى تتبع محامد الرب تبارك اسمه (٩). ويقول الحكيم فى ذلك: «فأخذت أتتبع من الكتب

(٨) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» للترمذى ص١٢.
(٩) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٨٦.

محامد الرب، تبارك اسمه، والتقاط محاسن الكلام، من طريق العظات، ومما يستعان به على أمر الآخرة» (١٠).

لكن هذه النقلة ــ التى لم يكن الترمذى يستعد لها ــ جعلته يحس بما يشبه الحيرة، فقد انقطع فى هذا الطور الجديد عن مألوفه، واتجه اتجاهاً لا معرفة له به وترك غاية كانت واضحة بينة، إلى غاية لم يتضح له شىء منها بعد، فهو ينظر ليرى ما أمامه فلا يدركه، ولا يعرف كيف يتوافق معه (١١).

ولم تصرفه هذه الحيرة عما هو فيه، بل زادته تشبثاً واستمساكاً، لأن عمق الحب الذى جعله يندفع إلى تتبع محامد الرب، ظل كما هو مسيطراً عليه، يدفعه إلى الثبات والتغلب على هذه الحيرة التى وقع فيها، حتى أصبح كالمسير المستسلم لما يراد له، دون أن يعرف ماذا يراد له. ولم يكن له ملجأ حينئذ الا الاقبال على نواحى العبادة من الصوم والصلاة (١٢). ومن كلام الحكيم قوله: «واسترشد فى البلاد فلا أجد من يرشدنى الطريق، أويعظنى بشىء أتقوى به، وأنا كالمتحير لا أدرى أى شىء يراد لى الا انى أخذت فى الصوم والصلاة» (١٣). يقول الدكتور بركة: لكن الحال ظل هو الحال، لأنه لم يكن قد عرف من قبل غير ما كان يدرسه فى علم الآثار والرأى. وهو ذو منهج يختلف عن المنهج الذى ينبغى اتباعه فى مثل حاله الجديدة، ولم يكن لديه من معرفته شىء، فأقبل عليه ولم يعرف منهجه أوأسلوبه أوطريقته بعد (١٤).

ولا شك أن حيرة الحكيم، قاسى منها الكثير، وكان لا يعرف إلى أى اتجاه يسير، ولقد حدث مثل ذلك للغزالى حيث لم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعى الآخرة، قريباً من ستة أشهر، وانتهى الأمر فى هذا التجاذب بأن اعتقل لسانه، وغمر قلبه حزن أثر على صحته. فالتجأ الى الله الذى يجيب

---

(١٠) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص١٥ من كتاب ختم الأولياء.
(١١) أنظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ١ ص١٨٦.
(١٢) المصدر السابق ص١٨٦.
(١٣) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص١٥.. ط بيروت.
(١٤) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ١ ص١٨٧.

المضطر الذى لا حيلة له، فأجابه الله الذى يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبه الاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب (١٥).

فالترمذى مر بفترة قلقة أشبه ما تكون بالحيرة التى تنتاب السالك فى محاولاته اكتشاف النفس أو الاطمئنان إلى طريق الهدى، فهام على وجهه يبحث عن مرشد أو واعظ يأخذ بيده، فلا يجد من يوجه طريقه، ويسدد خطاه. ويبدو أن الخوف والقلق قد اشتد به خلال هذه الفترة الحرجة، ولم يجد خيراً من الصلاة والصوم.. ولم يزل الحكيم على تلك الحال حتى اهتدى إلى سماع أقوال العارفين وأهل المعرفة، وأثناء بحثه عن معين على الطريق وقع فى يديه كتاب «الانطاكى». ويبدو أنه يقصد كتاب «دواء القلوب» لأحمد بن عاصم الأنطاكى، فقد أقبل على قراءته، واهتدى بواسطته إلى طريق رياضة النفس (١٦).

واستقبل بذلك مرحلة من مراحل رياضة النفس التى بدأ فيها تجاربه الروحية الأولى وأخذ فيها يمس آثار هذه الرياضة ونتائجها فيما يشعربه من تقدمه الروحى، فشجعه ذلك، وأخذ يضع لنفسه منهجاً صارماً دفعه إلى المضى فيه قدماً ما آنسه من صفاء قلبه، وشفافية فى روحه (١٧).

ويصف الحكيم هذه التجارب وآثارها فيقول: «فلم أزل كذلك حتى وقع فى مسامعى كلام أهل المعرفة، ووقع الى كتاب الأنطاكى فنظرت فيه، فاهتديت لشىء من رياضة النفس، فأخذت فيها، فأعاننى الله، وألهمت منع الشهوات نفسى، حتى صرت كأنى أعلم على قلبى الشىء بعد الشىء، حتى ربما كنت أمنع نفسى الماء البارد، وأتورع عن شرب ماء الأنهار، فأقول: لعل هذا الماء جرى فى موضع بغير حق، فكنت أشرب من البير أو من الوادى الكبير» (١٨).

---

(١٥) الدكتور عبد الحليم محمود «المنقذ من الضلال» ص٣٥ ط دار الكتاب اللبنانى..
(١٦) الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص١٢، ١٣.
(١٧) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد» ص١٣.
(١٨) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبد الله» ص١٦.

تجارب روحية يمضى فيها الحكيم الترمذى، ذات منهج صارم، حتى كان يمتنع عن شرب الماء البارد ليكون بعيداً عن رفاهية النفس، ويتورع عن شرب ماء الأنهار خشية أن يكون قد جرى فى موضع بغير حق.

«ولا شك أن هذه المغالاة انما كانت تحدث من الحكيم فى أوقات استغراقه، ووقوعه تحت سيطرة العاطفة الغلابة، التى تقهره على التورع والمبالغة فيه، لكى يتحقق منه وله، ما كان طلبه أثناء اقامته بمكة»(١٩).

ويذكر الحكيم فى كتابه «بدوشأن أبى عبد الله» ما يمكن أن نعتبره مرحلة أخرى متقدمة فى مراحل المجاهدات والسلوك. فيقول: «ووقع علىّ حب الخلوة فى المنزل، والخروج إلى الصحراء، فكنت أطوف فى تلك الخربات والنواويس(٢٠) حول الكورة، فلم يزل ذلك دأبى، وطلبت أصحاب صدق يعينونى على ذلك، فعز علىّ، فاعتصمت بهذه الخربات والخلوات»(٢١).

وقد بدأ الترمذى فى هذه المرحلة ملتزماً بالعزلة والخلوات، فقد كان يخلو بمنزله مرة، أويخرج إلى الصحراء أخرى، أويطوف بالخربات ومقابر الأموات ثالثة.. وإذا كانت هذه العزلة والخلوة قد حببت اليه وأصبحت من مظاهر رياضته النفسية، فانه لم يمتنع امتناعاً كلياً عن الاختلاط بالأصحاب إلا لفقدانه منهم أصحاب الصدق الذين يعينونه على ما هو فيه، وذلك لأنه قد أصبح مركز الحس والوجدان على هذا الاتجاه، بحيث لا يمكن أن يلتفت إلى غيره، وكل ما يشغله أويصرف انتباهه عنه، أويقطع استغراقه فيه يصبح كريهاً ثقيلاً غير محتمل. وفى مثل هذه الحال لا يمكن له أن يختلط إلا بمن يكون له نفس الاتجاه، المشتغل بنفس ما يشغله، حتى يجد فيه عوناً على طريقه، فإذا لم يجد كان النفور من الناس والاختلاط بهم شعوراً طبيعياً، وكان اللجوء إلى العزلة

---

(١٩) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ١ ص١٨٨.

(٢٠) النواويس مفردها ناووس. ولها معنيان: ١ ـ متاع على هيئة صندوق من حجر أو خشب أو معدن تودع فيه الموتى. ٢ ـ الخلاء أو المكان الذى توجد فيه مقابر الأموات. والمعنى الثانى هو المراد فى هذا الموطن «ختم الولاية» ص١٥، ١٦ الدكتور عثمان يحيى.

(٢١) الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص١٦.

والخلوة اجراء طبيعياً أيضاً، يعتصم بها عما يقطع عليه سعيه وجده واجتهاده (٢٢).

ويذكر الدكتور بركة أن الحكيم قد بين هذا المعنى فى رسالته التى كتبها إلى محمد بن الفضل البلخى، حيث جاء فيها: «وأما ما ذكرت من شأن الاستخفاف بالأخوان، وسقوط من فعل ذلك عن الله تعالى، فأين ذلك الأخ؟ أنا فى طلبه عطشان، ومكانه منى على العانقين، وأشفار العينين.

وانما يكون أخوك من سقياهما من مشرب واحد، ومرعاهما فى مرتع واحد، ومركبها واحد، من حظ واحد، إلى رب واحد.

فأما من تباينا فى هذه الصفات فلا يأتلفان الا على التداوى والتعايش. واخوان المداراة والمعايشة كانوا فى السلف الصالح الذين خلوا يتعايشون ويتأخذون على سلامة الصدور، وسخاوة الأنفس.

فأما اليوم فقد تبدل بالسلامة خبا ودعاء، وبسخاوة الأنفس طمعاً وبخلاً فرد السلام على مثل هؤلاء ومناولة اليد، والكشر فى وجوههم كثير كثير والاشتغال بهم بطالة. إنما يقتضيك الله من أمورهم أن ترحمهم رحمة يسلموا منك قلباً ويداً ولساناً وفعلاً (٢٣).

فالمسألة ليست استخفافاً بالاخوان، ولا استكباراً على الناس.. وإنما هى مسألة مشارب تتفق، واتجاهات تأتلف، فإذا اتفقت المشارب أمكن الاجتماع، وإذا اختلفت صعب الاجتماع الا على أساس من التعايش والمداراة.

وقد كان يمكن ذلك لو كان الناس على ما كان عليه السلف من سلامة الصدر، وسخاوة النفوس. أما وقد فسدت النفوس وضاقت الصدور، فقد أصبح الاجتماع على التعايش والمداراة أمراً صعباً كذلك. وإذا اشتغل الإنسان بذلك أضاع وقته وجهده وحاله مع الله. وإنما يكفيه فى ذلك ما يكون بينه وبين الله

(٢٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٨٩.

(٢٣) الترمذى «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» تحقيق الدكتور بركة مجلة كلية أصول الدين بالقاهرة عدد سنة ١٤٠١هـ ص٣٠٥، ٣٠٦.

فى شأنهم، وهو أن ينظر اليهم نظرة رحمة بحيث لا ينالهم منه أذى لا بالفعل، ولا بالقول ولا بالضمير(٢٤).

على أنه ينبغى أن لا نأخذ هذا العكوف على الخلوة والعزلة من مظهرها الخارجى فحسب ونصفها بالسلبية المطلقة، لأنه فى الوقت الذى يبدو فيه هادئاً بعيداً عن كل نشاط ظاهر، عقلى أوذهنى أوحتى عضلى، يكون نشاطه الباطنى فى أشد درجاته فاعلية وإيجابية بحيث تكون له السيطرة الكاملة على كل ملكاته، بل وعلى حواسه.. فهو يوقف نشاطه الظاهرى ليعطى المجال لنشاطه الباطنى، ومايزال مستغرقاً فى تجربته إلى أن تتمكن عاطفته من السيطرة على مشاعره الظاهرة، وتنفتح عين بصيرته، فتجلوله من شئونه ما لم يكن يراه بعين بصره، وتنشط هذه الحاسة التى يسميها بعض الباحثين «الحاسة الكونية» للاتجاه به إلى خالقها، وتنطلق ادارته الروحية قوية ثابتة لتسلك به طريق الصفاء الروحى، ويكون حينئذ قد بدأ يسير فى طريقه نحو اشباع هذه العاطفة الإنسانية الكمينة المتجهة بأشواقها الغلابة نحو الله، ونحو معرفته (٢٥).

ولا يمكن اذن أن يدعى على مثل هذه العزلة أنها عمل من أعمال البطالة، مغلفة تحت غلاف دينى، لأنها ــ على النقيض من ذلك تماماً ــ أشق معاناة، وأصعب مراساً من الأعمال الأخرى التى يستعان عليها بالاندماج بين الجماعات من أخوة الدين. وقد أدرك الحكيم ذلك، ولم يجد من يعينه على حاله، فاعتصم بالخربات والخلوات، يعانى فيها وحيداً جهده الصامت العنيف (٢٦).

ولقد ذكر الغزالى: أنه آثر العزلة، حرصاً على الخلوة، وتصفية القلب للذكر، وكان فى أثناء هذه الخلوات تنكشف له أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها (٢٧).

---

(٢٤) راجع الدكتور بركة «مقدمة خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص٢٨٧، ٢٨٨ مجلة كلية أصول الدين.

(٢٥) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٨٩.

(٢٦) المصدر السابق ص١٩٠.

(٢٧) الغزالى «المنقذ من الضلال» ص١٢٦ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ط دار الكتاب اللبنانى.

وذكر الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال»: «أنه من أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات. حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد.. ثم يترقى الحال من مشاهد الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق» (٢٨).

والحكيم الترمذي في مواضع من رسائله يذكر أن المكاشفات والمشاهدات هي بمثابة محلات للراحة، يستجم فيها السالك، ويستروح من شدة ما يعانيه، ويتزود لاستئناف سيره (٢٩).

والمكاشفات: مكاشفات العيون بالأبصار، ومكاشفات القلوب بالاتصال، والمكاشفة: حضور القلب بنعت البيان، فيكشف له ما يستتر على الفهم (٣٠). فالقلب قد أيقن أن ما يتكشف له هو الحق، وأنه واضح له بلا افتقار إلى بيان أو تأمل أو برهان (٣١).

أما المشاهدات فهي الدرجة العليا، وهي رؤية الحق ببصر القلب من غير شبهة كأنه رآه بالعين.. وأهل المشاهدة على ثلاثة أحوال:

فالأول منها: الأصاغر، وهم المريدون. يشاهدون الأشياء بعين العبر، ويشاهدونها بأعين الفكر.

والثاني: الأوساط. وهؤلاء قال فيهم الخزاز: الخلق في قبضة الحق وفي ملكه، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لا يبقى في سره ولا في همه غير الله تعالى.

والثالث: ما أشار اليه عمرو بن عثمان المكي: ان قلوب العارفين شاهدت

---

(٢٨) الغزالي «المصدر السابق» ص ١٢٧.

(٢٩) الدكتور بركة «الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية» جـ ١ ص ١٩٠.

(٣٠) الدكتور عبد المنعم الحفني «معجم مصطلحات الصوفية» ص ٢٤٩، ط دار المسيرة ببيروت.

(٣١) الدكتور محمد حسن الشرقاوي «ألفاظ الصوفية ومعانيها» ص ٢٨٠، ط دار المعرفة باسكندرية.

الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شيء، وشاهدوا كل الكائنات به، فكانت مشاهدتهم لديه، ولهم، وبه (٣٢).

ومن هذه المكاشفات والمشاهدات ما قصه الحكيم في «بدوشأن أبي عبد الله» من الرؤى، فقد ذكر رؤيتين اثنتين رآهما الحكيم بنفسه— فيما يرى النائم، وما عدا ذلك من الرؤى التي قصها علينا فقد رأتها له زوجه، أو رآها له آخرون، وهو يذكر هذه الرؤى، ويعول عليها جميعاً بنفس الدرجة التي يعول بها على رؤياه الشخصية (٣٣).

أما الرؤيتان اللتان رآهما بنفسه، فالأولى منهما تشير إلى درجة صلته بالرسول صلى الله عليه وسلم. والثانية تشير إلى علاقته بربه.

وجاء في الأولى قوله: «فبينما أنا على هذه الحال، إذ رأيت فيما يرى النائم كأنني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد الجامع في كورتنا، فأدخل على أثره، فألزم اقتفاء أثره. فما زال يمشي حتى دخل المقصورة وأنا على أثره، ومن القرب منه، حتى كان أكاد التزق بظهره، وأضع خطاي على ذلك الموضع الذي يخطو عليه حتى دخلت المقصورة، فرقي المنبر، فرقيت على أثره، كلما رقي درجة رقيت على أثره، حتى إذا استوى على أعلاها درجة قعد عليها، فقعدت عند الدرجة الثانية من مجلسه، عند قدميه، ويميني إلى وجهه، ووجهي إلى الأبواب التي تلي السوق، وشمالي إلى الناس، فانتبهت من منامي وأنا على تلك الحال» (٣٤).

وجاء في الرؤية الثانية قوله: «ثم من بعد ذلك بمدة بسيرة، فبينما أنا ذات ليلة أصلي، فثقلت، فوضعت رأسي في مصلاي، جنب فراشي، إذ رأيت صحراء عظيمة لا أدري أي مكان هو، فأرى مجلساً عظيماً، وصدراً مهيئاً لذلك المجلس، وحجلة مضروبة، لا أقدر على صفة تلك الثياب، وذلك الستر، فكأنه يقال لي: انه يذهب بك إلى ربك، فادخل تلك الحجب. فلا أرى شخصاً،

(٣٢) الدكتور عبد المنعم حفني «معجم مصطلحات الصوفية» ص ٢٤٤ ط دار المسيرة بيروت.
(٣٣) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذي» جـ ١ ص ١٩٠.
(٣٤) الحكيم الترمذي «بدوشأن أبي عبد الله» ص ١٦ الفقرة ٣ «ختم الأولياء» ط بيروت.

ولا صورة. إلا أنه وقع فى قلبى أنى لما دخلت وقع على الفزع فى ذلك الحجاب، فأيقنت فى منامى بالوقوف بين يديه، فما لبثت أن رأيت نفسى خارجاً من الحجب، بالقرب من باب الحجاب، واقفاً وأنا أقول: عفا عنى، وأجد نفسى قد سكن من الفزع» (٣٥).

ولا شك أن وقائع الرؤيا التى قصها علينا الحكيم الترمذى، كانت بمثابة بشرى له تدخل الأمن إلى قلبه، وتشيع فيه الطمأنينة، لأنه فى طريقه يقفو خطى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما دام الأمر كذلك فلا خوف عليه من انكار الناس ولومهم.

ولا يخفى أن هذه الرؤى فى حياة الحكيم كانت علامة ظاهرة على عمق التجربة الروحية وصدق صاحبها. ومن شأن هذه الرؤى أن تزيد صاحبها ثباتاً وقوة على المضى فى الطريق فهى ذات تأثير مزدوج فى نفس السالك من حيث أنها تترجم له عن الحقيقة، أوعما يجده فى أعماق نفسه بصورة صريحة أوبصورة رمزية، ثبت فى نفسه الثقة بما حصل فى يده، أوبما وصل اليه، وتوحى اليه بما ينبغى أن يبذله من جهد أكبر، وبالمعالم التى ينبغى له أن يتبعها. ومما لا شك فيه أن هاتين الرؤيتين بذاتها، ثم بمضمونها، كانتا ذواتى تأثير كبير على الحكيم فى سلوكه طريقه، وفى مضيه قدماً فى هذا الطريق (٣٦). واستمر الحكيم فى الطريق يأخذ نفسه بالرياضة والمجاهدة، ويؤثر العزلة والبعد عن الناس ولجأ إلى النجوى والدعاء، حتى أنس من نفسه قوة، واتضحت أمامه المعالم (٣٧).. ويقول فى هذا: «فدام لى شأن رياضة النفس، من تجنب الشهوات، وقعود فى البيت، على عزلة من الخلق، وطول نجوى من الدعاء، فانفتح لى شىء بعد شىء، ووجدت فى قلبى قوة وانتباهاً» (٣٨).

وحين وجد القوة والانتباه، ووضوح لمعالم الطريق، وسلامة السلوك، بحث

---

(٣٥) المصدر السابق ص١٦، ١٧ الفقرة الرابعة.

(٣٦) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٩١.

(٣٧) راجع الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد من العبادة» ص١٥.

(٣٨) الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص١٧.

عن اخوان يعاونونه الطريق، واتخذ لهم مجلساً، يجتمعون فيه للتذاكر والمناظرة والدعاء و التضرع في وقت الأسحار، ويقول في ذلك: «وطلبت من يعينني فكان يكون لنا اجتماع بالليالي، نتناظر ونتذاكر وندعو ونتضرع بالاسحار» (٣٩).

وكان طبيعياً أن يخوض الحكيم ومن معه في أمور القلب، والذوق، والوجدان، ويتخلل حديثهم اشراقات واشارات لا يفهمها الا ذوو الأذواق الخاصة، والمواجيد. ولا شك أن جانباً من هذه المذاكرات، والاشراقات، والاشارات، كان يتحدث بها بعض رواد المجلس في الخارج، ويتناقلون ما يدور بينهم، وينقلون عن الحكيم ما يقولون.. ولم تنل هذه اللمحات الروحية القائمة على الذوق والرياضة رضا بعض الشيوخ الذين كانوا ينهجون في فهم الدين وأوامره منهجاً آخر يدور في فلك الألفاظ وفهمها الظاهر(٤٠).

ويبدو أن هذه المجالس كانت تحفل بكثير من اشارات الصوفية، ولمحات العارفين في أمور لم يألف الناس الخوض فيها أو تناولها على هذا النحو الذي يطلق فيه العنان لاشراق النفس، ونور القلب، فيلهم أهله فهما في آية من كتاب الله، أوشرحاً لحديث من أحاديث رسوله الكريم، أوتعليلاً لأمر من الأمور التي كانت مجالاً يخوض فيه الناس في ذلك الوقت، وكانت مثار أخذ ورد بين العلماء الباحثين، وقد اختلفت نظرتهم اليها وحكمهم عليها، تبعاً لاختلاف المنزع والمنهج والقدرة على الاستنتاج والحرية فيه، أوتبعاً لارتباط الباحث بمنهج معين، والسير على منوال خاص لا يحاد عنه في تفسير الأمور وتعليلها (٤١).

وقد كان من نتائج هذا الاختلاف أن سعى الواشون بالحكيم ورأوا أن ما يذكر في مجالسه يعد انحرافاً. لذا بدأوا يكيدون له.. ويصور ذلك الحكيم الترمذي فيقول: «فأصابني غموم من طريق البهتان والسعايات وحمل ذلك على

---

(٣٩) الترمذي «بدوشأن أبي عبد الله» ص١٧.

(٤٠) راجع الدكتور الجيوشي «منازل العباد من العبادة» ص١٦.

(٤١) راجع الدكتور الجيوشي «الحكيم الترمذي دراسة لآثاره وأفكاره» ص٢٢، ٢٣..

غير محمله، وكثرت القالة، وهان ذلك كله عليّ، وسلط عليّ أشباه ممن ينتحلون العلم يؤذونني ويرمونني بالهوى والبدعة وأنا فى طريقى ليلاً ونهاراً، دؤوباً دؤوباً» (٤٢).

وقد يكون هذا الذى حدث اختبار لمدى الصدق فى السلوك، والثبات فى الطريق، فان الصادقين المخلصين لا يأبهون لما يلاقونه من أنواع الفتن والبلايا، ولا تصدهم عن الحقائق التى تكشفت لهم: افتراءات المفترين.. ولهذا لم يهتم الحكيم بهؤلاء. بل ظل على حاله مستغرقاً فى الطريق، لا يتوقف ولا يهدأ ولا يستريح، والفتنة تزداد، والشائعات تنتشر. ويبدو أن موقف الحكيم السلبى، وعدم تصديه للرد عليها، جعل الفتن تقوى وتعنف، حتى وصل الأمر إلى والى بلخ، فأرسل محققاً يبحث له هذا الأمر، وقد اتهم الحكيم لديه بأنه يتكلم فى الحب، ويفسد الناس، ويبتدع، ويدعى النبوة، وأقل هذه التهم ــ وهى تهمة الكلام فى الحب ــ كان كافياً لتبرير أقسى العقوبات، ولعله بناء على ذلك قد أخرج الى «بلخ» أولعل والى «بلخ» طلبه اليه وهناك كتب عليه قباله أن لا يتكلم فى الحب» (٤٣).

ويصور الحكيم هذه المحنة فيقول: «حتى اشتد البلاء، وسار الأمر إلى أن سعى بى إلى والى «بلخ» (٤٤) وورد البلاد من عنده من يبحث عن هذا الأمر، ورفع اليه أن هاهنا من يتكلم فى الحب، ويفسد الناس، ويبتدع،

---

(٤٢) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص١٧ تحقيق الدكتور عثمان يحيى.

(٤٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٩٢.

(٤٤) بلخ مدينة مشهورة فى العصور القديمة والعصور الوسطى فى أقليم خراسان «كانت سابقاً القصبة السياسية لولاية خراسان ثم أصبحت المركز الثقافى والدينى لمملكة طخارستان، وفتحت المدينة فى عهد الإسلام أولاً من قبل الأحنف بن قيس سنة ٣٢ للهجرة، ثم أعاد فتحها قيس بن الهيثم أو عبد الرحمن بن سمرة سنة ٤٣ هجرية ولعل والى بلخ الذى يشير إليه الترمذى هو يعقوب بن ليث أو عمرو بن ليث، والمعروف تاريخياً أن ولاة بلخ فى عهد العباسيين كانوا جميعاً امراء منحدرين من خطل وكان أحد هؤلاء الأمراء داود بن عباس البانيجورى قد طرده يعقوب بن ليث عام ٢٥٦ هـ وفى سنة ٢٨٦ هـ أسر إسماعيل بن أحمد عمرو بن ليث ومن ذلك الحين انتقلت المدينة إلى حكم الساسانيين.هامش ختم الأولياء ص١٧، ١٨.

ويدعى النبوة، وتقولوا عليّ ما لم يخطر ببالى قط، حتى صرت إلى «بلخ» وكتب عليّ قباله أن لا أتكلم فى الحب» (٤٥).

واشتدت الحياة على الحكيم الترمذى، وأذته كثيراً هذه الاتهامات الباطلة، التى ألصقها به منتحلو العلم زوراً وبهتاناً، ولم يكن له بد من أن يتوارى عن الناس» (٤٦).

وهكذا تحددت اقامته فى منزله، وشوه أعداءه سمعته عند العامة حتى بلغ الأمر به أنه كان يرى السلامة فى البقاء بالمنزل، حتى لا يتعرضُ له أحد بسوء» (٤٧).

ولا يخفى على أهل العلم من أن هذه المحنة التى تسبب فيها حساد الحكيم ومنافسوه، كان لها وقع مؤلم، دفع بالحكيم ألا يستطيع أن يطل برأسه، ولا يجترئ على شىء. يصف هذه المحنة بقوله: «كانوا صيروا السلطان والبلاد عليّ بحال لا اجترئ أن أطلع رأسى» (٤٨) ولذلك تركت لديه آثاراً عميقة، وأعقبته عواقب بالغة، فقد أسقطت قدره عند الناس، كما أيسته منهم، وأحرقت حرارتها بقية رغبته فيهم، واعتباره لتقاليدهم وموازينهم، حتى أصبح أكثر قدرة على تذليل نفسه، وتمكناً من قسرها على فعل ما كانت تأبى فعله، وأداء ما كانت تكره أداءه.. وذلك لسقوط منزلتها عند الخلق وهوانها عند الناس، حتى وجد لذلك ـ مع وسمه بمظاهر الذلة ـ حلاوة تصل إلى قلبه (٤٩).

ولقد كانت لهذه المحنة آثار بعيدة المدى عند الحكيم فقد عملت على تطهير قلبه، ومساعدته على المضى فى رياضة النفس ويقول فى ذلك: «وكان ذلك من الله ـ تبارك اسمه ـ سبباً فى تطهيرى، فان الغموم تطهر القلب.. فتواترت عليّ الهموم حتى وجدت سبيلاً إلى تذليل نفسى فكنت أراودها على أمور قبل

---

(٤٥) الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص١٧، ١٨.
(٤٦) الدكتور الجيوشى «المسائل المكتوبة» ص١٥.
(٤٧) الدكتور الجيوشى «معرفة الأسرار» ص١٣.
(٤٨) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص٢١ فقرة رقم ٩ تحقيق الدكتور عثمان يحيى.
(٤٩) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٩٣.

ذلك من طريق الذلة، فتنفر ولا تطاوعني، مثل ركوب الحمار في السوق، والمشي حافياً في الطريق، ولبس الثياب الدون وحمل شيء مما يحمله العبيد والفقراء، فيشتد عليّ ذلك، فلما أصابتني هذه المقالة والغموم، ذهبت شرة نفسي، فحملت عليها هذه الأشياء فذلت وأطاعت، حتى وصل الى قلبي حلاوة تلك الذلة » (٥٠) .

وهكذا انتهز الحكيم فرصة هذه الشدة، ليحكم سيطرته على نفسه ويتم له اخضاعها وتذليلها، ويتخلص من شهواتها الكامنة، وأهوائها المتربصة . وهكذا فعل.حتى أنه يحدثنا أنه كان يمشي حافياً في الطرقات، ويلبس الدون من الثياب، ويحمل ما يحمله العبيد والفقراء، وكانت نفسه تأنف قبل ذلك أن تأتي هذه الأمور.الا أنه استطاع اخضاعها وترويضها.وظلت هذه حاله من الاجتناب الكامل للشهوات، والانشغال الكامل بالعبادات والخلوة الاختيارية التي تعززها عزلة اجبارية عن بقية الناس، اللهم الا فئة قليلة من الاخوان تشاركه في مشربه، ويجتمعون معاً على الذكر، ويقضون فيه كثيراً من أوقات الليل (٥١) .

ويبدو أن حلقات الذكر التي يلتقي فيها الحكيم الترمذي مع اخوانه الذاكرين لم يكن لها بيت معين من البيوت، وإنما كانت تقوم حسب رغبة كل واحد من الاخوان في استضافة القوم، وليس هناك ما يمنع من قبول أن هذه الاجتماعات كانت تتم في بيوت الذاكرين بالتناوب والنص الذي تركه لنا الحكيم الترمذي يسوب . « فبينا أنا كذلك إذ اجتمعنا ليلة على الذكر في ضيافة لأخ من اخواننا » (٥٢) .

وخلال هذه الفترة المليئة بالمجاهدات والرياضيات، كان الحكيم يمر بكثير من التجارب الروحية العميقة التي يصعب علينا ــ كما يقول الدكتور بركة ــ

(٥٠) الحكيم الترمذي « بدوشأن أبي عبد الله » ص١٨ ، فقرة رقم ٦ .

(٥١) الدكتور الجيوشي « مقدمة المسائل المكتوبة » ص١٥ ، والدكتور بركة الحكيم الترمذي، جـ١ ص١٩٣ .

(٥٢) الترمذي « بدوشأن أبي عبد الله » ص١٩ ، الفقرة رقم ٧ .

إدراكها من الخارج، كما يصعب على صاحبها وصفها أوإيضاحها، ويقص علينا الحكيم قصة ظاهرة صوفية وقعت له، قد تكون غريبة على بعض الناس، ولكنها ليست غريبة على سالكى الطريق (٥٣).

يقول الحكيم الترمذى ــ بعد أن ذكر لنا أنه اجتمع ليلة على الذكر فى ضيافة لأخ من الاخوان ــ «فلما مضى من الليل ما شاء الله رجعت إلى المنزل، فانفتح قلبى فى الطريق فتحاً لا أقدر أن أصفه وكأنه وقع فى قلبى شىء، طابت له نفسى والتذت به، وفرحت حتى مررت فما استقبلنى شىء هبته، حتى أن الكلاب ينبحن فى وجهى، فأنس لنباحهن من لذة وجدت فى قلبى، حتى بدا لى أن السماء بكواكبها وقمرها صارت إلى قرب الأرض، وأنا فيما بين ذلك أدعو ربى، ووجدت كأن قلبى نصب فيه شىء، فإذا وجدت تلك الحلاوة التوى وتقبض بطنى والتوى بعضه على بعض، من شدة اللذة واعتصر، وانتشرت فى صلبى وعروقى تلك الحلاوة، وكأن يخيل الىّ أن قربى من مكان قرب العرش (٥٤).

يقول الدكتور عبد الفتاح بركة: «وهذه الظاهرة التى قصها علينا الحكيم هى حالة من حالات الوجد أو اللوامع الصوفية، تدلنا بكل وضوع على أن الترمذى استغرق فى حالة النشوة التى صادفته، ولكنه لم يفقد ادراكه العادى، فالكلاب تنبح فى وجهه، وهو يدرك أنها كلاب وأنها تنبح، وان مثل ذلك يستوحش منه الأنسان.. ولكنه يقرر أنه قد أنس لنباح الكلاب، لما يفيض به قلبه من اللذة، وهو يدرك أن الكواكب والقمر والسماء كلها أجرام بعيدة جداً، الا أنه لشدة ما حل فى قلبه من هذه اللوامع أحس كأنها ذاتية، قد صارت إلى قرب الأرض.. فالأشياء هى هى لم تتغير فى حسه، ولم يتغير وضعها فى نفسه.. ولكن قوة الوارد الروحى لم تتركه يتأثر بها التأثر العادى، لأن روحه ووجدانه متجهان اتجاهاً أخر غير هذا الاتجاه العادى (٥٥).

---

(٥٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٩٢.
(٥٤) الترمذى «بدو شأن أبى عبد الله» ص١٩ الفقرة رقم ٧.
(٥٥) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٩٤.

واستمر الحكيم على هذا السلوك حيث تخلص قلبه وتجرد من كل غاشية ويقول مشيراً إلى ما سبق: «فما زال ذلك دأبي كل ليلة إلى الصباح، أسهر ولا أجد نوماً، فقوى قلبي على ذلك، وأنا متحير لا أدرى ما هذا الا انى ازددت قوة ونشاطاً فيما كنت فيه» (٥٦).

وليس من شك فى أن هذه النصوص التى ذكرها الحكيم، قد زودتنا بألوان من المجاهدات والرياضيات التى أخذ الحكيم بها نفسه فى سلوكه حتى أسلمته إلى ما وصل اليه.. وقد بدا للحكيم فى خلال مجاهداته الرغبة فى تحصيل المعارف على اختلاف أنواعها، فاشتغل بتقدير شأن الزوال، وتعلم الحساب، من أمر البروج والاصطرلاب وما شاكل ذلك، حتى أخذ منه بقسط كبير، غير أنه انصرف عن المضى فى تحصيل هذه المعارف بسبب رؤيا رؤيت له تنصحه بترك الاشتغال بهذا النوع من العلوم خشية أن يؤثر ذلك على تقدمه الروحى، وسلوكه، ومجاهداته (٥٧). وقد جاء فى كتاب «بدوشأن أبى عبد الله»: قول الحكيم: «ثم اشتغلت فى سنة من هذه السنين، بتقدير شأن الزوال، وتعلم تلك الحسابات، من أمر البروج والاصطرلاب، فامعنت فيه، فرئى لى فى المنام، كأن قائلاً يقول له: قل لابن على ليس هذا الذى أنت فيه من شرطك ولا مذهبك، فاجتنبه.. قال: فامتلأت خوفاً ورعباً مما رأيت من هيبة ذلك القائل، وأراه فى صورة شيخ أبيض الرأس واللحية، طيب الريح، حسن الوجه، أتوهم أنه ملك، فقال: قل لابن على ألق هذا فانى لا أمن أن يكون هذا حجاباً بينك وبين رب العزة، فالله الله فى نفسك فى هذا الخلق، فانك لست بأذنيد (٥٨). انما أنت أمة فأخبره بهذا ولا تدع نصيحة الله فى خلقه» (٥٩).

وان المتتبع لفقرات كتاب «بدوشأن أبى عبد الله» الذى كتبه الحكيم

---

(٥٦) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص١٩ فقرة رقم ٧.
(٥٧) الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص ١٤.
(٥٨) بأذنيد كلمة فارسية معناها: شىء حقير، أى أمر تافه لا يساوى شىء.
(٥٩) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبد الله» ص٢٧ فقرة رقم ١٧.

الترمذى يجد أنه سيرة سلوكية خاصة، حفلت بالرؤى التى كان يراها الحكيم أو يراها غيره له، وقد كان الحكيم يلتزم بهذه الرؤى فى مجاهداته وسلوكه.

والرؤيا عبارة عن ادراكات لروح النائم، تأتيها بغير الحواس الخمس المعروفة، عند ابطال هذه الحواس بالنوم، وطريق هذه الحواس هو ما يعبر عنه بالبصيرة، التى هى قوة للقلب منورة بنور القدس، منكشف حجابها بهداية الحق، ترى بها حقائق الأشياء وبواطنها (٦٠).

ولما كانت الرؤى ليست كلها بمثابة واحدة، وتتنوع إلى عدة أنواع فانه يعنينا منها ما يأتى بكشف، ويهدى إلى طريق.

قال تعالى: **«ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة»** (٦١).

قال بعض المفسرين: يعنى الرؤيا الصالحة يراها الإنسان أوترى له فى الدنيا (٦٢).

وقد وضع الامام مسلم بن الحجاج فى صحيحه كتاباً سماه «كتاب الرؤيا» ذكر فيه ستة وعشرون حديثاً فى موضوع الرؤيا (٦٣). مما يؤكد أمر الرؤيا، ويحقق منزلتها. وان تجارب الصالحين منذ عصور متطاولة دلت على أن تزكية النفس وتطهيرها والالتجاء الى الله، والتقرب اليه كل ذلك يسمو بالانسان إلى عالم من الروحانية، تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى، فتفيض عليها منه نفحات والهامات، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين، وبالمادة عن الله (٦٤).

ويقول الإمام محمد عبده: أما أرباب النفوس العالية، والعقول السامية،

---

(٦٠) الدكتور عبد المنعم الحفنى «معجم مصطلحات الصوفية» ص٣٥، ط دار المسرة، بيروت.

(٦١) سورة يونس، الآيات: ٦٢، ٦٣، ٦٤.

(٦٢) الشيخ عبد الغنى النابلسى «تعطير الأنام فى تفسير الأحلام» ص٣ ط دار احياء الكتب العربية، الحلبى.

(٦٣) الامام مسلم «صحيح مسلم» جـ٥ ص١١٥ إلى ١٢٣ ط كتاب الشعب.

(٦٤) الدكتور عبد الحليم محمود «المنقذ من الضلال» ص٣٤١ ط دار الكتاب اللبنانى.

من العرفاء، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الأنس، بما يقارب تلك الحال، حال الاتصال في النوع أو الجنس، لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال، لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها في الواقع فهم لذلك يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف. ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه: ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم، مما ينكره العقل الصحيح، أو يمجه الذوق السليم، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم، المتلألىء في بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة (٦٥).

(٦٥) الشيخ محمد عبده «رسالة التوحيد» ص١٥٥، ١٥٦، ط كتاب الهلال، رمضان ١٣٨٢هـ.

لماذا كان الترمذى حكيماً ؟

إن الباحث فى ترجمة الحكيم الترمذى يجد أن أصحاب الطبقات والتراجم لقبوه بألقاب علمية كثيرة، وجميع هذه الألقاب تدلنا على مكانة الرجل عند العلماء وأهل المعرفة، كما أن هذه الألقاب تشير إلى عطائه فى العلم والسلوك والخلق والطريق، وقد عرف أهل الفضل هذا عن الحكيم فأطلقوا عليه ما أطلقوا من ألقاب، لها دلالتها وحقيقتها.

فالسبكى فى طبقات الشافعية ذكر عنه بأنه «المحدث الزاهد أبو عبدالله الحكيم الترمذى الصوفى صاحب التصانيف»[1].

والذهبى فى «تذكرة الحفاظ» قال عنه: «أنه الإمام الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف»[2].

وابن حجر فى «لسان الميزان» ذكر من ألقابه: «المؤذن المعروف بالحكيم أبو عبدالله»[3].

«ومن الألقاب الملازمة التى لا يكاد يذكر بدونها، والتى لا تطلق إلا عليه إذا ذكرت منفردة عن اسمه، فهى: الترمذى والحكيم معاً ويختلف استعمالها تقديماً وتأخيراً، بل يتغير وضع لقب الحكيم فى الاستعمال حيث تستعمل أحياناً قبل الاسم وأحياناً بعده»[4].

---

(١) السبكى «طبقات الشافعية» جـ٢ ص٢٤٥.
(٢) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ٢ ص٦٤٥.
(٣) ابن حجر «لسان الميزان» جـ٢ ص٣٠٨.
(٤) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٥٢.

أما لقب الترمذى فلأنه كان من عادة العلماء أن تنسب العالم إلى بلدته لعدة أغراض، منها: أمانة النقل، وتمييز المصادر، ونسبة الشيء إلى صاحبة الحق عند اشتباه الاسماء مع اختلاف البلدان، وعند توجه النقد بعد ذلك إلى سنده أو متنه، وغير ذلك من الأغراض العلمية التى لا تكاد تحتاج إلى تنبيه، ولم يثر هذا اللقب شيئاً من المشاكل يلفت النظر إليه أو إلى البحث فيه» (٥).

أما تلقيب الترمذى بالحكيم، فهو أكثر الألقاب استعمالاً، وأعظمها شيوعاً وانتشاراً، وقد حظى هذا اللقب بالبحث والدراسة عند بعض المهتمين بالدراسات العلمية. فقالوا فى سبب تلقيب الترمذى بالحكيم «أنه كان أكثر اهتمامه هو تبين العلاقة بين الحقائق النفسية وبين الجسم الإنسانى وربط بعض ذلك ببعض، وهو على ما يظهر كان على معرفة بتركيب الجسم مما يدل على أنه درس شيئاً من الطب (٦).

وقالوا أيضاً فى سبب تلقيبه بالحكيم: «لأنه كان حريصاً على أن يجمع بين الناحية الروحية القديمة للثقافة الإسلامية وبين المنهج العقلى الذى جد فى عصره» (٧).

وقالوا: «لأن الترمذى كان أول مسلم بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الاغريقية فكان بالتالى: الممهد لمذهب العرفان فى التصوف الإسلامى» (٨).

ولا شك أن البحث العلمى يرفض مقولة القائلين بأن الحكيم الترمذى سمى حكيماً لأنه بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الاغريقية.. «وهذا القول غير دقيق لأن الكندى المتوفى حوالى ٢٥٣ هـ، وأبا الهذيل العلاف المتوفى عام ٢٣٤ هـ وإبراهيم النظام المتوفى عام ٢٥٦ هـ، كانوا أول من تأثر بالفلسفة

---

(٥) الدكتور بركة «المرجع السابق» جـ١ ص٥٢.

(٦) الحكيم الترمذى «كتاب الرياضة وأدب النفس» تحقيق الدكتور اربرى والدكتور على حسن عبد القادر «المقدمة» ص١٢، ١٣.

(٧) الحكيم الترمذى «حقيقة الأدمية» تحقيق الحسينى، المقدمة ص٧ مطبعة التجارة بالاسكندرية.

(٨) الحكيم الترمذى «ختم الأولياء» هامش ص٤. مقدمة الدكتور عثمان يحيى.

اليونانية فى عصرهم ، ولقد أشارت المصادر إلى ذلك فضلاً عن أن أرائهم ذاتها تؤكد ذلك التأثير، ومع ذلك فان العلاف والنظام لم يلقب واحد منهما بلقب الحكيم ، أما الكندى فهو وحده الذى لقب به بوصفه أول فلاسفة العرب والإسلام ، وعلى ذلك فان ارجاع تسمية الترمذى بالحكيم إلى ذلك السبب ليس صحيحاً » (٩) .

ونجد كذلك أن تلقيب الترمذى بلقب الحكيم بسبب أنه كان على معرفة بتركيب الجسم مما يدل على أنه درس شيئاً من الطب .. نجد هذا الارجاع بعيد ، وذلك كما يذكر أحد العلماء : «أن الحكمة غير الطب ، وأن الحكيم غير الطبيب ، وقد يجتمعان فى فرد واحد باعتبارين لا باعتبار واحد . فالحكيم قد يكون طبيباً إذا تعلم الطب ، فيدعى طبيباً كما يدعى حكيماً ، وقد لا يكون طبيباً إذا أهمل تعلم الطب وقد يكون الطبيب حكيماً إذا أعد نفسه هذا الاعداد ، وقد يكون خالياً من الحكمة إذا لم يكن لديه هذا الاستعداد ، فلا يدعى بالحكيم وان دعى بالطبيب ، على أنه يغلب على من جمع الحكمة أن يلقب بأشرف اللقبين وهو الحكيم ، فالجهة بينهما منفكة » (١٠) .

«فالتلقيب بالحكمة لا يحتمل التلقيب بالطب ضمناً إلا بقرينة من القرائن ، كما إذا اشتهر بذلك أو عرف عنه ، وقد يكون هذا هو السر فى أن كثيراً من المترجمين للفلاسفة يحرصون على وضع لقب الطبيب بجوار لقب الفيلسوف ، عند ترجمتهم لمن يكون فيلسوفاً وطبيباً معاً ، وذلك خوفاً أن يتبادر إلى الذهن أنه كان فيلسوفاً فحسب ، وأنه لم يكن محصلاً لصناعة الطب ، وعلى ذلك فلا يمكن أن نستنتج أن تلقيب الترمذى بالحكيم كان بسبب معرفته بالطب إلا بقرينة ، وذكر معرفته لاجزاء البدن لا يصلح قرينة على ذلك إذ أن معرفة أجزاء البدن من المعارف العامة » (١١) .

---

(٩) الحكيم الترمذى « علم الأولياء » تحقيق الدكتور سامى نصر لطف المقدمة ص٢٣ .
(١٠) الدكتور بركة « الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية » جـ١ ص٥٤ .
(١١) المرجع نفسه ص٥٥ .

ومن هنا كان تلقيب الترمذى بالحكيم يعود إلى أسباب أخرى غير الطب وغير الفلسفة الاغريقية، وقد جد الباحثون فى الوصول إلى معرفة هذه الأسباب.

ومحقق كتاب «علم الأولياء» للحكيم قد أرجع السبب فى ذلك إلى عدة عوامل، جاء فيها قوله:

١ ـ ولعلنا نرجع السبب فى ذلك إلى قدرة الترمذى على سبر أغوار النفس الإنسانية، واستكناه باطنها لمعرفة علة مرضها، وكيفية معالجتها، وتلمسه العلاج فى أساليب فلسفية، وفى مفاهيم عقلية وروحانية كالتطهير والتأديب والتهذيب والرياضة الروحية والمجاهدة الذاتية.

٢ ـ كما أننا نرجح أن يكون الترمذى قد لقب بالحكيم لمنهجه فى الحديث عن الإنسان: مفهومه وكيفية خلقه، وتسويته وتقسيم أدوات معرفته بين حواس ظاهرة وأخرى باطنة. فقد كان حديث الترمذى عن الحواس الباطنة حديثاً طريفاً كل الطرافة وكانت معظم آرائه فيها أصيلة كل الأصالة حين قسمها إلى صدر وقلب وفؤاد ولب، وجعل لكل أداة من هذه الأدوات درجة من المعرفة ومرتبة من حيث اليقين والصدق.

٣ ـ وكذلك فان تحميلاته الرائعة والعميقة للألفاظ والمصطلحات تدل على خبرة واسعة، ودراية شاملة بالأشياء وبالاسماء وبالمعانى.

٤ ـ ثم إن كثيراً من الأمثلة التى كان يسوقها الترمذى بقصد توضيح فكرة أو تبسيط رأى، إنما تدل على منحى تجريبى فى تفكير الترمذى، كما تدل أيضاً على خبرة النفس الإنسانية، وعلى وعى بالعقل الإنسانى، وكيف أن الإنسان يفتقر دائماً ـ فى تصديقه بمعظم الأشياء ـ إلى استدلالات وأمثلة من الواقع لكى يمكنه تصور الفكرة وتعقلها، ومن ثم الاعتقاد بها، فالتجريد كما نعلم يبدأ من الواقع ويرتبط به ارتباط الكليات بالجزئيات التى استخلصت منها، وينتمى الواقع إلى الفكر انتماء الجزئى إلى الكلى..

٥ ـ ومما يمكن أن يضاف إلى أسباب تسمية الترمذى بالحكيم، تلك التقسيمات الطريفة للعلم وتقسيمه الحكمة إلى عليا ودنيا، ولعله قد وصل فى حياته إلى الحكمة العليا وحصل على هدفه الأسمى ومن هنا استحق أن يكون حكيماً لاتساق آرائه مع هدفه منها ومع المنهج الموصل إلى تحقيق هذا الهدف (١٢).

والدكتور عثمان إسماعيل محقق كتاب «ختم الأولياء» يذكر فى هامش المقدمة: أنه يرى أن لقب الحكيم أسند إلى الترمذى خاصة لأن التعاليم الصوفية قد خطت على يديه خطوة حاسمة فى سيرها الموفق المطرد، فهى عنده لم تعد مجرد أحوال نفسية ينفعل لها الصوفى فى جلوته، أو مشاعر ذاتية يحس بها فى خلوته، بل حقائق موضوعية لها كيانها المستقل وعالمها الخاص، وحكمة الترمذى فى تصوفه تبدو فى هذا التحليل البارع لطبيعة النفس الإنسانية وفى هذا التصور الرائع لمناهج السلوك الروحى، وأخيراً فى هذا التميز الحاسم بين أنماط الحكمة ودرجات المعرفة» (١٣).

وقد يكون واحداً من هذه الأمور سبباً فى تلقيب الترمذى بالحكيم وقد تكون كلها، وقد يضاف إليها غيرها، والذى يبدو واضحاً لأهل العلم: أن المراد بحكمة الحكيم هو الحكمة الإسلامية التى انطلقت من القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

و«وأصل مادة» الحكمة «موضوع لمنع يقصد به إصلاح، والحكمة والعلم والحلم والنبوة والقرآن وطاعة الله والفقه فى الدين والعمل به أو الخشية أو الفهم أو الورع أو العقل أو الاصابة فى القول والفعل والتفكر فى أمر الله واتباعه» (١٤).

والحكمة تحقيق العلم واتقان العمل (١٥)، ومعرفة آفات النفس والشيطان

---

(١٢) راجع الدكتور سامى نصر لطف مقدمة كتاب «علم الأولياء» ص٢٣، ٢٤، ط مكتبة الحرية.

(١٣) راجع الدكتور عثمان إسماعيل، مقدمة كتاب «ختم الأولياء» هامش ص٥ ط بيروت.

(١٤) انظر الفيروزبادى «بصائر ذوى التمييز» جـ٢ ص٤٨٧، ٤٩١، ط المجلس الأعلى بالقاهرة.

(١٥) راجع الشيرازى البيضاوى «أنوار التنزيل» ص٥٩ ط الحلبى ١٣٧٥هـ.

والرياضيات وقيل هى معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به (١٦).

والحكمة عند الحكيم الترمذى ـ حكمتان كما أن العلم علمان: علم بالله، وعلم بأمر الله، ولكل علم حكمة، والعلم ما ظهر، والحكمة ما بطن منه وكما أن العلم علمان، فكذلك الحكمة حكمتان، حكمة من العلم به، وهى الحكمة العليا، وحكمة من العلم بأموره وتدبيره وصنعته (١٧).

فالعلم عند الترمذى هو معرفة ظواهر الأشياء والموجودات، أما الحكمة فهى العلم بجواهر الأشياء وحقائقها الداخلية (١٨).

ومرتبة الحكمة عند الترمذى تعود إلى: «حكمة تتولد من كثرة التجارب، وحكمة تتولد من صفاء المعاملة، وهذه تدلك على الآخرة وحكمة تتولد من القرب والمشاهدة وانها الحق لأهلها، وهذه الحكمة تدلك على التقرب والصفات ووجود بقربة الحق، وهى أعلاها وأجلها والتى تتولد من التجربة تدلك على مصالح الدنيا وهى أدناها، والثانية على الآخرة، والثالثة على الجود والحق (١٩)..

والحكمة التى تتولد من القرب والمشاهدة هى المتصلة بالحق وهى الحكمة العليا «حيث انكشف كل غطاء دق أو جل، وخشعت النفس لله وجالت قلوبهم فى الملكوت الأعلى، وفتح لهم من الحكمة العليا، قال جل جلاله وعظم شأنه، وتعالى كبرياؤه، وتقدست أسماؤه، وسمت كلماته سبحانه وبحمده: «ونعلمهم الكتاب والحكمة» فالكتاب ظاهر القرآن، والحكمة باطنة، وهى التى يقال لها حكمة الحكمة وهى الحكمة العليا، فلما أتاهم من الحكمة العليا عاينوا ما فى الملكوت بأبصار القلوب فصارت تلك المعاينة بصيرة للنفوس» (٢٠).

(١٦) انظر الدكتور عبد المنعم الحفنى «معجم مصطلحات الصوفية» ص ظ، ط دار المسيرة بيروت.

(١٧) الحكيم الترمذى «الكلام على معنى لا اله إلا الله أو شفاء العلل» ص٣٣ ص مطبعة حسان.

(١٨) الدكتور سامى نصر لطف «مقدمة كتاب علم الأولياء» ص٨٣.

(١٩) الحكيم الترمذى «معرفة الأسرار» ص٨٤، ٨٥ تحقيق الدكتور الجيوشى ط النهضة العربية.

(٢٠) الحكيم الترمذى «علم الأولياء» ص١٣٩.

فالحكمة مصطلح إسلامى أصيل، والحكيم إنسان أعطى ينابيع الحكمة وقد جاء الأصل السادس والثمانون والمائتان فى كتاب «نوادر الأصول» للحكيم الترمذى تحت عنوان «فى عشرة الحليم وتجربة الحكيم».

«فالحكمة من نور الجلال فإذا أعطى العبد انفجرت ينابيع الحكمة على قلبه، فهذه الحكمة ينبوعها على قلبه، فهى جائمة متراكمة، ومالم يأخذه بالتجارب لم تقدر النفس على مطالعة الحكمة لأن النفس بلهاء غنمية مشغولة بالشهوات فكيف تدرك الحكمة والحكمة باطن الأمور وأسرار العلم» (٢١).

ودلتنا أبحاث العلماء على «أن لقب الحكيم لا يطلق على كل فرد بل يطلق على أفراد قلائل من البشر، فهو اذن من الألقاب الاصطلاحية التى تطلق لمعنى خاص يلاحظ فيمن تطلق عليه» (٢٢)..

ولا يخفى أن هذه المعانى الخاصة وجدت عند الحكيم ولذلك استحق هذا الاصطلاح الخاص، فقد كانت آيات القرآن الكريم والسنة النبوية —بشتى ما دار حولها وما جاء عنها ولها وبها من معارف وعلوم— مصدراً أصيلاً وخصباً لآرائه وحكمته وأقواله، وسلوكه وتصانيفه. كان مفكراً واسع العطاء، ومن ثم أطلق عليه الحكيم، ولقب الحكيم من الألقاب النادرة التى يحتاج من تطلق عليه إلى قدرات خاصة، وفتوحات الهية ومواهب متعددة، ونحسب أن الحكيم الترمذى كان كذلك.

---

(٢١) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص٤١٥.
(٢٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٥٦..



القسم الثانى

جهود الحكيم العلمية وآثاره

- جهود الحكيم فى التفسير
- جهود الحكيم فى الفقه
- جهود الحكيم فى علم الكلام
- الحكيم الترمذى والسنة النبوية
- مواقف للحكيم الترمذى
- أثر الحكيم وآثاره

جهود الحكيم فى التفسير

لقد كان الحكيم الترمذى، واسع الثقافة، غزير المادة، ارتحل لطلب الحديث، وجاب الآفاق فى خراسان، والعراق، وحدث بنيسابور وأخذ عن أئمة المحدثين، وكبار العلماء، ثم أنه لقى أكابر الصوفية واطلع على جميع ثقافات عصره، فامتدت ثقافته إلى جميع فروع المعرفة (١).

وقد بدأ اهتمام الحكيم بالقرآن منذ رحلته إلى الحج التى تحدث عنها فى رسالته، «بدوشأن أبى عبد الله» حيث سأل الله سبحانه وتعالى عند الملتزم أن يرزقه حفظ كتابه، فرجع وقد بدا عليه الحرص على حفظ القرآن، فأقامه ذلك بالليل، وكان لا يمل من قراءته، وقد يظل فى قراءته إلى الصباح حتى وجد حلاوة ذلك (٢).

وركز الحكيم فكره فى فهم القرآن الكريم، والتعمق فى استخلاص أسراره ومعانيه الظاهرة والباطنة، وقد انعكس هذا الفهم على أثار الحكيم كلها فى شتى فروع المعرفة التى ناقشها فى كتبه ورسائله المتعددة.. وكانت حصيلة هذا الاهتمام بالقرآن عددا من المؤلفات بين كتاب ورسالة تتصل بالقرآن الكريم، وتكشف عن جوانب مهمة من فهمه لكتاب الله عز وجل (٣). ومن هذه المؤلفات :

---

(١) الاستاذ حسنى زيدان مقدمة «تحصيل نظائر القرآن» للترمذى ص ١٠ ط مطبعة السعادة بمصر.

(٢) الحكيم الترمذى، بدوشأن أبى عبد الله ص ١٤١ بتصرف.

(٣)الدكتور الجيوشى، الحكيم الترمذى ومنهجه فى تفسير القرآن «الضياء». عدد ١٣ س ٤ ص ٩٨ دبى.

١ ــ تفسير القرآن الكريم ذكر الهجويرى فى «كشف المحجوب»: أن الحكيم كان قد بدا تفسيرا ولم يف العمر باتمامه، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذى عمله [٤].

٢ ــ كتاب «الأمثال من القرآن والسنة» [٥]. والترمذى فى هذا الكتاب ينهج منهجا فريدا فى استعراضه لظاهرة خاصة فى التعبير عن المعانى، تعمد إلى ضرب الأمثال للايضاح والبيان [٦]، وجاء فى مقدمة الكتاب: «أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء، وخفيت عليه الأشياء، فالعباد يحتاون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء، فضرب الله لهم مثلا من عند أنفسهم، لا من عند نفسه ليدركوا ما غاب عنهم [٧].

«ومن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها، ليعقلوا بها، فيدركوا ما غاب عن أبصارهم واسماعهم الظاهرة» [٨].

٣ ــ كتاب «تحصيل نظائر القرآن» الذى يبين لنا أن الحكيم أجاد فى الاحاطة باللغة العربية وفقهها. وأنه صاحب منهج فى التذوق لمعانى القرآن الكريم» [٩].

٤ ــ تفسير آية «لا شرقية ولا غربية»، وقد تناول تفسيرها فى أكثر من موضع من كتبه ورسائله [١٠] ولا زال هذا التفسير مخطوطا فى مكتبات العالم.

---

(٤) الهجويرى، كشف المحجوب جـ١ ص ٣٥٣. وهذا التفسير لم يتم العثور عليه حتى الأن.

(٥) تم تحقيق هذا الكتاب بمعرفة الأستاذ على محمد البجاوى، طبع دار نهضة مصر للطبع والنشر.

(٦) الدكتور الجيوشى، الحكيم الترمذى ومنهجه فى تفسير القرآن. الضياء ع١٣ ص٩٨ س٤ دبى.

(٧، ٨) الحكيم الترمذى، الأمثال من القرآن والسنة، ص١، ٢.

(٩) حقق هذا الكتاب «تحصيل نظائر القرآن» الاستاذ حسنى نصر زيدان وطبع سنة ١٣٩٠هـ بمطبعة السعادة.

(١٠) الدكتور الجيوشى، الضياء ع١٣ ص٩٨ س٤. دبى.

٥ ـ طائفة كبيرة من المسائل يتناول كل منها تفسير آية من القرآن الكريم ومعظمها موجود ضمن مجموعة « ليبزيج » (١١) .

ومما يسترعى انتباه الباحث أن الحكيم الترمذى قد عالج فى كثير من مؤلفاته قضايا قرآنية. وكان الحكيم يرى أن القراء ليسو بحملة للقرآن ـ كما يحلو لهم أن يدعوا ذلك ـ لأن حمل كتاب الله لايكون بحمل حروفه وألفاظه فقط ، يقول الحكيم : « فحملة القرآن من حمل معانيه قلبا ، وحمل حروفه منطقا ، وحمل كسوته صدرا ، فإن القرآن كلام الله عز وجل ، وعلى كل حرف منه نور، وذلك النور كسوته ، فهو يطلب قلبا طاهرا ، ونفسا صافية ، وصدرا مشروحا ، حتى يلج ذلك النور مع الحروف .. فإذا لم يجد قلبا بهذه الصفة ، وقف خارجا ، ولم يكن فى القلب إلا معانى الحروف ـ أعنى معانى الحروف علما ـ قال الله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (١٢) فالكتاب هو الحروف المؤلفة المنظمة بنظامه المتضمنة معانى كثيرة ، والنور كسوته ، والكتاب مشتق من الكتب وهو النظام ، ومنه سميت الكتابة . والقراءة اتباع الحروف بعضها بعضا قال الله تعالى : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » (١٣) فإذا وجد قلبا طاهرا حل به تبعة النور، فأضاء الصدر بمعانيه ، وإذا لم يجده بقى « علم » الحروف وعلمه بلا نور، فيضىء الصدر بمعانيه ، ولم تصر الأخبار كالمعاينة (١٤) .

« فحمل القرآن انما يحتاج إلى قلب طاهر ونفس صافية ، وصدر مشروح بالايمان كى يدرك معانيه وكسوته . أما قراءة القرآن وأداؤه بغير هذا القلب الطاهر والنفس الصافية ، والصدر المشروح ، فإنما هو اتباع الحروف بعضها ، وتحصيل لمعانى الحروف علما فحسب . فإذا لم يجد قلبا بهذه الصفة وقف خارجا ، ولم يكن فى القلب إلا معانى الحروف » (١٥) .

---

(١١) مجموعة لبزيج رقم ٢١٢ القسم العربى.

(١٢) سورة المائدة : الآية رقم ١٥.

(١٣) سورة القيامة الآية رقم ١٨.

(١٤) الحكيم الترمذى، «الفروق ومنع الترادف» مخطوط ورقة رقم ٦٢، ٦٣ بلدية الاسكندرية رقم المخطوط ٣٥٨٦ج.

(١٥) الاستاذ عبد المحسن الحسينى (المعرفة عند الحكيم الترمذى) ص ٨٢.

فالقراء فى نظر الحكيم الترمذى يحصلون معانى القرآن علما فحسب وليس هذا هو المراد لأن المطلوب هو تحصيل معانى القرآن علما ومعرفة. ولا يتأتى ذلك إلا بالقلب الطاهر والنفس الصافية، والصدر المشروح، وتلك هى الحقيقة التى تحتاج إلى اهتمام من حملة القرآن الكريم، يقول الحكيم: «وإنما القرآن كلام الله سبحانه تكلم به، وكلم به عباده، وأنزل كلامه وحيا تنزيلا مع الكسوة، وكسوته نوره، وقال: «**ياأيها الناس قد جاءكم نور من ربكم وكتاب مبين**» (١٦) فالنور الذى من الله تعالى هو أصل الأنوار، انشعب، فصار فى كل حرف منه شعبة، ثم ألفها العالم الجواد الجليل بعلمه وحكمه وعدله، فقسمه بين الحروف، والكتاب هو الحروف المنظومة، والكتب النظام، ومنه سميت الكتيبة فى الجيش، لأنها تتبع بعضها بعضا، فتلك الحروف المنظومة المؤلفة هى الكتاب ألفها رب العالمين بجوده ولطفه ثم بحكمته وعدله، ثم أجراها من المجرى بعزة محشوة بتلك الحروف بأنوار المعانى ثم أنزلها برحمته تنزيلا متضمنا وحيه فيها المنن واللطائف لابراز المكنون والعطف على أحبابه، والفرائض والحدود للعبودة، والنذارة والبشارة للمعونة، والهدى والبيان الشافى لما فى الصدور من سقم النفس لاتخاذ الحجة» (١٧).

ولعله مما يجب أن يتنبه له الدارسون، ويفطن إليه الباحثون «أن الحكيم الترمذى لم يلتزم منهجا واحدا فى تفسيره للقرآن الكريم فالمتتبع لما جاء عن الحكيم فى التفسير: يرى أن له أكثر من منهج وأن كان الاتجاه الصوفى يغلب على أكثر ما كتبه فى حقل التفسير... فهناك التفسير الظاهرى الذى جرى عليه أكثر المفسرين، ويمثل هذا المنهج فى أثار الحكيم الترمذى، تفسير الأيات التى تناولها. وهناك التفسير الذى يركز على المعنى الباطن لكلمات القرآن الكريم، معتمدا على أن لكل كلمة من القرآن ظاهرا وباطنا.. وهناك التفسير القائم على استنباط أسرار الحروف التى تتألف منها الكلمات. هذه هى الاتجاهات

---

(١٦) سورة المائدة: الآية رقم ١٥.

(١٧) الحكيم الترمذى (مخطوط الأكياس والمغترين) ص ٥٩، ٦٠ المكتبة الظاهرية بدمشق، منه صورة بمعهد المخطوطات رقم ٣٥١ تصوف.

العامة التى نجدها مبثوثة فى رسائل الحكيم وكتبه فى التفسير.. وهناك إلى جانب ذلك اتجاهات خاصة » (١٨).

ولا يخفى أن هذه الاتجاهات ترجع إلى تذوق الحكيم لمعانى القرآن الكريم، والوجدان الدينى الذى يحس به، مما جعله يتنقل من الموضوعية إلى التجربة العندية بالمشاهدة الروحانية من الباطن، بحيث يمكن أن نقول أن هذه التجربة والمشاهدة قد أصبحت لدى الحكيم هى الأصل المعتمد فى استنباط المعانى من القرآن..

« ولذا نجد أن الحكيم ينقض فكرة الترادف (١٩) فى الألفاظ وبرفضها رفضا قاطعا، معللا ذلك بأن اللفظ إذا كان مرادفا للفظ آخر، أدى إلى الاختلاف فى الفهم، فقد يعلم الإنسان هذا المعنى لفظا، ويعلم الآخر لفظا آخر، فيختلف الفهم » (٢٠).

وإذا كان بعض العلماء يرى أن الترادف يوسع دائرة التعبير، ويسهل مجال النظم والنثر، بالإضافة إلى أنه يعمل على تأدية المقصود باحدى العبارتين عند تساوى الأخرى « فإن الحكيم يرفض هذا، وينهج نهجا خاصا، يعرض فيه لطائف من الألفاظ والعبارات التى يقال بترادفها، وذلك ليثبت نقيض ذلك » (٢١) وتقوم فكرة تأليفه لكتاب « الفروق ومنع الترادف » على أن الترادف بالذات أمر مستحيل بين لفظتين.. ولا شك أن الكتاب شاهد صدق على المجهود الذى بذله الحكيم للاستفادة من معطيات التحليل النفسانى واللغوى لدعم هذه القضية. « لقد كان الحكيم بارعا فى النفسانيات وعلى معرفة متعمقة واسعه باللغة وأسرار بيانها. لذلك جاءت القاعدة التى بنى عليها نظريته فى منع الترادف تقول: يقال فى لفظتين أنهما مترادفتان إذ تدلان على عمل متشابه فى الظاهر، لكن الصحيح أن بين اللفظتين خلافا لا يمكن ادراكه إلا

---

(١٨) الدكتور الجيوشى الضيــاء ع ١٣ ص ٩٩ س ٤ دبى. الأمارات العربية.
(١٩) الترادف هو دلالة عدة الفاظ على معنى واحد كالحنطة والبر والقمح للحبة المعروفة.
(٢٠) الاستاذ حسنى نصر، تحصيل نظائر القرآن، ص ١٤.
(٢١) المصدر السابق ص ١٤.

بتجاوز الظاهر إلى الباطن. أى إلى المصدر النفسانى الذى عنه ينبعث العمل، على أن لهذا المصدر وجهين: أنه القلب الذى يولد الأعمال الصالحة من وجه، ومن الوجه الآخر: إنه النفس التى لا يسعها مادامت سقيمة إلا أن تولد أعمالا ناقصة. ومن الشواهد على ذلك فيما يقول الترمذى: هو التشابه فى الظاهر بين الحركات التى تنصاغ فيها «المداراة» و«المداهنة». فإن هاتين اللفظتين تعنيان كلاهما: المعاملة باللطف والوداعة، لكن بينهما تباينا فى الباطن أى فى النية فإن صاحب «المداراة» صادق مخلص فى تلطفه، على حين أن صاحب المداهنة متملق مغرض.

والحكيم الترمذى لم يقف عند هذا الحد. بل راح يوضح أن الأسماء والألفاظ سمات المدلولات والحقائق. ويجب أن يكون هناك عامل مشترك ثابت بين صور اللفظ المتعددة. فاللفظ مهما تعدد معناه فمرجعه إلى حقيقة واحدة تلك هى الفكرة الرئيسية التى قام عليها تأليفه لكتاب «تحصيل نظائر القرآن»(٢٢). والذى يثبت فيه الحكيم: أن الترادف وإن وقع بين ألفاظ فلأنها تدل على حالة نفسية واحدة تختلف بين وقت وآخر. فلم يعد اختلاف الوجوه بعد ذلك مأخوذا من مجرد اللفظ بل من علاقة ذلك اللفظ بالنفس التى تخلع هى عليه معانيه.

ويبدو أن الحكيم الترمذى قد وقع فى يده كتاب «الوجوه والنظائر» الذى وضعه مقاتل بن سليمان. وخص فيه لفظة «الوجوه» بالألفاظ ولفظة «النظائر» بالآيات. وهذا يعنى أنه بين لكل لفظة قرآنية الوجوه المختلفة التى وردت عليها فى الآيات. فتصبح هذه الأخيرة إن وردت فيها اللفظة الواحدة بوجه واحد هى النظائر(٢٣).

وكان مقاتل بن سليمان يذهب إلى منهج ثلاثى الوجوه، أما الوجه الأول: فهو قراءة النص بحرفه ولفظه لاستخراج ما ينطوى عليه هذا الحرف واللفظ من

(٢٢) انظر الاستاذ حسنى زيدان، تحصيل نظائر القرآن، المقدمة ص ١٤.
(٢٣) انظر: بولس نويا، التفسير القرآنى والمصطلح الصوفى، ص٥٢.

معنى معين وضعى مباشر. وأما الوجه الثاني: فهو أخذ النص بقراءة تاريخية أى برده إلى القرائن التاريخية التى اكتنفت تنزيله أوسببته.. وأما الوجه الثالث: فإنه حمل النص على معنى رمزى أشارى (٢٤). وفى كتاب «الوجوه والنظائر» بعض التأليف بين القراءة باللفظ والقراءة بالتاريخ، والقراءة بالرمز والاشارة. وهذا التأليف يقوم على مجرد ترادف الألفاظ القرآنية فقط (٢٥).

وإذا كان صاحب كتاب «الوجوه والنظائر» لا يرى أن اللفظ يرد على وجوه كثيرة متباينة فهو فى مكان بمعنى، وفى آخر بمعنى، وفى ثالث بمعنى.. وهكذا، مثلا كلمة الذكر تأتى مرة بمعنى الصلاة، وبمعنى الخير وبمعنى الوعظ، وبمعنى الشرف، وبمعنى القرآن.. فإن الحكيم الترمذى يرى: «أن هذه المعانى جميعا، وتلك الوجوه المتعددة فى الظاهر أنما مردها إلى أصل واحد تتشعب عنه، وترد إليه (٢٦) فكلمة «الذكر» هذه إنما مردها إلى أصل واحد، ثم تشعبت هذه الوجوه عنه (٢٧) فإن كان للفظة القرآنية الواحدة وجوه متعددة من المعانى، فذلك عائد إلى تعدد الأحوال فى النفس باختلاف الظروف والأوقات. ويعنى ذلك مثلا: أن الألفاظ الشارحة التى تذكر للفظ «الهدى» فى القرآن على أنها مرادفة له، لا تدل أصلاً إلا على معنى واحد تشير إليه لفظة «الميل» وحدها. أما المعانى المتعددة التى تؤخذ عليها كلمة «الهدى» فإنما ترتد إلى اطلاق هذه الكلمة على الأحوال النفسية المختلفة (٢٨).

لقد قام الترمذى اذن فى كتابيه «منع الترادف» و«تحصيل نظائر القرآن» بعمل واحد ذى وجهين: فبين أولا كيف تحل وحدة الترادف بين

(٢٤) راجع: فريد جبر، التصوف والاستشراق، ص ٥٥، من مجلة «الباحث» العدد رقم ١٠ السنة الثانية، فرنسا.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٥٥.

(٢٦) الاستاذ حسنى زيدان مقدمة «تحصيل نظائر القرآن» ص ١٤، ١٥.

(٢٧) الحكيم الترمذى «تحصيل نظائر القرآن» ص ٥١ ــ ٦٧ وانظر المقدمة أيضا.

(٢٨) الحكيم الترمذى «تحصيل نظائر القرآن» ص ١٩ ــ ٢٤.

الألفاظ لتكشف عن فروق هذه الأخيرة. ثم ثانيا كيف ترتد كثرة المعانى فى اللفظ الواحد إلى كثرة تساويها من الفاظ لا تتألف إلا بعد تطبيقها على ما ينشأ فى النفس من أحوال. ثم إن النفس هى التى توحد بين ذلك كله وتتيح لنا تصنيفه بالرجوع إلى التجربة والمشاهدة من الباطن (٢٩).

لقد تمكن الحكيم من الجمع بين مقياس النفس واللغة، حيث أخذ اللغة قواعدا وفنونا، وصهرها فى بوتقة التجربة الدينية بالمشاهدة من الباطن، وفى ضوء هذا عالج الترمذى معانى ألفاظ بقاعدة الوجوه والنظائر، ونخص بالذكر ما تناوله الحكيم بتحليله وكان متصلا بالتصوف مثل ألفاظ: «الهدى، والكفر، والشرك، والمرض، والشىء السوء، والذكر، والخوف، والرجاء، والصلاة، والروح، والوحى، والقنوت، والصلاة، والطهو، والظن، والحكمة، والظلم، والتأويل، والدين، والإسلام، والإيمان، والشهيد» (٣٠).

إن الحكيم يعتمد عملا ذا وقتين: وقت أول يرد الحكيم فيه تلك المعانى المتعددة إلى وحدة نفسيه هى أصلها، ثم فى وقت ثان يبين كيف تتفرع تلك الكثرة فى الوجوه عن ذلك الأصل أو ترتد إليه. وللقيام بهذا العمل لجأ الترمذى إلى طريقتين متداخلتين متساوقتين، فإنه تارة يستخدم التحليل اللغوى الذى مكنه منه اطلاعه الواسع على اللغة العربية وأسرار بيانها ثم انه تارة أخرى يتصرف بالمعطيات المباشرة التى تمده بها تجربته السلوكية فى الطريق إلى الله. وبهذا كان عطاء الحكيم كبيرا.

(٢٩) الأب فريد جبر «التصوف والاستشراق» ص ٥٨ م الباحث ع ١٠ س ٢ بيروت.

(٣٠) الحكيم الترمذى، «تحصيل نظائر القرآ» تحقيق الاستاذ حسنى محمد زيان، ط السعادة.

جهود الحكيم فى الفقه وموقفه من الفقهاء

الحكيم الترمذى يقرر فى كتابه «بدوشأن أبى عبد الله»: أنه كان مهتما بدراسة علم الأثار وعلم الرأى «علم الحديث وعلم الفقه» وأنه تلقى هذين العلمين على علماء عصره، وكبار الشيوخ فيه.

«وكان علم الرأى ينطلق أول ماينطلق فى الفقه على مذهب أبى حنيفة، وكما درس الحكيم الترمذى علم الرأى فقد درس كذلك علم الأثار.. ولأهل الحديث موقف بالنسبة للأحكام الفقهية يختلف مع موقف أهل الرأى. فماذا كان موقف الحكيم وقد جمع بين دراسة علم هؤلاء وهؤلاء؟» (١).

«إن المعرفة عند الحكيم لابد أن تنعكس أثارها على منهج العالم وسلوكه، والعلم النافع هو الذى يهدى صاحبه إلى الطريق الموصل إلى الله سبحانه وتعالى ومعرفته» (٢).

والمحدث الكامل هو الذى يتلقى الحديث بقلب واع يكشف وجوه المعانى والتأويل، ويقوم بتفهم الحديث وتفسيره، واستنباط ما يمكن استنباطه منه بعد معرفة الخاص والعام والناسخ والمنسوخ، وما شاكل ذلك فمن يكون هذا؟ أليس هو الفقيه؟ وأى فقيه هو؟ أليس هو الفقيه على طريقة أهل الحديث؟ (٣).

يرى الحكيم الترمذى: أن الفقه هو معرفة الشىء بمعناه الدال على غيره،

(١) انظر الدكتور بركة (الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية) جـ١ ص٨٤.
(٢) انظر الدكتور الجيوشى (الحكيم الترمذى دراسة لآثاره وافكاره) ص١٧٨.
(٣) انظر الدكتور بركة (الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية) جـ١ ص٨٤.

والعلم هو تجلى الأشياء له بنفسها ، ولذلك يوصف الله تعالى بالعلم ولم يوصف بالفقه (٤) .

والذى يفهم مراد الله فى الأشياء حسب ما يمنحه من توفيق فى تعظيم أمره سبحانه واجتناب نهيه ، هو الفقيه فى أصول الدين وفروعه (٥) .

ويقول الحكيم الترمذى : وليس كل من يكون فقيها فى الفروع فقيها فى الأصول ، لأن الفقه فى علم الأحكام كثير وهو فقيه بالتفقه وهو حامل الفقه والعلم .. والفقه اسم للعلم يعبر بهذه اللفظة عنه ، يقال فلان يتفقه ويتعلم ، وأما الفقه فى الحقيقة فهو فقه القلب ، وفقه المتعلم بوضعه فى باطن الصدر ، ويزداد نوره بالتعلم والاستعمال ، ويتفرع له أنوار الفقه والفهم ، فيستنبط بنور فقهه مسائل ويقيس ما لم يعلم بما يشبهها ويشاكلها ويقرب من معناها . وأما الفقه فى الدين فهو النور الذى يقذف الله تعالى به فى قلب عبده المؤمن مثل السراج يبصر به ولا يكون ذلك للكافر والمنافق .

فأما استنباط الفقيه فى الأحكام فهو استنباط المسائل على موافقة السنة واقامة الشريعة . وأما استنباط الفقيه فى باطن العلم . فهو استنباط الخواطر على موافقة الحقيقة ، ومشاهدة الربوبية ، وإنما نتبين زيادة الفضل بينهما فى استنباط معنى فى الباطن والظاهر لأية قد أنزلها الله تعالى يوجب ظاهرها حكما ، ويكون تحت ظاهرها من العبارة التى فى باطنها اشارة وعلم . فيسنبط الفقيه ما يوافق حجة الله تعالى ، ويستنبط الحكيم ما يوافق مراد الله تعالى ، ويهدى إلى محجته بما تبين من لطائف الاشارات موافقا للتوحيد ومخبرا عن مراد يوافقه الحميد (٦) .

وخلاصة ذلك كما يذكر الدكتور بركة أن لفظ «الفقه عند الحكيم يطلق بمعنيين :

---

(٤) الحكيم الترمذى «أنواع العلوم» مخطوط ورقة ٦٦ .

(٥) انظر الدكتور الجيوشى (الحكيم الترمذى دراسة لاثاره) ص ١٨٠ .

(٦) انظر: الحكيم الترمذى (الفرق بين القلب والصدر والفؤاد واللب) ص٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، تحقيق نقولا هير، ط القاهرة.

الأول: بمعنى علم الأحكام، والفقيه بهذا المعنى هو الذى يتعلم هذا العلم ويحمله، فهو متفقه، وهو فقيه بالتفقه، وهو حامل الفقه والعلم.

والثاني:

وهو المعنى الحقيقى.. بمعنى فقه القلب أى قوة الفهم والادراك

والأول: يزداد نوره وعلمه بزيادة التعلم والاستعمال، ويمكن أن يطلق عليه أنه فقيه في الأحكام، فهو قادر بنور ما حصل على استنباط مسائل وقياس ما لم يعلمه منها بما يشابها ويشاكلها ويقرب من معناها بما يوافق حجة الله تعالى.

والثانى: يستعمل النور الذى قذفه الله تعالى فى قلبه، ويمكن أن يطلق عليه لهذا أنه فقيه فى الدين، وهو قادر على استنباط الخواطر على موافقة الحقيقة، مما قد يحمله ظاهر المسألة من اشارة وعلم فيستنبط ما يوافق مراد الله (٧).

ولما كان القياس (٨) واستنباط الأحكام بهذه المثابة، فإنه ينبغى التفريق بين الطريقتين والتميز بين النوعين. أما أن يطلق على كل منهما استنباط وقياس، فيرى الحكيم أن ذلك قد يوقع فى الخلط، ويعطى حكم كل منهما للآخر مع أن الطريقة الثانية أتم وأكمل، وهى التى ينبغى أن تعطى حكم القايس، ويوصف أهلها بأنهم هم أهل القياس.

ويوضح الحكيم وجهة نظره بشرح معنى كلمة قياس ليبين خطأ استعمالها واطلاقها على كل اجتهاد أورأى، فالقياس استعمل على أنه اعطاء مسألة جزئية حكم مسألة جزئية أخرى لعلة تجمعهما. ويسمون المسألة المقيس عليها أصلا، والمسألة المقيسة فرعا.

ويعترض الحكيم على الزامه هو أوغيره باتخاذ هذا الأصل الاصطلاحى

---

(٧) انظر الدكتور بركة، الحكيم الترمذي ونظريته فى الولاية، جـ١ ص٨٥.

(٨) القياس هو حمل معلوم على معلوم آخر، لاشتراكهما فى علة الحكم مثل الحكم بحرمة غير الخمر من المسكرات على الخمر لوجود العلة وهى السكر، والقياس حجة ودليلا فى الأحكام الفقهية. انظر: الأحكام للآمدى جـ ٨١/٣، والمستصفى للغزالى ٢٨١/٢.

أصلا حقيقيا شرعيا. وبالتالى على الحاق المسألة الفرع به فى الحكم (٩).

«ويرى أن ذلك الحاق فرع بفرع لا بأصل. وان سمى بذلك اصطلاحا لأنه مسألة جزئية شاركت أوشابهت مسألة جزئية أخرى فى ناحية من النواحى يسمونها علة فاشتركا أوتشابها فى الحكم، وليس ذلك قياسا عند الحكيم بل هو مشاكلة، شاكل فيها فرعا، وشاكلت مسألة جزئية مسألة فأعطيت حكم الأخرى مشاكلة لا قياسا. والمشاكلة لا تؤدى إلى الحكم الصحيح إلا مصادفة بخلاف القياس، لأن القياس هو أن يسوق كل فرع إلى أصله الذى أصله الله عز وجل لعباده فى المسألة التى يبحث عن حكمها لا إلى فرع آخر، أومسألة أخرى أشبهتها عند الناظر فى العلة فاتخذت أصلا.

والمقصود بالقياس هو اصابة حكم الله فى المسألة، فإذا أعطى الفرع الحكم الذى استنبط من أصله الذى أصله لعباده الله، فإن اصابة حكم الله حينئذ تكون باتباع هذا المنهج لا بمحض المصادفة، أما اعطاء الفرع حكم فرع آخر، دون نظر إلى أصله، فقد يصيب حكم الله وقد لا يصيب واصابة الحكم حينئذ لا تكون بسبب القياس أوالمشاكلة، بل بالمصادفة لأنه لا دليل على اتصال هذا الفرع بهذا الفرع إلا بوجه الشبه فى العلة حسب الظاهر، ولهذا يرد الحكيم الترمذى كثيرا من الخلط فى الأحكام إلى اتخاذ منهج المشاكلة دون منهج القياس، مع اضطراب المشاكلين واعتقادهم أنهم يقيسون. أولئك هم أهل الرأى (١٠).

فالحكيم الترمذى يرى أن كثيرا من الخلط فى الأحكام كان نتيجة للاهتمام بمنهج المشاكلة الذى يتخذه أهل الرأى.. لذا نراه يوجه إليهم كلاما يتسم بالشدة فيقول: «فتفقد هذا من أهل زمانك تجد هذا منهم ظاهرا، فلذلك ذلوا وصاروا عند العامة متهمين، تحلوا بالأعمال الظاهرة على الجوارح عند العامة، ورضوا فيما بينهم وبين ربهم أن يكونوا فى أخلاق الشياطين فى الباطن، وذلك مثل الغش، والغل، والحقد والحسد، وطلب العلو، وطلب

(٩) انظر الدكتور بركة، الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية، جـ١ ص٨٦.

(١٠) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٨٦.

المنزلة عند الناس، وحب الجاه، والفرح بالحياة، وحب الثناء والمحمدة، وخوف الفقر والكيد، والغضب، وحب الرياسة والعداوة والبغضاء والطمع والرغبة والرهبة والحرص والشح والبخل والتعظيم للأغنياء والاستهانة بالفقراء من أجل فقرهم، والبذخ والبطر والأثر، والتحبب إلى الناس بما يحب الله، فإذا خلا ففيما يكره الله.وجمع الدنيا للفخر والتكاثر والخيلاء والتنافس فى الدنيا، والمباهاة والرياء والسمعة والاعراض عن الحق استكبارا، والسفه والخوض فيما لا يعنيه، وكثرة الكلام، وفضول الكلام، وفضول الطعام، والصلف والمن والأذى، واختيار الأحوال، والتملك فى الأمور، والاقتدار فى الأمور، ونسيان النعمة وترك ذكر المنعم والعمى عن احسان الله، وافتقاد الحزن من القلب والخشية والانتصار للنفس إذا نالها الذل، وترك الانتصار للحق، واتخاذ اخوان العلانية على عداوة فى السر والأمن، لسلب ما أعطى وترك الهدى حتى يشارك فى الأمور، والانقياد للهوى، وشهوة الكلام، والشهودة الخفية، والاتكال على الطاعات، والهرب من الذل فى هجنة من الحق وطلب العز والمكر والخيانة والمخادعة وطول الأمل والتجبر وعزة النفس وخوف سقوط المنزلة فى عيون الخلق، وذهاب ملك النفس إذا رد عليه قوله، والتماس المغالبة لا لله، والقسوة والفظاظة وغلظ القلب، وغيظ النفس والغفلة والركون إلى الدنيا، وسوء الخلق، والفرح بالدنيا، والحزن على فواتها، والانس بالمخلوقين والدهشة إذا عجز عن رؤيتهم، والمران فى الكلام والجفاء والطيش والعجلة والخفة والحق والدهاء والجربذة وقلة الحياء، وقلة الرحمة [11].

ولا يخفى على أهل العلم أن نقد الحكيم لهؤلاء موجه لأهل الرأى فى عصره، لأنه أدرى بهم، وبسلوكهم.. ونرى أن الحكيم لم يقبل الحيل والمخارج التى اعتبرها أهل الرأى فقها، وما هى إلا مشاكلة لا تتفق مع منهج القياس الذى يضع القضايا الفقهية فى موضعها الصحيح ولا يزال الحكيم يكشف فى وضوح عن أمثلة من احتيالاتهم فيقول:

---

(١١) الحكيم الترمذى، الأكياس والمغترون، ورقة ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠ مخطوط معهد المخطوطات، صورة من المكتبة الظاهرية بدمشق.

«ومن ذلك الاحتيال فى ابطال الشفعة والاحتيال فى ابطال الحقوق التى يخاف لزومها اياه. فذهب المغتر فنصب له حيلة من طريق العلم على مخاتلة وتمويه أن يشترى جزءا من أجزائها بأكثر الثمن الذى سمى حتى يصير شريكا، ثم يشترى الأجزاء الباقية بشىء قليل حتى يعجز الشريك الآخر عن ذلك الثمن الذى أدى فى الجزء الأول، فهذه حيلة أصحاب السبت الذين قيل لهم كونوا قردة خاسئين، حيث نهوا عن العمل يوم السبت فهيأوا قبل يوم السبت حظائر على السواحل حتى جاءت الحيتان يوم السبت، فدخلوا الحظائر، وقالوا انما نهينا عن الصيد وليس هذا باصطياد، فمسخوا قردة بما خادعوا الله. قال الله تعالى: **«فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين»** ليتعظ المتقون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم عن مثل هذه المخادعة (١٢).

«ومن ذلك هذه الأشربة الخبيثة التى انما حرمت لذهاب العقول، وسكر الصدور، وشره النفس، وظهور الفساد فى الأرض. فذهب هذا المغتر فعمد إلى عصير فطبخه حتى إذا بلغ مبلغا من الطبخ غلظ عليه، وذهبت شدته. نبذ عليه الماء حتى رق بعد أن كان غلظ حتى عاد لشدته ثم غلا غلية، ثم قال قد طبخناه على الثلثين وانتهينا إلى الحد المحدود وهذا نبيذ، وإنما يسكر كثيره ولا يشرب منه إلا بمقدار لا يسكر. وإنما حرمت الخمور والخمر هو نئ وهذا طبيخ، فتراهم سكارى مع الهذيان بوالين فى الأسكة يتلوثون فى القيء يقولون ليس هذا بمسكر ويرون أحاديث أكاذيب كلها من طريق المفتونين» (١٣).

وللحكيم الترمذى كتاب سماه كتاب «العلوم» ألفه فى مناقضة الفقهاء وخدعهم وحيلهم وقد ورد ذكر هذا الكتاب فى كتاب «الأكياس والمغترون» وهو نقد لمنهج الفقهاء على ضوء المنهج الذى يدعو إليه الترمذى. يقول الحكيم: ولنا فى هذا كتاب سميناه «كتاب العلوم» ألفته نقضا على هؤلاء المخادعين من أصحاب الحيل الذين يحتالون بما يبطلون به أحكام الدين، يريدون أن

---

(١٢) الحكيم الترمذى، الأكياس والمغترون، ورقة ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، مخطوط معهد المخطوطات العربية.

(١٣) الحكيم الترمذى، الأكياس والمغترون، ورقة ١٣٢، ١٣٣، مخطوط معهد المخطوطات العربية.

يتخلصوا بحيلهم من أحكام لزمتهم .. ويقولون أن هذه أحكام لم تلزمنا فنحن نحتال فنفر من لزومها ، فيقال لهم قد تسترتم بهذه الكلمة وهذه أشياء قد خلطتموها فلبستم على أنفسكم ما لزمكم بما لم يلزمكم » (١٤) .

فالحكيم الترمذى يأخذ على هؤلاء أنهم يحتالون بالعلم ليفروا من بعض الأحكام ، ثم يلتمسون لأنفسهم عذرا بعد ذلك بأن هذه أحكام لم تلزمهم .

ولا شك أن الترمذى لم يقر هؤلاء على ما كانوا عليه ، بل وقف يأخذ عليهم :

ــ مخادعتهم لأنفسهم فى المنهج العلمى بالاحتيال ..

ــ تخلصهم من بعض أحكام الدين التى لا تجرى على هواهم ..

وهم فى هذا وذاك إنما يحكمون فى الدين برأيهم وهواهم ، ويغفلون عما وضعه الله فى ذلك من حكمة الشريعة .. هذه الحكمة التى تغيب عن أهل الرأى لأنها لا تتوافر إلا لمن يعنى بعلوم الحكمة والمعرفة ، وهى من علوم الباطن ، وليست من علوم الظاهر(١٥) .

وأهل البحث فيما كتبه الحكيم فى شئون الفقه والفقهاء يرون : أنه لم يغفل تعليل اندفاع أهل الرأى فى المخادعات والحيل والمخارج التى جاءوا بها ، ويرجع الترمذى ذلك إلى ثلاثة أمور، لهذا ما فتئ ينقد هذه الأمور أمراً أمراً .

١ ــ الأمر الأول من هذه الأمور الفقه نفسه ، لأن موضوع الفقه ــ كما يرى الحكيم ــ لا يربى فى الفقيه ضميرا ، ولا يبعث فى النفس ورعاً(١٦) ، قال الحكيم الترمذى فى المسائل المكنونة تحت عنوان : «أصحاب الفقه وأهل الحديث» : قال له قائل : نرى صنفين فى هذا الدين صنف ينتحلون الفقه وعلم الرأى ، وصنف ينتحلون الحديث ، ونلاحظها فنرى أصحاب الرأى أكثر تهافتا وذللا ، وأقسى قلبا ، وأخشن جانباً ، وأكثر تظالماً وتحاسداً من أهل الحديث ، فمن اين هذا ؟ .

(١٤) الحكيم الترمذى . الأكياس والمغترون . مخطوط ص ١٥ . ١٦ .
(١٥) انظر الحسينى «نظرية المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٩٢ .
(١٦) المصدر السابق ص ٩٢ .

قال: إن هذه الشهوات فى النفوس عاملة، وللقلوب عن الله شاغلة، وللأرواح مثقلة. فهى محتاجة إلى الوعظ، وأن أصحاب الرأى من لدن أن بدا أحدهم فى تعلمه إلى أن يفارق الدنيا إنما يجرى على سمعه خدائع الناس ومخاتلاتهم، وجناياتهم بعض على بعض.. فهم الشهر والدهر فى ذكر تلك الأشياء، كيف يردونها إلى الأصول التى فى أيديهم من عدل الله وحكمه، فانظر فى علمهم الذى قيدوه فى كتبهم من علوم الأحكام أحسبه يقع فى أكثر من ألف مجلد.... فهل ترى فى شىء منها ذكر المعاد وصفة الجنة والنار وصفة الموت والبرزخ وما فيه من الأهوال وصفة القيامة وأهوال الموقف وشدة الحساب وقطع مسافة النار على دقة الصراط، ووزن الأعمال، وصفة خوف الخائفين، وشوق المشتاقين، وخشية العلماء بالله، وصفة المتقين والورعين، وصفة الزاهدين والراغبين ومنازل الدين، ومكايد النفس والعدو والهوى، وصفة الأكياس والمغترين، وحكمة القرآن ولطائفة وبواطنه وعجائبه، ومحاسن أخلاق الكرام فى الدين واخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشمائله وأخلاق أصحابه، وسيرتهم من بعده، وجدهم واجتهادهم وصدقهم ووفائهم وبذلهم نفوسهم لله، وأخبار الأمم السالفة، وما أعطيت الأمم وما فضلت به هذه الأمة، وذكر منن الله واحسانه والنظر فى تدبير الله وعجائبه وغور الدنيا وزينتها وأخبار بنى اسرائيل وعجائب كتبهم المنزلة عليهم، وعقبى أمورهم كيف عاملوا؟ وكيف عوملوا، وبماذا حبينا من الكرامات (١٧).

وبعد أن يذكر الحكيم هذه الأمور التى تبعث على الصلاح والورع والتقوى، ويبين أن ما كتبه أهل الرأى بعيد عن هذه المعانى، يقول: «فأهل الرأى خلو من هذا العلم كله. إنما استماعهم بالآذان وفكرهم بالقلوب فى خصومات النفوس وشرهم ومكرهم وخدائعهم وأحداثهم، وخياناتهم ما يوجب الحكم عليهم فى ذلك وما يحل لهم، وما يحرم عليهم، فإذا علموا هذا نظروا إلى حاجة الناس إليهم فى ذلك، واضطرارهم إليهم ليلا ونهارا خضوعا لهم وانقيادا لأمرهم وتعظيما

---

(١٧) الحكيم الترمذى، كتاب المسائل المكنونة، ص ٤٦، تحقيق الجيوشى، ط دار التراث العربى.

لهم ، ولم يجر على أسماعهم ما يجرى على أسماع أهل الحديث مما ذكرنا من هذه العلوم .

فرحت نفوسهم بما أوتوا من العلم ، وبطرت بما نالت من العلو والتعظيم ، فتلظت شهوات نفوسهم كالحريق فى أجوافهم ، وانتضخ الكبر فى صدورهم ، حتى صير أحدهم عند نفسه كجبل شامخ ، ذاهبا بنفسه ، وهاج الحرص والحسد ، فتنافسوا وتناطحوا على العز والرياسة شحا وأسفا على فوتها ، حتى أداهم ذلك إلى مشاركة الملوك فى ملكهم ، فصدقوهم بكذبهم وأعانوهم على ظلمهم ، وزينوا لهم سوء فعالهم ، وهدوهم من الشر ما لم يهتدوا إليه .. وقبلوا من الملوك ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فوعدهم العذاب فنظرنا إلى هؤلاء المتفقهة تكلفا فوجدناهم إنما أوتوا من أن الأسماع خلت من أن يجرى عليها ذكر المعاد ، وذكر ما له خلقوا .

والأشياء التى ذكرنا بديا من علم عظمة الله وربوبيته ، وعلم التدبير والمنن والاحسان ، وعلم دواهى النفس ، ومكايد العدو ، وعلم الصدق والصفاء ، والاخلاص عبودة .

وخلت القلوب من الفكر فيها حتى تشتمل عليها أحزان العقبى ، فتذهل النفس عن دواهيها ، فاستبدلت القلوب بذلك فرحا والنفوس بطراً ، والأركان بطالة وشبقاً تتلمس أفراحها وتذوق طعمها (١٨) .

٢ ــ والأمــر الثانى من هذه الأمور : متصل بمنهج الفقهاء الذى اصطنعوه لأنفسهم وساروا عليه فى استنباطهم ، ذلك أنهم عمدوا إلى نوع من المشاكلة بين الفروع فسموها قياسا ، ووقفوا عندها ، وهى بعيدة كل البعد عن القياس ، إنما المقياس ، لا يكون لأهل الرأى ولا لعلماء الظاهر .

وهذه التفرقة بين القياس والمشاكلة توضح لنا الفرق بين المنهج الذى يدعو إليه الترمذى ، وبين منهج أهل الرأى يومئذ (١٩) .

---

(١٨) الحكيم الترمذى ، المسائل المكنونة ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

(١٩) انظر عبد المحسن الحسينى ، نظرية المعرفة عند الحكيم الترمذى ص ٩٤ .

يقول الحكيم الترمذى فى تصوير الفرق بين منهج أهل الرأى ومنهجه الذى يدعو إليه: «فالمقايسة لعبد طالح أصول الحكمة بنور الفراسة، فلما وردت عليه الفروع عرف كل فرع منها ما أصله ومن أين تفرع هذا فساقه إلى أصله، فهذا مقايس، وفى اللغة قاس وساق بمعنى واحد إلا أن هذا مستعمل فى نوع وذلك فى نوع ومثل هذا كثير كقولهم: مدح وحمد وشكر، وكشر، وعلم، وعمل، فالعلم فى الصور علامة ما فى القلب والعمل بالجوارح علامة ما فى الصدور، فكلاهما علامة. وكذلك قوله: قاس وساق، فالسايق يسوق هذا الذى قد شذ عن نظرائه إلى معدنه فالقايس يقيس هذا الفرع الذى تفرع من أصله، فبدأها هنا شاذ إلى أصله ومعدنه بمنزلة شجرة كرم لها أصول وقد كثرت فروعها فليس كل من نظر إلى تلك الفروع مشتبكة بعضها ببعض، يحسن أن يؤدى كل فرع إلى أصله فمن لم يعرف الأصل لم يقدر على الحكم فى رد هذا الفرع إلى أصله بين الأصول. فالقياس هو السياق أن يسوق كل فرع منها إلى أصله الذى أصله الله عز وجل لعباده من الحكمة البالغة الباطنة لا الحكمة الظاهرة.. والمشاكل رجل نظر فى الأصول المرسومة فى التنزيل والمسنونة فى القدوة، فإن القائد صلى الله عليه وسلم قد مر بقيادته سائرا إلى الله عز وجل، وأمر أتباعه فسن لنا القدوة وما إن تمسكنا به كنا تابعين له. وترك العهد الذى فيه رسم الأصول بأيدينا، لم يبدل ولم يغير بحمد الله ونعمته، لننظر بهذا النور المشرق فى صدورنا فلما وردت هذه الفروع شاكل بعضها بعضا أى فرع أقرب شبها ببعض هذه الفروع، فألحقه به لما رآه شكله، فهذا ليس بقايس.، هذا مشاكل إنما القياس أن يقيسه اى يسوقه حتى يرده إلى أصله الذى منه تفرع فمن هنا كثر التخليط فى هؤلاء المتفقهة، يلحقون الفرع بالفرع فيحكمون حكمه فإذا قيل من أين؟ قال: قسته، فإذا قيل على أى شىء قسته فيجىء بفرع آخر، فيقال هذا فرع، فقل شاكلته، ولا تقل قسته، فإنه لا يلزمنى تشبيهك ومشاكلتك حتى تقيس وترده إلى أصله لأنه إنما لزمه من الأصل بالكتاب والسنة.، فإذا سقت هذا الفرع حتى تلحق بالأصل فقد لزمنى كما لزمنى الأصل.، فأنت مشاكل أخذت بمعرفة هذا الأمر من الوسط لا من أصله، والأصل هو الحق والعدل، ولم

ترفع معرفتك من الحق والعدل ولا من التنزيل نصا إذا لم يكدر لك حظ من العدل والحق »(٢٠) .

ولا يخفى أن المتتبع لعبارات الحكيم فى هذه النصوص يجد أنه موضوعيا فى نقده وحياديا ، كما كان ايجابيا وليس سلبيا ، فهو يقدم البديل الذى يراه صحيحاً للفكرة التى تتهافت أمام نقده ، يدفعه إلى كل ذلك نزعة دينية عملية ، هذه النزعة هى العلة المحركة ونقطة الانطلاق التى من أجلها اتجه كل هذه الاتجاهات .

ولذلك كان القياس عند الحكيم هو سوق الفرع إلى الأصل ، أوبعبارة أخرى : الوقوف على الأصول والعلم بها ، وأما ما يفعله بعض الفقهاء فإنه معرفة للأمور من الوسط دون الأصل : «أخذت بمعرفة هذا الأمر من الوسط لا من أصله ، والأصول هذه التى لا يكون قياس بدونها والتى يجب الوقوف عليها هى الحق والعدل » والأصل هو الحق والعدل . وذا الحق والعدل هو ما يخلو منه قياس الفقية واستنباطه (٢١) .

«ولم يترك الحكيم الترمذى هذه المسألة بغير أن يضرب لها أمثلة فقهية توضحها وتبين بطريقة عملية الفرق بين المشاكلة والقياس ، وأن الاختلاف الذى ينشأ بين ما يسمى بالقياس وما يصل إليهم من الأثر الصحيح انما هو بسبب خطأ القائس وعدم اتباعه النهج الصحيح فى القياس ، فهو يشاكل ويظن أنه يقيس. ، ولو أنه قاس قياسا صحيحاً ولم يشاكل لما اختلف الحكم الناتج من القياس عن الحكم الذى يصلنا عن طريق الحديث الصحيح وبذلك تصان أحكام الشرع عن أن تكون مظنة للتضارب أوالتعارض عند هؤلاء الذين يعدون بعقولهم وقياسهم أوعند من يتابعونهم بغير علم »(٢٢) .

ويذكر الترمذى أمثلة لهذه المشاكلة التى وقع فيها أهل الرأى وادعوا أنها

(٢٠) الحكيم الترمذى ، الفروق ومنع الترادف ، مخطوطة ٩٦٨ب معهد المخطوطات العربية .
(٢١) انظر الحسينى ، نظرية المعرة عند الحكيم ، ص ٩٥ .
(٢٢) انظر الدكتور بركة ، الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ، جـ١ ص٨٧ ، ٨٨ .

نوع من القياس ومن هذه الأمثلة ، رأى أبى حنيفة فى افتتاح الصلاة بالتحميد أوبالتهليل أوبالتسبيح بدل التكبير(٢٣) .

ورأى أبى حنيفة فيمن قرأ بالفارسية فى صلاته (٢٤) .

ورأى أبى حنيفة فى الصائم إذا أكل ناسيا (٢٥) .

واننا نرى أن الحكيم الترمذى قد ساق أمثلة كثيرة ليوضح منهج الفقهاء فى المشاكلة التى ادعو أنها قياس ، وكانت تفقد أهم أركان القياس عند الحكيم . ومن أهم أركان القياس الوقوف على الأصل دون الوسط وسوق الفرع إليه .

وقد اكتفينا بذكر الأمثلة التى أوردناها ، وسنتناول واحدا منها يتضح به مراد الحكيم الترمذى فى مناقشة أهل الرأى ، يقول الدكتور بركة :

من ذلك مايرويه الحكيم عن يعقوب عن أبى حنيفة أنه قال فى الصائم إذا أكل ناسيا : «لولا الأثر لقلت بالقياس أنه يفطر»(٢٦) ويعلق الحكيم على قول ابىحنيفة بقوله : ليس ذلك قياسا إنما هو مشاكلة ، والقياس أنه لا يفطر ، ولو لم يجيء أثر لكان أهل القياس يردونه إلى الأصل فلا يحكمون عليه بالفطر(٢٧) .

يقول الدكتور عبد الفتاح بركة عارضاً لهذه القضية وموضحاً حيثيات الحكم فيها ، «فماذا كان قياس أبى حنيفة ؟ لقد شبهه بالذى يتكلم فى الصلاة ناسيا فتبطل صلاته ، والذى يجامع فى احرامه ناسيا فيفسد حجه ، وأشباه ذلك مما لا يعذر فاعله فى نسيانه ، ولما كان الصوم عبادة كهذه العبادات فإن القياس أن يبطله اتيان ماينافيه نسيانا ولا يعذر فاعله فى نسيانه ، كما أبطلنا الصلاة والحج بإتيان ماينافيها نسيانا . لكن ورد الأثر الصحيح بحكم يختلف ، فلم يبطل صيامه ، بل أجازه وقبله ولا رأى مع النص الصحيح .. إلا أن أبا حنيفة يظل مقتنعا أن الأثر يخالف القياس ، وأن القياس صحيح وإن خالفه الأثر ،

(٢٣) الحكيم الترمذى ، الفروق ومنع الترادف ، مخطوط ص ١٠٣ .

(٢٤) المصدر السابق ص ١٠٣ .

(٢٥) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» ورقة ١٠٣ صورة بمعهد المخطوطات .

(٢٦) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٨٨ .

(٢٧) راجع الدكتور بركة «المصدر السابق» جـ١ ص ٨٨ .

وأنه يتنازل عن القياس للنص تنازلا ، فالصلاة عبادة ، والصوم عبادة ، والكلام العادى فى الصلاة ينافيها ، والأكل فى الصيام ينافيه ، فإذا وقع الكلام فى الصلاة عمداً أبطلت الصلاة ، وإذا حدث الأكل أثناء نهار الصوم عمداً بطل الصوم وإذا وقع الكلام فى الصلاة نسيانا بطلت الصلاة . فالقياس إذا حدث الأكل أثناء نهار الصوم نسيانا أن يبطل الصوم ، حيث تشابهت المسألتان من كل ناحية ، وليس هناك مانع من طرد الحكم (٢٨) .

وبعد أن يفيض الدكتور بركة فى بيان قياس أبى حنيفة يمضى بنا قائلا : «فهل هذا هو القياس كما يراه الحكيم ؟ هل ساق أبوحنيفة المسألة إلى أصلها واقتص الأثر إلى هذا الأصل ليعرف حكم الله فيه ؟ أم أنه وجد تشابها بين فرع وفرع ، ومسألة جزئية مع أخرى فى علة استنبطها برأيه . فأعطى الأولى حكم الثانية بمقتضى هذا التشابه ؟ ذلك هو ما وقع وذلك لا يسمى قياسا عند الحكيم ، بل يسمى مشاكلة لأن كل من المسألتين شاكلت الأخرى فى بعض وجوه الشبه ، وذلك لا يمنع أن يكون أصل الواحدة بينهما مخالفا لأصل الأخرى ، فلا يصح أن يشتركا فى الحكم من أجل ذلك (٢٩) .

«فما القياس فى هذه المسألة كما يراه الحكيم ؟ يرى الحكيم أن الصوم هو نذر لزمه الوفاء به لربه عز وجل ، والرزق مقسوم فى اللوح مرسوم بصفته ، مقدر فى يومه ، مساق إليه ، قد حتم رب العالمين الوفاء به للعبد ، فالعبد مطلوب فى ذلك الوقت لوفاء نذره الذى سبق منه ، ومطلوب باستيفاء رزقه الذى له فى ذلك الوقت ، فالتقى الطالبان ، والتقى الوفاءان ولا بد من أن يطلب أحدهما صاحبه ، فلطف الله تعالى فأنساه نذره ، وتولى طعمته ، وعذره فى نسيانه ، لأن ذلك النسيان من الله» (٣٠) .

وبعد هذه الرؤية الواضحة ينطلق الباحث عن المعرفة يريد أن يدرك مزيدا من أصل المسألة عند الحكيم ، وهنا نجد الدكتور عبد الفتاح بركة فى كتابه :

(٢٨) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظرية فى الولاية» جـ١ ص٨٨ .
(٢٩) المصدر السابق ص ٨٩ .
(٣٠) المصدر السابق ص ٨٩ .

«الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» يقول: «فالحكيم الترمذى يرى أن أصل المسألة فى الأكل ناسيا أثناء الصيام يختلف تماما مع أصل المسألة فى الكلام ناسيا أثناء الصلاة، أوالجماع ناسيا فى الاحرام، لأن الذى أنساه فى صيامه وجعله يأكل ناسيا هو الله عز وجل وفاء بما كتبه الله له من الرزق، من حيث امتنع العبد عن تناوله وفاء بما عليه لله من العبادة.. فلم يكن فى ذلك خارجا عن حدود الطاعة لله سبحانه وتعالى بنسيانه، وأما نسيانه أثناء صلاته وكلامه فليس من الله وجماعه أثناء الاحرام ناسيا فليس من الله، بل من الشيطان، فلم تكن العبادة خالصة من نزغ الشيطان. ومازال الشيطان يصاحبها حتى جعله يغفل عنها، ويسهو فيها، ويأتى بما ينافيها، فحق اذن أن ترفض وترد وتبطل» (٣١)، وهناك أمثله كثيرة أوردها الحكيم الترمذى، وبين فيها وجه الصواب حسب المنهج الذى يسير عليه (٣٢).

ويقول الحكيم: «والحكم الجائر هو الحكم الذى يميل والهوى المتبع هو سوء التأويل فالمعنى فى الاثنين سواء واللفظ مختلف، فهؤلاء كلهم أهل الغرور، فالعالم لا يزل إلا بعدما تعمى عليه النفس طريق العلم والجاهل يقع فى الجهل، ويخطىء الطريق، والحكيم لا يميل إلى النفس وإلى الدنيا إلا بعدما عمت عليه النفس والمتأول يسؤ تأويله بهـا بعدما يخرج العلم من تلقاء نفسه مقاييساً وظنونا كمقاييس أبليس وظنونه» (٣٣) فأبليس اللعين شاكل ولم يقس.، ألا ترى أنه قال: «خلقتنى من نار وخلقته من طين» (٣٤) والنار من النور، والطين من الظلمة فكيف يسجد النور للظلمة فشاكل أصل خلقته بخلقة آدم عليه السلام، فنظر إلى بياض هذا النار وظلمة هذا الطين، فضل وقد علم الخبيث أن الأرض لم تكن فكانت وأن الماء الذى خلق منه الأرض لم يكن فكان، فإنما انسد

---

(٣١) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظرية فى الولاية» جـ١ ص٩٠.

(٣٢) ينظر كثيرا فى هذه المسائل فى كتاب اثبات العلل، مخطوط ص ١٤٣، وكتاب الفروق، مخطوط ٩٣، ٩٦، وكتاب الأكياس، ١٣٥ ــ ١٣٧.

(٣٣) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترون» مخطوط ص ٦، مكروفيلم معهد المخطوطات العربية.

(٣٤) سورة الأعراف الآية رقم ١٢.

عليه الطريق ولم يبتدئ بالقياس، ولكنه شاكل و نظر إلى طين ونار، ثم نظر إلى النور والظلمة فشاكل الظلمة بالنور فأخطأ»(٣٥).

ويعلق الدكتور بركة على هذا النص بعد أن أورده بقوله: من ذلك نرى أن الحكيم الترمذى لا يعترض على أهل الرأى باتخاذ القياس منهجا فى الأجتهاد، ولا يرى أن القياس ليس قاصرا عن الوصول إلى حكم الله، ولكن الحكيم يختلف معهم اختلافا جوهريا فى مفهوم القياس وكيفية استعماله(٣٦).

والمتابع لما كتب حول الترمذى ومؤلفاته يجد أن رؤية الباحثين تخالف ما ذكره الدكتور عثمان يحيى فى تحقيقه كتاب «ختم الأولياء» حيث قال: «ويجب أن نلاحظ أن الترمذى يميز بين العلة والقياس، فهو يقبل الأولى ويرفض الثانية»(٣٧).

فالترمذى لم يرفض القياس أصلا ولذلك يقول: «المقايسة لعبد طالع أصول الحكمة بنور الفراسة»(٣٨) والمقصود بأصول الحكمة: باطن العلم وما يحمله ظاهر العبارات من إشارات يدركها صاحب الفقه الحقيقى: فقه القلوب(٣٩).

ويستحسن أن لا يفوتنا أن نذكر أنه: عندما ينظر المرء إلى نقد الحكيم الترمذى لقياس أهل الرأى، وتقريره: أنه ينبغى أن يساق الفرع إلى الأصل لا إلى فرع آخر مثله، تتبادر إلى الذهن مسألة الكلى والجزئى. ومسألة القياس الأرسطى، وأن الحكيم الترمذى قد يقصد بالحاق الفرع بأصله إعطاء الجزئى حكم الكلى، وذلك هو جوهر القياس الأرسطى فى أجلى وأوضح أشكاله وضروبه.. ولكن ذلك أبعد ما يكون عن قياس الحكيم الترمذى فالحكيم الترمذى لا يبحث عن كلى تندرج تحته جزئيات تأخذ حكمه، لكنه يبحث عن العلة

---

(٣٥) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» ص ٩٦ ى و ٩٩.
(٣٦) انظر الدكتور بركة. الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية. جـ١ ص٩٢.
(٣٧) الدكتور عثمان يحيى. هامش «ختم الأولياء» للترمذى. ص١١٦.
(٣٨) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» مخطوط ٩١ ب.
(٣٩) انظر الدكتور بركة. الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية. جـ١. هامش ص ٨٧.

الباطنة فى جزئية جزئية بصرف النظر عن كونها تندرج فى جنس أونوع .. وهو يثبت أن هذه العلة التى يصدر الحكم بمقتضاها موجودة فى كل جزئية بعينها وعلى حدتها ، وخاصة بها . وأينا وجدت هذه العلة فى جزئية من الجزئيات استلزمت نفس الحكم ، لا بالمشابهة فهذه المشابهة قد تصحح المشاكلة ، ولا شأن لها بالقياس . بل بإدراك العلة نفسها فى كل جزئية بعينها (٤٠) .

فالحكيم الترمذى لا يقبل قياس أهل الرأى ، ويراه غير ملزم له ولا يتعرض أطلاقا لأسلوب القياس الأرسطى ، ولكنه فى نفس الوقت لا يوافق الذين ينكرون القياس بالكلية على اعتبار من قال : إن الله فرض الفرائض وشرع الشرائع لا لعلة (٤١) بل يرى أن فى كل مسألة علة تقتضى حكما خاصا بها ، قد تكون هذه العلة ظاهرة بينة فلا تحتاج إلى بحث كثير ويستطيع ادراكها أهل العلم الظاهر ، وقد تكون دقيقة خفية فتحتاج إلى قلب صاف مستنير ، قد اعطى نور الحكمة ليقفو به الأثر فى الفروع النازلة (٤٢) .

٣ــ والأمر الثالث يرجع إلى الفقيه نفسه فلئن كان الأمر الأول يرجع إلى موضوع الفقه ، والأمر الثانى يرجع إلى منهج الفقهاء ، فإن الأمر الثالث يرجع إلى الفقيه فليس كل انسان أهلا للقياس ولا موفقا فيه «ذلك أن المقايسة لعبد طالع أصول الحكمة بنور الفراسة» (٤٣) ولا يكون نور الفراسة هذا لكل انسان فكذلك لا يأتى الاستنباط والقياس لكل من عرض له . «ويحتاج أهل الاستنباط والاجتهاد فى الرأى إلى قلب ذكى مشحون بنور الله ونفس صافية من كدورة الأخلاق ، عفيفة من أدناس شهوات الدنيا حتى يدرك الحق» (٤٤) .

ولقد بذل الحكيم الترمذى جهوداً كبيرة فى تحقيق مسائل الفقه وفى

(٤٠) انظر الدكتور بركة ، الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ، جـ١ ص٩٣ .
(٤١) انظر: الأشعرى «مقالات الاسلاميين» جـ٢ ص١٦٢ .
(٤٢) انظر الدكتور بركة ، الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ، جـ١ ص٩٣ ، ٩٤ .
(٤٣) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» ص ٩٥ مخطوط بلدية الاسكندرية .
(٤٤) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترين» ورقة ١٤٤ ، ١٤٥ .

معالجة كثير من القضايا الفقهية على طريقته ومنهجه لكى يؤدى الفقه غرضه، ويصل إلى الغاية.

وللحكيم الترمذى كتبا فقهية كتبها على النهج الذى ارتضاه لكتابه الفقه «وكتبه الفقهية كثيرة دافع فيها عن نظريته فى القياس، رفض فيها قياس أهل الرأى، ورفض فيها أيضا رأى نفاة القياس، موضحاً أن قياس أهل الرأى ليس إلا مشاكلة، وموضحاً أن لكل مسألة أصل هو العلة التى تقتضى الحكم الخاص بها (٤٥).

ويرى الحكيم أن ادراك علل العبادات إنما يأتى من طريق الحكمة عندما تبرأ الصدور من التخليط والرياء والتيه والتكبر والتضييع والاعجاب وعندئذ يذهب سقم الايمان فتطالع الحكمة وتقصد الأمور على حسب جواهرها فما أدركنا من هذه العلل من طريق الحكمة تكلمنا فيه وبينا فيه تأويلاً للحكمة لا حكما على الله فى غيبه (٤٦).

ومؤلفات الحكيم فى الفقه وأصول أحكامه هى:

*** كتاب العلل أوعلل العبادات أوعلل الشريعة..**

وهو كتاب قد خصص لذكر بعض المسائل وبيان عللها، وهو إلى جانب كونه كتابا فقهياً يذكر الأحكام مقترنة بعلتها يحمل برهانا على وجهة نظر الحكيم فى أن لكل حكم علته فى مسألته (٤٧).

*** كتاب اثبات العلل فى الأمر والنهى:**

والحكيم الترمذى فى هذا الكتاب يناقش أولئك الذين يقولون أنه لا تعليل للأوامر والنواهى، ويوضح أن علل الأوامر والنواهى قائمة، يقول الحكيم «سألتنى عن ما اختلف الناس فيه من اثبات العلل فى الأمر والنهى»، فقال قائلون: هذا تعبد من ربنا خلقهم فتعبدهم للأمر والنهى، وليس لأمره علة وإنما

---

(٤٥) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٩٦.

(٤٦) الحكيم الترمذى «اثبات العلل» مخطوط ورقة ٣٧ ب.

(٤٧) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٩٦.

هو امتحان وابتلاء. وقال آخرون هو ابتلاء وامتحان تعبدهم به.. وليس يدفع هذا أحد منا، ولكن عللها قائمة علمها من علمها وجهلها من جهلها.(٤٨)

*** كتاب الصلاة ومقاصدها:**

وفى هذا الكتاب يتحدث الحكيم عن شأن الصلاة من بين الأعمال وعن صورتها من بين الأفعال، وعن ثمرتها من بين الطاعات، وعن مثوبتها غدا من بين المثوبات، وعن موقعها ومحلها عند الله فى الدرجات، وعن سلطانها فى الشريعة وشهرتها فى السموات(٤٩).

*** وكتاب الحج وأسراره:**

وفى هذا الكتاب يتحدث عن الحج بدقة التأليف، والتحليل العميق لمعانى الحج من بين سائر الفرائض الأخرى، ويرى أن فريضة الحج هى عماد الاسلام. ومغزاها هو تسليم النفس عبودة ورقا، وأن يحنف العبد إلى ربه لا يقصد غيره، وتنفرد فريضة الحج بأنها طريق المعرفة إلى الله(٥٠).

*** وكتاب سبب التكبير للصلاة، وكتاب كيفية الوضوء والسواك والصلاة وكتاب كيفية الصلاة**، وهذه الكتب لا تزال مخطوطة.

وبات من الواضح أن كتب الحكيم الترمذى الأخرى تتصل بالفقه وتعالج كثيرا من المسائل الفقهية.

ولا ننسى أن الحكيم الترمذى ينظر إلى الفقهاء — من منهجه — على أنهم طوائف:

* منهم فقهاء يطلبون الفقه لغرض دنيوى ويقول الحكيم فى هؤلاء: «وإذا تفقه فيها استبشر بما عنده من ذلك بشرى الرياسة، ونوال العز وشرف المجالس، وطمأنينة قلبه، مع مطالعة فهمه بتلك الأشياء والمقاييس والعلل، ليناطح به

---

(٤٨) الحكيم الترمذى «اثبات العلل» مخطوط ورقة ٣٤أ.

(٤٩) الحكيم الترمذى «الصلاة ومقاصدها» ص ٢ المقدمة تحقيق الاستاذ حسنى نصر زيدان. ط دار الكتاب العربى.

(٥٠) الحكيم الترمذى «الحج واسراره» المقدمة تحقيق الاستاذ حسنى زيدان. ص١٢، ١٣. ط دار السعادة.

الأشكال، ويسامى به الأقران، ويقهر به الأضداد، فذلك متنزهه فى الدنيا، يدأب فيه ليلة ونهاره بلا حسبة ولا نية، ولا طلب إقامة حق الله أو إحياء دين الله»(٥١).

* ومنهم فقهاء يسيرون بنور العقل فى ميدان العلم الظاهر، وليس لهم من نور الحكمة ما يمكنهم من اقتصاص الآثار للوصول إلى الأحكام الباطنة وهؤلاء يخاطبهم الحكيم من مقامين: أما من مقام الحكم الشرعى فهم مجتهدون مأجورون إن أصابوا فلهم عشر حسنات، وإن أخطأوا فلهم حسنة واحدة هذه الحسنة ليست لوصولهم إلى حكم ما. بل لاجتهادهم(٥٢).

يقول الحكيم الترمذى فى كتابه «الفروق ومنع الترادف»: «والذى لم يعط نور الحكمة وقف عند مفرق الطريقين، ثم شاكل بالأمور التى تأخذ إلى طريق الثواب، ومر بالأمور التى تأخذ إلى طريق العقاب، فألحقه بأحدهما، فربما أصاب الذى عند الله، وربما لم يصب»(٥٣).

واما يخاطبهم من المقام الذى يتطلب فيه الفضل والكمال، ولذلك فهو يناقشهم فى هذا المقام فى خاصة أنفسهم وسلوكهم فى حياتهم، ويرى أن عدم محاولتهم تحصيل الكمال فى أنفسهم هو السبب المانع لهم من تحصيل الكمال فى عملهم، ويرى أنهم مغترون فرحون بما لديهم من العلم(٥٤).

وفى نوادر الأصول نجد أن الحكيم الترمذى فى الأصل الثالث والستين والمائتين، تحت عنوان «فى حقيقة الفقه وفضيلته» يقول: «فهؤلاء الذين انتحلوا هذا الرأى وأكثروا فيه الخوض سموا هذا فقها وخيل إليهم أن هذا هو الذى ما عبد الله بمثله.، وهو هذه المسائل التى عندهم فقط ولا يعلمون أن أستاذيهم تكلموا بها ثم قالوا: وددنا أنا نجونا منها كفافا لا لنا ولا علينا مثل إبراهيم النخعى والشعبى والحسن وابن سيرين رحمهم الله فى زمانهم وأبى حنيفة

(٥١) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٩٩.
(٥٢) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترون» ص ٤٤.
(٥٣) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٠٠.
(٥٤) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٠٠.

وسفيان والأوزاعي ومالك رحمهم الله في زمانهم، فكل تمنى الخلاص منه لا له، ولا عليه، وهؤلاء أعرضوا عن سائر العلوم التي حاجة الناس إليها في كل وقت، وصار هذا النوع فتنة لهم، فتراه طول الدهر يقول يجوز ولا يجوز، يدخل فيما بينه وبين عباده مع الحيرة في ذلك، ولا يدري أصواب هو أم خطأ، ثم تراه في خاصة أمره ودينه عوج كله، فاقباله على نفسه حتى يكف منها مالا يجوز خير له من اهمال نفسه، واقباله على اصلاح الناس ذلك ليعلم أنه مفتون وكان المتقدمون أولى بالشفقة على الأمة والحرص على الدين والنصيحة لهم، فشغلهم اصلاح أنفسهم عن الخوض في هذه الأشياء حتى لا يلهيه عن عيوب نفسه (٥٥).

أما الصنف الثالث «فهم أهل القياس حقاً لأنهم أهل الباطن الذين ينفذون بنور الحكمة إلى أصول المسائل، فيقومون على رد الأمور إلى أصولها (٥٦).

ويصور الحكيم الترمذي المسائل كلها فيقول: «الفقه مشتق من التفقه وهو انكشاف الغطاء عن الشيء فعلوم الأشياء في الصور مجتمعة متراكمة بعضها على بعض، فاحساس القلب من ذلك العلم هو علم القلب أداه إلى الذهن وإلى الحفظ عند الحاجة كنبعان العين ينفجر منه الشيء بعد الشيء، فادام هكذا، فهو ساكن خامد لا قوة له، فإذا تصور في الصور لعين الفؤاد قوى القلب بذلك الذي تصور،، فذلك علم مستتر في القلب بقية من الضعف والخمود.. فإذا انكشف الغطاء عن الصورة التي تصورت في الصدر فذلك الفقه لأنه حين تصور في الصدر أحس القلب بتلك الصورة علما ولم يرها لأن الغطاء بينه وبين العلم قائم وهو ظلمة الهوى، فهو عالم بذلك الشيء يترجمه بلسانه، ويتضمنه بحفظه وتمثل صورته لعقله، وليست له قوة ــ ينتصب قلبه لذلك ويتشمر لفعله ويطمئن إليه ــ حرارة العلم وقوته. فإذا انكشف الغطاء

(٥٥) الحكيم الترمذي «نوادر الأصول في أحاديث الرسول» ص ٣٦٦.
(٥٦) الدكتور بركة «الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية» جـ١ ص١٠١.

عن تلك الصورة التى صورها عقله صار عيانا للفؤاد، فيقال لذلك العيان علم اليقين (٥٧).

والملاحظ على كتابات الحكيم الفقهية أنه يعنى:

أولا: بابراز الآثار والأهداف الروحية التى تعود على المرء بألوان العبادات المختلفة بصرف النظر عن التعريفات التى أولاها الفقهاء عناية خاصة.

ثانيا: يحاول أن يكشف عن العلل التى من أجلها جاءت العبادات على الصورة المعروفة.

ثالثا: يبنى أغلب هذه التعليلات على ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم من أحاديث تتعلق بالموضوع الذى يناقشه.

رابعا: يتحدث عن الآفات التى تعطل هذه العبادات عن تحقيق الأهداف الروحية المقصودة والآثار النفسية المترتبة عليها.

وليس عسيرا على الدارس أن يلمس سيادة التفكير الصوفى على هذا الجانب من كتابات الحكيم (٥٨).

وبعد.. فالحكيم الترمذى كان فى الفقه فريدا، نظرا لاحاطته الدقيقة بكثير من أسرار المعانى ولقد استطاع أن يعمق الأفكار الشرعية ويستكنه أسرار الشريعة، ويخرج منها بما لم يخرج على الكتاب والسنة.

---

(٥٧) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول فى أحاديث الرسول» ص٣٦٦.

(٥٨) انظر الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى ودراسة لآثاره» ص١٧٩.

جهود الحكيم فى علم الكلام وموقفه من المتكلمين

الحكيم الترمذى امام من أئمة الإسلام، وعلم من أعلام الرجال ومفخرة العلماء السالكين تشبع من الثقافة الإسلامية على اختلاف ألوانها وانعكست أضواء ثقافته على مؤلفاته وتجلى فى جميع ما كتب: صفاء الذهن وعمق الفكرة، ودقة التحقيق.

ومما يدركه الدارسون والمتتبعون لمؤلفات الحكيم أنه لم يضع كتباً مستقلة فى مباحث علم الكلام كما فعل فى فروع المعرفة، والعلوم الأخرى اللهم الا رسالة فى موضوع الإمامة بعنوان: «الرد على الرافضة» (1)، رد فيها على أهل الرفض لإمامة أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما، كما ناقش فيها قضية الخلافة، أما كتاب «الرد على المعطلة» فهو كتاب حديث تناول موضوعاً من موضوعات علم الكلام، وهو اثبات الصفات لله سبحانه وتعالى، على منهج أهل السنة، وهو بهذا يرد على المعتزلة الذين يرون نفى الصفات ويسمى الحكيم المعتزلة فيما ذهبوا اليه بالمعطلة كذلك يرد على الكرامية (2) الذين يقولون بالتجسيم أو التشبيه.. والمتأمل فى كتاب «الرد على المعطلة» يجد أن الحكيم الترمذى: «تناوله من وجهة نظره كمحدث، وكان عمله فيه عملاً يستهدف أولاً وقبل كل شىء جمع الأحاديث التى تعضد وجهة النظر السنية المثبتة لصفات الله سبحانه، ومن هنا يمكن القول بأن الحكيم كان

(1) مخطوط بمكتبة ولى الدين بتركيا تحت رقم ٧٧٠.
(2) الكرامية اتباع محمد بن كرام ٢٥٥ هجرية.

يعتنق مذهب أهل السنة فى علم الكلام وان لم يخض فى مباحثه كما خاضوا» (٣).. ومن الملاحظ أن الحكيم ذكر الأحاديث فى كتابه دون تعليق منه أو شرح لتقول كلمات الأحاديث عنه ما يريد أن يقوله هو... وقد أكثر الحكيم من الكلام فى كتاباته ومؤلفاته على التوحيد والموحدين بطريقة ومنهج يختلف عن منهج المتكلمين فى معالجة هذه المسائل.. لقد كتب الحكيم فى التوحيد بطريقة موضوعية يتعامل معها الإنسان فى كل وقت، وهذا من شأنه أن ييسر ادراك الدليل ويمهد النفس لتقبله، ويقوى الالتزام به، يقول الحكيم فى معنى لا إله إلا الله: «ان كلمة لا إله إلا الله لازمة للخلق: الاعتقاد لها قلباً، والاعتراف بها نطقاً، والوفاء بها فعلاً، فأما الاعتقاد لها قلباً، فأن تعتقد نفى القدرة عن جميع من تولهت اليه القلوب فى المضار والمنافع سواء. وأما الاعتراف بها نطقاً فأن يقول: لا إله إلا الله، وأما الوفاء بها فعلاً فأن يكون له من الشقة فى باب النوائب، ومن التوكل فى باب الرزق، ومن التفويض فى باب الحوائج، ومن الصبر فى باب الشهوات، ومن القناعة فى باب المنالات، ومن الانقياد فى باب العبودات، ومن التسليم فى باب المتشابهات، ما يحفظ هذه الجوارح السبع التى أؤتمن العبد عليهن» (٤)..

ومنهج الحكيم كما يتبين للدارس يقوم على اقناع الإنسان بجانبيه الوجدانى والعقلانى «فالإنسان كما هو معروف ــ مركب من جانبين، جانب وجدانى، وجانب عقلانى، وكل من هذين الجانبين له أسلوبه الذى يعالج به، فليس يقنع الجانب الوجدانى ما يقنع الجانب العقلانى، والعكس صحيح، وحين نقتصر فى محاولاتنا اقناع الإنسان بقضية ما على مخاطبة جانب واحد، فان تلك المحاولات تفشل يقيناً، ولا تؤتى ثمارها المرجوة وقصارى ما نصل إليه فى تلك الحال هو أن نوجد نوعاً من الشك والحيرة لدى الإنسان ولكنا أبداً لن نصل إلى مرتبة الاقناع، لأن الوصول إلى تلك المرتبة رهن بتضافر الوجدان والعقل جميعاً» (٥).

(٣) الدكتور الجيوشى، الحكيم الترمذى دراسة لآثاره، ص١٨٢.

(٤) انظر الحكيم الترمذى، الكلام على معنى لا إله إلا الله، ص١٣.

(٥) راجع الدكتور مزروعة، المنهج القرآنى فى الاستدلال، ص١٠٨، ط دار الطباعة المحمدية.

قال أبو عبد الله محمد الترمذى: تفسير كلمة لا إله إلا الله «إذا قال العبد لا إله إلا الله، فان معناه: لا رزاق، ولا كاف ولا معبود إلا هو، ولا نافع ولا ضار، ولا معطى ولا مانع ولا محيى ولا مميت ولا معز ولا مذل إلا الله عز وجل» (٦).

ان حديث الحكيم عن التوحيد هو الحديث الذى يرضاه السالكون ويعتقدون أنه التنزيه الحق الذى يليق بالله سبحانه وتعالى. وهو حديث يعتمد على الجانب الوجدانى أكثر من اعتماده على الجانب العقلانى.. ولا يخفى أن الأدلة التى صيغت بأسلوب عقلى محض، لم تفقد الجانب المهم فحسب، بل فقدت الجانب الأهم حين عرت عن كل ما يخاطب الوجدان ويأمره..

وللحكيم جهود فى مباحث أخرى من مباحث علم الكلام، أشار اليها فى كتاباته اشارات يتبين منها رأيه ومنهجه..

ومن ذلك موضوع «الإيمان» هل هو مكتسب أو موهوب؟ وهل يزيد ينقص؟ وهل الإسلام والإيمان اسمان لشىء واحد؟ أم لشيئين مختلفين؟.

ويعرض الحكيم الترمذى المقولة الأولى: هل الإيمان مكتسب أو موهوب؟ فيقول: «سألتنى عما وقع فيه الناس من الاختلاف فى الإيمان ومحله من ابن آدم، وإنما أتوا ذلك من قلة أفهامهم، وترك الاستقصاء فى النظر.. فاعلم أن الله تبارك اسمه خلق هذا الآدمى وركب فى رأسه عينين وأذنين، يبصر ويسمع ظاهر الأشياء، وجعل فى جوفه بضعة من لحم لها عينان وأذنان، فسماها قلباً وفؤاداً، والقلب ما بطن منها، والفؤاد ما ظهر منها. والعينان على الفؤاد، والرؤية له، وذلك قوله: «**ما كذب الفؤاد ما رأى**» (٧) وجعل لهذه البضعة ساحة وهى الصدر، وذلك موضع العلم، وجعل فيه الروح، وفيه الحياة، وهو سماوى. جعل فيه نفساً، وهى أرضية وفيها الحياة وجعل مستقر الروح فى الرأس، ثم هو منتشر فى جميع الجسد، مشتملة عليه بالشهوات

(٦) انظر الحكيم الترمذى، علم الأولياء، ص ١٨١ ط مكتبة الحرية الحديثة.
(٧) سورة النجم آية: ١١.

والهوى. وجعل مستقر العقل فى الرأس معه الروح، وفى هذا الحفظ ثم يشرق فى الصدر نوره، وهناك معتمله، ومستقر الذهن فى الصدر والعلم معه، فمنه تصدر الأمور الى الجوارح فبذلك العلم علم الأدميون كلهم أن لهم رباً والهاً، فأقروا به، وفزعوا إليه فى المضار والمنافع، وعرفوه بقلوبهم، والقلب أمير على الجوارح، والمعرفة فيه. وتلك معرفة الفطرة التى فطر الناس عليها» (٨).

والحكيم الترمذى لا يقف عند هذا الحد من المناقشة والعرض بل يقرر فى تأكيد قوى فيقول: «ان الإيمان استقرار القلب، وطمأنينة النفس، والقلب كان طالباً لربه، متردداً لا يستقر، والنفس متحيرة لا تسكن فلما جاء نور الهداية استقر القلب، واطمأنت النفس فقيل أمن على قالب فعل يأمن أمناً، والاسم منه الأمن، وذلك طلبه معبوده، فتردد فى طلبه مرة إلى الوثن، ومرة إلى الشمس والقمر، ومرة إلى النيران وهو فى ذلك متحير، فلما وجد هذا النور من منة الله عليه، سكن عن التردد والجولان فقيل أمن من يؤمن ايماناً، والاسم منه ايمان فالنور هدية الله لأهل منته وأحبابه وأوليائه والسعداء من عبيده، ومعدن ذلك النور فى القلب، والإيمان هو لمن نال هذه الهدية (٩).

ولعلنا ندرك فى وضوح تام أن الحكيم الترمذى يناقش هذه القضايا من باب القلب، وذلك لأن القلب معدن النور، والنور هدية الله. وبناء على ما ذكره الحكيم فى مقولة: هل الإيمان مكتسب أو موهوب نجد أنه: «يرى أن الإيمان مكتسب ولكن ما كان به الإيمان وهو العقل فهو موهوب» (١٠) أما مقولة: «هل الإيمان يزيد وينقص»؟ فاننا نجد أن الحكيم يذهب إلى أننا «حينما ننظر إلى الإيمان باعتبار حقيقته وذاته هو لا يزيد ولا ينقص، وأما إذا نظرنا إلى تأثيره وأثره فانه تجرى عليه حينئذ الزيادة والنقصان بسبب ما يعترى

---

(٨) الحكيم الترمذى «مسألة فى الايمان والإحسان والإسلام» تحقيق الدكتور الجيوشى، مجلة منبر الإسلام عدد ٦ ص ١١٥ السنة ٣٨.

(٩) الحكيم الترمذى «مسألة فى الايمان والاحسان والإسلام» منبر الإسلام ع ٦ ١١٧ السنة ٣٨.

(١٠) الدكتور الجيوشى، الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام، مقال بمجلة منبر الإسلام ع ٢ ص ١٠٧ السنة ٣٨.

قلب المرء من أغراض وأهواء تحجب أشعة الإيمان أن تنطلق فتوجه سلوك الإنسان وتصرفه (١١). وقد ضرب الحكيم للحالتين مثلاً بقرص الشمس بالنظر إلى الحقيقة، وبشعاع الشمس بالنظر إلى الأثار (١٢).. ويقول الحكيم فى مناقشته لهذه المقولة «ولقد دخلت بين متنازعين، يقول أحدهما: الايمان يزيد وينقص ويقول الآخر: لا يزيد ولا ينقص، فأشرت إلى عين الشمس، فقلت: ما هذه؟ قال: هذه شمس.

فقلت: تنقص أم تزيد؟ قال: لا.

ثم أشرت له إلى اشراقها على الأرض.

فقلت: ما هذا؟ قال: هذه شمس..

قلت: تزيد وتنقص.. فتحير قلبه.

قلت: أليس إذا كان بينها وبين الأرض غيم أو سحابة رقيقة نقص من اشراقها فإذا ذهب الغيم زاد فى اشراقها؟ قال: نعم.

قلت: أفلست تسميه شمساً وهو يزيد وينقص، وتلك العين تسميها شمساً وهى لا تزيد ولا تنقص؟ قال: نعم..

قلت: أفليس بقدر ما تنقص يدخل النقص فى جميع بنى آدم والزروع والثمار وإذا زاد أشراقه عملت حرارته فى زرعهم وثمارهم؟ قال: نعم..

قلت: فكذلك الإيمان بمنزلة الشمس التى قد برزت لك على قلبك من النور وأشرقت على صدرك، فإذا حل بينها وبين القلب غيوم الشهوات، والهوى نقص الاشراق فدخل الوهن فى القلب، وفى النفس، وتعطل عن العمل وإذا ذهب الهوى والشهوة زاد فى اشراقه، واستقر القلب، وقويت النفس للعبودية فن الاشراق يزداد وينقص، فأى تنازع بقى ها هنا.

فن قال: يزيد وينقص «بهذا المعنى» فهذا مصيب فى قوله.

ومن قال: لا يزيد ولا ينقص لأنه متى نقص دخل الشك، فأما الزيادة

---

(١١) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره» ص ١٩٠، ط النهضة المصرية.

(١٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام منبر الإسلام عدد ٢ ص ١٠٧.

التى ذكر الله تعالى فى تنزيله يزيده نوراً إلى نور، فيزداد قلبه بذلك النور الزائد إيماناً أى استقراراً وثباتاً» (١٣).

ومقولة: هل الإيمان والإسلام اسمان لشيء واحد أم لشيئين مختلفين؟ يرى الحكيم «أن الايمانْ غير الإسلام فهما نوعان فى عقد واحد» (١٤) ويقول فى هذا: «ثم وجدتها مختلفين، فقال: أحدهما: الايمان والإسلام واحد، وقال الآخر شيئان متباينان.

فقلت لهما: متى وجدتما اسمين معناهما واحد، لا يزيد أحدهما على الآخر، وان دقت تلك الزيادة، ولو كان كما زعمت لكان فضلاً وهذياناً.

واعلم أن الله تعالى أعطى العباد ما انقطعت حجتهم، فأراهم من الآيات فى الظاهر، وأعطاهم ما ينفعهم فى دنياهم، وركب فيهم الشهوات من العلم والذهن فى الباطن حتى علموا ما يضرهم والهوى حتى دعاهم إلى عبادة من دونه طمعاً فى المنافع ودفع المضار، ثم انه كان لله عبيد اختارهم وانتخبهم لنفسه، وخلقهم للسعادة، فمن عليهم بالهداية، وابتدأ أمرهم بأن طهر قلوبهم التى يريد أن يجعلها خزائنه ووعاء لمعرفته وانواره وأياته، وموضع أسراره، وموضع نظره، فأنزل عليها رحمة طهرها بماء الرحمة حتى صلحت لهذه الأشياء التى وضعها هناك وذلك قوله تعالى: «**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة**» (١٥).

والصبغ كل شيء يغمس فى شيء فهو صيغة، ولذلك صمى الصبغ صبغاً لأن الثوب يغمس فيه، ولذلك سمى صباغ الطعام من الخل والمريء وغير ذلك من الأصباغ، فكل مغموس فيه مأكول فهو صباغ، وكل صبغ فيه ملبوس فهو صبغ، فمن اختاره الله تعالى واجتباه فمبتدأ أمره أن يطهر قلبه بماء الرحمة، حتى

---

(١٣) الدكتور الجيوشى «مسألة فى الايمان والاحسان والإسلام» تحقيق الدكتور الجيوشى، منبر الإسلام ع ٦ ص ١١٨ س ٣٨.

(١٤) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام» مقال بمجلة منبر الإسلام ع ٢ ص ١٠٧، س ٣٨.

(١٥) سورة البقرة الآية: ١٣٨.

يدعه كالشيء المغسول ، ثم أحياه بنور الحياة وذلك قوله : « **أو من كان ميتاً فأحييناه** » (١٦) .

فانما كانت بضعة من لحم ، لها عينان لا تبصران ، وأذنان لا يسمعان فلما طهره بماء الرحمة صلح لنور الحياة ، فلما جاء نور الحياة حيى قلبه بالله ، ثم جاء نور الهداية فهداه ، وذلك قوله : « **وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس** » (١٧) .

فذلك نور المعرفة ، ثم جاء نور العقل ، فبنور العقل عقل نور المعرفة عن النكرة ، فاستقر لأنه زينة ثم جاء نور الحب فقيده ، فعندها صار محكماً ، فاعترف بلسانه بلا إله إلا الله مع أنوار المعرفة التي في عقد قلبه على أنه ربه ، وهو له عبد ، فهو حشو هذا العقد أنه رب يملكه ويحكم في أموره ما يشاء ، وأنه له عبد ينتهي إلى جميع ما يأمره ، ويرضى بجميع ما يحكم به عليه انقياداً ، فاستحق ها هنا اسمين : « مؤمناً ومسلماً » فأما اسم المؤمن فلأنه استقر واطمأن عن التردد والجولان لطلب ربه ، واسمه المسلم لأنه سلم نفسه اليه في جميع ما يأمره ، فمن قال من المتقدمين الايمان والإسلام واحد فإنما قاله لأن ذلك منه في عقد واحد ، فأما أن يكون نوعاً واحداً فلا .. وكيف يكون الاستقرار والطمأنينة والتسليم لأمره ونهيه نوعاً واحداً ، ومن قال ها هنا واحدة وخفي عليه هذه الصفة فقط غلط فيه ، فالعقد واحد ، والقبول واحد ، ولكنه عقد وقبول لنوعين ، ثم اقتضى العبد من يوم أمن وأسلم في جميع عمره أن يفي بهذا العقد والقبول ووضع بين يديه العبودية نوعين : أمر يحكم به عليه ربه ، وأمر يأمره به ربه » (١٨) .

واننا لندرك في غير خفاء أن الحكيم الترمذي يعالج قضايا علم الكلام بما يرتبط بالسلوك والأحوال والأوامر والنواهي . ولذلك كانت مناقشاته مفيدة لا عقم فيها ، تربط الإنسان بالحياة وتصله بالله ، ففي موضوع الإيمان والإسلام

---

(١٦) سورة الأنعام الآية : ١٢٢ .

(١٧) سورة الأنعام الآية : ١٢٢ .

(١٨) الدكتور الجيوشي «مسألة في الايمان والاحسان والإسلام» تحقيق الدكتور الجيوشي ، منبر الإسلام ع ٦ ص ١١٩ السنة ٣٨ .

يصل إلى أن العبودية نوعين: أمر يحكم به رب العزة على الإنسان، وأمر يأمر به، والأمر الأول يقتضى الوفاء ليطمئن القلب والنفس إلى ما حكم به الله. والأمر الذى يأمر به: هو الفرائض وترك المحارم والوفاء بذلك يقتضى التسليم فى كل أمر أمره ونهى نهاه..

ويرى الحكيم أن سبب النزاع القائم بين العلماء والباحثين فى الايمان وما يتصل به من قضايا، هو: أنهم اهتموا بالأسماء ولم يبحثوا عن الأصول ولو بحثوا عن الأصول لما كان هذا النزاع. يقول الحكيم: «وانى وجدت عامة هؤلاء المتنازعين متنازعون فى الأسماء، ولا سبيل لهم إلى الأصول فيسكن تنازعهم، فمثلهم فى ذلك كمثل رجل قال لثوب: هذا خز، وقال الآخر: شعر، فكلاهما يرجعان إلى شىء واحد لأن الخز أيضاً هو شعر، إلى خلقه الذى سمى له، وكرجل قال: هذا كلأ، وقال آخر: هذا حشيش، وقال آخر: هذا نبات، وقال آخر: هذا أذخر، وقال آخر: هذا مرعى، فرجعهم إلى شىء واحد. فانما اختلفوا لأن فى كل اسم معنى زائد لطيف دقيق» (١٩).. فانما يخوضون بجهلهم بالأسماء، وتقع بينهم المنازعة (٢٠).

ومن مباحث علم الكلام التى تناولها الحكيم بالشرح والمعالجة موضوع «رؤية الله» وقد كان تناول الحكيم لهذه القضية يقوم على ما يقطع السبيل على المجادلين المعاندين، ويرى أن المتكلمين وأهل الصور الجدلية ما بعدوا عن الصواب إلا بسبب سوء التأويل، ويقول فى هذا «وأهل الأهواء بسوء التأويل ضلوا، لم يعقلوا اللغة، ولم يفهموا المعانى ولهم نفوس مظلمة يحرفون الكلم عن مواضعه بظلمة أهوائهم، وقلوبهم، ومن قل فهمه، أوعزب عنه فى وقت ساء تأويله» (٢١).

---

(١٩) الحكيم الترمذى «مسألة فى الايمان والاحسان والإسلام» تحقيق الدكتور الجيوشى، منبر الإسلام، ع ٦ ص ١١٧ السنة ٣٨.

(٢٠) المصدر السابق ص ١١٩.

(٢١) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترين» ص ٢٣، المكتبة الظاهرية.

ويناقش «رؤية الله» فى كتابه المسائل المكنونة «تحت عنوان» مسألة أخرى «لا تدركه الأبصار» فيقول: قوله: «لا تدركه الأبصار» (٢٢) فانما ذكر الأبصار ولم يذكر سائر الأعضاء كقوله: لا تلمسه الأيدى، ولا تشمه الأنف، ولا تحس به الأسماع. لأن البصر فيه حياة الروح، وبصر الروح فى بصر العين، متصل به، فهو أحد وأقوى من سائر الأعضاء. فإذا كان البصر لا يدركه فى حدته وقوته فالأيدى أعجز ثم قال: «وهو يدرك الأبصار» أى يدرك الحياة التي فى البصر» (٢٣).

وبعد أن يضع هذا المدخل لموضوع الرؤية يناقش المنكرين لها فيذكر: أن من احتج بهذه الآية فى شأن الرؤية ودفع الرؤية وأنكرها فليست له ها هنا حجة لأن الرؤية هى انفراج الشيء يقال رأى ورها فالهاء بدل الهمزة، ورها أى انفرج، وهو قوله: «**واترك البحر رهواً**» (٢٤) أى منفرجاً، وذلك أنه لما ضرب البحر بالعصا انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، فمشت بنو إسرائيل فى المنفلق وهو المنفرج بين الطودين، فذاك الرهو، فيقال: رها ورأى، الهمزة بدل من الهاء. فإنما سأل موسى صلى الله عليه وسلم، فقال: «**أرنى**» (٢٥)

أى افرج لى الحجاب أنظر اليك، والنظر هو فعل العين، ينظر جلاله وعظمته وبهاءه، من غير أن يأخذه يقال: نظر ونضر، فالنضرة زهرة الوجه، والنظرة زهرة العين، فسأل الرؤية وهو انفراج الحجاب لزهرة العين إلى جلاله وعظمته» وأما الادراك فهو الأخذ وهو «الاندرياب» بالاعجمية وبالعربية الادراك: الاشتمال، فأهل الجنة ينظرون اليه، ولا تشتمل أبصارهم على

---

(٢٢) سورة الأنعام الآية: ١٠٣.

(٢٣) الحكيم الترمذى «المسائل المكنونة» ص٨٤، تحقيق الدكتور الجيوشى، ط دار التراث العربى.

(٢٤) سورة الدخان الآية: ٢٤.

(٢٥) تمام الآية: «رب أرنى انظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين» الأعراف الآية: ١٤٣.

مايرون منه من الظاهرية، فأما الباطنية فلا قوام لأحد على النظر اليه، ولا سبيل اليه، وهو بالعربية بلا كيفية» (٢٦).

فالحكيم — كما نرى فى هذا النص — يفرق بين الادراك والرؤية «ذلك أن الادراك يقتضى الاحاطة والله سبحانه لايدرك ادراك احاطة لافى الدنيا ولافى الآخرة، ولكنه سبحانه يدرك كل شيء ولهذا نفت الآية الادراك ولم تنف الرؤية، والحكيم يرد «فى النص» على مانعى الرؤية فى الآخرة، وأما الرؤية فى الدنيا فلا تكون» (٢٧).

أما الرؤية فى الآخرة فيرى الحكيم أنها ممكنة وحاصلة للمؤمنين «وقد أجاب الحكيم صراحة وباختصار على سؤال وجه اليه: أيرى فى الآخرة؟ قال: نعم. قال: كيف يرى؟ قال: كما يعرف هاهنا، قال: كيف يعرف هاهنا؟ قال: كما يرى هناك (٢٨).

والمعرفة التى يشير اليها الترمذى هى: قدرة القلب على الكشف باستصحاب الطاعة والتصفية والاخلاص، ولعل ذلك أن الله تعالى جعل القلب مستودع الأسرار، وخزينة الانفعالات المتقابلة، ومستقر عجائب المعانى والغيوب، فالبصر للملك، والبصيرة للملكوت، وان هذه الأمور من التجارب النلوكية التى لامجال للمتمنطق فيها. وإنما هى من الجوانب العملية التى تثمرها الأذواق والمواجيد، وتتجاوب فى آفاقها الأشواق فلا يدركها تعبيره ولايلحقها تصور (٢٩).

والمتابع لما جاء عن الحكيم فى قضايا علم الكلام.. يجد أنه يلتزم بالشرع فى هذه الأمور لذا نراه فى قضية القرآن وخلقه التى ثار حولها ماثار يقول: «ولا يدرون ما القرآن، ولايدرون ما المخلوق، ولم سمى قرآناً ولم يسمى مخلوقاً إنما هو كلام على الألسنة كالهذيان، يقاسون من تلقاء أنفسهم، ويطلبون حذق

(٢٦) الحكيم الترمذى «المسائل المكنونة» ص٨٤، ٨٥، تحقيق الدكتور الجيوشى.

(٢٧) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» دراسة الاثارة ص١٨٤.

(٢٨) الحكيم الترمذى نقلاً من كتاب الحكيم الترمذى دراسة لآثاره للدكتور الجيوشى ص١٨٤.

(٢٩) الشيخ محمد زكى إبراهيم «ابجدية التصوف الإسلامى» ص٧٨، ٧٩.

الكلام على الألسنة كالهذيان، يقاسون من تلقاء أنفسهم، ويطلبون حذق الكلام ودقته، أقل قوم دعة وأشدهم حسرة» (٣٠). وفي موضع آخر من رسالته: «مسألة في الايمان والإحسان والإسلام» يقول: «يقولون القرآن ولا يدرون ما القرآن فمرة يشيرون إلى ما في الصحف ومرة يشيرون إلى أصول القراءة، ومرة يشيرون إلى الوحي، والأولى بهؤلاء السكوت عن مثل هذا، والاقبال على ما أمروا» (٣١).

ويعلق الدكتور عبد الفتاح بركة في رسالته «الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية» على هذا النص بقوله: «فماذا نرى؟ نرى أنه يطلب قبول ما جاء به الشرع، والتسليم له دون الاشتغال بالبحث والاستقصاء في مسائله هذه إذ الأولى بنا أن نشتغل بما أمرنا به» (٣٢).

والباحث في كتابات الحكيم يدرك أن الحكيم كان على معرفة تامة بمذاهب علماء الكلام وقد جاء الأصل الثالث والستون والمائة في كتاب «نوادر الأصول» عن «مذهب أهل الأهواء» تحدث الحكيم عن هذه المذاهب تحدث العالم، ويقول فيها: «أهل الأهواء قوم استعملوا أهواءهم والأهواء ميالة عن الله تعالى، فحيث ما مالت اتبعتها قلوبهم لأنه لم يكن في قلوبهم من النور ما يصدهم عن اتباعها، وأهل الأهواء كلما استحلوا شيئاً ركبوه واتخذوه ديناً حتى ضربوا القرآن بعض ببعض وحرفوه» (٣٣).. وفي موضع آخر من هذا الأصل يقول: «وقوم هم أهل الضلالة كالمشبهة والقدرية والجبرية والجهمية وأشباههم مالت قلوبهم وأبدعوا وضلوا عن الله تعالى. فان الله تعالى اقتضى للعباد الإسلام ديناً والإسلام تسليم النفس، والدين الخضوع لله تعالى بتسليم النفس» (٣٤) وإنما

(٣٠) الحكيم الترمذي «مسألة في الإيمان والإسلام والاحسان» ص١١٧ تحقيق الدكتور الجيوشي منبر الإسلام ع ٦ ص٣٨.
(٣١) الحكيم الترمذي «مسألة الإيمان والإسلام والاحسان» ص١١٩.
(٣٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية» جـ١ ص١٠٨.
(٣٣) الحكيم الترمذي «نوادر الأصول» ص٢٠٩.
(٣٤) الحكيم الترمذي «المصدر السابق» ص٢١٠.

صاروا هؤلاء فرقاً لأنهم فارقوا دينهم فبمفارقة الدين تشتت أهواءهم فأفترقوا (٣٥) .

ويتكلم الحكيم عن الخوارج فيقول : « الخوارج قوم ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فهم الأخسرون أعمالاً حبطت أعمالهم فلا يقام لهم يوم القيامة وزن ، وذلك بأنهم قد اجتهدوا ودأبوا فى العبادة وفى قلوبهم زيغ وقاسوا برأيهم وتأولوا التنزيل على غير وجهة » (٣٦) .

والأزارقة صنف من الخوارج كان رئيسهم نافع بن الأزرق ، وكان من شأنه أن يخاصم بتأول القرآن فى زمن ابن عباس رضى الله عنهما فنسب أتباعه اليه فقيل الأزارقة ، وفى زمن على كرم الله وجهه كان رئيسهم ابن الكواء ، وفى زمن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين نجدة الحرورى » (٣٧) .

ويذكر الحكيم أمثلة هؤلاء الذين ضلوا بسوء التأويل فيقول : وأما سوء التأويل فمثل فعل هؤلاء الحرورية كفروا بالذنب واحتجوا بقوله : « **ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالداً فيها** » وانما هذا العصيان فى التوحيد ، وهذا فى خطاب الجن » (٣٨) .

« وما زال بهم التنطع والتعمق حتى كفروا الموحدين بذنب واحد حتى صاروا بذلك إلى الأنبياء عليهم السلام للزيغ الذى فى قلوبهم دخلوا فيما لم يأذن به الله تعالى » (٣٩) فأهل الزيغ ــ عند الحكيم ــ طالبون لها ، باحثون عنها ، ومفتشون عليها ، ولن يزدادوا بذلك التفتيش إلا حيرة وعمى » (٤٠) .

ولعل ما ذكرناه من كلام الحكيم الترمذى فى شأن هذه الفرق يعطينا صورة واضحة عن موقفه من هؤلاء ... والحكيم لا يكتفى بهذه المواقف ، بل يضع

(٣٥) المرجع السابق ص ٢١٠ .
(٣٦) المرجع السابق ص ٥٤ .
(٣٧) الحكيم الترمذى « نوادر الأصول » ص ٥٥ .
(٣٨) الحكيم الترمذى « الأكياس والمغترين » ص ٢٢ ، مخطوط الظاهرية بدمشق .
(٣٩) الحكيم الترمذى « نوادر الأصول » ص ٥٤ .
(٤٠) الحكيم الترمذى « علم الأولياء » ص ١٣٤ .

للباحثين والعلماء المقياس الذى يعرف به من هذه المسائل ما هو من الدين، وما هو ليس من الدين. فيقول: «فأما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده قد اختلفوا فى أحكام الدين، فلم يفترقوا، لأنهم لم يفارقوا الدين، وإنما اختلفوا فيما أذن لهم النظر فيه، والقول باجتهاد الرأى، واختلفت أراؤهم فاختلفت أقوالهم، وقد أمروا بذلك فصاروا باختلافهم محمودين لأنه أدى كل واحد منهم على حياله ما أمر من جهد الرأى والنظر فيه، وكان ذلك الاختلاف رحمة من الله تعالى على هذه الأمة حيث أيدهم باليقين، ثم وسع على العلماء منهم النظر فيما لا يجدون ذكره فى التنزيل، ولا فى سنة الرسول عليه السلام حتى يلحقوه ببعض وكانوا أهل مودة وعطف متناصحين، أخوة الإسلام فيما بينهم قائمة، فكل مسألة حدثت فى الإسلام فخاض فيها الناس واختلفوا، فلم يورث ذلك الاختلاف عداوة بينهم ولا بغضاً ولا فرقة، علم أن ذلك من مسائل الإسلام يتناظر فيه، ويأخذ كل فريق بقول من تلك الأقوال ثم لا يكونون على أحوالهم من الشفقة والرحمة والألفة والمودة والنصيحة، كما فعل الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم» (٤١)..

وهذا جانب يبين أن المسائل التى اختلفوا فيها أذن لهم الإسلام بالنظر فيها والقول بالاجتهاد بالرأى فاختلفت أراؤهم ولم يفترقوا لأنهم لم يفارقوا الدين..

ويمضى الحكيم فى بيان الجانب الثانى فيقول: «وكل مسألة حدثت فاختلفوا فيها فردهم اختلافهم في ذلك إلى التولى والاعراض والرمى بالكفر علم أن ذلك ليس من أمر الدين فى شىء، بل حدثت من الأهواء المردية الداعية صاحبها إلى النار، وتورث العداوة والتباين والفرقة لأنها التى ابتدعها الشيطان فألقاها على أفواه أوليائه ليختلفوا ويرمى بعضهم بعضاً بالكفر لأنه لما خلت قلوبهم من خشية الله تعالى وخوف عقابه بما قدمت أيديهم من ذكر الموت والأهوال التى أمامهم، والاهتمام بصحة الأمور وطلب الخلاص فيما بينهم، والانتباه لحسن صنيعه بهم وطلب النجاة من رق النفوس إلى حرية العبودة لربهم عز وجل فلما خلت من هذه الأشياء قلوبهم وجد العدو فرصة

(٤١) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص ٢١٠، ٢١١.

فألقى اليهم مثل هذه الأشياء التى يعلم المستنيرة قلوبهم أن هذا تكلف وخوض فيا لا يعنيه مثل قولهم فى الجبر والقدر والاستطاعة قبل الفعل ومعه، وطلب كيفية صفات الله تعالى» (٤٢).

فالحكيم فى هذا الجانب يتكلم عن طائفة اهتمت بمسائل الفتنة حيث أن الكلام فى تلك المسائل مما لم يؤذن فيه» (٤٣).

ويرى الحكيم أن الذى دفع هؤلاء إلى المواقف المردية: انهم نظروا إلى المسائل من أهوائهم وسموها عقولاً. وزعموا أن عقولهم لا تقبل هذه الأشياء ولا يصح مثل هذا من طريق المعقول، فكل ما لا تقبل عقولهم فذلك باطل، فيأخى كيف تدرك بألة مخلوقة محدثة مركبة ربوبية خالق قدير رب عالم يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؟.. ومتى يدرك شىء يزيد وينقص ويتقارب ويتفاضل ربوبية رب لا يزيد ولا ينقص ولا يتغير حاله؟ بل العقل حجة من الله تعالى على العبد، وهو آلة مركبة لاقامة العبودية لا لادراك الربوبية، ومن عجز عن أدراك أشياء فى نفسه مخلوقة فيه ولم يدرك حقيقتها علماً الا بالظن والخيال مثل النوم وأحوال القلب وطبائع النفس والروح ولا يعرف حقيقة النفس أى شىء هى، ولا يعرف حقيقة العقل الذى يدعى أنه يعرف به كل شىء، فكيف يكون له سبيل الادراك إلى ما هو أعلى منه؟ بل الصواب التسليم للحكم والاستسلام للرب، والرجوع إلى الحق» (٤٤).

وبعد، فهذه بعض الأمور التى استطعنا أن نلمح اليها من جهود الحكيم الترمذى فى علم الكلام وموقفه من المتكلمين، وحسبنا أن لفتنا النظر إلى شىء منها، وذلك يغنى عن التفصيل، وما يحتويه التفصيل من تعريفات قد تبعد بنا عن الهدف الأصلى..

وقد بان لنا أن الحكيم قام نظره فى الأصول على التأمل والنقل والأثر

---

(٤٢) الحكيم الترمذى المرجع السابق ص٢١١.

(٤٣) الحكيم الترمذى المرجع السابق ص٢١١.

(٤٤) الحكيم الترمذى «بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص٩٢.

والاستدلال بالآيات على ما يريد، واتسمت معالجته لمسائل التوحيد بجانب النقل والأثر بصبغة ذوقية.

الحكيم الترمذى والسنة النبوية

إن المتأمل فى القرآن الكريم والسنة النبوية (1).. يجدهما متلازمين فإذا كان القرآن هو المصدر الأول للدين، فإن السنة النبوية هى المصدر الثانى، بلا خلاف، لأنها هى المبينة للقرآن والشارحة له، تفصل مجمله وتوضح مشكله، وتقيد مطلقة، وتخصص عامة، وتبسط ما فيه من إيجاز(2).

قال تعالى: **(وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون)** (3).

وقال تعالى: **(وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه)** (4).

فالبيان خاص به صلى الله عليه وسلم ولا يتسنى إلا أن يكون منه، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يبين تارة بالقول، وتارة بالفعل، وتارة بهما (5).

وقد اتفق العلماء الذين يعتد بهم على حجية السنة، سواء منها ما كان على سبيل البيان أو على سبيل الاستقلال.

---

(1) السنة هى ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقى أو خلقى: وقيل ان السنة تشمل القول والفعل والتقرير والصفة، وأن الحديث خاص بقول النبى صلى الله عليه وسلم أو فعله.. وعليه فتكون السنة أعم من الحديث راجع الشيخ محمد على أحمدين (مقدمة كتاب ضوء القمر على نخبة الفكر) ص١٤، ١٥ صبعة دار المعارف بمصر ١٣٧٨هـ.

(2) انظر الدكتور ابو شهبة (دفاع عن السنة) ص١١ ط الأزهر.

(3) سورة النمل الآية رقم: ٤٤.

(4) سورة النحل الآية رقم: ٦٤.

(5) انظر الدكتور ابو شهبة (دفاع عن السنة) ص١١.

قال الإمام الشوكاني: «ان ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ولا يخالف في ذلك إلا من لاحظ له في الإسلام» (٦).

ويقول استاذنا الدكتور أبو شهبة بعد أن أورد النص السابق: «وصدق الشوكاني فانه لم يخالف في الاحتجاج بالسنة الا الخوارج والروافض، فقد تمسكوا بظاهر القرآن وأهملوا السنن، فضلوا وأضلوا وحادوا عن الطريق المستقيم» (٧).

ويذكر الإمام السيوطي: «أن من أنكر كون حديث النبي صلى الله عليه وسلم قولاً كان أو فعلاً بشرطه المعروف في الأصول ــ حجة ــ كفر وخرج عن دائرة الاسلام وحشر مع اليهود والنصارى أو مع من شاء الله من فرق الكفرة» (٨).

والله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ السنة كما تكفل بحفظ القرآن حيث ذكر أن السنة مبينة للقرآن. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ القرآن الكريم في قوله تعالى: (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (٩) فيلزم من هذا أن يكون قد تكفل بحفظ السنة النبوية أيضاً، لأن حفظ المبين يستلزم حفظ البيان إذ لا معنى للمبين بدون بيان. بل صرح الحق بحفظ السنة في قوله تعالى: (ان علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه) (١٠) أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا (١١).

وتحقيقاً لهذا هيأ الله الأسباب لحفظ السنة والذود عن حياضها واعتنى الصحابة بها عناية فائقة. وكانت عناية المسلمين بالسنة في عهد الرسول صلى

---

(٦) انظر الشوكاني (ارشاد الفحول) ص٢٩.

(٧) راجع الدكتور ابو شهبة (دفاع عن السنة) ص١٤.

(٨) السيوطي (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة) ص١١ ط دار الهدى النبوي الكويت.

(٩) سورة الحجر الآية رقم: ٩.

(١٠) سورة القيامة الآية: ١٧، ١٨، ١٩.

(١١) ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) جـ٨ ص٣٠٣ ط الشعب بالقاهرة.

الله عليه وسلم، وفي عهد الخلفاء الراشدين تتجلى في تداولها وتناقلها فيما بينهم بطريق المشافهة أخذاً وعطاء، وتحملاً وأداء. والاعتماد على الحفظ في الصدور، والضبط في القلوب.. حتى كانت كتابة الحديث وتدوينه، فتسابق العلماء لهذا العمل الجليل واشتد نشاطهم له. وممن عنى بالحديث النبوى الحكيم الترمذى، فقد ظهرت عنايته بالحديث منذ صباه المبكر حيث كان أبوه محدثاً، وروى عنه أحاديث كثيرة في كتبه ورسائله وكانت أم الحكيم كذلك ذات اهتمام بالحديث وروى عنها في كتابه «الرد على المعطلة» (١٢) وكذلك كان جده راوياً للحديث ولعله جده لأمه فهذا الجو الأسرى العام الذى أحاط بالحكيم منذ صغره لفت نظره إلى طلب الحديث دراية ورواية» (١٣) وكان له أكبر الأثر في توجيهه هذه الوجهة.

وقد أخذ الحكيم عن كثير من شيوخ المحدثين في عصره. وقد تبين من تتبع شيوخه من المحدثين الذين روى عنهم أنهم كثرة، ويقول الدكتور الجيوشى «ولو أردنا أن نحصر أسماء شيوخ الترمذى الحكيم وخاصة المحدثين فما علينا الا أن نقوم بعملية مسح لمؤلفاته، ونستعرض سلاسل الاسناد، ونأخذ المحدث الأخير الذى تلقى عنه الحكيم مباشرة وقد قمت بهذا فعلاً مدفوعاً بحب الاستطلاع ومحاولة معرفة درجة شيوخ الحكيم من المحدثين ومايتمتعون به من ثقة عند علماء الحديث، فكانت قائمة بأسماء شيوخ الحكيم (١٤) هى نتيجة هذه السياحة الشاقة في مؤلفات الترمذى وأغلبها مخطوطات تقارب الستين بين رسالة وكتاب، وأغلب شيوخه من المحدثين المقبولين لدى علماء الحديث» (١٥).

---

(١٢) الحكيم الترمذى (الرد على المعطلة) مخطوط مكتبة الاسكندرية ورقة رقم ٨٨ ب ومنه صورة بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ١٠٤ توحيد «ميكروفيلم».

(١٣) علم الحديث رواية علم يشمل على نقل ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة. وعلم الحديث دراية علم يعرف به حال الراوى والمروى من حيث القبول والرد «انظر ضوء القمر على نخبة الفكر للشيخ محمد على أحمدين ص١٢ ط دار المعارف بمصر».

(١٤) تراجع أسماء هذه القائمة في كتاب «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره وأفكاره» الدكتور الجيوشى ص٣٩ ومابعدها. وانظر بعض شيوخه عند الدكتور بركة في كتابه «الحكيم الترمذى ونظريته في الولاية» جـ١ ص٣٨ـ٤٤.

(١٥) انظر الدكتور الجيوشى (الحكيم الترمذى دراسة لآثاره وأفكاره) ص٣٩.

وهذا يدلنا على مدى العناية والاهتمام بالحديث عند الحكيم الترمذى، فكتبه جميعها تشهد بأن فى شيوخه كثرة، وهى مليئة بالأحاديث وان سيقت فى مقام الاستشهاد والاستدلال بالأثر على ما يدلى به من أراء فى السلوك، بل إن له كتاباً بعنوان «نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. ويخال من يطلع على هذا العنوان لأول وهلة أنه كتاب فى الحديث النبوى الشريف، على سنن كتب الحديث المعروفة لكنه مع كونه مليئاً بالحديث، مكون من عدة أصول يأتى فى رأس كل أصل بخبر من الأخبار يشرحه ويبينه ويستخرج منه ما يتفق مع الأصل المطلوب»(١٦).

جاء فى «الأصل السادس والستين والمائتين فى أن الله تعالى انما ينظر إلى القلوب لأن كنوز المعرفة فيها والى الأعمال» عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وأحسابكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١٧).

يقول الحكيم الترمذى بعد أن أورد هذا الأصل: «انما ينظر إلى القلوب لأنها أوعية الجواهر وكنوز المعرفة فيها وينظر إلى أعمال الجوارح لأن مبتدأ الأعمال من القلوب فإذا نظر إلى الجواهر ووجدها طرية سليمة كهيئتها محروسة من آفات النفس، مكنونة عن تناول النفس وتلمسها، شكر لعبده، فزاده فى الجواهر وبصره بأقدارها وأخطارها حتى يزداد بها غنى ومن استغنى بالله عز

---

(١٦) راجع الدكتور بركة (الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية) جـ١ ص٧٨.

(١٧) أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب البر والصلة والآدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله جـ٤ ص١٩٨٦، ١٩٨٧ ط الحلبى عن أبى هريرة.

وأشار ابن حجر فى فتح البارى كتاب التوحيد، باب وكان الله سميعاً بصيراً جـ١٣ ص٣٧٣ إلى الحديث، وأشار إلى رواية مسلم فى الصحيح وكذلك أشار اليه فى كتاب المناقب مناقب الأنصار جـ٧ ص٢١٤.

وأخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الزهد باب القناعة جـ٢ ص١٣٨٨ من رواية أبى هريرة.

وأخرجه أحمد فى مسنده من حديث أبى هريرة جـ٢ ص٢٨٥.

والبيهقى فى الأسماء والصفات ص٤٨٠ من رواية أبى هريرة.

وجل فلا قوى أقوى منه ، قد أيست النفس من اجابته اياها ، وأيس العدو من غوايته » (١٨) .

فالحكيم لم يكن مقصده فى كتاب (نوادرالأصول) التحديث ـــ كما يبدو ـــ بقدر ما كان مقصده بيان هذه الأصول والاستشهاد لها والاستدلال عليها بما أورد من الحديث. وكتاب نوادر الأصول يعمد فيه الحكيم إلى جمع مائتين وواحد وتسعين حديثاً ، اعتبر كلاً منها أصلاً من الأصول التى يحتاج اليها المسلم فى سلوكه وسعيه ومعاملاته وعباداته وهو فى هذا الكتاب يأتى بالحديث كأصل ثم يأخذ فى شرحه شرحاً وافياً مستفيضاً يستخلص منه ما يراه من معان وأسرار وفى شرحه يخوض فى كل المعارف الدينية الظاهرة والباطنة ويكشف عن أسرار النفس والقلب وجوهر العبادة والسلوك وأنواع المعارف والعطايا الالهية .

والاتجاه الصوفى فى كل هذه المجالات هو الميزان الذى يزن به الأمور، ويحكم به على سر القلوب وسيرها ، انظر اليه وهو يتحدث فى الأصل السادس والعشرين والمائتين: رأس الحكمة لم صار مخافة الله ـنجده يقول : « مخافة الله تعالى هى التى ألهمت عن الأسباب حتى صارت رأس الحكم وهى تعلق القلب بمشيئة الله تعالى ، ولما صار إلى المشيئة انبهمت عليه الأمور فانه يعلم أنه شاء فخلقه ، ولا يعلم أنه لماذا خلقه فظهر له بعض المشيئة وخفى عليه أخر شأنه من مشيئته وأقلقه والهاه وأذهله عن النفس وعن دنياه فلما زايلته نفسه ودنياه انشرح صدره واتسع فى الحكمة والله احكم » (١٩) .

وبالاضافة إلى هذه الأصول التى جمعت كثيراً من الأحاديث فان الحكيم وضع كتباً تقوم أساساً على الحديث جمعاً ورواية أو رواية ودراية وهذه الكتب التى خصصت بأكملها للحديث ، أو كانت دراسة لأحد موضوعاته هى : (المنهيات وكل حديث جاء بالنهى) (٢٠) ، (والفرق بين الآيات

(١٨) الحكيم الترمذى (نوادر الأصول) ص ٣٧٩ .
(١٩) الحكيم الترمذى (نوادر الأصول) ص ٢٧١ .
(٢٠) انظر الدكتور الجيوشى (الحكيم الترمذى دراسة لآثاره وأفكاره) ص ١٧٧ .

والكرامات) (٢١) والأمثال من السنة» (٢٢). ويذكر الدكتور الجيوشى: أن المستعرض لأثار الحكيم فى الحديث يرى أنه لم يسلك الطريق التى تعارف عليها المحدثون والتى تقوم على جمع الأحاديث وانتخابها وتبويبها، بل اتجه اتجاهاً آخر. نابع من منهجه العام الذى أخذ به فى تآليفه القرآنية ذلك أنه كان يعمد إلى موضوع من الموضوعات فيستوعب الأحاديث التى جاءت فيه، ويحشدها جميعاً فى كتاب واحد حتى لايدع مجالاً للشك فى صحة مايدعو إليه، وأحياناً يكون عمله قاصراً على جمع الأحاديث فقط من غير أن يتبعها بشرح واستنتاج كفعله فى كتاب «الرد على المعطلة» الذى حشد فيه كل ماوقع عليه من أحاديث ترد ماذهب اليه المعتزلة من قولهم بنفى الصفات، وتؤيد وجهة نظر أهل السنة الذين يثبتون الصفات لله سبحانه وواضح أن موضوع الكتاب داخل فى علم الكلام وهو اثبات الصفات أو نفيها ولكن الجهد الذى بذل فى جمع الأحاديث وروايتها بأسانيدها هو جهد صوفى سالك.

وكتاب «المنهيات» عمد فيه الحكيم إلى طائفة من الأحاديث التى تناولت أمراً منهياً عنه، وحشدها جميعاً فى سياق واحد إلا أنه اتجه إلى احصاء الأمور المنهى عنها، مبيناً أسباب النهى، كاشفاً عن الأضرار التى تلحق بالشخص إذا ماخولفت هذه المنهيات (٢٤).

وقد تحصل للباحث المتابع لكتب ومؤلفات الحكيم الترمذى فى الحديث أن للحكيم فى ميدان الحديث ثلاثة مناهج:

— منهج يقوم على جمع الأصول التى تتصل بقضايا التصوف. ثم الإبانة عن مراميها، وتجليتها مثل الولاية، والأولياء، والحديث، والإلهام والفراسة.

(٢١) مخطوط المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٠١٨ ومنه صورة بدار الكتب المصرية.

(٢٢) مخطوط ١ ــ إسماعيل صائب رقم ١٥٧١ ــ ٢ ــ الجمعية الاسيوية بكلكتا رقم ١١١٦.

(٢٣) مخطوط المكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٠١٨ ومكتبة أسعد برقم ١٤٧٩ ومنه صورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٠١٨.

(٢٤) راجع الحكيم الترمذى (المنهيات) ط دار الكتب العلمية بيروت بتحقيق أبوهاجر (المنهيات) تحقيق محمد عثمان الخشن ط القاهرة.

- ومنهج يقوم على ترك الأحاديث تعطى القارىء ما يريد المؤلف أن يقوله بدون تدخل منه أو استنتاج.
- ومنهج يقوم على جمع الأحاديث وشرحها مع التوجيه والتعليل.

فهو لم يرو الحديث مجرداً عن التعمق فى فهم معناه ومحاولة الوصول إلى أعماقه وأغواره بل جعل يستفيد مما يستمع وهذا هو مقصده الأول، ثم يحاول أن يبين ما استفاد مقروناً بمصدر الفائدة من الحديث والأثر(٢٥).

ولا يخفى أن هذا الموقف من الحكيم الترمذى يختلف عن مواقف كثيرين من رواة الحديث، حيث كان الحكيم يحاول الوصول إلى أعماق الحديث والبحث عن أغواره، ليستفيد منه فى قضايا السلوك الإنسانى. وقد تعرض الحكيم لهذا الموقف فى مواضع مختلفة من كتبه، ذلك أن فى رواية الحديث ناحيتين:

الأولى: الاستماع والحمل..

والثانية: الرواية والنقل..

ولكل من هاتين الناحيتين هدفه الخاص به عند الحكيم الترمذى أما غاية الاستماع والحمل، فهو الاشتغال(٢٦) بالنفس ونجاتها يوم القيامة لأن من لم يستمع عاش جاهلاً، والجاهل لا يحس عبادة ربه، فمن أراد النجاة يوم القيامة أحسن عبادة ربه، ومن أراد أن يحسن عبادة ربه، فعليه بحسن الاستماع والحمل، حتى لا يكون جاهلاً(٢٧).

فالاشتغال بالنفس صفة من صفات الذين يحسنون الاستماع والحمل يقول الحكيم فى ذلك: «والصنف الآخر تفقهوا فيه وتدبروا وطلبوا معانيه وتعرفوا ناسخه من منسوخه، وتفقدوا ألفاظه لتباين المعانى، فربما تغير المعنى بحرف واحد حتى قروا على الاستنباط ومقاييس الفروع على الأصول(٢٨).

---

(٢٥) انظر الدكتور بركة (الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية) جـ١ ص٧٩.
(٢٦) ويضم إلى ذلك التبليغ والتعليم والدعوة.
(٢٧) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٧٩.
(٢٨) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترين» ص١٤٣ مخطوط.

وإذا كانت هذه هى غاية الاستماع والحمل عند الحكيم الترمذى حيث أن الغاية الاشتغال بالنفس ونجاتها يوم القيامة، وتلك غاية سلوكية فى مذهب الحكيم فان غاية الأداء والنقل والرواية هى حفظ دين الأمة وحفظ دين الأمة لا يكون — كما يقول الحكيم — بحمل الغث والثمين، والصحيح والسقيم، والحمل من كل راو، دون التثبت والتوقى، بل لابد من اختيار الشيوخ الذين يحمل عنهم، ممن يكونون من أئمة الهدى، المعروفين فى الآفاق بالصدق والأمانة، وحسن الأداء (٢٩).

فأنت ترى من هذا أن الحكيم يدعو من يؤدى وينقل ويروى أن يحسن اختيار الشيوخ الذين يحمل عنهم. وبجانب هذا لابد أن ينظر الحامل فيما يسمع وينقده (٣٠) ويؤكد الحكيم هذا المعنى حينما نراه يعيب على الذين يحفظون الأسانيد ولا يهتمون بالمعانى وما وراءها. فيقول: «وآخرون يحفظون أسانيد (٣١) هذه الأخبار وعدد وجوه رواتها، ونقد الرجال وزيافها، وقد ضاعت عنهم معانيها وألفاظها. فكم من حديث يتغير كلمه بتغير عامة معنى الحديث فقد أهملوا هذا التفقه وأقبلوا على نقد الرجال، وفلان عن فلان غريب، ثم يرون ما زيفوه» (٣٢).

وإذا كانت غاية الاستماع والحمل.. وغاية الأداء والنقل — عند الحكيم — كما عرفنا، فان ذلك يعنى أن الحكيم الترمذى يريد أن يجمع بين نقد السند، ونقد المتن، فى حدود الغاية المقصودة، أو ما يسمى بعملية النقد من الخارج، وعملية النقد من الداخل (٣٣).

---

(٢٩) راجع الدكتور بركة (الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية) جـ١ ص٧٩.

(٣٠) ان المحدثين عرفوا الغث من الثمين ليميزوا بينها، ويحذروا الناس من الغث والعيب إنما هو على بعض الجهال الذين لا يفرقون.

(٣١) هذا فرض ليميزوا بن الصحيح والسقيم وقد ضم بعضهم على حسب الطاقة إلى ذلك الغوض فى المعانى والفقه فى الحديث ولا وجه للحكيم فى العيب على الصنف الأول لضرورته القصوى.

(٣٢) الحكيم الترمذى (الكلام على معنى لا إله إلا الله) ص٣٥ تحقيق د. الجيوشى.

(٣٣) راجع الدكتور بركة (الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية) جـ١ ص٨٠.

وهو بهذا لا يرضى عن الذين يلتقطون شيئاً من نثارة هذا العلم إما فقهاً وإما حديثاً. فيعجبون بما التقطوا والحقيقة أن محصولهم لا يبلغ إلا القليل من أصول الدين (٣٤).

والحكيم الترمذى نراه يفرد لهذه المسألة فصولاً خاصة كما في كتابه «الفروق ومنع الترادف» (٣٥) وفى كتابه «الأكياس والمغترين» (٣٦). وفى رسالته «أنواع العلوم» (٣٧).. وقد سمى الحكيم الفريق الأول: الوعاة، والفريق الثانى: الرواة.. والفريق الثالث: النقالون. ويقول فى كتابه «الفروق ومنع الترادف»: «الفرق بين الرواة والوعاة: فالوعاة قوم سمعوا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أئمة الهدى والثقات المرضيين، فوعوها فكان من وعايتهم أن استنبطوها، وكشفوا عن معانيها، وقلبوها ظهراً لبطن، تفتيشاً عن وجوه التأويل، فربما تغير المعنى بحرف واحد من حروف المعجم، فالوعاه هذا شأنهم إنما دهرهم فى كشف الغطاء عن المعانى، وطلب حسن التأويل، فطلبهم لله» (٣٨) فهؤلاء الوعاة يعتبرهم الحكيم الترمذى «اللباب والنفع باللباب» (٣٩) وهم جماعة من العلماء قد توفر لديهم الجمع بين المنهج النقدى لأهل الحديث، وبين منهج آخر هو كشف الغطاء عن المعانى، وطلب حسن التأويل.

---

(٣٤) راجع الحكيم الترمذى (الكلام على معنى لا إله إلا الله) ص٣٥.

(٣٥) الحكيم الترمذى (الفروق ومنع الترادف) عنوان (الفرق بين المؤدين للأخبار والناقلين) ص٦٢ من خطوط مكتبة الاسكندرية تصوف رقم ٤٦٧.

(٣٦) الحكيم الترمذى (الأكياس والمغترين) تحت عنوان: صنف مؤدون والصنف الآخر ص١٤٢، ١٤٣ مخطوط.

(٣٧) انظر الدكتور بركة (الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية) جـ١ ص٨٠ وانظر كذلك الحكيم الترمذى كتاب (شفاء العلل) عنوان (عمل العلماء بأمر الله) ص٣٤.

(٣٨) الحكيم الترمذى (الفروق ومنع الترادف) ص٧٣ ب نقلاً عن الحسينى نظرية المعرفة عند الحكيم الترمذى ص٨٠.

(٣٩) المصدر السابق ص ٧٣ ب ونظرية المعرفة ص٨٠.

وإذا كان هذا شأن «الوعاة» فان شأن «الرواة» انهم «يستوفون الأسانيد، ووجوه الاسناد[٤٠]، ويتخيرون النقالين والحملة بهذه الرواة على أهوائهم فذلك قصدهم.. ليسوا من العلم والانتفاع به فى شىء. لم يقفوا على ناسخها ومنسوخها وعلى عامها وخاصها، وعلى غوامض تأويلها إنما شأنهم الكتابة والحفظ. فإذا احتاجوا إلى ذكره، مروا فى أبوابها وأسانيدها، ووجوه رواتها، ثم لا يلتفتون إلى شىء وراء ذلك، ويظنون أنهم قد فرغوا من العلم، فهؤلاء الرواة ليس بأيديهم إلا ذرو الكلام وليس بأيديهم من العلم إلا قشره»[٤١].. فبعض رواة الحديث عند الحكيم ليسوا من العلم فى شىء ومايظنونه علماً ان هو إلا قشر وكلام، لأن العلم يحتاج إلى التفقه فى الدين.. ثم هم بعد ذلك يتخيرون النقلة والرواة على أهوائهم[٤٢]، ويقيدون من الحديث مايوافقهم، والناقلون عند الحكيم هم: «قوم يسوقون الأسانيد، ويحفظون عدد الوجوه والطرق. فهذا الدهر مشغول بذلك لا يلتفت إلى معانى الحديث. همته الأسانيد والطرق فلو أخذ أحدهم بشىء يسير من الدين، لم يتوجه لمقال جوابه، فهم فى التيه[٤٣] والبطالة» ولا يلتفتون إلى معانى الحديث التى تأخذ بالسالكين إلى طريق العبودة[٤٤].

ويخلص الدكتور بركة إلى القول: انه بالرجوع إلى مختلف ماكتبه ــ الحكيم ــ بهذا الشأن، فانه يمكن تقسيم المحدثين عنده إلى أصناف أربعة:

---

(٤٠) لا شك أن هذا غلو من الحكيم لأن عمل علماء الحديث يقوم على استيفاء الأسانيد ووجوه الاسناد، وربما كان الحكيم يقصد من وراء ذلك أولئك الذين ليسوا من العلم والانتفاع به فى شىء ــ كما صرح هو بذلك ــ.

(٤١) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» ص٧٣، وانظر الدكتور عبدالمحسن «نظرية المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص٨٠.

(٤٢) ومن يأخذ على حسب هواه فليس من أهل الحق وإنما الأخذ عند الأئمة عمن هو أهل للأخذ عنه ممن جمع الشروط المعتبرة عند العلماء كتمام الضبط والعدالة.

(٤٣) هذا أيضاً غلو وكيف يكون فى تيه وبطالة من يقصر همه على حفظ طرق الحديث ومتونه وقد حفظ السنة وبها حفظ القرآن وحفظ الدين.

(٤٤) الحكيم الترمذى (الفروق ومنع الترادف) ص٦٢ صورة بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية.

١ ــ **الوعاة:** وهم الذين يتحرون أن تكون شيوخهم من أئمة الهدى والثقات المرضين، ويكشفون وجوه المعانى والتأويل فيما ينقلونه ابتغاء لوجه الله فى أنفسهم وحفظاً على الأمة دينهم.

٢ ــ **والمؤدون:** وهم الذين يتحرون أن تكون شيوخهم من أئمة الهدى وممن عرفوا بالصدق والأمانة وحسن الأداء، فيحملون عنهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته، وتفسير شريعته، مع عناية بنقد الأسانيد والمتون..

٣ ــ **والنقالون:** وهم الذين يهتمون بسياقة الأسانيد، وحفظ الوجوه والطرق المختلفة، لا يلتفتون إلى شيء غير ذلك من معانى الأحاديث بحيث لو سئل الواحد منهم عن معنى شيء مما يرويه لحار وتوقف(٤٥).

٤ ــ **أما الرواة:** فهم يتنافسون فى ذلك حرصاً على التصدر والرئاسة، وطمعاً فى عرض هذه الحياة الدنيا، فيطلبونه بلا حسبة ولا نية ولا طلب اقامة حق الله تعالى فى أنفسهم أو احياء دين الله تعالى بين الناس(٤٦).

فالحكيم الترمذى يرى لأهل الحديث طريقاً يرسمه لهم فى وضوح وينبههم إلى سلوكه. وذلك الطريق هو طريق الأداء.

يقول الحكيم فى ذلك: «فالمؤدى رجل قصد أئمة الهدى، والذين عرفوا فى الآفاق بالصدق والأمانة، وحسن الأداء، فحمل عنهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته وتفسير الشريعة. فهؤلاء مؤدون تلقوا عن الرجال، ونقدوا الكلام» (٤٧) وأداء الحديث يجرى مجرى الشهادة، وقد شرط الله فى الشهادة فقال: «**ممن ترضون من الشهداء**» (٤٨).. فإذا أخبر عن غير أهل الرضا فليس بمقبول(٤٩)، وإذا كان صاحب استنباط واجتهاد فانه يحتاج إلى قلب ذكى مشحوذ بنور الله، ونفس صافية من كدورة الأخلاق، عفيفة من أدناس شهوات

---

(٤٥) ليس هذا شأناً عاماً لهم وقد يحصل للنادر منهم لأنه وفر جهده على الحفظ والرواية.

(٤٦) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٨١.

(٤٧) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» ص٦٢.. مخطوط.

(٤٨) سورة البقرة الآية رقم: ٢٨٢.

(٤٩) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترين» ص١٤٢.

الدنيا، حتى يدرك الحق، ويسلم من الدخول بين الله سبحانه وبين عباده» ([50]).

أما النقالون فهم عند الترمذى «البلاء والبطالة» على أن هذا لا يمنع المرء من أن يقول: انهم يقومون بأداء عمل جليل، فهم يحملون العلم، وان لم يكونوا أهلا لفهمه واستنباطه، «ليؤدوه إلى من يكون أهلاً لفهمه واستنباطه» ([51]).

وفى كتاب «نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول» يسوق الحكيم الترمذى فى الأصل الثامن والستين والمائتين أحاديث تقتضى العلماء الأداء، وتبليغ العلم..

وبذلك يحفظ العلم من الضياع وينتقل إلى من يعمل به، ويؤدى الغرض المطلوب منه والحكيم لا يغفل دور هؤلاء العلماء ولا ينكر عليهم ما يستحقون من الثواب لدى الله.. ومما يسترعى الانتباه أن الحكيم ينظر إلى المحدثين فى خاصة أنفسهم ويتطلب دائماً العمل على تحصيل ما هو أكمل للمرء فى نفسه. وهنا نجد أن الحكيم يخاطب المحدثين وغيرهم فى نقده من مقامين:

ـ مقام الحكم الشرعى دون نظر إلى طلب الفضل والكمال ـ وذلك قلما يذكره ([52]) ـ بل يكون ذلك عادة كالاعتذار وكالتعقيب على حديثه من المقام الأعلى الذى يطالب فيه بالسعى نحو الكمال. فالناقلون إذا نظرنا إليهم من مقام الحكم الشرعى محسنون ذوو أجر وثواب عند الله. ولكنهم إذا نظرنا اليهم من المقام الأعلى فهم غير ذلك. ومما لا يخفى على أهل الدراسة والعلم أن الحكيم الترمذى ممن يجوزون رواية الحديث بالمعنى. ويذكر ذلك بكل وضوح فى كتابه «نوادر الأصول» حيث أقام الأصل الثامن والستين والمائتين فى «سر رواية الحديث بالمعنى» وذكر جملة أحاديث فى الموضوع منها حديث عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نضر الله

(٥٠) الحكيم الترمذى «المرجع السابق» ص١٤٤، ١٤٥.
(٥١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص٨٢.
(٥٢) وإنما يعاب من أهمل العمل بما ينقل ولا يعاب أبداً من طلب العلم أو حصله.

امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمع منا فانه رب مبلغ هو أوعى له من سامع »(٥٣) .

يقول الحكيم الترمذى : اقتضى العلماء الأداء، وتبليغ العلم ، فلو كان اللازم لهم أن يؤدوا تلك الألفاظ التى بلغت أسماعهم بأعيانها بلا زيادة ولا نقصان ، ولا تقديم ولا تأخير. لكانوا يستودعونها الصحف ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن فكان إذا نزل الوحى دعا الكاتب فكتبه ، مع ما تكفل

(٥٣) انظر الحديث فى نوادر الأصول للحكيم الترمذى ص٣٨٩ .

وعبد الله بن مسعود هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب ابن شمخ بن مخزوم ، أسلم بمكة قديماً ، وهاجر الهجرتين ، وشهد بدراً والمشاهد كلها ، وكان صاحب نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن سعد بن معاذ وعمر، وصفوان بن عسال وعنه ابناه : عبد الرحمن وأبوعبيدة، وابن أخيه عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وأبوسعيد الخدرى، وأنس وجابر، وابن عمرو، وأبوموسى الأشعرى وغيرهم . قال البخارى : مات بالمدينة قبل عثمان . وقال أبونعيم وغير واحد : مات سنة اثنتين وثلاثين . وقال يحيى بن بكير سنة ٣٣ هجرية ، وقيل مات بالكوفة راجع الترجمة فى :

- أسد الغابة ٣/ ٣٨٤ــ ٣٩٠ .
- تهذيب التهذيب ٦/ ٢٧، ٢٨ .
- سير أعلام النبلاء ١/ ٤٦١ .
- الاصابة ٤/ ٢٣٣ .
- الاستيعاب ٣/ ٩٨٧ .

والحديث أخرجه الترمذى فى سننه كتاب العلم باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع جـ٥ ص ٣٤ وقال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح ولفظ الترمذى « نضر الله امرىء سمع منا حديثاً فبلغه كما سمع فرب مبلغ أوعى من سامع» عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه ابن ماجة فى سننه باب من بلغ علماً جـ١ ص٨٥ بلفظ « نضر الله امرءا سمع منا حديثاً فبلغه فرب مبلغ أحفظ من سامع» عن عبد الله بن مسعود . ويشهد له ما :

أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب العلم باب « نضر الله عبداً سمع مقالتى فوعاها»ج١ ص٨٦، ٨٧ وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبى .

وأخرجه أبو داود فى سننه كتاب العلم باب فضل نشر العلم جـ٣ ص٣٢١ ورواه الدارمى فى سننه باب الاقتداء بالعلماء جـ١ ص٧٥ وأحمد فى المسند من حديث عبد الله بن مسعود جـ١ ص٤٣٧ ومن حديث انس جـ٢ ص٢٢٥ ومن حديث جبير بن مطعم جـ٤ ص٨١، ٨٢ ومن حديث زيد ابن ثابت جـ٥ ص١٨٣ .

والطبرانى فى الكبير جـ٢ ص١٣١، ١٣٢ من رواية جبير بن مطعم عن أبيه. والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد جـ٣ ص١٩٢ من رواية النعمان ابن بشير. وأبونعيم فى الحلية جـ٥ ص١٠٥ .

الله له بجمعه وقرآنه، فقال: (إن علينا جمعه وقرآنه) (٥٤) وقال: (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (٥٥) فكان الوحى محروساً. ومع الحرس يكتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولو كانت هذه الأحاديث سبيلها هكذا لكتبها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل جاءنا عن أحد منهم أنه فعل ذلك (٥٦). وسائر الأخبار فانهم تلقنوها منه حفظاً وأدوها حفظاً، فكانوا يقدمون ويؤخرون، وتختلف ألفاظ الرواية فيما لايتغير معناه، فلا ينكر ذلك منهم ولا يرون ذلك بأساً (٥٧).

وروى أنه لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (٥٨) أمسك أصحاب رسول الله صلى الله عليه

---

(٥٤) سورة القيامة الآية رقم: ١٨.

(٥٥) سورة الحجر الآية رقم: ٩.

(٥٦) ثبت المنع من الكتابة أول الأمر لأمور قالها العلماء، ثم ثبت الأذن فى الكتابة بعد ذلك لزوال أسباب المنع فالقياس هنا غير صحيح. وقد ثبت الأذن فى الكتابة وكتب بعض الصحابة فعلاً بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبموافقته. وقد أجاز الأئمة الرواية بالمعنى بشروط خاصة.

وهذا الاستدلال على جواز رواية الحديث بالمعنى بعيد فالحديث المستشهد به واضح تماماً فى الحفظ «سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها».

ويبدو من عنوان الأصل الذى ذكره الحكيم «سر رواية الحديث بالمعنى» أن الحكيم الترمذى أراد أن يبين أن سر رواية الحديث بالمعنى ناتج عن الترغيب فى التبليغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأن التبليغ بنفس الألفاظ قد يصعب على البعض. ولذا كانت رواية الحديث بالمعنى بالشروط التى وضعها الأئمة.

(٥٧) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول» ص٣٨٩.

(٥٨) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب العلم باب «من كذب على النبى صلى الله عليه وسلم ١/ ٢٠٠، ٢٠١ وكتاب الجنائز باب مايكره من النياحة على الميت ٣/ ١٦٠. وكتاب أحاديث الأنبياء باب ماذكر عن بنى إسرائيل ٦/ ٤٩٦. وكتاب الأدب باب من سمى بأسماء الأنبياء ١٠/ ٥٧٨.

ومسلم فى صحيحه كتاب الزهد باب التثبيت فى الحديث ٤/ ٢٩٨. وفى المقدمة ص١٠.

وأبو داود فى سننه كتاب «العلم» باب «التشدد فى الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم» ٢/ ٤٢٤.

والترمذى فى سننه كتاب «الفتن» ٤/ ٥٢٤ وقال: «هذا حديث حسن صحيح. وكتاب «العلم» (باب ماجاء فى تعظيم الكذب على رسول الله ٥/ ٣٥ وقال حديث حسن صحيح. وباب =

وسلم عن الرواية مخافة تغيير الألفاظ، ثم سألوه عن ذلك، فهداهم السبيل، وأوضح لهم الطريق» (٥٩).

فالرواة جوزوا النقل بالمعنى ويدل على ذلك أن قصة واحدة جرت فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم قد نقلت بألفاظ مختلفة كحديث: «زوجتكها بما معك من القرآن» وفى رواية أخرى «ملكتكها بما معك من القرآن» وفى رواية ثالثة: «انكحتكها بما معك من القرآن» وفى رابعة «امكناكها بما معك من القرآن» (٦٠) فيعلم من هذا أنه صلى الله عليه وسلم لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ بل لا نجزم بأنه قال بعضها إذ يحتمل أنه قال لفظاً آخر غير هذه

= ما جاء فى الحديث عن بنى إسرائيل ٥/٤٠ وقال حسن صحيح وكتاب التفسير باب ما جاء فى الذى يفسر القرآن برأيه ٥/١٩٩، عن ابن عباس وقال حسن صحيح.

والدارمى فى سننه باب اتقاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ١/٦٦،٦٧.

والبيهقى فى سننه، كتاب صلاة الخوف، باب الرخصة للنساء فى لبس الحرير والديباج وافتراشها والتحلى بالذهب ٣/٢٧٦ من حديث خالد بن عرفطة ٥/٢٩٢.

وأحمد بن حنبل فى المسند من حديث عمر بن الخطاب ٢/٤٣، ٤٧، ١٢٣، ١٥٠ ومن حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ٢/١٥٩، ١٧١، ٢٠٢، ٢١٤.

والحكيم الترمذى «نوادر الأصول فى معرفة أخبار الرسول» ص٣٨٩.

(٥٩) راجع الحكيم الترمذى «نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول» ص٣٨٩.

جاء فى مجمع الزوائد عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده بين عينى جهنم فشق ذلك على أصحابه. فقالوا يا رسول الله نحدث بالحديث نزيد وننقص، قال ليس اعنيكم، انما اعنى الذى يكذب علىَّ متحدثاً يطلب به شين الإسلام».

رواه الطبرانى فى الكبير وفيه الأحوص بن حكيم ضعفه النسائى وغيره. ووثقه العجلى، ويحى بن سعيد فى رواية ورواه عن الأحوص محمد بن الفضل بن عقبة.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد جـ١ ص١٤٧، ١٤٨ للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى المتوفى سنة ٨٠٧ ط مكتبة القدس ١٣٥٢هـ.

(٦٠) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الوكالة باب وكالة المرأة الامام فى النكاح ٤/٤٨٦ بلفظ «قد زوجناكها بما معك من القرآن».

وكتاب فضائل القرآن باب (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ٩/٧٤ بلفظ (قد زوجتكها بما معك من القرآن) وباب القراءة عن ظهر قلب ٩/٧٨ بلفظ «قد ملكتكها بما معك من القرآن» وكتاب النكاح باب «تزوج المعسر» ٩/١٣١ بلفظ «فقد ملكتكها بما معك من القرآن» وباب «عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح ٤/١٧٥، بلفظ «املكناكها بما معك من القرآن» وباب إذا كان الولى هو الخاطب ٩/١٨٨ بلفظ «فقد زوجتكها بما معك من القرآن» وباب السلطان ولى =

الألفاظ فأتت الرواة بالمعنى. ولم تأت باللفظ إذ المطلوب نقل المعنى ولم يكن الرواة يضبطون الحديث بالكتابة اتكالاً على الحفظ، والضابط منهم من ضبط المعنى (٦١).

وإذا ذهب الباحث يفتش فى كتب علماء الأصول والفقه، وجد أن الأمام مالك والأكثر وفاقاً للشافعي، وأبى حنيفة، وأحمد: أجازوا نقل الحديث بالمعنى لأن لفظ السنة ليس متعبداً به، بخلاف لفظ القرآن فإذا ضبط المعنى فلا يضر فوات ما ليس بمقصود (٦٢).. وعلماء الفقه والأصول الذين جوزوا نقل الحديث بالمعنى اشترطوا فى الناقل شروطاً من أهمها:

- أن يكون عارفاً بمدلولات الألفاظ أى مدلول اللفظ الوارد، ومدلول ما يأتى به بدله بحيث لا يتفاوت مدلولهما.
- وأن يكون عارفاً بمحال وقوع الكلام بأن يأتى بلفظ بدل آخر مساو له فى المراد منه.

= ٩/١٩٠ بلفظ «زوجناكها بما معك من القرآن» وباب إذا قال الخاطب للولى زوجنى فلانة ٩/١٩٨، بلفظ «فقد أنكحتها» وكتاب اللباس باب «خاتم الذهب» ١٠/٣٢٢، ٣٢٣، بلفظ «فقد ملكتكها».

ومسلم فى صحيحه، كتاب النكاح «باب أقل الصداق ٩/٢١٤، بلفظ «فقد ملكتكها».

وأبو داود فى سننه كتاب النكاح. باب التزويج على العمل بعمل ٢/٢٣٦ بلفظ «قد زوجتكها».

والترمذى فى سننه كتاب النكاح. باب ما جاء فى مهور النساء ٣/٤١٢ بلفظ «زوجتكها» وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح والنسائى فى سننه كتاب النكاح. باب هبة المرأة نفسها لرجل بغير صداق ٦/١٢٣ بلفظ «قد زوجتكها».

وابن ماجه فى سننه كتاب النكاح. باب صداق النساء ١/٦٠٨، بلفظ «قد زوجتكها».

والدارمى فى سننه «كتاب النكاح». باب ما يجوز أن يكون مهراً ١/١٤٢ بلفظ «قد زوجتكها».

والدارمى فى سننه «كتاب النكاح. باب ما يجوز أن يكون مهراً ١/١٤٢ بلفظ «قد زوجتكها».

واحمد فى مسنده من حديث سهل بن سعد ٥/٣٤٤ بلفظ «فقد املكتها».

(٦١) راجع الاستاذ منشاوى عثمان عبود «الاحتجاج بالحديث فى اللغة» مجلة كلية اللغة العربية بالرياض الجزء الثانى ص١٦٢.

(٦٢) راجع الشنقيطى «نشر البنود على مراقى السعود» الجزء الثانى ص٦٥ ط. وزارة الأوقاف المغربية.

— وأن يكون جازماً بفهم معنى الحديث، وبأن العبارة التى عبر بها تدل على معناه.

— وأن يكون على معرفة باستواء العبارتين فى الخفاء والظهور، فلا يبدل لفظ ظاهر الدلالة على معنى بلفظ خفى الدلالة على ذلك المعنى ولا يعكس لأنه ينشأ عن ذلك تقديم ما رتبته التأخير أو العكس([63]).

جاء فى متن مراقى السعود:

والنقل للحديث بالمعنى منع	ومالك عنه الجواز قد سمع
لعارف يفهم معناه جزم	وغالب الظن لدى البعض انحتم
والاستواء فى الخفاء والجلاء	لدى المجوزين حتماً حصلا
وبعضهم منع فى القصار	دون التى تطول لاضطرار([64])

ومما يفهم مما جاء فى هذا النظم أن هذه الأبيات اشارت إلى الشروط التى يجب توافرها فيمن يروى الحديث بالمعنى. ومحل الخلاف فى جواز نقل الحديث بالمعنى إنما هو فيما لم يتعبد بلفظه. أما ما تعبد بلفظه كالآذان والتشهد والتكبير فى الصلاة والتسليم، فلا يجوز فيه قطعاً ومن الشروط التى ذكرها العلماء أن لا يكون ذلك المروى من جوامع الكلم التى أوتيها النبى صلى الله عليه وسلم فلا يصح نقلها بغير ألفاظها([65]).

وإذا كان العلماء يشترطون فى الناقل بالمعنى أن يكون عارفاً بدلالات الألفاظ واختلاف مواقعها. فان الحكيم الترمذى يقرر أن علماء الحديث هم الذين يميزون رواية الرواة ويعرفون صحيحها من سقيمها يقول الحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول»: ثم لما تداولت هذه الأحاديث طبقات القرون واشتبهت عليهم أصول العلم وهى الحكمة، وافتقدوا غور الأمور، وكثر التخليط بحال الزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير.

(٦٣) انظر الشنقيطى «نشر البنود على مراقى المسعود» جـ٢ ص٦٦.
(٦٤) المرجع السابق جـ٢ ص٦٣ — ٦٧.
(٦٥) راجع المصدر السابق جـ٢ ص٦٨.

فعلماء الحديث ميزوا رواية الرواة صحيحها من سقيمها.

وفى كتاب «علم الأولياء» يقول الحكيم: وصنف منهم أعلا من هذا، وهم إلى الله تعالى وتقدس إذ فقهوا لما بصروا صور الأشياء فى صدورهم، وعاينوا ما فى صور الأشياء من المعانى (٦٦) فإذا طالعوا ما فى المعانى كان لهم الوجود فى المعانى. فإذا كان لهم الوجود أى الوجود فى المعانى من المطالعة سمى ذلك الوجود بصيرة وهى بصيرة النفس، لأنه لما كان لهم الوجود انكشف الغطاء. وهو ظل الهوى لأن ذلك غطاء. وذلك لأن الهوى نفس النفس. فلما فارقت النفس الهوى بقى ظل الهوى خيالاً على النفس. وإذا كان لهم الوجود انكشف كل غطاء دق أو جل وخشعت النفس لله، وجالت قلوبهم فى الملكوت الأعلى وفتح لهم من الحكمة العليا.

فالعلم علمان: والحكمة حكمتان ثم هما أنواع فكما أن العلم أنواع فكذلك الحكمة أنواع (٦٧). حكمة من العلم به، وحكمة من العلم بأموره وتدبيره وصنعته (٦٨).

فالحكيم الترمذى — كما نرى — يعنى بالوقوف على المعانى وما ترشد اليه من دلالات، ولا يفوتنا هنا أن نعرف أن ابن حجر العسقلانى (٦٩) أشار إلى الحكيم الترمذى فى كتابه «لسان الميزان» بأنه له المصنفات الكبار فى أصول الدين ومعانى الحديث (٧٠).

---

(٦٦) هذا يوضح أن الحكيم الترمذى لايكتفى بالبحث عن الأشياء ذاتها فقط لمجرد معرفتها ولكن مايعنيه هو الوقوف على معاني ودلالات هذه الأشياء فالمعرفة معرفة بظواهر الأشياء أى مجرد وجودها ثم معرفة بباطن وجوهر هذه الأشياء أى معناها ودلالتها الداخلية الحكيم الترمذى «علم الأولياء» هامش ص٢٣٣.

(٦٧) الحكيم الترمذى «علم الأولياء» ص١٣٨، ١٣٩.

(٦٨) الحكيم الترمذى «الكلام على معنى لا إله إلا الله» ص٣٣.

(٦٩) هو شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢م وراجع لسان الميزان ط الهند سنة ١٣٣١هـ (المقدمة) وانظر كذلك الشيخ محمد على أحمدين «ضوء القمر على نخبة الفكر» ص٩ ط دار المعارف سنة ١٣٧٨هـ.

(٧٠) انظر ابن حجر «لسان الميزان» جـ٥ ص٣٠٨ ط حيدر آباد الهند ١٣٣١هـ.

وتاج الدين السبكى يعرف الحكيم فيذكر أنه «المحدث» (٧١) كذلك الشيخ إسماعيل البيضاوى يقول عنه: «انه المحدث (٧٢)». والامام الذهبى يذكره بأنه: «الحافظ» (٧٣) وفى ميزان الاعتدال يقول الذهبى: «أبوعبد الله الترمذى شيخ حدث بعد المائتين» (٧٤).

وأبو نعيم يقول عنه انه «كتب الحديث» (٧٥) فكلمة المحدث والحافظ من الكلمات التى دارت بين المحدثين لتدل على معان خاصة عندهم وما كانت تطلق إلا لتدل على من أطلقت عليه. وهى ألقاب علمية، لا يصل إليها إلا من تأهل لها.

وقد ذكر العلماء: أنه فى آمالى الحافظ ابن حجر: أنه قد أطلق المحدثون ألقاباً على العلماء بالحديث. منها: «الحافظ» وقد بين الحافظ المزى الحد الذى إذا انتهى اليه الرجل جاز أن يطلق عليه «الحافظ» فقال: «أقل ما يكون أن تكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجهم وأحوالهم وبلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب» (٧٦) ويطلق الحافظ أيضاً على من يعرف شيوخه وشيوخهم».

وقال أبو الفتح بن سيد الناس: «أما المحدث فى عصرنا فهو من اشتغل بالحديث رواية ودراية، وجمع رواته واطلع على كثير من الرواة والروايات فى عصره وتميز فى ذلك، حتى عرف فيه خطه، واشتهر ضبطه فان توسع فى ذلك حتى عرف شيوخه وشيوخ شيوخه، طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من كل طبقة أكثر مما يجهله. فهذا هو الحافظ» (٧٧).

---

(٧١) انظر تاج الدين السبكى «طبقات الشافعية الكبرى» جـ٢ ص٢٤٥.

(٧٢) راجع الشيخ إسماعيل البغدادى «هدية العارفين» جـ٢ ص١٥،١٦.

(٧٣) راجع الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ٢ ص٦٤٥.

(٧٤) الذهبى «ميزان الاعتدال» جـ٤ ص٥٤٤، مسألة رقم ١٠٣٥٦.

(٧٥) راجع ابن نعيم «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» جـ٥ ص٣٣٣.

(٧٦) انظر الحافظ بن كثير «الباعث الحثيث» تحقيق احمد محمد شاكر هامش ص١٣٠،١٣١ ط دار التراث، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩.

(٧٧) راجع الحافظ ابن كثير «الباعث الحثيث شرح اختصار علم الحديث» ص١٣١ وانظر =

وتاج الدين السبكي يذكر أن: «المحدث من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال، والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جلة مستكثرة من المتون» (٧٨)..

ومن أهل العلم طائفة طلبت الحديث وجعلت دأبها السماع على المشايخ، ومعرفة العالي من المسموع والنازل، وهؤلاء هم المحدثون على الحقيقة (٧٩).

وذهب السلف إلى عدم التفرقة بين المحدث والحافظ، وكانوا يطلقون كلاً من اللقبين على الآخر، وأما الخلف فذهبوا إلى التفريق بينها وجعلوا مرتبة الحافظ أعلى من مرتبة المحدث (٨٠). فالمحدث هو الذي يتحمل الحديث ويعتني به رواية ودراية، والحافظ هو من حفظ مائة ألف حديث متناً واسناداً ولو بطرق متعددة ووعى ما يحتاج إليه» (٨١).

وجملة ما يقال: «أن الحكيم الترمذي محدث وحافظ وممن كتب الحديث، ووعى المعاني، وما ترمي اليه الألفاظ، فكان رضي الله عنه تطبيقاً عملياً للسنة النبوية التي دعت إلى الالتزام بسلوك الرسول صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين». وبينا الحكيم يلزم نفسه بالمنهج الحق والسنة النبوية، يرى ما يطمئنه عن سلوكه الحق، وفهمه للمعاني التي جاءت وراء الكلمات يقول الحكيم: «فبينا أنا على هذه الحال، إذ رأيت فيما يرى النائم، كأني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد الجامع في كورتنا. فأدخل على أثره فألزم اقتفاء أثره. فما زال يمشي حتى دخل المقصورة، وأنا على أثره، ومن القرب منه، حتى كأن أكاد ألتزق بظهره، وأضع خطاي على ذلك الوضع الذي يخطو عليه حتى دخلت المقصورة. فرقي المنبر، فرقيت على أثره، كلما رقي درجة رقيت على أثره حتى إذا استوى على أعلاها درجة قعد عليها

= السيوطي «تدريب الراوي شرح تقريب النواوي» جـ١ ص٤٨ تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ط دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٥هـ.

(٧٨) انظر الدكتور بهاء الدين الشاهد «نظرات في علوم الحديث» ص٣٣ ط مطبعة السعادة وانظر كذلك هامش «الباعث الحثيث» ص١٣٢.

(٧٩) راجع المصدر السابق ص١٣٢.

(٨٠) انظر الدكتور بهاء الدين الشاهد «نظرات في علوم الحديث»، ص٣٤.

(٨١) راجع الشيخ محمد على احمدين «ضوء القمر على نخبة الفكر» ص١٦.

فقصدت عند الدرجة الثانية من مجلسه عند قدميه، ويميني إلى وجهه ووجهي إلى الأبواب التي تلي السوق، وشمالي إلى الناس. فانتهيت من منامي وأنا على تلك الحال» (٨٢).

(٨٢) انظر الحكيم الترمذي «بدوشأن أبي عبد الله» ص١٦ من كتاب «ختم الأولياء».



مواقف للحكيم الترمذى

إن الباحث فى مؤلفات الحكيم الترمذى، والمتأمل فيا كتبه من رسائل وردود، يلاحظ أن للحكيم مواقف علمية كثيرة مع أهل الحديث والقراء، والقصاص، والوعاظ، والزهاد، والصوفية، وأهل الرأى، وعلماء الكلام.. وليس من شأننا أن نعرض لهذه المواقف كلها فى هذه الرسالة فقد يخرج بنا ذلك عن الغرض المنشود، ولكن يكفى أن نشير إلى ما يحقق هدفاً أو يصحح فكرة — مثل الذى ذكرناه من قبل فى موقفه من الفقهاء، وموقفه من المتكلمين —.

وليس معنى هذه المواقف بين العلماء المسلمين أن هناك عداوة وخصومة: «فأصول الإسلام واحدة، وكل المسلمين يؤمنون بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وكلهم يعتقدون أن القرآن حق وأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حق، وأن عليهم إذا تنازعوا فى شىء أن يردوه إلى الله ورسوله، وقبلتهم واحدة، وصلواتهم واحدة، ولا خلاف بينهم فيا بنى عليه الإسلام من أسس» (١)..

ولقد أعجبتنى كلمة ذكرها فضيلة الشيخ المدنى جاءت فى مقدمة كتاب: «دعوة التقريب» منها: «أن عقول المسلمين امتلأت بالغذاء الفكرى حتى صاروا متخمين فهم بحاجة إلى أن يدوروا حول الهوامش والفروع والفروض، وأن يوسعوا ميادين الخلاف لاستنفاد الطاقة العقلية والتخفف من الزحام العلمى، الذى يصبحون ويمسون عليه، وقد كان هذا هو رياضة الأولين

(١) الاستاذ محمد على علوبة «المسلمون أمة واحدة» ص ١٧ من كتاب التقريب، ط المجلس.

ورفاهيتهم، يوم كان يخبون فى أودية العلم ويضعون ولا يهمهم أن يبطئوا أويسرعوا فى التحصيل والتعلم والبحث والاستقصاء» (٢).

ومن مواقف الحكيم الترمذى العلمية موقفه من الشيعة فى كثير من مسائل العلم: «وإذا عرفنا أن الترمذى كان يقيم فى ما وراء النهر متاخماً لخراسان، وغرسان وما جاورها كانت أميل إلى التشيع من مناطق أخرى، أدركنا الدوافع لهذه المناقشات والمواقف» من ناحية، وأدركنا قيمتها من ناحية أخرى خاصة وأن الزيدية استطاعوا أن يؤسسوا لهم دولة فى طبرستان استمرت نحو قرن من الزمان ابتداء من عام ٢٥٠هـ» (٣).

ولا شك أن عرض مواقف الحكيم الترمذى من الشيعة يصحح كثيراً من المفاهيم والأفكار التى قد يلقى بها أصحابها دون تثبت، لمجرد أن هناك التقاء فى كثير من الأفكار بين التشيع والتصوف.

ويبدو أن محقق كتاب «علم الأولياء» للحكيم الترمذى، قد أراد أن ينفى ما يمكن أن يقال أن الحكيم الترمذى يميل إلى الشيعة فذكر محقق الكتاب فى المقدمة: «ان الحكيم الترمذى» اتهم بأن بينه وبين الشيعة الامامية رابطة نسب، وصلة وثيقة نظراً لوجود بعض أوجه الشبه بين فكرة الامامة عند الشيعة والولاية عند الصوفية» (٤).

يقول الدكتور سامى نصر بعد أن ذكر ما سبق: ولقد كدنا أن نتهمه بذلك حين وجدناه يقول فى تفسير لا إله إلا الله: «ان البعض فسر هذا القول تفسيراً ظاهرياً وكتم الباطن وما فى حشوه» (٥) ونحن إذا أخذنا هذا القول على ظاهره لكان الترمذى مستخدماً منهج الشيعة الباطنية فى تفسير القرآن وهو منهج التأويل» (٦).

---

(٢) الشيخ محمد محمد المدنى، دعوة التقريب، ص٤ المقدمة.

(٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٥٦.

(٤) انظر الدكتور سامى نصر لطف مقدمة «علم الأولياء» للحكيم الترمذى ص٢٥.

(٥) الحكيم الترمذى، تفسير الترمذى لقول لا إله إلا الله، ص١٨١.

(٦) انظر الدكتور سامى «مقدمة علم الأولياء» ص٢٥.

ويضيف الدكتور سامى نصر قائلاً: ولكننا حين بحثنا عن جوهر هذا القول وحقيقته وجدناه يرى أن لكل قول من أقوال القرآن حقيقة ظاهرة وحقيقة باطنة أعمق وأدق، وهو ما نسميه بتفسير القرآن بحسب روح النص ومعناه وليس فقط ظاهره ومبناه» (٧).

أما الشيعة الباطنية فيزعمون أن علم الباطن جاءهم عن طريق الميراث، حيث ورثه النبى صلى الله عليه وسلم علياً بن أبى طالب وورثه على أهل العلم الباطن الذين سموا أنفسهم بالورثة، وينكشف الباطن عندهم لهؤلاء الورثة الذين اختصهم بهذا الفضل، وكشف لهم عن أسرار القرآن (٨).

وقد وضع الحكيم رسالة بعنوان: «الرد على الرافضة» (٩) ناقش فيها فكرة الخلافة، والأحقية بالحكم فى نظر الإسلام، وتناول فى رسالته رأى الشيعة الرافضة «وهم الذين رفضوا أحقية أبى بكر وعمر فى الخلافة قبل على، ويرون أن الأحقية لعلى من أول الأمر. وبعد أن يعرض وجهة نظرهم يرد عليها ويفندها، ويذهب كما يذهب أهل السنة جميعاً أن الذى سار عليه الأمر بعد الرسول هو الوضع الطبيعى الذى كان يجب أن يكون، ورأى الحكيم أن أفضل الصحابة بعد الرسول أبوبكر فعمر فعثمان فعلى فبقية العشرة المبشرين بالجنة» (١٠).

والناظر فى مؤلفات الحكيم الكثيرة يجد أنه ناقش كثيراً من دعاوى الشيعة، وأنه ليكفينا عرض واحد منها، نتبين منه علاقة الحكيم بالشيعة وموقفه من أهلها، ومن المقولات الخاصة بالشيعة والتى تتشابه فيها مع بعض مقولات الترمذى فكرة العصمة التى يستندون فى اثباتها إلى الأدلة النقلية (١١).

فهم يعتقدون بأن الأمامة نصاً ووصاية لا تخرج عن على وأولاده، وان

(٧) المصدر السابق ص ٢٥.

(٨) الدكتور أبو العلا عفيفى «التصوف الثورة الروحية فى الإسلام» ص ١١٥.

(٩) رسالة الرد على الرافضة «رسالة غير كاملة وموجودة ضمن مجموعة ولى الدين رقم ٧٧٠ بتركيا».

(١٠) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى ودراسة لاثاره» ص ٩٥.

(١١) الدكتور سامى «مقدمة علم الأولياء» ص ٢٦.

خرجت فبظلم ويجمعون القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر[١٢].

وأهم حجج الشيعة النقلية فى اثبات عصمة أهل البيت وتعيين الأئمة منهم يأخذونها من قوله تعالى: «**انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**»[١٣] فيرون أن أهل البيت المذكورين فى الآية هم على وفاطمة والحسن والحسين، رضى الله عنهم.. وأن هذه الآية دليل على عصمتهم، من حيث أن ارادة الله اذهاب الرجس عنهم لا يمكن أن تتخلف[١٤].

ومن قوله تعالى: «**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**»[١٥].

لأن الله لا يأمر على سبيل الجزم والقطع بطاعة من ليس معصوماً عن الخطأ، وإلا اجتمع الأمر والنهى فى الفعل الواحد، لأن الخطأ ــ هو هنا مأمور به، منهى عنه ويرون أن أولى الأمر المذكورين فى الآية الكريمة هم الأئمة المعصومون من أهل البيت[١٦].

وفى الرد على ذلك يقول الحكيم الترمذى:

وفى قوله تعالى: «**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**»[١٧]. فذريتهم منهم، فهم صفوة وليسوا بأهل عصمة، إنما العصمة للنبيين عليهم السلام والمحنة لمن دونهم وإنما يمتحن من كانت الأمور

---

(١٢) الشهرستانى «الفصل فى الملل والنحل» جـ١ ص١٩٥ ط دار المعرفة بيروت.

(١٣) سورة الأحزاب الآية رقم: ٣٣.

(١٤) محمد تقى الحكيم «الأصول العامة للفقه المقارن» جـ١ ص١٤٩ نقلاً عن كتاب الحكيم الترمذى ونظرية الولاية جـ١ ص١٥٦.

(١٥) سورة النساء الآية: ٥٩.

(١٦) الأستاذ محمد تقى الحكيم «الأصول العامة للفقه المقارن» جـ١ ص١٩٤٩، ١٥٩.

(١٧) سورة الأحزاب الآية رقم: ٣٣.

محجوبة عنه، فأما من صارت الأمور له معاينة ومشاهدة فقد ارتفع عن المحنة» [18].

وفي قوله تعالى: «**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**» [19]. يقول الحكيم إنما يلي الأمر منا من فهم عن الله تعالى، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ما يهم الحاجة اليه من العلم في أمر شريعته» [20]. ويؤكد الحكيم صحة رأيه هذا بما يرويه عن جابر وابن عباس وعدة من أصحاب رسول الله في تفسير هذه الآية الكريمة، قال: «هم العلماء والفقهاء» [21].

وفي نوادر الأصول: في الأصل الثاني والعشرين والمائتين. والذي جاء تحت عنوان: «في أن النجوم أمان لأهل السماء، والعلماء الصديقون أهل بيت النبوة أمان للأمة».

يذكر الحكيم الترمذي مناقشة حية تعود بكلمة «الأهل» و«البيت» إلى أصل المادة اللغوية ليستخلص من ذلك المعنى الذي يريده، من حيث الوفاء بالمقصود.

فيقول: «فأهل بيته من خلفه من بعده على منهاجه وهم الصديقون، لأن البيت من تبوئه الذكر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ليبوىء لذكره في الأرض، فبدأ بمكة فطرد، ونفي الذكر، ثم جعل الله تعالى مهاجراً ومستقراً فمن هاجروا إليه ولزموه فصاروا أهل الذكر، وإنما يكون من أهل التبوئة من بوء لذكره على طريقه صافياً غير مغشوش، صادراً من ايمان غير مغشوش، ولا سقيم. وسقمه أن تمازجه شهوة النفس حتى تميل به عن الله تعالى، وتنقله عن أمره، وتلهيه عن ذكره» [22].

وفي كتاب «ختم الأولياء» يقول الحكيم: «ولست أعنى آل بيته في

---

(18) الحكيم الترمذي «نوادر الأصول» ص٦٩.
(19) سورة النساء الآية رقم: ٥٩.
(20) الحكيم الترمذي «نوادر الأصول» ص٦٩.
(21) الحكيم الترمذي «الرد على الرافضة» ص٨٣ مخطوط ولي الدين.
(22) الحكيم الترمذي «نوادر الأصول» ص٢٦٣، ٢٦٤.

النسب وإنما هم أهل بيت الذكر، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لاقامة ذكر الله، وليبوأ له مستقراً، وهو الذكر الخالص الصافى، فكل من أوى إلى ذلك المثوى لهم آله»(٢٣).. والحكيم الترمذى لم يترك هذه المناقشة دون أن يعطيها ماتستحق من الأدلة والحجج ليتبين وجه الصواب، لذا نراه يقول: «وتأولوا قوله تعالى: «**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**» إنما هم على وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم، وهى لهم خاصة»(٢٤) وبعد أن يعرض تأويل الشيعة فى هذه الآية الكريمة يقول: «وكيف يجوز هذا ومبتدأ هذا الخطاب قوله عز وجل: «**يأيها النبى قل لأزواجك**» إلى قوله: «**أجراً عظيماً**» ثم قال: «**يانساء النبى**» إلى قوله: «**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**». ثم قال: «**واذكرن مايتلى فى بيوتكن**» وهذا كلام منسوق بعضه على أثر بعض، فكيف صارت هذه المخاطبات كلها لنساء النبى عليه السلام قبلاً وبعداً، وينصرف ما فى الوسط إلى غيرهن، وهو على نسق ونظام واحد لأنه قال: «**ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**» ثم قال على أثره: «**فى بيوتكن**» فكيف صار الكاف الثانى خطاباً للنساء، والأول لعلى وفاطمة رضى الله عنها، وأين ذكرهما فى هذه الآيات»(٢٥).

ويبدو أن عميد كلية الفقه بالنجف الأشرف أدرك ما أشار اليه الحكيم الترمذى من القول: بوحدة السياق، وأن الكلام منسوق بعضه على بعض. فلم يرض هذا القول لاحتمال التعدد فى الكلام، وإذا وجد احتمال لم يبق مجال للتمسك بوحدة السياق مجال. وذلك أن تذكير الضمير فى آية التطهير، وتأنيث بقية الضمائر فى الآيات السابقة عليها واللاحقة لها يؤدى إلى احتمال التعدد، فى حين أن وحدة السياق واللاحقة لها يؤدى إلى احتمال التعدد، فى حين أن وحدة السياق تقتضى اتحاداً فى نوع الضمائر فتكون، إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس أهل البيت(٢٦).

(٢٣) الحكيم الترمذى «ختم الأولياء» ص٣٤٥، ٣٤٦.
(٢٤) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص٢٦٥.
(٢٥) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص٢٦٥، ٢٦٦.
(٢٦) انظر محمد تقى الحكيم «الأصول العامة للفقه المقارن» جـ١ ص١٥٨.

ولم تكن مثل هذه الاعتراضات لتفوت حكيماً مثل الحكيم الترمذى لذا نراه يورد الاعتراض ثم يجيب عنه فيقول: «فإن قال ان كان الخطاب لنسائه فكيف قال: «ليذهب عنكم، ولم يقل: «عنكن»، قلنا: إنما ذكره لأنه ينصرف إلى الأهل، والأهل مذكر، فسماهن باسم التذكير وان كن إناثاً (٢٧).

واننا نكتفى بهذه المناقشة التى ناقش فيها الحكيم الترمذى دعاوى الشيعة ونستنتج من كل هذا أن الحكيم الترمذى ليس واحداً من الشيعة كما توهم أو يتوهم البعض استناداً إلى بعض أوجه الشبه.

وما كان لنا أن نهتم بموضوع الظاهر والباطن ـ فيما نحن بصدده ـ من البحث والدراسة لولا:

- أن هناك من يكتفون بظاهر العلم والعمل على الجوارح، دون أن يتغلغلوا إلى الباطن، حيث بواعث الأعمال، وخطرات القلوب.
- وأن اخوان الصفا والباطنية جعلوا التفسير الباطن هو وحده المراد (٢٨).
- وأن الحكيم الترمذى أقام تفاوت القلوب على حسب تفاوت العبادات فيها وله اشارات تعبر عما يقع للقلوب من تجليات ومشاهدات، وتلويحات، وتلميحات، يفيض فيها الله على قلوب صفوته وأحبابه من أسرار كلامه.
- وان الحكيم الترمذى تحدث فى مؤلفاته عن صفة علم الباطن وكيفيته (٢٩).

ويبين فى تفسير لا إله إلا الله: أن ترجمة «لا إله إلا الله» ليس على ما ذهب اليه العامة، ولا على ما فسره المفسرون، ولا على ما ترجمه المترجمون،

---

(٢٧) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص ٢٦٦.

(٢٨) انظر: الدكتور أحمد محمود صبحى «التصوف ايجابياته وسلبياته» ص ٣٤٩ عالم الفكر م ف الكويت.

(٢٩) الحكيم الترمذى «كتاب معرفة الأسرار» ص ٨٢ فصل ١٢ وص ٨٤ فصل ٢٧.

وقد غلطوا فى ترجمته وتفسيره، وقصدوا غير سبيله، وشرحوا الظاهر وكتموا الباطن ومافى حشوه» (٣٠).

لهذا وغيره جاء الاهتمام بالظاهر والباطن، وبيان العلاقة بين الشريعة والحقيقة، لتتضح الأمور، وترتاح النفوس، وتطمئن القلوب.

وظهر الشىء ظهوراً أصله أن يحصل الشىء على ظهر الأرض فلا يخفى.. وبطن: إذا حصل فى بطنان الأرض فيخفى، ثم صار مستعملاً فى كل باد بارز للبصر والبصيرة. وقوله تعالى: «**لا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون**» (٣١) أى يعلمون الأمور الدنيوية دون الأخروية، والعلم الظاهر والباطن، يشار بهما إلى المعارف الجلية والمعارف الخفية (٣٢).

ومن منا ينكر أن فى الإنسان باطناً هو القلب، وظاهراً هو الحواس؟..

ومن يستطيع أن يكذب أن الإنسان يحوى سراً وعلناً، وخفاء وجهراً؟ ولا مراد فى أن كل فرد له بالنسبة للآخرين ظاهر يرونه، وباطن يبعد عنهم... وللنفس صوتها الخفى، وصوتها المسموع، ولها دوافعها النفسية الداخلية وأفعالها الخلقية الخارجية، والعالم قسمان: عالم الغيب أو الملكوت. وعالم الملك أو الشهادة والعلل والأسرار والنواميس خبيئة وراء الظواهر تحتاج إلى من ينقب عنها» (٣٣).. ولا يخفى على الباحثين أن الإسلام دين يقوم على استحياء الضمير واستفتاء القلب.. «فالإسلام يعتد أكبر اعتداد بالنية التى صدرت عنها الأفعال، ويلح على الأخلاص المصاحب لاقامة الشعائر، ويرى أن فعل الإنسان إذا ساورته شبهة باعث من بواعث العجب أو الانانية أو الرياء، تجرد

---

(٣٠) الحكيم الترمذى، تفسير الترمذى لقول لا إله إلا الله، ص١٨١، ملحق بكتاب علم الأولياء.

(٣١) سورة الروم الآية رقم: ٧.

(٣٢) الفيروز ابادى، بصائر ذوى التميز فى لطائف الكتاب العزيز جـ٣ ص٥٥٠.

(٣٣) الدكتور الشاذلى، مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة ص٤٤٨، دكتوراه ١٣٩٨ هـ.

عن الحقيقة والقيمة وأصبح مظهراً وزيفاً. قال تعالى: «**ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**» (٣٤) والنبى عليه الصلاة والسلام دائم التذكير والتنبيه إلى ان القيمة العليا إنما تكون للعنصر الجوانى فى الأفعال، وهو العنصر المتمثل فى الإيمان والصدق والاخلاص، وهو يعبر عنه بالقاء السمع وحضور القلب وشهود الروح» (٣٥).

وآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية تفيض بالأعمال المنوطة بالقلب من رضا وصبر وخوف ورجاء وشكر وبالأعمال المتعلقة بالظاهر من عبادات وجهاد.

وأركان العبادات فى الإسلام كلها ضرورية ومفروضة على كل مؤمن ولكن هذه الأشياء ليست إلا الأشكال الخارجية لعالم داخلى فهى تعابير فقط: «أو الشىء القاطع فى دلالته فهو النزع الداخلى والايمان بالحقيقة فأى فائدة فى تلك الشعائر الشكلية العديدة من غير التجربة الداخلية العظيمة؟ وهى الروحية (٣٦).

وقد تحدث القرآن عن السر بمعنى ما استكن فى القلب، وعن العلن بمعنى ما بدا على الجوارح، فقال تعالى: «**والله يعلم ما تسرون وما تعلنون**» (٣٧) وقال تعالى: «**ويعلم ما تسرون وما تعلنون**» (٣٨).. وأحياناً يستخدم السر بمعنى الاخفاء عن الأعين، والمعلن بمعنى الظهور أمام رؤية الناس، قال تعالى: «**الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم**» (٣٩).

ولا يخفى أن الاسرار وما فى معناه هو عمل نفسى ونشاط داخلى.. وليس

---

(٣٤) سورة الرعد الآية رقم: ١١.
(٣٥) الدكتور عثمان أمين، الجوانية، ص١٩٨، ط دار القلم نيروت.
(٣٦) الدكتور س. ر. شفيق، الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص٣٦٨ ط مؤسسة فرانكلين.
(٣٧) سورة النحل الآية رقم: ١٩.
(٣٨) سورة التغابن الآية رقم: ٤.
(٣٩) سورة البقرة الآية رقم: ٢٧٤.

المراد به صمت النفس صمتاً لاعقد فيه، أو صمتاً يرادف الخلو، وإلا ما تعلق به العلم بالانابة والعقاب» (٤٠).

وتبعاً لهذا فان المفسرين يرون في تفسير مثل هذه الآيات: أن للإنسان أعمالاً مستكنة في الصدور كالنيات والسرائر يعلمها الحق بكلياتها وجزئياتها، ولا يخفى عليه منها شيء، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الأعمال والطاعات والأخلاق (٤١).

وقد بحث الصوفية في كنوز العبادات فقدموا معان باطنة للشعائر من طهارة وصلاة وصوم وزكاة وحج.. فليست الطهارة مجرد غسل للبدن أو الأعضاء بالماء دون تطهير الباطن من الرذائل. ظاهر الطهارة تطهير الجوارح من الأحداث والأخباث وباطنها تطهيرها من المعاصي والآثام.

وقد دل القرآن على أن الوضوء يكفر الذنوب، وذلك في قوله تعالى: **«يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين»** إلى قوله تعالى: **«ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم»** (٤٢).

فقوله تعالى: «**ليطهركم**» يشمل طهارة ظاهر البدن بالماء وطهارة الباطن من الذنوب والخطايا، وأتمام النعمة إنما يحصل بمغفرة الذنوب وتكفيرها» (٤٣).

فأول درجة مطلوبة من الطهارة: تطهير الباطن من المعاصي والآثام، تليها درجة أخرى هي تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة، تليها درجة ثالثة لخواص الخواص، وهي تطهير السر عن كل شيء سوى الله (٤٤).

(٤٠) الدكتور الشاذلي «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة» ص٤٤٨.

(٤١) انظر الفخر الرازي في «التفسير الكبير جـ٨ ص١٦٠ ط أولى، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم» جـ٤ ص٢٣٨ وأبوالسعود على هامش التفسير الكبير جـ٨ ص٣٨٣.

(٤٢) سورة المائدة الآية رقم: ٦.

(٤٣) الحافظ ابن رجب «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» ص١٠ ط المنيرية.

(٤٤) الدكتور صبحي «التصوف ايجابياته وسلبياته» ص٣٤٧.

ويبدو أنه لهذه الأمور أعتبر الصوفية : « أن الفقهاء قد ضيقوا الدين وجعلوه مجرد رسوم وأشكال ، وعكفوا على بيان الحلال والحرام وعلى شروط العبادات ، وأصول المعاملات ، مكتفين بظاهر العلم ، فقصروا عن فهم الدين إذ أغفلوا جانب الروح وسريرة النفس » (٤٥) .

كتب ابن منبه إلى ابن مكحول « المتوفى عام ١١٣ هـ » : « انك امرؤ قد أصبت فيما ظهر من علم الإسلام شرعاً فاطلب بما بطن من علم الإسلام عند الله محبة وزلفى » (٤٦) .

ويذكر بعض الباحثين فى التصوف أن ما جاء فيما كتبه ابن منبه إلى ابن مكحول يعدأول اشارة إلى التفرقة بين الظاهر والباطن ، وفى الأولى اشارة إلى الفقه بينما الثانية تشير إلى التصوف . هذه التفرقة التى عرفت فى التصوف باسم : الشريعة والحقيقة . وأن الحقيقة هى المعنى الباطن ، والمغزى الحقيقى لأوامر الشريعة » (٤٧) .

والحكيم الترمذى يضع الأمور فى مواضعها فيقول : « والمعانى على ضربين : ظاهر وباطن ، فالناس فى هذا العلم فى كل لغة على ضربين فنهم من علم الكلمة الدالة على معناها الظاهر، وخفى عليه معناها الباطن (٤٨) .

لقد غاص الصوفية فى باطن الشعائر وفروض العبادات ، فاستنبطوا أدق المعانى وقدموا مفهوماً خصباً للعبادات. ولا بأس أن نستمع إلى المستشرق نيكلسون وهو يعلق على دقة الصوفية فى الإسلام . فهم بنبذهم قشور الدين واصرارهم على تحصيل لبابه ، بتنمية المشاعر الروحية وتطهير البواطن ، لا بالعمل الظاهرى فحسب . قد مكنوا لملايين الناس حياة غنية عميقة » (٤٩) .

---

(٤٥) المصدر السابق ص٣٤٦ .
(٤٦) نقلاً من المصدر السابق ص٣٤٦ .
(٤٧) المصدر السابق ص٣٤٦ .
(٤٨) الحكيم الترمذى « المسائل المكنونة » ص١٢٤ .
(٤٩) المستشرق نيكلسون « الصوفية فى الإسلام » ص٩٠ ط مكتبة الخانجى ١٣٧١ هـ .

على أنه مما يجب أن يلاحظ انه: «لا يقف مدلول الحقيقة فى مقابل الشريعة أو الباطن فى مقابل الظاهر عند العبادات فقط. بل انه شمل آيات القرآن بما تنطوى عليه من تشريعات وقصص أنبياء، ووعد ووعيد.. ومن ثم فانه يمكن اعتبار جانب الرمز أو الاشارات من أهم خصائص التصوف. ذلك أن التنزيل الآلهى لا يقف عند المعنى الظاهر من لفظه والوقوف بالتفسير عندما يقتضيه العقل المحدود عقال عن الانطلاق إلى ما وراء القيود» (٥٠).

والباحث يرى أن الصوفية فى تفسيراتهم يؤكدون على جانبين:

الجانب الأول: أنهم ليسوا مبتدعين فيما جاءوا به..

والجانب الثانى: أن الصوفية يختلفون عن اخوان الصفا وفرقة الباطنية ممن جعلوا التفسير الباطن هو وحده المراد من الآيات (٥١).. وذلك لأن خط الصوفية من البداية هو الخط الذى يبدأ من الشرع ويتجه إلى وجهتين وجهة داخلية تعمد إلى اصلاح القلب. وطرف خارجى يبدأ من تربية الجوارح واعدادها عن طريق العبادات والمعاملات والأخلاق الإسلامية. ومهمة الصوفى هى أن يجمع الطرفين معاً فى اتجاه صادق مخلص نحو الله وفى تجرد كامل عما سواه، حال كونه صاعداً من داخله وخارجه إلى ما فوقه مستعطفاً مستجدياً اشراقات ربه، والهاماته وعطاياه. وهو خط تمتزج فيه الأوامر الشرعية المتعلقة بالظاهر والباطن معاً مع عواطف الإنسان ومشاعره.

وهاتان السمتان تلازمان الصوفى عندما يعرض لكل جانب من جوانب أى مشكلة سواء منها ما يتصل بالمعنى أو بالربط بين الشريعة والحقيقة أو الفهوم الخاصة بالعبادات أو التأويل للنصوص» (٥٢).

فالصوفية يقيمون اشاراتهم على قاعدتين:

القاعدة الأولى: أن وراء الألفاظ الظاهرة يحتجب المعنى الباطنى وتستكن

---

(٥٠) الدكتور صبحى «التصوف ايجابياته وسلبياته» ص٣٤٩.

(٥١) راجع المصدر السابق ص٣٤٩.

(٥٢) الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة ص٤٤٩.

أســرار القـرآن الـتـى يـعـرف الله بمكـنـوناتها القدسية أولياءه على قدر منازلهم ومقاماتهم، وأنه لا ينبغى أن يكون المعنى الظاهر غاية مراد الله من كلامه.

القاعدة الثانية: ان اشارات الصوفية لا تحل محل التفسير المأثور ولا تتعارض معه، فهى ليست احالة للظاهر عن ظاهره [٥٣].

وقد وضح الطوسى الفرق بين علم الباطن وعلم الظاهر أو علم الدراية وعلم الرواية فقال: «ان علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجمع معنيين: الرواية والدراية، فإذا جمعتها فهو على الشريعة الداعية إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة، وهى العبادات والأحكام، مثل الطهارة والصلاة والزكاة، والصوم والحج والجهاد وغير ذلك فهذه العبادات.

وأما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها. فهذا كله على الجوارح الظاهرة.

وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب، وهى المقامات والأحوال مثل التصديق والايمان واليقين والصدق والأخلاص والمعرفة والمحبة والرضا والذكر والشكر... الخ.

فإذا قلنا: علم الباطن [٥٤] أردنا بذلك علم أعمال الباطن التى هى على الجارحة الباطنة وهى القلب. كما أننا إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التى هى على الجوارح الظاهرة [٥٥].

فالصوفية حين يسمون علمهم بعلم الدراية أو الباطن أو ما شابه ذلك من تسميات، فانهم يميزون بين علمين: علم نظرى بالأحكام، وعلم بكيفية التحقق بها ذوقاً وسلوكاً، فالأول هو الفقه أو الظاهر والثانى هو التصوف أو الباطن،

---

(٥٣) راجع الدكتور صبحى «التصوف ايجابياته وسلبياته» ص٣٥٧.

(٥٤) علم الباطن عند الصوفية يختلف عن مذاهب الباطنية عند الشيعة وهى مذاهب تعتمد على تأويل النصوص الدينية تأويلات فلسفية.

(٥٥) الطوسى «كتاب اللمع» ص٤٣ — ٤٤.

هذا فضلاً عن أن العلم الأول تجرى أحكامه على جوارح الإنسان الظاهرة. على حين أن العلم الثانى تجرى أحكامه على الجارحة الباطنة فى الإنسان وهى القلب (٥٦).

ويذكر الدكتور التفتازانى: أن هذا التميز اعتبارى، ولا خلاف بين العلمين فى الحقيقة فأحدهما، وهو علم الباطن ثمرة للآخر وهو الظاهر.. ومتى تحقق العبد بالعمل بأحكام الشريعة، واتجه بقلبه نحو الله، وسلك طريق الذوق فى التجربة الدينية فقد حصل على ذلك العلم الباطن (٥٧).

يقول الشعرانى: هو ـ أى علم الباطن ـ علم القدح فى قلوب الأولياء، حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، والتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة (٥٨).

ولقد صور القشيرى العلاقة بين الشريعة والحقيقة تصويراً حياً، فقال: الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية. فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة، فغير مقبول وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده.. والشريعة قيام بما أمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر، وأخفى وأظهر وقوله: «**اياك نعبد**» حفظ للشريعة «**وإياك نستعين**» اقرار بالحقيقة» (٥٩).

واعتبر الصوفية أن علمهم فى يقينه أسمى من سائر العلوم التى تعتمد على العقل وبراهينه ولذلك يعرف عندهم: «بحق اليقين» وهذا اليقين الذى تتميز به علوم الصوفية عيانى أو كشف ذوقى، يتحقق به العبد متى سلك الطريق (٦٠).

---

(٥٦) التفتازانى «مدخل إلى التصوف الإسلامى» ص١٨.
(٥٧) المصدر السابق ص٩٨.
(٥٨) الشعرانى «الطبقات الكبرى» ص٤.
(٥٩) القشيرى «الرسالة القشيرية» جـ١ ص٢٦١ تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف.
(٦٠) التفتازانى «مدخل إلى التصوف الإسلامى» ص٩٨.

ولما كانت علوم الصوفية يقينية ناتجة عن العيان، والكشف أو الذوق كانت لا حد لها على حين أن علوم الفقهاء محدودة لأنها علوم ورسوم وفى ذلك يقول الطوسى: «واعلم أن مستنبطات الصوفية فى معانى هذه العلوم — علوم الشرع — ومعرفة دقائقها وحقائقها ينبغى أن تكون أكثر من مستنبطات الفقهاء فى معانى أحكام الظاهر، لأن هذا العلم ليس له نهاية، لأنه اشارات وخواطر وعطايا وهبات يغرفها أهلها من بحر العطاء. وسائر العلوم لها حد محدود وجميع العلوم تؤدى إلى علم التصوف، وعلم التصوف لا يؤدى إلا إلى نوع من علم التصوف وليس له نهاية، لأن المقصود ليس له غاية، وهو علم الفتوح، يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه فى فهم كلامه ومستنبطات خطابه ما شاء كيف شاء (٦١).

يقول الحكيم الصوفى عبد الواحد يحى: وربما كانت العقيدة الإسلامية من بين العقائد.. هى العقيدة التى يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزءاين متكاملين: هما «الظاهر والباطن» أعنى الشريعة، وهى الباب الذى يدخل منه الجميع، والحقيقة، ولا يصل اليها إلا المصطفون الأخيار وهذه التفرقة ليست تحكمية، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء، ذلك أن استعداد الناس متفاوت وبعضهم معد لمعرفة الحقيقة.

وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة، بالقشر واللب، أو بالدائرة ومركزها. والشريعة تتضمن — فضلاً عن الناحية الاعتقادية — الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية. وهما جزءان لا يتجزءان عن الدين الإسلامى انها أولاً وقبل كل شىء قاعدة للسلوك. أما الحقيقة: فانها معرفة محضة ولكن يجب أن نعلم أن هذه المعرفة التى تعطى للشريعة معناها السامى العميق — بل هى التى تبرز وجود الشريعة — انها فى الحقيقة — وان لم يشعر بذلك المؤمنون — المركز الرئيسى، مثلها فى ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها. بيد أن الباطن

(٦١) الطوسى «اللمع» ص٣٧ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، طه عبد الباقى سرور ط دار الكتب الحديثة.

لا يعنى فقط الحقيقة . وإنما يعنى كذلك السبيل الموصلة إليها. أعنى الطرق التى تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة (٦٢) .

ولعل مايسترعى الانتباه، ويستحسن أن يدرك: أن العلاقة بين الظاهر والباطن «أو بين» الشريعة والحقيقة «علاقة تقوم على التلازم الضرورى» حيث نبه الصوفية إلى وجوب إصلاح الظاهر بالعلم مع اصلاح الباطن بالورع، وأعربوا عن أن سياحة الأول بالعلم والشرع والخلق. والثانى بالحال والوجد والكشف مع التلازم بين الجانبين على وجه الدوام، وبما أنهما لا ينفكان فهما كالإسلام والإيمان، أو كالجسد والقلب، لا حياة للمتدين ولا للإنسان إلا بهما. وأدنى مخالفة بينهما تؤدى إلى أعمق المخاطر» (٦٣) .

يقول الشيخ أبو طالب المكى: «ولعمرى ان الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان، مرتبط كل واحد بالآخر، كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه» (٦٤) .

وعماد الدين الأموى يذكر: أن بين «الظاهر والباطن» من الارتباط والاتصال مايقتضى سريان حكم كل منهما إلى الآخر(٦٥) .

وجاء فى الفتوحات الالهية :

وللطريق ظاهر وباطن   تعرف منه صحة البواطن

والمراد بالطريق هو طريق السلوك إلى ملك الملوك، وهى طريق الصوفية، ولها ظاهر وباطن، فظاهرها مايتعلق باصلاح الجوارح الظاهرة وباطنها مايتعلق باصلاح العوالم الباطنية.

واستقامة الظواهر دليل تعرف منه استقامة البواطن وعبر عن الاستقامة

---

(٦٢) الدكتور عبد الحليم محمود «المنقذ من الضلال» ص٢٢٣ ــ ٢٢٧، ط دار الكتاب اللبنانى.

(٦٣) راجع الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة ص٤٥٦.

(٦٤) الشيخ أبو طالب المكى «قوت القلوب» جـ١ ص ١٣٠ ط دار صادر بيروت.

(٦٥) عماد الدين الأموى «قوت القلوب» الهامش جـ٢ ص٢٨٣.

بالصحة فصحة الظاهر عنوان صحة الباطن. قال ابن عطاء الله فى الحكم: حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال من التحقق بمقامات الانزال.

وقال أيضاً: ما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر إلا أن ما تعلق باصلاح الظواهر يسمى «شريعة» وما تعلق باصلاح البواطن يسمى «طريقة» ثم حقيقة، ثم بين ما يختص بالمظاهر، وما يختص بالباطن فقال:

ظاهره الآداب والاخلاق مع كل خلق ما له خلاق
باطنه منازل الأحوال مع المقامات لذى الجلال

فلما أخبر أن الطريق لها «ظاهر» وهو ما يظهر على الجوارح من الآداب المرضية والأخلاق السنية، والأعمال الزكية.. ولها «باطن» وهو ما يكمن فى القلوب من الواردات الالهية، والأحوال الربانية، والمقامات اليقينية، والعلوم اللدنية، والأسرار القدسية، عين هنا ما يختص به الظاهر، وما يختص به الباطن، فأخبر أن ظاهر الطريق الآداب وحقيقته عند الصوفية: حفظ الحواس وضبط الأنفاس أى الأوقات، والحق أنه تهذيب الجوارح، وتصريفها فى أنواع المصالح (٦٦).

ويؤكد العلماء: أن صحة الظواهر تدل على صحة البواطن فما استودع فى غيب السرار ظهر فى شهادة الظواهر.

والأدب الظاهر للعيان دلالة الباطن فى الانسان

فأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن، فالأسرة تدل على السريرة، وما فيك ظهر على فيك، وكل اناء بالذى فيه يرشح، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره يلوح، فتهذيب الجوارح يدل على تهذيب القلوب، وأداب الظاهر يدل على أداب الباطن (٦٧).

ويذكر الحكيم الترمذى: «أن صلاح ظاهر الدين وقوامه بعلم الشريعة وصلاح باطنه وقوامه بالعلم الآخر، وهو علم الحقيقة، والدليل على ذلك: أن

---

(٦٦) ابن عجيبة «الفتوحات الآلهية فى شرح المباحث الأصلية» ص١٦١ ط عالم الفكر.
(٦٧) ابن عجيبة «الفتوحات الآلهية فى شرح المباحث الأصلية» ص١٦١ ط عالم الفكر.

صلاح الدين بصحة التقوى، فمن اتقى بالعلم الظاهر وأنكر العلم الباطن فهو منافق ومن اتقى بالعلم الباطن، ولم يتعلم العلم الظاهر، ليقيم به الشريعة وأنكرها فهو زنديق، وليس علمه فى الباطن علماً فى الحقيقة» (٦٨).

وقد وصل الباحثون إلى نتيجة تتضمن أن: «الشريعة مؤيدة بالحقيقة، والحقيقة مقيدة بالشريعة (٦٩)، والشريعة جامعة لكل علم مشروع والحقيقة جامعة لكل علم خفى، وجميع المقامات مندرجة فيها» (٧٠) وما سميت الحقيقة حقيقة إلا لكونها تحقق الأمور بالأعمال، وتنتج الحقائق من بحر الشريعة (٧١). والشريعة هى القاعدة، وهى الشجرة، وهى التقية المنقاة، الخالصة المخلصة والحقيقة ثمرة، والثمرة لا تولد ولا تنضج إلا من الشجرة وعلى أغصانها وهذا تنبيه قوى على التلازم بينهما فى المراحل العليا، أوفى مراحل السلوك بعد التلازم فى بدايات السلوك (٧٢).

يقول الهجويرى: فاقامة الشريعة بدون وجود الحقيقة محال وإقامة الحقيقة بدون حفظ الشريعة محال، ومثلهما كمثل شخص حى بالروح فعندما تنفصل عنه الروح يصير جيفة، وتصير الروح ريحاً، فقيمتها فى اقترانها ببعضهما البعض، وكذلك الشريعة تكون بدون الحقيقة رياء وتكون الحقيقة بدون الشريعة نفاقا، قوله تعالى: **«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا»** (٧٣) فالمجاهدة شريعة، والهداية حقيقة، والأولى هى حفظ العبد لأحكام الظاهر على نفسه. والثانية هى حفظ الحق لأحوال الباطن عن العبد، والشريعة من المكاسب، والحقيقة من المواهب (٧٤).

---

(٦٨) الحكيم الترمذى «الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص٥٢، ٥٣.
(٦٩) الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة» ص٤٥٦.
(٧٠) الإمام الشعرانى «الطبقات الكبرى» جـ١ ص١٤٦.
(٧١) الإمام الشعرانى «الطبقات الكبرى» جـ٩ ص١٤٦.
(٧٢) الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة» ص٤٥٦.
(٧٣) سورة العنكبوت الآية رقم: ٦٩.
(٧٤) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ٢ ص٦٢٧ تحقيق الدكتورة اسعاد عبدالهادى ط المجلس.

والشريعة من الشرع، وهو نهج الطريق الواضح، وهو فى الأصل مصدر، ثم جعل اسما للمنهج، فاستعير ذلك للطريقة الالهية من الدين (٧٥).

وقال بعضهم: سميت الشريعة تشبها بشريعة الماء من حيث أن من شرع فيها على الحقيقة والمصدوقة روى وتطهر(٧٦).

وأصل الحق المطابقة والموافقة، ويقال للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفى الوقت الذي يجب (٧٧).

ومن الواضح أن ابن عربى يرجع بالقضية إلى أعماقها الأولى حين يتحدث عن عالم الغيب والشهادة، والخلق والأمر، وفى ظل مذهبه يرجع الكل إلى إنعكاس الاسمين الالهيين: «الظاهر والباطن».

وفى المجال الدينى تعتبر فكرة الشريعة والحقيقة إنعكاسا لهذه الفكرة.. أما الشريعة عنده فهى: السنة الظاهرة التى جاءت بها الرسل عن أمر الله، وحين تنعكس فى حياة الصوفى كشريعة بمعنى طريقة وبمعنى المجابهة أخذاً من شرعت الرمح.، تصبح: عبارة عن الحكم فى المشروع له، والتحكم فيه بها (٧٨)، ويقول: «فلذلك جعلت الطائفة الشريعة: التزام العبودية فإن العبد محكوم عليه أبدا» ويقول: «فإن قلت: وما الشريعة؟ قلنا: عبارة عن الأمر بالتزام العبودية التى يكون معها عين التحكم» (٧٩).

وأما الحقيقة فتتعدد تعريفاتها عند ابن عربى، تبعا لاختلاف النواحى التى نظر إليها فعندما ينظر إلى الكون عامة بكل ما فيه، وماهو عليه من الأحوال، يقول: «الحقيقة هى ما هو عليه الوجود بما فيه من الخلاف والتماثل والتقابل».

وحين ينظر إلى الغاية التى يسعى إليها الصوفى فى كل شىء وبكل شىء

---

(٧٥) الفيروز ابادى «بصائر ذوى التميز» جـ٣ ص٣٠٩.

(٧٦) راجع المصدر السابق جـ٣ ص٣١٠.

(٧٧) المصدر السابق جـ٢ ص٤٨٤.

(٧٨) راجع الدكتور محمد مصطفى «الرمزية عند محى الدين بن عربى» جـ١ ص١٦٠ رسالة دكتوراه.

(٧٩) محى الدين بن عربى «الفتوحات المكية» جـ٢ ص١٣٣.

وهى وجه الحق تبارك وتعالى يقول بأنها : «ما له من الوجوه فى كل مخلوق ومبدوع» .

وحين ينظر إلى حقيقته الصلبة الصماء التى لا تقبل النفاذ من جميع أقطارها يقول : «ومن باب الحقيقة كونه عين الوجود» .

وحين ينظر إلى ما عليه هذا العالم يقول : «الحقيقة رؤيته الفاعل منك فيك بك» .

وحين ينظر إلى الحقيقة من جهة الممكنات تصبح حقائقها ما هى عليه فى الأزل فى حال ثبوتها (٨٠) .

وحينما يهتم المتأمل فى معرفة العلاقة بين «الباطن والظاهر» أو بين الشريعة والحقيقة . ترد عليه مقولة تقول : «أيهما مقدم رتبة وأصالة الظاهر أم الباطن» ؟ ويزداد الأمر وضوحا إذا عرفنا : «أن الصوفية يفرقون بين الباطن كموضع للتصديق والقصد والاخلاص، وبينه كمحل للواردات والمعارف الربانية، والأسرار الالهية. والباطن بهذا المعنى لابد أن يكون نابعا من السلوك الظاهرى، وناشئا من السير على الشريعة. أما الباطن بمعنى العقد الايمانى، وحسن التوجه، والخلو من الرياء والنفاق فهو بلا شك سابق على كل جانب من جوانب الظاهر لأن أول حال المسلم الايمان بالله، وهو لا يعتد به حقيقة إلا بالتصديق القلبى. وأيضا فالقلب مجمع الخزائن، ومحل النظر الالهى، ومعقد الاخلاص، ومنشأ الأعمال والراعى للبدن. فلابد من الاهتمام به وتنظيفه حتى تصح الأعمال ويتطهر البدن، وإلا فإذا كان الباطن خرابا أو محلا للنفاق أو الرياء أو العلل والآفات فسد البدن كله، واعتلت الأعمال من أساسها» (٨١) .

ولا يفوت الباحثين أن يدركوا أن هناك تناسبا طرديا بين تطهر الانسان وبين عطاء الله له . كما لا يخفى أن هناك أيضا تناسبا طرديا بين عطاء الله للانسان، وبين رياضات الانسان ومجاهداته .

---

(٨٠) راجع الدكتور محمد مصطفى «الرمزية عند محى الدين بن عربى» جـ١ ص١٦٢ .
(٨١) راجع الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة» ص٤٥١ .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإذا نبه الصوفية بعد هذا على تعلق الأشياء بالقلوب، وعلى ضرورة أن يبتدئ السالك وكل مسلم بعمارة باطنه ثم بعمارة ظاهره، وبينوا أن طهارته أصل كل الطهارات فقد نظروا إلى القلب بهذا الاعتبار التصديقى والاخلاص، والباطن من هذه الناحية مغاير للحقيقة وان كان محلا لها(٨٢).

ويذكر أحد علمائنا: «أن الشريعة فى أحكامها التكليفية ومقتضياتها التنفيذية تسمى ظاهرا، والحقيقة كثمرة من ثمار الشريعة، وفائدة من فوائدها، تلتقى مع الباطن فى الموضع وهو القلب، وفى العلوم والاسرار والمكاشفات إن أريد بالباطن العلوم الحاصلة فيه والواردة إليه من المنح والمواهب، أما إن أريد به التصديق أوالعقد فقط فتكون الحقيقة أوسع معنى من الباطن بهذا الاعتبار» (٨٣).

وبعد أن اتضحت المعالم أمام الرؤية فإن الإنسان يدرك يقينا أن رجال الطريق قد اعتبروا علوم الشريعة ضرورية للسلوك أبدا، وقرروا أنه يجب على السالك أن يدرسها أولا قبل التطلع إلى الحقيقة، لأنه بالتصديق الباطنى والاستقامة على الشريعة تتجلى القلوب وتأتيها الحقائق؛ فالشريعة اذن باب الحقيقة ومفتاحها، والشريعة بداية والحقيقة ثمرة وغاية، ولن يصل أحد منا إلى ما يشتهى إلا بعدما يجتاز الباب الأصلى وبعدما يدخل من الردهة الضرورية لها، وحتى إذا ما وصل السالك فإن الشريعة لا تفارقه بحال من الأحوال، مهما أوتى من الحقائق وكوشف بالأسرار(٨٤).

على أنه مما ينبغى أن يذكر أن مواطن الاختلاف والاتفاق بين الظاهر والباطن أوبين الشريعة والحقيقة من الأمور التى أبرزها وجد فى اظهارها كثير من العلماء والدارسين، لذا يكون من الحكمة أن نذكر ذلك فى ايجاز، لتتم الفائدة.

---

(٨٢) راجع المصدر السابق، ص٤٥١، ٤٥٢.

(٨٣) راجع الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة» ص٤٥٣.

(٨٤) راجع المصدر السابق ص٤٥٤.

وقد وصل العلماء إلى أن مواطن الاختلاف بين الشريعة والحقيقة تعود إلى :

١ ــ التقييد والانفساح : فالحقيقة هى مجموعة المعارف والعلوم والقضايا الأساسية التى ترجع إليها الأشياء فى النهاية. أما الشريعة وإن كانت علما فإنها كما هو واضح علم محجة وسلوك ومدرجة إلى الحق ، ومايلزم عن ذلك من مشقة وجهد لازمين ، هذا بالاضافة إلى أن الشريعة تحجير بينما تعطى الحقيقة الاطلاق .

٢ ــ الغاية : فقد جاءت الشريعة وقد وضعها الشارع أمام الناس فكانت مواقفهم منها مختلفة أشد الأختلاف . فقوم ابتغوا من العمل بها السعادة الحسية ، وهم الأغلبية من المؤمنين العاديين والزاهدين والعابدين . ولكن هناك قوم آخرون : لم يرفضوا هذه المتع ولم يحتقروها لذاتها ، ولكنهم أرادوا ورأوا وراءها هدفا آخر أفضل وأرقى ، ويلبى حاجة أساسية يجدونها من نفوسهم (٨٥) . يقول ابن عربى : «غاية طريق الشريعة السعادة الحسية ، وليست الحقيقة غايتها فى العموم فإن من الناس من لاينال الحقيقة فى أول قدم يضعه فى طريق الشريعة ، لأنه وجه الحق فى كل قدم وما كل أحد يكشف له وجه الحق فى كل قدم» (٨٦) .

٣ ــ الانقطاع والدوام : فقد كلف الناس بالأحكام الشرعية ، وهذا التكليف مستمر ملازم له إلى أن تستقر بهم الأمور إلى الأبد فى الدارين دار السعادة ودار الشقاء ، وتنتهى القبضتان إلى مستقرهما الأخير أى أن الشريعة باقية مادام الحق مبقيا لها أوعلى حد تعبير ابن عربى : باقية بالبقاء الالهى الذى لا نهاية له ، فليس من شأن الحقيقة أن تتخلف أزلا وأبدا ، ولذلك هى واقعة على الدوام (٨٧) .

٤ ــ التنوع والوحدة : يقول الحق تبارك وتعالى : « **لكل جعلنا منكم شرعة**

---

(٨٥) انظر الدكتور محمد مصطفى « الرمزية عند محى الدين بن عربى » جـ١ ص١٦٣ رسالة دكتوراه .

(٨٦) محى الدين بن عربى « الفتوحات المكية » جـ٣ ص١٥١ نقلاً من المصدر السابق .

(٨٧) انظر الدكتور محمد مصطفى « الرمزية عند محى الدين بن عربى » جـ١ ص١٦٤ .

ومنهاجا» وهى الطرق التى رسمها للوصول إليه، وتختلف هذه الطرق من رسول إلى رسول، كما تختلف فى الشريعة الواحدة تبعا لمن يبتغى المزيد بالشكر، ومن لا يبتغى. كما تتنوع الشريعة بمعناها العام الذى يعم الشريعة الموصلة إلى السعادة والشرائع السياسية التى تحصل بها المصلحة لبعض بنى الإنسان، وكل هذه الأنواع تأتى إلى الحقيقة لتطلب مستندها الذى ترجع إليه (٨٨).

٥ـ الظاهر والباطن: إن الشريعة هى الظاهر الذى بين يدى الخلق وهى فى حقيقتها عامة للشرعين الحكمى والسياسى والدينى، ولكنها لا تقوم بنفسها بل لابد لها من باطن تستند إليه (٨٩).

٦ـ وأيضا فالحقيقة بحسب تحقق بعض العباد بها وعدم تحقق البعض تغاير الشريعة، والشريعة باعتبار قدرة الجميع على تنفيذ أحكامها الظاهرة وعجز البعض عن ادارك أسرارها أوالمكاشفة من خلال القيام بها، تغاير الحقيقة (٩٠).

٧ـ الشريعة منفصلة عن الحقيقة فى الحكم والدليل على ذلك هو أن التصديق فى الايمان منفصل عن القول، والفرق ظاهر بين القول والتصديق، فالحقيقة عبارة عن المعنى الذى لا يجوز عليه النسخ وحكمه متساو منذ عهد ادم حتى فناء العالم مثل: معرفة الحق وصحة معاملة النفس بخلوص النية. والشريعة عبارة عن المعنى الذى يجوز عليه النسخ والتبديل مثل أحكام الأوامر، فالشريعة هى فعل للعبد، والحقيقة هى حفظ الله وعصمته جل جلاله للعبد (٩١).

وإذا كان العلماء والباحثون جدوا فى البحث لمعرفة مواطن الاختلاف بين

---

(٨٨) انظر الدكتور محمد مصطفى «الرمزية عند محى الدين بن عربى» جـ١ ص١٦٤.

(٨٩) انظر المصدر السابق جـ١ ص١٦٥.

(٩٠) راجع الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة» جـ١ ص٤٥٣.

(٩١) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ٢ ص٦٢٧.

الظاهر والباطن أو الشريعة والحقيقة ، فإن هؤلاء لم يتركوا قضية الاتفاق بينهما دون نظر ، لذا نرى أن الدراسات المتخصصة ترشدنا إلى أن الاتفاق بين الشريعة والحقيقة يكون فيما يلي :

١ ــ الشريعة من حيث هي حق ، والحق دائما يطلب الحقيقة ، وحق الشريعة هو وجود عينها (٩٢) يقول ابن عربي في ذلك : «تنزيلها في الشهود منزلة الشهود عينها في باطن الأمر ، فتكون في الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد حتى إذا كشف الغطاء لم يختل الأمر على الناظر» (٩٣) .

٢ ــ وإذا كانت الشريعة حقا يصبح حقيقة بعد الانكشاف ، فإنه يضاف إلى ذلك أن ما تقوله الشريعة هو بعينه ما تقوله الحقيقة في القضية الأساسية ، قضية «توحيد الكثرة» فالشريعة تقول «ليس كمثله شيء» وهذا هو قول الحقيقة بعينه (٩٤) .

٣ ــ وإذا كانت الشريعة والحقيقة ترجعان إلى الأسم «الظاهر والباطن» وكانت الشرائع صور الحقيقة الباطنة الظاهرة ، وكان الحق هو الظاهر والباطن ، كانت الشريعة والحقيقة أو الظاهر والباطن صفتان لحق هو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان هناك اعوجاج أو تخالف نسب إلى الماشي لا إلى من مشى به ، وهو الحق فالحق هو عين الوجود (٩٥) .. ولذلك نرى ابن عربي يقول : «فعين الشريعة عين الحقيقة ، والشريعة حق ، ولكل حق حقيقة ، فحق الشريعة وجود عينها ، وحقيقتها ما تنزل في الشهود منزلة شهود عينها في باطن الأمر ، فتكون في الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد ، وما ثم حقيقة تخالف شريعة لأن الشريعة من جملة الحقائق أمثال وأشباه (٩٦) .

---

(٩٢) انظر الدكتور محمد مصطفى «الرمزية عند محي الدين بن عربي» جـ١ ص١٦٥ .
(٩٣) محي الدين بن عربي «الفتوحات المكية» جـ٢ ص٥٦٣ .
(٩٤) راجع الدكتور محمد مصطفى «الرمزية عند محي الدين بن عربي» جـ١ ص١٦٦ .
(٩٥) المصدر السابق جـ١ ص١٦٦ .
(٩٦) محي الدين بن عربي «الفتوحات المكية» جـ٢ ص١٦٦ .

٤ ــ الشريعة والحقيقة غير منفصلتين فى الأصل ، حيث أن التصديق بدون القول لا يكون ايمانا ، والقول بدون التصديق لا يكون ايماناً (٩٧) .

٥ ــ والشريعة والحقيقة والطريقة (٩٨) واحد بالنظر إلى أمر الله سبحانه بحيث يحكم العارف على الظاهر والأوامر الشرعية على أنها من جملة الأسرار الربانية ، فهى من هنا حقيقة ويرى الحقائق انباء وعلوما الهية جلاها الحق ، وأبداها كيفية المعارف الشرعية فهى من هنا شريعة (٩٩) .

يقول القشيرى : «وأعلم أن الشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضا شريعة من حيث أن المعارف به سبحانه وجبت بأمره» (١٠٠) .

ولا شك أن بيان العلاقة بين «الظاهر والباطن» واتضاح الأمور أمام الباحث ، يزيد الانسان ادراكا بأن منهج الصوفية يقوم على احترام الشريعة وجعلها أساسا للسلوك . ولا يخفى أن السالكين سعوا إلى الفقه الصوفى الذى يجمع بين الظاهر والباطن بغية النوال .

وإذا كانت العلاقة بين الظاهر والباطن قامت :

ــ على ما جاء من التصديق الباطنى ، والعلم والعمل بالظاهر .

ــ وعلى التلازم الضرورى بين الشريعة والحقيقة .

فإنه يصبح واضحا لدينا أنه ليس بصحيح ما يقوله البعض «من إرجاع أراء الصوفية الخاصة بالظاهر والباطن إلى ما ورد عن الشيعة ، لأن القول باثنينية النصوص والدين بصفة عامة ، والادعاء بأن الحقائق سابقة على الشريعة ، ويمكن الاستغناء عنها عند الوصول إليها دون الشرع ، هى بلا شك أقوال الشيعة من الهاشمية والغلاة والاسماعيلية والقرامطة (١٠١) .

---

(٩٧) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ٢ ص٦٢٧ .

(٩٨) الطريقة هى الأمر اللازم لأرباب الحقائق والأحوال المختص بهم فى مقامات الكمال «راجع الشيخ محمد السايح» بغية المستفيد ص١٦٦ .

(٩٩) الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة» ص٤٥٣ .

(١٠٠) القشيرى «الرسالة القشيرية» جـ١ ص٢٦١ ط دار الكتب الحديثة .

(١٠١) الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة» ص٤٥٨ .

حيث يرى الشيعة الهاشمية : «أن الظاهر والباطن لا يفسرولا يؤول إلا باطنا» (١٠٢) .

وترى الاسماعيلية : أن الفرائض والسنن التى أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم لها ظاهر وباطن . وأن جميع ما استعبد الله به فى الظاهر من الكتاب والسنة هى أمثال مضروبة وتحتها معان هى بطونها وأن هذه البطون هى التى عليها العمل وفيها النجاة .. وأما الظواهر ففى استعمالها الهلاك والشقاء ، وهى جزء من العقاب الأدنى عذب الله به قوما إذا لم يعرفوا الحق ولم يقولوا به (١٠٣) .

وابن الجوزى يقول : «إن الباطنية يدعون أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجرى من الظواهر مجرى اللب من القشر بصورتها توهم الجهال صورا جلية . وهى عند العقلاء رموز واشارات إلى حقائق خفية وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التى هى تكليفات الشرع . ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه (١٠٤) .

والباحث بصدق فى التصوف الاسلامى يجد أن شبهة ارجاع آراء الصوفية فى الظاهر والباطن إلى ما ورد عن الشيعة ، شبهة ظالمة لا تقف الأدلة مؤيدة لها . وهذا أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد زروق الذى جمع بين الشريعة والحقيقة فى كتابه «قواعد التصوف» يذكر فى القاعدة السابعة والسبعين : «أن أصل كل أصل من علوم الدنيا وافخرة ، مأخوذ من الكتاب والسنة ، مدحا للممدوح وذما للمذموم ، ووصفا للمأمور به . ثم للناس فى أخذها ثلاث مسالك :

أولها: قوم تعلقوا بالظاهر مع قطع النظر عن المعنى جملة ، وهؤلاء أهل الجحود من الظاهرية لا عبرة بهم .

(١٠٢) الدكتور النشار «نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام» جـ٢ ص٦١ ط دار المعارف ط٧ .

(١٠٣) المصدر السابق جـ٢ ص٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(١٠٤) ابن الجوزى «تلبيس إبليس» ص١٠٢ ط ادارة الطباعة المنيرية .

الثاني: قوم نظروا لنفس المعنى، جمعا بين الحقائق، فتأولوا ما يؤول وعدلوا ما يعدل.. وهؤلاء أهل التحقيق من أصحاب المعانى والفقهاء.

الثالث: قوم أثبتوا المعانى، وحققوا المبانى، وأخذوا الاشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى، وهم الصوفية المحققون، والأئمة المدققون. لا الباطنية الذين حملوا الكل على الاشارة، فهم لم يثبتوا المعنى ولا عبارة، فخرجوا عن الملة (١٠٥).

والهجويرى يقول: «هناك عبارتان لهؤلاء القوم يعبرون باحداهما عن صحة حال الظاهر، وبالثانية عن إقامة حال الباطن، وقد أخطأ فريقان فى هذا المعنى:

أحدهما: علماء الظاهر الذين يقولون اننا لا نفرق بينهما، لأن الشريعة هى الحقيقة، والحقيقة هى الشريعة.

والثانى: فريق الملاحدة الذين لا يجيزون قيام كل واحدة منهما مع الأخرى ويقولون أنه إذا انكشفت الحقيقة ارتفعت الشريعة، وهذا قول القرامطة والشيعة وموسوسيهم (١٠٦).

وإذا كان قد بان لنا من كلام الشيخ زروق والهجويرى: أن الصوفية التزموا بالكتاب والسنة ـــ فأخذوا الاشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى وأن الظاهر جاء تعبيراً عن صحة الحال، والباطن تعبيراً عن إقامة الحال ـــ فاننا نجد أن الاتهام مردود. وذلك:

* أن الصوفية يختلفون عن الباطنية فى «السلوك» فقد ثبت أن الصوفية يهتمون بالعلم الظاهر دراسة، ويسيرون عليه طريقاً.

«فالأعمال الظاهرة وما يجرى عليها من أعمال ظاهرة، حقيقية باطنة، يتم بها للأعمال الظاهرة معناها، وتؤتى بها ثمارها» (١٠٧).

---

(١٠٥) أبو العباس زروق «قواعد التصوف» ص٤٧ ط مكتبة الكليات الأزهرية.
(١٠٦) الهجويرى «كشف المحجوب» ص المجلس الأعلى بالقاهرة.
(١٠٧) الدكتور بركة «فى التصوف والأخلاق» ص ٧٠ ط دار الطباعة المحمدية.

يقول الطوسى: فإذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التى هى على الجارحة الباطنة، وهى القلب. كما أنا إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التى هى على الجوارح الظاهرة، وهى الأعضاء. وقد قال الله تعالى: «**وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة**» (١٠٨) فالنعمة الظاهرة ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات، والنعمة الباطنة ما أنعم الله تعالى بها على القلب، ولا يستغنى الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر(١٠٩).

وهذا يسوقنا إلى أن ندرك: أنه لا وجه لدعوى المدعين اسقاط التكاليف الظاهرة باعتبار أن المقصود هو الحقيقة من هذه التكاليف وهو ما يكون الباطن وعلى الباطن، لأن ما فى الباطن ثمرة لما فى الظاهر وما فى الظاهر لا يتم بغير ثمرته الباطنة، ومن تحقق بهما معا فقد وصل إلى حقيقة الشريعة، فلا تفريق عند محققى الصوفية بين ظاهر وباطن أوبين حقيقة وشريعة، ومن زعم أنه يجد فى باطنه ما يخالف حكما شرعيا فهو فى وهم كبير(١١٠).

* وأن الصوفية يختلفون عن الباطنية فى الغاية، «حيث أن أهل التصوف قصدوا من وراء القول بالظاهر والباطن إلى التكامل الدينى والنفسى والروحى، وإلى محاولة التعمق فى النصوص واسرارها. أوتجلت غايتهم فى تربية الظاهر وتصفية الباطن كما تنقشع الحجب بين السالك وربه ليدرك المعانى الدقيقة، ويستنبط بنور ربه من أسرار الآيات ما يخفى عن الحس والعقل اللذين اجتهدا فى ظاهرها (١١١).

إذا كان من الواضح أن الصوفية يختلفون عن الباطنية وغيرهم فى السلوك والغاية فإن التشابه بين ما وجد عند الصوفية وبين ما وجد عند الباطنية لا يؤدى

---

(١٠٨) سورة لقمان الآية: ٢٠.

(١٠٩) الطوسى «اللمع» ص ٤٤ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور ط دار الكتب الحديثة.

(١١٠) الدكتور بركة «فى التصوف والأخلاق» ص ٧٠.

(١١١) انظر الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة» ص ٤٥٩.

إلى التطابق سلوكا أوغاية حيث وضحت وجهة الصوفية ونظرتهم إزاء الالتزام بالشرع بداية وشرعاً (١١٢).

ويذكر الدكتور الشاذلى فى رسالته «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة»: أن مثيرى الشبه (١١٣) جانبهم الصواب فى تحديد اللون والقدر الذى يوجه إليه الاتهام فاعتقادى أنهم عنوا بالصوفية الذين اشبهوا الباطنية فى مزج التصوف بالفلسفة دعاة الاشراق والفيض كابن سبعين والسهروردى، المقتول وغيرهما من المتأخرين الذين اهتموا بالكشف وبما وراء الحس (والذين كان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقولهم) — كما يقول ابن خلدون — والذى يدلنا على ذلك صراحة هو ما وجدناه فى تلبيس إبليس لابن الجوزى وفى الفتاوى والرسائل والمسائل لابن تيمية وفى مدارج السالكين لابن قيم من تقدير شديد للصوفية السنيين المعتدلين الذين التزموا الشرع بداية ونهاية مما يقطع بأن اللوم انصب على المتفلسفين من الصوفية لا المتشرعين الصادقين (١١٤).

وبعد هذا الذى عرضناه وعرفناه فى موضوع «الظاهر والباطن» نجد أنفسنا مع الحكيم الترمذى فى رسائله وكتبه، فتعطينا الكلمات أن الشريعة جاءت بتكليف الخلق، وأن الحقيقة جاءت بتعريف الحق وشريعة بلا حقيقة عاطلة، وحقيقة بلا شريعة باطلة. واننا نفهم فى وضوح أن الظاهر والباطن عند الحكيم الترمذى يتصلان اتصالا وثيقا، وبينهما تلازم وارتباط. فيقول عن الظاهر والباطن: «لا يستغنى أحدهما عن الآخر لأن أحد العلمين بيان الشريعة وهو حجة الله على خلقه والآخر بيان الحقيقة، فعمارة القلب والنفس بهما جميعا، وصلاح ظاهر الدين وقوامه بعلم الشريعة، وصلاح باطنه وقوامه بالعلم الآخر وهو علم الحقيقة (١١٥).

---

(١١٢) المصدر السابق ص ٤٥٩.

(١١٣) القائلين بارجاع آراء الصوفية فى الظاهر والباطن إلى ما ورد عند الشيعة.

(١١٤) الدكتور الشاذلى «مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة» ص ٤٦٠.

(١١٥) الحكيم الترمذى «الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص ٥٢.

فلا يستغنى الباطن عن الظاهر، ولا يستقل الظاهر عن الباطن لأن الظاهر بيان الشريعة وهو حجة الله على خلقه، والباطن بيان الحقيقة.. «وليست المسألة مسألة ظاهرية تنعكس على الجوارح والأعضاء الظاهرة، ولكنها تنبعث أساسا من أعماق البواطن، فما يبدو على الظواهر من أفعال وأقوال ليس إلا ترجمة لما استقر فى البواطن من حقائق وأخلاق وما استقر فى السرائر حقائق وأخلاق إنما حصله الصوفية بما قاموا به فى ظواهرهم من سلوك وأعمال»(١١٦).

فارتباط الظاهر والباطن عند الحكيم الترمذى يبدو قويا. ولهذا كان عنده: من اتقى بالعلم الظاهر وأنكر العلم الباطن فهو منافق ومن اتقى بالعلم الباطن ولم يتعلم العلم الظاهر ليقيم به الشريعة وأنكرها فهو زنديق، وليس علمه فى الباطن علما فى الحقيقة، إنما هو وساوس يوحى بها الشيطان إليه (١١٧).

أدرك الحكيم الترمذى هذا الارتباط إدراكا واضحا قويا ولعله ولهذا التلازم كانت أصول السلوك عنده تعتمد على شعب ثلاث هى: «الحق والعدل والصدق».

يقول الحكيم: «فإنا وجدنا دين الله عز وجل مبنيا على ثلاثة أركان: على الحق، والعدل، والصدق. فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول. فإذا افتقد الحق من عمل خلفه الباطل، وإذا افتقد منه العدل خلفه الجور، فإذا افتقد الحق منه الصدق خلفه الكذب»(١١٨).

فالحق هو على الجوارح لأنه يعنى الأعمال، وأما العدل فهو على القلوب لأنه يعنى بالأخلاق، وأما الصدق فهو على العقول لأنه يعنى بالايمان والاعتقاد. وهذه الثلاثة متلازمة متماسكة. فالجوارح مطالبة بالحق وهو اتباع الشريعة فى

(١١٦) الدكتور بركة «فى التصوف والأخلاق» ص٧٢.
(١١٧) الحكيم الترمذى «الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص٥٢، ٥٣.
(١١٨) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترين» ورقة رقم ٣٠٢ مخطوط الظاهرية دمشق.

تعاليمها، والقلوب مطالبة بالعدل وهو اتباع الأخلاق فى مثلها، والعقول مطالبة بالصدق وهو ضمن الإيمان [119].

(119) انظر عبد المحسن الحسينى «نظرية المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص١٢٨، ١٢٩.



أثر الحكيم وآثاره

إن من يبحث في تراث المسلمين الخالد، وأثار سلفنا الصالح ليقف مبهورا أمام ما قدموه لدينهم، وما بذلوا في سبيله من جهد وطاقة، وما تركوا لنا من كنوز رائعة، والحكيم الترمذي متعه الله بتبحر ورسوخ في مختلف العلوم، وقدم ثابت في العقيدة، فكان له من الدروس والتأليف ما بز به سعة وشمولا، وعمقا وتحقيقاً، وتتبعا واستقصاء، وتنوعا وكثرة.

وإن الدارس لحياة الترمذي وأفكاره، يرى أنه صاحب فكرة واضحة ومنهج محدد، في رسم الصورة المثلى للرقي الإنساني الذي يستطيع المؤمن الحق أن يصله، حتى يصير مثلا حياً للخير يمشي بين الناس، ويتحقق ذلك عنده في درجة الولاية التي خصص لها جانبا كبيرا من كتبه ورسائله يبين خصائصها ودرجاتها ومنابعها، وما يفاض على صاحبها من النور والحكمة اللذين يهبهما الله اياه، وكذلك يتحقق ببلوغ درجة المعرفة التي تصور قة الكمال الإنساني بين عباد الله الذين منحهم معرفته والعلم به كذلك في تصويره للصراع بين العقل والهوى وكيفية التغلب على ذلك حتى ينجو المرء من شرور النفس ومكرها، ثم تصويره للسلوك الإنساني المستقيم الذي حشد له مثلا رائعة من مكارم الأخلاق، ونبل الصفات (١).

ويضاف إلى ذلك قدرته على التعمق في المعاني، والخوض في الدقائق والأسرار، واستنباطاته العميقة، واشاراته البديعة، ونفحاته الطيبة وأفكاره اللطيفة.

(١) راجع الدكتور الجيوشي «الحكيم الترمذي دراسة لآثاره وأفكاره» ص٣٢٧.

وهذه المثل واللطائف التى تناولها الحكيم بالشرح والتحليل والذكر وبحثها فى كتبه ورسائله «جعلت الأبصار تتجه إليه، وتعكف على أرائه تناقشها وتقبلها أوتردها، وتعتنقها أوترفضها. بدا ذلك فى حياته وبعد مماته(٢).

أما فى حياة الحكيم فاننا نرى أن الدراسة تعطينا أنه كان للحاقدين والحاسدين عليه منهج يقوم على إثارة العامة، وحكام البلاد ليحققوا من وراء ذلك مآرب لهم، ويصلوا إلى أغراض لهم. ونتيجة لهذا المنهج الخطير تعرض الحكيم الترمذى إلى ألوان من المضايقات والاتهامات والنفى والحيلولة بينه وبين الناس. وكان ذلك حينما بدأ الحكيم الترمذى يروض النفس، ويتخذ مجلسا، يلتقى فيه الأخوان السالكون لمدارسة العلم ومذكراته والدعاء والتضرع. «ويبدو – كما يقول الدكتور الجيوشى – أن هذه المجالس كانت تحفل بكثير من اشارات الصوفية ولمحات العارفين فى أمور لم يألف الناس الخوض فيها أوتناولها على هذا النحو الذى يطلق فيه العنان لاشراق النفس، ونور القلب، فيلهم أهله فهما فى آية من كتاب الله، أوحديثا من أحاديث رسوله الكريم أوتعليلا لأمر من الأمور التى كانت مجالا يخوض به الناس فى ذلك الوقت وكانت مثار أخذ ورد بين العلماء والباحثين، وتختلف نظرتهم إليها وحكمهم عليها تبعا لاختلاف المنزع والمنهج والقدرة على الاستنتاج والحرية فيه أوتبعا لارتباط الباحث بمنهج معين والسير على منوال خاص لا يحاد عنه فى تفسير الأمور وتعليلها وقد أدى هذا الاختلاف فى المنهج والقدرة على الاستنتاج إلى أن يتناول بعضهم الحكيم بالنقد والتجريح، وأحيانا بالايذاء والاتهام بالهوى والبدعة، مما سبب كثيرا من الحزن والألم للشيخ الحكيم(٣).

ويقول فى ذلك الحكيم: «وطلبت من يعيننى فكان يكون لنا اجتماع بالليالى، نتناظر ونتذاكر وندعو ونتضرع بالاسحار. فأصابتنى غموم من طريق البهتان، وحمل ذلك على غير محمله، وكثرت القالة، وسلط على أشباه ممن ينتحلون العلم يؤذوننى ويرموننى بالهوى والبدعة ويبهتون»(٤).

(٢) راجع المصدر السابق ص٣٢٨.
(٣) راجع الدكتور الجيوشى «المسائل المكنونة» ص١٤.
(٤) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبد الله» ص١٧.

ووصل الأمر بهؤلاء الحاقدين والحاسدين أنهم لم يتورعوا عن الوشاية به، والافتراء عليه. ويصور الحكيم ذلك فى قوله: واشتد البلاء وصار الأمر إلى أن سعى بى إلى والى «بلخ» وورد البلاد من عنده من يبحث عن هذا الأمر، ورفع إليه أن هاهنا من يتكلم فى الحب ويفسد الناس، ويبتدع ويدعى النبوة، وتقولوا على ما لم يخطر ببالى قط حتى صرت إلى «بلخ» وكتب على قباله ألا أتكلم فى الحب (٥).. وقد بلغ الأمر أن أصبح الحكيم «لا يجترئ أن يطلع رأسه» (٦)ــ على حد تعبيره ــ خوفا من تشنيع هؤلاء العامة الذين لا يعرفون إلا ظاهرا من العلم. وزاد من الخطورة أن حددت اقامته فلا يتصل بالناس ولا الناس يتصلون به. وكانت هذه الفترة رغم شدة وقعها، كانت بعيدة الأثر فى آثاره وأفكاره وسلوكه، والحكيم الترمذى: اعتبر هذه الفترة بمثابة تمحيص وامتحان ومحاولة للتغلب على نوازع النفس، وامتلاك زمامها، واخضاع رغباتها، حتى لا تجمح به أو تستهويها مظاهر العبادة والنسك فتفسد عليه طريقه، وتصرفه عن غايته التى كرس جهوده كلها للوصول إليها. وقد نلمس صدى هذه المجاهدات الدائبة، والمحاولات الشاقة لاخضاع أهواء النفس وامتلاك قيادها فيما كتبه الحكيم شارحا ومفصلا طرق رياضة النفس فى كتابيه المسميان «الرياضة» و«أدب النفس» وفى معالجاته المتكررة فى رسائله الأخرى لألوان الصراع الذى لا يهدأ بين القلب وجنوده من ناحية، وبين النفس وأعوانها من ناحية أخرى، وتجده منبثا فى العديد من كتبه ورسائله حينما يحلل فكر النفس ويصورها بصورة الوحش المتربص للفرصة يغتنمها ليفتك بفريسته (٧).

وقد نقل عن الحكيم أنه كان يقول: «ما وضعت حرفا على حرف لينقل عنى، ولا لينسب إلى شىء منه، ولكن كنت إذا اشتد على وقتى أتسلى بمصنفاتى» (٨)

---

(٥) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبد الله» ص١٧، ١٨.

(٦) المصدر السابق ص٢١.

(٧) راجع الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص١٦.

(٨) الحكيم الترمذى «م الأمثال من الكتاب والسنة» ص٨ ط نهضة مصر.

ويبدو للباحث في مؤلفات الحكيم، والمستنتج مما كتبه عنه رجال الطبقات والمعاجم أنه كانت في حياة الحكيم فترات تهدأ العواصف فيها وتزول الشدة. فينجو منها الحكيم من مؤاخذة حاكم البلاد، ومتابعة المنافسين، ويرى الدكتور الجيوشي: «أنه قد تكون هذه الفترات هي التي كان يزول فيها سلطان بني الصفار عن الأقليم، ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن كتب التاريخ تذكر أن كثيرا من الثورات قد قامت في هذه البلاد خلال حكم بني الصفار لها، وأنها كانت تخرج من أيدي ولاتهم إلى حين تعود(9).

والحكيم يشير إلى جانب من هذه الفترات في رسالته الخاصة «بدو شأن أبي عبد الله» حيث يقول: «وهاجت بالبلاد فتنة وانتقاض أمر، حتى هرب جميع من كان يؤذيني ويشنع على في البلاد وابتلوا بالفتنة ووقعوا في الغربة، وخلت البلاد منهم(10).

وقد يفهم الباحثون أن رحلات الحكيم الترمذي إلى «بلخ» كانت أكثر من مرة، وقد تعددة حسب الاتهامات التي وجهت إليه وكان نفيه إلى «بلخ» قد بدأ باتهامه بالحديث عن الحب وافساد الناس وهناك موجة من موجات الاضطهاد العنيف أدت إلى نفي الحكيم إلى «بلخ» وكانت شديدة وقد نقل عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: «نفوه ــ أي الحكيم ــ من ترمذ، وأخرجوه منها، وشهدوا عليه بالكفر، وذلك بسبب تصنيفه كتاب «ختم الولاية» وكتاب «علل الشريعة» وقالوا أنه يقول: أن للأولياء خاتما، كما أن للأنبياء خاتما، وأنه يفضل الولاية على النبوة، واحتج بقوله عليه السلام: «يغبطهم النبيون والشهداء» وقال: لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم، فجاء إلى بلخ فقبلوه بسبب موافقته إياهم على المذهب(11).

والسلمي يدافع عن لحكيم ويعتذر عنه: «ببعد فهم الفاهمين»(12).

---

(9) راجع الدكتور الجيوشي «مقدمة المسائل المكنونة» ص٢٠.
(10) الحكيم الترمذي «بدو شأن أبي عبد الله» ص١٩، ٢٠.
(11) انظر: السبكي «طبقات الشافعية الكبرى» جـ٢ ص٢٤٥ ط الحلبي.
(12) المصدر السابق جـ٢ ص٢٤٥.

والسبكي في طبقاته يقول: «ولعل الأمر كما زعم السلمى وإلا فانظن بمسلم أنه يفضل بشرا غير الأنبياء عليهم السلام على الأنبياء»(١٣) .. وذكر قضية النفى إلى بلخ والأسباب التى أدت إليها الذهبى فى تذكرة الحفاظ، وابن حجر فى لسان الميزان، وشارح الرسالة القشيرية(١٤).

ويعلق الدكتور الجيوشى على هذه الفترة الحرجة فى حياة الحكيم فيقول: انها كانت بمثابة موجات تهج ثم تهدأ تباعا لارتفاع حرارة الخلاف بينه وبين المدعين للعلم فى ترمذ، ورفعهم أمر الخلاف بينهم وبينه إلى الولى من وقت لآخر، ولا شك أن اضطراب الحياة السياسية كان ينعكس على موقف الحكام منه، ويبدو أن فترة الاضطراب السياسى التى كانت تؤدى إلى استبدال الحكام من وقت لآخر أعطته فرصة للتنفس من حين لآخر حتى كانت آخر هذه الموجات حين انحر حكم بنى الصفار عن المنطقة، واضطر مؤازروهم إلى التوارى أوالفرار، حينئذ توقفت عوامل السعى ضد الحكيم وانتهت هذه الظروف التى امتدت أكثر من عشر سنوات(١٥).

لقد وضحت الأمور، وانكشف التآمر، وعرف الزيف الذى لفقه الحاقدون، وتبينت الوشايات التى لاحقت الحكيم، ووقف القوم يحسون بحلاوة الحديث، وطعم الكلمات فأقبلوا على الحكيم يطلبون الحكمة لتستنير القلوب وتزاحموا على موارد المعرفة، يقول الحكيم الترمذى: «حتى اجتمع الناس ببابى من مشايخ البلد من غير أن أشعر بهم، وقرعوا الباب، فخرجت إليهم فكلمونى فى القعود لهم وقد كان هؤلاء الأشكال قد قبحوا أمرى عند العامة قبحا كنت أتوهم أنهم السقم أكثرهم، لما كانوا يذيعون هؤلاء على من الكلام القبيح ويشنعون أمرى، ويرموننى بالبدعة، من غير أن يكون ذلك من شأنى أوتوهمته قط

(١٣) السبكى المصدر السابق جـ٢ ص٢٤٦.

(١٤) الذهبى فى تذكرة الحفاظ جـ٢ ص٦٤٥ ط الهند وابن حجر فى لسان الميزان جـ٥ ص٣٠٨ ط الهند. والأنصارى فى شرح الرسالة القشيرية جـ١ ص١٦٤ ط القاهرة. ومن الملاحظ أن هؤلاء جميعاً نقلوا ما جاء عن نفى الحكيم من كتب السلمى. وطبقات الصوفية للسلمى لا يوجد فيها ذلك. ويبدو أن نقل هؤلاء عن كتاب للسلمى لا يزال مفقوداً.

(١٥) الدكتور الجيوشى. مقدمة «المسائل المكنونة» ص ٢١.

فما زالوا يكلمونني في ذلك حتى أجبتهم إلى القعود، فذكرت لهم من الكلام شيئا كأنه يغترف من البحر فأخذت منى القلوب مأخذا.. واجتمع الناس فلم تحتمل دارى ذلك وامتلأت السكة والمسجد فلم يزالوا بى حتى مدونى «جرونى» إلى مسجد. وذهبت تلك الأكاذيب والأقاويل الباطلة، ووقع الناس فى التوبة، وظهرت التلامذة وأقبلت الرياسة، والفتن بلوى من الله لعبده، ورجع أولئك الأشكال إلى البلاد بعد ما قويت وكثرت التلامذة وأخذت القلوب مواعظى، وتبين لهم أن هذا كان منهم بغيا وحسدا فلم ينفذ لهم بعد ذلك قول وأيسوا (١٦).

ولا شك أن ما نقلناه عن الحكيم محمل بالمعانى الكثيرة والكبيرة، وفيه أشارات لطيفة. والذى يهمنا منه بالدرجة الأولى أثره فى هؤلاء المتعطشين إلى مواعظ الحكيم، المريدين له، الراغبين فى الاستزادة، وبدا ذلك واضحا عندما ذكر لهم الحكيم شيئا من كلامه كأنه يغترف من بحر فأخذت منه القلوب المواعظ والحكمة والمعرفة. وبدا الحكيميون يسلكون طريق الحكيم فكانت الطريقة الحكيمية التى أشار إليها الهجويرى فى كتابه كشف المحجوب حيث قال: «أما الحكيميون فينتمون إلى أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى رضى الله عنه، وبداية كشف مذهبه هى أن تعرف أن لله تعالى أولياء أصطفاهم من الخلق، وقطع همهم عن المتعلقات، واشتراهم من دعاوى نفوسهم وأهوائهم (١٧).

وما ذكرناه كان بعضا من آثار الحكيم الترمذى التى ظهرت فى حياته، وقد أدى بعضها إلى أن يواجه الحكيم فترة امتحان عسيرة شديدة القسوة على نفسه، حتى أنه كان يخشى أن يخرج لئلا تعتدى عليه العامة بما سول لهم خصومه، من منتحلة العلم الذين أحالوا البلاد بالنسبة له جحيما لا يطاق، وعكف الرجل على نفسه يتعهدها بالرياضة والمجاهدة وكان لا يجد وسيلة يمضى

---

(١٦) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبد الله» ص ٢٠، ٢١.

(١٧) الهجويرى «كشف المحجوب» الجزء الثانى ص ٤٤٢، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ترجمة الدكتورة اسعاد عبد الهادى قنديل.

بها الوقت إلا اللجوء إلى أوراقه واقلامه يسجل خواطره و يكتب ما يجول بذهنه من المعانى والأفكار. ولئن كانت هذه الفترة قاسية حقا على نفس الحكيم إلا أنها أثمرت لنا أغلب ما تركه من رسائل ومسائل وكتب، ناقش فيها كثيرا من الآراء والموضوعات (١٨).

على أن ما حدث للحكيم نتيجة لأثاره العلمية كان من علماء الرسوم، الذين اهتموا بالقشور من العلم دون اللباب، فأثاروا العامة والحكام، وكان ما كان. «أما الباحثون وأصحاب الدعوات والمناهج السلوكية، فقد كان لهم مع الترمذى منهج آخر هدفه عرض الفكرة فى هدوء وحكمة، لا يعنيه إلا البحث عن الحقيقة وكيفية الوصول إليها، وقد بدأ فى أصحاب هذا الاتجاه الأدب الجم، والخلق الرفيع، فى حديثهم إلى الترمذى. ولئن كان الزمن قد عدا على رسائلهم إلى الترمذى، فلم نقف على دقائقها وتفصيلاتها. فإن ردود الترمذى قد تلقى ضوءا على محتويات هذه الرسائل وأفكار أصحابها» (١٩).

والرسائل التى جرت بين الحكيم وبين مريديه والسالكين وشيوخ عصره والأولياء. «تبدو لأول قراءتها إجابة لكتب وصلت إليه من أصحابها يرد عليهم فيها، أما بالارشاد والتوجيه، وأما بتبادل النصيحة والتواصى بالحق، وأما بالتصحيح والتقويم لما ورد فى كتبهم إليه من أفكار» (٢٠).

وكانت القضايا تدور حول أمور تشغل المهتمين بالمعرفة الصوفية والوسائل التى يرونها لتحقيق الصفاء النفسى، والسمو الروحى، واكتساب المعرفة، التى تقرب السالك من الله سبحانه، وتفتح الطريق أمامه للترقى فى منازل القرب التى لا يدنو منها إلا من تسلح بصفاء النفس، ونقاء القلب، واستقامة السلوك، وشفافية الروح» (٢١).

---

(١٨) راجع الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام» منبر الإسلام ع ٢ س ٣٨، ص ١٠٤ القاهرة.
(١٩) انظر الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره» ص ٣٢٨.
(٢٠) انظر الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» م أصول الدين ص ٢٧٧، القاهرة.
(٢١) انظر الدكتور الجيوشى «رسائل الحكيم الترمذى «منبر الإسلام ع ٨ س ٤٠ ص ٤٦.

وفى رسائله كان الحكيم يناقش كثيرا من القضايا والمسائل التى كانت مثار جدل ونقاش فى عصره، بينه وبين من يكتبون إليه.

ومن هذه الرسائل رسائل خمس[22] «حققها الدكتور عبد الفتاح بركة كذلك حققها فضيلة الدكتور الجيوشى»[23].

- رسالة عنوانها: «جواب كتاب من الرى» وفى هذه الرسالة يرد الحكيم على ما أبداه صاحب الكتاب من شوق إليه.
- ورسالة عنوانها: إلى أبى سعيد النيسابورى[24]، وهو أحد ثلاثة من رجال الطبقة الأولى من شيوخ الملامتية: أبو حفص النيسابورى وأبو صالح حمدون القصار النيسابورى، وأبو عثمان سعيد النيسابورى، والملامتية فرقة-صوفية ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى بمدينة نيسابور «بخراسان»، أطلق عليها اسم «الملامتية» أو الملامية أسسها رجال من أصدق رجال الطريق فى ذلك القرن الذى امتاز فى تاريخ التصوف الاسلامى بالورع والتقوى الحقيقيين كما امتاز بقوة العاطفة الدينية وجهاد النفس العنيف ومحاربتها ومحاسبتها على كل ما فرط منها وما يحتمل أن يفرط منها — ومسلك الملامتية مسلك عملى من أوله إلى آخره، ومجموعة من الآداب يقصد بها إلى مجاهدة النفس ورياضتها، مجاهدة ورياضة تؤديان بالسالك إلى انكار الذات ومحو علائم الغرور الانسانى[25].

ومثل هذا المنهج يقتضى منهم أن تكون معظم تعليماتهم متجهة إلى التضييق على النفس وذلك عن طريق النهى المستمر، والمنع المستمر، والاتهام المستمر، ولا شك — كما يقول الدكتور بركة — أن هذا اغراق قد

---

(٢٢) انظر الدكتور بركة «رسائل خمس للحكيم الترمذى» مجلة كلية أصول الدين ع ١ ص٢٧٧ — ٣٢٩. القاهرة.

(٢٣) راجع الدكتور الجيوشى «مجلة منبر الإسلام» العدد ٩٠٨ من السنة ٤٠.

(٢٤) ابو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى الذى كتب اليه الحكيم هذه الرسالة فقد ولد بالرى ونشأ بها ثم رحل إلى نيسابور فاتخذها سكناً حتى توفى لثلاث عشرة ليلة بقين من ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين ومائتين انظر الدكتور الجيوشى منبر الإسلام ص٤٠ ع ٩ ص٤٣.

(٢٥) راجع الدكتور أبو العلا عفيفى «الملامتية والصوفية» ص٣ ط الحلبى ١٣٦٤هـ.

يبدو في نظر البعض مغالاة لا مبرر لها، كما يبدو الاستغراق فيه صارفا عن الاستشراف إلى أفاق أعلى وأوسع. وهذا ما نلاحظه في كتاب الحكيم الترمذى إلى أبى سعيد، فعلى الرغم من اتفاق الحكيم مع الملامتية فى نظرته المبدئية إلى النفس واتهامها ومن كونه ذا مذهب فى رياضتها وتأديبها، إلا أنه لا يقبل نظرة الملامتية التى تحصر المريد فى هذا المنهج وحده، فتصرفه عن منهج أخر يتكامل معه (٢٦).

- ورسالتين تحمل كل منها عنوان: «إلى محمد بن الفضل» وهو من كبار شيوخ الملامتية وقد كانت صلته بالحكيم الترمذى ـ على ما تدل عليه هذه الرسائل، وعلى ما ترشد إليه كتب الطبقات والتراجم ـ صلة وثيقة» (٢٧).
- ورسالة كانت إلى بعض أخوانه دون تعيين عنوانها: «أو إلى بعض إخوانه» وجاء فى مقدمتها: «واجاب أبو عبد الله رحمة الله عليه بعض اخوانه عن كتاب كتب إليه» (٢٨).. وهناك رسائل أخرى كثيرة منها:

- رسالة عنوانها: المسائل التى سأل عنها أهل سرخس أوبيان أدب المريدين وجاء فى مقدمتها: «أما بعد فقد فهمت مسائلك وما سألت من شأن المريد، وما الذى ينفعه ويضره فى سيره إلى الله تعالى، وكيف ينبغى أن يكون مبتدأ أمره» (٢٩).
- ورسالة عنوانها: «كيفية السلوك إلى رب العالمين» وهذه الرسالة كانت ردا على سؤال وجهه إلى الحكيم الترمذى أحد الأولياء الكرام، الأصفياء للحكيم. يقول فيها الحكيم: «أجبت سؤالك أيها الولى الكريم، والصفى

(٢٦) راجع الدكتور بركة «رسائل خمس للحكيم الترمذى» مجلة كلية أصول الدين ع ١ ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٢٧) المصدر السابق ص ٢٨٥.

(٢٨) المصدر السابق ص ٣٢٤.

(٢٩) الحكيم الترمذى «آداب المريدين» ص ٣٣، ط مطبعة السعادة تحقيق الدكتور بركة.

الحميم، فى كيفية السلوك إلى رب العالمين، والوصول إلى حضرته، والرجوع من عنده إلى خلقه»(٣٠).

- ورسالة عنوانها: «رسالة إلى بعض أخوانه» فيها: «واجاب أبو عبد الله رحمة الله عليه بعض اخوانه عن كتاب كتبه إليه»(٣١).
- ورسالة عنوانها: «مكر النفس»(٣٢).. إلى غير ذلك من رسائل جاءت ردا عن استفسار، أوجوابا عن مسألة من مسائل السلوك والمعرفة كان أثارها السائلون من أهل العلم والطريق، وبعثوا بها من الأقاليم المجاورة إلى الحكيم الترمذى.

وإذا كان لبعض الأئمة أن يعلو شأنهم، ويتألق سناهم، وتبقى على الأيام ذكراهم بما صنفوا من الكتب أوخلفوا من الأثار. فإن الحكيم الترمذى علم من الأعلام، تشبع من الثقافة الاسلامية وكتاب الله وسنة الرسول عملا وسلوكا، وتجربة وطريقا. فأهله ذلك للتصنيف، واجتمع له من المؤلفات مالم يجتمع لغيره من الأفذاذ، وترك للتراث الاسلامى ما يزيد على ستين كتابا وأكثر من مائتى رسالة.

ولا شك أن مؤلفات الحكيم كانت ذات تأثير فيمن كانوا حوله من شيوخ أومريدين يحملون ذكره وتوجيهاته. وقد وجدت جماعة من المشتغلين بالتصوف عالجت قضية الولاية والأولياء على ضوء ما شرحه وأصله الحكيم فى كتاب «ختم الأولياء» وكتاب «علم الأولياء» وما اتصل بهذا الموضوع فى سائر كتبه ورسائله «حتى أن هذه لجماعة السالكة فى الطريق كونت تيارا معينا دعا رجلا مثل الهجويرى أن يعتبر» الحكيميون «أحدى فرق عشرة ارتضاها وشرح

(٣٠) الحكيم الترمذى «كيفية السلوك إلى رب العالمين» ورقة ١٤٦، مخطوط بتطوان المغرب.

(٣١) الحكيم الترمذى «المسائل المكتوبة» ص ٨٣.

(٣٢) حقق هذه الرسالة الدكتور بركة ونشرها فى المجلد العشرين من مجلة معهد المخطوطات العربية. كما وضعها ضمن كتابه «فى التصوف والاخلاق» ط دار الطباعة المحمدية وكذلك حققها الدكتور الجيوشى ونشرها فى كتاب «المسائل المكتوبة» ص ١٢٧.

مبادئها بجانب الجماعات الأخرى التى اعتنق كل منها فكر شيخ من شيوخ الصوفية الكبار وسار على مبادئها »(٣٣).

فرأى الحكيم فى الولاية والأولياء — كان رأى اتباعه، ومنهجا لهم، أما تأثير الحكيم فيمن أتى بعده من رجال التصوف والعلماء فقد كان — كما يذكر الدكتور الجيوشي — « أوسع مدى ووضوحا وان لم تتناوله كتب التراجم تناولا كافيا، ولكن هذا الأثر يدركه الدارس بوضوح فى أفكار الصوفية والمفكرين عامة على مر العصور بعده، وذلك عن طريق كتبه ورسائله التى كانت متداولة بتتابع الناس على نسخها حتى القرن الماضى »(٣٤) ولكن ليس من السهل على الباحث أن يتتبع أفكار المتصوفة، ومع كل هذا فإن المتتبع لبعض الموضوعات التى أصل أصولها الحكيم، يدرك بوضوح تأثيرها فيمن تناول هذه الأمور.

ومن هؤلاء العلماء الذين أخذوا من الحكيم وتأثروا به حجة الاسلام الغزالى فإن الباحث فى كتاب الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترين» يدرك أن الغزالى انتفع بهذا الكتاب فى كتابه: «احياء علوم الدين» وبخاصة فى ربع المهلكات، وماكتبه الغزالى عن العلم والعقل والنفس والروح والقلب وجنوده استمده من مؤلفات الحكيم الترمذى «بيان العلم» و«أنواع العلوم» و«الأعضاء والنفس»(٣٥) وكتاب «الفروق ومنع الترادف» للحكيم، يتأثر به ابن القيم فى كتابه «الروح» فقد انتفع بما كتبه الحكيم فى كتاب «الفروق» واقرأ فى كتابه «الروح» لابن القيم فصل فى الفرق بين المهابة والكبر(٣٦)، وقارن بينه وبين ماكتبه الحكيم فى كتاب «الفروق ومنع الترادف» فصل بين المهابة والكبر(٣٧)، نجد أن الصلة واضحة والتأثير عميق.

---

(٣٣) الدكتور الجيوشى مقدمة كتاب «معرفة الأسرار» للحكيم ص ٢٠.
(٣٤) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره» ص ٣٣٠.
(٣٥) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة المسائل المكتوبة ص ٣٠.
(٣٦) راجع ابن القيم «الروح» ص ٣٧٦، ط مكتبة نصير.
(٣٧) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» مخطوط ورقة رقم ٢٠ مكتبة الاسكندرية.

ومن الذين أخذوا عن الحكيم الشيخ ضياء الدين عمار بن محمد ابن عمار البدليسى المتوفى سنة ٥٩٠ للهجرة حيث أن كتابه «بهجة الطائفة بالله العارفة» فيه الكثير من كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذى، لاسيما فى الفصول الأخيرة (٣٨).

وعبد الرحمن الجامى يذكر فى «نفحات الانسان» أن بهاء الدين نقشبندى مؤسس طريقة النقشبندية قد استفاد من الحكيم الترمذى وكتبه (٣٩).

وقد تأثر ابن عربى بالحكيم الترمذى فى حديثه عن الولاية والأولياء ونجد ذلك واضحا فيما جاء فى «الفتوحات المكية» وقد أجاب ابن عربى عن مائة وخمسة وخمسين سؤالا كان الترمذى قد طرحها فى كتابه «ختم الأولياء» (٤٠) وأجاب عنها ابن عربى فى فتوحاته (٤١)، وأفرد للاجابة عنها مؤلفا خاصا سماه «القسطاس المستقيم فيما سأل عنه الترمذى الحكيم» (٤٢).

وقد نستفيد من البحوث أن ابن عربى تأثر بالحكيم فى مواضيع أخرى غير الولاية والأولياء، ويظهر ذلك الأثر فى كتاب «التدبيرات الألهية فى اصلاح المملكة الانسانية» حيث يرى ابن عربى: «أن القلب هو قاعدة المملكة الانسانية وأن العقل هو وزيرها الذى لابد أن يتوفر له مجموعة من الأخلاق والصفات حتى يتسنى له القيام على تدبير شئون المملكة بكفاءة وحزم» (٤٣).. وهذه الصفات والأخلاق هى التى دعاها الحكيم الترمذى أعوانا للعقل فى بسط سلطانه على نواحى المملكة (٤٤).

---

(٣٨) راجع الدكتور عثمان يحيى «ختم الأولياء» ص٣٨.

(٣٩) انظر نور الدين عبد الرحمن بن أحمد الجامى «نفحات الانس من حضرات القدس» ص١٣٢ ط كلكتة ١٨٥٨م.

(٤٠) الحكيم الترمذى «ختم الأولياء» الفصل الرابع المسائل الروحانية ص١٤٢ ـ ٣٢٥.

(٤١) وقد الحقه الدكتور عثمان يحيى بأسئلة الحكيم فى كتاب ختم الأولياء ص١٤٢ ـ ٣٢٦ «بالهامش».

(٤٢) انظر المصدر السابق.

(٤٣) نقلاً عن الدكتور الجيوشى فى كتاب «الحكيم الترمذى» ص٣٣٤.

(٤٤) المصدر السابق ص٣٣٤.

والباحث في كتاب «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي يجد أن السيوطي تأثر بالحكيم الترمذي في بعض ما عالجه وعرضه في الاتقان ومن ذلك ما جاء تحت عنوان: «قاعدة في الألفاظ يظن بها الترادف وليست منه» (٤٥) فإن ما جاء تحت هذا العنوان يستمد جذوره من كتاب «الفروق ومنع الترادف» للحكيم الترمذي.

وفي موضع آخر من كتاب (الاتقان) تحت عنوان «معرفة الوجوه والنظائر» (٤٦) نلاحظ أن السيوطي استقى ما أراد أن يضعه من كتاب «تحصيل نظائر القرآن» (٤٧) للحكيم الترمذي.

وقد يصل الباحث إلى معرفة كثير من العلماء تأثروا بالحكيم الترمذي واخذوا من كتبه ويذكر الدكتور نقولا هير: «أن تأثير الترمذي على الصوفية بعده عن طريق مؤلفات أوضح من تأثيره عليها بوساطة مريديه وتلاميذه فإن كثرة استنساخ كتبه حتى إلى عهد قريب تقوم شاهدا على ما لقيته عند الناس من استحسان ورواج» (٤٨).

ويؤكد محقق كتاب ختم الأولياء الدكتور عثمان يحيى: «أن تأثير حكيم ترمذ في البيئة العلمية الاسلامية كان بوساطة كتبه ورسائله العديدة التي حفظ الزمن القسم الأعظم منها لحسن الحظ، وأن بقاء أكثر مؤلفات الشيخ الترمذي في دور المكاتب ان في الشرق أوفي الغرب لدليل بارز على عناية العلماء البالغة بها، وشيوعها في الأوساط الاسلامية المختلفة» (٤٩).

واستاذنا الدكتور عبد الفتاح بركة يقول: «وإذا كنا لا نعرف مراحل الرحلة الطويلة التي قطعتها كتبه حتى وصلت إلينا ومدى تغلغلها وتأثيرها فإنه

---

(٤٥) جلال الدين السيوطي «الاتقان في علوم القرآن» جـ٢ ص٣٦٣ ــ ٣٦٩. ط الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤م.

(٤٦) المصدر السابق، جـ١ ص١٤٤ ــ ١٥٥.

(٤٧) الحكيم الترمذي «تحصيل نظائر القرآن» تحقيق الاستاذ حسني نصر زيدان.

(٤٨) الدكتور نقولا هير مقدمة بيان «الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص١٢.

(٤٩) الدكتور عثمان يحي مقدمة «ختم الأولياء»، ص٣٨.

قد أصبح من المؤكد أنها تعتبر من أمهات الكتب الصوفية التى يرجع إليها، ويعتمد عليها»(٥٠).

ويصف أبو الفرج الجوزى أحد كتب الحكيم فيقول: وقد صنف لهم ــ الصوفية ــ أبو عبد الله محمد بن على الترمذى كتابا سماه «رياضة النفوس» قال فيه ...(٥١).

فالحكيم الترمذى علامة واسع الاطلاع، يكاد يكون صاحب مذهب وهو غزير الانتاج، ومرجع نفيس، وكتبه كان لها دورها(٥٢).

وقد أثرت كتبه فى ابن القيم، وابن عربى، والغزالى، والسيوطى والبدليسى، وبهاء الدين النقشبندى، وغيرهم من علماء التصوف ورجال الطريق.

وقد كانت كتب الحكيم الترمذى ــ كما يقول الدكتور بركة ــ: تحظى بتقدير عميق فى المدرسة الشاذلية التى أسسها أبو الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦هـ والتى لاتزال حية إلى الآن فقد كان الشاذلى يعقد ميعادا لدراسة كتابه «ختم الأولياء» وقد بلغ من اهتمام شيوخ هذه المدرسة بهذه الدروس أن كان أبو العباس المرسى يحرص كل الحرص على حضورها وحينما يكون على سفر فإنه يلتمس كل وسيلة تمكنه من حضورها فى ميعادها كما كان ابن عطاء الله السكندرى يروى عنه فى تآليفه التى تعتبر أساسا فى كتب المدرسة الشاذلية و وقد بلغ من تقديره فى هذه المدرسة أنهم كانوا يطلقون عليه لقب «الإمام الربانى»(٥٣).

ولعل مايذكر: أنه ليس من مهمتنا أن نسترسل فى ذكر الأمثلة والكتب

---

(٥٠) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٩٩.

(٥١) ابن الجوزى «تلبيس إبليس» ص٢١٠. ط ادارة الطباعة المنيرية.

(٥٢) المستشرق ماسنيون «دراسات فى التصوف الإسلامى» ص٢٨٧. ٢٩٤ ط باريس ١٩٥٤م.

(٥٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص١٩٩.

والطرق الصوفية التى تأثرت بالحكيم الترمذى وأخذت من مؤلفاته لأن ذلك خارج عن حدود هذه الرسالة .

وقد رأينا أن علماء المعاجم والطبقات ــ الذين وضعوا الكلمات فى مواضعها وكانوا أدرى بسير العلماء ، وأعرف بمكانتهم ومنزلتهم ــ ورد فى كتبهم ومؤلفاتهم ما يوحى بأن الحكيم الترمذى كان يتمتع بالتقدير والاجلال لما توفر له من علم ودين بين شيوخ التصوف والعلماء المعاصرين له والذين جاءوا بعده وهذا هو ابو بكر محمد الكلاباذى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ يذكر الحكيم فى الباب الرابع من كتابه «التعرف لمذهب أهل التصوف» فيمن صنف فى المعاملات . ويعتبره أحد الأعلام المشهورين ، المشهود لهم بالفضل ، الذين جمعوا علوم المواريث والاكتساب ، سمعوا الحديث وجمعوا الفقه ، والكلام ، واللغة ، وعلم القرآن ، تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم (٥٤) .

ويذكره السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ فى طبقات الصوفية فيقول : «هو من كبار مشايخ خراسان ، وله التصانيف المشهورة» (٥٥) .

وأبو نعيم الأصبانى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ يذكره فى «حلية الأولياء» بقوله : «انه مستقيم الطريقة يرد على المرجيئة وغيرها من المخالفين ، تابع للآثار ، وله التصانيف المشهورة» (٥٦) .

وقال عنه القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ فى «الرسالة القشيرية» بأنه من كبار الشيوخ وله تصانيف فى علوم القوم (٥٧) .

والهجويرى المتوفى سنة ٤٧٠ هـ تقريبا فى «كشف المحجوب» يقول عنه : «ومنهم الشيخ ذو الخطر ، والفانى عن أوصاف البشر أبو عبد الله محمد بن على الترمذى رضى الله عنه ، كان كاملا واماما فى فنون العلم ومن الشيوخ

---

(٥٤) الكلاباذى «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص٤٧ تحقيق النواوى ط كليات الأزهر.

(٥٥) عبد الرحمن السلمى «طبقات الصوفية» ص٥١ . ط الشعب .

(٥٦) أبو نعيم الأصبهانى «حلية الأولياء» جـ١ ص٢٣٣ .

(٥٧) القشيرى الرسالة القشيرية ص٢٢ ط دار الكتاب العربى .

المحتشمين، وله تصانيف كثيرة طيبة، وكرامات مشهورة مثل كتاب «ختم الأولياء» وكتاب «النهج» وكتاب «نوادر الأصول» وقد عمل كتبا أخرى كثيرة غير هذه، وهو معظم لدى جدا لأن قلبي صيد له، وكان شيخي يقول: محمد در يتيم إذ لا قرين له في العالم كله وله كتب في علوم الظاهر واسناد عال في الأحاديث، وكان قد بدأ تفسيرا فلم يف العمر باتمامه، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذى عمله (٥٨).

والامام الشعراني يذكره في «الطبقات الكبرى» فيقول عنه: «له التصانيف المشهورة (٥٩).

وقال عنه السبكي في طبقات الشافعية: المحدث الزاهد أبو عبد الله الترمذي الصوفي صاحب التصانيف (٦٠).

وذكره ابن حجر في لسان الميزان بقوله: إنه كان اماما من أئمة المسلمين له المصنفات الكبار في أصول الدين ومعاني الحديث وقد لقى الأئمة الكبار (٦١).

والذهبي في تذكرة الحفاظ يقول عنه: الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف (٦٥).

والشيخ زكريا الأنصاري يقول عن الحكيم في «نتائج الأفكار القدسية شرح الرسالة القشيرية: «إنه الصوفي صاحب التصانيف المشهورة اشتهر بملازمة العبادة بين العباد، وتفرد من بين الصوفية بكثرة الرواية وعلو الاسناد، ناسك سلك طريق القوم وصل التهجد وهجر النوم، رحل في طلب الحديث والعلم، وتلفح بمروط التقوى والحلم، لقى الأكابر وأخذ عن أرباب المحابر، ومع ذلك كان صدرا معظما، وصوفيا محدثا مفخما، كثير الكيس واللطافة، غزير المعارف التى تحف أخلاقه وأعطافه تحلى بعقوده جيد زمانه، وتأرجت الأرض بعرف عرفانه،

---

(٥٨) الهجويري جـ١ ص٣٥٣.

(٥٩) الشعراني «الطبقات الكبرى» جـ١ ص٧٨. ط صبيح.

(٦٠) السبكي «طبقات الشافعية» جـ٢ ص٢٤٥.

(٦١) ابن حجر «لسان الميزان» جـ٢ ص٣٧٨.

(٦٢) الذهبي «تذكرة الحفاظ» جـ١ ص٦٤٥.

سمع الكثير من الحديث بالعراق وغيره، وهو من أقران البخارى، ثم ينقل عن ابن عطاء الله قوله: كان الشاذلى والمرسى يعظمانه جدا ولكلامه عندهما الحظوة التامة ويقولان هو أحد الأوتاد الأربعة فلا تلتفت لخرافات بعض المجازفين ممن طعن فيه (٦٣).

وابن الجوزى فى «صفة الصفوة» يقول عنه: «انه من كبار مشايخ خراسان له التصانيف المشهورة» (٦٤).

وذكره بكل تقدير واجلال كثير من المؤرخين كالجامى المتوفى سنة ٨٩٨ هـ(٦٥) والمناوى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ(٦٦) ودار شكوه المتوفى سنة ١٠٥٦ هـ(٦٧) وطاش كبرى زاده (٦٨)، وخير الدين الزركلى (٦٩).. وابن تيمية حينما يناقش فكرة ختم الأولياء بعرض للترمذى ولا يرضى رأيه فى ختم الأولياء، إلا أنه يعرف للرجل حقه ومكانته، ويثنى على كثير مما كتبه (٧٠).

ويذكره العطار فى «تذكرة الأولياء» بقوله: «السليم السنة، عظيم الملة، مجتهد الأولياء، منفرد الأصفياء، حرم القدس، شيخ الوقت محمد بن على الترمذى رحمة الله عليه، المحتشم بين الشيوخ، المحترم بين أهل الولاية، الداعى بكل اللغات، الشارح لمعانى الأحاديث والأيات، كان آية من شرح المعانى والثقة فى الأحاديث ورواية الأخبار والأعجوبة فى بيان المعارف والحقائق

---

(٦٣) الشيخ زكريا الأنصارى «نتائج الأفكار القدسية فى بيان معانى الرسالة القشيرية» جـ١ ص ١٦٤ ط بولاق ١٢٩٠ هـ.

(٦٤) ابن الجوزى «صفة الصفوة» جـ٤ ص ١٤١ ط حيدر اباد ١٣٥٥ هـ.

(٦٥) نور الدين عبد الرحمن الجامى «نفحات الانس من حضرات القدس ص ١٣١ ط كلكتة ١٨٥٨ م.

(٦٦) عبد الرءوف المناوى «الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية» ق ٢١٢ و ـ ٢١٢ ومن المخطوط رقم ٢٤٩ من مجموعة يهودا بجامعة برنستون نقلاً من كتاب (بيان الفرق ـ المقدمة ص ١٠).

(٦٧) دار شكوه «سفينة الأولياء» مخطوط ق ٨٥ ظ.

(٦٨) طاش كبرى زادة «مفتاح السعادة» جـ٢ ص ١٧١ ط حيدر اباد الهند.

(٦٩) خير الدين الزركلى «الاعلام» . جـ٧ ص ١٥٦ الطبعة الثانية.

(٧٠) ابن تيمية «حقيقة مذهب الاتحاديين» ص ٥٩ ـ ٦٠ ط رشيد رشا نقلاً عن الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره» ص ٣٣٩.

الكاملة القبول، العظيم الشفقة العجيب الحلم، العالى الخلق، صاحب الرياضات والكرامات، الكامل فى فنون العلم، والمجتهد فى الشريعة والطريقة، اقتدى به جماعة من أهل ترمذ، ومذهبه فى العلم أنه عالم ربانى، وهو حكيم الأمة وليس بمقلد لأحد، لأنه صاحب الكشف والأسرار والغاية فى الحكمة، ولهذا سموه حكيم الأولياء(٧١).

وصاحب «كنوز الأولياء» يقول عنه: من كبار المشايخ، وهو مجتهد فى الشريعة والطريقة، وله مصنفات فيها، ولم يقلد أحدا، كان أعجوبة الدهر فى الكمالات العلمية والعملية، وكان لا يتكلم إلا بالحكمة ولذا يقال له حكيم الأولياء(٧٢).

وابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٣٢هـ يذكر أن ابن النجار المتوفى سنة ٦٩٣ هـ محمد ترجم له فى تاريخه «بأنه كان اماما من أئمة المسلمين له المصنفات الكبار فى أصول الدين ومعانى الحديث وقد لقى الأئمة الكبار»(٧٣).. ويذكر ابن حجر ما قاله القشيرى والسلمى — مما سبق أن ذكرناه — كما ذكر كلام القاضى ابن العديم ورد عليه بعد ايراده له فقال: وذكره القاضى كمال الدين بن العديم صاحب تاريخ حلب فى جزء له سماه «الملحة فى الرد على أبى طلحة» قال فيه: «وهذا الحكيم الترمذى لم يكن من أهل الحديث، ولا رواية له، ولا أعلم له نظرا فيه، وصناعة، إنما كان فيه الكلام على اشارات الصوفية والطرائق ودعوى الكشف عن الأمور الغامضة والحقائق. حتى خرج فى ذلك عن قاعدة الفقهاء واستحق الطعن عليه بذلك والازراء، وطعن عليه أئمة الفقهاء والصوفية وأخرجوه بذلك عن السيرة المرضية، وقالوا: إنه أدخل فى علم الشريعة ما فارق به الجماعة وملأ كتبه القطيعة بالأحاديث الموضوعة، وحشاها بالأخبار التى ليست بمروية ولا مسموعة، وعلل فيها جميع الأمور الشرعية التى لا يعقل معناها بعلل ما أضعفها وما أوْهاها»..

---

(٧١) فريد الدين العطار «تذكرة الأولياء» جـ١ ص٩١. نقلاً عن الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص٣٤١.

(٧٢) اليافعى «كنوز الأولياء ورموز الأصفياء» ورقة ٨٤ مخطوط الظاهرة.

وبعد أن أورد ابن حجر كلام ابن العديم عقب عليه بقوله: ولعمرى لقد بالغ ابن العديم فى ذلك ولولا أن كلامه يتضمن النقل عن الأئمة أنهم طعنوا فيه لما ذكرته ولم أقف لهذا الرجل مع جلالته على ترجمة شافية (٧٤).

وجدير بالذكر ما يروى ياقوت فى «معجم الأدباء» من أن عم كمال الدين بن العديم، وهو جمال الدين محمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله، كان أحد الأولياء العباد، وأرباب الرياضة والاجتهاد، وأنه شغف بتصانيف أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى، فجمع معظم تصانيفه عنده، وكتب بعضها بخطه (٧٥).

وإن الإنسان ليقف أمام ما قاله كما الدين بن العديم فى الحكيم الترمذى طويلا، لأن ابن العديم مؤرخ، أراد أن يحاكى مؤرخ الشام ابن عساكر، فعكف على النقول دون تمحيص، ويبدو أن ابن العديم لم يكن مقتنعاً كل القناعة بما وضعه عن الحكيم الترمذى ولذلك قال: «وطعن عليه وقالوا» فلم يقل هو، ولم يطعن هو، وإنما الذى طعن هم الفقهاء الذين تسببوا فى نفى الحكيم إلى «بلخ».. ولا مانع من أن يكون هذا الكلام مدسوس على ابن العديم وقد يؤيد هذا ما صرح به عدد من المؤرخين المتأخرين من أن ابن العديم لم ينه تأليف كتابه «بغية الطلب فى تاريخ حلب» وإنما كتب مسودته فقط (٧٦).

---

(٧٣) ابن حجر «لسان الميزان» جـ٥ ص٣٠٨.

(٧٤) ابن حجر «لسان الميزان» جـ٥ ص٣٠٩.

(٧٥) المستشرق نقولا هير «بيان الطرق» هامش ص٩.

(٧٦) الدكتور سهيل زكار «ابن العديم مؤرخ حلب وبلاد الشام» نهج الإسلام س٣ ع١٢ ص٦٤ وزارة الأوقاف سوريا. ١٤٠٣هـ.



بين يدى هذا الكتاب ورأينا فيه

كان الترمذى – رحمه الله – ممن أخلصوا النية، وأعظموا البذل راغبين فى العلم ناكبين عن الدنيا زاهدين فيها طامحين فى الآخرة ساعين إليها، داعين إلى المحجة الواضحة المستقيمة.

وقد ظهرت طويته، وانجلت محض ضريبته فى كتابه هذا القيم الذى وفق إلى أبعد الآماد وأقصى الغايات فى اختيار عنوانه (نوادر الأصول) فإن كلمة نوادر تدل على النفاسة والقيمة والتيم وأنه نسيج وحده وعيير وحده.

أما لفظة الأصول؛ فإنها تشير إلى أن موضوع هذا السفر من أطناب الدين ودعائمه المُعَوَّل عليها، والتى تمثل ركائز أساسية رئيسية للفهم الصادق، والعمل الجاد، ولا يجب الالتفات عنها بحال، إنما يجب أن تكون ماثلة فى ضمير المسلم ووجدانه.

بيد أن المؤلف – فى كثير من الأحيان – وجدناه مسوقاً لخواطر، وهواجس خاصة به، من محض فكره الشخصى غير المسبوق فيه بدافع حماسه الدينى وحسه الشرعى والفقهى وقد عمدنا إلى التعريج على كل هذه الآراء التى انفرد بها وقد افتات لنفسه البحث فيها، من غير تقييد – فأشرنا إليها ونوَّهنا عنها وذكرنا منبهين إلى أنها من آرائه الخاصة سيما تلك التى خالف فيها الجماعة.

ولئن كان الرجل قد امتاز على كثير من معاصريه بتذوق حسى وأدبى خاص به وأراد أن يروض به شروحه وتدارسه لمختلف المسائل الشرعية – فلا تثريب عليه إن بنا به رأى أو كبا به القلم من غير قصد، فإن الأطعمة الدسمة المأدومة بقدر ما تنفع جسم الطاعم فقد يعانى معها من عسر الهضم،

لذلك كان لابد أن يحتوى الطعام شيئا من الأفاويق والتوابل والمشهيات التى تستحث شهية الطاعم، لذلك كان الترمذى معذوراً فى لجوئه إلى بعض الإشارات واللمحات توطئة لإيصال مراده إلى حافظة السامع والقارئ.

والحق الذى لا مرية فيه أن الحكيم الترمذى كان مخلصاً لدينه وربه، فناءً فى الله، وحبا فيه، لذلك رأينا فى كل مصنفة لهجة الصدق، وعزمة اليقين، وإرادة الخير، فكان كتابه سفراً شائقا ممتعاً رقيقا لطيفا يشبه الروضة الفيحاء، ممدودة الظلال، وارفة الأفياء.

وقد أراد الله سبحانه وتعالى للمسلمين خيراً عميماً بهذا الكتاب الجامع، فصرح الحق عن محضه، وأبعد الصبح لذى عينيه وبرح الخفاء، وظهر هذا الكنز المخبوء إلى النور بعد أن كان عافياً، متروكاً فى زوايا النسيان، فقمنا بإبرازه إلى عالم الوجود فبى هذه الفترة التى نرى أمتنا الإسلامية أحوج ما تكون إلى كل جهد بناء مخلص يصون كنوزها من درر التراث القيمة من الضياع.

ولئن تظاهرت على المؤلف عوامل عديدة أهمها أولئك الكاشحون الذين زروا عليه، ووقعوا فيه، واستطالوا على علمه لكن أراد الله جل شأنه أن يمكن لعلمائه الساهرين على بيضة الإسلام، الواقفين أنفسهم ونفائسهم على حماية تراثه الجليل لخدمة العلم وأهله، فجعل الحق منهم سياجاً حصيناً يذب عن حريم الدين، وينافح عن كرامته.

ونحمد الله أن ثبت بالدليل الجلى، والبرهان الواضح غير المقدوح فيه أن الترمذى كان بريئاً من فكر الباطنية كذلك كان بريئاً من فكر الروافض المقبوحين. بل إن ملك المكذوبات التى نسبت إليه كانت مجرد افتراءات نسبها خصومه إليه، ودسوها عليه.

وقد أسعدنا كثيراً أن يكون الترمذى ممن قيدوا المكاشفة بالكتاب والسنة، وأن الشريعة عنده موافقة للحقيقة، وهذا ما انتهى إليه شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: إن المكاشفة من المسائل الشرعية المعمول بها بعد الكتاب والسنة بشرط ألا تعارض أصلاً فى الكتاب أو السنة.

كما ذكر ابن تيمية فى مجموع فتاويه أن ترجيح القلب التقى أمرٌ شرعى، وهو فى الأمور التى لم ينص عليها صراحة فى الكتاب أو فى السنة.

هذه أصول شرعية أصولية لا يجب إغفالها، أو الرغبة عنها لأنها تحسم جانباً كبيراً من المسائل التى تنازع فيها، واختلف عليها الأسلاف والمحدثون.

وقد وقعت تحت أيدينا نسخة مذيلة بشروح للإمام ابن النحاس وقد رأينا -بعد طول التفكير- الاستغناء عن هذا التذييل فكثيراً ما أسهبت فىُ شروح أصبح معدولاً عنها وهى من الفضول الذى لا ينتفع به الدارسون أو الباحثون الذين نحرص على ما يروض لهم دراسة هذا الكتاب.

وقد قمنا بتبرئة النص من التصحيفات والتحريفات، وقسمناه إلى فقرات متناسقة مناسبة، وقمنا أيضاً بتخريج الآيات والأحاديث والآثار والأخبار وعزوها إلى أصولها.

وقد علقنا على آراء المؤلف موافقين حيناً، ومخالفين حيناً آخر، مع التماس العذر لا سيما فى تلك المسائل التى صدرت عن محض فكره الشخصى، وهى من خطرات ذاته، والتى انفرد بها عن سابقيه ومعاصريه.

هنيئاً لك عزيزى القارئ بهذه الوجبة الدسمة، نرجو أن تنال من قلبك وروحك ووجدانك موقعاً طيباً يليق بما بذل المؤلف فيها من جهد، وما حالفنا من التوفيق فيه من شروح وتعليقات متواضعة.

ربنا توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

المحققان.



مخطوطات الكتاب

يوجد فى مكتبات العالم المختلفة ما يربو على نيف وعشرين نسخة من هذا الكتاب، وهذه أهمها :ــ

ــ نسخة فى مدريد ٤٦٨ (الأول، ٢٩٦ ورقة).

ــ نسخة أخرى فى كوبريلى (٤٦٤).

ــ نسخة أخرى (٢٩٦ ورقة، القرن الحادى عشر الهجرى)، راجع فهرست معهد إحياء المخطوطات (١/١١٣).

ــ نسخة أخرى فى مكتبة سليم أغا ٤٠٧ (جـ١/ الأوراق ١ــ١٢٨، القرن الحادى عشر الهجرى).

ــ نسخة أخرى بالزيتونة بتونس (٢/٢١٨) رقم ١٠٩٣ (١٧٩ ورقة، ١٠٢٦ هـ).

ــ نسخة أخرى رقم ٩٤ (٢٠١ ورقة ١٢٣٥ هـ)، دار الكتب(٢) (١/٣٧٣) تصوف ١٩٤ م.

ــ نسخة أخرى فى برلين ١٩٥٨ (المجلد الثانى) وجامعة لندن ٢١٩٧٧، طلعت بالقاهرة، حديث ٧٠٤ (٨٤ ورقة) القرن العاشر الهجرى، وكذلك ٧٨٠، الكتانى بالرباط ١٧٤ (الأول، ١٥٢ ورقة) وطبع فى استنبول (سنة ١٢٩٤ هـ) وصححه وعلق هوامشه جلال الدين السيوطى، ولى الدين (٥٧٥) (٣٧٣ ورقة، القرن التاسع الهجرى) والمرجح أن مصطفى بن إسماعيل الدمشقى (كان يعيش سنة ١٢٩٤ هـ/ ١٨٧٧ م) وقد جمع هذه التعليقات بعنوان (مرقاة الوصول) ونشرها ملحقة بالكتاب فى استنبول سنة ١٢٩٤ هـ، وقد حصلنا على نسخة منها.

وقد آثرنا الاستغناء عن هذا الملحق مكتفين بالحواشى التى أعددناها وعلقنا بها على المتن الأصيل.

نوادر الأصول
فى معرفة أحاديث الرسول

تأليف

ابى عبد الله محمد الحكيم الترمذى

من علماء القرن الثالث الهجرى

الجزء الأول

(الأصل الأوّل في بيان التحصين من لدغ العقرب وكلمة الاستعاذة بالكلمات)

حدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله ما نمت البارحة، قال: من أىّ شىء؟ قال: لدغتنى عقرب فقال: «أما إنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامة كلها من شر ما خلق لم يضرك شىء إن شاء الله تعالى»(١) وفى رواية «لم يضرك شىء حتى تصبح».

وعن خولة بنت حكيم السلمية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك».

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضوان الله عليهم أجمعين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا فزع أحدكم من النوم فليقل: أعوذ بكلمات الله التامة، من غضبه وعقابه، ومن شر عباده،

(١) ذكره ابن حجر فى فتح البارى، كتاب الطب، باب الرقى بالقرآن والمعوذات (١٩٦/١٠)

وأخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب الدعوات والتعوذ (٣٢/١٧)، والترمذى فى سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء بما يقول إذا نزلت منزلا (٤٦٦/٥)، وابن ماجة فى سننه كتاب الطب باب رقية الحية والعقرب (١١٦٢/٢)، وأحمد بن حنبل فى المسند (٢٩٠/٢، ٣٧٥ و(٤١٩/٣).

ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون، فإنها لن تضره» فكان عبد الله ابن عمرو يعلمها من بلغ من ولده ومن لم يبلغ. كتبها فى صك ثم علقها (٢) فى عنقه.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوّذ الحسن والحسين يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ويقول كان أبى إبراهيم يعوّذ بهن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام.

قال: (٣) أبو عبد الله محمد بن على بن الحسين بن بشير الحكيم الترمذى المؤذن كلمة الله التامة، وكلمات الله التامات، يؤديان إلى معنى واحد. فمن قال: كلمة الله التامة فإنما أراد به الجملة، ومن قال كلمات الله التامات، فإنما أراد الكلمة الواحدة التى تفرقت فى الأمور فى الأوقات فصارت كلمات ومرجعهن إلى كلمة واحدة فكلمته التامة هى قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤)

وقال الله تعالى:

﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٥)

وإنما قيل تامة لأن أقل الكلام عند أهل اللغة على ثلاثة أحرف: حرف يبتدأ به وحرف يحشى به الكلمة وحرف يسكت عليه، فإذا كان على حرفين فهو عندهم منقوص وإنما نقصت لعلة مثل قوله: يد ودم

---

(٢) يعلقها [فى نسخه أخرى].

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى المؤلف ـ رحمه الله ـ وهذا من الناسخ، وربما يكون من المؤلف نفسه.

(٤) يس (٣٦/٨٢).

(٥) آل عمران (٣/٤٧).

وغـد وفـم هـذه كلها منقوصات لأنها على حرفين، وكذلك كن هي من الآدميين من المنقوصات لأنها على حرفين ولأنها كلمة ملفوظة بالأدوات ومن ربنا جل جلاله كلمة تامة لأنها بغير الأدوات ومنفى عنه شبه المخلوقين. وقال الله تعالى:

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ (٦)

ثم وصفها فقال:

﴿ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (٦)

أي قدساً واستواء ثم قال:

﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ (٦)

أي ليس لأحد أن يعجزه إذ قال لشيء كن، وإنما قال بكلماته لتفرق هذه الكلمة في الأمور كلها فلكل قضية ولكل إرادة من الأمور من ربنا في كل أمر كلام بقوله: «كن» وهو ما روى عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن الله عز وجل: «إنما عطائي كلام وعذابي كلام» فأما قوله: كن فالكاف من كينونته (٧) والنون من نوره، وهي كلمة تامة بها أحدث الأشياء وخلق الخلق فإذا استعاذ العبد بتلك الكلمة صارت له معاذاً ووقى شر ما استعاذ بها منه؛ لأن العبد المؤمن لما غرف أن لا يكون شيء إلا ما جرى به القضاء والقدر وإنما يمضي القضاء بقوله: كن عظمت هذه الكلمة عنده فصارت متعلق قلبه، فإنما تأخذه الرغبة في الأشياء والرهبة من الأشياء وقلبه نازع إلى مشيئته وفؤاده مراقب لإراته، وأذنه مصغية إلى كلمة «كن» وعينه شاخصة إلى تدبيره، فإذا قال: أعوذ بكلمات

---

(٦) الأنعام (١١٥/٦).

(٧) هذا قول الحكيم الترمذي نفسه ــ وهو المسئول عنه ــ لأنه من خصوصياته غير المسبوق فيها.

الله التامة من شر ما خلق وقى شر ما خلق وصار فى حصنه وارتتع فى عياذه آمناً مطمئناً. هذا لمن قالها بيقظة، وعقل ما يقول وهذا القول منه تحقيق الإيمان لأنه آمن برب لا يملك أحد سواه شيئا ولا شريك له فى شىء وهذا لأهل اليقين الذين إذا قال أحدهم هذا القول استقر قلبه بعد القول على مقالته واطمأنت نفسه فأما أهل الغفلة فإنهم يعاذون على أقدارهم على أقدارهم لحرمة الكلمة وهو مثل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا قال العبد حسبى الله سبع مرات قال الله تعالى وعزتى لأكفينه صادقاً أو كاذباً» فإنما قال صادقاً أو كاذباً؛ لأن السابق المقرب وهو الموقن إذا قال حسبى الله صدقه بفعله فهو صادق لأنه لا يتعلق بعد ذلك قلبه بالأسباب.

وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام حين وضع فى المنجنيق من الجبل ليرمى به فى النار وعرى من الكسوة وكتف بالوثاق(٨) فقال: حسبى الله فعارضه جبريل عليه السلام فى الهواء امتحاناً وابتلاء، وقال: هل من حاجة يا إبراهيم، وهو يهوى فى الجو، فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا، وقد بكت السموات والملائكة وخزّان القطر عليهم السلام لما حل به وجأرت إلى الله تعالى فأمر الله تعالى بنصرته من حين استغاث به عبده فلم يلتفت إلى أحد من خلقه ولا إلى جبريل مستغيثاً حتى تفرد الله تعالى بنصرته فقال تعالى:

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (٩)

وإنما عارضه جبريل عليه السلام فى الهواء بما عارضه، ليبرز صدق مقالة إبراهيم عليه السلام. فى قوله: «حسبى الله» عن مكنون قلبه، وليعلم الصادقون من بعده، غاية الصدق فى المقالات فاتخذه خليلاً ونوه باسمه

---

(٨) الوثاق: القيد.

(٩) الأنبياء (٦٩/٢١) راجع تفسير الآية فى القرطبى (٣٠٣/١١).

فى العالمين؛ وهو أول من يكسى يوم القيامة لأنه عرّى فى دار الدنيا فى ذات الله تعالى فبدئ به من بين الأنبياء، والرسل عليهم السلام، فهكذا يكون قول أهل اليقين فى حسبى الله والمخلط كذبه بفعله حيث تعلق بالأسباب وبالمخلوقين حتى صاروا فتنة عليه؛ فقوله: «حسبى الله» قول الموحدين قول أهل الإيمان لا قول المحققين قول أهل النزاهة واليقين، فكذلك قوله: أعوذ بكلمة الله التامة المقرب عينه وأذنه إلى تدبيره وقضائه، وقوله: «كن» والمخلط عينه وأذنه إلى الأسباب والحيل والحرز والحصون والوقايات، فيعاذ على قذره لحرمة قوله واعترافه بأنها كلمة إيمان فالاستعاذه بالله تعلق به محضا، والاستعاذة بكلمته تعلق بتدبيره لأنه كذا دبر أن تكون الأشياء بالكلمة وقال فى تنزيله عز من قال:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ (١٠)

وقال الله تعالى:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (١١)

فهما يدلان على أن ما كان من أمر الباطن فالاستعاذة به، وما كان من أمر الظاهر فالاستعاذة بكلمته، لأن ما هو فى الظاهر هو بقوله: «كن» وما فث الباطن صنعه (١٢). وقال:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ (١٣)

---

(١٠) الأعراف (٢٠٠/٧). ينزغنك: أى يستخفنك، يقال: نزغ بيننا إذا أفسد. راجع أيضا الجامع لأحكام القرآن (٣٤٧/٧).

(١١) المؤمنون (٩٧/٢٣) همزات الشياطين: طعنها ووسوستها، ومنه قيل للغائب [هُمَزة] كأن يطعن وينخس إذا عاب. راجع تفسير غريب القرآن ص ٢٠٠ بتصرف.

(١٢) تأمل الظاهر والباطن عند الترمذى متوافقان تماما، ومتطابقان، لأن الظاهر الذى يعارض الباطن يخالف الأصول.

(١٣) الناس (١/١١٤) وما بعدها. راجع تفسير الآية فى القرطبى (٢٥١/٢٠) والطبرى (٢٢٧/٣٠).

ثم قال :

﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ (١٤)

ثم قال :

﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ (١٥)

أمره أن يستعيذ بثلاثة من أسمائه :

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ (١٦)

وهو باطن فقوله : «رب» أى ملك ربنى ، فلان يربنى فهو راب . ثم قالوا : رب فحذفوا الألف كما قالوا بار ثم قالوا بر فقوله : رب يؤدى إلى الملك وملك يؤدى إلى الملك وإله يؤدى إلى وله القلوب فالوسواس آفة على القلب أمره أن يستعيذ بمالك وملك وإله لأن المالك الذى أحاط بهم فلكهم ، والملك الذى نفذ أمره فيهم والإله الذى أوله القلوب إلى نفسه :

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ (١٦)

وسوس عند الغفلة . وخنس عند الذكر . فاشتق له أسمان من فعليه ، ثم بين أين موضعه من الجسد فقال :

﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ (١٧)

والصدر ساحة القلب ، وفيه الفكر ومنه تصدر الأمور ثم بين أن الوسوسة جنسان فقال :

﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ (١٨)

---

(١٤) الناس (١١٤/٢).
(١٥) الناس (١١٤/٣).
(١٦) الناس (١١٤/٤).
(١٧) الناس (١١٤/٥).
(١٨) الناس (١١٤/٦).

وسوسة جنية وهى الشيطان، ووسوسة ارنسية وهى النفس وكذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «هما وسواسان» وإنما قال: وسوس لأنه يزعج.

وقوله: أزّ يؤزّ أزعج يزعج، وقال فى تنزيله:

﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ (١٩)

والهاء والهمزة والواو أخوات تجزئ الواحدة عن صاحبتها فقوله: أزّ وهزّ ووزّ بمعنى واحد إلا أن كل واحدة تستعمل فى نوع، والزاء والسين اختان تجزئ أحداهما عن الأخرى، كما قالوا صقر وزقر وسقر فقوله: وزّ وقوله: وسّ يوس بمعنى وسوس، وقوله: وسوس فى قالب العربية فع فع لأنه فى الأصل وس وس ثم كرر فقيل وسوس لأن فعله على القلب مردّد مكرر فأمره أن يستعيذ بالأسماء الثلاثة منه ثم قال:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ (٢٠)

وكل ما انفلق شىء عن شىء فهو فلق، قال أهل التفسير الفلق واد فى جهنم إذا فتح وانفلق هرّ أهل النار من شدة حره وقال بعضهم المقلق الصحيح لأنه انفلق عن الليل وهو قوله تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ (٢١)

وقال الله تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ (٢٢)

---

(١٩) مريم (٨٣/١٩). تؤزهم أزا: تزعجهم إزعاجا، فتحركهم إلى المعاصى. راجع جامع البيان للطبرى (٩٤/١٦) والجامع لأحكام القرآن للقوطبى (١٥٠/١١).

(٢٠) الفلق (١/١١٣). وسورة الفلق سورة مكية عند الجمهور، لكنها مدنية فى رواية عن ابن عباس وقتادة، والفلق هو الصبح. راجع القرطبى (٢٥١/٢٠) بتصرف، والفخر الرازى (١٩٤/٣٠).

(٢١) الأنعام (٩٦/٦).

(٢٢) الأنعام (٩٥/٦).

فالحبة تنفلق فتثبت والنوى كذلك أيضاً وليس هذا منهم اختلاف لأن الكلمة تؤدى إلى كل شىء انفلق.

وأعظم فلق فى الدنيا فلق قلب المؤمن بنور الله تعالى فقال:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ (23)

وهو فلق القلب إذا انفلق بنوره وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «للقلب أذنان وعينان فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً فتح عينيه اللتين فى قلبه»،

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ (24)

وهو ظلمة الكفر

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ (25)

والغسق الظلمة وهى ظلمة المعاصى وقوله: وقب(26) أى دخل

﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ (27)

وهو السحر يعقد الساحر الذى قد باع آخرته بدنياه فأعطى ما تمنى واختار، وربنا عز وجل واسع كريم طلب آدم التوبة والطاعة فأعطى، وطلب الساحر منى الدنيا وأن يعطى كل شىء يتمناه برفض الأخرة وأن

---

(23) الفلق (113/1).

(24) الفلق (113/2).

(25) الفلق (113/3). الغاسق: الليل، الفسق: الظلمة، إذا وقب: إذا دخل فى الظلمة، وإذا دخل فى كل شىء. وقيل إن الغاسق هو القمر وهو منقول عن اللسان (12/162) والقرطبى (20/257). راجع أيضا التفسير الكبير للفخر الرازى (31/195) بتصرف.

(26) إذا وقب: أى إذا دخل فى الكسوف.

قيل: وقب: دخل بظلامه.

راجع المعنى فى التفسير الكبير (31/195).

(27) الفلق (113/4). انظر المعنى فى لسان العرب لابن منظور (3/17)، والبحر المحيط لأبى حيان (8/530).

لا خلاق له فيها ، فأعطى فهو يعقد خيطاً أو وترا على منيته وينفث فيه من نفسه الخبيثة فيصل ضرره إلى من يتمنى ذلك عليه

﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (٢٨)

ولما سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عجز عن نسائه وأخذ بقلبه لبث فى ذلك ستة أشهر (٢٩) فيما روى فى الخبر، ثم نزلت المعوذتان إحدى عشرة آية واستخرج الوتر فيه العقد من ذلك البئر فكان كلما قرأ آية من المعوذتين انحلت عقدة حتى حل العقد كلها وبرئ

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (٣٠)

وهو العين والحاسد والحاصد بمعنى فهو يحصده بعينه أى يقطعه من الأصل هلاكاً ودماراً ، وهو أن يعجب بالشيء فلا يذكر خالقه فإذا هو قد حصده ودمره .

والحسد إرادتك التى تريد بها إبطال ذلك الشيء فنوره فلق الظلمات وهو فى دعوة إدريس عليه السلام : أنت الذى فلق الظلمات نوره فإذا أورد على القلب نوره فلق الظلمات ، فجميع ما ذكر فى التنزيل من الاستعاذة به وجدناه يؤل إلى الباطن من الأمور.

وما جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أمرنى جبريل عليه السلام أن أكررهن فى السجود» «وأعوذ بعفوك من عقابك» فاستعاذ بالعفو من العقاب لأنه ضده ، «وأعوذ برضاك من سخطك» فالرضى ضد السخط ثم قال : «وأعوذ بك منك» ، فاستعاذ به منه لأنه لا ضد له ، وهو كقوله : (لا مفر منك إلا إليك) وهو قوله تعالى :

(٢٨) البقرة (٢/١٠٢) . راجع جامع البيان للطبرى (٢/٥١١) .
(٢٩) راجع الموضوع فى مظانه من كتب الأحاديث.
(٣٠) الفلق (١١٣/٥) .

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (31)

أى فروا منه إليه .

---

(31) الذاريات (51/50).

(الأصل الثانى فى كلمة النجوى)

عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجلس الرجل إلى الرجلين إلا على إذن منهما إذا كان يتناجيان» [1].

روى عن النضر فيما يحكى عن أهل اللغة أن الجماعة إذا لم يكن فيهم غريب فحديثهم نجوى وإن جهروا فيما بينهم، وإذا كانوا ثلاثة وفيهم غريب فليس حديثهم بنجوى وإن أسروه، قال الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [2]

وأهل النجوى إذا اجتمعوا نجيا فكأنهم فى ستر، أووطن فكما يجب الاستئذان فى الدخول عليهم فى أوطانهم فكذلك يجب الاستئذان فى الجلوس اليهم، فإن ذلك أذى لهم وقطع عليهم وهتك لسترهم، وهذا كله لعظيم حرمة المؤمن وتجنب أذاه، وإذا كان وحده ففيه سعة لأنه ليس هناك سر يطلع عليه، ولكن يحق على الورع أن يتحين الوقت والحال وإن يتجنب التثقيل.

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الأدب باب فى الرجل يجلس بين الرجلين بغير إذنهما (٢٦٢/٤). والبيهقى فى السنن الكبرى (٢٣٢/٣)، وأحمد فى مسنده (٩/٢) و(٤٥/٤٣) وقد ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب الأدب. باب: لايدخل أحد بين اثنين وهما يتحدثان إلا بإذنهما (٦٣/٨).

(٢) يوسف (٨٠/١٢) استيئسوا: يئسوا، خلصوا. نجيا: أى اعتزلوا الناس ليس معهم غيرهم، يتناجون ويتسارون وجمع نجى أنجيه. انظر تفسير الطبرى (٢٢/١٣) حيث يقول: «والنجى: جماعة القوم المنتجين، يسمى به الواحد والجماعة» أهـ.

قال إبراهيم النخعى رحمه الله من أمن الثقل ثقل، وقال أبو حنيفة رحمه الله عن حماد: من خاف أن يكون ثقيلاً فليس بثقيل. قال مغيرة: لقد نهى الله تعالى عن التثقيل فى قوله الكريم:

﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ (٣)

إلى قوله:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾

وهذه الآية نزلت فى بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أحسبها زينب رضى الله عنها تزوج رسول الله عليه السلام بها وأولم عليها فلما أطعمهم أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلو بأهله؛ فقعدوا بعد الطعام يتحدثون فى بيته ورسول الله صلى الله عليه وسلم مرة يخرج ومرة يدخل، وهم فى البيت قعود لا يبرحون، فنزلت هذه الآية.

وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا استثقل رجلاً قال: اللهم اغفر لنا وله وأرحمنا منه. وقال حاتم بن عبد الله الأشجعى: انتهيت مع سفيان الثورى إلى أبى حنيفة اليمامى رحمه الله وإذا هو جالس فى تراب فدنونا منه وسلمنا عليه وقال له سفيان: رحمك الله تأذن فنجلس إليك، قال: لا. فرجعنا فقال سفيان: إن الرجل ليس فى كل حالاته يحب أن يجلس إليه.

---

(٣) الأحزاب (٥٣/٣٣). راجع الطبرى (٢٥/٢٢)، والبحر المحيط لأبى حيان (٢٤٦/٧).

(الأصل الثالث في تأثير الغضب في الإيمان)

عن بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده رضوان الله عليهم أجمعين قال: قلت يا رسول الله أخبرنى بوصية قصيرة فالزمها قال: «لا تغضب يا معاوية بن حيدة فإن الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل» [1].

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الغضب ميسم من نار جهنم يضعه الله تعالى على نياط أحدهم ألا ترى أنه إذا غضب احمرت عينه وأربدّ وجهه وانتفخت أوداجه» [2] وقال في حديث آخر: «إن الغضب جمرة توقد في قلب ابن آدم ألا ترى إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه، وذلك إن الشياطن ينفخ في تلك الجمرة».

فشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بالعسل والصبر، فكما يفسد الصبر العسل فكذلك الغضب يدنس الإيمان ومرارته تذهب حلاوته

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه- كتاب الأدب- باب الحذر من الغضب (١٠/٥١٩) لأبى هريرة مرفوعا بلفظ «لا تغضب». وأخرجه الترمذى فى سننه- كتاب البر والصلة- باب ما جاء فى كثرة الغضب (٤/٣٧١) وقال أبو عيس: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه مالك فى الموطأ- كتاب حسن الخلق- باب ما جاء فى الغضب (٢/٢٢). أحمد فى المسند (٢/١٧٥، ٣٦٢، ٣٦٦، ٣/٤٨٤، ٥/٣٤).

(٢) الأوداج: جمع مفرده ودج، والودجان: عرقان أووريدان فى الرقبة على كلا الجانبين، يقطعان عند الذبح.

ونزاهته فالإيمان حلو نزه والغضب مر دنس. وروى عن عيسى عليه السلام أنه سأله يحيى بن زكريا عليه السلام عن الغضب ما بدؤه قال: الكبر ألا ترى أنك تغضب على من هو دونك ولا تغضب على من هو فوقك بمثله. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر» قيل: فما الكبر يا رسول الله؟ قال: «إن تسفه الحق وتغمص الناس» [٣] أي تحقرهم.

وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله عز وجل لى العظمة والكبرياء والفخر والقدر سرى فمن نازعنى في واحدة منهن كببته في النار». والإيمان هو خضوع العبد وإلقاؤه بيده له سلماً والكبر ضده، والغضب منه يبدو وينزع الشيطان بنفثه ونفخه حتى يتوقد ويهتاج فلذلك قال: يفسد الإيمان، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنىّ لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وذلك عندما رأى رجلاً يتمرغ أنفه من الغضب. وهو قوله تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [٤]

وإنما وضع هذا الميسم من النار في هذا الموضع من الآدمى لكى يغضب لله تعالى في المواضع التي ينبغى. فإن في الغضب قوة للآدمى على أمر الله تعالى وهو محتاج إلى أن يعادى أعدائه ويحاربهم، فبالغضب يتقوّى حتى يحاربهم ويغير المنكر ويقيم حقوق الله تعالى وحدوده، فللحق نفخة في تلك الجمرة، وللشيطان نفخة فث وقته فنفخة الشيطان لها

---

(٣) تغمص: يقال غمصه إذا استصغره، ولم يره شيئا. وقد وردت في الأصول (عمض) وهو تصحيف من الناسخ، والصحيح ما اوردناه.

(٤) فصلت (٤١/٣٦). راجع تفسير الشيخ الصابونى لهذه الآية (١٢٨٦/٢٤).

رجاسة (٥) تفسد الإيمان وطهارته وطيبه، وإذا كانت نفخة الحق فإنه يتقوّى ويحمر وجهه ويمتلىء من نور الحق ولا يفسد الإيمان، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب غضب لله تعالى، ولا يغضب لنفسه ولا لدنياه، وكان إذا غضب رؤى ذلك العرق بين عينيه يدرّ من الغضب ويظهر نتوؤه (٦) وانتفاخه وتحمر وجنتاه، وكان موسى عليه السلام إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً.

---

(٥) رجاسة: من الرجس.
(٦) فى نسخة أخرى (وانتفاضه) وهو تصحيف وتحريف معاً.

(الأصل الرابع فى آدب الانتعال بتقديم اليمنى على الشمال)

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمين فإذا نزع فليبدأ بالشمال وليكن اليمين أولهما يلبس وآخرهما ينزع» (١).

اليمين محبوب الله ومختاره من الأشياء، فأهل الجنة عن يمين العرش يوم القيامة، وأهل السعادة يعطون كتبهم بأيمانهم وكفة الحسنات من الميزان عن اليمين والكرام الكاتبون وكاتب الحسنات منهم عن اليمين.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوخى فى كل فعل من مثل هذا اليمين توخياً لمختار الله تعالى، وكان إذا شرب أعطى الأيمن فالأيمن جرعته حتى أنه شرب يوماً وأبو بكر رضى الله عنه عن يساره وغلام أعرابى عن يمينه فقال للغلام: «أتأذن لىّ» فأعطى الأشياخ، فقال: ما كنت لأوثر بفضلك على نفسى أحداً فأعطاه الغلام. وكان يبدأ باليمنى إذا دخل المسجد ثم إذا خرج أونزع نعله بدأ باليسرى كى يكون اليمين آخر العهد بمسجد الله تعالى؛ وبما هو خير للقدم ورفق له.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه- كتاب اللباس- باب ينزع نعله (٣١١/١٠) وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب اللباس باب استحباب لبس النعال. فى اليمين أولا والخلع من اليسرى (٧٤/١٤). والترمذى فى سننه كتاب اللباس باب بأى رجل يبدأ إذا انتعل (٢٤٤/٤، ٢٤٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأبو داود فى سننه كتاب اللباس. باب الانتعال (٤٢٤/٢). وأحمد فى المسند من حديث أبى هريرة (٢٣٣/٢، ٢٤٥، ٣٦٥).

وكان يستعمل تدبير الله تعالى ويفتقده في كل شيء حتى في ترجله وتنعله وطهوره. عن أنس رضي الله عنه قال: لما رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمرة ونحر نسكه ناول رأسه الحلاق فقال: «ابدأ بالشق الأيمن» فحلقه، فأعطاه أبا طلحة ثم ناوله الأيسر، فحلقه فقال: «أقسمه بين الناس».

وعن أبي عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب أحدكم فليشرب بيمينه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يمين الله ملأى سحاء لا يغيضها شيء بالليل ولا بالنهار».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال(٢): «إن الله تعالى خلق آدم فمسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرّية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهر بيساره فاستخرج منه دريّة فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله الخلق وقضى القضية فأخذ ميثاق النبيين(٣) وعرشه على الماء فأخذ أهل اليمين بيمينه وأخذ أهل الشمال بالأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين ثم قال يأصحاب اليمين قالوا: لبيك ربنا وسعديك قال: ألست بربكم قالوا: بلى ثم قال: يا أصحاب الشمال، قالوا: لبيك وسعديك و قال: ألست بربكم قالوا: بلى، فخلط بعضهم ببعض فقال

(٢) في نسخة [كان يقول].
(٣) قال شارح المطبوعة [وكان عرشه] وهو الأصح.

قائل منهم : رب لم خلطت بيننا فقال لهم : أعمال من دون ذلك هم لها عاملون فقال قائل : فما الأعمال قال : يعمل كل قوم لمنزلتهم » فقال عمر رضى الله عنه إذاً نجتهد .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأعمال أهى مؤتنف (٤) أم قد فرغ منها قال : « بل فرغ منها » .

عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله تعالى آدم ضرب بيده على شق آدم الأيمن فأخرج ذرواً كالذر ثم قال : يا آدم هؤلاء ذرّيتك من أهل الجنة ثم ضرب بيده على شق آدم الأيسر فأخرج ذرواً كالحمم ، ثم قال : هؤلاء ذريتك من أهل النار » (٥) .

وقال تعالى فى تنزيله :

﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ (٦)

وجاء فى الخبر: أن الجنة يؤتى بها فتوضع عن يمين العرش يوم القيامة ، والنار عن يسار العرش ، ويؤتى بالميزان فينصب بين يدى الله وكفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة ، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار. وقال تعالى :

---

(٤) مؤتنف: مستأنف ، أى مبتدأ .

(٥) قال الإمام الطبرى فى جامع بيانه: «مسح الله ظهر آدم؛ فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة» أ . هـ. وعزى ذلك لابن عباس.

(٦) الزمر (٣٩/٦٧) . يجب أن يفهم لفظة (يمينه) هنا أن ذلك ليس معناه الجهة أو التكييف لأن الحق سبحانه وتعالى منزه عن الجسمية وعن المكانية ، لأنه ليس كمثله شيء. راجع المعنى فى كشاف الزمخشرى (٤/١١٠) .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ (٧)

حدث جعفر بن كثير من آل على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — وهو يومئذ ابن ثمانين سنة قال: حدثنى أبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الفريضة تياسر؛ فصلى ما بدا له، وأمر أصحابه أن يتياسروا ولا يتيامنوا.

وعن ضبيعة بنت المقداد بن معدى كرب عن أبيها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى إلى عمود أو خشبة أو شبه ذلك لم يجعله نصب عينيه ولكن يجعله على حاجبه الأيسر، قال: كأنه يدل بهذين الفعلين من هذين الحديثين، على أنه يتوخى اليمين فإن العبد إذا قام فإنما هو قبالة الله عز وجل. بذلك جاءت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واليمين دل أسمه على معناه فالأمن والإيمان واليمين كله موجود فى هذا الاسم.

ووجه آخر أنه كان يتياسر بصلاة التطوع عن موضعه الذى أدى فيه الفريضة كأنه لا يحب أن يقدم على الفريضة شيئاً (٨) ومما يحقق ذلك ما روى عن أبى صالح الحنفى قال: كان على كرم الله وجهه يسلم تسليمتى الصلاة أحداهما أخفض من الأخرى. قيل لأبى صالح أيهما أخفض من الأخرى؟ قال: اليسرى؛ وإنما توخى فى ذلك أن يكون فرقاً بين التسليمتين بالخفض ورفع الصوت ليؤدى حق كاتب الحسنات برفع الصوت، وكذلك حق من عن يمينه ليؤديه برفع ذلك الصوت، وبخفضه عن اليسرى ليتبين فضل اليمنى عن اليسرى.

---

(٧) الواقعة (٥٦/٢٧) و (٥٦/٤١).

(٨) وردت فى المطبوعة (شيأ) وهو خطأ تحريف.

(الأصل الخامس فى النهى عن القزع)(1)

عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: نهى رسول الله عليه السلام عن القزع(2) والقزع أن يحلق وسط رأس الصبى ويترك ما حوله(3) وكان هذا فعل القسيسين وهم ضرب من النصارى وفى القرآن:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ (4)

والقسيس فى النصارى كالصديق فى الإسلام وهو من قس أى قص أثر الرسول الذى دعاه على لسانه، قال سلمان رضى الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم «ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا فأقرأنى ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا». وأما حلق أوساط الرءوس فذلك علامة لضرب منهم أحدثوه فيما بينهم، ولما بعث أبو بكر الصديق رضى الله عنه الجنود إلى الشام قال: إنكم ستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم لله تعالى، وستجدون آخرين اتخذ الشيطان فى أوساط رؤسهم أفجاصا فإذا وجدتم أولئك فاضربوا أعناقهم.

---

(1) على [فى نسخة أخرى].

(2) أخرجه البخارى فى صحيحه- كتاب اللباس- باب القزع (٣٦٤/١٠)، وأخرجه مسلم فى صحيحه- كتاب اللباس- باب كراهة القزع (١٠٠/١٤)، وابن ماجه فى سننه- كتاب اللباس- باب النهى عن القزع (١٢٠١/٢)، وأبو داود فى سننه- كتاب الترجل- باب فى الزؤابة (٨٣/٤)، والنسائى فى سننه- كتاب الزينة- باب ذكر النهى عن أن يحلق بعض شعر الصبى ويترك بعضه (١٨٢/٨، ١٨٣)، وأحمد فى المسند (٤/٢، ٣٩، ٤٥، ٦٧).

(3) راجع معنى القزع فى مختار الصحاح ص ٥٣٤.

(4) المائدة (٨٢/٥).

فالذين تركوا الدنيا، وحبسوا أنفسهم فى الصوامع واعتزلوا. أمر بترك التعرض لهم ولم يطالبوا بجزية لأنهم تركوا فتركوا لأنهم كانوا صادقين فى سبيلهم وإن كانوا على ضلالة، والذين خرجوا من الصوامع فلم يصبروا على العزلة وفحصوا عن أواسط رؤسهم، فقد أخبر أبو بكر رضى الله عنه أن الشيطان دلهم على ذلك، علامة لأنفسهم، وتشهيراً وإظهاراً لما هم عليه كأنه يدل على أن ذلك الصنف منهم بمنزلة من تزهد فى هذا العصر، وهو غير صادق فى ذلك. يريد تأكل الدنيا، وقصد بلبس الصوف والخلقان[5] وحف الشارب، وتشمير الثياب، والعمة المطوقة تحت الحنك والاستقصاء[6] فى الكحل إلى اللحاظ المراياة، فهذه علامات الطبقة الكاذبة المتزهدة المتأكلة حطام الدنيا بما أظهروا من زيهم وشكلهم وتماوتهم، وخشوع نفاقهم فكذلك كان أولئك غير صادقين فى عزلتهم فى الصوامع، فلم يصبروا عليها فخرجوا وقد حلقوا أوساط رؤسهم ترائياً وتشهيراً لأمرهم، فأمر أبو بكر رضى الله عنه بضرب أعناقهم؛ لأنهم مع كفرهم لغير الله عملوا فى دينهم، والذين تركوا وحبسوا أنفسهم تركوا وما حبسوا لأنفسهم؛ لأنهم صادقون فى سبيلهم، قال الله تعالى:

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ [7]

ثم ذمهم فقال:

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [7]

فإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن الصبى أن يحلق وسط رأسه للتشبه بهؤلاء الذين وصفناهم.

---

(٥) الخلقان: الثياب البالية.

(٦) أى الإغراق فيه.

(٧) الحديد (٢٧/٥٧) الرهبانية: اسم مبنى من الرهبنة، وهى ما فضل عن المقدار وأفرط فيه، انظر اللسان لابن منظور (٤٢١/١) والبحر المحيط لأبى حيان (٢٢٨/٨) وقد ابتدعوا بهذه الرهبنة ما لم يشرعه الله سبحانه وتعالى.
راجع معنى هذا فى مختصر ابن كثير (٤٥٦/٣).

وأما قصة هؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل:

﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ (٨)

قال: كانت ملوك بعد عيسى بن مريم عليه السلام بدّلوا التوراة والإنجيل فقال ناس لملوكهم ما نجد شتماً أشد مما يشتموننا به أنهم يقرؤن:

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (٩)

ومن لم يحكم بما أنزل الله

﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ (١٠)

﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ (١١)

مع ما يعيبوننا به من أعمالنا فى قرائتهم فادعهم ليقرؤا ما تقرؤا وليؤمنوا بما آمنا به فدعاهم، فجمعهم، فعرض عليهم القتل وأن يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدّلوا منها فقالوا: وما تصنعون بقتلنا دعونا وابنوا لنا أساطينا ادفعونا فيها واتركوا لنا شيئاً يدلى فيه طعامنا، ولا نؤذيكم. وقالت طائفة أخرى منهم: دعونا نهيم فى الأرض، ونسيح ونأكل مما تأكل منه الوحش، ونشرب مما تشرب منه الوحش، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا. وقالت طائفة أخرى منهم: ابنوا لنا ديوراً (١٢) فى الفيافى فنحتفر الآبار ونحترث البقول (١٣) ولا نؤذيكم ولا نمر بكم. وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك فيهم، وقال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك نتعبد كما تعبد فلان ونتخذ ديوراً كما اتخذ فلان

(٨) الحديد (٢٧/٥٧).
(٩) المائدة (٤٤/٥).
(١٠) المائدة (٤٥/٥).
(١١) المائدة (٤٧/٥).
(١٢) ديورا: دياراً.
(١٣) نحترث: نحرث.

ونسيح كما ساع فلان وهم فى شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، وقد فنى من فنى منهم فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبق منهم إلا قليل انحط صاحب الصومعة من صومعته ، وصاحب الدير من ديره ، وصاحب السياحة من سياحته ، فآمنوا به وصدقوه قال الله تعالى :

﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ (١٤)

وقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ (١٥)

أى أجرين بإيمانهم بعيسى عليه السلام وبالتوراة والانجيل وإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ويجعل لكم نوراً تمشون به وقال :

﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ (١٦)

قال أبو عبد الله فعلى هذا المثال عاملت متزهدة زماننا سمعت أنه مضى فى السلف الصالح من الصحابة والتابعين قوم اجتزوا(١٧) بالدون من الحال فلبسوا الصوف ، والخلقان وأكلوا النخالة وامتنعوا من الشهوات ، وشمروا الثياب وامتنعوا من المخالطة ، صدقاً وتورعاً واحتياطاً لدينهم ، كل ذلك خوفاً من الله تعالى أن يقدموا عليه متدنسين بحطام الدنيا ، مفتونين فيها وإنما فعل القول ذلك لضعف يقينهم بمنزلة من أمتنع من دخلو البحر

(١٤) الحديد (٥٧/٢٧).
(١٥) الحديد (٥٧/٢٨).
(١٦) الحديد (٥٧/٢٩).
(١٧) لعله يقصد اجتزأوا بالدون: قنعوا باليسير.

سباحة مخافة الغرق لعجزه عن السباحة فلم يكتب الله تعالى هذا عليهم بل أحل لهم الطيبات والزينة ووسع عليهم فابتدعوا تركها رهبة من الله تعالى وكانوا فيها صادقين فلم يعابوا ولم يذموا لأنهم رعوا ما ابتدعوا حتى خرجوا من الدنيا مع صدق ما ابتدعوا ابتغاء رضوان الله تعالى، فخلف من بعدهم خلف اتبعوهم فيما ابتدعوه وهم غير صادقين فيها؛ فأقبلوا على لبس الصوف والخلقان وأكل النخالة والخبز المتكرج؛ يريدون بذلك إظهار الزهد وقلوبهم مشحونة بشهوات الدنيا تأكل دنياهم بدينهم فما رعوها حق رعايتها كما فعل أصحاب الصوامع والديور واتبعوا القوم فى فعلهم، وأسّ أمرهم على ضلالة. عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عبد الله بن مسعود، قلت: لبيك يا رسول الله ثلاث مرات، قال: هل تدرى أىّ عرى الإيمان أوثق؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنّ أوثق عرى الإيمان الولاية فى الله، والحب فيه، والبغض فيه، يا عبد الله بن مسعود، قلت: لبيك يا رسول الله ثلاث مرات، قال: هل تدرى أىّ الناس أفضل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا فقهوا فى دينهم. يا عبد الله بن مسعود، قلت: لبيك يا رسول الله ثلاث مرات، قال: هل تدرى أىّ الناس أعلم؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصراً فى العمل وإن كان يزحف على أسته».

واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة، نجا منها ثلاث، وهلك سائرها. فرقة آذت الملوك وقاتلتهم على دين الله، ودين عيسى بن مريم؛ حتى قتلوا، وفرقة منهم لم يكن لهم بموازاة الملوك طاقة فأقاموا بين ظهرانى قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم، وقطعتهم بالمناشير، وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا أن

يقيموا بين ظهرانى قومهم، يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم عليه السلام فساحوا فى الجبال وتزهدوا فيها فهم الذين قال الله تعالى:

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾(١٨)

فالمؤمنون الذين آمنوا بى وصدقونى، والفاسقون الذين كذبونى وجحدونى فكأنه صلى الله عليه وسلم يخبر فى هذا الحديث أن الذين ساحوا وترهبوا هم الفرقة الثالثة التى قد نجت وأن الذين أخبر أنهم ما رعوها حق رعايتها قوم جاءوا من بعدهم يقتدون بهم فى ذلك وليسوا على صدق من أمرهم أخذوا بظاهر أمرهم، وفعلهم فساحوا ولزموا الديور والصوامع وتركوا سبيل أصحابهم الذين مضوا على ذلك.

---

(١٨) الحديد (٥٧/٢٧).

[الأصل السادس فى حسن حال المؤمن المحتضر]

عن عبد الرحمن بن سمرة قال سمعت معاذ بن جبل رضوان الله عليهم أجمعين قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من نفس تموت تشهد أن لا إله إلا الله وأنى محمد رسول الله يرجع ذلك إلى قلب موقن إلا غفر الله له» (١).

قال أبو عبد الله هذه شهادة شهدها عند الموت وقد ماتت منه الشهوات، وذهلت نفسه الأمارة لما حل به من هول الموت وذهب حرصه ورغبته وسكنت منه أخلاق السوء وذل وانقاد وألقى بيده سلما لرب العالمين ألقاء العبيد فاستوى الظاهر منه بالباطن؛ فلقى الله عبدا مخلصا فغفر الله له بتلك الشهادة الصادقة التى وافق ظاهره باطنه (٢) فأما الذى يقوله أيام صحته فقوله مع التخليط لأنه يشهد بهذه الشهادة وقلبه مشحون بالشهوات والأمانى ونفسه شرهة بطرة ميتة على الدنيا عشقاً وحرصاً وولوعاً وعلى الأركان من الأفعال علامة ما فى باطنه فلا يستوجب بذلك القول المغفرة، ولهذا ما روى فى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يقولها عبد عند الموت إلا هدمت ذنوبه قيل فكيف يا رسول الله لمن قالها فى الصحة «قال هى أهدّ

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الإيمان- باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٣/٥) وقال: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه. وأخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الادب باب فضل لا إله إلا الله (١٢٤٧/٢) وأحمد فى المسند (٢٢٩/٥).

(٢) تأمل هنا موافقة الظاهر الباطن، وهذه نقطة جديرة بالاعتبار، لأن كثيرا من الفساد جاء من عدم توافقهما، وليس هنا موضع البسط فى هذا.

وأهدم» وأنما هدمت ذنوبه لأنه قالها وقد ماتت منه شهواته وندم على ما فرط منه ندما صحيحا فهو تائب صادق والتائب الصادق على موعد الله تعالى فى تنزيله.

أن ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٣) ويكفر عنه ويدخله الجنة قيل فكيف من(٤) قالها فى الصحة فإنما يقولها فى الصحة على تلك الصفة التى هى عند موته بعد رياضة نفسه وموت شهواته، وحرصه، ورغبته، وبعد زهادته فيها وصفائه عن التخليط فهى أهدّ وأهدم، فأما المخلط عبد نهمائه وشهواته عبد دنياه، عبد درهمه وديناره فلا نعلم أن قوله هذا يهدم ذنوبه حتى يصير مغفورا له بهذه الكلمة لأنه لا ترجع هذه الكلمة منه إلى قلب موقن كما اشترط الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه، بل ترجع هذه الكلمة منه إلى قلب مفتون بدنياه، مأسور بشهوات نفسه سكران عن الآخرة، حيران عن الله تعالى، فقالبه ميال إلى الهوى، والقلب الموقن الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القلب الذى استقر لربه، واطمأن بحكمه، وقنع بقسمه، وانقاد لأمره، وشخصت عيناه إلى رحمته قد أيس من كل شىء إلا من رحمته فهو الذى إذا قالها هدمت ذنوبه لأنه صادق فى قوله، وإنما سمى اليقين يقينا لاستقراره فى القلب وهو النور، يقال فى اللغة يقن الماء فى الحفرة أى استقر، فإذا استقر النور دام وإذا دام صار النفس ذات بصيرة فاطمأنت فتخلص القلب من اشتغاله ودوائره وإنما استقر اليقين فى القلب لأن العبد جاهد نفسه فى الله حق جهاده على الصدق واليقظة من خدعها والتحرز من آفاتها حتى بلغ بها غاية الرياضة، وانقطع عاجزا فاستغاث بالله تعالى صارخا مضطرا فأجابه فإنه يجيب المضطر، ويكشف السوء ويجعله من خلفاء الأرض، كذلك وعد فى تنزيله، فقذف النور فى قلبه، ففلق تلك الظلمات التى ركدت فى

(٣) الشورى (٤٢/٢٥). راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (٢٧/١٦٩).

(٤) وردت (بمن) فى نسخة أخرى.

صدره على قلبه فانكشف الغطاء وصار أمر الملكوت له معاينة بقلبه وهو قول حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عبد نور الله عز وجل الإيمان فى قلبه».

وهذه كلمة جارية فيما جاء فى الخبر من دعوة إدريس عليه السلام وأن موسى عليه السلام علم ذلك فى زمانه وأن نبينا صلى الله عليه وسلم أعطى ذلك فى زمانه فكان يدعو بهن وهى قوله «يا نور كل شىء وهداه أنت الذى فلق الظلمات نوره»(٥).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير مخلصا بها روحه مصدقا بها لسانه، وقلبه، فتقت له السماء فتقا حتى ينظر الرب إلى قائلها من أهل الدنيا وحق لعبد إذا نظر الله إليه أن يعطيه سؤله»(٦) فالروح يخلص من شهوات النفس وأسرها وكذلك القلب فإذا نطق اللسان بالكلمة لم تنازعه النفس ولا القلب ولا الروح، فكان ذلك صدقا فقبل منه.

عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة قيل يا رسول الله وما إخلاصها؟ قال: أن يحجزه عن المحارم»(٧). ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ يا معاذ «أخلص يكفيك القليل من العمل».

وعن زيد بن أرقم أيضا رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عهد إلى أن لا يأتينى أحد من أمتى بلا إله

---

(٥) حديث صحيح.

(٦) لابد أن يواطىء القلب فيها اللسان، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام (مخلصا بها روحه) فإن شرط الإخلاص مواطأة القلب اللسان، والعمل بمقتضاها.

(٧) ومتى منعت الإنسان عن محارم الله، فإن هذا دليل على استقامته، واستوائه على الصراط المستقيم، وهذا هو مطلوب الشرع ومقصود الدين أن يكف المكلف عن المحرمات، ويستقيم على منهاج الواضحة.

إلا الله لا يخلط (٨) بها شيئا إلا وجبت له الجنة، قالوا: يا رسول الله، وما الذى يخلط بها؟ قال حرصاً على الدنيا، وجمعا لها، ومنعا لها، يقول بقول الأنبياء ويعمل عمل الجبابرة».

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكر عن ربه عز وجل «إن المؤمن منى بعرض كل خير انى أنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمدنى» (٩) والعبد إنما يحمد الله وهو يقبض أعز شيء عليه بموت شهواته ولهذا إذا رد إلى أرذل العمر وتبرم بالحياة وإذا انقطعت علايقه من الدنيا وتخلص القلب من آفات النفس فنطق بالكلمة العظيمة استنار بها قلبه، واطمأنت بها نفسه، وأخلص بها روحه، فاستوجب المغفرة، ولهذا كان السلف (رحمهم الله) يستحبون أن يلقنوا المحتضر هذه الكلمة، ويتعاهدونه بها، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله» (١٠) فهذا عبد ركبته أهوال الآخرة فريضت نفسه بها عند الموت فنطق بها فغفر له، ومن راض نفسه أيام حيوته فتح له إلى الغيب، فركبته أهوال سلطان الله الكريم، وعظيم جلاله فنطق بها عن مثل ذلك القلب فهو للمغفرة أقمن وأخلق (١١).

---

(٨) يقصد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا يخلط بها شيئا) ــ أن تكون غير مشوبة بما يتعارض مع لبابها من بدع وشركيات وأعمال مذمومة، واقتراف الكبائر، أعاذنا الله منها.

(٩) حديث قدسى عن رب العزة..

(١٠) رواه أحمد فى مسنده، والأربعة عن أبى سعيد، ومسلم وابن ماجة عن أبى هريرة، والنسائى عن عائشة، وصححه السيوطى فى الجامع الصغير (١٢٥/٢).

(١١) أقمن: أحرى، وأوجب.

[الأصل السابع فى ترجيح الرجاء على القنوط]

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الفاجر الراجى لرحمة الله تعالى أقرب منها من العابد»(١).

المقنط لجهله بالله بعد من رحمه الله وإنما رجاء العبد بالله على قدر معرفته بالله وعلمه بجوده وكرمه، والقنوط من الجهل ألا يرى إلى قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (٢)

والمقنط إنما يقنط غيره لقنوطه فهو ضال عن ربه وما تغنى العبادة مع الضلاله، وقال تعالى:

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (٣)

واليأس من روح الله فى الدنيا عند النوائب، والكربات من سوء الظن بالله تعالى، ومن ساء ظنه بالله انقطع عن الله تعالى، وتعلق بخلقه، واستعاذ بالحيل، ولا يلجأ إلى ربه، وكذلك القانط من رحمته قلبه متعلق بالجهد من الأعمال، طالبا للنجاة بها، وإذا فكر فى ذنوبه ألقى بيديه نفسه إلى التهلكة، ورفض العمل، وروى عن الحسن البصرى رحمه الله

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٢/٨٠) وقال: أخرجه الحكيم والشيرازى فى الألقاب عن ابن مسعود. وقال المناوى فى فيض القدير (٤/٤٦٠، ٤٦١) أخرجه الحكيم فى النوادر والشيرازى فى كتاب الألقاب.

(٢) الحجر (١٥/٥٦) قال البيضاوى ــ رحمه الله ــ: «وكان تعجب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشرا من غير أبوين، فكان ذلك جوابا لمن سألوا: كيف لشيخ فان عجوز أن ينجب؟!» راجع تفسير البيضاوى ص٢٨٦ بتصرف.

(٣) يوسف (١٢/٨٧).

أنه سئل عن القنوط، فقال: ترك فرائض الله فى السر، معناه إذا تراكمت عليه الذنوب أيس(٤) من نفسه فرفض الكل(٥).

وقال قد استوجبت النار، وقد كان وقع عندى بعض من رزقه الله الإنابة فجعل يصوم فقلت له ما هذا قال: صوم شهر رمضان قلت: أولم تكن تصومه؟ قال: لا قلت: لم؟ قال: كان أصحابى لا يصومونه، قلت: وهم فى الكورة معنا، قال: نعم، قلت: وما حملهم على ذلك؟ قال: كانوا يقولون: عملنا هذه الأعمال من سفك الدماء وأخذ الأموال، وسائر المعاصى، فما يغنى عنا الصوم، والصلاة، وكانوا لا يصومون رمضان، ولا يصلون المكتوبات إلا على أعين الناس، يقولون قد استوجبنا النار فقلت هؤلاء قوم أدركهم سخط الله فقنطوا من رحمته.

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال خرج علينا(٧) رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «خرج من عندى خليلى جبريل عليه السلام آنفا فقال لى يا محمد، والذى بعثك بالحق إن لله تعالى(٨) لعبدا من عباده عبد الله خمسمائة سنة على رأس جبل فى البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ذراعا والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ(٩) من كل ناحية، وأخرج الله تعالى له عينا عذبه بعرض الأصبع تبض بماء عذب، فيستنقع فى أسفل ذلك الجبل وشجرة رمانة تخرج كل ليلة رمانة فتغذيه يوما فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة وأكلها، ثم قام لصلاته فسأل ربه عز وجل عند وقت الأجل أن يقبضه ساجدا وأن لا يجعل للارض ولا لشىء يفسده عليه سبيلا حتى يبعثه

(٤) أيس: يئس.

(٥) الإنابة: التوبة، والرجوع إلى الله.

(٦) حملهم على ذلك: أكرههم وأرغمهم.

(٧) وردت (خرج إلينا) فى نسخة والأصح ما أوردنا.

(٨) وردت فى نسخة (عبد).

(٩) الفرسخ: واحد جمعه فراسخ، وهو فارسى معرب. راجع مختار الصحاح ص٤٩٧.

ساجدا ففعل ذلك فنحن نمر به إذا هبطنا وإذا عرجنا[١٠]. ونجد[١١] فى العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدى الله تعالى فيقول الرب عز وجل: أدخلوا عبدى الجنة برحمتى فيقول: بل بعملى يا رب فيقول: أدخلوا عبدى الجنة برحمتى فيقول: بل بعملى يا رب، فيقول: للملائكة قايسوا عمل عبدى بنعمى عليه وبعمله فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة وبقيت نعم الجسد فضلا عليه فيقول: أدخلوا عبدى النار، فينادى يا رب: برحمتك أدخلنى الجنة، فيقول: ردوه، فيوقف بين يديه، فيقول: يا عبدى، من خلقك ولم تك شيئا فيقول: أنت يا رب، فيقول: أفكان ذلك من قبلك أم برحمتى؟ فيقول: بل برحمتك، فيقول: من قوّاك لعبادتى خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: من أنزلك فى جبل وسط البحر وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح وأخرج لك كل ليلة رمانة وإنما تخرج الشجرة فى السنة مرة وسألتنى أن أقبضك ساجدا ففعلت ذلك بك، فيقول: أنت يا رب، فيقول: فذلك، رحمتى وبرحمتى أدخلك الجنة أدخلوا عبدى الجنة برحمتى فنعم العبد كنت يا عبدى، فأدخله الله الجنة. قال جبرائيل عليه السلام[١٢] إنما الأشياء برحمة الله تعالى يا محمد».

عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنه ليس أحد منكم ينجيه عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته»[١٣] وهذا الذى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ولا أنت كان أيضا فى عمى من هذا الأمر فإن الله

(١٠) عرجنا: ارتقينا.

(١١) وردت فى نسخة (فنجد له).

(١٢) فى نسخة (وإنما الأشياء برحمتى).

(١٣) وفى رواية: «إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».

منّ عليه بالنبوة وشرح الصدر وكل ذلك رحمة منه، قال الله تعالى:
﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (١٤).

(١٤) القصص (٨٦/٤٨). والمعنى إلا أن ربك رحمك فأنزله عليك. راجع صفوة التفاسير للصابونى (١٠٤٤/٢٠) وقد نقل هذا عن الفراء.

[الأصل الثامن فى بيان أن التعلق بالأسباب مع التوحيد لا يضر]

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان إذا أشفق من الحاجة أن ينساها جعل فى يده خيطا ليذكرهاأويذكره»[1].

الذكر والنسيان من الله تعالى إذا شاء ذكر، وإذا شاء أنسى، وربط الخيط سبب من الأسباب لأنه نصب العين، فإذا رآه ذكر ما نسى فهذا سبب موضوع دبره رب العالمين لعباده كسائر الأسباب تحرز الأشياء بالأبواب والأقفال، والحراس، ويستشفى من الأسقام بالأدوية وتقبض الأرزاق، والأقوات بالطلب، وكل أمر بحيلة وسبب والأرض تخرج نباتها بالماء، وهذا تدبيره فى عباده، والخيط والذكر والشفاء وإيصال الأرزاق، كل ذلك بيده يجريها على الأسباب. فأهل اليقين لا تضرهم[2] الأسباب وهم الأنبياء والأولياء عليهم السلام يمضون عليها فيحترزون ويتداوون ويحترفون ويحتالون لأنه تدبير الله تعالى، كذا دبّر لعباده أن يجرى أمورهم على الأسباب امتحانا منه لهم لينظر من يتعلق قلبه بالأسباب، فتصير فتنة عليه، ومن يتخلى عنها فيكون مع ولى

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٢/١٠٢)، والحارث بن أبى أسامة فى مسنده ص١٧ من زوائده، وأبو الحسن الأنبوسى فى الفوائد (٢/٢٦)، وابن عدى فى الكامل (١/١٧٢)، وابن سعد فى الطبقات (١/٢٨٦). وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب اكتساب العلم باب فيمن يربط الشىء يستذكر به (١/١٦٦).

(٢) لأن الأسباب مرهونة، ومقيدة بقدر الله سبحانه وتعالى، ومحال أن يقع حدث بغير أمره سبحانه وتعالى، كما أنه ــ جل شأنه ــ قد يوجد الأسباب، ولكن يشل فعاليتها، فلا تنفعل للحدث والفعل.

الأسباب وخالقها فيسلم من فتنة الأسباب، لأن الأسباب لا تملكه، فإنهم فى الجملة كلهم آمنوا، واعترفوا بأن الأشياء كلها من الله تعالى، ثم صاروا على ضربين. فضرب منهم توالت على قلوبهم الغفلات، وركدت اشغال الشهوات وظلمتها على قلوبهم فحجبتهم عن الانتباه، فصاروا كالنيام والسكارى عن رؤية هذا وذكره، فإذا ذكروا ذكروا فإذا نبهوا انتبهوا ثم عادوا إلى رقدتهم وغفلتهم فصار ذلك لهم كالخبر. والآخرون: هم أهل اليقين قد خرجوا بيقينهم من الغفلة، فالذكر على قلوبهم دائم والأمور لهم معاينة كيف يجريها، وكيف يدبرها فليس الخبر كالمعاينة فإن استعملوا الأسباب لم تضرهم، فكذلك هذا الخيط لما ربطه صار نصب عينه علامة إذا وقع بصره عليه ذكر ما نسى ثم لا يحجبه ذلك الخيط عن صنع الله تعالى، أنه هو الذى ذكره بهذا الخيط وحين ربطه لم يطمئن إلى الخيط ولم يركن ركون أهل الغفلة، بل ربطه ابتغاء موافقة تدبير الله تعالى الذى وضعه لعباده.

وكذلك تداويه من أسقامه وطلبه لمعاشه، وأخذه الجنة فى الحرب وحفره الخندق من أجل العدو. وظاهر يوم أحد بين درعين ولا يظن برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مال إلى الشىء من الأسباب غفلة مقدار طرفة عين.

[الأصل التاسع فى مرتبة روح المؤمن]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ رضى الله عنه»(١) وذكر يوما عنده أن العرش اهتز لحب الله لقاء سعد، فقال ابن عمر: أن العرش ليس يهتز لموت أحد، ولكن سريره الذى حمل عليه».

وأحسب أن ابن عمر قصد بما دفع من ذلك تعظيما للعرش فهاب هذه الكلمة إذ كان العرش أعلى شىء من خلقه وصفوته ومنظره الأعلى، وموضع تسبيحه ومظهر ملكه، ومبدأ وحيه، ومحل قربه، ولم ينسب شيئا من خلقه كنسبته فقال: ذو العرش، كما قال ذو الجلال، وذو العز، وذو الكبرياء، وذو القدرة، وذو العظمة، وذو البهاء، وذو الرحمة، وذو الملك، ولم يجز أن يقال ذو السموات، وذو الأرض، وذو الكرسى، وذو اللوح، فلم يعط كلمة ذو من خلقه إلا للعرش(٢) فقط للقرب وذو كلمة لحق واتصال وظهور ومبتدأ فكأن ابن عمر رضى الله عنه لحظ إلى هذه الناحية فدفع أن يكون يهتزّ لموت أحد وأما سائر العلماء فلا نعلمهم دفعوا هذا القول فإن للمؤمن عند الله تعالى مراتب

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه- كتاب مناقب الأنصار- باب مناقب سعد بن معاذ (١٢٢/٧، ١٢٣)، وأخرجه مسلم فى صحيحه- كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل سعد بن معاذ (٢٢/١٦)، والترمذى فى سننه- كتاب المناقب- باب مناقب سعد بن معاذ (١٨٩/٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائى فى سننه -كتاب الجنائز- باب ضمة القبر وضغطته (١٠٠/٤)، وابن ماجة فى سننه- فى المقدمة- باب فضل سعد بن معاذ (٥٦/١)، واحمد فى المسند (٢٤/٣، ٢٣٤/٣، ٣٥٢/٤).

(٢) هذه لمحة ذكية من الترمذى، وهى من اللطائف البارعة.

علية قد أتت بها الأنبياء من عند الله تعالى تنزيلا منها قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

وقوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (٤)

وقوله تعالى:

﴿ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (٥)

وقوله تعالى:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (٦)

وقوله تعالى:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (٧)

وقوله تعالى:

﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (٨)

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم «إن المؤمن أكرم على الله عز وجل من الملائكة المقربين» ومنها قوله صلى الله عليه وسلم «المؤمن أعظم حرمة عند الله من الكعبة» ومنها قول معاذ بن جبل رضى الله عنه «إن المتقين فى الجنة لا يستتر الرب منهم ولا يحتجب»(٩) ومنها ما جاء فى شأن الزيادة فى الأخبار، ووضع المنابر، والأسرة، والكراسى لهم على

---

(٣) آل عمران (٦٨/٣).

(٤) محمد (١١/٤٧). مولى: ولى. راجع المعنى فى جامع البيان للطبرى (٣٠/٢٦)، والقرطبى (٢٣٤/١٦)، والمولى هو المعين والناصر.

(٥) الحج (٧٨/٢٢). راجع تفسير القرطبى (٩٥/١٢).

(٦) الأحزاب (٤٧/٣٣).

(٧) يونس (٢٦/١٠). قيل الحسنى: الجنة، والزيادة: رؤية الله سبحانه وتعالى. انظر ما قاله الطبرى فى ذلك (٧٦/١١).

(٨) ق (٣٥/٥٠). راجع روح المعانى للألوسى (١٩٠/٢٦) وفيه أن المزيد مقصود به رؤية الله تعالى يوم القيامة للمؤمنين.

(٩) والأحاديث فى رؤية الحق تبارك وتعالى للمؤمنين فى الجنة كلها أحاديث متواترة، وهذه هى عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد أخطأ المعتزلة خطأ جسيماً عندما نفوا الرؤية تماماً..

مراتبهم فى مجلس الجبار جل جلاله فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يبقى أحد يومئذ فى ذلك المجلس إلا حاضره الله تعالى محاضرة حتى أنه ليقول يا فلان، أتذكر غدرتك يوم كذا فيقول: أولم تغفرها لى فيقول بلى».

عن أبى هريرة وأبى الدرداء رضى الله عنها قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن فى بيوت المؤمنين لمصابيح إلى العرش يعرفها مقربوا الملائكة من السموات السبع يقولون هذا النور من بيوتات المؤمنين التى يتلى فيها القرآن» وأعظم نور يكون هناك فى نور العرش، مستبينا حتى يعرفه مقربوا الملائكة، واعتبر فى الدنيا بنور الشمس أى نور يستبين فى جنبه فكيف بالنور الذى يستبين فى نور العرش هناك.

عن النعمان بن بشير، رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ما تذكرون من جلال الله تعالى تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله يتعاطفن: «حول العرش لهن دوىّ النحل يذكرن لصاحبهن أفلا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الرحمن جل جلاله شىء يذكر به» (١٠).

وقد جاءت أحاديث فى وفاة سعد بن معاذ رضى الله عنه تكشف عن التأويل، عن جابر رضى الله عنه قال: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ».

وعن أنس رضى الله عنه قال: «افتخر الحيان من الأنصار: الأوس والخزرج، فقالت الأوس منا غسيل الملائكة حنظلة ابن الراهب، ومنا من اهتز لموته عرش الرحمن سعد بن معاذ، ومنا من حمته الدبر عاصم بن ثابت بن الأفلح، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت».

فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه أحد غيرهم: زيد

(١٠) يذكره به (ورودت فى نسخة أخرى).

ابن ثابت وأبو زيد، وأبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل رضوان الله عليهم أجمعين.

وعن الحسن البصرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد اهتز عرش الرحمن لوفاة سعد بن معاذ فرحا به فرحا به فرحا به» وإذا كان العبد يفرح خالق العرش بلقائه ففرح العرش يدق.

[الأصل العاشر فى أن الحرص والإعتراض والعجلة شؤم]

عن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله أمّ اسماعيل لو تركت زمزم، أوقال: لو لم تغترف الماء لكانت زمزم عينا معينا»(1).

نبأ أن الحرص داخل بالفساد على الأشياء لأن الحرص من النهمة، والآدمى خلق محتاجا عجولا فهو ينتظر الأسباب، ويحرص عليها، وإن كان معترفا على حد الإيمان بالله تعالى أنه مسبب الأسباب وهذا لأهل اليقين، أما أهل الغفلة فهم مفتونون، مشغولون بالأسباب عن خالق الأسباب(2) وأمّ اسماعيل أدركتها الضرورة مع كربة الغربة فأخذت تعدو فى طلب الماء هكذا وهكذا وتستغيث، فلما جاءها الغياث أدركتها العجلة فاغترفت وأحرزته فى وعائها فانقطع المدد فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها لو اطمأنت فى ذلك الوقت إلى ما أجرى لها ذلك لجرت، وبقيت جارية لكنها شغلت بالموجود عن الذى أوجده وحملتها النفس على الأحراز لتطمئن به وهو قول سلمان رضى الله عنه حيث رؤى يحمل جرابا فقيل له ما هذا يا أبا عبد الله؟ قال: إن النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت فهذا عمل النفس وليس عمل القلب، لأن القلب

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب المساقاة- باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق منه (43/5)، والبيهقى فى السنن -كتاب الحج- باب بدء السعى بين الصفا والمروة (98/5، 99)، وأحمد فى المسند (347/1، 360، 121/5).

(2) وهذه هى محنة كثير من الناس الذين يفتنون فى الأسباب وينسون خالق الأسباب، وهذا معزو للغفلة وقصور الإدراك نسأل الله اللطف والسلامة.

موقن أن الرزق هو الذى يوصله الله تعالى إليه فى وقته والنفس فى عماها وظلمتها تزعم أن الرزق هو الذى توعيه فى جرابها، فصاحبه فى بلاء من وسوسته وتقاضيه، فإذا أراد صاحبه أن يتخلص من وسوسته أسعفها بذلك كما فعل سلمان رضى الله عنه فيطمئن إلى ذلك، وقد يهيىء الله تعالى له الرزق المكتوب من غير ذلك الذى هيأه فى جرابه والذى أوعاه يسلط عليه غيره فيصير رزق غيره حتى يتبين كذبها وجهلها فمن أحرز ذلك فلطمأنينة نفسه، والخلاص من وسواسها، وهذا فعل يدخل فيه نقص على أهل التوكل والأنبياء والأولياء عليهم السلام، والعارفون فى خلو من هذا. لأن الشهوات منهم قد ماتت والنفس قد أطمأنت بخالقها، والقلوب منهم قد حييت بالله تعالى، والصدور منهم قد أشرقت بنور الله تعالى، والأركان منهم قد خشعت لله تعالى، فسواء عليهم أحرزوا، أولم يحرزوا فإن أحرزوا فليس ذلك منهم إحراز إنما هو شىء قد ائتمنوا عليه، فأخذوه من الله تعالى بأمانة وقفوها على نوائب الحق سبحانه وتعالى، قد امتلأت قلوبهم من عظمة الله تعالى، فلم يبق للدنيا بما فيها موضع إبرة توجد حلاوتها ولذتها وشهوتها هنالك فقد ارتفعت فكر شأن الأرزاق، والمعاش عن قلوبهم، وتعلقت نفوسهم بقلوبهم، وتعلقت قلوبهم بخالق الأرزاق، وعالم التدبير، فقالوا حسبنا الله فخرجت هذه الكلمة منهم من قلب حبى بالله تعالى على سكون من النفس، فلم يبق فى صدورهم اختلاج ولا تنازع ولا ريب فاستقرت الأركان، فمتى ما وقع بأيديهم شىء من الدنيا لم يحسبوها لأنفسهم وعدوها أمانة قد ائتمنهم الله عليها، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنما أنا خازن أقسم والله يعطى فأنا أبو القاسم أقسم والله يعطى».

عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدخر شيئا لغد».

وعن أنس رضى الله عنه قال: كنت خادم رسول الله صلى الله

عليه وسلم عشر سنين فأهدى له طيران فتعشى بأحدهما، وخبأت له أم أيمن الآخر. فلما أصبح قال: يا أم أيمن، هل عندك من غداء؟ قالت: أحد الطيرين، قال: يا أم أيمن: أما علمت أن أخي عيسى عليه السلام كان لا يخبأ عشاء لغداء ولا غداء لعشاء، يأكل من ورق الشجر، ويشرب من ماء المطر، يلبس المسوح، ويبيت حيث يمسي، ويقول: يأتي كل يوم برزقه [٣]، قالت: يا رسول الله لا أخبأ لك شيئا بعدها.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أطعمنا يا بلال، قال ما عندي إلا صبر من تمر خبأته لك، فقال: أما تخشى أن يخسف الله به نار جهنم أنفق يا بلال، ولا تخشى من ذي العرش إقلالا»، وخبأت أم سلمة قدرة من لحم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضعته في كوة. فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم قربته إليه فإذا هي قطعة كدانة أوحجر فلما رآه قال: هل سأل بالباب سائل قالت: نعم قال: فمن أجل ذلك أوكما قال.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو توكلتم على الله عز وجل حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا، وتروح بطانا». قال في تنزيله:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا ﴾ [٤]

ثم قال: وإياكم أخبر أن المتوكل يرزق كما يرزق الطير.

قال له قائل: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخل قوت سنة لعياله وقد تواترت الأخبار بذلك من فعله. أجاب وقال: ليس الإدخال من الادخار في شيء، إنما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مال

---

(٣) هذا هو عين التوكل على الله، والثقة فيه، واليقين به.

(٤) العنكبوت (٢٩/٦٠). كأين من دابة: أي كم من دابة. والمراد من الآية تقوية قلوب المؤمنين، ليطمئنوا إلى أن رزقهم محفوظ غير منقوص عند ربهم. راجع المعنى في التسهيل لعلوم التنزيل (٣/١١٩).

خيبر مما أفاء الله عليه فأدخل لعياله من الخمس قوتهم، وكذلك من فيء قريظة، والنضير، وتلك أمانة إيتمنه الله عليها، وسلطه على ذلك وصرفها فى نوائب الحق والقلب منه خال ملك من الملوك غنى بالله حر من الأحرار فماذا ضره، وهل كان سبيل ذلك المال الذى أوتى إلا هكذا إن يصرفه فى نوائب الحق، فصرفه فى الكراع والسلاح وفى ذوى الحاجات من الأباعد فما باله يحرم عياله فلم يجئك فى الخبر أنه أدخل قوت سنة لنفسه إنما ذلك لعياله وعياله كسائر الناس، ولا يحمل عياله ما لا يطيقونه وإنما يطيق هذا الأنبياء، والأولياء وأهل اليقين الذين بهم تقوم الأرض قد طهرت قلوبهم وتنزهت نفوسهم من تهمة الله تعالى ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له ذلك الرجل أوصنى بوصية قصيرة قال: «اذهب فلا تتهم الله فى نفسك» وقد كان يصرفها فى السلاح والكراع لحاجتهم فى ذلك الوقت إلى ذلك فكان يرفع مقدار قوت نسائه، ليعلم ما يبقى هنالك فيصرفه فى هذه الوجوه، وقد أمر الله تعالى بخزن الأموال وحفظها، فقال تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ (٥)

فإذا أحرزه فإنما يحرزه لما ينوب من حقوق الله تعالى، حتى يصرفه فيه فهو مأجور فيه وخازن من خزانه، ومن أحرزه ليتخذه عدة لنوائب نفسه، ودنياه وهو فى نقص وادبار(٦) وخذلان من الله تعالى ومسؤل غدا عن كل درهم، من أين ولم وفى أى. فأقسم لعياله كان مثل ما قسم لغيره فإنه إحدى نوائب الحق، ولأن نفوس أزواجه كانت لا تطمئن إلا على الاحراز، فلم يكلفهن ما ليس ذلك لهن مقام وإنما زجر بلالا فى حديثه لأنه قال خبأته لك وكذلك أم أيمن وأم سلمة فإنها قالت: خبأته لك. فأما عياله فقد كان يبعث إليهم بما بقى عندهم اياما فأما أم اسماعيل

(٥) النساء (٥/٤). السفيه: الجاهل، لأن السفه هو الجهل. والمرا من الآية الصبيان والصغار والنساء. وأرجو مراجعة تأويل ذلك فى الطبرى (٥٦٥/٧).

(٦) ادبار: أفول، وتولى.

فإن فعلها كان فى حال الضرورة فلما زالت الضرورة أخذتها عجلة النفس فجعلته فى الوعاء فامتنع ما ظهر فانقطع المدد، وإنما كان ذلك بدؤه من الكرم فلو تلقاه كرم الآدمية لكان شكرا والشاكر يستحق المزيد، ولكان يجرى، ولا ينقطع المدد، ولكنها تلقته بلؤم النفس فإن النفس لئيمة فتراجع الكرم، وأعرض موليا لما لم يجد له قابلا يحسن قبوله، وكانت تلك عين سوغ الله عز وجل لها مخرجها من الجنة إلى تلك البقعة من دار الدنيا، وبعث جبريل عليه السلام، فكانت منه هزمة بعقبه، فانبعث الماء فكان ذلك من كرم ربنا عاملها على بغيتها، فكان اللائق بهذا الفعل أن تأخذ منها حاجتها على تؤدة وأناة(٧) وسعة صدر وحياء وتكرم، وتعفف. وتذر ما بقى بين يدى من إجراء حتى تنظر ما يدبر فيه، فلما عجلت وأخذت تدبر لنفسها فعلت فعلا غير لائق بكرم ربنا عز اسمه، وجلت قدرته ورحمته.

ومثال ذلك فى الآدميين موجود فيما بينهم، فلو أن ملكا من ملوك الدنيا نظر إليك فى وقت حاجتك إلى شىء فجعلت تأكل لقمة وتضع لقمة تحت المائدة تخزنها لنفسك أليس هذا مما يضعك عنده(٨)، ولو نظر إليه وقت حاجتك إلى كسوة، ففتح عليك باب خزانته لتكتسى منها كسوتك فرفعت منها كسوتك ثم مددت يدك بالعجلة والحرص إلى أثواب لتخزنها فرفعت منها فى بيتك وعندك أليس ذلك مما يضعك عنده، وأريته من نفسك أنك اتهمته على نفسك فأنت إذا نطقت وقلت: أنت خير لى من نفسى ألم يكن يضع ذلك القول منك على الهذيان ويقول فى نفسه فإن كنت أنا خيرا لك من نفسك، فما الذى حملك على أن مددت يدك إلى ما لا تحتاج إليه من الفضول تريد أن تخزنه لنفسك دونى، فإذا كان هذا سميحا قبيحا عند ملوك الدنيا فكيف بمن يعامل رب العالمين بمثل هذا،

---

(٧) وردت بالأصول (وأناءة) وهو تحريف من الناسخ.

(٨) أى يقلل من قدرك.

فكلما اعطاك من الدنيا شيئا فتناولته على غير حد الأمانة فأنت فى هذا اللؤم (٩) من الفرق إلى القدم حتى تأخذه على سبيل أنه ماله أئتمنك عليه لتصرفه فى نوائب حقوقه، فأول حقوقه نفسك وعيالك، ثم أرحامك، وجيرتك، ثم نوائب الحق التى تنوبك وأحدا على أثر واحد، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سئل فقيل: يا رسول الله إنى أصبت ديناراً قال: أنفقه على نفسك، قال: أصبت آخر، فلم يزل يقول أصبت آخر، وهو يأمره بصرفه فى وجه حتى كان فى السابعة قال: أصبت آخر قال: أنفقه فى سبيل الله» وذلك أخسهن وأدناهن أجرا، فإذا تناولته على حرص وشره تناولته لغير الله فاحراز لؤم ودناءة وظلمة يعود على القلب، ودنس على الفؤاد، وسقم فى الإيمان، وسم فى الطاعات، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا سلمان، قل اللهم إنى أسألك صحة فى إيمان» فهل يأمره بسؤال الصحة فى الإيمان إلا من سقم لأنه رأى فى سلمان ما قال. إن النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت فمن كانت نفسه مطمئنة بالأحوال فهذا سبيله، ومن كانت نفسه مطمئنة بربه فلو أعطى الدنيا إليها كلها لم يلتفت إليها وكان عيناه إلى ربه وسكونه إليه. وكان فعل أبى بكر رضى الله عنه يدل على أنه ممن هو بهذا موصوف، وروى لنا أن أبا بكر رضى الله عنه تلا هذه الآية بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾(١٠)

فقال: ما أحسن هذا يا رسول الله، فقال: يا أبا بكر: «أما إن الملك سيقولها لك عند الموت» فهذه نفس رضيت عن الله تعالى بجميع ما دبر لها من المحبوب والمكروه لأنها لذت بجوار الله تعالى، وقربه، فلهت عن لذاتها الدنياوية فرضى الله عنها وبشرت عند الموت بذلك فأما قوله

(٩) فى نسخة أخرى (القرن).
(١٠) الفجر (٨٩/٢٧).

لكانت زمزم عينا معينا أى مرئيا ظاهرا تجرى، والمعين إن يعاين بالعيون معناه أنه لايركد، ولكن يجرى حتى يعاينوه فبقى عينا وليس بمعين لفعل أم اسماعيل عليه السلام.

[الأصل الحادى عشر فى حد التأديب فى المماليك]

عن ابن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تضربوا الرقيق فإنكم لا تدرون ما توافقون»(١).

قد ندب الله تعالى العباد إلى تأديب أهليهم فقال قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة، فوقايتك نفسك وأهلك أن تعظها وتزجرها عن عمل يوردها النار وتقيم أودهم بأنواع الأدب، فمن الأدب الوعيد، ومنه الضرب وحبس المنافع، ومنه الرفق والعطية، والنوال، فنفس تضرع وتخضع بالبر والعطية، ونفس تضرع وتخضع بالغلظة والشدة ولو استعملت معها الرفق والبر لأفسدتها، ونفس بالعكس من ذلك، وقد جعل الله تعالى الحدود(٢) أدبا لعباده ومزجرة للآخرين ومن دون الحدود التعزيز على قدر ما يأتون من المنكر، وقد جعل الله تعالى ممر الموحدين إلى الجنة على النار فقال تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (٣)

الآيتين، فأدب الأحرار إلى السلطان، وأدب العبيد والمماليك والأولاد إلى السادات والآباء.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لأن يؤدب

---

(١) أشار إليه السيوطى فى الجامع الصغير وإلى ضعفه (٢٠١/٢) وقال: أخرجه الطبرانى ووافقه المناوى فى فيض القدير (٤٠٩/٦)، وأخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد. كتاب العتق -باب فيمن ضرب مملوكه أومثل به (٢٣٨/٤، ٢٣٩).

(٢) أى تأديبا وزجراً.

(٣) مريم (٧١/١٩).

أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع».

وقال صلى الله عليه وسلم «ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن». وقال صلى الله عليه وسلم «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها» فأما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تضربوا الرقيق» فخليق أن يكون إنما نهى عن ضربهم على غضب المولى لنفسه فى نفع أوضر لا لله تعالى، وأما إذا ضربه تأديبا ليقومه لئلا يعصى الله تعالى فى أموره ولئلا يعصى المولى فى أموره اللازمة له فإن عصيانه، وتضيع أموره معصية لله تعالى فذلك مما يجب عليه، وهو داخل فى قوله تعالى:

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ (٤)

عن زيد بن أسلم رضى الله عنه قال قال رجل يا رسول الله: ما تقول فى ضرب المماليك، قال إن كان ذلك فى كتبه وألا أقيد منكم يوم القيامة. قيل يا رسول الله، ما تقول فى سبهم؟ قال مثل ذلك. قيل يا رسول الله فإنا نعاقب أولادنا ونسبهم قال: «إنهم ليسوا مثل أولادكم إنكم لا تتهمون على أولادكم» (٥).

عن عبيد الله بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه رضوان الله عليهم أجمعين قال: قال رجل يا رسول الله: كيف ترى فى رقيقنا أقوام مسلمون يصلون صلواتنا، ويصومون صيامنا نضربهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يوزن ذنبهم وعقوبتكم اياهم فإن كانت عقوبتكم أكثر من ذنبهم أخذوا منكم» قال أفرأيت سبنا أياهم. قال: «يوزن ذنبهم وأذاكم اياهم فإن كان أذاكم أكثر أعطوا منكم» قال الرجل ما أسمع عدوا أقرب إلى منهم، فتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا» فقال الرجل

---

(٤) التحريم (٦/٦٦). قوا أنفسكم النار: أى بطاعة الله ورسوله، وقوا أهليكم النار: بتعليمهم والأخذ بأيديهم ومعاونتهم على ذلك. راجع الطبرى (١٠٦/٢٨، ١٠٧).

(٥) فى نسخة أخرى (عن عبد الله).

أرأيت يا رسول الله ولدي أضربه قال: «إنك لا تتهم في ولدك لا تطيب نفسا تشبع وتجوع، وتكتسى وتعرى».

عن زياد[6] بن أبي زياد رضي الله عنه قال: جاء رجل فقال يا رسول الله أن لي مالا وإن لي خداما وإني أغضب فأعزم وأشتم وأضرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «توزن ذنوبه بعقوبتك فإن كانت سواء فلا لك[7] ولا عليك وإن كانت العقوبة أكثر فإنما هو شيء يؤخذ من حسناتك يوم القيامة». فقال الرجل: أوه أوه يؤخذ من حسناتي؟ قال فحسبت ماذا ألم تسمع إلى قول الله عز وجل:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [8]

فحديث ابن عمر رضي الله عنهما لا تضربوا الرقيق محمول على أنه لا يضربه للتشفي من غيظه فإنه لا يدري ما يوافق الضربة من أعضائه، فربما وقعت على عين ففقأها، وربما وقعت على عضو فكسره، وربما وقعت على صدر أو خاصرة فقتل. أما التأديب لله تعالى فهو تقويم للمملوك وهو مأجور عليه، وقد قال صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[9] ومن أدب لله تعالى فمات في ذلك الأدب لم يؤاخذ به إذا كان ذلك حدا معلوماً فضربه ولم يجاوز ولم يتعد فيه، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من لائمكم من رقيقكم فأطعموهم مما تطعمون وأكسوهم مما تكسون ومن لا فبيعوهم ولا تعذبوا خلق الله» فالضرب المحمود ما كان لله تعالى والضرب المحجور ما كان للنفس. والناس في هذا على طبقات: فمن كان قلبه لله تعالى أمكنه أن يؤدبه في أمر الدنيا والآخرة لله تعالى ومن لم يكن قلبه لله

---

(٦) في نسخة أخرى (عن زيد).

(٧) لأن يوم القيامة عدل مطلق، حيث توفى الحقوق للغرماء.

(٨) الأنبياء (٢١/٤٧).

(٩) رواه أحمد في مسنده، والشيخان، وأبو داود والترمذي، عن ابن عمر رضي الله عنه، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٢/٩٥).

تعالى وكان الغالب عليه هواه ونفسه لم يمكنه أن يضربه إلا فى أمر الدين فقط حتى يكون لله تعالى، وأما فى أمر الدنيا من ضر ونفع فلا قوام له فى تأديبه لأنه إنما يغضب لنفسه. ألا ترى أنه لما ارتفعت التهمة فى شأن الولد ذهب القصاص لأن ذلك لله تعالى وذهب نصيب النفس وكذلك اليتيم، عن بلال رضى الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله إن فى حجرى يتيما أفاضربه قال: «نعم مما تضرب منه ولدك».

[الأصل الثانى عشر فى تعجيل إعطاء أجرة الأجير]

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعط الأجير أجره من قبل أن يجف عرقه» (١) وذلك أن أجرته عمالة جسده

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن الله عز وجل أنه قال: «ثلاثة أنا خصمهم ومن كنت خصمه خصمته من باع حرا وأكل ثمنه وأظلم أجيراً أجره وظلم امرأة مهرها».

فهؤلاء كلهم أحرار وهى أثمان نفوسهم فخصمهم مالكهم فلذلك أمر بتعجيل أجره لأنه عجل منفعته ومن شأن الباعة إذا سلموا المبيع قبضوا الثمن عند التسليم فهذا أحق وأولى إذ كان ثمن مهجته لا ثمن سلعته.

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه كتاب الرهون باب أجر الأجراء (٨١٧/٢)، وأخرجه البيهقى فى السنن كتاب الاجارة باب اثم من منع الأجير أجره (١٢١/٦)، وأخرجه زنجوية فى كتاب الأموال (١٢١/١٣)، وأخرجه الضياء المقدس فى الأحاديث المختارة (٣٨/١).

[الأصل الثالث عشر في العين المؤمنة إذا رأت منكرا]

عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا ينبغي لعين مؤمنة ترى أن يعصى الله تعالى فلا تنكر عليه»(١). فالإيمان قد اشتمل على الجوارح السبع اللاتي أخذ عليهن العهد والميثاق وأتمن العبد عليهن ووكل برعايتهن ومستقره في القلب، والشهوة في النفس وسلطانها في الصدر ثم يتأدى إلى هذه الجوارح السبع فمن صدق الإيمان أن يكون سلطان كل جارحة منطفئا بما اشتمل عليه من سلطان الإيمان فإذا كان كذلك فقد ملك نفسه فلا يستعمل شهوة بجارحة من الجوارح السبع إلا فيما أذن الله له فيه وإذا رأى غيره يستعملها فيما لم يأذن به الله أنكره، والإنكار على ثلاثة منازل فمنكر بقلبه ولسانه ويده ومنكر بقلبه ولسانه، ومنكر بقلبه، وروى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الجهاد ثلاثة: جهاد باليد واللسان والقلب وجهاد بالقلب واللسان، وجهاد بالقلب وذلك أضعف الإيمان».

فأول ما يكل جهاد اليد ثم جهاد اللسان ثم جهاد القلب حتى لا ينكر منكر(٢). عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما كان لله نبي إلا وله حواريون يهدون بهديه ويستنون بسنته ثم يكون من بعده خلوف يقولون ما لا يفعلون ويعملون

---

(١) عزاه الهندي في كنز العمال (٨٥/٣) للحكيم الترمذي.
(٢) عن أبي رافع (في نسخة أخرى).

ما ينكرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك مثقال حبة من الإيمان».

وهو كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شأن بنى اسرائيل حين أحدثت الملوك فى دينهم الأحداث وأن أهل الهدى صاروا ثلاث فرق.

وقد ذكرنا ذلك فى الأصل الخامس فى الحديث الذى نهى عن القزع فيه، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس لمومن أن يذل نفسه قالوا وكيف يذل نفسه؟ قال: يتكلف من البلاء ما لا يطيق»(٣) معناه إذا علم أنه إن غير المنكر على القوى ابتلى به كف عنه وأنكر بقلبه لأن ما يفسد أكثر مما يصلح. عن أبى أمية الشعبانى رضى الله عنه قال سألت أبا ثعلبة الخشنى عن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ (٤)
فقال لى. لقد سألت عنها خبيرا. سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أبا ثعلبة ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحا مطاعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك فإن من بعدكم أيام الصابر المتمسك يومئذ بمثل الذى أنتم عليه له كأجر خمسين عاملا. قالوا يا رسول الله كأجر خمسين عاملا منهم؟ قال لا بل منكم». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المتمسك بسنتى عند اختلاف أمتى كالقابض على الجمر»(٥).

---

(٣) لأن مقصود المشرع. الحفاظ على الأموال والأنفس ــ وفى تكلف المرء ما لا يطيق من البلاء إرهاق للنفس.

(٤) المائدة (٥/١٠٥).

(٥) وذلك لانتشار الفتن عند اختلاف الأمة.

[الأصل الرابع عشر في سر قوله «لا تأمنن على أحد بعدى»]

عن أبى عبيد بن الجراح رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا عبيدة لا تأمنن على أحد بعدى»(١). كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأمن الخلق ومفزعهم له عطف الآباء وشفقة الأمهات، ورحمة الوالدات، وشهد الله له فى تنزيله أعظم شهادة فقال عز من قائل:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢).

قد حشى بالرأفة والرحمة والنصيحة لله تعالى فى خلقه واستنار قلبه بنور الله تعالى فدقت الدنيا بما فيها فى عينه وصغر عنده، بذل نفسه لله فى جنب الله، فكان مفزعا، وكان مأمنا، وكان غياثا، وكان رحمة، وكان أمانا.

فأما المفزع فقال فى تنزيله عز من قائل:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (٣).

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٠١،١٠٠/١)، وعزاه الهندى فى كنز العمال (١٢١/١١) للحكيم الترمذى، وأشار إليه ابن حجر فى المطالب العالية -كتاب الصلاة- باب شروط الأئمة (١٢١/١).

(٢) التوبة (١٢٨/٩). أى شديد عليه صلى الله عليه وسلم ما أعنتكم، وضركم، وأثقل عليكم. راجع قول الطبرى -رحمه الله- فى تفسيره (٥٦/١١).

(٣) النساء (٦٤/٤).

وفى المأمن قوله عز وجل:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٤)

وفى الغياث قوله تعالى:

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ (٥)

وفى الرحمة قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٦).

وفى الأمان قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ (٧).

وليس لأحد بعد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المقام صديقا كان أو فاروقا أو أمينا فلذلك قال لا تأمن على أحد بعدى أى كأمنك على، فليس لمن بعده عصمة الرسل عليهم السلام.

ألا ترى أن أبا بكر رضى الله عنه خطب الناس فقال إن لى شيطانا يعترينى فاجتنبونى إذا غضبت، لا أؤثر فى أشعاركم وأبشاركم وإذا زغت فقومونى.

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشيطان قالوا ومعك يا رسول الله؟ قال ومعى: ولكن الله أعاننى عليه فأسلم»، وكان الله عصمه وأقامه على أدب القرآن وقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٨)

---

(٤) النجم (٢/٥٣).

(٥) آل عمران (١٠٣/٣).

(٦) الأنبياء (١٠٧/٢١).

(٧) الأنفال (٣٣/٨).

(٨) القلم (٤/٦٨).

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أراد قتل بعض المشركين العتاة وكان أمرهم أن يقتلوه وإن وجدوه متعلقا بأستار الكعبة فجاء به عثمان رضى الله عنه يسأل له الأمان فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سأله فسكت ثم سأله ثالثة فأعطاه الأمان وقال: انتظرت أن يقوم أحدكم فيضرب عنقه. قالوا فهلا أومأت (٩) يا رسول الله قال: «إنه لا ينبغى لنبى أن يكون له خائنة عين».

وعن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يلتفت وراءه إذا مشى وربما تعلق رداؤه بالشىء أو بالشجر فلا يلتفت حتى يضعوه عليه لأنهم كانوا يمزحون ويضحكون فكانوا قد أمنوا التفاته.

عن هند بن أبى هالة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التفت التفت جميعا.

---

(٩) أومأت: أشرت.

[الأصل الخامس عشر فى تحقيق التهديد على زوارات القبور]

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: «قبرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرفنا معه فلما حاذى بابه وقف وتوسط الطريق، فإذا هو بامرأة مقبلة لا نظنه عرفها، فلما دنت إذا هى فاطمة. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أخرجك يا فاطمة من بيتك؟ قالت: أتيت أهل هذا الميت فرحمت إليهم ميتهم أوعزيتهم لا يحفظ ربيعة أى ذلك، قال: فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلك بلغت معهم الكدا؟ قالت: معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيهم ما تذكر، قال لوبلغت معهم الكدا ما رأيت الجنة حتى يراها جدك أبو أبيك»[1].

قال قتيبة الكدا المقبرة بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بمحو آثار الجاهلية، وكان من شأنهم إذا مات لهم ميت أن يخمشوا[2] الوجوه وينتفوا الشعور، ويشقوا الجيوب[3] ويخرقوا البيوت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس منا من حلق أوخرق أوسلق»[4] ولعن فى حديث آخر ناشرات الشعور واللاتى ينعون بأصوات الحمير ونهاهم عن

---

(١) أخرجه النسائى فى سننه -كتاب الجنائز- باب النعى (٢٧/٤)، وأبوداود فى سننه -كتاب الجنائز- باب فى التعزية (١٩٢/٣)، وأحمد فى المسند (جـ٢/١٦٩)، والبيهقى فى السنن -كتاب الجنائز- باب ما يقول فى التعزية من التراحم على الميت والدعاء لمن خلف (٦٠/٣).

(٢) يخمشوا: يخدشوا.

(٣) فى نسخة [ويخربوا].

(٤) سلق: أغلظ القول باللسان.

زيارة القبور لحداثة عهدهم بالكفر لما في زيارة القبور من الفتنة، حتى استحكم إسلامهم وصاروا أهل يقين وبر، وتقوى، وصارت القبور لهم معتبرا بعد أن كان مفتتنا خلى عنهم. وقال صلى الله عليه وسلم «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها (٥) فإن لكم فيها معتبرا» وسكت عن ذكر النساء لضعفهن ورقتهن وسرعة افتتانهن، وقال صلى الله عليه وسلم: «ما رأيت من نواقص (٦) عقول ودين أغلب للرجال منهن، فقيل: ما نقصان عقولهن ودينهن يا رسول الله؟ قال: أما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين بشهادة رجل، وأما نقصان دينهن فترك الصلاة والصوم في الحيض»، وبايعهن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ما نطق به التنزيل من قوله تعالى:

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ﴾ (٧).

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيعة أن لا ينحن. عن أم عطية رضي الله عنها قالت: أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيعة أن لا ننوح فأوفت منا امرأة إلا سبع(٨) نسوة منهم أم سليم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمنعهن عن حضور الجنائز، وفي حديث بكار بن عبد العزيز بن أبي بكرة عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى نسوة في جنازة فقال لهن: «ارجعن مأزورات غير مأجورات».

عن أنس رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فرأى نسوة فقال(٩): «أتحملنه؟ قلن لا قال أتدفنه؟

---

(٥) وفي رواية أخرى [ألا فزوروها].

(٦) وفي رواية [من ناقصات].

(٧) الممتحنة (١٢/٦٠). أي لا يعصينك في أي أمر تأمرهن به لأن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كله معروف.

(٨) في نسخة أخرى [الا تسع].

(٩) أيحملنه قلنا: لا، قال: أيدفنه، قلنا: لا [نسخة أخرى].

قلن لا قال: فارجعن مأزورات غير مأجورات».

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج.

فبقى الخطر عليهن إلى آخر الدهر فإن تخلت امرأة عن هذه الأمور فأتت قبرا لترمه أوتسلم أوتدعوا وتعتبر وقد أمنت ناحية نفسها ذلك وماتت شهوتها، أوانقطعت فتنتها فهى خارجة من النهى. وروى عن فاطمة رضى الله عنها أنها كانت تأتى قبر حمزة رضى الله عنه فى كل عام فترمه وتصلحه، وروى عن غير واحدة من النساء أنها كانت تأتى قبور الشهداء فتسلم عليهم فأما مرمة القبر فلئلا يدرس(١٠) أثره فينبش عنه لأنه إذا ذهب أثر، حفر عنه لميت آخر. ولأن المسلم على الأموات وزائرهم يخفى عليه إذا ذهب رسمه فتبطل الزيارة وهى حق من الحقوق ليس كالذى يسلم من بعد. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من زار قبر أبويه أوأحدهما فى كل جمعة مرة غفر له وكتب برا»(١١)، عن ابن عمر رضى الله عنه قال: «من زار قبر أبويه أوأحدهما احتسابا كان كعدل حجة مبرورة(١٢)، ومن كان زورا لهما زارت الملائكة قبره» والتشديد الذى جاء فى حديث فاطمة نراه فى بدء الأمر ولا نعلم ذلك يحرم الجنة. لكن معناه أن من فعل ذلك كان يخاف عليه أن يسلبه الله الإسلام فإذا سلبه لم ير الجنة أبدا وأعظم نعمة لله تعالى على عبده الإسلام. وللإسلام سنن ومنار كمنار الطريق فإذا عمل عملا يكون فيه إحياء سنن الجاهلية التى أطفأها الله تعالى بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كفر منه

---

(١٠) يدرس أثره: يعفى ويزول لقدمه.

(١١) وكتب براءة [فى نسخة أخرى].

(١٢) عدل حجة: مثلها.

الاسلام والكفور ممقوت[13] غير مأمون عليه السلب فكان إتيان المقابر من سنن الجاهلية فغلظ الزجر لتموت تلك السنن.

(١٣) ممقوت: مكروه منبوذ.

[الأصل السادس عشر فى أن الورود فى النار الدخول]

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الورود الدخول لا يبقى بر، ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم عليه السلام حتى أن للنار ضجيجا من بردهم ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا»(١).

كأن الله تعالى أحب أن يجعل ممرّ المؤمنين فيها كى إذا نجوا منها علموا من أين نجوا وليس الخبر كالمعاينة وإذا وردوا دار السلام(٢) علموا أين حلوا فالشىء إنما يعرف بضده ويعظم قدره ولذلك قالوا عند دخول الجنة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ (٣)

أى حزن قطع النيران التى خلص(٤) منها وجعلها بردا وسلاما وعلموا أنهم لم يحلوا دار المقامة إلا من فضله وأنهم لم يستوجبوا ذلك منه، وكأنه

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٣٢٩/٣)، وأخرجه الحاكم فى المستدرك - كتاب الأهوال - باب برد الناس النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم (٥٨٧/٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد.. كتاب البعث. باب ما جاء فى الميزان والصراط والورد (٣٦٠/١٠) وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات، وذكره الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (٥٢١/٢) وقال: رواه أحمد وابن أبى شيبة، وأورد السيوطى فى الدر المنثور (٢٨٠/٤).

(٢) دار السلام: من أسماء الجنة.

(٣) فاطر (٣٤/٣٥) قال المفسرون: وقد عبرَّ بالماضى (وقالوا) وذلك لتحقق وقوعه؛ لأنه إخبار من الله سبحانه وتعالى. راجع الطبرى (٩١/٢٢) وتفسير أبى السعود (٢٤٥/٤).

(٤) فى نسخة أخرى [خلصوا] وهذا تحريف.

عز وجل أحب أن يبرز فضل الصادقين وبذلهم أنفسهم له وليأخذ بحقه من الطبقة التى آثرت شهوات نفوسها بتضييع الحق وهم أهل لا إله إلا الله، حتى تنتقم النار منهم مدة ثم تدركهم رحمة الله وقد محصوا ونقوا وصلحوا لدار السلام وليجوز الصادقون وهم لا يشعرون بالنار، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (٥)

وإنما بعدوا عنها لأن نور الإيمان وبرد اليقين احتملهم واحتوشهم (٦) فهم يمضون فى النار(٧) حتى إذا أخرجوا منها قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار؟ قالوا: بلى ولكن مررتم بها وهى خامدة لأن الرحمة أظلتهم حتى أشرق نور الإيمان فى قلوبهم فخمدت النار من برد يقينهم، ولذلك نسب البرد إلى المؤمنين وأما ضجة النار فمن أجل أنها خلقت منتقمة من أهل الغفلة وحشيت بغضب الله فإذا جاء المؤمن بنوره وبرده ضجت النار مخافة أن تبرد فتضعف عن الإنتقام. عن يعلى بن منبه رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن النار لتنادى جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى»، والنجاة من الله تعالى للعبد فى هذا الموطن على قدر محله عنده ومحله على قدر ما مَنَّ الله عليه من المعرفة به وهو اليقين الذى جعل له من ذلك حظا، عن السدى عن عبد الله رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يرد الناس النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب فى رحله ثم كشد الرجل ثم كمشيه ثم كحبوه».

وإنما ذكر الأعمال لأنها ظاهرة، والظاهر محنة الباطن، وما فى

---

(٥) الأنبياء (٢١/١٠١).

(٦) احتوشهم: اكتنفهم واحتواهم.

(٧) فى نسخة [فى النور] وهو تحريف خطير من الناسخ.

القلوب غيب إلا عن خالق الغيب، والظاهر شاهد ينبىء عما فى الباطن.

[الأصل السابع عشر في أن الدنيا أسحر من هارون وماروت]

عن عبد الله بن بسر[1] المازني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الدنيا فوالذي نفسي بيده إنها لأسحر من هاروت وماروت»[2].

هاروت وماروت ليسا من جنس الآدميين والشيء إنما يألف جنسه والآدمي خلق من الدنيا فهو يألفها وينخدع لها وهاروت وماروت لا يعلمان أحد السحر

﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [3]

فهذا يعلمك سحره وينبئك فتنة[4] والدنيا تعلمك سحرها وتكتمك فتنتها وتدعوك إلى التحارص عليها، والجمع لها، والمنع منها، فيتعلم منها ما يفرق بينه وبين طاعة الله وبينه وبين رؤية الحق ورعايته محبتها تلذذك بشهواتها وتمنيك بأمانيها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حبك الشيء يعمي ويصم».

فمن أحب الدنيا أعمته وأصمته عن آخرته، ومن أحب الآخرة أعمته

---

(١) في نسخة [بشر] وهو تصحيف.

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٩/١) وقال: أخرجه الحكيم عن عبد الله بن بسر المازني، وأشار إليه العراقي في تخريج أحاديث احياء علوم الدين للغزالي (١٧٧/٢).

(٣) البقرة (١٠٢/٢) أي أن الملكين يقولان أنها فتنة أي ابتلاء واختبار. انظر أيضاً تفسير الطبري (٥١١/٢).

(٤) في نسخة أخرى [فتنة] وهو تحريف من الناسخ.

وأصـمـته عن دنياه ومن أحب نفسه أعمته وأصمته عن الله، ومن أحب الله أعـمـاه وأصـمـه عـن نـفـسـه، فإن الدنيا تحجب عن الآخرة والنفس تحـجـب عـن الله ودنـيـاه إنما هى نفسه وشهواتها فسحرها أقرب إليه من سـحر هاروت وماروت فسحر نفسه ودنياه أصلى وسحر هاروت وماروت دخيل وليس الدخيل كالأصلى.

[الأصل الثامن عشر فى كيفية الاحتراز عن الشيطان]

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن المؤمن ينضى[1] شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر»[2] فالمؤمن من قد وكل به قرينه من الشيطان وإنما يحترز منه بالله تعالى، فإذا اعترض لقلبه احترز بمعرفته وإذا اعترض لنفسه وهيأ شهواته احترز بذكر الله عز وجل، وإذا اعترض لأموره وأحواله احترز بأسمه فهو أبدا نضو وقيد زجر به فالبعير يتجشم[3] فى سفره أثقال حمولته، ومع ذلك النصب يجوع ويظمأ ومع ذلك مراعى مختلفة ومياه رنقة[4] غير عذبة فإنما صار نضوا بهذه الأحوال، فكذلك شيطان المؤمن يتجشم أثقال غيظه من المؤمن لما يرى من الطاعة والوفاء لله تعالى و وإذا أراد أن يشركه فى طعامه وشرابه ولباسه ومنامه ومجلسه ومتصرف أحواله زجره وطرده عنه بالتسمية فوقف منه بمزجر الكلب ناحية فإذا أراد أن ينفره عنه نطق بالوحدانية وهى الكلمة العليا التى يهتز العرش لها فقال لا إله إلا الله فإذا سمعها انتكس فصار أعلاه أسفله، وولى على وجهه هاربا إلى رسه وذلك قوله عز وجل:

---

(١) ينضى: يهزل، والنضو المهزول.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٨٠) وأورده السيوطى فى الجامع الصغير (١/٨٤) وعزاه لأحمد، والحكيم وابن أبى الدنيا وأشار الهيثمى فى مجمع الزوائد إلى رواية أحمد (١/١١٦).

(٣) يتجشم: يتحمل.

(٤) رنقة: كدرة.

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ (٥).

وروى عن أبى الجوزاء أنه قال ليس شىء أطرد له من القلب من قول لا إله إلا الله ثم تلى:

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ ﴾ (٥) الآية.

عن عمرو بن مالك رضى الله عنه قال قرأت فى التورية: أن سرك أن تحيى وتبلغ علم اليقين فاحتل فى كل حين أن تغلب شهوات الدنيا فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفزع(٦) الشيطان من ظله.

عن سديسة مولاة حفصة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما لقى الشيطان عمر قط إلا خرّ لوجهه».

عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما لقى الشيطان عمر فى فج فيسمع(٧) صوته إلا أخذ فى غيره» ومثل عمر رضى الله عنه فى هذا الباب مثل أمير ذى سلطان وهيبة استقبله مريب قد رفع إليه من ريبته أمورا شنيعة وعرفه بالمعداوة له فانظر ماذا يحل بهذا المريب إذا لقيه فإن ذهبت رجلاه فخر لوجهه فغير مستنكر.

---

(٥) الإسراء (١٧/٤٦).

(٦) فى نسخة أخرى [يفرق] أى يخاف، وهو تحريف خطير من الناسخ.

(٧) فى نسخة أخرى [فسمع] وهو تحريف وتصحيف معاً.

[الأصل التاسع عشر فى حقيقة الفقة وفضيلته]

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع»[1].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه فى دين»[2].

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه فى دين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه».

والفقه هو انكشاف الغطاء عن الأمور فإذا عبد الله بما أمر ونهى بعد أن فهمه وعقله. وانكشف له الغطاء عن تدبيره فيما أمر ونهى. فهى العبادة الخالصة المحضة، وذلك أن الذى يؤمر بالشيء فلا يرى زين ذلك الأمر، وينهى عن الشيء فلا يرى شينه. هو فى عمى من أمره فإذا رأى زين ما أمر به وشين ما نهى عنه، عمل على بصيرة. وكان قلبه عليه أقوى، ونفسه به أسخى وحمد على ذلك وشكر والذى يعمى عن ذلك

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك -كتاب العلم- باب فضل العلم أحب من فضل العباد وخير الدين الورع (٩٢/١)، ورواه البزار فى مسنده -كتاب العلم- باب فضل العلم والمتعلم (٨٥/١)، وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب جـ١ ص٩٣، (٥٦٠/٢) عن ابن عمر وقال: رواه الطبرانى فى معاجمه الثلاثة، وأخرجه الطبرانى فى المعجم البصغير (١٢٤/٢)، وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس. كما جاء فى زهر الفردوس لابن حجر (١٢١/٢).

(٢) رواه ابن وهب عن ابن ابن عمر، وضعفه السيوطى فى الجامع الصغير (١٤٦/٢).

فهو جامد القلب كسلان الجوارح ثقيل النفس بطىء التصرف، والفقه مشتق من تفقؤ الشيء يقال فى اللغة فقأ الشىء إذا انفتح وفقأ الجرح إذا انفرج عما اندمل والاسم فقئ والهاء والهمزة تبدلان تجزى إحداهما[3] عن الأخرى فقيل فقىء وفقيه والفهم هو العارض الذى يعرض فى القلب من النور فإذا عرض انفتح بصر القلب فرأى صورة ذلك الشىء فالانفتاح هو الفقه، والعارض هو الفهم، وقد ذكر الله تعالى فى تنزيله الفقه فقال:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [4].

فأعلم أن الفقه من عمل القلب. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعرابى حين قرأ عليه:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [5].

فولى وقال حسبى حسبى، فقال صلى الله عليه وسلم: «فقه الرجل».

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه «أنك لن تفقه حتى ترى للقرآن وجوها كثيرة» وإن الله عز وجل كلف العباد أن يعرفوه، ثم اقتضاهم بعد المعرفة أن يدينوا له، فشرع لهم شريعة الحلال، والحرام. والدين هو الخضوع، والدون مشتق من ذلك، وكل شىء اتضع فهو دون. فأمرت بأمور لتضع نفسك لمن اعترفت به ربا، فسمى ذلك الفعل وتلك الأمور دينا. فمن فقه أسباب هذه الأمور التى أمر ونهى بماذا أمر ونهى، ورأى زين ما أمر وبهاءه وشين ما نهى تعاظم ذلك عنده، وكبر فى صدره شأنه، فكان أشد تسارعا فيما أمر، وأشد هربا وامتناعا مما نهى. فالفقه

(٣) وردت فى المطبوعة بالإمالة (أحديها) وهو تحريف من المطابع.

(٤) الأعراف (١٧٩/٧).

(٥) الزلزلة (٨/٩٩). أى من يفعل مثقال ذرة من التراب يجده ويلقى جزاءه عليه كاملاً غير منقوص. راجع القرطبى (١٥٠/٢٠) وتفسير الشيخ الصابونى (١٧٦١/٣٠).

فى الدين جند عظيم يؤيد الله تعالى به أهل اليقين الذين عاينوا محاسن الأمور ومشاينها ومقدار الأشياء وحسن تدبير الله عز وجل لهم فى ذلك بنور يقينهم ليعبدوه على يسر، ومن حرم ذلك. عبده على مكايدة وعسر لأن القلب وإن أطاع وانقاد لأمر الله عز وجل، فالنفس إنما تخف وتنقاد إذا رأى نفع شيء أوضرر شيء. والنفس جندها الشهوات وصاحبها محتاج إلى أضدادها من الجنود حتى يقهرها وهى الفقه، قال له قائل صف لنا واحدة من هذه الأمور تفهم بها غيرها، قال نعم أحل الله عز وجل النكاح وحرم الزنى وإنما هو اتيان واحد لامرأة واحدة، إلا أن هذا بنكاح وذاك بزنى، فإذا كان من نكاح فمن شأنه العفة والتحصين للفرج، فإذا جاءت بولد ثبت النسب وجاء العطف من الوالد بالنفقة والتربية والميراث، وإذا كان من زنى ضاع الولد لأنه لا يدرى أحد من الواطئين لمن هذا الولد، فهذا يحيله على ذلك وذاك يحيله على هذا، وحرم الله عز وجل الدماء وأمر بالقصاص، ليتحاجزوا وليحيوا، وقال تعالى فى تنزيله:

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ (٦).

إلى غير ذلك. عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بعبد خيرا يفقهه».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين».

عن يوسف ابن ماهك قال: كان معاوية رضى الله عنه قليل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقل ما قام خطيبا، إلا قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من يرد الله به خيرا يفقه فى الدين» يا أيها الناس تفقهوا.

---

(٦) البقرة (١٧٩/٢).

[الأصل العشرون فى حكمة قصر أعمار هذه الأمة]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عمر أمتى من ستين سنة إلى سبعين»(١)، وقال صلى الله عليه وسلم «معترك المنايا ما بين الستين والسبعين»، وقال صلى الله عليه وسلم «أقل امتى أبناء السبعين». قال أبو عبد الله من رحمة الله على هذه الأمة وعطفه عليهم أخرهم فى الأصلاب، حتى أخرجهم إلى الأرحام بعد أن نفدت الدنيا ثم قصر أعمارهم، لئلا يتلبسوا بالدنيا إلا قليلا، ولا يتدنسوا فإن القرون الماضية كانت أعمارهم وأجسادهم وأرزاقهم على الضعف كان أحدهم يعمر ألف سنة وجسمه ثمانون باعا بالباع الأول والحبة من القمح مثل كلوة البقرة والرمانة الواحدة يجتمع عليها عشرة نفر والعنقود مثله فكانوا ما يتناولونه من هذه الدنيا بهذه الصفة على مثل تلك الأجساد فى مثل تلك الأعمار، فنها أشروا وبطروا واستكبروا وأعرضوا عن الله عز وجل، فصب الله عليهم سوط عذاب، على ما نطق به كتاب الله العزيز. ثم لم يزل الناس ينقصون فى الخلق والخلق والأجل والرزق إلى أن صارت هذه الأمة آخر الأمم، حتى يأخذوا من الدنيا أرزاقا قليلة بأجساد ضعيفة، فى مدة قصيرة. حتى لا يأشروا ولا يبطروا. فهذا تدبير من الله عز وجل رحمة لهذه الأمة ثم

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ـكتاب الزهدـ باب ما جاء فى فناء أعمار هذه الأمة ما بين السنين إلى السبعين (٤/٥٦٦) وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه الحاكم فى المستدرك ـكتاب التفسيرـ سورة الملائكة (٢/٤٢٧) وقال: صحيح الإسناد، وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ـكتاب الجنائزـ باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر (٣/٣٧٠).

ضوعف لهم الحسنات فجعلت الحسنة الواحدة بعشرة إلى سبعمائة، إلى مالا يعلمه من التضعيف إلا الله تعالى وأيدوا باليقين وأعطوا ليلة القدر فجعلت حسناتهم على ثلاث منازل لأنهم ثلاثة أصناف: ظالمون ومقتصدون وسابقون.

فالصنف الأول هم أهل تخليط قوم موحدون لا يرعوون (٢) عن الحرام ولا يحفظون حدود الله تعالى، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. فهم الظالمون فالحسنة منهم بعشر أمثالها.

والصنف الثانى قوم متقون قائمون على الحدود وعلى سبيل الاستقامة وهم المقتصدون فالحسنة منهم بسبعمائة لأن جوارحهم صارت مسبلة لله تعالى، قد استقامت على سبيل الله تعالى فإذا أنفقوا من جوارحهم عملا كان بسبعمائة كالذى ينفق ماله فى سبيل الله فهو بسبعمائة، ومما يحقق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «إذا حسن إسلام العبد تمم الله له عمله بسبعمائة ضعف» فقوله حسن إسلامه هو أن يستقيم ويكون مستقيم الطريق إلى ربه لا يعرج (٣) يمينا وشمالا أى لا يعصى، فهذا ترفع أعماله من جوارح طاهرة. والأول من جوارح دنسة، والصنف الثالث قوم أهل يقين انتبهوا وحييت قلوبهم بالله عز وجل وماتت منها الشهوات. وهم السابقون المقربون. قال الله تعالى فى السابقين:

﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٤).

فأعمالهم مضاعفة لا يعلم تضعيفها إلا الله عز وجل. وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل من أمتى ليبلغ وزن الحرف الواحد من تسبيحه زنة أحد».

(٢) لا يرعوون: لا يكفون.
(٣) لا يعرج: لا يلوى، ولا يتلبث.
(٤) فاطر (٣٥/٣٢).

وما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: «إن الرجل من هذه الأمة يعدل عمل يومه سبع سموات وسبع أرضين». وماروى عن كعب رضى الله عنه «أن الرجل من هذه الأمة ليخر ساجدا فيغفر لمن خلفه» فكان كعب رضى الله عنه يتوخى الصف الأخير من المسجد رجاء ذلك ويذكر أنه وجده كذلك فى التورية.

[الأصل الحادى والعشرون فى خصوصية هذه الأمة]

عن أم الدرداء رضى الله عنها تقول سمعت أبا الدرداء يقول سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم وما سمعته يكنيه قبلها ولا بعدها يقول: «إن الله عز وجل قال يا عيسى إنى باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم قال يا رب وكيف يكون هذا لهم ولا حلم ولا علم قال أعطيهم من حلمى وعلمى»[1]. فهذه أمة مختصة بالوسائل من بين الأمم محبوة بالكرامات، مقربة بالهدايات، محظوظة من الولايات، تولى الله هدايتهم وتأديبهم وتقريبهم، مسمون فى التوراة صفوة الرحمن، وفى الإنجيل حكماء علماء أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء وفى القرآن:

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [2].

أى عدلا وشهداء الله فى الموقف للأنبياء عليهم السلام على الأمم. وخير أمة أخرجت للناس والمنادون بجانب طور سيناء يا أمة أحمد سبقت لكم رحمتى غضبى أعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٤٥٠/٦)، وأخرجه الحاكم فى المستدرك - كتاب الجنائز - باب فضيلة هذه الأمة (٣٤٨/١) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخارى، ورواه البيهقى فى السنن - كتاب الجنائز - باب ما ينبغى لكل مسلم أن يستشعره من الصبر على جميع ما يصيبه من الأمراض (٢٧٦/٣) وذكره أبونعيم فى حلية الأولياء (٥٢٧/١)، (٢٤٣/٥)، وأشار إليه الهيثمى فى مجمع الزوائد - كتاب المناقب - باب ما جاء فى فضل الأمة (٦٧/١٠)، وأخرجه البيهقى فى كتاب الاسماء والصفات ص ١٢١.

(٢) البقرة (١٤٣/٢). أمة وسطا: عدلاً وخياراً، ومن ذلك قولهم للنبى صلى الله عليه وسلم: «هو أوسط قريش حسباً» راجع اللسان (٣٨/٩).

وأجبتكم قبل أن تدعونى وهو قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ (٣).

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٤).

﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ (٥) الآية.

غر محجلون غر من السجود محجلون من الوضوء وهو قوله تعالى:

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ (٥).

وعن عبد الله بن بشر(٦) المازنى رضى الله عنه قال: قيل يا رسول الله كيف تعرف أمتك يومئذ؟ قال: أرأيت لو كان لأحدكم خيل دهم وفيها أغر محجل أما كان يعرفه؟ قالوا بلى يا رسول الله: قال: «فإن أمتى يومئذ غر من السجود محجلون من أثر الوضوء» سماهم الله مهاجرين وأنصار هاجروا فى ذاته الوطن والأهل والمال، والولد ونصروا الله تعالى ثم من سار على منهاجهم بعدهم سماهم تابعين بإحسان، ثم جمعهم بالرضى عنهم فقال:

﴿مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ (٧)

وجمعهم فى استحقاق الفىء فقال:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ (٨)

---

(٣) القصص (٢٨/٤٦).

(٤) الفتح (٤٨/٢٩) راجع تفسير جامع البيان (٢٦/٧١) وما بعدها. وتفسير أبى السعود (٥/٨٦).

(٥) الفتح (٤٨/٢٩). وشطأه أى صغاره، وهو رأى الجوهرى، وقد ساقه الطبرى (٢٦/٧٢)

(٦) فى نسخة أخرى [بسر] وهو تصحيف من الناسخ.

(٧) سورة التوبة: الآية رقم: ١٠٠. (٨) سورةالحشر: الآية رقم: ٨.

إلى أن قال:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ (٨).

وإنما نالوا هذه الكرامات بخطة واحدة وهو أن الله تعالى هداهم لسبيله وهو قوله تعالى:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (٩).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعطيت أمتى من اليقين ما لم يعط أمة».

وقال صلى الله عليه وسلم «ما من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما على مثله آمن البشر وإنى لم أبعث بآية وإنما أوحى إلى وحيا ثم أنا أكثر الأمم تبعا، قال له قائل: وما تلك الهداية قال: الهدى على ثلاثة منازل: هدى على السنة الرسل وهو البيان يدعوهم ويبين لهم فتلك هداية الظاهر وهو قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (١٠).

فإنما هديهم بالرسول عليه السلام، وهدى بالقلب يجعل فيه نورا فيعرفه ربا واحدا وهو هدى التوحيد وهو قوله تعالى:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا ﴾ (١١).

فتلك هداية الباطن وهو الإيمان قال الله تعالى:

﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١٢).

---

(٨) الحشر (٥٩/١٠).

(٩) الزمر (٣٩/١٨).

(١٠) فصلت (٤١/١٧).

(١١) الأنعام (٦/١٢٢).

(١٢) يونس (١٠/٢٥).

أعطاه نورا لمعرفته بأنه واحد ثم تركه مع مجاهدة نفسه فى أمره ونهيه على سبيل الاستقامة ليثيبه الجنة وإنما كان كذلك لأن الشهوات أحاطت بقلبه فلم تتركه على سبيل أهل الوفاء حتى يكون له عبداً لجميع جوارحه فى جميع متقلبه كما عرفه ربا فيكون واقفا عند أمره ونهيه مراقبا لحدوده فهذه هداية العامة، ولا ينال بهذا تلك الصفة التى ذكرت فى التوراة والإنجيل والفرقان لأن النفس بما فيها من الهوى قد غلبت على القلب ولا تتركه على الاستقامة حتى تميل به يمينا وشمالا، وهدى على القلب، وهى هدى الولاية والعصمة، وهى أن يقذف الله فى قلب العبد نورا وهو اليقين حتى يهتك حجب الشهوات التى تراكمت فى صدره على قلبه فيمتلئ قلبه نورا ويشرق صدره فتصير الآخرة له كالمعاينة وهو المراد بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (١٣)

كما قال حارثة رضى الله عنه: كأنى انظر إلى عرش ربى بارزا والى أهل الجنة كيف يتزاورون وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها، وعزفت نفسى عن الدنيا واستوى عندى حجرها ومدرها (١٤) وذهبها وفضتها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عرفت فالزم عبد نور الله الإيمان فى قلبه» فهذا نور على نور، وذهبت ظلمات الشهوات من الصدور وهى التى كانت تحجبه عن الله تعالى، ووعده ووعيده وتزين له فى صدره شهوات الدنيا، وهو قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٥)

---

(١٣) الأنعام (٦/٨٢).
(١٤) المدر: جمع مفرده مدرة.
(١٥) العنكبوت (٢٩/٦٩).

هدى التوحيد شرط المجاهدة وهى متقدمة عليها وهدى الولاية حكم المجاهدة فهى متأخرة عنها وهذا الهدى نور يقذفه الله تعالى فى القلب بعد المجاهدة يستقر فيه وهو اليقين، فإنما سمى يقيناً لأنه استقر فيمتلىء قلبه نورا ويشرق صدره به فيتصور له الدنيا والآخرة، وشأن الملكوت فى صدره ويتصور له أمور الإسلام، حتى تذل النفس وتنقاد وتلقى بيديها السلم[16] من الخشية والهيبة والسلطان الذى حل بقلبه وفى صدره وهو قوله تعالى:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [17].

فشرح الصدر إنما يكون من النور الذى يستقر فيقال له نور اليقين وأما نور التوحيد فى القلب والصدر بتراكم دخان الشهوات مظلم كالليل وكالغيم وكالغبرة وكالدخان وكالقتار، وهدى رابع على القلوب، وهو هدى النبوة وهو نور وجهه الكريم يوصل قلوبهم إلى وحدانيته ويشرق صدورهم بنوره ويجعلهم فى قبضته ويرعاهم بعينه ويؤيدهم بنور قدسه، قال الله تعالى:

﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [18].

وقال:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [19]

ثم قال: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده».

وقال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [20]

---

(١٦) السلم: من السلام، ومن الاستسلام.
(١٧) سورة الزمر: الآية رقم: ٢٢.
(١٨) الأنعام (٦/٨٧).
(١٩) الأنعام (٦/٨٩).
(٢٠) البقرة (٢/١٢٠).

أى أن ذلك الذى على ألسنة الرسل غير نافع ولا مغيث، وإنما الهدى هداى الذى أهدى على القلوب وإن كان ذاك أيضا يسمى هدى فهذا أحق الهدى، وهو كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» وهدى الرسل عليهم السلام حجة الله على خلقه بأن يبين لهم على ألسنتهم ضلالة سبيلهم ثم ذكر هدى هذه الأمة فقال:

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢١) الآية.

إلى أن قال:

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ (٢٢)

أى هذا الهدى الذي آتيناكم يا أمة محمد هدى الله فقوله: إن الهدى معرفة وليست بنكرة كأنه يشير إلى شئ منصوص (٢٣) يعنى الهدى الذى آتى هذه الأمة هو هدى الله أى هو الذى تولاكم بالهداية ثم قال أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم.

أى من الهدى وهو اليقين وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أعطيت أمة من اليقين ما أعطيت هذه الأمة» ثم قال:

﴿ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ (٢٤)

وهى المحاجة التى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث يوم القيامة ثم قال:

---

(٢١) آل عمران (٣/٧٢).
(٢٢) البقرة (٢/١٢٠).
(٢٣) فى نسخة [مخصوص] وهو تحريف خطير.
(٢٤) آل عمران (٣/٧٣).

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٢٥)

أما الحديث فعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا فقال من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ألا فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ألا فعملت النصارى ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر إلى صلاة المغرب على قيراطين قيراطين ألا فأنتم فغضبت اليهود والنصارى وقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاء، فقال أظلمتكم من حقكم شيئا قالوا لا. قال: إنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء» فقوله: نحن أكثر عملا وأقل عطاء فقال أظلمتكم من حقكم شيئا قالوا لا قال إنما فضل الله يؤتيه من يشاء، فقوله نحن أكثر عملا وأقل عطاء هو المحاجة عند ربهم قوله تعالى:

﴿ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ (٢٦)

فذكر فى الآية أن هذه الأمة مختصة بالرحمة مفضلة بالكرامة، فالفضل الذى آتاهم على الأمم أن أعطاهم اليقين فيه انكشف الغطاء عن قلوبهم حتى صارت الأمور لهم معاينة. عن بكر بن عبد الله المزنى رضى الله عنه قال لم يفضل أبو بكر رضى الله عنه الناس بكثرة صوم ولا صلاة إنما فضلهم بشىء كان فى قلبه.

عن عبد الرحمن بن زيد(٢٧) قال: قال عبد الله انتم اليوم أكثر صياما وجهادا وصلاة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم

(٢٥) آل عمران (٣/٧٣-٧٤).

(٢٦) آل عمران (٣/٧٣).

(٢٧) فى نسخة أخرى [يزيد] وهو تحريف من الناسخ.

كانوا خيرا منكم. قالوا فم ذاك يا أبا عبد الرحمن قال: كانوا أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة.

وقال طلحة بن عبيد الله(٢٨) رضى الله عنه ما كان عمر رضى الله عنه أولنا إسلاما ولا أقدمنا هجرة ولكن أزهدنا فى الدنيا وأرغبنا فى الآخرة.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث عيسى عليه السلام «فإن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا» فالحمد هو التكلم بكلمة الحمد، وأما الشكر فهو رؤية النعمة من الله تعالى ومن رأى النعم من الله تعالى ذللته أثقال النعم وانقاد لله تعالى، فإن الآدمى مطبوع(٢٩) هكذا أن من أحسن إليه فقد سبى(٣٠) قلبه وصار له كالآخذ باليد يذهب به حيث يشاء والنفس يهيمها البر واللطف والرفق والإحسان. فإذا رأى العبد من الله تعالى إحسانه وبره تذلل له واستحيى منه أن يخالف أمره، وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: «جبلت(٣١) القلوب على حب من أكرمها وبغض(٣٢) من أهانها».

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبونى بحب الله وأحبوا أهل بيتى بحبى».

وعن الحسين رضى الله عنه قال: قال موسى عليه السلام: «يا رب كيف شكرك آدم عليه السلام؟ قال: علم أن ذلك منى وكان ذلك شكره» فأما قوله: «احتسبوا وصبروا» فالاحتساب: أن يرى ذلك

---

(٢٨) فى نسخة أخرى [عبد الله] وهو تحريف.

(٢٩) مطبوع: مجبول، ومفطور.

(٣٠) سبى: أسر.

(٣١) جبلت: فطرت، وخلقت وطبعت.

(٣٢) وفى معنى ذلك قال الشاعر العربى:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

الشىء الذى أخذه لله وإن كان قد صيره باسمه، فالأصل هو لله تعالى فيحتسبه لله تعالى كما فى الأصل وصبر أى ثبت فلم يزل عن مقامه لله عز وجل بزوال ذلك الشىء عنه، فإن العبد المؤمن يقول: إنا لله وها أنا ذا بين يديه مقيم فى طاعته، ونعم الله عليه سابغة فإذا امتحنه وأزال عنه نعمه زال عن مقامه ذلك طالبا لتلك النعمة التى زالت فليس هذا ثباتا، والصبر هو الثبات على المقام بين يديه وأن لا يعصبه، وأما قوله: «ولا حلم ولا علم» فكأن يخبر أن الله عز وجل قدر علما وحلما لخلقه يتحالمون فيما بينهم ويتعالمون فبذلك الحلم يتخلقون بأخلاقهم، كما قدر فيهم رحمة واحدة، فقسمها بينهم فبها يتراحمون فيما بينهم وبها يتلاطفون.

ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم»، وكانت هذه الأمة آخر الأمم فرق ذلك ودق فلو تركهم على دقة تلك الأخلاق ورقة تلك الأحلام وقلة العلم لم ينالوا من الخير إلا قليلا يسيرا. وهو قول عبد الله بن عمر، ولم يزل الناس ينقصون فى الخلق والخلق والرزق والأجل من زمن نوح عليه السلام، وقد كان أحدهم يعمر ألف سنة. وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن البرة فيهم كانت ككلوة البقر والرمانة الواحدة يقعد فى قشرها عشرة نفر والرجل فى خلقه ثمانون باعا، فصارت الأعمار ما بين الستين إلى السبعين، والبرة هكذا والخلقة هكذا» فانظر كم التفاوت بين العمرين وبين الخلقتين وبين الرزقين، فكذلك بين الخلقين فكأنه على نحو ما ذكر لم يبق لنا من الحلم والعلم من الحظ إلا يسير كان ما يفسد أكثر مما يصلح، وكأنا فى المثال كيأجوج ومأجوج إذ كان[33] لا حلم ولا علم فصرنا بمنة الله تعالى علينا بهذه الصفة التى وصف أن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا حتى برزت هذه الأمة على الأمم

(٣٣) فى نسخة أخرى [إذا كنا] وهو تحريف من الناسخ.

وصاروا صفوة الرحمن والمقدمين(٣٤) يوم القيامة والمبدوء بهم. وحرام على الأمم دخول الجنة حتى تدخلها هذه الأمة، فسأل عيسى عليه السلام ربه وقال: «كيف يكون هذا الفضل لهم ولا حلم ولا علم، قال: أعطيهم من حلمي وعلمي، وهو اليقين الذى أعطى هذه الأمة» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعطى أمتى ما لم يعط أحد» وهو قوله تعالى:

﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ ﴾ (٣٥)

ثم قال:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٣٦)

وقوله:

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٣٧)

فقوله أعطيهم من حلمي وعلمي أى أعطيهم النور فى قلوبهم فتنشرح له صدورهم وتتسع. فهو حلمه وأصل الحلم: اتساع القلب والصدر بالأمور، فكلما دخل الصدر فكرة أمر ذاب فيه وانهضم كما يهضم الطعام فى المعدة فاتسع الصدر للأمور وصلحت وطابت فكل طعام لا ملح فيه فلا طعم له وكل أمر لا حلم له فى القلب، فلا يتسع له ولا تجد النفس طعم ذلك الأمر فتلغطه، فإذا لغطته ضاق الصدر، فإذا ورد النور على القلب اتسع

---

(٣٤) فى نسخة أخرى [والمتقدمين] وهو تحريف.

(٣٥) آل عمران (٣/٧٣).

(٣٦) آل عمران (٣/٧٣، ٧٤).

(٣٧) الفتح (٢٨/٢٦). كلمة التقوى: هى كلمة التوحيد. لا إله إلا الله، وهذا هو قول الجمهور.

الصدر لذلك الأمر فنه تخرج محاسن الأخلاق والأفعال وهو قوله عز من قائل :

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (٣٨)

الحلم والملح يرجعان إلى معنى واحد وكل واحد منها ثلاثة أحرف تستعمل كل واحد منها فى نوعه وأما قوله ومن علمى فإنه لما ورد النور على قلوبهم صاروا فى العلم بالله تعالى وبأسمائه الحسنى. بحيث سبى قلوبهم، وصارت قلوبهم متعلقة بذكره، فاحتشت صدورهم من الحكمة، وفهموا عن الله تعالى فصاروا أبرارا أتقياء فقهاء، ولو تركهم على قسمهم وحظهم فى آخر الأمم من الذى قدر لجميع الأمم من الحلم والعلم والرحمة لكانت هذه الأمة أدنى الأمم وأخسها، فلما من عليهم بعطائه الواسع الكريم برزوا على الأمم. فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى» فإنما قووا على أن صاروا مهاجرين وأنصارا، هجروا أوطانهم وأموالهم وأولادهم، ونصروا الله تعالى ورسوله عليه السلام وصاروا من بعدهم تابعين لهم بإحسان بمثل هذا العطاء الواسع واليقين النافذ أى النافذ من الأسباب إلى ولى الأسباب، لأن النفس من شأنها أنها لا تترك شيئا قبضت عليه حتى تطمع فى شىء خير منه وإلا فخالبها أحد من أن يقدر على الانتزاع منها، فإذا كان فى كفها درهم فاطعمت فى دينار فرأت الدينار رمت بالدرهم فأعرضت عنه، ثم هى مقبلة على الدينار فإذا أطعمت فى جوهر فنظرت إلى الجوهر الذى يعدل ملء بيت دينارا لهت عن الدينار وصارت خدرة ذبلة وضعفت قوة مخالبها فصارت سلسة فأقبلت على الجوهر معرضة عن الدينار والدرهم مشتغلة بالجوهر وتعنى به. فلولا أن مَنَّ الله على (٣٩) هذه الأمة بهذا اليقين حتى طالعوا

---

(٣٨) الزمر (٢٢/٣٩). نور ربه: البصيرة والهداية، واليقين من أمر الدين. راجع الطبرى (١٣٤/٢٣).

(٣٩) مَنَّ الله عليها: تفضل عليها بالعطاء.

الملكوت وعظيم جلال الله فى صدروهم متى كانوا ممن يؤ يه لهم (٤٠) ويعبأ بهم وهم آخر الأمم وأقلهم حظا من الحلم (٤١) والعلم الذى قدر لهذه الأمم. وروى عن كعب رضى الله عنه أنه قال: لما نظر موسى عليه السلام فى الألواح قال: «يا رب إنى أجد فى الألواح صفة قوم على قلوبهم من النور أمثال الجبال تكاد البهائم تخر لهم سجداً إذا رأوهم من النور الذى فى صدورهم قال: «تلك أمة أحمد يذمون أنفسهم ولا يعجبون بها» فمن سعة أخلاقهم ونور قلوبهم أمكنهم أن يهاجروا وينصروا الله ورسوله» وقالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام:

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ (٤٢)

وعن عبد الله بن عمرو قال: أجد فى الكتب أن هذه الأمة تحب ذكر الله تعالى كما تحب الحمامة وكرها وهم أسرع إلى ذكر الله من الإبل إلى وردها يوم ظمأها.

---

(٤٠) يؤبه لهم: أى يكونوا موضع اهتمام.

(٤١) فى نسخة أخرى [الأحلام] وهو تحريف خطير.

(٤٢) المائدة (٥/٢٤).

[الأصل الثانى والعشرون فى النهى عن الأكل على الخوان وفى السكرجة والمرقق]

عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال: «ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قط ولا فى سكرجة ولا خبز له مرقق» قلت لأنس فعلى ما كانوا يأكلون. قال: على السفر[1]. فالخوان هو شىء محدث فعلته الأعاجم والعرب لم تكن لتمتهنها. وكانوا يأكلون على السفر واحدتها سفرة، وهى التى تتخذ من الجلود لها معاليق تنضم وتنفرج فبالانفراج سميت سفرة لأنها إذا حلت معاليقها انفرجت فأسفرت عما فيها. وإنما سمى السفر لإسفار الرجل بنفسه عن البيوت والعمران. وقوله: ولا فى سكرجة لانها أوعية الاصباغ ولم يكن من شأنهم الألوان إنما كان طعامهم الثريد عليها مقطعات اللحم. وقال صلى الله عليه وسلم «انهس[2] اللحم نهسا فإنه أشهى وأمرى» قوله ولا خبز له مرقق فكان عامة خبزهم الشعير وإنما يتخذ الرقاق من دقيق البر وقل ما يتخذ ويمكن اتخاذه من الشعير، وإنما الرقاق لمن اتخذ الميسر، والميسر من فعل العجم، والعرب تنهس اللحم. عن وكيع: ما درينا ما ألزما ورد طعام

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب الأطعمة ـ باب الخبز المرقق والأكل على الخوان والسفر (٩/٥٣٠)، وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الأطعمة ـ باب ما جاء علام كان يأكل النبى صلى الله عليه وسلم (٤/٢٥٠). وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه ابن ماجة فى سننه ـ كتاب الأطعمة ـ باب الأكل على الخوان والسفر (٢/١٠٩٥)، وأخرجه أحمد فى المسند (٣/١٣٠).

(٢) فى نسخة أخرى [أنهسوا] تحريف.

المريض حتى جاءنا ابن المبارك والميسر من تيسير اللحم وهو تفريق اللحم اليسير على النفر الكثير فإن قال قائل فقد جاء فى الأخبار ذكر المائدة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تصلى الملائكة على الرجل ما دامت مائدتة موضوعة»

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لو كان الضب حراما ما أكل على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال فرقد: «رأيت محمدا صلى الله عليه وسلم وطعمت على مائدة الطعام» فالمائدة كل شىء يمد ويبسط مثل المنديل والثوب والسفرة نسب إلى فعله، وكان حقه أن تكون مادة الدال مضاعفة فجعلوا إحدى الدالين ياء فقيل مائدة، والفعل واقع به فكان ينبغى أن يكون ممدودا ولكن خرجت فى اللغة مخرج فاعل كما قالوا سر كاتم وهو مكتوم وعيشة راضية وهى مرضية(٣) وكذلك قد خرجت فى اللغة ما هو فاعل مخرج مفعول فقالوا رجل مشؤم وإنما هو شائم وحجاب مستور وإنما هو ساتر.

فالخوان هو المرتفع عن الأرض بقوائمه والمائدة ما مد وبسط، والسفرة ما أسفر عما فى جوفه وذلك أنها مضمومة بمعاليقها.

عن الحسن رضى الله عنه قال الأكل على الخوان فعل الملوك، وعلى المنديل فعل العجم، وعلى السفرة فعل العرب، وهو السنة.

ولما غلب العجم على هذا الفعل قيل للخوان مائدة، ومما يحقق ذلك ما جاء فى التنزيل من ذكر المائدة وإنما نزلت سفرة حمراء مدورة.

---

(٣) مثل قوله تعالى: «إنه كان وعده مأتياً» أى آتياً وقوله: «لا عاصم اليوم من أمر الله» أى لا معصوم.

[الأصل الثالث والعشرون فى الأمر بقطع المراجيح]

عن عائشة رضى الله عنها: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقطع المراجيح»(1). مرجح ومرجاح لغتان فرجح جمعه مراجح ومرجاح جمعه مراجيح كمفتح ومفاتح ومفتاح ومفاتيح وهو لهو ولعب، إنما كان يفعله العجم فى أيام النيروز تفرجا وتلهيا عن الغموم التى تاركمت على قلوبهم من رين(2) الذنوب وقد تأدت إلى العرب سنتها، والمؤمن قد تعتوره(3) الأحزان والغموم لا محالة فمحال أن ينفك عنه غموم الذنوب وأحزان مشيئة الله تعالى فيه هذا حال المقتصدة، فأما أهل المعرفة وهم المقربون فغمومهم من البقاء فى الدنيا فإن الدنيا مطبق المقربين ينتظرون متى الراحة منها. وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا سجن المؤمن»، وأما أحزانهم وسائرهم مخلطون بطالون لعمرهم غافلون عن الآخرة سكارى، حيارى، سكارى عن وعده ووعيده، حيارى فى سيرهم إليه وركض الليل والنهار بهم إلى الله تعالى، فهم الذين يفزعون من غموم الدنيا، ورين الذنوب المعذبة لقلوبهم فى ظلمات سجون المعاصى إلى المرجاح تلهيا وتلعبا يتفرجون ويتنشطون ويتلبسون ويلتمسون النزهة ونسيمها ولا يعلمون أن النزهة فى نزاهة القلوب وتطهيرها من

---

(1) أخرجه البيهقى فى السنن ـ كتاب الشهادات ـ باب ما جاء فى المراجيح (10/220، 221)، وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب الأدب ـ باب المراجيح (8/115). وقال الطبرانى فى الأوسط: «وفيه من لا أعرفهم» أهـ.

(2) رين الذنوب: طبعها ودنسها.

(3) تعتوره: تحتوشه، وتسيطر عليه.

آفات النفس وخدعها، ورين الذنوب، حتى يجدوا نسيم الملكوت وروح قرب الله تعالى على قلوبهم فى عاجل دنياهم. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الإيمان خلو نزه فنزهوا»، فإذا التمس العبد هذه النزهة فهو نور على نور والقلب مشحون بالنور والصدر مشرق بالنور يعلم من ربه ويعلم ما من به عليه ربه وهو عنه غنى، ولكنه رحمة فمن عليه مما يرى عنده فأى فرح يتسع مع هذا الفرح فى قلب وكيف يبقى فى قلب فيه هذا الفرح بالله متسع للفرح بالدنيا وأحوالها. فالقلوب التى تعتورها غموم الآخرة هى نورانية تنفرج بتلك الأنوار التى يطالع بها الآخرة، وعظيم الرجاء من عند الماجد الكريم.

وأما القلوب التى تعتورها ظلمات المعاصى فهى قلوب معذبة ونفوس لقسة (٤) وجوارح كسلة يريدون أن يستروحوا إلى مثل هذه الأشياء من الملاهى ويتنفسوا فى فسيح النزاهات وقد أخذت غموم النفس بأنفاسهم وجرعتهم الغيظ فى أنهم لا يصلون إلى مناهم على الصفاء، فالملوك تخوف الغدر والبيات معهم والأمراء خوف العزل معهم، والأغنياء خوف السلب معهم، والأصحاء خوف السقم معهم. فهذه مخاوف مظلمة تورد على القلب مغمات، كسحائب مراكمات تفور فى جوفها من الحر ومع تلك السحائب حر مؤذ وذباب كلما ذب آب، وبراغيث يمنعن بعضهن عن الرقاد. فهذه صفة قلب المتنزهة بنزهة الدنيا، فالسحائب معاصيه، والذى يفور فى جوفها إصراره على المعاصى، والحر المؤذى شهواته التى تغلى فى صدره، والذباب مناه، كلما قضى مهمته من شىء عادت الأخرى والبراغيث تنافسه فى دنياه وفى أحوال دنياه، وثاب إليها فإذا لم يصل إليها رجعت عليه بحزازة (٥) فعضته وهو الحسد والغيرة والبغضة والبخل والشح (٦) فأى قلب هذه صفته يتهنى بنعمة من نعم الدنيا،

---

(٤) فى نسخة أخرى [دنسة].

(٥) الحزازة: الوغر، روجع القلب من الغيظ.

(٦) الشح: البخل مع الحرص.

فلا يغرن عاقلا ظاهر فرحهم. كما روى عن الفضيل بن عياض (٧) أنه قال ذل المعصية والله فى قلوبهم وإن دقدقت بهم الهمالج (٨) أبى الله إلا أن يذل أهل معصيته. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع تلك المراجيح وكره لهم أن يتزيوا بزى من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فلا خلاق له هناك. مع أن الخطر فى ذلك غير قليل، فربما انقطع الحبل فاندق العنق فصار معينا على نفسه فأما الذى يرخص فيه للتداوى لمريض ضاق بعلته صدره، أو للصبيان يعللون به فذاك لهم كالمهد يرج فيه حتى يذهب به النوم لأن الطفل لا يعقل ما يصلح له، ولا يصبر على الضجعة حتى يأخذه النوم كما يصبر الكبير فيعلل بتلك الأرجوحة، فيهوى بجسده تلقفا ودفعا حتى ينام. فليس هذا بداخل عندنا فى النهى، لأن هذا يأخذه على الانتفاع به. لا على الأشر والبطر. وعلى سبيل الملاهى فى يوم أهل البطالات.

عن داود بن أبى هند رضى الله عنه قال: رأيت الشعبى يترجح فنظرت إليه فقال: إنه نعت لى من وجع ظهرى ومحتاجة هذه النفس إلى تعليل فى كل مكان وإن تداوى ويرفق بها، والله رفيق يحب الرفق فى الأمور كلها. عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الرفق فى الأمر كله» (٩). وعن القاسم بن محمد رضى الله عنه قال: سمعت عائشة رضى الله عنها تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة ومن أعطى حظه من الرفق فقد

---

(٧) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التيمى اليربوعى، شيخ الحرم المكى، كان من أكابر العلماء المشهود لهم بالورع والتقوى والعبادة، ولد فى سمرقند، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة بلده، ومسقط رأسه، ثم سكن مكة، وتوفى بها سنة ١٨٧ هـ، راجع تذكرة الحفاظ (١/٢٢٥) وصفة الصفوة (٢/١٣٤) ووفيات الأعيان لابن خلكان (١/٤١٥).

(٨) الهمالج: والهماليج النوق، والدواب.

(٩) رواه البخارى فى صحيحه عن عائشة مرفوعاً. راجع التميز ص٤٣.

أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة»(١٠). ومن الرفق والتعليل بالنفس ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لما انتهيت إلى سدرة المنتهى، فتدلى النور الأكبر فغشى السدرة فحار بصرى، فحال دونه فراش من ذهب» يعلله بذلك حتى يقوى بصره على رؤية النور لأن الفراش إذا طار هكذا وهكذا حجبه مرة وانكشف له مرة، وما روى عنه صلى الله عليه وسلم فى قصة المعراج أنه قال: «لما انتهيت إلى قرب العرش تدلى رفرف فأخذنى من جبريل عليه السلام تناولا إلى سند العرش فجعل يهوى بى يخفضنى مرة ويرفعنى مرة» فذاك تعليل النفس وذلك أنها لا تقوى على مباشرة الأمور فى دفعة واحدة إلا قليلا قليلا، فقربه الرفرف فى رفعه العرش ثم خفضه ثم رفعه لكى تتمالك النفس ولو كانت فى دفعة واحدة لكان قمنا أن لا يتمالك. فكان الرفرف سببا لتداريه والرفق به وإنما قيل رفرف لأنه يرفرف حول المشاهدة والقربة، ويقال هو أخضر من الدر والياقوت فيما جاء به الخبر. وان أردنا بما ذكرنا من هذه الأشياء أن المرجاح الذى يوضع فيه الصبى أو المريض ليرجح بنفسه هكذا وهكذا حتى يجد الصبر على الاستقرار فى موطن واحد خارج من النهى، وإنما وقع النهى على من تشبه بأهل البطالة فى ذلك اليوم وبالملوك الفراعنة الذين تلذذوا به. فإن ذلك فعل ملهى مطرب مع الغناء والجوارى والسماع على شاطىء الأنهار فى تلك الخضر ونور الربيع وأخذت الأرض زينتها وزخرفها فى أيام النيروز مع طيب الهواء وسجسجة(١١) الجو تنزهوا فى نزهة الدنيا، وتنعموا بالألوان وقضوا المنى والشهوات، وحف بهم المعازف، وركبوا المراجيح فتعجلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا، قال الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا

---

(١٠) لأن الرفق، والحلم والأناة مجلبة لحب الناس، وتآلف القلوب، ومن أحبه الله أحبه الناس.
(١١) السجمية: الاعتدال.

وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (١٢).

فبلغنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلم فى امتناعه من التوسع فى النعيم فتلى هذه الآية الكريمة. فقيل له يا أمير المؤمنين: أليس هذا للكفار؟ فقال: ثكلتك أمك الكفار أهون على الله تعالى من أن يعاتبهم. ونظرت فى هذه الآية فوجدت مبتدأها ذكر الكفار وهو قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ (١٣).

ثم قال فى آخرها:

﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (١٣)

فأخبر أنه إنما جزاؤهم عذاب الهون بالاستكبار بغير الحق وبالفسق ليحذر المؤمن أن يستكبر فى أرضه بغير الحق وأن يفسق. فإن دخول النار بالكفر وتضاعف العذاب وقسمة الدركات بالأعمال السيئة والأخلاق السيئة ودخول الجنة بالإيمان، وتضاعف النعيم، وقسمة الدرجات بالأعمال والأخلاق الحسنة ولما عير الكفار بالكبر والفسق فزع عمر رضى الله عنه من ذلك وحق له أن يفزع من التعجيل ببعض الطيبات فى الحياة الدنيا والاستمتاع بها، ومن ههنا ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنه أتى بعسل قد خيض بماء فرده وقال أما أنى لا أحرمه ولكننى أتركه تواضعا لله تعالى» كأنه رأى أن النفس إذا أعطيت شهواتها فذاك من الاستكبار، وإذا منعت فذاك من التواضع لله تعالى.

---

(١٢)،(١٣) الأحقاف (٤٦/ ٢٠)، راجع تفسير الفخر الرازى الكبير (٢٨/ ٢٥).

هذا فيما حل وأطلق له، فكيف بما حرم عليه. وأن الله تعالى خلق الجنة فحشاها بالنعيم ثوابا لأهلها، وخلق النار فحشاها بالعذاب عقابا لأهلها وخلق الدنيا فحشاها بالآفات والنعيم محنة وابتلاء، ثم خلق الخلق والجنة والنار فى غيب منهم لم يعاينوه. فالنعيم والآفات التى فى الدنيا من أنموذج الآخرة ومذاقه فيها. وخلق فى الأرض من عبيده ملوكا أعطاهم سلطانا أرعب به القلوب وملك به النفوس قهراً أنموذجا ومثالا لتدبيره وملكه ونفاذ أمره، ووصف الدارين وضرب الأمثال ثم قال:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ (١٤).

وليس فى الدنيا شهوة ولا نعمة إلا وهى أنموذج الج وذوقها ثم من وراء ذلك فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولو سمى للعباد منها لم ينتفعوا بتلك الأسماء لأنهم لم يعقلوه ههنا ولا رأوه ولا أنموذج لها فى الدنيا، والجنة مائة درجة وإنما وصف منها ثلاث درجات الذهب، والفضة، والنور، ثم ما وراء ذلك لا تحتمله العقول، ولأهل الجنة تلاق وزيارات ومتحدث فى مواطن الألفة ومجتمع فى ظل طوبى (١٥) ويركبون رفارف. والرفرف شيء إذا استوى عليه رفرف به وأهوى به كالمرجاح يمينا وشمالا ورفعا وخفضا يتلذذ مع أنيسه، فإذا ركبوا الرفارف أخذ اسرافيل عليه السلام فى السماع. وقال طلحة بن مصرف رضى الله عنه يعجبنى أن يمر بى يوم النيروز وأنا لا أشعر به ومن ذهب يصوم فى ذلك اليوم ويزيد فى أعمال البر يتوخى بذلك خلافا لهم، فهذا مذهب أيضا ولكن المذهب الأول، وهو ما ذكره طلحة بن مصرف، أسلم له فإن هؤلاء اتخذوه عيدا لنزهتهم وسرورهم، وهذا قد اتخذه عيدا لعبادته والاتخاذ يشبه الاتخاذ وإن كان العملان متباينين، ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صوم يوم الجمعة

---

(١٤) العنكبوت (٢٩/٤٣).

(١٥) طوبى: اسم شجرة فى الجنة.

وقال: «لا تتخذوه عيدا».

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه أتى بفالوذج فقال ما هذا قالوا أنه يوم نيروز وذلك بأرض العراق قال «نورزوا كل يوم» كأنه أراد أن لا يعبأ به.

[الأصل الرابع والعشرون في قوله صلى الله عليه وسلم: احشر أنا وأبو بكر وعمر]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحشر أنا وأبو بكر وعمر هكذا وأخرج السبابة والوسطى والبنصر وأراه قال ونحن مشرفون على الناس»(1).

السبابة من الأصابع التى تلى الإبهام، وكانت فى الجاهلية تدعى السبابة لأنهم كانوا يسبون بها فلما جاء الله تعالى بالإسلام سموها المشيرة، وذلك أنهم كانوا يشيرون بها إلى الله عز وجل بالتوحيد. وفى حديث وائل بن حجر سماها السباحة، ولكن اللغة سارت بما كانت تعرف فى الجاهلية فغلبت، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تأكلوا بهاتين وأشار بالإبهام والمشيرة، وقال كلوا بثلاث فإنها سنة، ولا تأكلوا بخمس فإنها أكلة الأعراب» فالأكل بالخمس علامة الحرص والاقتحام فى الطعام، وذلك مما يمحق البركة ويفسد على أصحابه حتى يعافوه، والأكل بأصبعين مما لا يستوفى وهى أكلة الملوك، وزىّ أهل النخوة الذين يستكبرون، ويمتنعون عن الأكل عتوا وتجبرا وصلفا، وإذا نظروا فبلحاظ أعينهم، وإذا تكلموا فبأشداق أفواههم، وإذا سمعوا فبأصعار خدودهم، وإذا تناولوا فبأطراف أناملهم، وإذا مشوا فبأجنحة صدورهم، وتمطى

(1) ذكره الإمام السيوطى فى الجامع الكبير (1/244) وعزاه للحكيم الترمذى، وأشار إليه الهندى فى كنز العمال (11/570) وذكر تفرد الحكيم بروايته عن ابن عمر.

خواصرهم، متبخترين مشية مطيطاء بضم الميم ممدودا بطراً وعلواً، والأكل بثلاثة تواضع عن النخوة وعفة عن الحرص.

فالأول غلو، والآخر تفريط، وما بينهما وسط. قال الحسن البصرى: رحمه الله: إن دين الله وضع على القصد، فدخل الشيطان فيه بالإفراط والتقصير فهما سبيلان إلى نار جهنم. وعنه أن دين الله تعالى وضع دون الغلو وفوق التقصير. عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع بالإبهام، والتى تليها، والوسطى، ثم رأيته لعق أصابعه الثلاث حين أراد أن يمسحها فلعق الوسطى ثم التى تليها ثم الإبهام».

فأما قوله صلى الله عليه وسلم: «أحشر أنا وأبو بكر، وعمر يوم القيامة هكذا» فهذا على درجاتهم فكانت إشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصابعة الثلاث.

وروى لنا عن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى، والبنصر أقصر من الوسطى وذكر المنازل والأشراف على الخلق وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلاهم إشرافا ثم من بعده أبو بكر، دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق عمر ثم من بعده عمر دون أبى بكر رضى الله عنهما، فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل تأويل هذا الحديث على الانضمام والاقتراب بعضهم من بعض، وهذا معنى بعيد لأن حشر رسول الله صلى الله عليه وسلم حشر الرسل عليهم السلام، وحشر أبى بكر وعمر حشر الصديقين رضوان الله عليهم أجمعين، وكذلك مقامه فى العرصات[1] هو فى مقام النبيين، ومقامهما من العرصات مقام الصديقين.

(١) العرصات: جمع عرصة، وهى كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء، وتجمع أيضاً على (عِرَاص).

عن ميمونة بنت كروم رضى الله عنها قالت: خرجت فى حجة حجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد رأيتنى أتعجب وأنا جارية من طول أصبعه التى تلى الإبهام على سائر أصابعه.

[الأصل الخامس والعشرون فى أن الكتابة قيد للعلم وحفظ له من النسيان]

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قيدوا العلم بالكتابة»(1). وفى المأثور من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن الله تعالى لما خلق آدم خلق لقلبه غاشية تنطبق مرة وترتفع أخرى، فأسمع. والغاشية مرتفعة حفظه وما سمع والغاشية منطبقة نسيه».

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا أمير المؤمنين مم يذكر الرجل، ومم ينسى فقال إن على القلب طخاءة(2) كطخاءة القمر فإذا تغشت القلب نسى ابن آدم ما كان يذكر، وإذا تجلت ذكر ما كان نسى.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أول من خط بالقلم بعد آدم إدريس عليهما السلام، وسمى بذلك لأنه كان يدرس الكتب، وكتب نوح عليه السلام ديوان السفينة، وكتب الله تعالى التوراة لعبده موسى عليه السلام، قال تعالى:

---

(1) أخرجه الدارمى فى سننه فى المقدمة. باب من رخص فى كتابة العلم (1/127، 128)، وذكره ابن سعد فى الطبقات الكبرى (7/22)، وأخرجه الحاكم فى المستدرك -كتاب العلم- باب قيدوا العلم بالكتاب (1/206)، وأبونعيم فى حلية الأولياء (3/321)، وأخرجه الطبرانى فى الكبير (1/128)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (1/152) رجاله رجال الصحيح.

(2) طخاءة: غشاوة.

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [3].

وكتب الزبور من زبر الرجل أى كتب وقال تعالى فى تنزيله:

﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ [4]

أى فى اللوح وأول ما بدأ شأن الكتابة بدأ القلم واللوح فكتب ما هو كائن.

والكتاب حق وتدبير من الله تعالى لعباده. والكتب الجمع بين الحروف ومنه سميت الكتيبة لأنها جمعت فإذا قيدت المعانى بهذه الحروف المخطوطة التى هى دلائل على المعانى فإن كانت محفوظة فالكتاب مستغنى عنه وإن نسيت صار الكتاب نعم المستودع وإن دخل القلب ريب [5] فى ذلك نفى الريب، واطمأنت النفس، وقد أدب الله عز وجل العباد، وحثهم على مصالحهم، فقال عز من قائل فى شأن المداينة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم ﴾ [6]

الآية فأعلم أن الكتابة قسط عند الله تعالى وهو العدل يؤدى ما أوتمن واستودع وأقوم للشهادة أى أحرى أن يقوم بها، وأبعد من الشك، والريبة ومن ههنا أخذ طاووس فقال: يسعه أن يشهد على خطه وهو لا يذكر فإذا كان تجار الدنيا فى المداينة فيما بينهم يقيدون الأمانات المؤجلة لئلا تدرس [7] ليؤدوها فى مواقيت حلها كما ندبهم الله تعالى إليه ودلهم عليه كان تجار الآخرة فى تقييد الأمانات التى أخذ الله تعالى الميثاق فيها أن

(٣) الأعراف (١٤٥/٧).
(٤) سورة القمر: الآية رقم: ٥٢.
(٥) ريب: شك.
(٦) البقرة (٢٨٢/٢). راجع تفسير الآية فى الطبرى (٦٧/٦) والقرطبى (٣٩٧/٣).
(٧) تدرس: تعفى.

يؤدوه ولا يكتموه أحرى أن يحافظوا عليها ويداوموا على إثباتها، وتقييد رسومها، ائلا تدرس ليؤدوها فى مواقيتها عند حاجة الخلق إليها فى نوازلهم فإن أمانة الدين أعظم شأنا من أمانة الدنيا وقد إئتمن الله تعالى أهل الأموال ليحرزوها، ويحفظوها، ويراقبوا أمر الله تعالى فيها من صرفها فى وجوهها وإخراج حقوقها، وإنفاقها فى السبل التى أذن الله تعالى فيها. وأتمن الله تعالى أهل العلم على ما أودعهم من نوره وبراهينه، وكتبه وحججه ليحرزوها، ويحفظوها ويراقبوا أمر الله تعالى فيها من صرفها فى وجوهها ووضع كل شىء منها مواضعها وإخراج حقوقها لأهل الحاجة إليها وإنفاقها فى السبل التى سبلها الله تعالى لهم. ولهذا ما جاء فى الخبر (ان الله تعالى يختص هذين الصنفين من جميع الخلق للحساب، فيقول للعلماء كنتم رعاة غنمى، ولأهل الأموال كنتم خزان أرضى فقبلكم اليوم طلبتى) فالمراعى بيد الخزان والمرعى بيد الرعاة إذا أرعى الخازن الغنم، رعاه الراعى وذلك أن مرعى الغنم دنياهم. والدنيا بأيدى الخزان والرعاية بأيدى الرعاة يسوقهم إليها فيرعيهم ويوردهم الماء حتى يعيشوا وهو العلم الذى بين لهم منه. وان تردى متردٍ جبر كسيرته، وإن عدى الذئب طردهم عنه بالكلاب. وإن مال إلى منابت السوء من السموم القاتلة صرف وجوههم عنها.

فهؤلاء الرعاة فهذا شأن عظيم قد قلدوا من أمور الخلق فوقعت شدة الحساب عليهم وإذا منع الخازن هلكت الغنم. وإذا ضيع الراعى هلكت، وكذلك جاء فى الخبر أنه ينادى يوم القيامة: ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولبست الصوف، ولم تأو لى الضالة، ولم تجبر الكسيرة، ولم ترعها فى مرعاها اليوم انتقم منك.

فأما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من أشراط الساعة أن توضع الأخيار وترفع الأشرار وأن تقرأ المثناة على رؤس الناس»

وما شددت الصحابة رضوان الله عليهم في ذلك فقالوا كتاب مع كتاب الله فإن ذلك مما كانت اليهود فعلته.

وقد وصف الله تعالى في تنزيله الكريم فقال:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (٨)

وذلك أنه لما درس الأمر فيهم وساءت رغبة علمائهم أقبلوا على الدنيا حرصا، وجمعا فطلبوا شيئا يصرف وجوه الناس إليهم فأحدثوا في شريعتهم، وبدلوا، وألحقوا ذلك بالتوراة، وقالوا لسفهائهم هذا من عند الله ليقبلوها عنهم، فتتأكد رياستهم وينالوا به حطام الدنيا، وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا:

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (٩)

وهم العرب أي ما أخذنا من أموالهم فهو حل لنا. وما كان مما أحدثوا فيه أن قالوا لا يضرنا ذنب فنحن أحباؤه وأبناؤة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وإنما كان في التوراة يا أحباري ويأبناء رسلي فغيروه وكتبوا يا أحبائي، ويا أبنائي، فأنزل الله تعالى تكذيبهم:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ (١٠)

فقالت: لن يعذبنا وإن عذبنا فأربعين يوما مقدار أيام العجل فأنزل الله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن

---

(٨) البقرة (٢/٧٩).
(٩) آل عمران (٣/٧٥).
(١٠) المائدة (٥/١٨).

يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ [11] الآية.

فحذر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأمة لما قد علم ما يكون فى آخر الزمان فحذرهم أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم معارضا لكتاب الله تعالى، فيضلوا به الناس، والمثناة ما ثنى من الكتاب ليصرف وجوه الناس عن كتاب الله تعالى.

فأما إثبات الكتاب وما سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم من تفسيره وبيانه وشرحه فحمود، قال صلى الله عليه وسلم: «ألا وأنى أوتيت الكتاب ومثله فلا يتكئن[12] أحدكم على أن يقول ما وجدنا فى كتاب الله عز وجل أخذنا به وما لم نجد تركناه» فى كلام نحو هذا، وكان الذين يأخذون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بصائر ويقين وتجلية قلوب يحفظون عنه. فلما صاروا إلى القرن الذى يليه، وظهرت الفتن احتيج إلى إثباته فى الكتب. فمنهم من هاب ذلك لأنه رآه حدثا وأمرا لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهاب أن يكون بدعة، ومنهم من تجاسر عليه لما رأى فيه من النفع كما تجاسر أبو بكر رضى الله عنه على جمع القرآن. وهابه عمر رضى الله عنه، وقال أنفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر رضى الله عنه فلم يزل يرادّنى فى ذلك حتى شرح الله صدرى لذلك كما شرح

---

(11) البقرة (2/ 80).

(12) بيد أن شرذمة من الخراصين المتعالمين ظهرت هذه الأيام تنادى بإنكار السنة جميعاً، وليس لهم من وراء ذلك إلا حب الظهور حتى ولو كان بالباطل، ولا يدركون خطورة ما يذهبون إليه، بل يقول قائل منهم: إن القرآن فيه كل شيء، وأنا أكتفى به، ونقول له: إنك بذلك الذى انتهيت إليه قد خالفت نصوص القرآن، لأنك لو علمت وفهمت مراد الحق سبحانه وتعالى من تنزيله لكنت المتمسك بالسنة، فالله سبحانه وتعالى قد جعل طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم طاعة له، قال تعالى: «من أطاع الرسول فقد أطاع الله» وقال: «وأطيعوا الله، وأطيعوا الرسول»

صدره فجمعوا على تأليفه أبى بن كعب، وقراء القرآن رضى الله عنهم، فكذلك هذه الكتب لم يزل الناس كلما مضى قرن أحوج إلى تقييده، وبيانه وشرحه- لأن العلم فى إدبار، والجهل فى إقبال، حتى غلب الجهل وأحاط بالخلق البلاء، ونجمت قرون البدع فأحوج ما كانوا إلى شرحه، وبيانه فى هذا الوقت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لغير واحد من أصحابه فى ذلك رضوان الله عليهم. عن ابن عباس رضى الله عنهما «أن رجلا شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سوء الحفظ فقال استعن بيمينك».

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صحيفة يكتب فيها ما سمع منه فأذن له.

عن عبد الله بن عمرو أنه قال: يا رسول الله اكتب ما أسمع منك، قال: نعم، قال: عند الغضب والرضى، قال: نعم، فإنه لا ينبغى أن أقول إلا حقا».

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب حيث افتتح مكة شرفها الله. فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه فقال اكتب هذا لى يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :اكتبوا لأبى شاه يعنى تلك الخطبة.

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قيدوا العلم. قلنا وما تقييده؟ قال: علموا وتعلموا واستنسخوه فإنه يوشك أن يذهب العلماء ويبقى القراء لا يجاوز قراءة أحدهم تراقيه.

[الأصل السادس والعشرون فى ذكر فتانى القبر]

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوماً فتأى القبر. فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أتردّ الينا عقولنا يا رسول الله؟ قال: «نعم كهيئتكم اليوم» فقال عمر رضى الله عنه ففى فيه الحجر(١).

المؤمن كريم على ربه يدل بزلفاه على خلقه، فمن عرض له بسوء عارضه بإذن الله معتزاً بالله، وكيف لا يكون هكذا وقد أوحى الله تعالى فى تنزيله الكريم:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢)،

أعلم أن المنافقين لا يعلمون هذا. فأما المؤمنون فقد بان لهم أن الله تعالى قد أعزهم وبان لهم عند أنفسهم أنهم إنما يعزون بالله تعالى، فعمر رضى الله عنه حين ذكر له فتانى القبر كأنه غاظه ذلك من فعل الفتانين ففزع إلى الله تعالى. وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم فإنما كان يجد الخبر من الغيب على لسانه أترد إلينا عقولنا؟ فلما قال «نعم، كهيئتكم اليوم» أنطقته الجرأة الدالة. لا جرأة الحماقة وجرأة الدالة من

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ـ كتاب الجنائز ـ باب فى الميت يسمع ويسأل ص١٩٦، وأخرجه أحمد فى المسند (١٧٢/٢)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب الجنائز ـ باب السؤال فى القبر (٤٧/٣) وقال رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) المنافقون (٨/٦٣). راجع قصة عبد الله بن أبى بن سلول فى القرطبى (١٢٩/١٨) وصفوة التفاسير (١٥٥٧/٢٨).

اليقظة، والمعرفة، وجرأة الحماقة من الجهل، والغفلة فقال ففى فيه الحجر أى أنه إذا كان عقلى الذى معى اليوم يرد علىّ كهيئته اليوم معى أسكته بحسن الجواب فكأنى القمته الحجر أى بجوابى، وبما أعطى من سلطان الحق، ونفاذ بصيرة العقل، لأنه نظر فوجده كأنه أعطى سلطان الامتحان ونظر إلى نفسه فوجده قد أعطى سلطان الحق ونوره فلم يبال به وخلق خلقه منكرة. وسمى منكراً لذلك وسمى صاحبه نكبراً وقد وصفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أعينهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وشعورهما تحت أقدامهما يحفران الأرض بأنيابهما» فإذا كان فى القلب من سلطان المعرفة ما لا يهاب ملوك الدنيا وسائر ما ينفر منه القلوب، فإنه لا يهاب منكراً ونكبراً، وقال عمر رضى الله عنه فى رواية: «إذا اكفيهما يا رسول الله».

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، أنه خرج فى سفر له فإذا الجماعة على طريق. فقال: ما هذه الجماعة؟ قالوا: أسد قطع الطريق. قال فنزل، ومشى إليه حتى قفده بيده ونحاه عن الطريق ثم قال: ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما يسلط على ابن آدم من خافه ابن آدم ولو أن ابن آدم لم يرج إلا الله لم يكله الله إلى أحد غيره» وحديث ابن عمر رضى الله عنهما يدل على أن كلا إنما يرد إليه عقله الذى خرج به من الدنيا على تلك الهيئة وبين العقول تفاوت، فإذا كان عقل الرجل وافراً، فاستقبله هول من أهوال الدنيا من ذى سلطان أو غيره فاستقام ولم يدهش، ولم تصبه الحيرة، فى أمره كان يومئذ مردوداً عليه ذلك العقل فإذا استقبله هول فتانى القبر لم يدهش، ولم يتحير. ومن كان عقله اليوم ما إذا حل به شىء من ذلك الوجه دهش، وتحير ولم يثبت على الاستقامة حتى مال كان إذا استقبله هول فتانى القبر هناك مثل ذلك. وأن الله تعالى يلطف لعبده المؤمن

وينصره ويثبته فى الأحايين كلها قال عز من قال:

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(٣)

فعلى قدر ثباته فى الدنيا يكون ثباته فى القبر.

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر حديث الصور، فقال: «فى آخر ذلك يقول الله تعالى لملك الموت عليه السلام من بقى فيقول بقيت أنت الحى القيوم الذى لا يموت وبقى عبدك ملك الموت فيقول يا ملك الموت أنت خلق من خلقى خلقتك لما ترى فقد مات الخلق كلهم فمت ثم لا تحيى أبداً» وقد امتنع كثير من الرواة من رواية هذا الحرف ثم لا تحيى أبداً وهاب هذه الكلمة وذلك مبلغ علمه، فنظرنا فى هذا الحرف فوجدنا أن الله تعالى يحب المؤمن ومن حبه إياه رزقه الإيمان، والمعرفة فقمن أن يترك إحياء ملك الموت عليه السلام كرامة للمؤمنين. فإن كل من لقى من أحد شدة ثقل عليه النظر إليه فكيف بمن قتله وقطع روحه من كل مفصل حتى نزعه. ألا ترى أنه كان يأتيهم عياناً فشتموه وآذوه فشكى إلى الله عز وجل فصير أمره فى خفاء وهيأ لهم الأسباب من الأمراض، والعلل لكى يدرس ذكر ملك الموت عليه السلام عن قلوبهم وألسنتهم، ويقولون مات فلان بعلة كذا. ألا ترى أنه لطمه موسى ففقأ عينه فرجع يشكو إلى الله عز وجل. وإنما فقأ عين الصورة التى كان أتاه فيها وهذا عند من يجهل معناه منكر مدفوع متهم رواته وكيف يتهم رواته وقد روته الأئمة من غير وجه، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كان ملك الموت يأتى الناس عياناً حتى أتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه، فرجع ملك الموت إلى ربه عز وجل فقال يا رب إن عبدك موسى فعل بىّ ما ترى ولولا كرامته عليك لشققت عليه قال:

---

(٣) إبراهيم (١٤/٢٧).

ارجع إلى عبدى موسى فقل له فليضع يده على متن ثور فخيره بكل شعرة توازى كفه أن يعيش منه فقال موسى عليه السلام يا ملك الموت فما بعد ذلك فقال الموت قال فمن الآن قال فشمه شمة فقبض روحه فرد عليه بصره فكان يأتى الناس بعد ذلك فى خفية » وإنما استجاز ذلك موسى عليه السلام لأنه كليم الله تعالى، كأنه رأى أن من اجترأ عليه ومدّ يداً بالأذى إليه فقد عظم الخطب فيه وإنما اعتز بالله تعالى، ورغب فى عبادته ودعوة الخلق إليه لا شحا على الحياة وحرصاً على الدنيا وتلذذاً بها .

[الأصل السابع والعشرون فى أن من السنة مشاركة الجليس فى الهدية]

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أتى أحدكم بهدية فجلساؤه شركاؤه فيها» (١) فالجساء هم الذين داموا على مجالستهم معك، وفاوضوك فى أمورك. فليس كل من جلس إليك فهو جليسك كما يقال: أكيلك، وشريبك، وحريفك، ووزيرك، وليس كل من أكل معك مرة، أو وازرك على أمر مرة باكيل ولا وزير، فإذا أهدى لك. فله من الحق أن تحذى له منها لأن كرامتك كرامته، وهو من أهل وصية الله تعالى بالإحسان إليه فقال:

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ (٢)

قيل فى التفسير رفيقك فى السفر، وجليسك فى الحضر، وأمرأتك التى تضاجعك. عن مالك بن دينار رضى الله عنه قال يقول الله تعالى: «إنى لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى جلساتء القرآن وعمار المساجد وولدان الإسلام يسكن غضبى» فليس كل من قرأ القرآن فهو جليس القرآن. إنما الجليس من جالسه القرآن، وفاوضه وأبدا له عن

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب الهبة - باب من أهدى له هدية وعنده جلساؤه فهو أحق (٢٢٧/٥)، ورواه البيهقى فى السنن - كتاب الهبات - باب ذكر الخبر الذى روى من أهديت له هدية وعنده ناس فهم شركاء فيها (١٨٣/٦)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد - كتاب البيوع - باب فيمن أهديت له هدية وعنده قوم (١٤٨/٤)، وذكره الشوكانى فى الفوائد ص٢٣٢

(٢) النساء (٣٦/٤) الصاحب بالجنب: قيل هو الرفيق فى السفر، ورأى آخرون أنه امرأة الرجل، وقد أخذ الطبرى فى تفسيره بالقولين معاً (٣٤٤/٨).

أســـراره، وعجائبه، وبواطنه، وإنما يكون هذا لمن انتفى عنه جور قلبه (٣) وذهبت خيانة نفسه، فأمنه القرآن فارتبع فى صدره، وتكشف له عن زينته وبهائه، وكذلك عمار المساجد ليس من أنفق فى مسجد، أو رمه. فهو من العمار. إنما عمار المساجد من عمرها بذكره قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ (٤) الآية

فجليس القرآن من جالسه القرآن فإذا وجد القلب طاهراً جالسه القرآن، وكشف عن وجهه فإن وجهه باطنه وهذا ظهره الذى يعقله الناس. ومنه ما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنا لنجد لقراءتك لذة يا رسول الله ما لا نجده لقراءة أحد قال: «لأنكم تقرؤنه لظهر وأنا أقرؤه لبطن» (٥) فلا يكشف عن وجهه إلا الأمين الذى لا يخونه.

ومثله كمثل عروس مزين مد يده إليه دنس متلوث فى المزابل متلطخ بالأقذار. وهى تعرض عنه أنفة وتعافه وتقذره، فإذا تظهر ثم تزين فقد أدى حقها. أقبلت إليه بوجهها. ففاوضته وصارت له جليسة. فكذلك القرآن له ظهر وبطن. فوجهه مما يلى بطنه والزينة والبهاء والحسن فى الوجه فلا يكون جليساً إلا من تطهر من الذنوب ظاهراً وباطناً، وتزين بالطاعة ظاهراً وباطناً فعندها يأمه القرآن فيتحلى له بزينته وبهائه، ومواعظه، وحكمه وما حشى الله تعالى فيه من المن واللطف لعباده، وحرام على من ليس هذه صفته أن ينال ذلك. وكيف ينال البر واللطف عبد آبق (٦) من مولاه. هارب على وجهه. لا يزداد على تجدد الأيام إلا هرباً بنفسه. إنما ينال البرّ إذا أقبل إليه

(٣) الجور: الظلم.

(٤) التوبة (١٨/٩).

(٥) الله أعلم بصحة هذا الحديث.

(٦) العبد الآبق: الهارب من سيده.

من أباقه تائباً نادماً فيمكث فى التوبة مدة يظهر له نصحه فهناك فليتوقع بره ولطفه فكذلك هذا كيف ينال البر واللطف من الله تعالى من قلبه مكب (٧) على حطام الدنيا، وقضاء الشهوات، وإنما البر واللطف للمتقين والمحسنين وقال تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (٨)

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من تواضع لله درجة رفعه الله درجة ومن تواضع لله درجات رفعه الله درجات حتى يجعله فى أعلى عليين، ومن تكبر على الله درجة وضعه الله درجة ومن تكبر على الله درجات وضعه الله درجات حتى يجعله فى أسفل سافلين».

فالتكبر بغير الحق هو الذى يقضى بهمته، وشهوته، ولا يبالى أذن الله له فيها أو لم يأذن فهو من الله تعالى عقوبة أن يضيعه (٩) فكيف ينيله البر واللطف الذى يريه أحباءه (١٠) فى تنزيله الكريم بل إذا تلاه رف قلبه عنها، فلا يعيه، ولا يفهمه كما صرف هذا بقلبه عن الله تعالى، إلى نفسه ودنياه، وروى فى التفسير قوله تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (١١)

قال أنزع عنهم فهم القرآن فلا يفهمونه ولا يجدون له حلاوة ولا لذاذة وذلك أن الفهم نور إذا ورد على القلب دنس المعاصى ارتحل النور فتحير عن فهمه.

---

(٧) مكب على حطام الدنيا: من الانكباب أو الإكباب، وهو الإقبال بشدة، وتهالك، واستكلاب.

(٨) الأعراف (٧/١٤٦).

(٩) فى نسخة أخرى [بصنعه] وهو تحريف.

(١٠) وردت فى نسخة أخرى [أحباؤه] وهو خطأ تحريف وفى المطبوعة [أحبائه] وهو تحريف وخطأ خطير، والأصح.

(١١) الأعراف (٧/١٤٦).

وروى فى الحديث أنه قال: «يأتى على الناس زمان يخلق القرآن فى قلوبهم حتى يتهافت مثل الثوب الخلق[12] البالى».

(١٢) الثوب الخلق: البالى.

[الأصل الثامن والعشرون فى سر إماطة الأذى عن الطريق]

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينما رجل يمشى فى الطريق إذا أبصر بغصن شوك فقال: والله لأرفعن هذا لا يصيب أحداً من المسلمين فرفعه فغفر له» (١) قال أبوعبد الله ليس برفع الغصن نال المغفرة فيما نعلمه. ولكن بتلك الرحمة التى عم بها المسلمين، فشكر الله له عطفه ورأفته بهم. عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بينما عبد لم يعمل لله خيراً قط مر على بئر فشرب، فإذا هو بكلب يلهث عطشاً فغرف له بخفه فسقاه فشكر الله له ذلك فغفر له، وبينما عبد لم يعمل لله تعالى خيراً قط، فمر على غصن شوك فأماطه عن الطريق فغفر الله له، وبينما عبد لم يعمل لله تعالى خيراً قط ففرق (٢) فخرج هارباً فجعل ينادى يا أرض اشفعى لىّ ويا سماء اشفعى لىّ ويا كذا اشفعى لىّ حتى أصابه العطش فوقع فلما أفاق قيل: له قم. فقد شفع الله لك من قبل فرقك

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب الأذان ـ باب فضل التهجير إلى الظهر (٢/١٣٩) ـ وكتاب للظالم ـ باب من أخذ الغصن وما يؤذى الناس فى الطريق فرمى به (٥/١١٨)، وأخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب البر والصلة ـ باب فضل إزالة الأذى من الطريق (١٦/١٧١)، وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء فى إماطة الأذى عن الطريق (٤/٣٤١)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أبوداود فى سننه ـ كتاب الأدب ـ باب فى إماطة الأذى من الطريق (٤/٣٦٢)، وأخرجه مالك فى الموطأ ـ كتاب الصلاة ـ باب ما جاء فى العتمة والصبح (١/١١٥)، وأخرجه أحمد فى المسند (٢/٤٨٥).

(٢) فرق: فزع وخاف.

من الله تعالى». قال أبو عبد الله (٣) فإنما غفر له من أجل الرحمة التى رحم بها الكلب. وإنما غفر له من أجل الفرق الذى حل بقلبه لأنه عمل فيه حتى فارق المعاصى أصلاً فتركه بالجوارح فعلاً، وتركه قلباً، ونفساً، فطهر الظاهر والباطن، وأماتت منه شهوة كل معصية، والذى يترك المعاصى بجوارحه وشهوتها فى قلبه ونفسه تنازعه إلى ذلك. فإنه إن طهر ظاهره فلم يطهر باطنه، فلم يستكمل التوبة بحقيقتها. ولما أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ (٤)

قال: فلما تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين خرَّ فتىً مغشياً عليه، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على فؤاده فإذا هو يتحرك قال: «يا فتى قل لا إله إلا الله» فأفاق الفتى وهو يقولها. فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، فقال أصحابه: يا رسول الله أمن بيننا فقال صلى الله عليه وسلم أما سمعتم الله يقول:

﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ (٥)

والرهب هرب القلب من هول سلطان الله وهو أكبر من الخوف والخوف خيفته (٦) وانزعاجه والرغب التهاب القلب حرصاً على الشيء وهو أعلى من الطمع.

---

(٣) أى المؤلف ـ رحمه الله ـ.

(٤) التحريم (٦٦/٦).

(٥) إبراهيم (١٤/١٤).

(٦) فى نسخة أخرى [خفته] وهو تحريف من الناسخ.

[الأصل التاسع والعشرون فى النظافة]

عن عبد الله بن بشر المازنى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قصوا أظافيركم وادفنوا قلاماتكم ونقوا براجمكم ونظفوا لثاتكم من الطعام وتسننوا ولا تدخلوا على فخرا بخرا» [1] أما قص الأظفار فلأنها تخدش، وتضر، وهو مجمع الوسخ، وربما اجنب ولا يصل الماء إلى البشرة من الوسخ فلا يزال جنباً. والأظافير جمع الإظفور.

والأظفار جمع الظفر، وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سها فى صلاته، فقال: «ومالى لا أوهم ورفع أحدكم بين ظفره وإنملته ويسألنى أحدكم عن خبر السماء، وفى أظافيره الجنابة والنفث».

وأما دفن القلامة فإن جسد المؤمن ذو حرمة فما أسقط منه فحظه من الحرمة قائم وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفن دمه حيث احتجم؛ كيلا يبحث عنه الكلاب، وعن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم فلما فرغ قال: «يا عبد الله بن الزبير اذهب بهذا الدم فأهرقه [2] حيث لا يراك أحد. فلما برز عمد [3] إلى الدم فشربه فلما رجع قال: يا عبد الله ما صنعت به قال: جعلته فى أخفى مكان ظنن أنه خاف على الناس. قال: لعلك

---

(١) ذكره ابن حجر فى فتح البارى (٣٣٨/١٠) وقال: أخرجه الحكيم الترمذى، وإلى ذلك أشار السيوطى فى الدر المنثور (١١٤/١).

(٢) أهرقه: أراقه.

(٣) عمد إلى الشيىء: قصد إليه.

شربته قال: نعم قال: لم شربت الدم ويل للناس منك وويل لك من الناس».

عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله صلـى الله عليه وسلم يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان: الشعر، والظفر، والدم، والحيضة، والسن، والقلفة، والمشيمة» والبرجمة ظهر عقدة كل مفصل، وهو مجمع الدرن والراجبة قصب الأصبع ما بين العقدتين. فلكل أصبع برجمتان، وثلاث رواجب. إلا الإبهام فإن لها برجمة وراجبتين أمر بتنقيتها، لئلا تدرن فيحول درن تلك الفصول بين الماء والبشرة وتبقى الجنابة، واللثة هى اللحمة فوق الأسنان ودون الأسنان وهى منابتها والعمور اللحمة، القليلة بين السنين واحدها عمر أمر بتنظيفها؛ لئلا يبقى فيها وضر الطعام فتتغير النكهة، وتتنكر الرائحة، وقوله: تسننوا أى استاكوا (٤)، مأخوذ من السن أى نظفوا السن وقوله: لا تدخلوا علىّ فخرا بخرا. المحفوظ عندى قلحا وقحلا والأقلح الذى اصفرت أسنانه حتى بخرت من باطنها ولا نعرف القخر والبخر إلا الذى نجد له رائكة منكرة يقال: رجل أبخر ورجال بخر.

---

(٤) من الاستياك، والتسوك.

[الأصل الثلاثون فى أدب الصحبة]

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»(1) فالإجلال للكبير هو حق سنة الله تعالى أنه تقلب فى العبودة لله تعالى، فى مدة طويلة والرحمة للصغير هو موافقة لله تعالى بأنه رحمه ورفع عنه العبودة فلم يؤاخذه بحفظ حد ولا حكم، ومعرفة حق العالم هو حق العلم أن يعرف قدره بما رفع الله من قدره، وآتاه العلم قال تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (2)

فيعرف درجاته التى رفع الله له بما آتاه من العلم.

---

(1) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد باب فضل الكبير ص ١٢٩ وباب رحمة الصغير ص ١٢٣، أخرجه الترمذى فى سننه - كتاب البر والصلة - باب ما جاء فى رحمة الصبيان (٣٢١/٤) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه الحاكم فى المستدرك - كتاب البر والصلة - باب من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا (١٧٨/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وأخرجه أحمد فى المسند (٢٦٨/١، ١٩٤/٢، ٣٢٣/٥)، وأخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى الرحمة (٥٨٣/٢).

(2) المجادلة (١١/٥٨). راجع الطبرى (٢٩٩/٢٨)، ولسان العرب (٢٨٥/٧) والقرطبى (٣٠/١٧).

[الأصل الحادى والثلاثون فى حقيقة الاستبداع وسره]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أردت سفراً أو تخرج مكاناً فقل لأهلك استودعكم الله الذى لا يخيب ودائعه» (١) عن ابن عمر رضى الله عنها قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: «إن الله عز وجل إذ استودع شيأ حفظه» (٢) أصل الوديعة هو الترك والتخلى عن الشيء وهو قوله تعالى:

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (٣)

أى ما تركك وأن الله تعالى جعل الأمور إنما تقوم بالأسباب محنة، وبلوى لينظر من ينفذ قلبه من الأسباب إلى ولى الأسباب ومن يتعلق بها فيكون قلبه سبباً من سبى الأسباب فيكون مثله كما ذكر الله تعالى فى تنزيله فقال:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ (٤)

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الجهاد- باب تشييع الغزاة ووداعهم (٩٤٣/٢).
وأشار إليه ابن حجر فى المطالب العالية. كتاب الأذكار والدعوات باب ما يقول من يسافر (٢٣٨/٣).
وذكره الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (٤٠٦/٦) وقال: قال العراقى رواه ابن ماجة والنسائى فى اليوم والليلة بإسناد حسن.
(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد، والبيهقى عن ابن عمر، وذكره العجلونى فى كشف الخفا (٦٧٨/٢٥٨/١).
(٣) الضحى (٣/٩٣). راجع مختصر ابن كثير (٦٤٩/٣).
(٤) الزمر (٢٩/٣٩).

فهذا فى الظاهر تجده رجلاً يعبد أصناماً، ورجلاً مسلماً للواحد القهار، وفى الباطن رجلاً فى قلبه شركاء متشاكسون، وهى شهواته التى تغلى فى صدره فقد سبى قلبه أسباب تلك الشهوات ورجلاً قد انفرد قلبه للواحد، وخلا من جميع الأسباب، ومات نفسه من الشهوات:

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (٥)

ثم قال:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦)

ثم قال تعالى:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ (٧)

فأهل الظاهر لم يعبروا عن الأسباب إلى وليها فضيعوا حقوقه، وركبوا مساخطه، وأهل اليقين يعلمون ربوبيته قائمة فى الأسباب فلا تطرف عين ولا ينبض فرق، ولا تحس حاسة إلا بإذنه. وقوام الأشياء ودوامها به فاحتدت أبصار قلوبهم بنور اليقين فنفذت إلى تدبير ولى الأسباب، فاستوطنت على القربة عاكفة على ربها عز وجل وولت الأسباب ظهراً فهو يمضى فى الأسباب كسائر الخلق والأسباب لا تأخذه ولا تفتن (٨) قلبه لأن قلبه بين يدى الخالق مبهوت فى جلاله وعظمته. والأسباب من وراء ظهره فهو يمضى فيها ولا يلتفت إليها، وإنما تأخذ الأسباب، من استزبنته نفسه وصار قلبه سبياً لنفسه وأسيراً من أسرائه. فإذا خلف شيأ فى مكان أراد أن يغيب عنه واستودع الله ذلك الشىء فهدأ منه فى ذلك الوقت تخل وتبرؤ من حفظه ومراقبته. لأنه ما دام معه فهو فى ننسه

---

(٥) و (٦) الزمر (٣٩/٢٩).

المتشاكسون: المختلفون، يتنازعون فيه، ويقال رجل شكس أى متعب الخلق. الطبرى (٢٣/٣٧) ورأى قتادة أنه الرجل الكافر، والشركاء هم الشياطين. من الدر المنثور (٥/٣٢٧). سلما لرجل: وقف له.

(٧) العنكبوت (٢٩/٤٣).

(٨) فى نسخة [ولا تغير قلبه].

يحسب أنه هو الذى يحفظه ويكلؤه ويرعاه وهو يقول مع هذا:

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ (٩)

ولكن هذا القول منه قول الموحدين لا قول الموقنين. ثم إذا خلفه فى حرز أو فى حراسة غيره أو أخفاه فى موضع فقد وكله إلى ذلك الحرز والحراسة وإذا جعله هكذا ثم مع هذا أودعه ربه سبحانه وتعالى فقد وكله إلى الله وتبرأ من حفظه، وحفظ حرزه وحارسه، وتخلى منه مضى فى تدبير الآدميين أن يحرزوا أو يحرسوا ثم وكله إلى الله تعالى فوجده مليًا وفيًا كريمًا. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من توكل على الله كفاه» وقال صلى الله عليه وسلم: «من سره أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله فإنه إذا توكل قوى قلبه ولم يبال بأحد وذهبت مخاوفه» وقال عز وجل:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (١٠)

وقال صلى الله عليه وسلم: «من انقطع إلى الله كفاه» وإن الله أعطى الخلق على الأمور وعلم أسبابها وعلم حيلها وأعطاهم القوة ومعرفة التصرف فى ذلك ولم يغنهم عن نفسه بما أعطاهم، فالغافل الأحمق يرى أن ما أعطى من هذه الأشياء يقتدر بها فى الأمور ويتملك فيريه الله تعالى ضعفه وفقره، وعجزه، ويعرفه انه لا يقوم له شىء إلا به، وأن الأسباب التى أعطاها كلها له عجزة ضعفاء.

مثله وإذا قال العبد: لا حول ولا قوة إلا بالله. تبرأ من الأسباب وتخلى من وبالها. فجاءته القوة والمعصمة والغياث والتأييد والرحمة.

---

(٩) يوسف (٦٤/١٢).

(١٠) الطلاق (٣/٦٥).

قال الشيخ الصاوى فى حاشيته على الجلالين: «أى من فوّض إليه أمره، كفاه ما أهمه، والأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل، لأنه مأمور به، ولكن لا يعتمد على تلك الأسباب» أهـ. بتصرف (٢١٥/٤).

قال المصنف رحمه الله: حدثنا عبيد بن إسحاق العطار الكوفى. قال حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم قال حدثنى زيد بن أسلم عن أبيه قال: بينا عمر رضى الله عنه يعرض الناس إذا هو برجل معه ابنه فقال له عمر: ويحك حدثنى، ما رأيت غراباً بغراب أشبه بهذا منك، قال: أما والله يا أمير المؤمنين ما ولدته أمه إلا ميتة. فاستوى له عمر رضى الله عنه فقال: ويحك حدثنى. قال: خرجت فى غزاة وأمه حامل به فقالت: تخرج وتدعنى على هذا الحال، حاملاً مثقلاً؟ قلت: استودع الله ما فى بطنك. قال: فغبت، ثم قدمت فإذا بابى مغلق. قلت: فلانة قالوا: ماتت فذهبت إلى قبرها أبكى. فلما كان من الليل قعدت مع بنى عمى أتحدث وليس يسترنا من البقيع(11) شىء فرفعت لىّ نار بين القبور. فقلت لبنى عمى: ما هذه النار؟ فتفرقوا عنى فأتيت أقربهم منى فسألته فقال: نرى على قبر فلانة كل ليلة ناراً فقلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون» أما والله إن كانت لصوامة قوامة عفيفة مسلمة انطلق بنا فأخذت فأساً فإذا القبر منفرج، وهى جالسة وهذا يدب حولها، ونادانى مناد من السماء: أيها المستودع ربه وديعته، خذ وديعتك أما لو استودعت أمه لوجدتها. فأخذته وعاد القبر كما كان فهو والله هذا يا أمير المؤمنين، قال عبيد فحدثت بهذا الحديث محمد بن إبراهيم العمرى، فقال: هذا والله الحق وقد سمعت عم أبى عاصم يذكره وقال: رأيت ابن ابن هذا الرجل بالكوفة وقال لى: موالينا هو هذا(12).

---

(11) البقيع: موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى، وبه سمى بقيع الفرقد، وهى مقبرة أهل المدينة. راجع مختار الصحاح ص ٦٠. بتصرف.

(12) كذا ورد بالأصل.

[الأصل الثانى والثلاثون فى بطاقة البهتان وبيان الاحتراز عنه]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجاء بالعبد يوم القيامة فتوضع حسناته فى كفة وسيئاته فى كفة فترجح السيئات ، فتجىء بطاقة فتقع فى كفة الحسنات فترجح بها فيقول يارب ، ماهذه البطاقة ؟ فما من عمل عملته فى ليلى ونهارى ، إلا وقد استقبلت به . قال : هذا ماقيل فيك وأنت منه برىء قال : فينجو بذلك » [1] وروى فى الخبر أن داود عليه السلام سأل سليمان عليه السلام ، ما أثقل شىء ؟ فقال : البهتان على البرئ .

عن على كرم الله وجهه البهتان على البرئ أثقل من السموات ، وإنما صار هكذا لأن الآدمى أيمن على جوارحه السبع ووكل برعايتهن أيام الحياة لئلا تدنس ، حتى يقدم على الله تعالى وهو مقدس يصلح لدار القدس وأن يكون مجاوراً للقدوس ، وزائراً له فإذا رعاهن هذا المؤمن ثم ضيع منه ماضيع من غفلة أو زلة أو فتنة فمن ورائه الندم ، والإقلاع والاستغفار ، وباب التوبة مفتوح فإذا رعى العبد هذه الجوارح فقال هذا فى عرضه ما هو برئ منه فقد خونه فى أمانة الله تعالى عنده ولم يخن ورماه بداهية هو فيها ساع به إلى الله تعالى ، وغير مقبول سعايته لأن علام الغيوب مطلع على كذبه وكتب فى شهداء الزورلا وقد نهى الله

---

(1) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٩٧/٦) وعزاه للحكيم الترمذى ، وذكره الهندى فى كنز العمال (٣٨٣/١٤) وأيضا الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (٢٧/١٠) ونسبة للحكيم عن ابن عمر.

تعالى عنه وقرنه بالشرك فقال تعالى:

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٢)

وقال صلى الله عليه وسلم: «البهتان عدل بالشرك بالله» وسمى بهتاناً لأنه يبهت القلب، ويحيره من ظلمته فإن الظلم ظلمات وإذا بهت القلب، وتحير فى الظلمة ذهبت الهداية والبصيرة وهو بمنزلة الشمس إذ انكسفت فتهافت نورها فيصير الذى نيل من عرضه. بهذا البهتان عند الله تعالى بحال رحمة حيث أصيب من عرضه وخلص الألم إلى قلبه، وإذا كان بريئاً فهو أوجع لقلبه.

(٢) الحج (٢٢/٣٠).

[الأصل الثالث والثلاثون فى سر الاحتجاب وبيان حكمه]

عن نبهان مولى أم سلمة رضى الله عنها أنه حدث أن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم حدثته أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة قالت بينا نحن عنده إذ أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه وذلك بعد أن أمر بالحجاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احتجبا منه» فقلنا يا رسول الله، أليس هو الأعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفعميا وإن أنتما ألستما تبصرانه» (١) قال أبو عبد الله إنما ضرب الحجاب عليهن كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلالاً له وصير الله تعالى أزواجه أمهات المؤمنين ليحرمن على من بعده وقد تكلم بعضهم فى حياته بشىء من تزويجهن، فنزلت:

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب أصحاب الحراب فى المسجد (١/٥٥٠) فى ترجمة الباب. وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الأدب ـ باب ما جاء فى احتجاب النساء من الرجال (٥/١٠٢). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أبو داود فى سننه ـ كتاب اللباس ـ باب فى قوله «غير أولى الأربة» (٤/٦٣)، وأحمد فى مسنده من حديث أم سلمة (٦/٢٩٦)، وابن حبان فى صحيحه ـ كتاب الأدب ـ باب دخول الأعمى ص٤٨٣. والبيهقى فى سننه ـ كتاب النكاح ـ باب مساواة المرأة والرجل فى حكم الحجاب والنظر إلى الأجانب (٧/٩١، ٩٢).

(٢) الأحزاب (٣٣/٥٣).

ونزلت :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٣)

فانقطع الخطاب الذى كان فيما بينهم والطمع فى شأنهن فصرن أمهات المؤمنين وليس المؤمنون بمحرم لهن وذلك ليعلم أنه إنما صرن أمهات المؤمنين ليحرمن على الرجال من بعده وليس الرجال بمحرم لهن فقال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (٤)

فكما حظر على الرجال النظر إليهن ، فكذلك حظر عليهن النظر إلى الرجال فبين علة الحجاب أنه إنما أريد بذلك طهارة قلوب الصنفين جميعاً قلوب الرجال منهن وقلوبهن من الرجال ، وروى فى الخبر أن الحسن والحسين رضى الله عنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين وإنما كان يدخل عليهن محارمهن من النسب والرضاع ومماليكهن .

---

(٣) الأحزاب (٦/٣٣) . راجع أبا السعود فى تفسيره (٢٠٣/٤) .

(٤) الأحزاب (٥٣/٣٣) . راجع القرطبى (٢٢٤/١٤) .

[الأصل الرابع والثلاثون فى حقيقة النظرتين]

عن أبى أمامة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أو مرة ثم يغض بصره، إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها» (١) فالنظرة الأولى نظرة الروح والنظرة الثانية نظرة النفس لأن الإنسان خلق مفتوح العين عمول (٢) ناظراه لحاظ هكذا وهكذا فهو مأذون له فى ذلك لأن من شأن العين أن تطرف وتفتح فإذا وقع بصره على شىء فليس عليه شىء لأن قلبه لم يعمل شيأ فإذا عمل بصره فإنه يعلمه (٣) والابتداء من القلب حتى تعمل العين فذاك نظرة كلف، فهو مسئول عنه والأول مرفوع عنه فلذلك قال: ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة، ثم يغض بصره، لأنه لما وقع بصره على المحاسن أول مرة وجب عليه أن يغض فالغض فعل العين فعليه يثاب والفتح والنظر بعد ذلك فعل العين فعليه يعاقب يقال إن بصر العين متصل ببصر الروح من داخل فلذلك قيل الحياء فى العينين لأن الحياء من فعل الروح ولذلك قيل لا تطلبن إلى أعمى حاجة، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لا تطلبن إلى أعمى حاجة وإذا طلبت الحاجة فاستقبل الرجل بوجهك فإن الحياء فى العينين ولا تطلبنها ليلاً، وباكر فى حاجتك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده من حديث أبى أمامة (٢٦٤/٥)، كما أورده الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤٧/٨) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦٣/٨) والسيوطى فى الدر المنثور (٤١/٥).

(٢) عمول: كثير العمل، صيغة مبالغة من عمل.

(٣) فى نسخة أخرى [فإنما يعمله] وهو تحريف خطير.

اللهم بارك لأمتى فى بكورها »(٤) فلما غض بصره عما لا يحل فإنما صان روحه أن تتدنس وقع نفسه عن أن تلذ بشهوة فأعطى نوراً ثواباً عاجلاً فوجد حلاوة العبادة، عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النظر إلى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام(٥) الشيطان» فمن صرف بصره عنها أبدله الله تعالى عبادة يجد حلاوتها.

---

(٤) رواه أصحاب السنن الأربعة، وحسنه الترمذى، وصححه ابن حبان. راجع العجلونى (٥٥٦/٢١٤/١).

(٥) فى نسخة أخرى [إبليس].

[الأصل الخامس والثلاثون فى أن الحسنة بعشرة]

عن أبى أيوب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر»[1] فمن أجل أن الله تعالى جعل الحسنة لهم بعشر أمثالها فصوم رمضان بثلاث مائة يوم كل يوم بعشرة وبقى من السنة ستون يوماً فعدل كل يوم بعشرة فيحتسب له على حساب تضعيف الحسنات كأنه صام الدهر كله، عن معاوية بن قرة عن أبيه رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الشهر كله» لأن كل يوم يحتسب له فى التضعيف بعشرة أيام.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ـكتاب الصيام ـ باب استحباب صيام ستة أيام من شوال اتباعاً لرمضان (٥٦/٨)، وأخرجه الترمذى فى سننه ـكتاب الصيام ـ باب ما جاء فى صيام ستة أيام من شوال (١٢٣/٣) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجة فى سننه ـكتاب الصيام ـ باب صيام ستة من شوال (٤٥٧/١)، وأحمد فى مسنده (١٤٦/٥).

[الأصل السادس والثلاثون في الشكر والصبر]

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» (١) فالطعم فعل الصوم كف عن فعل فالطاعم بطعمه يأتي ربه بالشكر والصائم بكفه عن الطعم يأتي ربه بالصبر، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الإيمان نصفان نصف للشكر ونصف للصبر» (٢) وفي حديث آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه: «الصبر نصف الإيمان» (٣) وإنما قال نصف الإيمان لأن نصفه للشكر ثم قال: «واليقين الإيمان كله» ثم تلا:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٤)

وقال:

﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ (٥)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الأطعمة ـ باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر (٥٨٢/٩)، وابن ماجه في سننه ـ كتاب الصيام ـ باب فيمن قال الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر (٤١٥/٦)، وابن خزيمة في صحيحه ـ كتاب الصيام ـ باب ذكر البيان أن الصيام من الصبر (١٩٧/٣)، والحاكم في المستدرك ـ كتاب الصوم ـ باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر (٤٢٢/١) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٢) روى عن أنس، وقد ضعفه السيوطي في الجامع الصغير (١٢٤/١).

(٣) وهو معنى الحديث السابق.

(٤) سبأ (١٩/٣٤).

(٥) الذاريات (٢٠/٥١). وقد ورد تحريف غاية في الخطورة في نص الآية في المطبوعة فصححناه.

فجمع اليقين الصبر والشكر وإنما هو صنفان معطى فعليه الشكر. وممنوع منه فعليه الصبر. فإذا شكر هذا فقد أتى من حقيقة الإيمان بنصفه وإذا صبر هذا فقد أتى من حقيقة الإيمان بنصفه.

[الأصل السابع والثلاثون فى سر قتل الحيات والنهى عنه]

عن سرىّ بنت نبهان العنوية قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقتلوا الحيات صغيرها ، وكبيرها ، وأسودها ، وأبيضها ، فإن من قتلها كانت له فداء من النار ومن قتلته كان شهيداً » (١) فالحية عدوّ قد أظهرت العداوة ، وقد كانت وكلت ، بخدمة آدم عليه السلام فى الجنة فخانته وأمكنت عدو الله من نفسها ، حتى صيرته سبباً لدخوله الجنة فى اغوائه. فلما ألقاهم إلى الأرض تأكدت العداوة من عدو الله ومن الحية لآدم عليه السلام وأولاده . قال وهب بن منبه : لما أسكن الله عز وجل آدم عليه السلام الجنة وزوجته كانت الشجرة وغصونها منشعبة بعضها فى بعض وكان لها ثمر تأكله الملائكة تخلدهم ، وهى الثمرة التى نهى الله تعالى آدم وزوجته عليهما السلام عنها فلما أراد إبليس أن يستزلهما دخل فى جوف الحية وكانت الحية لها أربع قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس وأخذ من الشجرة التى نهى الله آدم وزوجته عليهما السلام عنها فجاء بها إلى حواء فقال لها انظرى إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها ، وأحسن لونها . فأخذتها حواء فأكلتها ثم ذهبت بها إلى آدم عليه السلام فقالت: انظر إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها ، فأكل منها آدم

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد -كتاب الصيد- باب قتل الحيات والحشرات (٤/٤٥) ، ونسبه السيوطى فى الجامع الصغير (١/١٢٠٤) للحكيم الترمذى، وأشار إليه الهندى فى كنز العمال (١٥/٤٤) .

عليه السلام فبدت لهما سوآتهما فدخل آدم فى جوف الشجرة فناداه ربه أين أنت؟ قال: أنا هذا يارب قال: ألا تخرج قال: أستحيى منك يارب قال: اهبط إلى الأرض التى خلقتك منها قال: ملعونة الأرض التى منها خلقت لعنة تتحول ثمارها شوكاً ثم قال: يا حواء غررت عبدى فإنك لا تحملين حملاً إلا حملت كرهاً فإذا أردت أن تضعى ما فى بطنك أشرفت (٢) على الموت مراراً وقال للحية: أنت التى دخل الملعون فى جوفك، حتى غرّ عبدى ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك فى بطنك ولا يكون لك رزق إلا التراب أنت عدوة بنى آدم وهم أعداؤك أين لقيت أحداً منهم أخذت بعقبه وحين لقيك شدخ رأسك.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم فى الصلاة» (٣) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خمس يقتلهن المحرم» فذكر الحية فيهن.

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى فمرت حية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقتلوها» فسبقتنا إلى جحر فدخلته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هاتوا بسعفة ونار فأضرمها (٤) عليه ناراً وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن المثلة وعن أن يعذب بعذاب الله» فلم يبق لهذا العدو حرمة حيث فاتته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر.

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول: اخفروا ذمة إبليس عدو الله فإنه روى فى الخبر أن عدو الله إبليس قال للحية أدخلينى الجنة وأنت

(٢) أشرفت على الموت: تشوفت له ودنت منه.

(٣) فى الأصل وردت بالإمالة.

(٤) أحزمها وردت فى نسخة أخرى [فأحزموها].

فـي ذمـتـي. فأما ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من النهى عـن قـتـل الجـان فـإن تـلك فى صورة الحيات هن من الجن وهن سكان البـيـوت فـإذا قتلتها ضرت بك، عن زيد بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صـلـى الله عـلـيـه وسلم نهى عن قتل دواب(٥) البيوت يعنى الجان.

عـن أبـى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلـم: «خلق الله عز وجل الجان ثلاثة أثلاث، فثلث كلاب وحيات وخشـاش الأرض، وثـلـث ريـح هـفـافـة، وثـلـث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب».

وفـى روايـة ابـى ثـعلبة الخشنى صنف لهم أجنحة يطيرون فى الهواء بـدل قـولـه: وثـلـث ريـح هـفافة. وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أثلاث فـثـلـث لهم قلوب لا يفقهون بها، وأعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بهـا إن هـم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا، وثلث أجسادهم كأجساد بـنـى آدم، وقلوبهم قلوب الشياطين، وثلث فى ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله.

عـن أبـى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عـلـيـه وسلم: «إن بالمدينة نفراً من الجن أسلموا فمن رأى شيئاً من هذه العوامر(٦) فليؤذنه ثلاثاً فإن بدا له بعد ذلك فليقتله فإنه شيطان».

عـن أبـى سـعيد الخدرى رضى الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عـلـيه وسلم إلى أحد فخرج معه فتى منا من بنى خدرة وهو حديث عـهـد بعرس فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلع على أهله فـأذن لـه، فـخرج الفتى وفى يده الرمح، حتى دخل الدار فوجد زوجته

(٥) فى نسخة أخرى [ذوات] وهو تصحيف من الناسخ.
(٦) فى نسخة أخرى [الهوام] وهو تحريف.

ببـاب حجرته جالسة فأفزعه ذلك فقال : ما أخرجك من بيتك ؟ قالت : حية منطوية على فراشك هى التى ذعرتنى . فدخل الفتى فوكزها برمحه ، وخرج بها إلى صحن الدار تضطرب فيه فماتت ، ومات الفتى من ساعته فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لا تقتلوا شيئاً تجدونه فى البيوت منهن حتى تقدموا » عن ابن أبى مليكة قال : قتلت عائشة رضى الله عنها جاناً فأتيت فى المنام قيل أما والله لقد قتلتيه مسلماً فقالت : لو كان مسلماً ما دخل على أمهات المؤمنين فقيل : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة فتصدقت وأعتقت رقاباً .

عن ثابت بن قطبة الثقفى قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقال : إنا كنا فى سفر فررنا بحية مقتولة مشعرة فى دمها فواريناها . فلما نزلوا أتتهم نسوة أو أناس فقالوا : أيكم صاحب عمرو؟ قلنا من عمرو. قالوا : الحية التى دفنتموها أمس . أما أنه من النفر الذين استمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا : ما شأنه قال : كان حيان من الجن : مسلمون ومشركون بينهم قتال فقتل .

عن الربيع بن بدر قال : الجان من الحيات التى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى ، عن علقمة قال : اقتلوا الحيات كلها إلا الجان الذى كأنه ميل فإنه جنها .

[الأصل الثامن والثلاثون فى أكل القثاء بالرطب وسره]

عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل القثاء بالرطب» (1) قال أبو عبد الله فهذا جميع بين لونين فقد يجوز أن يكون قد اشتهاه فقضى شهوته لله تعالى لتسكين النفس فإن النفس نازعة إلى ما فيه اللذة لها. ولها حق إذا استقامت لمولاها فأدى حقها وحمد الله وشكره عليها فلا يكون على صاحبها وبال فى مثل هذا. وإنما الوبال على من قضى شهوته بنهمة غافلاً عن ربه سبحانه وتعالى منهوماً بلذته لا يلتمس فيها حق النفس، ولا يبتغى بها وجه الله فالحساب أمامه وهو مسئول عن شكرها، وقد يجوز أن يكون على غير هذا السبيل الذى ذكرناه، ويحتمل أن يكون لمكان عياله أو ضيفه فعل ذلك فتوسع من أجلهم فى ذلك، ولم يحمل قوته على ضعفهم فربما ينغص على الضيف أو العيال إمساكه عنه واستوحشوا من فعله، وتكدرت تلك النعمة عليهم ففيه تضييع حق الضيف وحق العيال فيخالطهم فى ذلك ويشركهم فيه ووجه آخر محتمل أيضاً وذلك أن القثاء بارد رطب، والرطب حار فأحب أن يصيره مزاجاً، فيجمع بين الحار والبارد كيلا يضر به واحد منهما على الانفراد.

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب الأطعمة ـ باب القثاء بالرطب (٥٦٤/٩) وباب جمع اللونين أو الطعامين (٥٧٢/٩)، وأخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب الأشربة ـ باب أكل القثاء بالرطب (٢٢٦/١٣)، وأبو داود فى سننه ـ كتاب الأطعمة ـ باب فى الجمع بين لونين من الأكل (٣٦٣/٣)، والترمذى فى سننه ـ كتاب الأطعمة ـ باب فى أكل القثاء بالرطب (٢٨٠/٤٠) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب وأحمد فى المسند (٢٠٣/١، ٢٠٤).

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين البطيخ والرطب.

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل البطيخ بالرطب.

[الأصل التاسع والثلاثون فى مراتب الأخلاق وفضل العلم]

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت ذات يوم رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أعلمك خصلات ينفعك الله بهن قلت: بلى يانبى الله قال: عليك بالعلم فإن العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيمه، والرفق أبوه، واللين أخوه، والصبر أمير جنده» (١) قال أبو عبدالله: الإيمان مستقرة فى القلب ويشرق نوره فى الصدر. فإذا اعترض فكر فى الأمور تصور كل شيء على هيئته فيرى الخير فى بهائه وحسنه، والشر فى قبحه وشينه وإنما قيل علم لأنه علائم الإيمان قد أظهر فى الصدر باطن ما فى القلب، فهو خليله لأنه قد خلله إلى الإيمان أى ضمه لما ظهر العلم اهتدى، فمال الى من آمن به ليأتمر بأمره وينتهى عن نواهيه. والخلة الضمة فى اللغة يقال: هذا ثوب خليل وهو الذى شكه بالخلال فضمه إلى نفسه فكذلك لما ظهر فى صدر المؤمن شكه وجمعه، حتى لاتنتشر جوارحه، فى شهواته وهواه. والحلم وزيره، فالحلم هو سعة الصدر وطيب النفس، فإذا وسع الصدر وانشرح بالنور أبصرت النفس رشدها من غيها وعواقب الخير والشر فطابت وإنما تطيب النفس لسعة الصدر، وإنما يتسع الصدر بولوج (٢) النور الوارد من عند الله وهو قوله تعالى:

---

(١) أورده السيوطى فى الجامع الصغير، وعزاه للحكيم الترمذى عن ابن عباس، وحسنه ووافقه المناوى فى فيض القدير (٤/٣٣٠).

(٢) ولوج: دخول.

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (٣).

وإذا دخل النور. سهل تسليم النفس وذهبت عسرتها وكزازتها، والملح بطيب الطعام، والحلم بطيب النفس.

عن عبد الله بن جراد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الأعمى من يعمى بصره إنما الأعمى من تعمى بصيرته» قال الله تعالى فى تنزيله الكريم:

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (٤).

فطيب النفس من روح اليقين وهو من أعظم النعم، وعن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا بأس من غنى (٥) لمن اتقى والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم» فالغنى بغير التقوى هلكة. يجمعه من غير حقه، ويضعه فى غير حقه فإذا كان مع صاحبه تقوى فقد ذهب البأس وجاء بالخير. عن محمد بن كعب أن الغنى إذا كان تقياً آتاه الله تعالى أجره مرتين ثم تلا:

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (٦)

فليس من امتحن كمن لم يمتحن فقال فى مؤمنى أهل الكتاب:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ (٧)

---

(٣) الزمر (٢٢/٣٩). راجع الطبرى فى جامع البيان (١٣٤/٢٣).
(٤) الحج (٤٦/٢٢).
(٥) فى نسخة أخرى [بالغنى].
(٦) سبأ (٣٧/٣٤).
(٧) سورة القصص :الآية رقم: ٥٤.

فصبر الغنى أشد من صبر الفقير كما أن محاربتك أسداً خلى عنه أشد من محاربتك أسداً قد ربط بوثاق.

قال مالك بن دينار رحمه الله يقول الناس مالك زاهد وكيف لا يزهد وهو مقبر(٨) عليه إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز نال الخلافة فلبس المسوح، وأما قوله: والصحة لمن اتقى خير من الغنى. فإن صحة الجسد عون على العبادة والسقيم عاجز فالصحة خير من الغنى مع العجز. وأما قوله وطيب النفس من النعيم. فقد ذكرنا أنه من روح اليقين على القلب. وهو النور الوارد الذى قد أشرق فى الصدر، وأراح القلب، والنفس من الظلمة، والضيق لأن النفس بشهواتها فى ظلمة والقلب فى تلك الظلمات قد أحاطت به فالسائر إلى مدعاة (٩) فى ظلمة يشتد عليه السير ويضيق صدره لما يتخوف فى الطريق من المهاوى والمخاوف، فإذا أضاء له الصبح انفقأت الظلمة، ووضح الطريق وزالت المخاوف، فكذلك السائر بقلبه فى شريعة الإسلام إلى الله تعالى إذا كان قلبه فى ظلمة شهواته وهواه هو بهذه الصفة. وإذا اشرق نور اليقين فى صدره استراح القلب فهذه صفة الحلم فهو وزير المؤمن يوازره على أمر الله تعالى. وإذا لم يكن حلم ضاقت النفس، وانفرد القلب بلا وزير والعقل دليله يدله على مراشد الأمور ويبصره غيها ويهديه لمحاسنها ويزجره عن مساويها. وخلق الله عز وجل العقل فقال: «وعزتى ما خلقت خلقاً أحب إلىّ منك فيك آخذ وبك أعطى وإياك اعاتب ولك الثواب وعليك العقاب» وروى فى الخبر ان الله تعالى قال: «يا موسى إنما أجزى الناس على قدر عقولهم».

والعمل قيمة القيم من شأنه أن يتوكل لك حتى يكفيك مهماتك والعمل الصالح يهيىء له فى معاشه طيب الحياة قال الله تعالى:

(٨) فى نسخة أخرى [مقتر عليه].
(٩) فى نسخة أخرى [مراعاة] وهو تحريف.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١٠).

فالحياة الطيبة فى الدنيا والجزاء فى الآخرة وقال تعالى:

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (١١).

والرفق أبوه الأب له التربية مع العطف والشفقة وهو يشمل أحوال الولد بالعناية ويجمع له وجوه المكاسب والرفق كفشير الأمور. به يتأتى الأمور وبه يتصل بعضها ببعض، وبه يجمع ماتشتت منه، ويأتلف ماتنافر وتبدد منه، ويرجع إلى المأوى ماشذ، وهو يشمل أحوال المؤمن بالصلاح ويجمع له الخيرات، والطاعات من وجوه البر. واللين أخوه فالأخ آخيه المرء ومعتمده من المخلوقين فهو مستراحه إذا أعيى ونصب استند إليه واستراح. فكذلك اللين هو مستراح المؤمن به تهدأ نفسه ويطمئن قلبه ونجد اركانه راحة ذلك وحدته، وشدته، وغضبه، تعب بدنه وعذاب نفسه، ونصب قلبه وإنما يلين قلبه بهدو نفسه وإنما تهدو نفسه بموت شهواتها وإنما تموت شهواتها بما أصبر قلبه بنور اليقين من جلال الله تعالى، وعظمته، وصار كالدهن فى اللين، ومن غلظ قلبه، وفظ واشتد فمن القسوة وإنما يقسو قلبه من الغفلة عن الله تعالى، وإنما يلين القلب لما يرطب بذكر الله تعالى. وفى اللغة عسى وعتا وقسا قريب المعنى، ويرجع المعنى إلى أنه يبس، فكز وضد ذاك رطب فلان قال الله تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١٢)

---

(١٠) النحل (١٦/٩٧).

(١١) فاطر (٣٥/١٠).

(١٢) آل عمران (٣/١٥٩).

فالفظاظة وغلظ القلب تفرق المجموع وتبدد المؤتلف، واللطافة ورقة القلب تجمع المتفرق وتؤلف المتبدد وان القلب يلطف ويرق من النور وسببه الرحمة ويفظ ويغلظ من حرارة الشهوات، وقوة الغذاء، والدم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأنه المداومة على الحجامة إلى أن قبض. وقال صلى الله عليه وسلم: «ما مررت بملأ من الملائكة إلا أمروني بالحجامة وقالوا لي مر أمتك بالحجامة» معناه عندنا لأنهم من بين الأمم أهل يقين فإذا اشتعل نور اليقين في القلب، ومعه حرارة الدم أضر بالقلب، وبالطبع أيضاً وكان صلى الله عليه وسلم يستعمل الحناء في رأسه مع أنه لم يشنه الشيب وما خضب وإنما كان سبب الحناء أنه كان يأتيه الوحي، فيصدع فمن أجل الصداع، كان يعالج بالحناء في رأسه حتى تخف حرارة رأسه. والصبر أمير جنده هو ثبات القلب على عزمه فإذا ثبت الأمير ثبت الجند لمحاربة العدو وإذا جاءت النفس بشهواتها فغلبت القلب حتى استعملت الجوارح بما نهى عنه فقد ذهب الصبر، وهو ذهاب العزم فبقى القلب أسيراً للنفس، واستولت عليه فانهزم العقل والحلم والعلم والرفق واللين وجميع جنوده.

[الأصل الأربعون فى تكثير التوبة]

عن خبيب بن الحارث رضى الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إنى رجل مقراف [1] الذنوب. قال: «يا خبيب فكلما أذنبت فتب إلى الله تعالى قلت: ثم أعود يا رسول الله قال: ثم تب قلت: إذا يكثر يا رسول الله قال: عفو الله أكثر من ذنوبك يا خبيب» [2] التوبة للعبد مبسوطة حتى يعاين قابض الأرواح وهو عند غرغرته بالروح وإنما يغرغر به إذا قطع الوتين [3] فشخص من الصدر إلى الحلق، فعند ذلك حضور الموت ومعاينة ملك الموت الذى وكل به فهو الذى يذيقه، ومن قبل ذلك كان أعوانه يستوفون الروح وينزعونه من الجوارح، والعروق قال الله تعالى:

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [4].

فباب التوبة مفتوح إلى طلوع الشمس من مغربها. ودواء الذنب التوبة وشفاء العبد منه إذا ماتت شهوة ذلك الذنب منه.

قوله: عفو الله أكثر من ذنوبك: أى فضل الله على العبد أكثر من نقصان انقصان العبد وأنه كلما اذنب آبق من ربه عز وجل، وكلما أبق

---

(١) مقراف: كثير اقتراف.

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٠٠/١٠) وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط.

(٣) الوتين: عرق موصول بالقلب، يموت صاحبه بقطعه.

(٤) النساء (١٨/٤).

ازداد عـيـبـاً ، وكلما ازداد عيباً ازداد نقصاً فى القدر والجاه ، قال ففضل الله على العبد أكثر من نقصانه لأنه يتفضل من كرمه ومجده فقبول التوبة مـن فـضـل الله ورجـوعـه بـالـتوبة إليه أيضاً من فضله ، فرب عبداً يوفق للتوبة والعياذ بالله مـن ذلك .

[الأصل الحادى والأربعون فى الخوارج]

عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخوارج كلاب أهل النار»(١) الخوارج قوم ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فهم الأخسرون أعمالاً حبطت أعمالهم فلا يقام لهم يوم القيامة وزن ذلك بأنهم قد اجتهدوا ودأبوا فى العبادة، وفى قلوبهم زيغ ومرقوا من الدين، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه وصفهم فقال: «يقرؤن القرآن يقيمونه إقامة القدح لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» مازال بهم التنطع والتعمق حتى كفروا الموحدين بذنب واحد، حتى صاروا بذلك إلى الأنبياء عليهم السلام للزيغ الذى فى قلوبهم دخلوا فيما لم يأذن به الله تعالى فقاسوا برأيهم وتأولوا التنزيل على غير وجهه، هم الذين وصفهم الله تعالى فقال:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ (٢).

وربما تمسكوا بآخر الآية. ونهوا(٣) عن أولها حتى قال قائلهم لجابر بن

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٤٩/٢) وصححه ووافقه الذهبى. وكذا رواه ابن ماجة (٦١/١) والطيالسى (١٥٥/٥).

(٢) آل عمران (٧/٣) الزيغ: الجور، والظلم، والعدول عن الحق، والفتنة تتصرف على وجوه والمقصود بها الكفر هنا، وقال البعض: مقصود بها الشبهات. راجع جامع البيان (١٩٧/٦).

(٣) فى نسخة [ولهوا] وهو تحريف من النساخ.

عبد الله أنت الذى تقول يخرج الله عن النار[4] قوماً بعدما أدخلهم فيها قال: نعم سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فأين قول الله تعالى:

﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [5].

قال جابر انظر لمن هذا فى مبتدأ الآية:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ ﴾ [6] الآية.

فالمؤمن يستر ويرحم ويعطف ويتوقى أن يلوم ويعير ويرجو من الله الرحمة ويرجيه وهذا المفتون يهتك، ويعير، ويؤيس، ويقنط، ويكفر فهذه أخلاق الكلاب، وتقولهم كلبوا على عباد الله، ونظروا إليهم بعين البغضة والعداوة، والملامة فلما دخلوا النار صاروا فى هيئة أعمالهم كلاباً كما كانوا على الموحدين فى الدنيا كلاباً. قال أبو العالية: ما أدرى أىّ النعمتين أفضل إن هدانى للإيمان ثم لم يجعلنى حروريا والله أعلم، عن أبى عاكف قال: كنت بدمش فجيىء برؤس الخوارج من العراق فنصبت على درجة المسجد فبينا أنا قائم إذا أنا بشيخ على حمار قصير ينظر إليهم ويبكى ويقول كلاب النار كلاب النار كلاب النار فسألت عنه فقالوا: أبوا أمامة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدنوت منه فقلت: يا أبا أمامة أراك تبكى وتقول: كلاب النار؟ قال: رحمة لهم لأنهم قد صلوا وصاموا وحجوا واعتمروا، ثم صاروا كلاب النار قلت هذا شىء تقوله أم سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو لم اسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثة أو أربعة حتى بلغ عشر مرات ما قلت ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنه

(٤) فى نسخة أخرى [من النار] وهو تحريف من النساخ.
(٥) المائدة (٣٧/٥).
(٦) المائدة (٣٦/٥).

سيكون من أمتى قوم يقرأون القرآن لاتجاوز قراءتهم تراقيهم يعبدون الله تعالى عبادة يحتقرون عبادة الناس فى عبادتهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية لايعود فيه حتى يعود أعلاه فوقه هم شر الخلق، والخليقة هم شر قتلى تحت أديم(٧) السماء طوبى لمن قتلهم أو قتلوه» والأزارقة صنف من الخوارج كان رئيسهم نافع بن الأزرق (٨) وكان من شأنه أن يخاصم بتأول القرآن فى زمن ابن عباس رضى الله عنهما فنسب تبعه إليه فقيل الأزارقة. وفى زمن على كرم الله وجهه كان رئيسهم ابن الكواء، وفى زمن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين نجدة الحرورى (٩) وهى من بقية أهل حروراء الذين خرجوا على على كرم الله وجهه وحروراء قرية من قرى السواد. عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل سيفه على أمتى» أو قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يعجبنا تعبده فذكرناه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يعرفه ووصفناه بصفته فلم يعرفه فبينما نحن نذكره إذ طلع الرجل فقلنا هو هذا يارسول الله قال: «إنكم تخبرونى عن رجل وعلى وجهه لسفعة من الشيطان» قال: فأقبل حتى وقف على المجلس فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنشدك الله هل قلت حين وقفت على المجلس. مافى المجلس أحد أفضل منى أو أخير منى؟ قال: اللهم

---

(٧) أديم: أصلها من الأدم وهو الجلد، وأديم الأرض: وجهها، وأديم السماء: أى قبة السماء.

(٨) والأزارقة هم أتباع نافع بن الأزرق، صنف من الخوارج وهم أكثر فرق الخوارج عدداً، وأشدهم شوكة، وقد زعموا أن مخالفيهم من الأمة مشركون، ومخلدون فى النار.

راجع تفصيل ذلك فى الملل والنحل للشهرستانى (١١٨/١) ومقالات الإسلاميين (١٥٧/١) والفرق بين الفرق للبغدادى ص٨٢، ٨٣.

(٩) الحرورية: سميت بذلك الخوارج بعد رجوع على من صفين إلى الكوفة، وكان عددهم اثنا عشر ألفا، وكان زعيمهم يومئذ عبد الله بن الكواء، وشبث بن ربعى، وقد ناظرهم الإمام على وأفلج الله حجته عليهم. راجع الكامل للمبرد (١١٦/٢) ومابعدها.

نعم ثم دخل يصلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يقتل؟ الرجل قال أبوبكر رضى الله عنه أنا فدخل فوجده يصلى فقال: سبحان الله أقتل رجلاً يصلى وقد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب المصلين فخرج فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مه، قال: وجدته بأبى أنت وأمى يصلى وقد نهيتنا عن ضرب المصلين، فقال صلى الله عليه وسلم: من يقتل الرجل؟ فقال عمر أنا فوجده ساجداً فقال: أقتل رجلاً واضعاً وجهه لله تعالى، وقد رجع أبو بكر رضى الله عنه وهو أفضل منى فخرج إليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه(١٠) فقال: يا رسول الله بأبى أنت وأمى وجدته ساجداً فكرهت أن اقتله واضعاً وجهه لله تعالى. قال صلى الله عليه وسلم: من يقتل الرجل، قال على: أنا قال: أنت إن أدركته قتلته فوجده على قد خرج، فجاء فقال وجدته بأبى أنت وأمى قد خرج قال: لو قتلته ما اختلف من أمتى رجلان كان أولهم وآخرهم واحداً» وقال محمد بن كعب القرظى هو الذى قتله على يوم النهر وإن رؤيته مثل البراغيث إنما نبت له جناحان يطير بهما حرقوص ذو الثدية. عن إبى سلمة رضى الله عنه قال وقف رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقسم تبرأ فقال: يا محمد اعدل، فرفع بصره إليه فقال: «ويلك إذا لم أعدل، فمن يعدل يوشك مثل هذا يظهرون يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا ظهروا فاضربوا أعناقهم، قال والظاهر من قولهم وفعلهم يسبى نفوس الجهال والحمقى والباطن ظلمات بعضها فوق بعض زيغ وكفر وزندقة وتشبيه».

---

(١٠) مه: اسم فعل أمر، مبنى على السكون، ومعناه اكفف.

[الأصل الثانى والأربعون فى فضيلة المؤذنين]

عن معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » (١) قال أبوعبد الله المؤذنون هم دعاة إلى أمر الله فزيدوا على الناس مرتبة بطول أعناقهم، ليشرفوا على الناس بأعناقهم وهذا الطول عندنا فى شخصهم وخيالهم فأما نفس الخلقة بحيث خلقها الله تعالى من جنس خلق أهل الجنة وإنما ذكر العنق للمقدار لأن هناك طبقة أعلى منهم هم الأنبياء والأولياء الذين هم دعاة إلى الله تعالى زيدوا فى القامة كلها لا فى العنق فقط وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصف فى هذه الحياة بصفة تدل على ما قلنا وهو أنه عليه السلام كان إذا مشى ربما إذا اكتنفه رجلان طويلان فيمشى هو بينهما فيطولها فإذا مشى وحده نسب إلى الربعة «قال: على رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن بقصير ولا طويل وإذا جاء مع الناس غمرهم».

عن أم معبد فى صفته صلى الله عليه وسلم قالت كان انظر الثلاثة منظراً ووجه آخر أنهم أطول الناس أعناقاً بمد أعينهم إلى عظيم ما يأملون من الثواب ومد العين إلى الشيء تأميلاً إشراف بالعنق فإذا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه -كتاب الصلاة- باب فضل الآذان وهرب الشيطان عند سماعه (٨٩/٤)، وابن ماجه فى سننه -كتاب الأذان والسنة فيها- باب فضل الأذان وثواب المؤذنين جـ١ ص٢٤٠، وابن حبان فى صحيحه -كتاب الصلاة- باب تأمل المؤذنين طول الثواب فى القيامة بآذانهم فى الدنيا (١٣٣/٣)، وأحمد فى مسنده (١٦٩/٣).

كان يوم القيامة ووصل الأنبياء والأولياء عليهم السلام إلى كرامة الله تعالى كانت قامتهم على حسب درجاتهم فى الموقف إذا أتوها حتى يصدروا من الموقف إلى الجنة فيعطون قامة أهل الجنة ومما يحق ما قلناه.

ما رواه ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أحشر أنا وأبو بكر وعمر يوم القيامة هكذا وأخرج بالسبابة والوسطى والبنصر ونحن مشرفون على الناس» وقد ذكرناه فى الأصل الرابع والعشرين ومما يحقق ما قلنا ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صورة الذرّ يطأهم الناس تحت أقدامهم» فالمتكبرون الذين تكبروا على الله تعالى فلم يوحدوه قال تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٢).

فقامتهم قامة الذرّ يوم القيامة فكل من كان أشد تكبراً كان أقصر قامة، وعلى هذا السبيل كل من كان أشد تواضعاً لله تعالى فهو أشرف قامة على الخلق.

(٢) الصافات (٣٥/٣٧). راجع تفسير الصابونى (١١٩٦/٢٣).

(الأصل الثالث والأربعون فى تسليم الحق وسر مصافحته لعمر رضى الله عنه)

عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أول من يصافحه الحق عمر وأول من يسلم عليه وأول من يأخذ بيده فيدخله الجنة»(1) قال أبو عبد الله: الرحمة والحق لهما شأن فث الموقف يومئذ الحق يقتضى الخلق عبودته والرحمة تشتمل على من وفى بالعبودة له فمن طالبه الحق بالعبودة ولم تدركه الرحمة فقد هلك، وكان من شأن عمر رضى الله عنه القيام بالحق و وكان الغالب على قلبه عظمة الله وجلاله، وهيبته سبحانه وتعالى، وكان الحق عز وجل معتملة حتى يقوم بأمر الله، ويحاسب نفسه وسائر الخلق على الذرة والخردلة فى البر والعلانية وهو الوفاء بما قلد الله الخلق من رعاية هذا الدين الذى ارتضاه لهم وهو الإسلام فكأنه خلق عزاً للإسلام وبذلك دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب أوبعمرو بن هشام».

عن عائشة رضى الله عنها قالت: دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب وأبى جهل بن هشام، فأصبح عمر وكانت الدعوة يوم الأربعاء وهم تسعة وثلاثون رجلا فأسلم عمر رضى الله عنه

(1) أخرجه ابن ماجة فى سننه فى المقدمة، باب فضل عمر رضى الله عنه (39/1) وأخرجه الحاكم فى المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، باب أول من يصافحه الحق يوم القيامة عمر (84/3).

يوم الخميس فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل البيت تكبيرة سمعت بأعلى مكة، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مختفياً في بيت الأرقم فأظهر الإسلام وطاف بالبيت وعمر متقلد السيف حتى صلى الظهر معلناً.

وكان كما قالت عائشة رضى الله عنها وكان أحوذيا (٢) نسيج وحده قد أعد للأمور أقرانها. عن سعيد بن جبير عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن جبرائيل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد أقرئ عمر السلام وأخبره أن غضبه عز وأن رضاه عدل.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عمر إن غضبك عز ورضاك حكم» وهذا لأن من استولى على قلبه الحق إذا غضب، غضب للحق وإذا رضى، رضى من أجل الحق وكان الغالب على قلب عمر رضى الله عنه الحق ونوره وسلطانه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرحم امتى بأمتى أبو بكر وأقواهم فى دين الله عمر» وإنما القوة من أجل أن الحق على القلب سلطانه، وكان أبو بكر رضى الله عنه من شأنه القيام برعاية تدبير الله ومراقبة صنعه فى الأمور حتى يدور مع الله تعالى فى تدبيره، وكان مستعملاً بالتدبير وعمر مستعملاً بالحق فمن شأن أبى بكر رضى الله عنه العطف والرحمة والرأفة والرقة واللين، ومن شأن عمر رضى الله عنه الشدة والقوة والصلابة والصرامة ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه أبا بكر بإبراهيم من الرسل وبميكائيل من الملائكة عليهم السلام وشبه عمر بنوح من الرسل وبجبرائيل من الملائكة عليهم السلام فابتدأ الله المؤمنين بالرحمة ورزقهم الإيمان ثم اقتضاهم حقه فشرع لهم الشريعة، وأتسأداهم القيام بذلك فمن وفى له بالقيام بذلك فقد أرضى الحق تعالى فأبوبكر من المبتدأ وهو

(٢) فى نسخة أخرى [أحوريا] وهو تحريف خطير.

الإيمان وعمر مع الذين يتلوه وهو الحق وهو الشريعة لأن من حق الله تعالى على عباده أن يوحدوه وإذا وحدوه فمن حقه عليهم أن يعبدوه بما أمرهم به ونهاهم عنه.

ولذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أمرت أن اءول الرؤيا على أبى بكر وأمرت أن أقرأ القرآن على عمر» لأن الرؤيا جزء من أجزاء النبوة، والقرآن بيان حقوقه، ولذلك قيل أبو بكر الصديق لأنه صدق بالأيمان بكمال الصدق وقيل لعمر فاروق لأنه يفرق بين الحق والباطل، وأسماؤهما دليلان على مراتبهما من الله تعاى بالقلوب، ويكشف لك عن درجتيهما أن مجرى أبى بكر مجرى صدق الإيمان ومجرى عمر مجرى وفاء الحق، وكيف ما دار الحق مع العباد يوم الموقف باقتضاء أمر الله عز وجل وحبسهم على الباب والانتقام بالنار منهم فالعاقبة الرحمة لأن الرحمة لا تترك أحداً قال لا إله إلا الله مرة واحدة فى دار الدنيا فى جميع عمره صدقاً من قلبه ثم لم يوجد له مثقال خردلة من خير إلا وتأخذه من النار ولو بعد مقدار عمر الدنيا، «وكذلك جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصة الشفاعة إذا انقضت شفاعة الرسل، والملائكة، والأنبياء، والمؤمنين، جاء محمد فى المرة الرابعة صلى الله عليه وسلم فيسأل فيمن قال مرة لا إله إلا الله فيقول الله عز وجل ارنها ليست لك ولا لأحد من خلقى فتجىء الرحمة من وراء الحجاب فتقول: يا رب منك بدأت وإليك أعود فشفعنى فيمن قال لا إله إلا الله مرة واحدة فتجاب إلى ذلك».

فإنما أعطاهم قول لا إله إلا الله بالرحمة ثم لا تتركهم تلك الرحمة حتى تأخذهم من الحق سبحانه وتعالى وانتقامه منهم بالنار ويكشف عن شأن درجتيهما الأخبار المتواترة فمنها ما روى عن أبى شريحة (٣) قال: «سمعت

(٣) فى نسخة أخرى [سريحيه].

علياً رضى الله عنه على المنبر يقول إن أبا بكر أواه منيب القلب وأن عمر ناصح الله فنصحه الله تعالى».

عن ابن سيرين رضى الله عنه أن أبا بكر رضى الله عنه كان إذا صلى، فقرأ خفض صوته وكان عمر رضى الله عنه كان إذا قرأ، جهر فقيل لأبى بكر لم تصنع هذا قال: أناجى ربى وقد علم حاجتى قيل أحسنت، قيل لعمر رضى الله عنه: لم تصنع هذا قال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان قيل أحسنت فلما نزل:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (٤)
فقيل لأبى بكر: ارفع شيئاً وقيل لعمر: اخفض شيئاً.

عن عبد الله بن بريدة رضى الله عنه قال: سمعت أبى يقول: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازيه فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت جارية سوداء فقالت يانبى الله كنت نذرت إن ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف فقال: «إن كنت نذرت أن تضربى وإلا فلا فدخل أبو بكر وهى تضرب، ثم دخل عمر فألقت الدف تحتها ثم قعدت عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان ليخاف منك ياعمر إنى كنت جالساً وهى تضرب فدخل أبو بكر وهى تضرب، ثم دخل على، وهى تضرب ثم دخل عثمان، وهى تضرب فلما دخلت أنت ألقت الدف» فلا يظن ذو عقل أن عمر فى هذا أفضل من أبى بكر وأبو بكر شبيه برسول الله صلىَ الله عليه وسشلم فى ذلك ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع بين الأمرين والدرجتين فله درجة النبوة لايلحقه أحد وأبو بكر له درجة الرحمة، وعمر له درجة الحق، عن الأسود بن هلال رضى الله عنه قال:

(٤) الإسراء (١١٠/١٧) راجع تفسير الطبرى (١٨/١٥).

قال أبو بكر رضى الله عنه لأصحابه ذات يوم: ما ترون فى هاتين الآيتين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ (٥)

وقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (٦)

قالوا: استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم بذنب قال: لقد حملتموها على غير المحمل إن الذين قالوا ربنا الله. ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى غيره، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أى بشرك.

عن الزهرى أن عمر رضى الله عنه تلا هذه الآية:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ (٧)

قال: استقاموا والله لله بطاعته ثم لم يرغو روغان الثعالب (٨).

عن مكحول رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من المسلمين منازعة فى شىء ادعاه المنافق فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقصيا عليه قصتهما فلما توجه القضاء على المنافق، قال المنافق: يا رسول الله ادفعنى وإياه إلى أبى بكر قال: انطلق معه إلى أبى بكر فانطلق معه فقصيا قصتهما على أبى بكر رضى الله عنه فقال: ما كنت لأقضى بين من رغب عن قضاء الله وقضاء رسوله فرجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

---

(٥) فصلت (٣٠/٤١). استقاموا: أى على طاعة الله، وآمنوا به. راجع غريب القرآن ص ٣٨٩ بتصرف.

(٦) الأنعام (٨٢/٦) لم يلبسوا إيمانهم بظلم: أى لم يخلطوه بشرك، والظلم فى القرآن هو الشرك لأنه يهلك النفس.

(٧) فصلت (٣٠/٤١).

(٨) راجع هذا القول فى تفسير القرطبى (٣٥٨/١٥).

يا نبى الله ادفعنى وإياه إلى عمر، قال: انطلق معه إلى عمر، قال: يا نبى الله انطلق مع رجل إلى عمر، قد رغب عن قضاء الله وقضاء رسول الله قال: انطلق معه فخرجا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقصيا عليه قصتهما فقال عمر رضى الله عنه لا تعجلا حتى أخرج إليكما فدخل فاشتمل على السيف، وخرج عليهما فقال: أعيدا على قصتكما فأعادا

فلما تبين لعمر رضى الله عنه أن المنافق رغب عن قضاء الله وقضاء رسوله حمل سيفه على ذؤابة المنافق حتى خالط كبده ثم قال: هكذا أقضى بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فأتى جبرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن عمر قد

قتل الرجل وفرق الله بين الحق والباطل على لسان عمر رضى الله عنه» فسمى الفاروق ويلزم اسم الصديق من أقام الصدق فى أموره كلها ويلزم اسم الفاروق من أقام الحق فى أموره كلها، ولو كان فى بعضها لكان هذا لكان هذا صادقاً، وذاك فارقاً من العربية فى قالب فاعل وأما فعيل وفعول هو الذى تمكن ذاك الأمر فيه فصار له عادة وطبعاً.

[الأصل الرابع والأربعون فيما يعدونه صدق الحديث]

قال المصنف حدثنا الحسين بن على العجلى الكوفى قال: حدثنا يحيى بن آدم قال حدثنا ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا حدثتم عنى بحديث تعرفونه ولا تنكرونه قلته أولم أقله فصدقوا به وإنى أقول ما يعرف ولا ينكر وإذا حدثتم عنى بحديث تنكرونه، ولا تعرفونه فكذبوا به فإنى لا أقول ما ينكر ولا يعرف» (١)، فالرسل بعثوا إلى الخلق بحمل الأمور ومعرفة التدبير فى الأمور وكيف ولم وكنه الأمور عندهم مكنون قد أفشى الله من ذلك إلى الرسل من غيبه ما لا يحتمله عقول من دونهم وبفضل النبوة قدروا على احتماله فالعلم إنما بدا من عند الله تعالى إلى الرسل ثم من الرسل إلى الخلق فالعلم بمنزلة البحر فأجرى منه واد ثم أجرى من الوادى نهر ثم أجرى منه جدول ثم من الجدول إلى ساقية فلو أجرى إلى الجدول ذلك الوادى غرقه وأفسده ولو مال البحر إلى الوادى لأفسده وهو قوله تعالى فى تنزيله الكريم:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (٢)

فبحور العلم عند الله تعالى فأعطى الرسل منها أودية ثم أعطت الرسل من أوديتهم أنهاراً إلى العلماء ثم أعطت العلماء إلى العامة جداول صغاراً

---

(١) أخرجه البزاز فى مسنده (١٠٦/١) وذكره الزبيدى فى الإتحاف (٥٢٣/٦) وأشار إليه الكتانى الشافعى فى تنزيه الشريعة (٢٦٤/١).

(٢) الرعد (١٧/١٣).

ومن ههنا ماروى فى الخبر أن لله سراً لو أفشوه لفسد ملكهم وللعلماء سراً لو أفشوه لفسد علمهم وإنما يفسد ذلك لأن العقول لا تحتمله فللما زيدت الأنبياء عليهم السلام فى عقولهم قدروا على احتمال النبوة وزيدت العلماء فى عقولهم وبذلك نالوا العلم فقدروا على احتمال ماعجزت العامة عنه وكذلك علماء الباطن [3] وهم الحكماء زيدت فى عقولهم وبذلك نالوا العلم فقدروا على احتمال ماعجزت عنه علماء الظاهر ألا يرى أن كثيرا من علماء الظاهر دفعوا أن تنقطع الوسوسة من الآدمى فى صلاته ودفعوا أن يكون له مشى على الماء أوتطوى له الأرض أويهيأ له رزق من غير وجوه الآدميين حتى أنكروا عامة هذه الروايات التى جاءت فى مثل هذه الأشياء ولو عقلوا لقالوا مثل ماقال مطرف بن عبد الله حين سار ليلة من صاحب له فأضاء له طرف عصاه كالسراج معه فقال له صاحبه لو حدثنا بهذا كذبنا فقال مطرف: المكذب بنعم الله يكذب بهذا ولو نظر علماء الظاهر إلى ما أعطى الله تعالى إليهم من معرفته وهى أعظم شىء فى السموات والأرض لم يستعظموا ماإذا أعطى أحدهم دسجة من جزر فى برية من الأرض أورغيفاً بل قالوا: هذا من الله الذى أعطانا معرفته التى هى أثقل من سبع سموات وسبع أرضين لكنه من أعطى هذا العطاء الجليل فلم يرعه

(٣) هذا قول الحكيم الترمذى نفسه ــ وإن كنا غير مؤيدين له ــ ولكنا نرى أنه خاص انفرد به طائفة من الناس الذين قسموا العلماء إلى قسمين: أهل الظاهر، وأهل الباطن، وإن كان الترمذى الحكيم من هؤلاء الذين أقروا بذلك، لأن ظاهر الشريعة موافق لباطنها، ولا يمكن أن تنفصل هذه عن تلك لأن المقيس عليه واحد، وهو السنة الصحيحة، فمن المحتوم أن يكون كل مايقاس على هذا الثابت المكين ــ متوافقا مع بعضه البعض، والسابق الى الذهن، والمظنون أن التقسيم يدل على أن لكل قسم امتيازاً ينفرد به عن الآخر، وهذا فى الواقع أمر متنازع فيه عند البعض، مردود عند آخرين.

حق رعايته ولم يشكر المعطى، بل سها ولها وتبطل فى صورة الكفور للنعمة مقبلاً على الدنيا ومن انتبه لما أعطى وانكشف غطاء قلبه رعى ما أعطى وعز عليه أن يدنس خلعة الله الذى خلع على قلبه كما عز عليه أن يدنس خلعة الملوك فى دار الدنيا فكيف بالخلعة التى خلعها رب العالمين على قلوب الموحدين اشتعل فى قلوبهم نور التوحيد حتى عرفوه وآمنوا به فأشرقت صدورهم ونزع عنها ظلمة الكفر وخلعها عنهم وخلع عليهم لباس التقوى الذى هو وقاية من النار ثم قال فى تنزيلة الكريم:

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (٤)

وقال:

﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ (٥)

ثم قال:

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦)

عليم بمعنى أعطى من هو من عباده حكيم فى أمره بالحكمة فعل هذا لا بالجزاف،

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ (٧)

---

(٤) الأعراف (٧/٢٦).

(٥) الحجرات (٤٩/٧-٨). الفسوق: الذنوب الكبار، وبالعصيان: جميع المعاصى. راجع مختصر ابن كثير (٣/٣٦١).

(٦) الحجرات (٤٩/٨).

(٧) النجم (٥٣/٣٢). راجع أبا حيان فى البحر المحيط (٨/١٥٥).

فمن انتبه لهذه النعمة ولهذا الفضل لم يستعظم أن تطوى له الأرض أويعطى رغبة فى برية والله يقول فى تنزيله الكريم:

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ (٨)

قيل هو الشفاعة يوم القيامة فرجل يشفع فى أهل النار يوم القيامة وصار ممن يجوز قوله بين يدى رب العزة فث ذلك الموقف ارن أعطاه رغبة فى الدنيا من حيث لا يقدر عليه ماذا يكون فيه حتى ينكر هذا وما يخرج انكار هذا إلا من قوم جهلوا صنائع الله تعالى وتدبيره فى خلقه ولم يتبين لهم كرامة الله إياهم.

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال» فعلماء الظاهر عرفوا الله ولكن لما ينالوا حق المعرفة فلذلك عجزوا عن هذه المرتبة ودفعوا أن يكون هذا كائناً لأحد، ولو عرفوه حق المعرفة لماتت عنهم الشهوات وحب الرياسة، والشح على الدنيا، والتنافس فى أحوالها، وطلب الثناء والمحمد ترى أحدهم ينصب سمعه مصغياً إلى ما يقول الناس له وفيه وعينه شاخصة إلى ما ينظر الناس إليه منه، وقد عميت عيناه عن النظر إلى صنع الله وتدبيره، فإن الله كل يوم هو فى شأن وقد صمم أذنه عن مواعظ الله يقرأه ولا يتلذذ به ولا يجد له حلاوة وكأنه ارنما عنى به غيره كيف يتلذذ بما كلم به غيره، وإنما صار كذلك لأن الله تعالى خاطب أولى العقول والبصائر والألباب فمن ذهب عقله وبصيرته ولبه فى شأن نفسه ودنياه كيف يفهم كلام رب العالمين، ويتلذذ به وإنما وقع البر واللطف على أهل تلك الصفة، عدنا إلى تأويل الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا حدثتم عنى بحديث تعرفونه، ولا تنكرونه» فنقول من تكلم

(٨) الشورى (٤٢/٢٦). راجع البحر المحيط لأبى حيان (٧/٥١٨) والقرطبى (١٦/٢٥).

بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بشيء من الحق وعلى سبيل الهدى فالرسول صلى الله عليه وسلم سابق إلى ذلك القول وإن لم يكن تكلم بذلك اللفظ الذى أتى به من بعده فقد أتى الرسول صلى الله عليه وسلم بأصله مجملاً فلذلك قال: «فصدقوا به قلته أولم أقله إن لم أقله بذلك اللفظ الذى يحدث به عنى فقد قلته إذ جئت بالأصل» والأصل مؤد عن الفرع فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالأصل، ثم تكلم أصحابه والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين من بعده بالفروع فإذا كان الكلام معروفاً عن المحققين غير منكر فهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم قاله أولم يقله، يجب علينا تصديقه لأن الأصل قد قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وأعطاناه وإنما قال ذلك لأصحابه الذين قد عرفهم بالحق فإنما يعرف الحق المحق وهم أولوا الألباب والبصائر فأما المخلط المكب على شهوات الدنيا المحجوب عقله عن الله تعالى فليس هو المعنى بهذا لأن صدره مظلم فكيف يعرف الحق وإنما شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إذا جاءكم عنى حديث تعرفونه، ولا تنكرونه» وإنما تعرف، وتنكر العقول التى لها إلى الله سبيل يصل إلى الله ونور الله سراجه والعقل بصيرته، والحق خبئته والسكينة طابعه فرجع إلى خلقه والحق عنده أبلج يضيء فى قلبه كضوء السراج يقيناً وعلماً به كما قال ربيع بن خيثم ارن على الحق نوراً وضوءاً كضوء النهار نعرفه وإن على الباطل ظلمة كظلمة الليل ننكره فالمحقون هكذا صفتهم يعرفون الحق والباطل وكذلك وعد الله تعالى المتقين فقال عز من قائل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٩)

قال أهل التفسير اخراجاً (١٠) أى من الشبهات والظلمات فأما محض التفسير فالمخرج أن يجعل له نوراً فى قلبه يفرق بين الحق والباطل حتى

(٩) الأنفال (٢٩/٨). يجعل لكم فرقانا: أى مخرجاً.

(١٠) فى نسخة أخرى [مخرجا] وهو تحريف.

يكون له مخرجاً من ظلمة الجهل وشبهات الدنيا فإن الجهل يظلم والدنيا تزين على الآدمى شهوته التى فى جوفه فتشبه عليه حتى تخدعه فبتقواه من هذه الأشياء يجعل له فرقاناً وهو النور يفرق بين الحق والباطل هذا ثواب التقوى فى عاجل دنياه وثوابه فى الآخرة قربته، وكرامته ورفعة درجته قال له قائل: إن كان النظر فى معرفة الحق من الباطل إلى القلب فما الحاجة بنا إلى هذه الآثار، قال: أعلم أن الله تعالى أنار القلب، ووفر عقله والحق نور وعلى قلب الموحد نور يتقد(١١) من قلبه على قلبه فى صدره فإذا عرض أمر الله تعالى هو حق فوقع ذكره فى الصدر على القلب التقى نور الحق ونور القلب فامتزجا وائتلفا فاطمأن القلب بما فيه وسكن فعلمت أنه الحق وإذا عرض باطل فوقع ذكره فى الصدر على القلب والباطل ظلمة التقت الظلمة ونور القلب فيفر(١٢) النور ولم يمزج معه فاضطرب القلب.

عن وابصة بن معبد رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جئت تسأل عن البر والإثم استفت قلبك البر ما اطمأنت إليه النفس والقلب والإثم ما جأك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس» إنما ذكر طمأنينة النفس ليعلم أنها نفوس قد ماتت منها الشهوات وراضها صاحبها وأدبها فقارنت القلب فى الصدر فى العبودية ولو كانت نفس شهوانية بطالة لم تستحق أن ينظر إليها لما يحيك فيها وإلى ما يطمئن فالنفوس البطالة تطمئن إلى الجهل ولا يحيك فيها الحق والخير ويستقر فيها الشر والباطل.

عن عثمان بن عطاء عن أبيه رضى الله عنهما قال: رجل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله افتنا إن ابتلينا بالبقاء

(١١) فى نسخة أخرى [نفذ] وهو تحريف من الناسخ..
(١٢) فى نسخة أخرى [فنفر] وهو تصحيف.

بعدك قال: تفتيك نفسك قال: وكيف تفتينى نفسى قال عليه السلام: ضع يدك على صدرك فإنه يسكن للحلال، ويضطرب من الحرام دع ما يريبك إلى ما لا يريبك وإن افتاك المفتون إن المؤمن يذر الصغير مخافة أن يقع فى الكبير».

عن الحسن بن على رضى الله عنه قال: سمعت جدى صلى الله عليه وسلم يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» وإنما صير رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الكلمة علامة لقلوب قد ملكت النفوس وخلت من وساوسها الصدور لا القلوب التى قد ملكتها نفوسها، وشحنت بوساوسها صدورها فال الله تعالى فى تنزيله الكريم:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (١٣)

وعد الهداية على فعل ما يوعظ به وقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (١٤)

وقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (١٥)

بالهداية فى القلب والفرقان فى القلب وهو نور يجعله الله فى القلب فيشرق به الصدر وتنجلى ظلمة الشهوات والهوى عن الصدور ويزول رين الذنوب فدلت الآيات أن هذا لأهل التقوى والفاعلين بوعظه، وأهل المجاهدة وهم أهل اليقين، وطهارة القلوب، وأما العامة فإنهم يحتاجون

---

(١٣) النساء (٦٦/٤).
(١٤) سورة العنكبوت: الآية رقم: ٦٩.
(١٥) الأنفال (٢٩/٨).

إلى النصوص والآثار على السنة علماء الظاهر لما دخل عليهم من آفة النفس، وتخليطها فقد تراكمت على صدورهم سحائب تترى من حب الدنيا، وحب الجاه، وحب الثناء، وحب الرياسة، وحب الشهوات، وفتن الدنيا ورين الذنوب فإذا عرض فى الصدر ذكر شىء هو حق وعلى الحق نور حالت الظلمة بين نور الحق ونور القلب فلم يمتزجا ولم يعرف القلب ذلك الحق فصاحبه فى حيرة منه وإذا عرض أمر هو باطل وعلى الباطل ظلمة امتزج الباطل بظلمة الشهوات ورين الذنوب فلم يعلم القلب بشىء من ذلك لأن نور القلب قد انكمن فى القلب ولم يشرق فى الصدر فليس لأهل التخليط من هذه العلامة شىء فإنه قال: «دع ما يريبك إلى مالا يريبك» وصدره ممتلىء ريباً فكيف يتبين فى الريب الزائد قال له قائل: إن رأيت أن تنص على حديثين حديث يعرف المحققون ببصائرهم ولا ينكرونه وحديث ينكرونه لنعرف به الوجهين جميعاً.

ومن قبل ذلك فأخبرنا ما معنى قولك يعرفه المحققون ببصائرهم قال: إن الحق الأعظم الذين انشعب منه الحقوق لا يسكن إلا فى طاهر وكذلك اليقين لا يستقر إلا فى قلب طاهر فمن لم يطهر قلبه فهذه الأشياء نافرة عنه لا تجد مأمنها فإذا وجدت قلباً وقد تطهرت من أدناس الذنوب ودرن العيوب فقد وجدت مأمناً فارتبعت فيه فوجدت صاحبه حكيماً، ووجدته موقناً، ووجدته محقاً، فالحكمة ينبوع قلبه، ومثال بين عينيه، واليقين مطالعة الملكوت والحق مستعملة ومن لم يطهر قلبه، فالحق نافر عنه، فهو يتبع الحق ليعمل به والحق هارب منه، فلذلك يشتد عليه القيام بالحق ويقل عليه حتى يعجز عنه والمحق يجرى فيه كالسهم وكالماء وكالدهن ليناً وكالريح سرعة ومضياً وأما حديث يعرفه المحققون.

فروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال: «أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق على غيرنا وجب، وكأن الذى نشيع من الموتى عن قليل إلينا راجعون نبوءهم أجداثهم (١٦) ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، طوبى لمن نفسه من غير منقصة، وتواضع لله تعالى من غير مسكنة، وأنفق مالاً جمعه من غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة. طوبى لمن ذل نفسه وطاب كسبه، وصلحت سيرته وحسنت خليقته، وكرمت علانيته وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله»، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ياغلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن قلت: بلى يا رسول الله قال: «احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء، يعرفك فى الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وقد جف القلم بما هو كائن فلو جهد الخلق على أن ينفعوك بكلمة (١٧) لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه ولو جهد الخلق على أن يضروك بكلمة (١٨) لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه فإن استطعت أن تعمل لله بالرضى واليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» وأما حديث ينكره المحقون فما روى عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن سليمان عليه السلام مر فى موكبه برجل يقال له مرعبدى وهو قائم يصلى فوقف عليه، حتى فرغ فلم يرفع رأسه فلما رأى ذلك منه نزل إليه

(١٦) الأجداث: جمع جدث وهو القبر.
(١٧)، (١٨) فى نسخة [بشىء].

فكلمه فقال له: مرعبدى ألست ابن داود الخاطىء حملت الدنيا فوق رأسك، وجعلت الآخرة تحت قدميك فصرت محجوباً عن الدارين» فى كلام طويل عامته كذب، لا يقبله قلوب المحققين وقد جعل الله الرسل عليهم السلام أحباءه وأصفياءه ومن قال لرسول مثل هذا فقد عابه، ومن عابه فقد كفر بالله سبحانه وتعالى وقد جعل الله إيماننا به منظوماً به فإيماننا بالله لا يقبل منا حتى نؤمن بالرسل، كما آمنا به وكيف يجوز أن يقال لرسول الله جعلت الآخرة تحت قدميك والدنيا فوق رأسك فهو بذلك راد على الله تعالى والله عز وجل يقول فى كتابه الكريم:

﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٩)

فسليمان من أهل هداية الله تعالى وسماه محسناً وهذا يحكى أنه قال: جعلت الآخرة تحت قدميك وصرت محجوباً عن الدارين وقال الله تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (٢٠)

ثم قال لنبيه عليه السلام:

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (٢١)

فهذا الذى زَوَّر هذا الحديث أحسبه من هؤلاء الحمقى يتزهدون فى الدنيا رياء وسمعة يريدون أن يتأكلوا هذا الحطام بسمة الزهد، ولم يعرفوا ما الزهادة، وما معناها حسبوا أن الزهادة شتم الدنيا وأكل النخالة ولبس الصوف وذم الأغنياء، ومدح الفقراء، ومن جهله يزعم أنه قال: مرعبدى لسليمان عليه السلام ليس تقضى نهمة من الدنيا إلا نقص من ميزانك والله تعالى يقول:

(١٩) الأنعام (٦/٨٤).
(٢٠) ص (٣٨/٣٠ . ١).
(٢١) الأنعام (٦/٩٠).

﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢٢)

ثم قال :

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (٢٣)

ومن الحديث الذى ينكره قلوب المحقين ما روى أن قوم موسى سألوا موسى عليه السلام أن يسأل ربه عز وجل أن يسمعهم كلامه الكريم فسمعوا صوتاً كصوت الشبور (إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم أخرجتكم من مصر بيد رفعية وذراع شديد) فهذا حديث من غرب فهمه وإنما الكلام شىء خص به موسى عليه السلام من بين جميع ولد آدم عليه السلام فإن كان كلم قومه أيضاً حتى أسمعهم كلامه فما فضل موسى عليه السلام حيث سمى كليم الله من بين رسله عليهم السلام ومن الحديث الذى ينكره قلوب المحقين ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل :

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ (٢٤)

الآيات ، قال مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادهما عمومة العرب ، فقالوا يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذراً ، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشىء فقال على رضى الله عنه إن برأ ولداى صمت لله ثلاثة أيام شكراً ، وقالت جارية لهم ثويبة أن برأ سيداى صمت لله تعالى ثلاثة أيام شكراً ، وقالت فاطمة رضى الله تعالى عنها مثل ذلك ، فألبس الغلامان العافية وليس عند آل محمد قليل ولا كثير فانطلق على رضى الله عنه إلى شمعون اليهودى الخيبرى

---

(٢٢) ص (٣٨/٣٩) . فامنن أوأمسك : أى فأعط أوامنع . راجع البحر المحيط (٣٩٩/٧) والدر المنثور للسيوطى (٣١٥/٥) .

(٢٣) ص (٣٨/٤٠) .

(٢٤) الإنسان (٧/٧٦) . قال الطبرى : «النذر هو كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل» أهـ . فراجعه (١٢٩/٢٩) .

فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير، فجاء به فوضعه في ناحية البيت، فقامت فاطمة رضى الله عنها إلى صاع فطحنته وأختبزته، وصلى على مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم أتى المنزل فلما وضع الطعام بين يديه أتاهم مسكين فقال السلام عليكم أهل بيت محمد أطعموني أطعمكم الله على موائد الجنة فسمعه على رضى الله عنه فأنشأ أبياتا لفاطمة رضى الله عنها وأنشأت فاطمة أبياتاً له فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح، وفي اليوم الثاني قامت إلى صاع فاختبزته فوقف بالباب يتيم، فأنشأ على كرم الله وجهه أبياتاً وأنشأت فاطمة رضى الله عنها أبياتاً فأعطوه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء فلما أن كان اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقي فطحنته، واختبزته فوقف بالباب أسير أستطعم أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فأنشأ على رضى الله عنه أبياتاً وأنشأت فاطمة رضى الله عنها أبياتاً فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيا ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح فلما أن كان اليوم الرابع وقد قضى الله النذر أخذ على بيده اليمنى الحسن وبيده اليسرى الحسين، وأقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا أبا الحسن ما أشد ما أرى بكم انطلق بنا إلى ابنتي فاطمة فانطلقوا إليها وهي في محرابها قد لصق بطنها بظهرها وغارت عيناها من شدة الجوع، فلما أن رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف المجاعة في وجهها بكى فقال: «واغوثاه أهل بيت محمد يموتون جوعاً فهبط جبرائيل عليه السلام فقال: السلام يقرئك السلام يا محمد، خذ هنيئاً في أهل بيتك فأقرأه:

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ إلى قوله:

﴿ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (٢٥)

(٢٥) الإنسان (٧/٧٦).

هذا حديث مزوق وقد تطرف (٢٦) فيه صاحبه حتى يشبه على المستمعين، والجاهل يعض على شفتيه تلهفاً إلا يكون بهذه الصفة ولا يدرى أن صاحب هذا الفعل مذموم قال الله تعالى فى تنزيله الكريم:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (٢٧)

وهو الفضل الذى يفضل عن نفسك وعيالك.

وقال صلى الله عليه وسلم «خير الصدقة ما كان من ظهر غنى وابدأ بنفسك ثم بمن تعول» وافترض الله تعالى على الأزواج النفقة لأهليهم وأولادهم، وقال صلى الله عليه وسلم: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» أفيحسب عاقل أن علياً رضى الله عنه جهل هذا الأمر، حتى أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أوست على جوع ثلاثة أيام ولياليها، حتى تضرروا من الجوع، وغارت العيون فيهم لخلاء أجوافهم حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد. هب أنه آثر على نفسه هذا السائل فهل كان يجوز له أن يحمل على أطفاله جوع ثلاثة أيام بلياليهن ما يروج هذا إلا على حمقى جهال. أبى الله لقلوب منتبهة أن تظن بعلى رضى الله عنه مثل هذا وليت شعرى من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن على وفاطمة رضوان الله عليها وإجابة كل منهما صاحبه حتى أداه إلى هؤلاء الرواة فهذا وأشباهه عامتها مفتعلة. ومما ينكره المحققون ما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن فى سنة مئاتين يكون كذا وفى العشرين والمئاتين كذا، وفى الثلاثين كذا، وفى الأربعين كذا، وفى الخمسين كذا، وفى الستين والمئاتين تعكف

---

(٢٦) فى نسخة أخرى [تطرق] وهو تصحيف.

(٢٧) البقرة (٢/٢١٩). ماذا ينفقون؟: أى ماذا يتصدقون ويعطون، والعفو: هو فضل المال؛ قال تعالى: «خذ العفو وأمر بالعرف» الأعراف (٧/١٩٩) راجع المعنى فى لسان العرب (١٩/٢٠٧).

الشمس ساعة فيموت نصف الجن والإنس فهل كان كذل وقد مضت هذه المدة وعكوف الشمس لا يخلو منه بلد فى شرق أوغرب. ودلالة أخرى وهو أن التاريخ لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما وضعوه على عهد عمر رضى الله عنه. عن ميمون بن مهران قال: «رفع إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه صك محله شعبان فقال عمر رضى الله عنه: أى شعبان هذا الذى هو آت أو هو الذى نحن فيه ثم قال لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ضعوا للناس تاريخاً فقال بعضهم اكتبوا على تاريخ الروم فقيل إنهم يكتبون من عند ذى القرنين وهذا يطول وقال بعضهم اكتبوا على تاريخ الفرس فقيل إن الفرس كلما كان ملك أرخ من قبله فاجتمع رأيهم أن ينظروا كم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فوجدوه عشر سنين فكتب التاريخ من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم» ومما ينكره القلوب حديث رووه عن عوف عن أبى القموص قال: شرب أبو بكر رضى الله عنه الخمر، يعنى من قبل نزلو تحريمها فقد ينوح قتلى بدر وينشد أبياتاً فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فخرج حتى أتاه فرفع عليه شيئاً فى يده. فقال أبو بكر: أعوذ بالله من غضب الله، وغضب رسوله فنزلت:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ ﴾ (٢٨)

فهذا منكر من القول والفعل وقد أعاذ الله الصديقين من فعل الخنا (٢٩) وأقوال أهله وإن كان قبل التحريم فقد كان أبو بكر بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر وقد وسم (٣٠) بالصديقية لأنه كان هو وعثمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراء فرجف بهم الجبل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسكن

(٢٨) المائدة (٥/٩٠). الميسر: القمار، وكان العرب يقولون: يسرت: أى ضربت بالقداح.
(٢٩) الخنا: الفحش.
(٣٠) وسم: اتصف.

حراء فإنما عليك نبى وصديق وشهيد » وعائشة رضى الله عنها أعلم بأبيها من أبى القموص، فهى تنكر هذا وتكذب أهله، وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «ما قال أبو بكر ولا عثمان بيت شعر فى جاهلية ولا فى إسلام».

وعنها أيضاً أنها كانت تدعو على من يقول أن أبا بكر قال هذه القصيدة وأولها:

تحيا بالسلامة أم بكر ... وهل لى بعد قومى بالسلام

الخ، ثم قالت: «والله ما قال أبو بكر بيت شعر فى الجاهلية ولا فى الإسلام». ولقد ترك أبو بكر وعثمان شرب الخمر فى الجاهلية. وما ارتاب أبو بكر فى الله منذ أسلم ولكنه تزوج امرأته من بنى كنانة ثم من بنى عوف فلما هاجر أبو بكر طلقها فتزوج بها ابن عمها أبو بكر من شعوب الكنانى الشاعر فقال هذه القصيدة يرثى بها كفار قريش الذين قتلوا ببدر، فحملها الناس أبا بكر من أجل امرأته أم بكر التى طلقها.

[الأصل الخامس والأربعون في النهي عن اكراه المرضى على الطعام والشراب]

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام فإن الله يطعمهم ويسقيهم» (١) إطعام الله وسقياه الآدمي في دنياه هذا الذي هيأه في أرضه وسمائه وفي افخرة ما هيأه في جواره من جنانه ثم فيما بين ذلك من الله تعالى للعباد لطائف من خزائنه في أحوالهم مثل مائدة عيسى عليه السلام ومثل ما أوتي مريم حيث قيل:

﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ (٢)

وسقياه مثل عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أصابهم العطش فانفجرت من أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم منابع الماء حتى ارتوى العسكر وأما معنى قوله صلى الله عليه وسلم «فإن الله يطعمهم ويسقيهم» هو أنه يطهر قلوبهم من رين الذنوب. فإذا طهرهم من رين الذنوب من عليهم باليقين فأشبعهم وأرواهم فذاك طعامه وسقياه لهم ألا

(١) أخرجه الترمذي في سننه ـ كتاب الطب ـ باب ما جاء: لا تكروهوا مرضاكم على الطعام والشراب (٣٨٤/٤). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأخرجه ابن ماجة في سننه ـ كتاب الطب ـ باب لا تكرهوا المريض على الطعام (١١٤٠/٢). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ـ كتاب الطب ـ باب لا تكرهوا مرضاكم على الطعام (٨٦/٥)، وأخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب الجنائز ـ باب لا تكرهوا مرضاكم على الطعام فإن الله يطعمهم (٣٥٠/١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

(٢) آل عمران (٣٧/٣) راجع تفسير الطبري (٣٥٧/٦).

ترى أنه يمكث الأيام الكثيرة لا يذوق شيئاً ومعه قوته، ولو كان ذاك فى أيام الصحة لضعف عن ذلك، وعجز عن مقاساته، وأقل الناس طعاماً الأنبياء ثم الأولياء. وكلما كان العبد أكثر حظاً من اليقين كان أقل طعماً وتناولاً. روى عن عامر بن عبد قيس أنه داوم ألا يأكل شيئاً، قال الأعمش سمعت إبراهيم التيمى رحمه الله يقول لقد أتى على شهر وما أكلت طعاماً ولا شراباً إلا حبة من عنب أكرهونى عليها وما أنا بصائم وإنى أقضى حوائجى. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الكافر يأكل فى سبعة أمعاء والمؤمن يأكل فى معاء واحد» فقد فسرناه فى بابه.

[الأصل السادس والأربعون في بيان أنه مما يحصل عذاب القبر]

عن ميمونة رضى الله عنها أنها قالت يا رسول الله من أى شىء عذاب القبر؟ أفتنا عن عذاب القبر قال: «من اثر البول فمن أصاب منه شيئاً فليغسله بماء فإن لم يصبه أو يجده فليمسحه بتراب طيب» (1) جعل التيمم حالة الشك والتخوف أنه أصاب جسده البول دافعاً لعذاب القبر كما جعل غسله بالماء فى الحالة التى يدرى أنه أصابه دافعاً وباله فى القبر.

(1) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد- كتاب الطهارة- باب الاستنزاه من البول والاحتراز لما فيه من العذاب (209/1) وقال: رواه الطبرانى فى الكبير، وإسناده ما بين ضعيف ومجهول.

[الأصل السابع والأربعون فى بيان أن مدة المحنة لم تقدر بثلاثة أيام]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما صبر أهل بيت على جهد ثلاثاً إلا آتاهم الله تعالى برزق» (١) إنما صار مدة المحنة ثلاثة أيام لأن العبد على أجزاء ثلاثة: جزؤ منه للإيمان، وجزؤ للروح، وجزؤ للنفس. فالطمأنينة للإيمان، والطاعة للروح، والشهوة للنفس، فإذا منع اليوم ألثانى، فجاع وصبر فذاك صبر الروح يطيع ربه ولا يتناول ما لا يحل وإذا منع اليوم الثالث فجاع وصبر، فذاك صبر النفس وتمت المحنة لأن المحنة إنما تقع على أهل التهمة والإيمان غير متهم، وكذا الروح وإنما التهمة (٢) للنفس وفى اليوم الأول لم يتبين صبرها، لأن الإيمان والروح لها معين، وفى اليوم الثانى الروح معين لها فإذا أصبرت فى اليوم الثالث برزت منقبتها وإنما وقعت المحنة لشأن النفوس الكاذبة وامتحان إيمانهم قال الله تعالى:

﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾ (٣)

---

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب الزهد ـ باب فيمن صبر على العيش الشديد ولم يشك إلى الناس (٢٥٦/١٠). وأشار إليه السيوطى فى الجامع الصغير (١٤٦/٢) وعزاه للحكيم الترمذى عن ابن عمر ورمز لضعفه. وأشار إليه السيوطى كذلك فى الدر المنثور (٦٧/١) وعزاه للبيهقى وضعفه عند ابن عباس والحكيم فى النوادر.

(٢) فى نسخة أخرى [النهمة] وهو تصحيف من الناسخ.

(٣) العنكبوت (٢/٢٩) راجع التسهيل لعلوم التنزيل (١١٣/٣).

[الأصل الثامن والأربعون فى أن البركة فى بيع العقار منزوعة]

عن سعيد بن حريث رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من باع داراً أوعقاراً فليعلم أنه مال قمن أنه لايبارك له فيه إلا أن يجعله فى مثله»(١)، وعن عمران بن الحصين الخزاعى البدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من باع عقدة، وهو يجد بداً من بيعها، وكل بذلك المال ما يتلفه».

قيل إنما نزعت البركة منها لأنها ثمن الدنيا المذمومة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذاكر الله أومعلماً أومتعلماً». عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: «ملعونة الدنيا وملعون أهلها إلا ذاكر الله تعالى، وما آوى ذكر الله» وكل شىء أريد به وجه الله تعالى من الأمور والأعمال فهو مستثنى من اللعنة لأنه قد آوى ذكر الله تعالى. وقيل إنما نزعت البركة من ثمن العقار لأنه مخالفة لتدبير الله تعالى لأن الله تعالى خلق الأرض وجعلها مهاداً ومسكناً لا ليتجر فيها، وجعل الجبال أوتاداً، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وجعل أثمان الأشياء فى الذهب والفضة فإذا اتجر فيما خلق له

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه -كتاب الرهون- باب من باع عقاراً ولم يجعل ثمنه فى مثله (٨٣٢/٢). وأخرجه البيهقى فى السنن -كتاب البيوع- باب ما جاء فى بيع العقار (٣٤/٦). وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد -كتاب البيوع- باب بيع الدور والأراضى والنخيل (١١٠/٤).

بورك له فيه وإذا اتجر فيما خلق مهاد أومسكنا نزعت البركة عنه ولهذا أسماه عقدة لأنه مهاد لك قد عقد مسكناً.

[الأصل التاسع والأربعون فى أن النفقة فى التراب والبناء لا أجر فيها]

عن خباب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يؤجر العبد فى نفقته كلها إلا ما كان فى التراب أوقال فى البناء» (١) وفى رواية «كل نفقة ينفقها العبد يؤجر فيها إلا ما كان من نفقة فى التراب».

هذا عندنا فى البناء الذى يجعله مرفقاً لنفسه. وأما المساجد التى هى لله تعالى فلا يملكها أحد فهى خارجة من ذلك وقد جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة» فإنما صار غير مأجور فى النفقة فى التراب لأنه ينفق فى دنياه. وقد أذن الله فى خرابها وهو يزيد فى زينتها التى جعلت فتنة وبلوى للعباد وتصير عاقبتها إلى ما قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (٢)

عن راشد بن الحارث أو غيره قال: بنى أبو الدرداء كنيفاً (٣) فى منزله بحمص فكتب إليه عمر رضى الله عنه لقد كان لك يا عويمر فيما بنت فارس والروم كفاية عن تزيين الدنيا. وقد أذن الله بخرابها فإذا أتاك

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب المرضى - باب تمنى المريض الموت (١٢٧/١٠) وأخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الزهد، باب فى البناء والخراب (١٣٩٤/٢).

(٢) الكهف (٨/١٨).

(٣) الكنيف: الساتر، يقال له كذلك لأنه يكتنف الإنسان أى يستره.

كتابى فارتحل من حمص إلى دمشق قال: يعنى أنه عاقبه بما بنى، إن كان البناء مما لا يستغنى عنه وقد بنى محتسباً(٤) فهو خارج عن ذلك لأن الحاجة إلى المسكن كالحاجة إلى المطعم والمشرب، والملبس والمركب فإن كان فى نفقته فى هذه الأشياء محتسباً فهو مأجور فكذلك المسكن و وإنما تأويل هذا الحديث عندنا إذا بنى لنفسه بناء مرفق لا يحتسب بها، وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كل نفقة ينفقها العبد على نفسه فهى صدقة».

وعن المقدام بن معدى كرب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أنفقت على نفسك فهو صدقة وما أنفقت على زوجتك فهو صدقة».

---

(٤) محتسبا: مفوضا أجره على الله.

[الأصل الخمسون فى الاعتصام بالكتاب والعترة وبيانها]

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجرته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: «أيها الناس قد تركت فيكم ما إن أخذتم به [1] لم تضلوا كتاب الله وعترتى أهل بيتى» [2] وعن حذيفة بن أسيد الغفارى رضى الله عنه قال: لما صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع خطب فقال: «أيها الناس إنه قد نبأنى اللطيف الخبير إنه لن يعمر نبى إلا مثل نصف عمره الذى يليه من قبل وإنى أظن موشك [3] أن ادعى فأجيب وإنى فرطكم على الحوض وإنى سائلكم حين تردون علىّ عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوننى فيهما الثقل الأكبر كتاب الله تعالى سبب طرفه بيد الله تعالى وطرف بأيديكم فاستمسكوا فلا تضلوا ولا تبدلوا والثقل الأصغر عترتى أهل بيتى فإنى قد نبأنى اللطيف الخبير أنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض».

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دعاهم ثم تلا هذه الآية:

---

(١) وردت فى نسخة [لن تضلوا] وهو تحريف.

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب المناقب- باب فى مناقب أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم (٦٦٢/٥). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. ورواه الطبرانى فى الكبير (٦٣/٣) من رواية زيد بن الحسن، وأخرجه أحمد فى مسنده (١٤/٣، ١٧، ٢٦)، ورواه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٧٠/١) وقال رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات.

(٣) فى نسخة أخرى [أن يوشك].

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٤)

فذريتهم منهم فهم صفوة وليسوا بأهل عصمة. إنما العصمة للنبيين عليهم السلام والمحنة لمن دونهم وإنما يمتحن من كانت الأمور محجوبة عنه فأما من صارت الأمور له معاينة ومشاهدة فقد ارتفع عن المحنة، وقوله صلى الله عليه وسلم: «لن يتفرقا حتى يردا على الحوض» وقوله صلى الله عليه وسلم: «ما أن أخذتم به (٥) لم تضلوا». واقع على الأئمة منهم السادة لا على غيرهم وليس بالمسيء المخلط قدوة وكائن فيهم المخلطون والمسيئون لأنهم لم يعروا من شهوات الآدميين ولا عصموا عصمة النبيين، وكذلك كتاب الله تعالى من قبل ما منه ناسخ ومنسوخ فكما ارتفع الحكم بالمنسوخ منه، كذلك ارتفعت القدوة بالمذولين منهم، وإنما يلزمنا الاقتداء بالفقهاء العلماء منهم بالفقة والعلم الذى ضمن الله تعالى بين أحشائهم لا بالأصل والعنصر. فإذا كان هذا العلم والفقه موجوداً فى غير عنصرهم لزمنا الاقتداء بهم كالاقتداء بهؤلاء، وقد قال تعالى فى تنزيله الكريم:

﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (٦)

فإنما يلى الأمر منا من فهم عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ما بهم الحاجة إليه من العلم فى أمر شريعته. وروى عن جابر وابن عباس وعدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير هذه الآية الكريمة:

﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (٦)

---

(٤) الأحزاب [٣٣/٣٣]. راجع ما قاله الزمخشرى فى كشافه (٣/٤٣٥).
(٥) فى نسخة أخرى [لن تضلوا] وهذا تحريف.
(٦) النساء (٤/٥٩).

قال: هم العلماء والفقهاء وإنما أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نرى إليهم لأن العنصر إذا طلب كان معيناً لهم على فهم ما يحتاج إليه وطيب العنصر يؤدى إلى محاسن الأخلاق ومحاسن الأخلاق تؤدى إلى صفاء القلب ونزاهته وإذا نزه القلب وصفا كان النور أعظم وأشرق الصدر بنوره. فكان ذلك عوناً له على درك ما به الحاجة إليه من شريعة.

[الأصل الحادى والخمسون فى بيان عدد الأبدال وصفاتهم]

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأبدال ثلاثون رجلاً قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام إذا مات الرجل أبدل الله مكانه آخر» [1]. عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال: «البدلاء أربعون رجلاً اثنان وعشرون بالشام وثمانية عشر بالعراق، وكلما مات واحد، بدل آخر فإذا كان عند القيامة ماتوا كلهم» وليس فى الحديثين اختلاف وإنما هم أربعون رجلاً فثلاثون منهم قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام دل عليه ما روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: «إن الأنبياء عليهم السلام كانوا أوتاد الأرض فلما انقطعت النبوة أبدل الله تعالى مكانهم قوماً من أمة أحمد يقال لهم الأبدال لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا تسبيح ولا بحسن الخلق وبصدق الورع وحسن النية ولاسمة قلوبهم لجميع المسلمين والنصيحة لله تعالى ابتغاء مرضاته بصبر وحلم ولب وتواضع فى غير مذلة فهم خلفاء من الأنبياء قوم اصطفاهم الله تعالى لنفسه واستخلصهم بعلمه ولنفسه وهم أربعون صديقاً منهم ثلاثون رجلاً على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن بهم تدفع المكاره عن أهل الأرض والبلايا

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٢٢/٥)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب المناقب ـ باب ما جاء فى الابدال (٦٢/١٠) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وعزاه السيوطى فى الجامع الصغير إلى عبادة بن الصامت ورمز له بالصحة (٢٢/١)، وذكره الزبيدى فى الاتحاف بالسادة المتقين (٣٨٦/٨) وقال: رواده أحمد والحكيم الترمذى والخلال فى كرامات الأولياء واسناده حسن.

عن الناس وبهم يمطرون وبهم يرزقون لايموت الرجل منهم أبداً حتى يكون الله تعالى قد أنشأ من يخلفه ولا يلعنون شيئاً ولا يؤذون من تحتهم ولا يتطاولن عليهم ولا يحقرونهم ولا يحسدون من فوقهم ولا يحرصون على الدنيا ليسوا بمتماوتين (٢) ولا متكبرين، ولامنخشعين أطيب الناس خبراً، وأورعهم أنفسا. طبيعتهم السخاء، وصفتهم السلامة من دعوى الناس.

قبلهم لا تتفرق صفتهم ليسوا اليوم فى حال خشية، وغداً فى حال غفلة، ولكن مداومين علث حالهم، وهم فيما بينهم وبين ربهم لاتدركهم الريح العاصف، ولا الخيل المجراة، قلوبهم تصعد فى السماء ارتياحاً إلى الله تعالث واشتياقاً إليه قدما فى اشتياق الخيرات أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون (٣) قلت: يا أبا الدرداء ما شيء أثقل علىّ من هذه الصفة التى وصفتها فكيف لى بأن أدركها. قال: ليس بينك وبين أن أن تكون فى أوسط ذلك إلا أن تبغض الدنيا فإذا أبغضت الدنيا أقبل عليك حب الآخرة وبقدر ما تزهد فى الدنيا تحب افخرة وبقدر ما تحب لآخرة تبصر ما ينفعك، وما يضرك فإذا علم الله صدق الطلب منع بده أفرغ عليه السداد، وأكتنفه بعصمته، وتصديق ذلك فى كتاب الله العزيز:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (٤)

فنظرنا فى ذلك فما تلذذ المتلذذون بشيء أفضل من حب الله تعالى وطلب مرضاته.

عن الحسن رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بدلاء أمتى لا يدخلون الجنة بكثرة صوم ولا صلاة ولكن

(٢) متماوت: من الموت.
(٣) فى نسخة أخرى [هم الغالبون] وهو تحريف من النساخ.
(٤) النحل (١٦/١٢٨).

دخلوها برحمة الله وسلامة الصدور وسخاوة الأنفس والرحمة لجميع المسلمين » .

عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : «الأبدال بالشام وهم ثلاثون (٥) رجلاً على منهاج إبراهيم عليه السلام كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر عشرون منهم على اجتهاد عيسى بن مريم عليه السلام وعشرون منهم قد أوتوا مزامير آل داود والعصب رجال تشبه الأبدال .

وعن وهب بن منبه فى ما يجىء فى مناجاة موسى عليه السلام عن الله تعالى قال : «هم أربعون صديقاً كلهم بى ولى وإلى» .

وروى فى الخبر: أن «الأرض شكت إلى الله تعالى ذهاب الأنبياء عليهم السلام وانقطاع النبوة فقال لها سوف أجعل على ظهرك صديقين أربعين فسكنت» .

فالصديقون إنما بانوا من الخلق بصدق القلوب مع الله تعالى، لا بصدق الأعمال مع الملائكة والعمال ليس لقلوبهم طريق إلى الله تعالى إنما طريق قلوبهم إلى الثواب، والأنبياء والصديقون قد انكشف الغطاء عنهم وصار لهم إلى الله طريق ليعبدوه كأنهم يرونه كما قال صلى الله عليه وسلم : «اعبد الله كأنك تراه» وهو ما عود الله تعالى من هداية السبيل للذين جاهدوا فيه فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٦)

ويعقبه التوكل قال الله تعالى:

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ

(٥) فى نسخة أخرى [وهم أربعون] وهو تحريف.
(٦) العنكبوت (٦٩/٢٩).

مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ (٧)

وإنما سموا أبدالاً لوجهين: وجه أنه كلما مات رجلا بدل مكانه آخر لتمام الأربعين. ووجه آخر: أنهم بدلوا أخلاقهم السيئة وراضوا أنفسهم حتى صارت محاسن أخلاقهم حلية أعمالهم، وأما قوله تعالى فى مناجاة موسى عليه السلام كلهم بى أى بى يقومون ويقعدون وبى ينطقون وبى يأخذون ويعطون، وهو قوله عليه السلام فيما يحكى عن الله عز وجل:

«فإذا أحببت عبدى كنت سمعه وبسره ولسانه ويده ورجله وفؤاده فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يأخذ وبى يبطش وبى يعقل» وقوله ولى أى هم صفوتى قد بذلوا لى قلوبهم ونفوسهم فهم لى لا يشركنى فيهم نفوسهم وقوله إلى أى تأوى قلوبهم إلى فى كل أمر وسعى وحال أما الذين قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام فهم الذين لا تسكن قلوبهم إلى من دون الله تعالى فى شىء من أمر الدين والدنيا وأما العصب فهم المحقون فنهم مستعملون على طريق الجهد، ومنهم روحانيون قد أورثوا مزامير آل داود عليه السلام.

---

(٧) إبراهيم (١٤/١٢).

[الأصل الثانى والخمسون فى أنه يقبض العبد حيث اثره]

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا كان أجل العبد بأرض أتيت له الحاجة إليها حتى إذا بلغ أقصى أثره فتقول الأرض يوم القيامة رب هذا عبدك ما استودعتنى» (١).

قال أبو عبد الله إنما صار أجله هناك لأنه خلق من تلك البقعة، وقد قال عز وجل فى تنزيله الكريم:

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ (٢)

وإنما يعاد المرء من حيث بدئ.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ببعض نواحى المدينة فإذا بقبر يحفر فأقبل حتى وقف عليه فقال: لمن هذا؟ قيل لرجل من الحبشة. فقال: لا إله إلا الله سيق من أرضه وسمائه حتى دفن فى التربة التى منها خلق».

وروى إن الأرض عجت إلى ربها تعالى لما أخذت تربة آدم عليه السلام منها فقال لها: إنى سأرده إليك فإذا مات دفن فى البقعة التى

(١) اخرجه الترمذى فى سننه -كتاب القدر- باب ما جاء أن النفس تموت حيث ما كتب لها (٤/٤٥٢)، وأخرجه الحاكم فى المستدرك -كتاب الايمان- باب إذا كان أجل أحد بأرض أثبت الله له إليها حاجة (١/٤١)، وأخرجه ابن ماجه فى سننه -كتاب الزهد- باب ذكر الموت والاستعداد له (٢/١٤٢٤).

(٢) طه (٢٠/٥٥).

منها تربته. وإنما صارت وديعة عندها حتى تقول يومئذ رب هذا عبدك ما استودعتنى لأنها عبدت ربها فالعبودة وديعة فى الأرض حتى يبعث للثواب فيكون الحق عز وجل أحق به من الأرض لأنه كان وإلى الحق ونصره، فصار الحق أملك به فأعاده سويا وسلمه إلى الحق ليعذبه إلى دار السلام أوعبد جحد العبودة فهو مسجون فى بطن الأرض للحق عنده تبعة، وطلبة حتى يبعث للعقاب فيكون الحق أحق به من الأرض وهو خصمه وله فيما لديه طلبة وتبعة فإن الله تعالى لم يخلق جسده لعبا إنما خلقه للحق وبالحق، وفى الحديث «إن الملك الموكل بالأرحام يأخذ النطفة من الرحم فيضعها على كفه ثم يقول يارب مخلقة أوغير مخلقة فإن قال مخلقة قال يارب ما الرزق ما الأثر،ما الأجل؟ فيقال انظر فى أم الكتاب فينظر فى اللوح، فيجد فيه رزقه وأثره وأجله وعمله. ثم يأخذ التراب الذى يدفن فى بقعته فيعجن به نطفته» فذلك قوله الكريم:

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ (٣)

عن علقمة عن عبد الله رضى الله عنه قال: إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها الملك بكفيه فقال أى رب أمخلقة أم غير مخلقة فإن قال غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دما وإن قال مخلقة قال أى رب أذكر أم أنثى أشقى أم سعيد؟ ما الأجل، وما الأثر وما الرزق بأى أرض تموت، فيقال له اذهب إلى أم الكتاب فانك ستجد هذه النطفة فيقال للنطفة من ربك فتقول الله تعالى فيقال من رازقك؟ فتقول الله فتخلق فتعيش فى أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها ماتت فدفنت فى ذلك المكان.

فالأثر هو التراب الذى يؤخذ فيعجن به ماؤه. وذكر الزبير بن بكار(٤) الزبيرى المدنى رضى الله عنه كتابا صنفه بعض أهل المدينة فى فضل

(٣) طه (٢٠/٢٥).

(٤) الزبير بن بكار: هو الزبير بن بكار بن عبد الله القرشى نسابة قريش، من أصفاد الزبير=

المدينة وكتابا صنفه بعض أهل مكة فى فضل مكة فلم يزل كل واحد منها يذكر بقعته بفضيلة يريد كل واحد منها أن يبرز على صاحبه بفضيلة بقعته حتى برز المدنى على المكى فى خلة واحدة عجز عنها المكى. فقال: إن كل نفس إنما خلقت من تربتها التى دفنت فيها بعد الموت فكان نفس الرسول صلى الله عليه وسلم إنما خلقت من تربة مدفنه فبان أن تلك التربة لها فضيلة بارزة على سائر الأرضين. عن ابن سيرين رضى الله عنه يقول رحمه الله: لو حلفت صادقا بارا غير شاك ولا مستثن أن الله عز وجل ما خلق نبيه صلى الله عليه وسلم ولا أبا بكر ولا عمر رضى الله عنهما إلا من طينة واحدة ثم ردهم إلى تلك الطينة.

=بن العوام، ولد بالمدينة سنة ١٧٢ هـ وولى قضاء مكة، ثم توفى فيها سنة ٢٥٦ هـ. راجع وفيات الأعيان لابن خلكان (١/١٨٩) وتاريخ بغداد (٨/٤٦٧).

[الأصل الثالث والخمسون في أن الكبائر لاتجامع طمأنينة القلب بالله تعالى]

عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن»(١). وعن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة رضى الله عنهم مثله.

وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما مثله وعن مدرك بن عمارة عن ابن أبي أوفى مثله.

قال أبو عبد الله الإيمان هو الطمأنينة واستقرار القلب وإنما هما اثنتان: الأول طمأنينة التوحيد. وهو أن يوحد الله تعالى، فلا يلتفت إلى شيء سواه فيتخذه ربا. والآخر: طمأنينة الإقبال، وهي أن يكون مقبلا عليه بجميع قلبه فلا يلتفت إلى شيء من شهوات نفسه ولا إلى أحوالها فالذى يسرق ويزنى هو فى حالته تلك غير مطمئن إلى ربه سبحانه وتعالى طمأنينة الإقبال، ولو كان كذلك لم يزن ولم يسرق، بل هو مقبل على شهوات نفسه وهو فى طمأنينة التوحيد والايمان اسم يلزم

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب المظالم ـ باب النهى بغير إذن صاحبه (١١٩/٥). وأخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب نقصان الايمان بالمعاصى (٤١/٢)، والترمذى فى سننه ـ كتاب الإيمان ـ باب ما جاء لا يزنى الزانى وهو مؤمن (١٥/٥) وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. والنسائى فى سننه كتاب قطع السرقة باب تعظيم السرقة (٦٥/٨) وأحمد فى مسنده (٢٤٣/٢، ٣١٧).

ـه بفعله وبدؤه من النور الذى جعل الله فى قلبه فأحياه به وشرح صدره ونطق بتوحيده لسانه.

«ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور».

وكل شىء له مبتدأ ونهاية فأوله لازم ذلك الاسم له ومنتهاه هو البالغ فالذى وحد ربه بقلبه ولسانه وقبل الشريعة هو مؤمن قد حرم ماله ودمه وعرضه ثم هو أسير نفسه، والمؤمن البالغ الذى ماتت شهوة نفسه، وقطع قلبه عن كل شىء سواه وهذه قلوب الأنبياء والأولياء عليهم السلام. وللمؤمنين بين هذين الحدين درجات كل يعمل على درجته فكلهم عبيد قد أقروا له بالعبودة الكاملة ولا يقر له بالعبودة الكاملة إلا الأنبياء والأولياء وذلك أنهم تركوا مشيئتهم فى جميع أمورهم لمشيئته وهكذا صفة العبيد رفض المشيئة فى جميع الأشياء وترك الاختيار للأحوال ولا يقدر على هذا إلا من نور الله الإيمان فى قلبه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفة حارثة رضى الله عنه حيث قال له «كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا، قال: وما حقيقة إيمانك؟ قال: كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا وإلى أهل الجنة كيف يتزاورون وإلى أهل النار كيف يتعاوون. قال: عرفت فالزم» ثم قال: «من سره أن ينظر إلى عبد نور الله الإيمان فى قلبه فلينظر إلى هذا».

فإذا امتلأ الصدر والقلب من النور كان كما وصفه الله تعالى:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (٢)

وكان المؤمن عندهم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان بهذه الصفة. ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه «وددت أنى شعرة فى صدر مؤمن» لما عرفوا غور هذه الكلمة وأثنى الله تعالى على إبراهيم

(٢) الزمر (٢٢/٣٩).

خليله عليه السلام بعدما شهد له بالتسليم حين أراد ذبح ابنه وهو الإسلام وشهد له بالإحسان فأثنى عليه فقال:

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

وقيل: إن الله تعالى إذا أثنى على عبداً فأبلغ فى الثناء قال:

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

والله تعالى وصف المؤمنين فى تنزيله الكريم فقال:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (٤)

إلى قوله

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (٤)

فمن ههنا استجاز من قال الإيمان يزيد، وكما يزيد فإنه ينقص سمى الزائد من النور فى صدره إيمانا وما نقص فمنه ينقص. والأصل الذى منه بدأ التوحيد قائم فبأقل النور يصير موحدا فاطمأن به وعبده ربا وهو إيمانه حتى إذا نما النور، وامتلأ القلب، وأشرق الصدر منه، اطمأن إلى جميع مشيئاته، وأحكامه وأموره كما اطمأن به، ومن قبل هذا لم يقدر أن يطمئن إلى مشيئاته وأحكامه للشهوات المستولية على قلبه، فلما امتلأ القلب من نوره خشية ومهابة ودخلت عظمته فى قلبه ماتت شهواته وسكن قلبه إلى تدبيره، وأحكامه وأقضيته كما سكن على توحيده فى بدو الأمر. وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة وكانوا إذا قالوا مؤمن إنما يسمون ما يعرفون من أنفسهم، وكان بعضهم

(٣) الصافات (٣٧/٨١). راجع حاشية زاده على البيضاوى (٣/١٥٧).
(٤) الأنفال (٨/٢).

فى تخليط من هذا. ألا ترى أنه لما هاجت الفتن وقع التخليط. قال حذيفة رضى الله عنه «لو رميت بصخرة من أعلى المسجد ما أصابت مؤمنا» ولم يكونوا عندهم كفارا بما أحدثوا ولكن زلوا عن تلك الدرجة التى كانوا يسمون أهلها بذلك الاسم. ومما يحقق ذلك ما روى عن كعب بن مالك رضى الله عنه كان يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله يوم القيامة إلى جسده ثم يبعثه»(٥) قال أبو عبد الله فليس هذا لأهل التخليط فيما نعلمه إنما هو للصديقين، وكان اسم المؤمن عندهم هكذا، فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» إنما يعنى بذلك الإيمان البالغ لا أنه يذهب توحيده ويكفر وإنما يتأول مثل هذا جهال الناس وحمقاهم ولو كفروا بذلك وزال عنهم الإيمان لكان حدهم القتل وحدودهم قائمة جلد مائة فى الزنى وقطع اليد فى السرقة، ولكن تأويل ذلك الحديث أنه إذا زنى المؤمن فهو فى ذلك فقد نور إيمانه وحجبته شهوته التى حلت به عن ذلك النور فسلب ذلك النور وصار محجوبا عن الله تعالى فلما تاب راجعه النور وذلك النور يسمى إيمانا لأنه اطمأن بذلك إلى ربه عز اسمه فذهبت طمأنينته فى وقت استعمال الشهوة. فأطمأن إلى شهوته، والعبد عندما أدركته الهداية من ربه عز وجل قد كان من قبل ذلك قلبه فى تردد وجولان طالبا لمن يتخذه ربا ويعبده فلما جاءته الهداية واستنار القلب سكن القلب واطمأنت النفس عن الجولان والتردد فى طلب المعبود فقيل آمن يؤمن إيمانا وهو فى قالب أفعل ومن الخوف قيل أمن لأنه كان يضطرب فلما ذهب الخوف سكن، فقيل أمن على قالب فعل فكلما ازداد العبد نور ازداد سكونا وطمأنينة عند أموره وأحكامه ومن قبل ذلك كان الغالب على نفسه شهوات نفسه. فكان القوم إذا ذكروا المؤمن يعلمون أنه ذلك

(٥) راجع التذكرة للقرطبى.

المؤمن الذى قد اطمأن قلبه عند أموره وأحكامه إليه ومن ههنا قال أبو الدرداء رضى الله عنه مثل الإيمان مثل قميصك بينا أنت لبسته إذ انت نزعته .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه ، أنه قال كان عبد الله بن رواحة إذا لقينى قال إجلس يا عويمر هذا مجلس الإيمان إن مثل الإيمان ومثلك مثل قميصك بينا أنت لبسته إذ نزعته . يا عويمر القلب أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غليا .

وعن عتبة بن عبد الله بن خالد بن معدان عن أبيه عن جده رضوان الله عليهم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الإيمان بمنزلة القميص مرة تقمصه ومرة تنزعه » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لم يزن عبد قط إلا نزع نور الإيمان منه ثم إن شاء رده وإن شاء منعه » .

وعن أبى أيوب الانصارى ، رضى الله عنه قال : « ليأتين على االرجل أحايين وما فى جلده موضع إبرة من النفاق وليأتين عليه أحايين وما فى قلبه (٦) موضع إبرة من الإيمان » ، قال : فإنما يخلو منه ذلك النور المشرق فى صدره ، وأما الإيمان إيمان التوحيد فهو بمكانه وقول ابن عباس رضى الله عنهما حيث قال لم يزن عبد قط إلا نزع منه نور الإيمان . يدل على تفسير حديثه الذى رواه لا يزنى العبد حين يزنى وهو مؤمن ، وفى قوله حين يزنى وهو وقت الفعل دليل على أنه فى ذلك الوقت صار محجوبا عن النور وزائله . عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » قيل يا رسول الله فكيف يصنع إذا وقع شىء من ذلك ؟ قال : « إن راجع راجعه الإيمان وإن ثبت لم يكن مؤمنا » .

---

(٦) فى نسخة أخرى [فى جلده] .

وعن عطاء عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يقتل وهو مؤمن ، فإذا فعل نزع منه نور الإيمان كما ينزع منه قيصه فإن تاب تاب الله عليه » .

قال أبو عبد الله وإنما خفى شأن هذا وذهاب هذا النور من القلوب ورده عليه لأن فتن القلوب قد عمت والصدور قد شحنت بظلمة الإصرار على الذنوب ، من المآكل الردية ، والمكاسب الدنسة ، والأخلاق البذلة الفاسدة . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «المؤمن فى الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا (٧) ، والذى يأمنه الناس على أنفسهم وأموالهم ، والذى إذا أشرف على طمع تركه لله تعالى » . قال فالجزء الأول هم الظالمون لأنفسهم آمنوا ثم لم يرتابوا فى إيمانهم ، ولكنهم ضيعوا العبودة واستوفوا الرزق ، وكالوا النعم بالكيل الأوفى وكالوا الطاعات بكيل الخسران فهو من المطففين الظالمين . والجزء الثانى قد أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم لأنه عتق مستقيم ، وهو المقتصد . والجزء الثالث تركوا الهوى وشهوة النفس ، ورضوا بتدبيره فى جميع الأحوال فهم المقربون ، وذلك مثل ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه أتى بشراب قد خيض بعسل فتركه ثم قال أما إنى لا أحرمه ولكنى أتركه تواضعا لله تعالى .

عن كثير بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها «أطعمينا يا عائشة قالت : ليس عندنا طعام . قال اطعمينا يا عائشة . قالت : والله ما عندنا طعام » (٨) فقال أبوبكر رضى الله عنه : يا رسول الله إن المرأة المؤمنة لا تحلف إنه ليس عندنا طعام وهو عندها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما يدريك أنها مؤمنة إن المرأة المؤمنة فى النساء كالغراب الأعصم فى الغربان وإن النار خلقت للسفهاء وأن النساء من السفهاء إلا صاحبة القسط

---

(٧) الحجرات (٤٩/١٥) .

(٨) فى نسخة أخرى [طعم] وهو تحريف.

والسراج » قال أبو عبد الله يعرفك هذا الحديث أن المؤمن فى ذلك الوقت بأية صفة كان عندهم ، فأما قوله : صاحبة القسط والسراج فالقسط العدل وهو الذى على سبيل استقامة ، وهو المقتصد ، والقسط ، والقصد بمعنى واحد إلا أن هذا مستعمل فى نوع وذاك فى نوع كما قيل توكيل وتفويض وكلاهما بمعنى واحد إلا أن التوكيل فى أسباب الرزق يستعمل . والتفويض فى سائر الأمور . فالقسط العدل من أموره والقصد أن تأخذ من كل أمر وسطه وهو الذى أمر به ، واما السراج فهو اليقين ومن أشرق فى قلبه اليقين فقلبه يزهر . ومنه قول حذيفة رضى الله عنه «قلب أغلف وهو قلب الكافر، وقلب مصفح (٩) وهو قلب المنافق، وقلب أجرد وأزهر وهو قلب المؤمن ، وإنما يزهر بالسراج الذى فيه » .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما شبهت خروج المؤمن من الدنيا إلى الآخرة إلا مثل خروج الصبى من بطن أمه من ذلك الغم والظلمة إلى روح الدنيا » فالمؤمن الذى هو بالغ فى إيمانه الدنيا سجنه وهى مظلمة عليه ضيقة حتى يخرج منها إلى روح الآخرة وهذا غير موجود فى العامة وإنما ذكر المؤمن ، ووصفه بذلك ليعلم أن المؤمن عندهم البالغ فى إيمانه ، وهو كما قال أبو الدرداء رضى الله عنه «ما كفرتم فنتبرأ منكم ولا عندكم إيمان بالغ فنحبكم عليه وما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ولا أرى الله إلا قد تخلى عنكم » .

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : مالكم لا تحابون وإنكم اخوان على الدين ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ولو اجتمعتم على أمر تحاببتم ما هذا إلا من قلة الإيمان فى صدوركم ولو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها لكنتم للآخرة اطلب لأنها أملك بأموركم فبئس القوم أنتم إلا قليلا منكم ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الايمان البالغ فيكم فما كفرتم فنتبرأ منكم وعامتكم تركوا كثيرا من أمر دينهم ثم لا يستبين ذلك فى وجوهكم ولا تغير(١٠) حالتكم ما هذا إلا شر

(٩) قلب مصفح : محال .

(١٠) فى نسخة أخرى [ولا تعتبر] وهو تصحيف .

حل بكم وإنى لأرى الله قد تخلى منكم فأنتم تخطؤن وتمنون الأمانى ، والله إنى لأستعين على نفسى وعليكم . فإنما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يزنى الزانى وهو مؤمن» أى بذلك الإيمان البالغ . فأما إيمان التوحيد فهو معه وإنما زال عنه نور الإيمان ألا يرى إلى قول أبى الدرداء رضى الله عنه وإن سرق فلو كان زناه، وسرقته يخرجه من إيمانه لم يدخل الجنة . عن أبى الدرداء رضى الله عنه إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ولمن خاف مقام ربه جنتان . قلت يا رسول الله وإن زنى وإن سرق فقال : ولمن خاف مقام ربه جنتان . قلت وإن زنى وإن سرق . فقال . ولمن خاف مقام ربه جنتان . قلت : يا رسول الله وإن زنى وإن سرق قال : وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبى الدرداء» .

ومما يحقق ما قلنا ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» بروايات جمة وطرق شتى قال أبو عبد الله فالمؤمن المخلط قد يلدغ مرات وهو لسكره لا يجد لدغة اللدغة وقد عمل فيه حمة السم فلو قد أفاق لا حتاج إلى من يمسكه من الاضطراب والتلوى ، وإنما عنى بالمؤمن ذلك البالغ الذى قد وقف به حذره على أمر عظيم كما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، سئل ابن عباس عن أبى بكر رضى الله عنه ، قال : كان كالخير كله من رجل كان فيه حدة . وسئل عن عمر رضى الله عنه فقال : كان كالطير الحذر الذى يرى أن له فى كل طريق شركا يأخذه .

فالمؤمن البالغ إذا وقع فى الخطيئة وجع قلبه وتمرر عيشه ، وفلقت نفسه ، فهو يتلوى كاللديغ يتململ ندما ، وتحسرا ، وأسفا ، يبيت ساهرا ، ويظل نائحا قد أنكت فيه هذه الخطيئة سمها فكأنه أيقظته من الغفلة فلا يواقع تلك الخطيئة ، ولا يعود إلى أسبابها حذرا . فقوله «لا يلدغ من جحر مرتين» تمثيل أى لا يعود إلى أسباب تلك الخطيئة مخافة أن يقع فيها ، وهذا لمن لدغته الخطيئة وعمل فيه سمها كما فعل يوسف عليه السلام بعد الهم (١١) كان لا يكلم امرأة حتى يرسل على وجهه ثوبا .

(١١) لكن الهم منفى من جانب يوسف عند بعض المفسرين وهو الرأى الذى نأخذ به لأنه مدعوم بنصوص القرآن الكريم الواضحة الصريحة التى لا تقبل الجدل أو الامتراء.

عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : كان يوسف عليه السلام إذا جاءته أمرأة تستفتيه ألقى على وجهه ثوبا مخافة أن تفتتن .

عن الشعبى عن فاطمة بنت قيس رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها حين جاءته بعد ما طلقها زوجها فقال بيده على وجهه فاستتر به ، وذلك بعد ما لقى من شأن زينب ما لقى فأما مؤمن عمل بالخطيئة فلم تلدغه ولم يتبين فيه عمل سمها لأنه سكران قد أسكرته شهوات الدنيا ، ومات قلبه عن الشعور بذلك ، فتى يحذر حتى لا يلدغ وسم الخطيئة هو الظلمة التى تتراكم فى صدره على قلبه فتحجبه عن ربه فيصير قلبه مسجونا محجوبا عن الملكوت . وهو قول عبد الله بن عمر رضى الله عنه «لنفس المؤمن أشد ارتكاضا فى الخطيئة من العصفور حين يغدف به» والإغداف الإرسال يعنى إرسال الشبكة عليه ، وقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : «ان المؤمن إذا أذنب فكأنه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه فتقتله والمنافق ذنبه كذباب مر على أنفه» . وقوله : «لا تجد المؤمن بخيلا ولا تجد المؤمن جبانا ولا تجد المؤمن كذابا» .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خصلتان لا تجتمعان فى قلب مؤمن البخل وسوء الخلق» فهذه الخصال كلها موجودة فى الموحدين فإذا ذكروا المؤمن فإنما يعنون به الذين ذكرهم الله تعالى بأنهم مؤمنون حقا وصير لهم الدرجات فى الجنة بما ترقوا من درجات الأيمان . عن بكر بن عبد الله المزنى رضى الله عنه : أن الحواريين طلبوا عيسى عليه السلام فقيل لهم توجه إلى البحر فجاؤه وهو يمشى على الماء يرفعه الموج ويضعه فقال أفضلهم : ألا أجيئك يا رسول الله فادخل رجله الماء ورفع الأخرى فقال أدركنى فقد غرقت . فقال : يا قصير الإيمان أو قال هات يدك يا قصير الإيمان لوأن لابن آدم مثقال حبة من خدل من اليفين مشى على الماء .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لو وزن إيمان أبى بكر رضى الله عنه بإيمان أهل الأرض لرجح إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا أنه قال : تزعمون أنكم مؤمنون وفيكم مؤمن جائع . عن أبى إسحاق السبيعى رضى الله عنه قال سمعت وهب بن منبه رضى الله عنه يقول : اسمع يا أخى إلى ما أصف لك من صفة المؤمن وجدت فى التوراة المؤمن الذى إلى الإسلام هدى ، وبالإقرار بدى ، ظاهر الإيمان بدنه على الإيمان بنى ، وذلك أنه عالم بالعلم ، ناطق بالحكم ، صادق بالفهم ، ورع عن الحرام ، بين الأعلام كثير السلام ، لين الجانب ، قريب المعروف ، سريع الرضا ، بعيد السخط ، يعلم إذا فهم ، وإذا علم علم ، ويكف إذا شتم ، إن صحبته تسلم ، وإن شاركته تغنم ، وإن فارقته تندم ، وإن سمعت منه تتعلم ، كثير الوقار(١٢) ، مكرم للجار ، مطيع للجبار ، قلبه بمعرفة الله زاهر ، ولسانه بذكر الله غازر ، وبدنه فى طاعة الله ساهر ، فهو من نفسه فى تعب ، والناس منه فى أرب ، فمثله كمثل الماء لأن الماء حياة الأشياء كلها ، فكمال المؤمن الرضى ، وعمله التقوى ، مبغض للدنيا ، قليل المنى ، صادق اللسان ، صابر البدن قانع القلب إن ائتمن أمانة أداها ، وإن أمن هو غيره لم يتهم ، أب لليتيم ، وللأرملة رحيم ، وإلى الجنة مشتاق ، وبالوالدين غير عاق ، له علم يرضى وعقل ينمى ، كلامه منفعة ، وجواره رفعة ، إن استكتمته كتم ، وإن استطعمته أطعم ، جواد لله بالعطاء ، وللناس بحسن الخلق والرضى ، أن استقرض أدى وإن سئل أعطى ، إن كان فوقك اتضع ، وإن كان دونك اعتدل ، فمثله كمثل شجرة ثبت أصلها وجاد فرعها وكثر ثمرها ، فهو من رآها راغب فيها ، لا يأخذ شيئا إن أخذ رياء ، ولا يتركه إن تركه حياء ، بل أخذه لله تعالى سالما ، وتركه لله تعالى غانما ، محاسب نفسه (١٣) ناظر فى عيوبه ، مستعرض لعمله ، إن كان محسنا يخاف على نفسه أن لا يقبل منه ، وإن كان مقصرا يخشى أن لا يغفر له ، وإن كان فاضلا كان شاكرا ، لا يظلم ولا يأثم ولا يتكلف لين تدبيره (١٤) ، كثير عمله ، قليل زلله ، سهل أمره .

---

(١٢) فى نسخة أخرى [الوفاء] وهو تحريف.

(١٣) فى نسخة أخرى [فيحاسب نفسه] وهو تحريف.

(١٤) فى نسخة أخرى [بين تدبيره] وهو تحريف.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الورع سيد العمل من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله تعالى إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله شيئا» فذلك مخافة الله تعالى، فى السر والعلانية والاقتصاد فى الفقر والغنى، والصدق عند الرضاء، والسخط. ألا وإن المؤمن حاكم على نفسه يرضى للناس ما يرضى لنفسه، والمؤمن حسن الخلق، وأحب الخلق إلى الله تعالى أحسنهم خلقا ينال بحسن الخلق درجة الصائم القائم وهو راقد على فراشه لأنه قد رفع لقلبه علم فن شهد شاهد القيمة يعد نفسه ضيفا فى بيته وروحه، عارية فى بدنه ليس بالمؤمن جفاء، حملانه على نفسه إناس منه فى عفاء، وهو من نفسه فى عناء، رحيم فى طاعة الله بخيل على دينه، حى مطواع. وأول ما فات ابن ادم من دينه الحياء، خاشع القلب لله تعالى، متواضع قد برىء من الكبر، ينظر إلى الليل والنهار، يعلم أنهما فى هدم عمره لا يركن إلى الدنيا ركون الجاهل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا جرم أنه إذا خلف الدنيا خلف ظهره خلف الهموم والأحزان ولا حزن على المؤمن بعد الموت بل فرحه وسروره دائم بعد الموت».

فن هذه صفته فلدغ من جحر المعاصى مرة كان ذلك الجحر نصب عينيه أبدا فتى يمر بها حتى تلدغه ثانية فإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوحشته المعصية حتى أسهر ليله ما حل بقلبه من وجع الذنب كمن يفارق محبوبه من المخلوقين بموت أو غيبة يفجع لفراقه فألم المؤمن إذا أصاب الذنب أشد من مصيبته بفارق محبوبه من المخلوقين بموت أو غيبة يفجع لفراقه فألم المؤمن إذا أصاب الذنب أشد من مصيبته بفراق المخلوقين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» أى هذا الأمر قد لدغته مرة فأوجعته فوجع ذلك تذكرة له من الغفلة فى ذلك حتى لا يقع فيه ثانية أى أن هذا صفة المؤمن، وشرطه حتى يستحق شرط الإيمان.

عن يحيى بن أبى كثير رضى الله عنه أن نبى الله كان فى سفر ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه لحما.

فقال : أوليس قد ظللتم من اللحم شباعا قالوا : من أين فوالله ما لنا باللحم عهد منذ أيام . فقال : من لحم صاحبكم الذى ذكرتم قالوا : يا نبى الله إنما قلنا والله إنه لعفيف ما يعيننا على شيء قال : وذاك فلا تقولوا . فرجع إليهم الرجل فأخبرهم بالذى قال . فجاء أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا نبى الله طأ على صماخى[١٥] واستغفر لى ، ففعل وجاء عمر رضى الله عنه فقال يا نبى الله طأ على صماخى واستغفر لى ففعل . فهذا تكون اللدغة الجأته الخطيئة إلى أن فزع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وألقى نفسه فى التراب تذللا وأن يطأ بقدمه على صماخه فهذا شأن المؤمن البالغ ، وأما الذى يلزمه اسم المؤمن فيحرم ما له ودمه وعرضه فهم الموحدون . عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» .

---

(١٥) هو صماخ الأذن.

[الأصل الرابع والخمسون فى أول تحفة المؤمن بعد الموت]

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أول تحفة المؤمن أن يغفر لمن صلى عليه» (١). المؤمن كريم على ربه عز وجل ومقدمه على رب كريم ومن شأن الملوك أن أحدهم إذا قدم عليه بعض خدمه من سفرة طال غيبته فيها أن يتلقاه ببشرى وكرامة ويخلع عليه ويجيزه بالجائزة السنية ويأمر بأن يهيىء له نزل. والله تعالى أرانا تدبير الملوك فى الدنيا فإذا قدم عليه المؤمن لقاه روحا وريحانا وبشرى على ألسنة الرسل عليهم السلام. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٢).

وقال:

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ (٣).

وقال:

﴿ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (٤).

---

(١) الحديث ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (١١٢/١) وأشار إليه الهندى فى كنز العمال (٥٩٥/١٥) وأخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخه (٢٧٤/٥).

(٢) فصلت (٣٠/٤١). راجع لسان العرب (٢٠١/١٨) والقرطبى (٣٥٨/١٥).

(٣) الروم (٤٤/٣٠). يمهدون: يوطئون، ويعملون، والمهاد: الفراش. راجع القرطبى (٤٢/١٤).

(٤) آل عمران (١٩٨/٣).

وأول تحفته أن يغفر لحملته إلى بابه والمصلين عليه فإن الرجل من عرض الناس ليحمل إليه الهدية فيستحيى أن ينصرف عنه الحامل للهدية خائبا صفر اليد حتى يناوله شيئا فكيف الملك من ملوك الدنيا والله تعالى أخرج المؤمن إلى الدنيا ليستكمل ويستعد للقائه ويتزود للآخرة فمازال يسعى فى إرضاء الحق سبحانه وتعالى فلما مات غسلوه وطيبوه وكسوه وحملوه هدية إلى الحق عز وجل فقبله الحق تعالى وأداه إلى الرحمة فلم يستجز أن ينصرف حملة هذه الهدية خائبين فغفر لهم.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «أول ما يجازى به العبد أن يغفر لمن يصلى عليه»، قوله يجازى من الجائزة. والتحفة عندنا هى الطرفة والهدية هى العطية ومعناهما قريب إلا أن بينهما نكتة فى الفرق، فالهدية ما تعطيه لتستميل به والهدى الميل، ومنه قيل مشى يتهادى أى يتمايل ومنه سمى الهدى، لأنه يميل به إليه والطرفة شىء يعطيه بعد الاستمالة وبعد أن صار له وليا وثقة فهو يطرفه بشىء يريد أن يحليه بذلك كالسكر على رأس الأرز ونحوه والله تعالى يوالى بين نعمه على العبد ثم يريد أن يبره ويطرفه بشىء ليس عنده فى الجنة ليتجدد به بره فذلك البر يكون أعظم موقعا. ومن طرفه ما جاء فى الخبر: «إذ أراد الله تعالى أن يتحف عبده المؤمن سلط عليه من يظلمه» لأن بلوى الدنيا كثيرة من الأمراض والمصائب، وللنفس فيها فجعة ثم يرجع إلى ربه تعالى فى أن هذا صنعه وتدبيره وإذا ظلم اشتدت فجعته، وتضاعفت لوعته فتلك المصائب والأمراض هدايا من رب العالمين، والظلم تحفة قد طرفه الله بها والطرفة هى شىء يكون فى الأحايين مرة لم يكن عنده مثله، وقد سلط على يحيى بن زكريا صلوات الله عليهما من ذبحه ذبحا وهذا شىء نادر طريف ليس مما يجرى فى بلوى أهل الدنيا ومصايبهم، وكذلك يجعل له الجنة ثوابا ثم يوجب له رضوانه الأكبر ومن جعلت له الجنة هدية فتحفه من ألطافه الجسيمة.

[الأصل الخامس والخمسون في بيان ما يهرم ويشب من الآدمي]

عن أنس رعضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يهرم ابن آدم ويشب منه اثنان الحرص على المال والحرص على العمر» (١)، الحرص لهيان الشهوة والشهوة نار ذات دخان فكلما زدت النار وقودا ازدادت نورا وتلهبا. وسمى المال مالا لأنه يميل بالقلب عن الله تعالى، والعمر مدة عمارة البدن بالحياة. وذكر المال لأن به ينال جميع الشهوات وذكر العمر لأن بدوامه تدوم الشهوات، فإذا ذهب العمر، وزال المال تعطلت الشهوات فوجدت النفس لذة الشهوات، ولذة دوام العمر، فتشبثت به واستأثرت القلب والهرم الخالى من الأشياء قد خلت طبائعه من الحرارة والقوى وقحل (٢) جلده من الحرارة لانتشاف الحياة ماء جلدته ودق عظمه وانتشف النقص ماء شبابه ولا يطفىء لهيب الحرص إلا الإيمان بالله فكلما ازداد العبد إيمانا بربه، وهو النور الذى ينشرح به صدره فهو على نور من ربه، ازداد ثقة بربه وطمأنينة إليه وكلما ازداد ثقة ازداد غنى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس».

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه- كتاب الرقاق- باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر (٢٣٩/١١)، وأخرجه مسلم فى صحيحه- كتاب الزكاة- باب كراهة الحرص على الدنيا (١٣٨/٧)، وأخرجه الترمذى فى سننه- كتاب الزهد- باب ما جاء فى قلب الشيخ (٥٧٠/٤) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه فى سننه- كتاب الزهد- باب الأمل والأجل (١٥١٥/٢).

(٢) قحل جلده: يبس فهو قاحل.

فإذا استغنت النفس بالله تعالى فادخل الصدر من نور اليقين المنشرح به صدره صار عرض الدنيا فضلا .

وعن مكحول رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نفس ابن آدم شابة ولو التقت ترقوتاه من الكبر إلا من امتحن الله تعالى قلبه للتقوى وقليل ما هم» .

فهذا الخبر يكشف عما ذكرنا من المعنى لأن النفس معدن الشهوات ، فهى شابة لأن الشهوات بمنزلة النار لا تزال متوقدة ما دامت واحدة للحطب فإذا أمسك عنها الحطب خمدت خامدة لا محالة . فكذلك النفس لا تزال رطبة متوقدة بشهواتها ما دامت واجدة للنعم . فإذا أمسك عنها ذبلت ويبست فإذا امتحن الله تعالى قلبا للتقوى قوى صاحبه على الامتناع من قضاء الشهوات والامتحان هو أن يستخرج سره والسر هو النور الذى قذفه فى قلبه فإذا استقر ذلك فى قلبه وأشرق به صدره صار ذلك وقاية له من جميع مكاره الآخرة . فقيل تقوى وإنما هو وقوى حولت الواو تاء ومأخذه من الوقاية فإذا فعل ذلك فقد امتحنه لأنه يظهر على الأركان بالأفعال المحمودة المرضية فالنفوس شابة وإن هرمت الجوارح وانهدت الأركان لدوام التنعم بالمال والعمر إلا هذه الطبقة الممتحنة الذين استثناهم ، فنفوسهم هرمت فى وقت شبابهم لأن شهواتهم ذبلت وضعفت بالخشية التى دخلت قلوبهم لما اطلعوا عليه بقلوبهم من علم الملكوت ولعلمهم بالله تعالى صاروا سببا من سببه فالمشغوف سبى من به شغف ، فإن شغفت بالدنيا فأنت سببها ، وإن شغفت بالآخرة فأنت سببها ، وإن شغفت بالخالق فأنت سببه . وابن آدم ركب فى طبعه أن لا تزال نفسه تجمح فى طلب شىء حتى إذا اطلعت على أفضل منه رفضت هذه وأقبلت على الأفضل . فلا يزال طالبا للدنيا حتى إذا طالع الآخرة رفض هذه وأقبل عليها فلا يزال لها طالبا حتى إذا طالع الملكوت أقبل على مولاه ولها عن ذكر الدارين واشتغل بالماجد الكريم فتراه سلس القياد ، منكر القلب ، قد أخذت الأحزان بمجامع قلبه فقطعته عن فكر

الـدنيا وأهلها وما هم فيه فهو حبيس الله فى سجنه ، وهو قول رسول الله صلى الله عـليـه وسـلـم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(٣) والمسجون عينه إلى الباب يراغب دعوة متى يدعى فيجيب .

---

(٣) رواه أحمد فى مسنده، ومسلم والترمذى وابن ماجة عن أبى هريرة، كذا رواه الطبرانى والحاكم عن سلمان، والبزاز عن ابن عمر، وصححه السيوطى فى جامعه الصغير (١٧/٢).

[الأصل السادس والخمسون فى أن عدد الشرائع بتعدد الرسل]

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه حدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لله عز وجل ثلاثمائة وخمس عشرة شريعة، يقول الرحمن وعزتى لا يأتينى عبد من عبادى لا يشرك بى شيئا بواحدة منهن إلا أدخلته الجنة» (١). فالرسل ثلاثمائة وخمسة عشر ولكل رسول شريعة، قال تعالى فى تنزيله الكريم:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٢).

وقال:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ (٣).

وأن الله تعالى دعا العباد إلى دار السلام بعد إن دعاهم إلى الاقرار بالتوحيد فأجابوه. وإنما أجابه من هداه، ثم شرع لكل رسول طريقا إليها وهو الحلال والحرام، فالحلال مرضاته، والحرام مساخطه، وإذا استقام العبد فى سيره فى شريعته أدخله الجنة. فقوله لا يأتينى عبد لا يشرك بى شيئا بواحدة من هذه الشرايع أى شريعة زمانه، ورسوله فلو أتى رجل بشريعة هود فى زمن موسى عليهما

---

(١) أخرجه البزاز فى مسنده (٢٨/١) والهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب الإيمان ـ (٣٦/١) وعزاه السيوطى فى الجامع الكبير (٢٤٠١/٣) للحكيم الترمذى عن أبى سعيد.

(٢) المائدة (٤٨/٥). وقد ذكر الطبرى فى تفسيره (٣٨٤/١٠) أن الشرعة والشريعة واحد. والمنهاج هو الطريق الواضحة.

(٣) الجاثية (١٨/٤٥). الشريعة هنا: الملة والمذهب كما ذكر ابن منظور فى لسانه (٤١/١٠) راجع أيضاً القرطبى (١٦٣/١٦) وجامع البيان (٨٨/٢٥) بتصرف.

السلام لم ينتفع به ولو أتى بشريعة موسى فى زمن عيسى عليهما السلام لم ينتفع به ، ولو أتى بشريعة عيسى فى زمن محمد عليهما الصلاة والسلام لم يقبل منه ، ولم ينتفع به إنما يقبل من كل عبد شريعته التى شرعت له على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وأن الله تعالى شرع الطريق لعباده ليحلوا حلاله ويحرموا حرامه كى يصلحوا لدار السلام يوم مقدمهم عليه .

[الأصل السابع والخمسون فى حقيقة اليقين ومعنى العاقبة]

عن سلمان بن عامر(1) رضى الله عنه يقول سمعت أوسط البجلى على منبر حمص يقول سمعت أبا بكر الصديق على المنبر وهو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا المنبر عام أول والعهد قريب «سلوا الله اليقين والعافية فإن الناس لم يعطوا شيئا خيرا من اليقين والعافية»(2).

فاليقين هو استقرار النور فى القلب والصدر وذلك أن نور الإيمان فى القلب والشهوات بظلمتها وفوران دخانها متراكمة على القلب قد أظلمت الصدور وحالت بين عينى القلب وبين رؤية أمور الغيب فهو مقربا لغيب من الجنة والنار، والحساب وأهوال الموقف وتدبير الله تعالى فى دنياه. إلا أن نفسه تشبه عليه بخدعها وأمانيها لأنها لم تصر له كالمعاينة وليس الخبر كالمعاينة، فإذا امتلأ القلب من النور كان كمن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحارثة حين قال يا رسول الله: كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا الخبر، فاليقين استقرار القلب بذلك النور. يقال فى اللغة: يقن الماء فى الحفرة أى استقر، وأما العافية، والعفو فكل واحد منها مشتق من صاحبه فالعفو فى الآخرة والعافية فى الدنيا، وهو أن

---

(1) فى نسخة [سليم بن عاص].

(2) أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الدعوات- (557/5) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه عن أبى بكر رضى الله عنه، وأخرجه ابن ماجه فى سننه -كتاب الدعاء- باب الدعاء بالعفو والعافية (1265/2)، وأخرجه أحمد فى مسنده من حديث أبى بكر الصديق (3/1، 5)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد -كتاب الأدعية- باب الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التى دعا بها وعلمها (173/10) بمعناه وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه البخارى فى الأدب المفرد باب من سأل الله العافية ص252.

يعفى عنك من الخذلان ، فلا تخذل ، حتى لا تقع فى الذنب وأن يعفى عنك ، حتى لا تصيبك الشدائد والبلايا ، وأصله من العفو فقد عفى عنك أن يصيبك هذا وأن تصيبك شدائد الآخرة وكلاهما فى المعنى واحد إلا أن العفو يستعمل فى أمور الآخرة والعافية فى أمور الدنيا .

[الأصل الثامن والخمسون في تفسير قوله تعالى: (فروح وريحان) بالوجهين]

عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فروح وريحان»(١)، الراء مضمومة وقد قرئت الراء مفتوحة فمن قرأ فروح مضمومة الراء ذهب إلى أن الروح أمر جليل من أمره يحل بالقلب فيه تطمئن القلوب إلى الله تعالى وبه ينال الذكر الصافى وبه يصير محقاً وبه يقدس القلب، وبه يشتاق عند حضور أجله إلى اللقاء فيهون عليه الموت ويبشر وتطيب النفس للشخوص إلى الله وبه تأتلف قلوب المتحابين فى الله وبه عصمة قلوب الأنبياء عليهم السلام، ومن قرأها فروح مفتوحة الراء فإنه ذهب إلى أن يسلم عليه ملك الموت عليه السلام فى ذلك الوقت ويقرئه السلام من رب العزة فيجد لذلك راحة على القلب وهو قوله تعالى:

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ (٢)

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب القراءات ـ باب من سورة الواقعة (١٩٠/٥) وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب، ورواه الطبرانى فى المعجم الصغير (٢٢١/١)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب التفسير ـ باب القراءات (١٥٦/٧) وقال: رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ورجاله ثقات.

(٢) سورة الأحزاب: الآية رقم: ٤٤.

[الأصل التاسع والخمسون في معنى معاء الآدمي لم كانت سبعاً فصارات واحدة]

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»(١) وعن أبي موسى رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله.

قال أبو عبد الله: الإنسان مبنى على سبعة على الشرك، والشك، والغفلة، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب، فهذه أخلاقه وأى خلق من هذه الأخلاق استولى على قلبه نسب إليه دون الآخر، ومما يحقق ذلك قوله تعالى:

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (٢).

فأهل النار مجزؤن مقسمون على هذه الأبواب السبعة، فكل جزء منهم صار جزءا يخلق من هذه الأخلاق المستولية عليه ومما يحقق ذلك ما روى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه -كتاب الأطعمة- باب المؤمن يأكل فى معى واحد (٩/٥٣٦)، وأخرجه مسلم فى صحيحه -كتاب الأشربة- باب المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء (١٤/٢٤)، وأخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الأطعمة- باب ما جاء أن المؤمن يأكل فى معى واحد. والكافر يأكل فى سبعة أمعاء (٤/٢٦٦)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الأطعمة- باب المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء (٢/١٠٨٠٤)، والدارمى فى سننه -كتاب الأطعمة- باب المؤمن يأكل فى معى واحد (١/٩٩)، وأحمد فى مسنده (٢/١٢١،١٤٥).

(٢) الحجر (١٥/٤٤).

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «للنار باب لا يدخلها منه إلا من شفى غيظه بسخط الله تعالى».

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل سيفه على أمتى» فهذا للرغبة والأول للغضب، فابن آدم مبنى على هذه الأخلاق السبعة، فإذا ولج الإيمان القلب نفى هذه السبعة من القلب فبقدر قوة الإيمان تذوب هذه الأخلاق من النفس وعلى قدر ضعفه يبقى ضررهن، فإذا كل النور وامتلأ القلب منه لم يبق لهذه الأخلاق فيه موضع فنفى الشرك والشك والغفلة أصلاً وصار بدل الشرك إخلاصاً، وبدل الشك يقيناً، وبدل الغفلة انتباهاً، وكشف غطاء(٣) ومعاينة وصار الغضب له وفى ذاته، وصارت الرغبة إليه والرهبة منه، وصارت الشهوة منية وكانت نهمة، وبقدر ضعف الإيمان وسقمه يبقى من هذه الأخلاق فى المؤمن فبقى منه شرك الأسباب وشك الأرزاق، وغفلة التدبير فى كنه الأمور، والرغبة، والطمع فى الخلق، والرهبة منهم فى المضار والمنافع، واستعمال الشهوات على النهمة، فإيمانه يقتضيه ما عقد فى توحيده لربه أن هذه الأشياء كلها منه وله، وأخلاقه تمنعه الوفاء بذلك عند نوائبه؛ فلذلك يبقى فى عرصة القيامة محاسباً فى مدة طويلة، والأخر كل إيمانه فامتلأ قلبه من نور الإيمان فصار كما وصفنا بدءاً فسقط عنه الحساب غدا، فأبن آدم، يأكل فى معاء واحد أعنى الخلقة إلا أن هذه الأخلاق السبعة سوى الغضب، قد غملت على قلبه فصار كأنه يأكل فى سبعة أمعاء. فإذا آمن فامتلأ قلبه من نور الإيمان سكنت هذه الأخلاق. فشبع وروى لأنه قد ثقل قلبه بما ولج فيه من الإيمان فإذا آمن فإنما يأكل بمعاء الذى خلق فيه، وكلما كان أوفر حظاً من إيمانه كان أقل لطعمه بهذا المعاء

(٣) لعله يقصد بذلك المكاشفة.

الواحد ايضا. وإذا كان كافراً فهذه الأخلاق الستة تعمل على قلبه حتى يصير كأنه يأكل فى سبعة أمعاء؛ لأن الشرك، والشك، والغفلة، والشهوة، والرغبة، والرهبة هى أعوان لحرصه. فإذا أحرص لم يشبع واحتاج إلى الكثير والذى سكنت عنه هذه الستة الأخلاق بولوج الإيمان قلبه ذاب الحرص فى جوفه وثقل الإيمان فى قلبه، فأكل بمعاء الذى خلق للآدميين فاكتفى بذلك.

عن أبى صالح السمان قال: «قدم ثلاثون راكباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم من غفار فيهم رجل يقال له أبوبصيرة مثل البعير. فقال رسول الله صلـــى الله عليه وسلم لأصحابه: بددوا القوم فجعل الرجل يقيم الرجل، والرجل يقيم الرجلين، على قدر ما عنده من الطعام حتى تفرق القوم غير أبى بصيرة، قال: وكل القوم يرى أن ليس عنده ما يشبعه فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاك قام واستتبعه فتبعه فلما دخل دعا له بطعام فوضعه بين يديه فكانما لحسه ثم دعا بقدح فحلب فيه فشربه، حتى حلب له فى سبعة أقداح فشربها وبات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليه الإسلام، فتكلم منه بشىء، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صلاة الغداة، واستتبعه فصلى معه الغداة فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل على القوم بوجهه فقال: علموا أخاكم وبشروه فأقبل القوم بنصح يعلمونه وألقى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً حين أسلم ثم قام فاستتبعه فتبعه فلما دخل دعا له بطعام فوضعه بين يديه فلم يأكل إلا يسيراً حتى قال: شبعت ثم دعا له بقدح فحلب فيه فلم يشرب إلا يسيراً حتى قال: رويت، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكبه فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إنك كنت أمس كافراً وإنك اليوم مؤمن وإن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء وأن المؤمن يأكل فى معاء واحد».

[الأصل الستون فى أن للصائم دعوة مستجابة عند إفطاره]

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لكل عبد صائم دعوة مستجابة عند إفطاره أعطيها فى الدنيا أو ذخر له فى الآخرة» (١) فكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول عند إفطاره: «يا واسع المغفرة اغفر لى» (١) خص أمة محمد صلى الله عليه وسلم من بين الأمم فى شأن الدعاء فقيل ادعونى استجب لكم، وإنما كان يكون ذلك للأنبياء عليهم السلام فأعطيت هذه الأمة ما أعطيت الأنبياء عليهم اعليهم السلام، فلما دخل التخليط فى أمورهم من أجل الشهوات التى استولت على قلوبهم حجبت قلوبهم؛ فالصوم منع النفس عن الشهوات وإذا ترك شهوته من أجله صفا قلبه، وصارت دعوته بقلب فارغ قد زايلته (٢) ظلمة الشهوات وتولته الأنوار فاستجيب له فإن كان ما يسأل فى المقدور عجل له، وإن لم يكن كان مذخوراً (٣) له فى الآخرة، وبلغنا أن العبد إذا دخل الجنة أعطى من الجنة بقدر ما يستقر فى ملكه ويجاز له ثوابه فإذا زيد قيل له هذه دعواتك التى كنت لا ترى لها إجابة كانت لك ذخراً عظيما. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «للصائم عند فطره دعوة لا ترد».

(١) أخرجه أبو داود فى مسنده - كتاب الصيام - باب استحباب الفطر على التمر أو الماء والدعاء عند الفطر وفضل من فطر صائماً (١٨٤/١) وأشار إليه السيوطى فى الجامع الصغير (١٢٦/٢) وعزاه للحكيم الترمذى وذكره الهندى فى كنز العمال (٤٤٨/٨).

(٢) زايلته: فارقته.

(٣) مذخوراً له فى الأصول [مدخورا] وهو تصحيف.

[الأصل الحادى والستون فى سجود الشكر]

عن أبى بكر رضى الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه الأمر يسـر به خر لله ساجداً شكرا» [1]، فالسجود أقصى حالة العبد فى التواضع لله تعالى، به ترتبط النعمة ويجتلب المزيد، فالشكر رؤية العبد النعمة. ولا ينفك من رأى النعمة من الجبار إذا استحيى خجل وتذلل وتواضع، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأنه إذا فرح غض بصره، وغض البصر من الحياء. لأن الحياء فى العينين من أجل أن الحياء من شأن الروح وبصره متصل ببصر الروح. وأيضاً الفرح فى القلب مؤد إلى العين. فإذا انتهى الفرح إلى العين فلم يغضها انتشر الفرح وقوى فلم يكن صلى الله عليه وسلم يحب أن ينتشر فرحه فى دار الأحزان حتى يكون ذلك كله فى دار الله تعالى.

عن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنها قال: «جئت أزور عائشة رضى الله عنها فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ثم سـرى عنه، فقال: يا عائشة، ناولينى ردائى فناولته ثم أتى المسجد

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ـ باب ما جاء فى الصلاة والسجود عند الشكر (١/٤٤٦)، وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب السير ـ باب ما جاء فى سجدة الشكر (٤/١٤١)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث بكار بن عبد العزيز، وأخرجه أبوداود فى سننه ـ كتاب الجهاد ـ باب فى سجود الشكر (٣/٨٩)، وأخرجه الحاكم فى المستدرك ـ كتاب الصلاة ـ باب سجود الشكر (١/٢٧٦)، وأخرجه البيهقى فى السنن ـ كتاب الصلاة ـ باب سجدة الشكر (٢/٣٧٠).

فإذا مذكر يذكر فجلس حتى قضى المذكر تذكرته افتتح :

﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (٢).

فسجد فطالت سجدته ثم تسامع به اظنه قال: من كان على ميلين وملئ عليه المسجد. وأرسلت عائشة رضى الله عنها في حامتها أن احضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد رأيت منه أمراً ما رأيته منه، منذ كنت معه فرفع رأسه، فقال: سجدت هذه السجدة شكراً لربى تعالى فيما أبلانى فى أمتى، فقال له أحسبه أبوبكر رضى الله عنه وماذا أبلاك فى أمتك قال: أعطانى سبعين ألفاً من أمتى يدخلون الجنة فقال: يا رسول الله إن أمتك كثير طيب فازدد يا رسول الله، قال: قد فعلت فأعطانى مع كل واحد من السبعين الألف سبعين ألفاً، قال: يا رسول الله ازدد لأمتك قال بيديه ثم مال بهما إلى صدره أو الى بعض جسده، فقال عمر أو غيره أوعيت (٣) يا رسول الله أو كلمة نحوها».

عن عبد الله بن بكر أبى وهب (٤) السهمى حدثنا هشام بن حسان عن القاسم بن مهران عن موسى بن وردان عن عبد الرحمن بن أبى بكر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى أعطانى سبعين ألفاً من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب، فقال عمر: يا رسول الله فهلا استزدته قال: قد استزدته فأعطانى مع كل واحد من السبعين الألف، سبعين ألفاً، فقال رضى الله عنه يا رسول الله فهلا استزدته قال: استزدته فأعطانى هكذا، وفتح أبووهب يديه، قال أبووهب: قال هشام: هذا من الله لا يدرى ما عدده».

---

(٢) فصلت (٤١/١،٢). انظر القرطبى (١٥/٣٤١) والبحر المحيط (٧/٤٨١).

(٣) فى نسخة أخرى [أرغبت] وهو تحريف وتصحيف معاً.

(٤) فى نسخة أخرى [بن وهب] وهو خطأ تحريف.

وهذا الحديث أتم وأشبع والأول لم يذكر فيه أنهم يدخلون الجنة بغير حساب، وعن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت سبعين ألفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب قلوبهم على قلب رجل واحد واستزدت فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً».

«وعن أم قيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج آخذاً بيدها في سكة من سكك المدينة حتى انتهى إلى بقيع الغرقد، فقال: يبعث منها سبعون ألفاً يوم القيامة في صورة القمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب، فقام رجل فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال: أنت منهم، فقام رجل آخر فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال سبقك بها عكاشة».

فهذا العدد من مقبرة واحدة فكيف سائر مقابر أمته، وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنت منهم» كأنه رأى فيه أنه منهم والآخر لم يره بموضع ذاك. وأم قيس هي ابنة محصن وهي أخت عكاشة بن محصن الأسدي فالسبعون الألف الأولون سقط عنهم الحساب لأن الله تعالى أيدهم باليقين؛ حتى عاملوا الله تعالى على الصدق، والوفاء بيقينهم وهم أولياء الله تعالى:

﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٥).

وهم السابقون المقربون يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً ممن احتسب للحساب في الموقف ممن وجبت له الجنة، ثم يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً ممن وجب عليه الوقوف طول الموقف. عن عبد الله

---

(٥) يونس (١٠/ ٦٢).

ابن أبي أوفى قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتى برأس أبي جهل صلى ركعتين وصلى بهم يوم الفتح ركعتين».

وسجد عمر بن عبد العزيز ثلاث سجدات تباعاً حيث روى له أبوبردة ابن أبي موسى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث الذي قال: «يجاء باليهودي والنصراني يوم القيامة فيقال هذا فداؤك يا مسلم من النار».

[الأصل الثانى والستون فى بيان أفضل الصدقة]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من صدقة بأفضل من صدقة يتصدقها على مملوك عند مليك سوء»[1] فالمملوك عند المليك السوء مضطر والصدقة على المضطر أضعاف مضاعفة لأنهم ثلاثة أصناف، فقير مستغن عن الصدقة فى ذلك الوقت. وفقير محتاج، ومضطر، فالصدقة على المستغنى عنه، وهو فى حد الفقر صدقة، والصدقة على المحتاج مضاعفة، والصدقة على المضطر أضعاف مضاعفة، والمملوك عند المليك السوء انتظمت حالته. هذه الثلاث هو فقير وهو محتاج وهو مضطر.

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد -كتاب العتق- باب الإحسان إلى الموالى والوصية بهم (٢٣٨/٤) وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط.

[الأصل الثالث والستون فى انه صلى الله عليه وسلم كان يحب الفال الحسن]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا بعثتم إلىّ رسولاً فاجعلوه حسن الوجه حسن الإسم» (1)، هذا من طريق التفاؤل وذلك أن أهل اليقظة والانتباه يرون الأشياء كلها من الله تعالى، وإذا ورد وارد حسن الوجه حسن الاسم تفاءل به وهو حسن الظن بالله تعالى، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفاءل ولا يتطير لأن التفاؤل هو حسن الظن بالله تعالى، والفال هو شىء يخص به قوم وليس يكون لكل أحد كالفراسة والإلهام وكالحكمة.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الفأل مرسل» فمن أعطى حظاً من التفاؤل انتفع به كمن أعطى الفراسة فله منها حظ، ومن لم يعط لم يكن له منها حظ والفأل قريب من الازكان والحظ نحوه، وكانت قريش جعلت مائة من الإبل فى من يأخذ نبى الله صلى الله عليه وسلم فيرده عليهم حيث توجه إلى المدينة فركب بريدة فى سبعين راكباً من أهل بيته، من بنى سهم فتلقى نبى الله، فقال له نبى الله صلى الله عليه وسلم: من أنت قال: أنا بريدة فالتفت إلى أبى بكر رضى الله عنه فقال: يا أبا بكر برد أمرنا، وصلح، فقال: وممن قال: من أسلم فقال لأبى بكر سلمنا قال: ثم ممن قال: من بنى

(1) أخرجه البزاز فى مسنده -كتاب الأدب- باب التسمية بالاسم الحسن، وذكره الزبيدى فى الأتحاف (٩/٩١)، وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (١/٢٢) ونسبه للبزار والطبرانى.

سهم قال: خرج سهمك فاسلم بريدة وأسلم الذين معه جميعاً فلما أن أصبح قال بريدة لنبى الله صلى الله عليه وسلم لاتدخل المدينة إلا ومعك لواء فحل عمامته ثم شد بها فى رمح ثم مشى بين يديه صلى الله عليه وسلم فقال: يانبى الله تنزل على فقال إن ناقتى مأمورة فسارت حتى وقفت على باب أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه فبركت، فقال بريدة: الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء» فإذا أحسن ظنه وفى له بما أمل وظن، والتطير سوء الظن بالله وهرب من قضائه والعقوبة إليه سريعة ألا ترى إلى العصابة التى فرت من الطاعون كيف أماتهم قال الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ (٢).

عن أبى رافع قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى مكتل فيه شاة مشوية فقال لى: «يا أبا رافع ضع ما معك ثم قال: ناولنى الذراع فناولته فأكلها، ثم قال: ناولنى الذراع فناولته فأكلها، ثم قال: ناولنى الذراع فقلت: وهل للشاة أكثر من ذراعين فقال: لو سكت لوجدتها».

---

(٢) البقرة (٢/٢٤٣).

[الأصل الرابع والستون فى معنى الفطرة الأصلية]

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تناتج الإبل من بهيمة جمعاء هل يحس من جدعاء قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً، قال الله أعلم بما كانوا عاملين» (١)، على الفطرة أى على الإسلام وذلك أن الله تعالى أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم فأسلموا له طوعاً وكرهاً وألقوا بأيديهم اعترافاً بربوبيته، فمنهم مسلم ومنهم مستسلم وفى الجملة كلهم أقروا له بالربوبية وحده، وبالسمع والطاعة له فأخذ عليهم الميثاق ثم ردهم إلى الأصلاب فلما خرجوا من الأرحام إلى الدنيا مولودين إنما خرجوا على تلك الفطرة فمن ولده يهودى أو نصرانى أو مجوسى فالولد فى الحكم له.

قال المصنف رحمه الله الولد فى الحكم لأبيه دون أمه لأن العظام والعصب والعروق من الأب واللحم والدم والشعر والجلد من الأم فأصل

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب الجنائز ـ باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه. وهل يعرض على الصبى الإسلام (٢١٩/٣)، وأخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب القدر ـ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٠٧/٦، ٢١٠) بطرق متعددة، وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب القدر ـ باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة (٤٤٧/٤٠) وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، ورواه أبوداود فى سننه ـ كتاب السنة ـ باب فى ذرارى المشركين (٢٢٩/٤)، ومالك فى الموطأ ـ كتاب الجنائز ـ باب جامع الجنائز (١٨٦/١) والبيهقى فى السنن ـ كتاب اللقطة ـ باب الولد يتبع أبويه فى الكفر فإذا أسلم أحدهما تبعه الولد فى الإسلام (٢٠٢/٦)، وأحمد فى المسند (٣١٥/٢).

الجسد من الأب ألا ترى أن اللحم والدم والجلد والشعر يذهب ويجيء والجسد باق والعظام والعصب والعروق إذا ذهبت ذهب الجسد ولذلك نسب إلى أبيه والعصوبة له فى الميراث والولاية وسائر الأحكام (٢) أما قوله كما تناتج الإبل هى يحس من جدعاء فإنه يقول: إن الأنعام إذا تناتجت فولودهن صحيح سوىّ.

فعمد المشركون فجدعوا آذانها، روى عوف بن مالك الجشمى رضى الله عنه قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد فىّ البصر وصوبه وقال: أرب إبل أنت أم رب غنم قلت: من كل المال قد آتانى الله تعالى، فأكثر وأطيب، قال: أفلست تنتجها وافية أعينها وآذانها قلت: بلى، قال: فتجدع آذانها فتقول: صر(٣) ماء وتشق من هذه فتقول بحيرة (٤) فساعد الله أشد من ساعدك وموساة أحد لو شاء الله أن يأتيك بها صر ماء فعل».

فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: فأبواه يهودانه، أو ينصرانه كما تناتج الإبل فهل تحس من جدعاء أى أن الله تعالى خلقه سوياً وافراً وافياً فأنتم جدعتموه وكذلك خلق الله تعالى هذا المولود على الفطرة التى فطرهم، حيث استخرجهم من صلب آدم عليه السلام معترفين له بالربوبية وأنتم هودتموه ونصرتموه، ومنه قول الله تعالى:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (٥).

كانت اليهود إذا ولد لهم ولد صبغته، وكانت النصارى إذا ولد لهم

---

(٢) أى سائر الأحكام الشرعية.

(٣) صرماء: المجدودة، المقطوعة.

(٤) البحيرة: الناقة مشقوقة الأذن، وكان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر، بحروا أذنها أى شقوها، وحرموا ركوبها وسموها البحيرة. انظر تفسير الصابونى (٣٥٥،٣٥٤/٧).

(٥) البقرة (١٣٨/٢).

مولود صبغته فى ماء لهم يقولون تطهر بذلك فقال الله تعالى:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ (٦).

أى فطرة الله التى فطرهم عليها أحسن من صبغهم.

عن انس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد من ولد كافر أو مسلم فإنما يولدون على الفطرة على الإسلام كلهم، ولكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم فهودتهم ونصرتهم ومجستهم وأمرتهم أن يشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً وقال الله تعالى وقوله الحق:

(خلقت عبادى حنفاء وأمرتهم أن لا يشركوا بى شيئا)(٧).

عن عياش بن حمار رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى خطبته: «إن الله تعالى أمرنى أن أعلمكم» وقال تعالى: «خلقت عبادى حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم(٨) عن دينهم وأمرتهم ان يشركوا بىّ وحرمت عليهم ما أحللت عليهم» قال أبو عبد الله فهذا بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا، وتأكدت حجة الله عليهم وعملت أهواءهم فيه لأن الشياطين وجدت قلوباً خالية والنفس والروح يعقلان أمر الدنيا والمضار والمنافع، والآيات ظاهرة من خلق السموات والأرض والشمس والقمر واختلاف الليل والنهار، وهذه حجج الله سبحانه وتعالى على عبيده فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً وأما المؤمنون فهم أهل منة الله تعالى من الله عليهم فجعل لهم نوراً فأحياهم فقال:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن

(٦) البقرة (١٣٨/٢).

(٧) حديث قدسى شريف.

(٨) فى نسخة [فاحتالتهم] وهو تصحيف من الناسخ.

مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (٩).

ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، فأهل منته أحياهم الله تعالى بنوره وأهل عداوته حرموا ذلك فخابوا والحجة عليهم قائمة بما أعطوا من المعرفة بأمور الدنيا قال الله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (١٠)

إنما زكاها بنور المعرفة وإنما دسى قلب الكافر وقوله دسى ودسس ودس كله بمعنى واحد وهو أن يدس باب قلبه كما تدس الكوة حتى لا يقع في البيت ضوء فهو بيت مظلم وقد مال به هوى نفسه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم».

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مسلمين يتوفى لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخل الله تعالى والديهم الجنة بفضل رحمته إياهم والذي نفسي بيده إن السقط ليجر أمه إلى الجنة بسرره إذا احتسب».

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يا عائشة من مات له فرطان من أمتي أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم قالت: يا رسول الله فمن كان له فرط واحد قال: ومن كان له فرط واحد يا موفقة، قالت: ومن لم يكن له فرط قال: فأنا فرط أمتي لم يصابوا بمثلي» فإذا كان الوالدان إنما يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته للولد فكيف يكون رحمته للولد.

---

(٩) الأنعام (١٢٢/٦).
(١٠) الشمس (٩١/٩،١٠).

عن عائشة رضى الله عنها قالت: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المسلمين أين هم يوم القيامة، قال: فى الجنة يا عائشة وسألت عن أولاد المشركين فقال فى النار يا عائشة، قلت: لم يدركوا الأعمال يا رسول الله ولم تجر عليهم الأقلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ربك أعلم بما كانوا عاملين».

عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن السقط ليراغم ربه عز وجل إذا أدخل أبويه النار فيقال له أيها السقط المراغم ربه قد أدخل أبويك الجنة فيقول: لا حتى يجرهما بسرره».

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلاً وبالهالك فى الفترة وبالهالك صغيراً فيقول الممسوخ عقلاً: يا رب، لو آتيتنى عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد منى، ويقول الهالك فى الفترة: يا رب، لو أتانى منك عهد ما كان من أتاه منك عهد بأسعد بعهدك منى، ويقول الهالك صغيراً: يا رب، لو آتيتنى عمراً ما كان ما آتيته عمراً بأسعد منى، فيقول الرب تبارك وتعالى: فإنى آمركم بأمر أفتطيعوننى، فيقولون: نعم وعزتك فيقول لهم: فاذهبوا وادخلوا جهنم ولو دخلوها ما ضرتهم شيئاً فتخرج عليهم قوابض من نار يظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شىء فيرجعون سراعاً ويقولون: يا ربنا خرجنا وعزتك نريد دخولها فخرجت علينا قوابض من نار فظننا أنها قد أهلكت ما خلق الله تعالى من شىء ثم يأمرهم ثانية فيرجعون ويقولون كذلك فيقول الرب: خلقتكم على علمى(11) وإلى علمى تصيرون ضميهم فتأخذهم النار.

---

(11) فى نسخة أخرى [من علمى].

عن عبدالله بن شداد رضى الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فسأله عن ذرارى المشركين الذين هلكوا صغاراً فوضع رأسه ساعة ثم قال: أين السائل فقال: ها أنا يا رسول الله فقال: إن الله تعالى إذا قضى بين أهل الجنة والنار لم يبق غيرهم عجوا فقالوا اللهم ربنا لم يأتنا رسولك ولم نعمل شيئاً(١٢)، فأرسل إليهم ملكاً والله أعلم بما كانوا عاملين فقال: إنى رسول ربكم إليكم فانطلقوا فاتبعوه حتى أتوا النار فقال لهم إن الله عز وجل يأمركم أن تقتحموا فيها فأقتحمت طائفة منهم ثم أخرجوا من حيث لا يشعر أصحابهم فجعلوا فى السابقين المقربين ثم جاءهم الرسول عليه السلام فقال: إن الله تعالى يأمركم أن تقتحموا فى النار فاقتحمت طائفة أخرى ثم أخرجوا من حيث لا يشعرون فجلوا فى أصحاب اليمين، ثم جاء الرسول فقال: إن الله تعالى يأمركم أن تقتحموا فى النار فقالوا: ربنا لا طاقة لنا بعذابك فأمر بهم فجمعت نواصيهم وأقدامهم ثم القوا فى النار»، قال أبو عبدالله الولد عضو من الرجل فإذا قدمه من قبل أن يبلغ الحنث فقد عتق من أسار الذنوب، وفى الشرع أن المملوك إذا عتق جزؤ منه شاعت الحرية فى جميع أجزائه فهذا الطفل قدم على ربه وهو غير مطلوب بذنب فصار حراً من رق الذنوب وهو جزؤ من أجزاء الوالدين، وقوله: لم يبلغوا الحنث أى ما أدركوا مدرك الرجال فتركوا الوفاء بما عاهدوا يوم الميثاق، وقوله: تحلة القسم، يريد قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (١٣).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنى سألت ربى أولاد المشركين فأعطانيهم خدماً لأهل الجنة، قال: لأنهم لم يدركهم ما أدرك آباؤهم من الشرك ولأنهم فى الميثاق الأول»

(١٢) فى نسخة أخرى | ولم نعلم |.
(١٣) مريم (١٩/ ٧١).

[الأصل الخامس والستون في بيان قوله صلـــى الله عليه وسلم: إن هذا المال خضرة حلوة]

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بحقه فلنعم المعونة هو» (١)، الأخذ على ثلاثة أوجه عندنا فالظلم يأخذه تمتعاً والمقتصد يأخذه تزوداً والمقرب يأخذه تبلغاً فالظلم لم يأخذه بحقه لأن الدنيا إنما خلقت متعة للأعداء وهم الكفار يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم، فهذا قد ظلم نفسه حيث أخذها أخذ الأعداء، قال الله تعالى:

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

لأن المؤمن قد علم أنه عابر سبيل، ولم يخلق للبقاء في هذه الدنيا فهو مسافر يقطع الدنيا بعمره إلى الله تعالى والليل والنهار يركضان به إليه وقد آمن بالله واليوم الآخر ومن صدق إيمانه أن يرفع باله عن الدنيا وييأس من الخلود فيها ويأخذ منها ما يأخذ المتزود لما بين يديه من السفر الطويل، وأخذ التزود أن يكون له إرادة فيما يأخذ منها أن يأخذها لقوام

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الوصايا- باب تأويل قوله تعالى: «من بعد وصية يوصى بها أو دين» (٥/٢٧٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه -كتاب الزكاة- باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (٢/٧١٧)، والترمذي في سننه -كتاب الزهد- باب ما جاء في أخذ المال (٤/٥٨٧)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في سننه -كتاب الزكاة- باب اليد العليا (٥/٦٠) وأحمد في مسنده (٢/٢١،٤٠٢،٤٣٤).

(٢) الحجر (١٥/٣).

دينه، ويقدم فضله ما بين يديه ليكون ذلك زاداً له فى المحشر، فالأول ظلم أخذه أخذ الأعداء، وهذا أخذه بحقه فلنعم المعونة، والثالث أخذه تبلغاً لأنه خلق محتاجاً مضطراً لا ينفك فى دنياه أيام حياته من حاجة به إليه أما فى نفسه وأما فى المتصلين به من عيال وقرابة وجيرة وأخوان من أجل حر أو برد أو جوع أو عرى أو نوائب من سقم أو غيره، وتدبير رب العالمين فى هذا المال انه وضعه فى هذه الدار وأنه يصلح به هذه المصالح، فما تناول منه تناول على التبليغ إلى الله تعالى لينفذ عمره ويبلغ إلى ربه تعالى دافعاً هذه النوائب التى تنوبه (٣) فى هذه الدنيا عن نفسه، وعن هؤلاء بهذا المال الذى هكذا دبره رب العالمين، وكان أبوبكر رضى الله عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى المال بغير عدد ولا تقدير يحثى حثواً، ويعطى قبضات، فراوده عمر رضى الله عنه على أن يقدر ويفضل المهاجرين، لفضلهم ومن له قدوة فى الإسلام (٤) يبرر له ذلك بالمال فأبى عليه وقال: إن هذا المال بلاغ، وخير البلاغ أوسعه وأجورهم على الله تعالى، فلما ولى عمر رضى الله عنه فضل أصحاب بدر وجعل بين الناس فضائل ففعل أبوبكر رضى الله عنه فعل الصديقين المال عنده بلاغ فكلما تناول شيئاً منه فقدمه فى نوع من أنواع البر، لم يجعله عدة ليوم فقره كما فعل هذا المقتصد لأن عدة الصديقين والمقربين خالقهم، وأعينهم مادة إلى رحمته، والمقتصدون ومن دونهم عدتهم خالقهم عدة الإيمان فإذا صاروا إلى الحقائق صيروا أعمالهم عدة.

---

(٣) تنوبه: تنزل به.

(٤) أى مثال.

[الأصل السادس والستون في أن الاختيار من الخير]

عن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمراً قال: «اللهم خرلي واخترلي»(١)، قال أبو عبدالله: الخيرات كلها من خيرته والصفوة من الخيرات محبوبة ومختارة. خار لعباده الأعمال والأفعال واختار لنفسه من الذي خار لهم فذاك محبوبه ومصطفاه سأله أن يخير له أي يرزقه الخير. وإذا رزقه الخير وقاه الشر ثم سأله أن يختار له من الخير محبوبه وله دعوة أخرى في حديث آخر، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أسألك التوفيق لمحابك من الأعمال وصدق التوكل عليك وحسن الظن بك» فانظر إلى هذه الخصال الثلاث كأنها نظام واحد وهذا باب غامض يخفى على الصادقين. وإنما ينكشف للصديقين دون الصادقين. لأن الصادق يفتش عن الأعمال، كيلا يدخل فيه العدو والنفس، والهوى، ويروجه عليه بخدعه فهو يبغي الصدق والإخلاص ويلحظه.

والصديق يلحظ في أعماله إلى الله تعالى لأنه استقام قلبه على الصدق وانطرد عنه الهوى واختسأ العدو فهو يفر من ظله، وهو الذي ينكشف له التوفيق من الله لمحبوبه، فرب عمل هو في الظاهر أعلى وأشرف على ألسنة الرسل عليهم السلام والكتب المنزلة والمحبوب في

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه -كتاب الدعوات- (٥٣٥/٤) وقال أبوعيسى: هذا حديث غريب، وذكره البيهقي في -شعب الإيمان- باب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى (١٥١/١)، وأورده ابن حجر في فتح الباري -كتاب الدعوات- باب العطاء عند الاستخارة (١٨٤/١١).

ذلك الوقت ما هو دونه فى الظاهر، فالذى يحبه فى ذلك الوقت قد خفى على الأنبياء عليهم السلام حتى سأله التوفيق لذلك. وأما بيان انتظام هذه الأمور فى طلق هو أن الله تعالى إذا وفقه لمحبوبه وهو أدنى فى الظاهر من الأعلى الذى تركه ربما تلكأت النفس، وترددت حيث ترك الأعلى فى الظاهر، وآثر الأدنى وإن كان الأدنى فى الحقيقة من محاب الله تعالى، فسأله صدق التوكل، والتوكل هو أن يتخذ الله وكيلاً ويفوض إليه جميع أموره، فسأله صدق ذلك حتى لا يتردد ولا يتلكأ فيه، ويسارع فيه كما يسارع فى الذى كان عنده أعلى، ثم قال: وأسألك حسن الظن بك، فإن النفس إذا مرت فى الأدون دخلها سوء الظن من قبلها فتقول لعلى فيه مخذول إذ أقبلت على الأدون وأعرضت [٢] عن الأعلى فى الظاهر فسأله حسن الظن؛ كيلا تأخذه الحيرة ولا يخاف أنه خذل، فهذه الخصال الثلاث كلها منظومة محتاج إليها فى طلق لا يستغنى ببعضها عن بعض، لمن سأل أن يختار له محبوبه ويوفقه لمحابه من الأمور، فجاءت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهاتين اللفظتين، وكلاهما يؤديان إلى معنى واحد، قوله: «اخترلى» وقوله: وفقنى لمحابك، فالاختيار من الخير هو محابه فى ذلك الوقت، قال له قائل: صف لنا واحدة من هذه الأمور نعتبر بها ما سواها، قال: نعم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمراً يزور بيت الله الحرام لبعد عهده به فصد عن البيت فكان محاب الله تعالى فى ذلك أن يصالحهم، ويعطيهم ما يريدون من ذلك فإنهم كانوا يريدون أن لا يدخل مكة فى تلك الهيئة فحلق دون قضاء العمرة، ونحر الهدى ولما [٣] يصل إلى البيت، ولم يبلغ محلها وكان فى الظاهر تعظيم البيت، والاعتمار والوفاء بالنذر، وهو الإحرام وهدى البدن، وهى سبعون بدنة [٤] أعلى عندهم

---

(٢) أعرضت عن الأعلى: انصرفت عنه.

(٣) لما يعل: لم يعل حتى وقت التكلم.

(٤) بدنة: بقرة أو ناقة تنحر بمكة، وقد سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها.

وأشرف، والصلح والرجوع عنهم محاب الله فى ذلك الوقت فاتسع لهذا الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يضق به ذرعاً، واتسع أبوبكر رضى الله عنه وضاق عمر رضى الله عنه، حتى صار إلى أبى بكر رضى الله عنه فقال: يا أبا بكر، أليس هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أوليس نحن المسلمون، فقال: بلى فقال: فعلام (٥) نعطى الدنية فى ديننا، وهم الكفار، قال أبوبكر رضى الله عنه: يا عمر الزم غرز رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمع واطع فإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وأنا أشهد. فلم يصبر على ذلك فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله ألست رسول الله أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا وهم الكفار، قال: أنا عبدالله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعنى.

قال عمر رضى الله عنه فمازلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من الذى صنعت مخافة كلامى الذى تكلمت به يومئذ فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين وكتب الكتاب فيما بينهم على وضع الحرب عشر سنين يأمن منهم الناس ويكف بعضهم عن بعض، فأمنوا ولقى بعضهم بعضا وخالطوهم، واستمعوا إلى القرآن، وإلى ما جاء به عن الله تعالى والرجل يكلم أخاه وصديقه ورحمه بذلك فدخل الناس أفواجا فى دين الله مثل ما دخلوا فى سنين كثيرة فانظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف فوض أمره إلى الله تعالى وأبرز صدق توكله، وكيف حسن ظنه بالله تعالى، فقال: «إنى لن أخالف أمره، ولن يضيعنى» وكيف تابعه على ذلك أبو بكر رضى الله عنه واتسع فيه، وكيف ضاق عمر رضى الله عنه، ومن بعد عمر عامة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ من أمرهم أنه أمر مناديه فنادى بأن يحلقوا رؤسهم فلم يحلقوا حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الخيمة فقال: يا أم سلمة ألا

(٥) الدنية: الدنيا مشتقة من الدناءه.

تـريـن أن الـنـاس لا يحلقون فقالت : يا نبى الله بأبى أنت وأمى احلق أنت ، فلو قـدر رأوك حـلـقت لقد فعلوه ، فحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الناس يحـلـقـون ومنهـم من قصر ، فقال : اللهم أغفر للمحلقين ، قالوا والمقصرين يا رسول الله ، قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا والمقصرين يا رسول الله ، قال : اللهم اغفر للـمـحـلـقين ، قـالـوا والـمقصريـن يـا رسول الله ، قال : والمقصرين ، قالوا ظاهرت بالترحم والمغفرة للمحلقين ، قال لأنهم لم يشكوا .

فـلـيـس هـذا شكا فى أصل الفعل إنما الشك هنا ضيق الصدر بذلك الفعل ، احتاجوا إلى أن يحلقوا وهم فى إحرام ، ولم يحلوا بعد لأن السبيل كان عندهم فى الجاهـلـيـة وراثـة أن لا يحـل أحـد مـن احرامه دون الطواف بالبيت ، فلما أمرهم بالحلق ، استعظموا ذلك وضاقت صدورهم ، ثم اتبعوه فقصروا كأنهم على كراهة شديدة ، وهذا من خلق النفس وكزازته فحرموا الدعوة للكزازة التى فيهم وركوب الهوى ، وقـول رسـول الله صـلـى الله عـلـيـه وسـلـم : إنى لن أخالف أمره أى لن أخـالـف أمر الله أى لـن أخـالـف ما استقبلنى من وجه الأمر ، ومن توفيقه لما هو أحب إليه وذلك أن اهل مكة لما تلقوه ليردوه فى جمعهم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفل مكة فلما بلغ الحديبية بركت ناقته ، فقال الناس خلأت أى حرنـت (٦) ، فـقـال صـلـى الله عليه وسلم : ما خلأت وما لها ذلك بخلق ، كأن مـعـنـاه أن هذه ناقة مسخرة لصاحبها ، وصاحبها ليس بحرون ، فإذا لم يحرن الذى سخر على ربه لم تحرن المسخرة فقال : ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل فعلم أن بـروك الناقه ههنا ليس من الحرانة لأنه لم يحرن على ربه فى أمره ، ولكن هذا شىء بديع قد اختار له ربه ما هو أحب إليه فنزل ، وعسكر هناك وانتظر ما يكون ثم وجـه الـرسـل إلـى أهـل مكة واحداً بعد آخر أنى لم أجئكم لحرب وإنما جئت مـعـظما للبيت ومعى هدى فعاهدوا الله أن لا يدخلها ابدا أو نحاربك ، ثم كان فى تـلـك الـرسـل عـثـمـان بـن عـفان رضى الله عنه ، فأتاه الخبر أن عثمان قد قتل ، فـانتدب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحربهم وقال لا نبرح حتى نناجزهم فدعا

(٦) حرنت: إذا ما استحثت على المسير تراجعت، وتسمى (حرون).

إلى البيعة تحت الشجرة فبايعوه، فقال أصحابه بعد ذلك بحين(7) بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت، وقال آخرون ممن فهم الأمر لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر فانزل الله تعالى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (8) الآية .

فأوجب لهم رضاه وبشرهم بذلك، ووعدهم النصرة والفتح، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى الطريق رؤيا أن يدخل المسجد الحرام مع أصحابه محلقين ومقصرين لا يخافون فأخبر بها أصحابه فلم يشكوا أنها تفتح لهم، فلما استقبلهم هذا الصلح شكوا فى الرؤيا وساءت ظنون كثير منهم قال الله تعالى :

﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (9)

فصالحوا وانصرفوا فخرجوا إلى خيبر ففتح الله عليهم فاستأصلوا اليهود وهم أحد الأعداء وغنموا الغنائم الكثيرة وتقوو إنما غنموا واخذوا العدة من الكراع، والسلاح، وبلغ المشركين ذلك فذلوا وانقصموا(10)وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من العام المقبل، فقضى عمرته وأخلوا له مكة من نسائهم وأولادهم، حتى انصرف ثم عاد من العام القابل لفتح مكة فى عشرة آلاف رجل وكان ذلك العام الذى صدّ عنه فى سبعمائة (11) وكثر أصحابه لدخول الناس فى دين الله وذلك للصلح الذى كان بينهم، وما التقوا . فوعظ بعضهم بعضا وقرأ عليهم ما نزل فانظر إلى محاب الله تعالى ومختاره وإلى محاب الخلق ومختارهم، فقد كان مختار الخلق أن يدخلوها عنوة (12) فيقتلون ويقتلون وقد كان لله عز وجل فيها أولياء قد اجتباهم واختارهم وسبقت لهم منه الحسنى ولم يجيء وقت إسلامهم بعد، وفيهم

(7) فى نسخة أخرى [نحن] وهو تحريف وتصحيف.
(8) الفتح (48/18).
(9) الفتح (48/27) راجع التسهيل لعلوم التنزيل (4/56).
(10) فى نسخة أخرى [وانغمصوا].
(11) فى نسخة [سبعماية] وفى أخرى [تسمائة].
(12) عنوة: قهراً.

أيضا قد أسلموا من المستضعفين نساء وشيوخا وعجزة، ولو دخلوها بتقال لأصابهم معرة الجيش فقال الله تعالى فى تنزيله الكريم :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١٣)

وكانت طائفة من أهل مكة خرجوا عليه من وراء عسكره فهزمهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا أسراء(١٤) فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك قوله تعالى :

﴿ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١٥)

ثم قال :

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١٦)

إلى قوله :

﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٦)

فهؤلاء رجال مؤمنون ونساء مؤمنات قد كانوا هناك فى أيديهم مستضعفين فلو دخلتم للحرب لوطأتهم الخيل، وهلكوا ولو تزيلوا أى فارقوهم وزيلوهم، لعذبنا الذين كفروا أى لنسلطنك عليهم بالحرب حتى نقتلهم ولكن هيأ الصلح وحبس الناقة فبركت، فلما بركت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «حبسها حابس الفيل لا يدعونى اليوم قريش إلى خطة فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» .

(١٣) الفتح (٤٨/٢٤). راجع تفسير الجلالين (٤/٩٦) والمختصر لابن كثير (٣/٣٤٦).
(١٤) أسراء: جمع أسير.
(١٥) الفتح (٤٨/٢٤).
(١٦) الفتح (٤٨/٢٥) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١٦/٢٨٥) وما بعدها.

وكان رجال مؤمنون ونساء مؤمنات فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات لم يخرجهم الله تعالى إلى الدنيا وكان فى سابق عمله أنه يخرجهم إلى مدة وأسماؤهم مكتوبة فى اللوح بالسعادة من الله تعالى فلو دخلوها عنوة لهلك آباؤهم وأمهاتهم فى الحرب ومعرة الجيش فلو تزيلوا أى زايلوا الأصلاب والأرحام لعذبنا الذين كفروا أى الآباء والأمهات الكفرة وأنجينا هؤلاء الأطفال الذين هم فى علمى أوليائى ، فهيأ الله عز وجل الصلح بينهم حتى توالدوا وخرجوا من أصلاب آبائهم من يعبد الله وحده ، وتهيأ للمستضعفين حال نجاح ، وفتح الله تعالى مكة شرفها الله تعالى من العام الثالث عليهم وأظفره بهم ، ومن قبل فتح مكة سهل الله سبيله ، حتى جاء قاضيا لعمرته فى ذلك الشهر الذى كان جاء أول عام الحديبية فاعتمر وغلظ المشركين فى ذلك واقتص الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم منهم كما ردوه وصدوه عن العمرة فأنزل الله تعالى :

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾ (١٧)

ثم فتح الله تعالى عليه مكة من العام الثالث من الحديبية وهو سنة ثمان من الهجرة، وكانت الحديبية سنة ست وقضاء العمرة فى سنة سبعة، وافتتح مكة سنة ثمان من الهجرة فغض (١٨) المسجد الحرام بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان فى عشرة آلاف حتى لم تجد ناقته موضعا تبرك فيه فى المسجد الحرام حتى دنا من البيت فاحتملوه على أيدى الرجال فدعا بالمفتاح ففتح له فدخل البيت فصلى فيه ثم خرج فوقف على الباب فقال: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» فانظر إلى هذه الكلمات عظم ربه ، وصغر ما دونه بتعظيمه ثم قال صدق الله وعده نشر عن ربه الجميل بأنه وفى له ، ثم قال ونصر عبده رأى النصر من عنده، ورأى دوران الأمور به ونظر إلى تدبيره من لدن مبعثه وما لقى منهم من الأذى، والضرب، والشتم

---

(١٧) البقرة (١٩٤/٢). راجع جامع البيان للطبرى (٥٧٦/٣) والدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى (٢٠٦/١).

(١٨) غض المسجد: امتلأ. وفى نسخة أخرى [ففض] وهو تصحيف.

والمصائب وما حرم أقاربه وأرحامه من بركة ما جاء به وإلى ناس من إفناء الناس غرباء كيف رزقوا . ذلك واحد من الروم وواحد من الحبشة وآخر من فارس، وواحد من الخيام وآخر من حضرموت، وبلاد الشام وأبو لهب، وأبو طالب، وولد عمومته حاربوه، وعادوه، وأخرجوه من بلاد الله ومن وطنه وبيت الله الحرام، وغربوه وتواطئوا على قتله وطلبوه فلم يظفروا به، وانظر إلى تدبير الله تعالى فى الأنصار وبذلهم انفسهم قال الله تعالى :

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ (١٩)

ثم حروبهم ببدر وأحد وتلك العجائب التى كانت هناك مرة لهم ومرة عليهم إلى يوم الحديبية وصلحه وأنهم قد وضعوا الحرب فيما قد وضعوا الحرب فيما بينهم عشر سنين فضاق عمر رضى الله عنه بذلك يوم الحديبية ولم يعلم أن الله تعالى سيفتح لهم مكة فى العام الثالث من عامهم فى أعز نصر وأوفر جمع فحسن الظن، وسوء الظن ههنا يتبين، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ جميل صنع الله تعالى فى أمره فقال : «الله أكبر صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»، فلو شاء الله تعالى لبغث مع محمد صلى الله عليه وسلم ملائكته عليهم السلام معهم الشهب فيدمرون على من جحده ولكن تدبير الله تعالى فى عباده فى التؤدة، والتأنى، والرفق بهم ليتسعوا مع تدبيره، فإن الاتساع مع تدبيره عوذة والضيق من الاستبداد وكزازة النفس، والعبودية الصادقة أن يدور مع تدبير الله تعالى فى الأحوال كيفما دارت فهناك تكون عند الله تعالى راضيا فى الأحوال فيرضى عنك وهو قوله تعالى :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (٢٠)

اطمأنت إلى الله سبحانه وتعالى وماتت شهواتها وذهب استبدادها فرضيت عن الله تعالى فى أحوالها على اختلاف محبوبها ومكروهها فرضى الله عنها فلما تكلم على باب الكعبة بما تكلم قال لأهل مكة وهم حوله : ماذا تقولون وماذا ترون

---

(١٩) الأنعام (٦/ ٨٩).

(٢٠) الفجر (٨٩/ ٢٧، ٢٨).

أنى صانع بكم ؟ قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فإنى أقول كما قال أخى يوسف :

﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [٢١]

قال عمر رضى الله عنه وانتضحت عرقا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك إنى كنت قلت لهم حين دخلنا مكة اليوم ننتقم منكم ونفعل ونفعل فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال استحييت من قولى فهكذا يكون فعل الناظر إلى تدبير الله تعالى فيهم من قبل فى تلك الأمور الماضية وحكمته .

وأيضا قصة أخرى فى شأن أبى جندل بن سهيل بن عمرو وكان مسلما فى أيدى المشركين مقيدا بمكة فلما جاء سهيل بن عمر وأبوه يراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلح وهو بعض رؤسائهم أبرم [٢٢] الصلح وكتب الكتاب فجاء ابنه أبو جندل يوسف فى قيوده قد انفلت من محبسة فقال : يا محمد يا رسول الله إنى مسلم فى أيدى المشركين، واستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين فقام إليه أبوه فضرب وجهه ، ورده وقال يا محمد ، لقد لجت القضية فيما بيننا فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده حتى رده فكاد المسلمون أن يفتتنوا فى ذلك الأمر وأخذهم الغيظ الشديد ، ولم يقدروا على شىء من الصلح ، وكان وقع الصلح بينهم على أن من صار من المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما أن يرد عليهم ، ومن صار من المسلمين إليهم مرتدا لم يطلب فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذلك فتحرك أصحابه فى ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جاءنا مسلما فرددناه عليهم فإن الله عز وجل جاعل له فرجا ومخرجا

(٢١) يوسف (٩٢/١٢). لا تثريب : لا تعبير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم بأخيكم، وأصل التثريب هو الإفساد والتعيير، انظر المعنى كاملاً فى لسان العرب (٢٢٨/١).

(٢٢) أبرم الصلح : أقامه وعقده .

ومن صار إليهم مرتدا فإلى النار فما نصنع بمن ارتد عن دين الله فانظر إلى حسن ظنه حيث قال: فإن الله جاعل له فرجا ومخرجا، فكيف لا يحسن ظنه وقد أوحى إليه عز وجل:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٢٣)

فالوحى قد نجع فيه وانكشف الغطاء عن قلبه حتى عاين حسن تدبير الله وصنائع ربه وعرفه بالمجد والكرم فذهب سهيل ابن عمرو بإبنه إلى مكة فى قيوده، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ففتح خيبر فقال عمر رضى الله عنه كنت أماشى أبا جندل، وهو فى قيوده وهو جنب أبيه وأهوى بمقبض سيفى نحوه، وأدنيه منه وأقول واهوته يا أبا جندل ليهن عليك فإنما دم أحدهم دم كلب وأدنى قائمة السيف منه رجاء أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال فضن الرجل بأبيه وسهيل آخذ بتلابيبه يجره إلى المنزل وأبو جندل يصرخ يا معشر المسلمين أردّ إلى المشركين يفتنوننى عن دينى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اصبر، واحتسب أبا جندل فإن الله عز وجل جاعل لك وللمسلمين فرجا إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وإنا لن نغدر فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلبث إلا قليلا حتى انفلت أبو جندل من قيوده ومر إلى ناحية البحر على طريق الشام فقعد هناك لأنه قد علم أنه إن صار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجد بدا من رده عليهم لما جرى بينهم فى الصلح من ذلك فأقام هناك أياما فكان كل من سمع به من الشذاذة (٢٤) المنفلتين ممن هم فى مجالس المشركين لحق به حتى توافوا (٢٥) نحوا من سبعين رجلا، فقطعوا على المشركين عيرهم وأخذوا أموالهم وأضروا حتى بلغ من أمرهم، وما تأذى بهم المشركون أن وجهوا

---

(٢٣) الطلاق (٦٥/٢، ٣). راجع القرطبى (١٨/١٦٠) وجامع البيان للطبرى (٢٨/٩٠).

(٢٤) الشذاذة: النبو والشذوذ.

(٢٥) توافوا: أشرفوا، وبلغوا.

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يضمهم إلى نفسه حتى يرتفع عنهم ضررهم ثم أسلم سهيل بن عمرو وقتل شهيدا فى خلافة عمر رضى الله عنه، قال أبو عبد الله فأهل سعة الصدر عاشوا مع الله تعالى فى دار الحبس، والضيف عيش أهل الجنان وإنما نالوا ذلك كله بذلك النور الذى انشرح به صدورهم فاتسعت لتدبير الله تعالى، وأن الله تعالى دبر للعباد أمور أمرن النفوس سلوك طريق ذلك التدبير وعرفوه، ووطنوه ثم له تعالى فى ذلك التدبير تدبير آخر مختص، فأهل الضيق يتحيرون، ويضيقون ومن عاين الصنعين والتدبيرين لم يضق وأن لله عز وجل فى كل تدبير مشيئة إن شاء أمضاه، وإن شاء أخره فالتدبير الذى قد وطنه الناس أن يكون بالولد من ذكر وأنثى، فاختص الله تعالى لعيسى عليه السلام تدبيرا فحملت به مريم من غير ذكر فتحير فيه علماء ذلك الزمان وأحبارهم وهلك فيه العام والسفهاء وأدرك مريم رضى الله عنها بعض تلك الحيرة فقالت:

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢٦)

فأبصرت وأذعنت لحكم ربها تعالى وتقدس، فاستوجبت بذلك أن أثنى عليها رب العالمين فقال:

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ (٢٧)

وقال:

﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ (٢٨)

وكذلك فعل زكريا عليه السلام فيما بشر به من الولد بعد الكبر، وكذلك

(٢٦) سورة آل عمران: الآية رقم: ٤٧.
(٢٧) التحريم (١٢/٦٦).
(٢٨) المائدة (٧٥/٥). انظر الطبرى (٤٨٥/١٠).

رزق مريم رضى الله عنها:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢٩)

فقد علم الناس أرزاقهم من مظانها من السوق، ومن الكدس، ومن الكرم، ومن الكيس، ومن أيدى الخلق فرزقت على وجه التدبير المختص مما لم تمسه أيدى العالمين، فأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم التدبيرين ودخلو أحدهما فى الآخر وخفاء(٣٠) شأنها فسأل التوفيق وسأل مع التوفيق أن لا يكون من نفسه إذا وفقه تلكأ وسأله إذا وفقه، فلم يوافق شهوة نفسه أن يحسن الظن به فقد يكون الرجل من أهل الغفلة يقول اللهم اخترلى ووفقنى فإذا وفقه هرب من مختار الله ودفع عن نفسه ذلك.

بلغنا أن موسى عليه السلام قال: يا رب أى عبادك أكثر ذنبا قال الذى يتهمنى قال ومن يتهمك يا رب قال: الذى يستخيرنى فى الأمور فإذا خترت له لم يرض بقضائى وخيرتى.

وأيضا قصة أخرى فى شأن بدر وعدهم الله تعالى إحدى الطائفتين أنها لكم الظفر بالعير أو الظفر بالعدو الذى انتدب من مكة، وهم رؤساء الكفر، وصناديد قريش، وكان مجاب الله تعالى فى ذلك أن يظفروا بالعدو فيقتلهم على أيديهم، ويقطع دابرهم، ومحابهم الظفر بالعير

---

(٢٩) آل عمران (٣/٣٧)، قيل: كان زكريا يصعد إليها المحراب يسلك كما ذكر القرطبى (٤/٧١) وقال أبوعبيدة: المحراب هو سيد المجالس وأشرفها وقد ذكره الطبرى عنه (٦/٣٥٧) وقد قيل أيضاً: إن المحراب هو المسجد نفسه. غريب القرآن ص١٠٤.

(٣٠) فى نسخة أخرى [وخفى].

ليتقووا به وينكوا فيهم فقال فى تنزيله الكريم :

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [٣١] الآية .

(٣١) الأنفال (٧/٨). ذات الشوكة : ذات السلاح ، ويقال فلان شاك السلاح أى قد ادَّرعه واشتمله .

[الأصل السابع والستون فى عقاب من غش العرب]

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودتى»(١) غش العرب أن يصدهم عن سبيل الهدى أويحملهم على أمور يبعدون بها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن فعل ذلك فقد قطع الرحم فيما بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن غشهم أيضا أن يحسدهم على ما آتاهم الله من فضله وأن يضع ما رفعه الله ويغمر فضلهم، والأخبار قد أتت بفضلهم.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى قسم الخلق قسمين: فجعلنى فى خيرهما قسما فذلك قوله تعالى:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ (٢).

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ (٣).

فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثا فجعلنى فى خيرهم ثلثا فذلك قوله تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذى (٥/٧٢٤) وأحمد فى مسنده (١/٧٢).

(٢) الواقعة (٥٦/٢٧). راجع التفسير الكبير (٢٩/١٦٣)، الواقعة (٥٦/٤١) راجع البحر المحيط (٨/٢٠٧)..

(٣) الواقعة (٥٦/٤١).

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ (٤).

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ (٥).

فأنا من السابقين وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خير قبيلة وذلك قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (٦)

فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتا فجعلني في خيرها بيتا فذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٧)

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ مرت بنا امرأة من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض القوم: هذه ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال أبو سفيان إنما مثل محمد صلى الله عليه وسلم في بني هاشم كالريحانة في وسط النتن فسمعت المرأة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرته له فخرج ولا أراه إلا مغضبا فصعد المنبر وقال ما بال أقوال تبلغني عن أقوام أن الله تعالى خلق سبع سموات فاختار

---

(٤) الواقعة (٥٦/٨،٩). كانت العرب تسمى اليد اليسرى: الشؤمى، والجانب الأيسر الأشأم؛ ومنه قيل: اليمن والشؤم، راجع ابن منظور (١٥/٢٠٧) وما بعدها والطبرى (٢٧/٩٨).

(٥) الواقعة (٥٦/١٠).

(٦) سورة الحجرات: الآية رقم: ١٣.

(٧) الأحزاب (٣٣/٣٣).

العليا فسكنها وأسكن سمواته من شاء من خلقه وخلق سبع ارضين فاختار العليا فأسكنها خلقه ثم اختار خلقه، فاختار بنى آدم، ثم اختار بنى آدم فاختار العرب، ثم اختار العرب، فاختار مضر ثم اختار مضر، فاختار قريشا، ثم اختار قريشا، فاختار بنى هاشم، ثم اختار بنى هاشم فاختارنى، فلم أزل خيارا من خيار ألا فمن أحب العرب فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم».

عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله بعثنى فطفت شرق الأرض وغربها، وسهلها وجبلها، فلم أجد حيا خيرا من العرب ثم أمرنى فطفت فى العرب فلم أجد حيا خيرا من مضر ثم أمرنى فطفت فى مضر، فلم أجد حيا خيرا من كنانة ثم أمرنى فطفت فى كنانة فلم أجد حيا خيرا من قريش ثم أمرنى فطفت فى قريش فلم أجد حيا خيرا من بنى هاشم، ثم أمرنى أن اختار من أنفسهم فلم أجد فيهم نفسا خيرا من نفسك» إنما ذكر النفس لأن الأخلاق هى فى النفس حسنها وسيئها فهذا يدل على ما قلنا أنه إنما طاف فى هذا الخلق يطلب النفوس الطاهرة الصافية الزاكية بمحاسن الأخلاق فمن أجل ذلك اختارهم فلم ينظر إلى أعمالهم فإنهم كانوا أهل جاهلية إنما نظر إلى أخلاقهم فوجد الخير فى هؤلاء وجواهر النفوس متفاوتة بعيدة التفاوت وذلك أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام من قبضة.

عن قسامة بن زهير عن الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر، والأسود والأبيض، ومن ذلك السهل، والحزن والخبيث، والطيب» فالتربة الطيبة نفوسها سهلة كريمة وليست فيها كزازة لا يبوسة ولا شعوثة فهم أحرار كرام

ولدتهم أمهاتهم من رق النفوس، وشهواتها، والآخرون كانت الحزونة فى تربيتهم، فجاءت الكزازة والشعوثة والصعوبة ولدتهم أمهاتهم عبيدا قد ملكهم رق نفوسهم بشهواتها، وهو قول عيسى عليه السلام فيما يعظ به بنى إسرائيل، فقال: لا عبيد أتقياء ولا أحرار كرماء، معناه لستم من العبيد الذين يجاهدون أنفسهم ويتقون الله ولا من الأحرار الذين نجوا من رق النفوس فساروا إلى الله تعالى سير الكرام بلا تعريج ولا تردد، والبخل والضيق والحدة، والعجلة والحقد والحرص، وما أشبهه من كزازة النفس، والجود والسماحة والسعة واللين والتؤدة والتأنى والرفق من سهولة النفس وطيبها، فنفوس العرب بارزة أخلاقها لا ينكرها إلا معاند ولا يجحدها إلا مارد إنها أخلاق الكرام، فبهذا فضلوا لا باللسان العربى والله تعالى يحب معالى الأخلاق، ويبغض مدانيها. ومما يحقق ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم بدر أنه سمع رجلا يقول بعدما انصرفوا من بدر: إنما قتلنا عجائز صلعا فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال صلى الله عليه وسلم: «مه أولئك الملأ من قريش لو نظرت إلى فعالهم لاحتقرت فعالك عند فعالهم لولا أن تطغى قريش لأخبرتها بمالها عند الله تعالى اللهم إنك أذقت أول قريش نكالا فأذق أخرها نوالا».

فالعرب بالأخلاق شرفوا وإلا فالشجرة واحدة وهو خليل الرحمن عليه السلام.

ومما يدل على ذلك دعوات [8] إبراهيم عليه السلام حيث رفع القواعد من البيت وأتم بناءة فقال:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [9]

(٨) فى نسخة أخرى [دعوة].

(٩) البقرة (٢/١٢٨). راجع تفسير الطبرى (٣/٧٩).

ثم قال:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ (١٠).

فإنما سأل فى ذرية اسماعيل عليه السلام خاصة ألا يرى أنه قال على أثر ذلك:

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ﴾ (١١)

يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم فالإسلام هو تسليم النفس وبذلها والجود بها ومن جاد بنفسه على الله تعالى فلا أحد أحسن خلقا منه ولا أكرم منه فليس الشأن فى الجود بالمال إنما الشأن فى الجود بالنفس حتى يسلمه إلى خالقه فجرت هذه الدعوة فى ولد إسماعيل عليه السلام خاصة أن صيرهم أمة مسلمة له فوهب لهم أخلاق الكرام، حتى تكرمت نفوسهم على الله تعالى بذلا حين جاءهم الرسول عليه السلام، ومن قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تلك الأخلاق ظاهرة فيهم، فلما جاءهم الرسول عليه السلام وجدهم مهذبين كراما فصاروا صديقين وأبراراً وأتقياء، وحكماء، وعلماء بالله تعالى باذلين مهجهم، وأموالهم لله تعالى، والسيوف على عواتقهم والحجر على بطونهم من الجوع وينصرون الله ورسوله، وبنو إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام:

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (١٢).

وقيل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ (١٣)

---

(١٠)، (١١) البقرة (٢/١٢٨، ١٢٩).

(١٢) المائدة (٥/٢٤).

(١٣) آل عمران (٣/١٧٣).

فصار قولهم هذا كقول أبيهم حيث (١٤) ألقى فى النار حسبى من سؤالى علمه بحالى، فهل يمكن أن يقول هذا إلا من حسن خلقه فجاد بنفسه على الله تعالى، وإنما قال هذا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يوم أحد بعد ما أنهزموا وأصابتهم جراحات وقتل من قتل منهم، وانصرف عسكر المشركين فنزلوا مكانا وتآمروا فيما بينهم أن يجمعوا جمعا فيكروا عليهم ودسوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الخبر ليفزعوهم فانتدب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين وفيهم من الجراحات غير قليلة يمضون إلى جمعهم وفيهم مشاة حتى أن الرجل ليغشى عليه فى الطريق من كثرة ما يسيل من الدم من جراحته فيحمله صاحبه يسيرون بمثل هذه الحالة إلى العدو. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فوجدوا العدو قد تفرقوا (١٥) وذهبوا قال الله تعالى:

﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ (١٦)

ولم يقل رضاء الله فإن الرضوان أكثر من الرضاء وهو غاية الرضاء، فنهاية العرب إلى اسماعيل عليه السلام والشجرة واحدة وهو إبراهيم خليل الله عليه السلام، ولسانه عبرانى وإنهما غصنان لهذه الشجرة إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، فاسماعيل عربى اللسان وإسحاق عبرانى اللسان، فإسماعيل أب العرب، وإسحاق أب العبرانيين، وهم بنو اسرائيل نسبوا إلى يعقوب عليه السلام إسرائيل الله تعالى ابن اسحق بن إبراهيم، ولكل واحد من الغصنين حظ من الله تعالى ونصيب وفضيلة وكرامة وموهبة فصارت وراثة فى أولادهما إلى الأبد فظهر فى

(١٤) فى نسخة أخرى [حين] وهو تحريف.
(١٥) فى نسخة أخرى [نفروا] وهو خطأ تحريف.
(١٦) آل عمران (١٧٤/٣).

ولد إسحاق من تلك الموهبة والكرامة الجهد والعبادة وظهر فى ولد إسماعيل حسن الخلق والسماحة والشجاعة، والموهبة إنما تكون على قدر الحظ والجاه له عنده على قدر ذلك فنظرنا إلى موهبة كل واحد منهما ومن أى خزانة أعطى، لنستدل به على حظيها منه فوجدنا الجهد والعبادة من خزائن الحكمة. والأخلاق من خزائن المنة فنظرنا إلى الحكمة والمنة من أين بدت كل واحدة منها، فوجدنا الحكمة من العدل بدت والعدل من الربوبية والربوبية من الملك والقدرة (١٧) ووجدنا المنة أنها بدت من العطف والعطف من الفضل والفضل من الجمال، فمن الملك بدأ الغضب فأسعرت فاستجرت (١٨) النار واسودت من الغضب فهى سوداء مظلمة مشحونة بغضبه، ومن جماله بدت الرحمة وظهر الفضل والعطف حتى اهتزت الجنان، وتوردت، واستنارت بنوره، فهى بيضاء نورانية مشحونة برحمته وروحه وإنما هى نظرة وجفوة، فأهل الثواب سعدوا منه بنظرة واحدة وأهل العقاب شقوا منه بجفوة واحدة، ففهمنا بمبلغ ما علمنا من ظاهر ما عليها وعلى أولادهما من بعدهما ما بطن من حظيها، وموهبتيها.

وإنما كثر ولد اسحق وظهروا فى وقت موسى عليه السلام حيث أنقذهم من ملكة فرعون وسخرته وجاء بالكتب من الله تعالى وظهرت العبودة لله تعالى إلى وقت عيسى عليه السلام، ثم صارت فترة فظهرت منازلهم، ودرجاتهم، وجواهر نفوسهم بما عاملهم الله تعالى وما عاملوه، وكثر ولد اسماعيل وظهر شأنهم بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم وظهرت سيرتهم فى دينهم وما عاملهم الله تعالى وما عاملوه، فتبين لنا بفعليها شأن نفوسهم ومحلهم من الله تعالى وحظوظهم، عن مكحول رضى الله عنه قال لما كثر بنوا معد أغار منهم أربعون فارسا على عسكر بنى

---

(١٧) فى نسخة أخرى [والقوة] وهو تحريف.

(١٨) استجرت: حميت.

اسرائيل فيهم موسى وهارون عليها السلام فلئوا أيديهم من الغنيمة ورجعوا بغنيمتهم لم يستنقذ مما فى أيديهم شىء، فقالوا لموسى عليه السلام أغاروا علينا بنوا معد وهم قليل فكيف لو كانوا كثيرا وأنتم فينا فكيف لو لم تكونوا فينا فادع الله عليهم وكان الأنبياء عليهم السلام تفزع إلى الصلاة فصلى فقال اللهم إن بنى معد أغاروا على قومى ففعلوا وفعلوا وأن قومى أمرونى أن أدعو عليهم فقيل له لا تدع عليهم فإنهم عبادى وأنهم ينتهون إلى أداء أمرى وإنى أغفر لهم أول ما يستغفرونى قال يارب اجعلهم من أمتى قال نبيهم منهم قال يارب فاجعلنى منهم قال استقدمت واستأخروا.

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حديث المعراج فلما جاوزت موسى عليه السلام فى السماء السادسة بكى موسى، وقال يزعم بنو اسرائيل أنى أكرم ولد آدم على الله تعالى وهذا عبد أكرم على الله منى، ولو كان وحده هان ولكن الله تعالى قضى أن مع كل نبى تبعه من أمته ثم انطلق بى إلى السماء السابعة فإذا إبراهيم عليه السلام ملزق ظهره بالبيت المعمور ومعه تبعه من أمته فقال لى جبريل هذه منزلتك، ومنزلة أمتك، وهذا أبوك إبراهيم عليه السلام فقال تعالى:

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩)

فالحق هذه الأمة بإبراهيم عليه السلام، وضمهم فى الولاية جميعا ولم يدخل فيه بنو إسرائيل وهم ولد إبراهيم أيضا فبين فى هذا الحديث منزلتيها ودرجتيها وإنما أرى فى السماء الأنبياء عليهم السلام واتباعهم على درجاتهم وإبراهيم عليه السلام المقدم عليهم ووصف الله تعالى فى تنزيله الكريم شأن الأمتين، فوجدنا شأن بنى اسرائيل يجرى على سبيل

(١٩) آل عمران (٣/٦٨).

العدل وأساس الربوبية، وشأن هذه الأمة يجرى على سبيل الفضل، والألوهية، فظهرت فى بنى إسرائيل السياحة والرهبانية وعليهم فى شريعتهم الأغلال، والآصار(٢٠) وظهرت فى هذه الأمة السماحة، والصديقية، والشجاعة، والولاية، وسيوف الله تعالى فى أيديهم يقتلون أباق(٢١) عبيده ويردونهم إلى الله تعالى للرق والعبودة، وفك عنهم الأغلال، ووضع عنهم الآصار فصاروا فى حد الأمناء وجعلت شريعتهم أسمح الشرائع وأوسعها فهم فى عبودتهم فى صورة الخدم وبنوا إسرائيل فى عبودتهم فى صورة عبيد الغلة ألا ترى أنه لما خاطبهم تعالى قال:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (٢٢)

كما يقول الرجل لعبده أوف لى بهذه الغلة عند كل هلال أوف لك بالعتق فى سنة كذا ثم قال لهذه الأمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (٢٣)

فدعاهم بالكنية كنية باطنها منه وظاهرها مدحة من عليهم فى الباطن بالإيمان، ثم نسب ذلك إلى فعلهم فقال آمنوا فمدحهم بذلك فبتلك الكنية دعاهم ودعا أولئك فنسبهم إلى أبيهم فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (٢٤)

---

(٢٠) الآصار: جمع إصر وهو الذنب.

(٢١) أباق: جمع مفرده آبق أى هارب.

(٢٢) البقرة (٢/٤٠). عهد الله: هو طاعة أمره. راجع المعنى عند الطبرى (١/٥٥٧).

(٢٣) الخطاب هنا للمكلفين الذين آمنوا بالغيب.

(٢٤) البقرة (٢/٤٧). ويقصد بالعالمين أهل زمانهم وهذا من العام المراد به الخاص، وهو كثير فى القرآن الكريم.

أى عالمى زمانكم ولكل زمان عالم، وقال لهذه الأمة:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ [25] الآية.

ثم قال:

﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [26]

ثم قال:

﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ [26]

أى هو اختاركم ثم قال:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [26]

أى من ضيق:

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [26] .

ثم قال:

﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا ﴾ [26]

أى من قبل أن يخلقكم فى اللوح المحفوظ سماكم هكذا:

﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [27]

فهم شهداء الله تعالى للأنبياء عليهم السلام على الأمم يوم القيامة:

﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [27]

فاعتصموا بالله هو موليكم فنعم المولى ونعم النصير.

---

(٢٥) الحج (٢٢/٧٧).

(٢٦) الحج (٢٢/٧٨). اجتباكم: اختاركم واصطفاكم.

(٢٧) البقرة (٢/١٤٣).

فانظر إلى مخاطبة بنى إسرائيل فى أى صورة هى وانظر إلى مخاطبة هذه الأمة فى أى صورة هى يتبين لك أنهم فى صورة عبيد الغلة وهذه الأمة فى صورة عبيد الخدمة، وعبيد الخدمة أولى بالسيد من عبيد الغلة فساحت بنو إسرائيل بأبدانهم إلى الجبال فى مغاوز(٢٨) الدنيا عزلة بالأبدان من الخلق كى يصدقوا الله تعالى فى طلب ما عهد لهم ويوفوا بعهد الله عليهم، وساحت أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقلوبهم فى مفاوز الملكوت إلى خالق العرش عزلة بالقلوب عن هم النفوس، كى يصدقوا الله فى طلبه والوصول إليه فإن الله تعالى دعى الخلق إليه فقال:

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ (٢٩)

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (٣٠)

وقال الله تعالى فيما حكى عنه النبى صلى الله عليه وسلمعليه وسلم «إلىّ إلىّ يا أهل الموت والفناء لا إلى غيرى فإنى قد قضيت بالرحمة على نفسى، وأوجبت المغفرة لمن استغفرنى فأنا العفو أعفو عن صغير الذنوب، وكبيرها ولا أبالى» فلما أبطأت النفوس فى الإجابة قال:

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ (٣١)

فأهل الألتفات إلى الثواب والعقاب فى الحياء من الفرق إلى القدم(٣٢) بين يديه غدا لأن نفوسهم لم تسمح بالعبودة لربها إلا

---

(٢٨) مغاوز: جمع مغازة، وهى الصحراء، لا ماء فيها ولا حياة.

(٢٩) الشورى (٤٢/٤٧).

(٣٠) الأنفال (٨/٢٤).

(٣١) يونس (١٠/٢٥).

(٣٢) فى نسخة أخرى | القرن | وهو تحريف.

باستـرواح إلى الثـواب ، وهـرب (٣٣) مـن العذاب ، فهذه عبودة برشوة وعـربـون وليست عبودة الأنبياء ولا الصديقين ، ولا الأولياء ، عليهم السلام فجعل حظوظ بنى اسرائيل على قلوبهم فى دار الدنيا حقوقه وعهده وفى الآخرة جنـانـه ثوابا بالرعاية حقوقه ، والوفاء بعهده ، وحظوظ هذه الأمة على قلوبهـم فـى دار الـدنـيا جلاله ، وعظمته ، وسلطانه ، ومعرفة آلائه وفضله ، ورحمته وفى الآخرة قربه ورفع الحجاب ، فيما بينه وبينهم وقدمهم فى الدنيا خروجا وأخرنا وقدمنا فى الجنة دخولا وأخرهم .

وروى عـن رسـول الله صـلـى الله عليه وسلم أنه قال : «الجنة محرمة علـى الأنـبياء حتى أدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتى» فبهذه الأمة فتـح العبودة يوم الميثاق ، وبهذه الأمة يختتم العبودة يوم تصرم (٣٤) الدنيا وبهـذه الأمـة يـفـتـح باب الرحمة فيدخلون داره ثم ظهرت من معاملة بنى إسـرائـيـل ربهـم ومـن مـعـامـلـة هـذه الأمـة ربهـا ، مـادلت على نفوسهم وأخـلاقـهـم ومحـلـهـم مـن المـكـارم التى أعطيا ، والمواهب فكانت مكرمة إسـماعيل عليه السلام بيت الله الذى خلقه قبل خلق السموات والأرض فـكـانـت زبـدة بـيـضـاء ، إذ عرشه على الماء مبؤ (٣٥) الذكر هناك وخلق مـلـكين يسبحانه ، ويقدساته على الزبدة فأبيضت فهناك مظهره ، ومعلمه ، ومـبـوء ذكـره ومـوضـع تـقـديسه ، ولا سماء ، ولا أرض ، ولا خلق فولاه الله تعالى رفع قواعد بيته مع أبيه دون إسحاق عليهم السلام ، وجعل حجابته بـيـد ولـده فـهـم يحجبـون ، ويـأتون وانبط زمزم سقيا له ولوده من بعده ولجـمـيـع مـن أم الـبـيـت معظما وساق إليه عينا من عيون الجنة ففتح فيه ينبوعا ، وجـعـلـه مهبط رحمته فى كل يوم ، ومنه تنتشر على أهل الدنيا فيختص منها أهلها بمائة رحمة وعشرين لأهل الدنيا . ومكرمة إسحاق عليه

(٣٣) فى نسخة [والرهب] وهو تحريف من الناسخ .
(٣٤) تصرم : تنقطع علائقها .
(٣٥) مبوء : منزل ، وموضع .

السلام الصخرة التى إليها يجمع الخلق ويحاسبهم، وهى صخرة من الجنة عليها الأرضون السبعة، وهى رأس تلك الصخرة.

وأما المعاملة فإنه لما جاءت المحنتان من الله تعالى لهما فى وقتيهما برز مافى نفوسهم وبرز مالهم من الحظ فى الغيب عنده بالمحنة فإن السيد إذا كان له عبيد فإنما يتبين له حظوظ العبيد منه بمعاملته إياهم ويتبين جواهر نفوسهم بمعاملتهم إياه، وإنما كثر ولد إسحاق عليه السلام فى زمن يوسف عليه السلام بمصر بعدما جاز الله تعالى ليوسف عليه السلام مدائن مصر وأسكنه اياها وجعل بيده خزانتها ودخلها إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام فى ستة وسبعين نفسا(٣٦) من ولده وولد ولده، ونسلهم فأنمى الله تعالى عددهم وبارك فى ذريته، حتى خرجوا إلى البحر يوم غرق فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ، والذرية والنساء، وجاوز عددهم ألف ألف، فقال الله تعالى فيما يحكى عنهم:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ (٣٧)

فهذا قولهم بعد أن صيرهم ملوك مصر وأربابهاغير الله تعالى ما بهم فصاروا سخرة لآل فرعون يخدمونهم خدمة العبيد والإماء ومن عجز عن الخدمة لسنة وضع عليه الغلة فاستودى مساء كل يوم فإن أعطى وإلا غلت يمينه ويقتلون أبناءهم مخافة رؤيا فرعون أنه يولد منهم مولود يكون هلاك ملكه على يديه فبعث الله عز وجل موسى عليه السلام ورحمهم به فقال فى تنزيله الكريم:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ (٣٨) الآية.

(٣٦) فى نسخة أخرى [فى ستة وتسعين].

(٣٧) غافر (٣٤/٤٠).

(٣٨) القصص (٥/٢٨). راجع القرطبى (٢٤٩/١٣) وما بعدها والبيضاوى (٨٨/٢).

فجعل فيهم الأنبياء وبث فيهم الكتب وجعلهم أهل عبادة وجهد وميثاق وعهد وأنقذ الله بنى اسرائيل من ملكة فرعون وعذابه وسخرته بمبعث موسى عليه السلام، وغرق فرعون وجعل لهم فى البحر طريقا يبسا فلما جاوزوه قالوا يا موسى إن قلوبنا لا تطمئن إن فرعون غرق حتى أمر الله تعالى البحر، فلفظه فنظروا إليه فلما اطمأنوا وصاروا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه، وغرقوا فى النعمة رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم فقالوا: يا موسى، اجعل لنا إلها كما لهم آلهة حتى زجرهم موسى عليه السلام وقال:

﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٣٩)

أى عالمى زمانهم ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدسة لا التى كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون وكانت الأرض المقدسة فى أيدى الجبابرة قد غلبوا عليها فقالوا له أتريد أن تجعلنا لحمة للجبارين لو تركتنا فى يدى فرعون كان خيرا لنا قال:

﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ (٤٠) الآية.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ (٤١) الآية.

حتى دعا عليهم وسماهم فاسقين وبالحجر ينفجر منه اثنتا عشرة عينا إذا ضربه بعصاه فقالوا لو إن موسى انكر عصاه لمتنا عطشا فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إذا كان وقت الماء فكلم الحجر ولا تضربه بالعصى، حتى ينفجر منه الماء من العيون بكلمتك ثم سار موسى عليه

---

(٣٩) الأعراف (١٤٠/٧).

(٤٠) المائدة (٢١/٥). الأرض المقدسة: المقصود بها دمشق، وفلسطين، وبعض الأردن، وهذا هو المختار عند السيوطى فى الدر المنثور (٢٧٠/٢) ووافقه الطبرى فى جامع البيان (١٦٧/١٠).

(٤١) المائدة (٢٤/٥).

السلام إلى طور سيناء ليجيئهم بالتوراة فاتخذوا العجل فقال لهم السامرى هذا إلهكم وإله موسى فاطمأنوا إلى قوله ونهاهم هارون عليه السلام فقال: يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا: لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى فلم يتبع هارون ولم يطعه فى ترك العجل إلا اثنى عشر ألفا فيما روى فى الخبر وتهافت فى عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفى ألف فلما رجع موسى ألقى الألواح فرفع من التوراة ستة أجزاء وبقى جزء واحد، وهو الحلال، والحرام، وما يحتاجون إليه وأحرق العجل، وذراه فى البحر فشربوا من مائه حبا للعجل، فظهرت على شفاههم صفرة ورمت بطونهم فتابوا فلم تقبل توبتهم دون أن يقتلوا أنفسهم، فذلك قوله تعالى:

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (٤٢)

فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم على بعض من لدن طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى لا يسأل والد عن ولد ولا ولد عن والد ولا أخ عن أخيه كل من استقبله ضربه بسيفه وضربه الآخر بمثله حتى عج موسى عليه السلام إلى الله تعالى صارخا يا رباه قد فنيت بنو إسرائيل فرحمهم الله تعالى، فقبل توبة من بقى وجعل من قتل فى الشهداء ثم قالوا يا موسى أرنا الله جهرة فجاءت صاعقة فأحرقت من جمعهم أربعين ألفا فيما جاء فى الخبر ثم عرض عليهم ما فى التوراة ليقبلوها فأبوا وقالوا: لا نطيق هذا فنتق (٤٣) الله عليهم الجبل ونودوا منها:

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ (٤٤).

---

(٤٢) البقرة (٢/٥٤). تأمل الفرق بين التوبة عند بنى إسرائيل وبين التوبة عند المسلمين، فقد أبان ذلك لطف الله سبحانه بنا ورحمته ورضوانه، إذ أنه لا بد لتوبتهم من قتلهم أنفسهم أى يقتل بعضهم بعضا.

(٤٣) فشق الله عليهم الجبل [نسخة أخرى].

(٤٤) البقرة (٢/٦٣) و(٢/٩٣). راجع الدر المنثور للسيوطى (١/٧٥).

وإلا رميناكم بالجبل فسجدوا على حروف وجوههم ينظرون إلى الجبل ويقولون قبلنا قبلنا، ثم قيل لهم قد وصلتم إلى بيت المقدس:

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ (٤٥).

أى حط عنا بمنزلة قوله استغفر الله، جاء فى الخبر أنهم أمروا أن يدخلوا الباب سجدا على ركبهم فعلم الله تعالى منهم ضيق أخلاقهم وأنهم لن يدخلوها سجداً فلما صاروا إلى الباب طوطىء لهم الباب حتى لم يمكنهم أن يدخلوها قياما فكزت (٤٦) نفوسهم، والتوت وانكشفت سوء أخلاقهم، فاستلقوا على ظهورهم زحفا على الاستاه (٤٧) وهم يقولون: «حنطة حنطة هطى سمقاثا» سخرية واستخفافا بما أعطوا قال الله تعالى:

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ (٤٨) الآية.

وكان موسى عليه السلام شديد الحياء ستيرا، فقالوا إنه آدر، فلما اغتسل وضع على الحجر ثوبه فعدى الحجر بثوبه إلى مجالس بنى إسرائيل، وموسى على أثره عريان، وهو يقول يا حجر ثوبى فذلك قوله تعالى:

﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ (٤٩)

---

(٤٥) البقرة (٢/٥٨). حطة: من حطت: أى حُطَّ عنا ذنوبنا. انظر الطبرى (٢/١٠٧) والقرطبى (١/٤١٠).

(٤٦) كزت نفوسهم: بالفتح أى انقبضت ويبست، والكزازة بالضم داء يأخذ من شدة البرد، وقد كز الرجل بضم الكاف، فهو مكزوز إذا انقبض من البرد. راجع مختار الصحاح ص٥٦٩ بتصرف.

(٤٧) الاستاه: هو الإست. راجع معنى ذلك فى الدر المنثور (١/٧١) والقرطبى (١/٤١١).

(٤٨) البقرة (٢/٥٩). أى قيل لهم: قولوا: حطة، فقالوا: حطًا سمقانا، يعنى حطة حمراء. من الدر المنثور للسيوطى (١/٧١).

(٤٩) الأحزاب (٣٣/٦٩). انظر القصة فى مختصر ابن كثير للصابونى (٣/١١٦).

ثم لما مات هارون قالوا له أنت قتلت هارون وحسدته حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه ثم سألوه أن يكون ما تقدم من أموالنا نعلم تقبلها فجعلت نار تجيء من السماء فتقبل قربانهم ثم سألوه أن يبين لنا كفارات ذنوبنا فى الدنيا فكان من أذنب ذنبا أصبح وعلى بابه مكتوب عملت كذا وكفارته قطع عضو من أعضائك يسميه له ومن أصابه بول لم يطهر حتى يقرضه ويزيل جلدته من بدنه، ثم بدلوا التوراة من بعده، وافتروا على الله، وكتبوا بأيديهم، ليشتروا به من الدنيا عرضا. ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبيائهم عليهم السلام، فهذه معاملتهم مع الله تعالى، وسيرتهم فى دينهم قد انكشف لنا عن جواهرهم واخلاقهم وحظوظهم عن ربهم، بما أنزل الله علينا من أخبارهم ولمن كان له فهم. وأما ولد إسماعيل عليه السلام فجعل فيهم السخاء هم أولوا الأخلاق السنية والمكارم ومنحهم من خزائنه تلك الأخلاق الطاهرة التى عيش أهلها الجنان فإن صاحب الأخلاق قلبه فى راحة لأن نفسه طيبة كريمة، وصاحب الضيق قلبه معذب لأن نفسه شكسة كزة(٥٠) يابسة فقيرة هذا من قبل أن تأتيهم الهداية فلما جاءتهم الهداية من الله تعالى وزد على قلوب بنى اسرائيل نور التوحيد وروحه وتركوا مع مجاهدة نفس كزة يابسة ضيقة وورد على قلوب هذه الأمة نور التوحيد، وروحه، ونور اليقين، وروحه، فقلوب بنى إسرائيل مؤيدة بالتوحيد معذبة بكزازة النفس، وضيقها، وقلوب هذه الأمة مؤيدة بالتوحيد مستريحة بنور اليقين وهو قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ (٥١).

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ ﴾ (٥٢).

(٥٠) وأولى الأخلاق [نسخة أخرى].
(٥١) البقرة (١٢٠/٢).
(٥٢) آل عمران (٧٣/٣).

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ (٥٣).
﴿ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ (٥٤).
﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (٥٥)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أعطيت أمة من اليقين مثل ما أعطيت أمتى ومثل من أعطى اليقين ومن حرم ذلك كمثل شجرة لها غصنان، والسقيا وأحد فلما جرى الماء إلى أحد الغصنين، تحول طيبا بإذن الله تعالى، وجرى فى الغصن الآخر فتحول ثمارا فمن الثمار حلو وحامض، ومدخول، وعفن، ومر فمنه ما ينتفع به ومنه ما ينفى فيرمى به والطيب يطيب به كل شىء من المأكول، والمشروب والملبوس والمركوب والنكوح».

فهذه الأمة نفوسها طيبة أيدت بروح اليقين فخرجت الأعمال طيبة فيها الهناءة والمراءة يهنأ بها الحق ويستمرئ بها فولد اسماعيل عليه السلام لم يزالوا مذكورين بالسماحة والأخلاق السنية يطعمون الطعام، ويفكون العانى، ويكفلون الأيتام، ويرعون الذمام، وهم فى شركهم ولم يسلط عليهم أحد فيسبيهم ويستسخرهم ولا صاروا ملكا لأحد من الفراعنة حتى أكرمهم الله تعالى بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، وصاغ محمدا صلى الله عليه وسلم صياغة برز على الأنبياء والرسل فصار سيدا لجميع ولد آدم عليه السلام، وأنزل عليه كتابا مهيمنا على الكتب، أجمل فيه التوراة والإنجيل، واختصر له الكلم، وزاده المفصل، وفاتحة الكتاب، وآية الكرسى، وخاتمة سورة البقرة من كنزه الذى ادخره لهذه الأمة،

---

(٥٣) آل عمران (٣/٧٣).

(٥٤) الفتح (٤٨/٢٦) أى بكلمة التقوى، وهى قول: لا إله إلا الله. راجع غريب القرآن ص٤١٣.

(٥٥) آل عمران (٣/٧٤).

ووصفهم فى التوراة بمحاسنهم لبنى اسرائيل من قبل أن يخلقهم بآلاف من السنين، ولعيسى عليه السلام ولقومه فى الإنجيل حتى روى فى الحديث «أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يسمون فى التوراة صفوة الرحمن، وفى الإنجيل حكماء علماء أبرار اتقياء كأنهم من الفقه أنبياء».

وقال عز وجل فى القرآن الكريم:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٥٦) الآية.

تصديقا لما فى التوراة صفوة الرحمن، وقال:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٥٧).

وقال عز وجل:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (٥٨).

أى عدلا لتكونوا شهداء على الناس أى شهداء للرسل بالبلاغ عندما تجحد الأمم تبليغ الرسل عليهم السلام رسالات الله تعالى، فتشهد هذه الأمة لنوح عليه السلام فمن دونه رسولا، رسولا أنهم أدوا الرسالة فيحكم الله تعالى بشهادتهم على سائر الأمم، ويتخلص الرسل عليهم السلام من أمانة الرسالة وذلك بعدما يعد لهم محمد صلى الله عليه وسلم فذلك قوله تعالى:

﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٥٩).

فتكون شهادة أمة محمد صلى الله عليه وسلم يومئذ مقبولة على جميع

---

(٥٦) فاطر (٣٥/٣٢).
(٥٧) آل عمران (٣/١١٠).
(٥٨) البقرة (٢/١٤٣).
(٥٩) البقرة (٢/١٤٣).

الأمم لجميع الأنبياء عليهم السلام ثم أعطاهم سيفه ليقتلوا به أعداءه ولا يقتل أعداءه إلا أولياؤه ثم قال:

﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٠)

فهم أولياء الله، والله تعالى وليهم وهم أهل حميته وأنصاره فدعوا إلى الحرب فوضعوا السيوف على عواتقهم وربطوا الحجر على بطونهم من الجوع، والخرق على ظهورهم من العرى، وقد هجروا أوطانهم، ومقرهم، وحرم الله تعالى عداوة فى الله لأهل الشرك وخرجوا من ديارهم وأموالهم ونابذوا أرحامهم فى الله حتى كان الرجل يقتل أباه وأخاه فكان أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ممن قتل أباه فأنزل الله تعالى:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (٦١)

ثم اثنى عليهم فقال:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (٦٢) الآية.

وقالوا عندما استشارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء من أمر الحرب مرنا بما شئت، وسر بنا حيث شئت، فلو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا موضع بعيد ذكروه فوالله لا نقول لكفوالله لا نقول لك كما قالت بنوا إسرائيل:

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ (٦٣) الآية.

وافتتح خيبر وغنم الغنائم، فقسم فى المهاجرين ولم يقسم فى الأنصار

---

(٦٠) آل عمران (٣/٦٨).
(٦١) سورة المجادلة: الآية رقم: ٢٢.
(٦٢) المجادلة (٥٨/٢٢).
(٦٣) المائدة (٥/٢٤).

لأنهم فى أموالهم، والمهاجرون خلفوا أموالهم بمكة، وكانوا فقراء فسمحت الأنصار بذلك وكانوا حين قدموا المدينة ناصفوهم الأموال، وواسوهم بالكثير حتى كان الرجل يطلق أحدى امرأتيه ليتزوجها أخوه المهاجر هذا كله لحب الله تعالى وحب طاعته وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فانظر أى قلوب هذه، وأى شيء فى هذه القلوب من منن الله تعالى من خزائن فضله. وانظر أى نفوس هذه شيمها، وانظر أى أخلاق لهذه النفوس. اللهم إنا نتقرب إليك بحبهم فإنهم أحبوك ولم يحبوك حتى أحببتهم فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك ونحن لم نصل إلى حبهم فيك إلا بحظنا منك فتمم لنا ذلك حتى نلقاك به يا ارحم الراحمين.

وأثنى الله تعالى على الأنصار رضوان الله عليهم أجمعين ومدح سرائرهم فقال عز وجل:

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا ﴾ (٦٤)

أى لا يجدون ضيقا ولا بخلا ولا نفاسة فيما أوتى المهاجرون من غنيمة خيبر، ولم يؤت الأنصار،

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٦٥).

يخبر أنه كان بالأنصار فقر، وحاجة إلى تلك الغنائم فآثروا المهاجرين على أنفسهم ثم أخبر أن هذا من منة الله تعالى على الأنصار أن أمات منهم الحرص، وهو الشح فقال عز من قائل:

(٦٤)،(٦٥) الحشر (٩/٥٩). راجع الطبرى (٢٢/١٨) والقرطبى (١٩/١٨) وما بعدها، والتفسير الكبير (٢٨٦/٢٩).

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٦٦)

وإنما أمات منهم الحرص بما أعطاهم من اليقين وما يصنع من احتشى قلبه بنور الله تعالى ويرى قربة الله منه بظلمات الدنيا وحطامها، ولهوها، وسار بها موسى عليه السلام، فما تلكأ منهم (٦٧) شاب ولا شيخ حتى فتح الله عليهم من غير أن يمسهم سوء.

ثم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتعث الله تعالى لهذا الدين أئمة صديقين خلفاء الأنبياء عليهم السلام وأوتاد الأرض يقومون بالحق وبه يعدلون فتفاوت الأمران والشأنان شأن بنى اسرائيل وشأن هذه الأمة. عن سالم بن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم قال «بينما رجلان جالسان إذ قال أحدهما: لقد رأيت البارحة كل نبىّ فى الأرض، وقال الآخر: هات قال: رأيت كل نبى معه أربعة مصابيح: مصباح من بين يديه، ومصباح من خلفه، ومصباح عن يمينه، ومصباح عن يساره، ومع كل صاحب له مصباح ثم رأيت رجلا قام أضاءت له الأرض وكل شعرة فى رأسه مصباح، ومع كل صاحب له أربعة مصابيح: مصباح من بين يديه، ومصباح من خلفه، ومصباح عن يمينه، ومصباح عن يساره، فقلت من هذا؟ قالوا محمد بن عبد الله قال: كعب رضى الله عنه ما هذا الحديث الذى تحدث به؟ قال رؤيا رأيتها البارحة، قال: والذى بعث محمدا بالحق إنها فى كتاب الله كما رأيت»، فبرز ولد اسماعيل عليه السلام وهم العرب بما منحهم الله تعالى من أخلاقه.

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن لله مائة وسبعة عشر خلقا من أتى بواحدة منها دخل الجنة».

---

(٦٦) الحشر (٥٩/٩)، والتغابن (٦٤/١٦).
الشح: الظلم، ولكن ليس الشح أن تبخل بما فى يدك.
(٦٧) بهم شاب [نسخة أخرى].

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الأخلاق في الخزائن فإذا أراد الله بعبد خيرا منحة خلقا» ألا يرى أن الرجل المفرط في دينه المضيع لحقوقه يموت وقد كان صاحب خلق من هذه الأخلاق فتنطلق السنة العامة بالثناء عليه والمؤمنون شهداء الله في الأرض. كذلك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أنس رضي الله عنه قال: مات رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه خير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت، ثم مات آخر فأثنى عليه شر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت، فقيل له يا رسول الله قلت لذلك وجبت وقلت لهذا وجبت، قال: «إنكم شهداء الله في الأرض» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٦٨)

إذ مات صاحب التخليط انطلقت ألسنة المؤمنين بالثناء عليه فيقال كان سخي النفس، فيقبل الله شهادتهم عليه، ويدخله الجنة بسخاوته.

ويموت أحدهم فيقال كان لينا ويقال كان رحيما، ويقال كان حسن الخلق، ويقال كان رزينا، وكان عطوفا أوبرا أومتوددا، وكان مواتيا منبسطا، كان سهلا كريما، كان عفوا حمولا، كان عفيفا كان شكورا كان شجاعا صارما، فهذه أخلاق الله تعالى أكثرها مما تسمى به والذى لم يتسم به فهو داخل فيما تسمى به لأن اللين، والرزانة من الحلم، والرحمة والعفاف من النزاهة، والطهارة فمن منحه الله تعالى واحدة من هذه الأخلاق يعطيه نور ذلك الاسم الذى تسمى به ربنا عز وجل فيشرق نوره على قلبه وفي صدره فيصير لنفسه بذلك الخلق بصيرة فيعتادها، ويتخلق بها فحقيق عليه إذا أكرمه بذلك أن يهب له مساويه

(٦٨) البقرة (٢/١٤٣).

ويستره بمغفرته ويدخله الجنة فإنه ما أعطاه ذلك حتى أوجب له ذلك فى غيبه يحقق ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «بينما رجل لم يعمل خيرا قط فرفع غصن شوكة من الطريق، وقال لعل ماراً يمر به فيؤذيه فغفر الله له».

وإنما غفر له بالرحمة التى فى قلبه وبالعطف الذى عطف على خلقه، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بينما رجل حوسب فلم توجد له حسنة فقال الله تعالى: اذكر شيئا كنت تفعله فى الدنيا، قال العبد لا أذكر شيئا إلا أنى كنت أسامح الناس، وآمر غلمانى أن يسامحوهم فى اقتضاء مالى منهم فيقول الله تعالى: فأنا أحق اليوم أن اسامحك».

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يحب كل عبد طلق سهل لين هين وحرمه على النار.

وقال الله تعالى: الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء. وقال الجنة دار الاسخياء وما جبل الله قط ولياً له إلا على السخاء، ولجاهل سخى أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل.

وقال صلى الله عليه وسلم: «حسن الخلق ذهب بخير الدارين ويدرك به الرجل درجة الصائم القائم» فهذه أخلاق العرب منحها الله تعالى إياهم وطهرهم بالتوحيد، وطيبهم باليقين، فعبدوا الله كأنهم يرونه فشرع الله تعالى لهم أوسع الشرائع وأسمحها، وستر عليهم ذنوبهم، وجعل خروجهم منها بالندم والاستغفار، وقال لبنى اسرائيل عاقبوا أبدانكم بذنوبكم فاقطعوا منها كذا، وتجدونه مكتوبا على أبوابكم. وقال لنا توبوا إلى الله أى ارجعوا إلى بقلوبكم فيما بينى وبينكم، وقال لهم قولوا حطة

أى حط عنا وقال لنا قولوا اغفر لنا فجوهر هذا الكلام غير ذلك وإنما صار هكذا، الآن كلام كل قوم عند ربهم على ما هم عليه فبنوا إسرائيل لم يكن عندهم من اليقين ما عند هذه الأمة، فلما أذنبوا قيل لهم قولوا حطة وهذه الأمة بفضل يقينها استحيت من الله تعالى من الذنب الذى يعمله، وكأنه رأى نفسه خارجا من ستر الله عريانا فأعطى الكلمة التى تكون دواء لما حل به فقيل له قل اغفر، فمن استحيا من ذنبه ورأى نفسه عاريا بين يدى الله تعالى، قيل له قل اغفر ومن عجز عن روية هذا قيل له قل حطة، وصارت صدقاتهم عودا بها على فقرائهم فطابت نفوسهم بما رأوا على فقرائهم من فضلهم وسكنت قلوبهم على الصدقات أنها تصير إلى الله تعالى قال الله تعالى:

﴿ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (٦٩)

وقال عليه السلام «إن الصدقة لتقع فى يد الله من قبل أن يأخذها السائل» فرزقهم الله تعالى من اليقين ما إذا قبل لهم الشىء سكنت قلوبهم فكان أحدهم يمشى بصدقته إلى السائل لا يكلها إلى غيره ويقبلها من قبل أن يضعها فى يده ليقينهم بمن يأخذها منهم.

وقيل: إن قلوب هذه الأمة تأوى إلى ذكر الله، كما تحن الحمامة إلى وكرها ولهى أسرع إلى الذكر من ظمأ الأبل يوم وردها إلى الماء. وأمرت بنو اسرائيل إن يضعوا فى أرديتهم خيوطا خضرا كى إذا نظروا إليها ذكروا السماء فإذا ذكروا السماء ذكروا العرش فيذكرون الله تعالى، ويوم الوفادة حيث اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا لميقات الله تعالى. فلما صاروا إلى الجبل أعطاهم الله تعالى ثلاث خصال فيما روى فى الخبر فقال «أعطيكم الحفظ لتقرؤها عن قلوبكم. فقالوا: إنا نحب أن نقرأ التوراة نظرا فقال ذلك لأمة أحمد صلى الله عليه وسلم قال

(٦٩) سورة التوبة: الآية رقم: ١٠٤. أى أن غير العباد لا تقبل منهم التوبة، والعبودية تقتضى التزام منهج الحق سبحانه وتعالى.

وأعطيكم السكينة فى قلوبكم فقالوا لا نقدر على حملها، فاجعلها لنا فى تابوت، فكلمنا منها إذا احتجنا قال فذلك لأمة أحمد قال وأعطيكم أن تصلوا من الأرض حيث أدركتم قالوا لا نحب أن يكون ذلك إلا فى كنائسنا، قال فذلك لأمة أحمد» فكان نوف البكالى إذا حدث بهذا الحديث قال أحمدوا ربكم الذى شهد غيبتكم وأخذ بحظكم وجعل وفادة بنى اسرائيل لكم، فجعل الله تعالى السكينة فى قلوب المؤمنين، وجعل لهم الأرض مسجدا وطهورا وقرن الحفظ بالعقول منهم ليقرؤا عن قلوبهم، وقال صلى الله عليه وسلم «أعطيت أمتى ثلاثا لم يعط أحد: صفوف الصلاة وتحية أهل الجنة وآمين» إلا ما أعطى موسى وهارون من قوله آمين وكان من قبلهم يتفرقون فى الصلاة وجوه بعضهم إلى بعض وقبلتهم إلى الصخرة، وإذا لقيهم لقى أحدهم أخاه انحنى له بدل السلام يخضع له وفيه مؤنة يريد بذلك أمانة فأعطينا تحية أهل الجنة أن يقول أحدهم بلسانه فيؤمنه وجعل سيماء عبودتنا يوم القيامة على وجوههم وأطرافهم غرا من السجود محجلين من الوضوء.

وقد سجدت الأمم من قبلهم فلم يظهر على جباههم ولا على أطرافهم، وتلك بشارة أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى الموقف وبهم يعرفون وهم أهل الله وخاصته قيل يا رسول الله من أهل الجنة قال أهل القرآن، ومازال موسى عليه السلام يقول: «يا رب إنى أجد فى الألواح أمة لهم كذا ويعملون كذا فاجعلهم أمتى» ويقول الله تعالى: هم أمة أحمد، حتى قال فيما روى «يا ليتنى كنت معهم غبطة بهم». وفى الخبر عن ابن عباس رضى الله عنهما «أن موسى عليه السلام اشتاق إلى رويتهم فقال الله تعالى له بطور سيناء «أتحب أن أسمعك أصواتهم؟ فقال: نعم يا رب فنادى يا أمة أحمد فأجابوه من الأصلاب، لبيك اللهم لبيك، فقال أعطيتكم قبل أن تسألونى، وأجبتكم قبل أن تدعونى، ورحمتكم قبل أن تعصونى، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى، من لقينى

منكم يشهد أن لا إله إلا أنا وأن محمدا عبدى ورسولى أدخلته جنتى» فذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (٧٠)

يمن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أى لم تكن يا محمد بجانب الطور إذ نادينا أمتك، ولكن كانت منى رحمة عليهم قبل أن أخلقهم، فالعرب رأس الأمة وسابقها إلى المكارم قال الله تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (٧١)

وقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ (٧٢)

وقال: « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » أى شرف لك ولقومك حيث خاطبتهم بالوحى وسوف تسألون عن شكر هذا الشرف، والعجم وإن شاركوا العرب فى مناقب هذه الأمة لكن السبق للعرب وتلك الأخلاق غير موجودة فى العجم إلا فى الواحد بعد الواحد تخلقا لا طبعا.

وبلغنا أن كنانة كان إذا لم يجد من يأكل معه وضع بين يديه حجرا فأكل لقمة وألقى إليه لقمة أنفة أن يأكل وحده، وكانت مائدة عبد المطلب موضوعة، وكان يرفّع منها للطير والسباع فى رؤس الجبال وكان سوط أدبه معلقا حيث يراه السفيه يؤدبهم بذلك، عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى دعوت العرب فقلت اللهم من لقيك منهم مؤمنا موقنا مصدقا بلقائك فاغفر له أيام حياته وهى دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام، ولواء الحميد بيدى يوم القيامة ومن أقرب الناس إلى لوائى يومئذ العرب» ومما يحقق ما قلنا قول

---

(٧٠) القصص (٢٨/٤٦).
(٧١) سورة آل عمران. الآية رقم ١٦٤.
(٧٢) إبراهيم (١٤/٤).

الله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [٧٣] الآية.

ثم قال :

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ﴾ [٧٤].

ثم قال :

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [٧٥].

فهم الرأس ونحن منهم لأنهم منا والفضل لهم بما منحهم الله تعالى من الأخلاق لا بمجرد اللسان فمن لم يوجد فيهم بهذه الأخلاق فهو هجين، والهجنة ضائرة جدا[٧٦] حتى فى الخيل فكيف فى الآدميين.

وبلغنا أن سليمان بن داود عليه السلام أرسل الخيل من صنعاء إلى تذمر فتقدم فرسان من الخيل فقال المسبوق للسابق لولا هجنة فى أدركتنى من ثمانى عشرة جدة ما سبقتنى[٧٧].

---

(٧٣) الجمعة (٢/٦٢).
(٧٤) الجمعة (٢/٦٢).
(٧٥) الحديد (٢١/٥٧).
(٧٦) من الضير: وهو الضرر والأذى.
(٧٧) أى ما كان لك أن تسبقنى.

[الأصل الثامن والستون فى الأمر بالعقد بالأنامل فى الذكر]

عن حميضة بنت ياسر عن جدتها يسيرة رضوان الله عليهن أخبرتها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهن أن يراعين الشمس، بالتسبيح، والتقديس، والتهليل وأن يعقدن بالأنامل فإنهن مسئولات ومستنطقات (١). وعن حميضة عن جدتها يسيرة رضى الله عنها قالت دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نسبح بالسبح فقال «ألقين أودعن عنكن وعليكن بالأنامل فسبحن بها فإنهن مسئولات مستنطقات».

مرعاة الشمس، مراقبة وقت طلوعها وغروبها وهو قوله تعالى:

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٢).

والتقديس وهو التنزيه وهو التكبير والتهليل هو التوحيد، والعقد بالأنامل من أجل أنها تنطق وتشهد لصاحبها أما المؤمن فتنطق عنه بخير وتصمت عن السوء سترا من الله تعالى عليه، وأما الكافر فتنطق عنه بالسوء وتصمت عن محاسنه لأنه لغير الله فهو هباء منثور.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الدعوات ـ باب فى فضل التسبيح والتهليل والتقديس (٥٧١/٥)، وقال أبوعيسى: هذا حديث غريب، وأخرجه أبوداود فى سننه ـ كتاب الصلاة ـ باب التسبيح بالحصى (٨١/٢)، وابن حبان فى صحيحه ـ كتاب الأذكار ـ باب فضل التسبيح والتهليل والتحميد ص٥٧٩، وأحمد في مسنده (١٧٠/٦)، والحاكم فى المستدرك ـ كتاب الدعاء ـ باب أمر العقد بالأنامل والتسبيح (٥٤٧/١).

(٢) الأحزاب (٤٢/٣٣). الأصيل: هو ما بين وقت العصر إلى الليل.

قال الله تعالى:

﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم ﴾ (٣).

كنى بالجلود عن الفروج

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾

رجعوا باللوم على الفروج لأن الأمر فيه أشد والعار أكثر ثم بين بقوله ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾

الآيات إنها تشهد على من لم يعرف الله فأما المؤمن، فهو يعلم أن الله تعالى مطلع عليه فيتوب ويستغفر وإنما يعامل المشرك بمثل هذه الأشياء فإنه لا يعرف الله تعالى معرفة الموحدين، بل معرفة المشركين، ومعرفة المشركين معرفة الفطرة فليس لأحد أن ينكره، ومعرفة المؤمنين معرفة التوحيد والتنزيه.

قال الله تعالى:

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (٤):

وقال عز من قائل:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ (٥) الآيات إلى قوله:

﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (٥).

سحرتهم أهواؤهم وانقلبت بهم عن الله تعالى منكوسين لم يمن الله تعالى عليهم بنور التوحيد ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

---

(٣) فصلت (٤١/٢٠). الجلود: كناية عن الفروج، وقد اختار هذا التفسير الفراء والسدى، ونقله عنهما الطبرى (٢٤/٦٨).

(٤) يوسف (١٢/١٠٦).

(٥) المؤمنون (٢٣/٨٤).

[الأصل التاسع والستون فى أن حق المؤمن على المؤمن ست خصال]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى يفرغ من أمرها فله قيراطان أحدهما وأصغرهما مثل أحد»(١). فالقيراط سدس المثقال فيما نرى أنه كان عند القوم فى ذلك الزمان وقد تغير بناحيتنا فى عصرنا.

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن للمسلم على المسلم ست خصال: يجيبه إذا دعاه، ويسلم عليه إذا لقيه، ويعود إذا مرض، ويصلى عليه إذا مات، وينصحه إذا استنصحه، ويشمته إذا عطس».

فذكر القيراط بعملك أنه إذا صلى عليه فقد قضى سدس حقه وأما القيراط الآخرة بدفنه أوانتظاره حتى يدفن فذاك من النصيحة له وهى إحدى الخصال الست، ومن النصيحة أن يكون فى المشهد والمغيب على حالة واحدة.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه -كتاب الجنائز- باب فضل اتباع الجنائز (٣/١٩٢)، وأخرجه مسلم فى صحيحه -كتاب الجنائز- باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها (١٣/١٧)، وأخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الجنائز- باب ما جاء فى فضل الصلاة على الجنازة (٣/٣٤٩). وقال أبوعيسى: حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائى فى سننه -كتاب الجنائز- باب ثواب من صلى على جنازة (٤/٧٦)، وأبوداود فى سننه -كتاب الجنائز- باب فضل الصلاة على الجنائز وتشييعها (٣/٢٠٢)، وابن ماجة فى سننه -كتاب الجنائز- باب ما جاء فى ثواب من صلى على جنازة ومن انتظر وقتها (١/٤٩١)، وأحمد فى المسند (٢/٢،٣،٣١،١٤٤).

[الأصل السبعون في فضل الشهيد وكرامته على الله عز وجل]

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا جابر مالي أراك منكسراً؟ قلت يا رسول الله استشهد أبي وعليه دين وترك عيالا ودينا. قال صلى الله عليه وسلم: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك قلت بلى يا رسول الله. قال ما كلم الله أحد قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحيا أباك فكلمه كفاحا فقال تعالى: ياعبيد تمن على أعطيك، قال يا رب، من وراء حجاب، وإنه أحيأ أباك فكلمه كفاحا فقال تعالى: «ياعبدي تمنّ على أعطيك» قال يا رب، تحيينى فأقتل فيك قال الله تعالى: «سبق مني أنهم إليها لا يرجعون»(١) ونزلت:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٢).

كفاحا أي وجاها وهو كقوله شفاها إلا أن الشفاه للمخلوقين، والكفاح له غير موصوف بالأدوات، وفيه ما يدل على أن قوله:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ (٣)

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك- كتاب معرفة الصحابة -باب ذكر مناقب عبدالله بن عمرو بن حرام (٣/٣٠٣) وقال الحاكم: حديث صحيح، وأخرجه الترمذي في سننه -كتاب تفسير القرآن- باب تفسير سورة آل عمران (٥/٢٣٠)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأخرجه ابن ماجة في سننه -في المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية (١/٦٨).

(٢) سورة آل عمران. الآية رقم ١٦٩.

(٣) الشورى (٤٢/٥١). وحيا: في المنام، أو من وراء حجاب مثلما كلم موسى عليه السلام، أو يرسل رسولاً: أي ملكاً وهو جبريل. الطبري (٢٥/٢٨).

أن هذا فى الدنيا . أما فى الآخرة فلاهل الجنان الحظ من الكلام كفاحا ، لما بذل نفسه لله تعالى ساعة فاز بهذه الدرجة فكيف بالصديقين الذين بذلوا نفوسهم عمرا وتمنيه أن يحيى لأنه وجد لذة بذله لنفسه حين قتل وإنما بذل نفسا خاطئة قد تدنست بالذنوب ، فأحب أن يبذلها ثانية طاهرة .

[الأصل الحادى والسبعون فى بيان المنافات بين اللعان والصديق]

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء»(١) اللعان متعسف لأن اللعنة مستأصلة فإن أجيب إلى ذلك فقد أهلك وإن لم يجب فقد عمل عمله من الإفراط والتعسف فهو جائر والجائر لا شهادة له. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون اللعانون شهداء لما عندهم من الإحته(٢) والعداوة والجور(٣) ولا يكونون شفعاء، لأن قلوبهم خالية من الرحمة. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة والذى نفسى بيده أحدكم حتى يرحم العامة كما يرحم أحدكم خويصته» عن عائشة رضى الله عنها قالت: «سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال يا أبا بكر: لعانين وصديقين كلا ورب الكعبة» فأعتق أبو بكر يومئذ بعض رقيقه وجاء إليه فقال لا أعود إليه يا رسول الله.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه- كتاب البر والصلة- باب من لعنه النبى صلى الله عليه وسلم أو سبه (١٦/١٥٠)، وأبو داود فى سننه- كتاب الأدب- باب فى اللعن (٤/٢٧٨)، وأحمد فى مسنده من حديث ابن الدرداء (٦/٤٤٨).

(٢) الإحنة: الحقد، وتجمع على (إحن).

(٣) الجور: الظلم.

[الأصل الثانى والسبعون فى الذكر الخفى]

عن حنظله الأسيدى (١) وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقينى أبو بكر رضى الله عنه فقال كيف أنت يا حنظله، قلت: نافق حنظلة يا أبا بكر قال: سبحان الله ما تقول قلت نافق حنظلة قال مم ذاك؟ قلت نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا رأى عين أو كأنا نراهما، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد، والضيعات ففزع أبو بكر فقال: والله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كيف أنت يا حنظلة قلت نافق حنظله يا رسول الله قال مم ذاك قلت نكون عندك يا رسول الله فتذكرنا بالجنة، والنار حتى كأنا رأى عين حتى إذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والاولاد والضيعات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذى نفسى بيده إنكم لو تدومون على ما تكونون عندى فى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وطرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» (٣).

---

(١) فى نسخة أخرى [الأسدى].

(٢) عافس: لاعب، وغشى.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه -كتاب التوبة- باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الأخرة (٦٦/١٧)، وأخرجه الترمذى فى سننه -كتاب صفة القيامة- (٦٦٦/٤)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الزهد- باب المداومة على العمل (١٤١٦/٢)، وأخرجه أحمد فى مسنده (٣٠٤/٢)، (١٧٥/٣)، وأورده الهيثمى فى مجمع=

الذكر المذهل للنفوس إنما يدوم ساعة ثم ينقطع، ولولا ذاك لما انتفع بالعيش والناس فى الذكر على طبقات:؛ فمنهم من يدوم له ذكره فى وقت الذكر ثم تعلوه غفلة حتى يقع فى التخليط وهو الظالم، ومنهم من يدوم له ذكره فى وقت الذكر، ثم تعلوه معرفة بسعة رحمة الله وحسن معاملته مع عباده فتطيب نفسه بذلك فيصل إلى معاشه وهو المقتصد على سبيل الاستقامة.

وأما أهل اليقين وهم السابقون المقربون جاوزوا هذه الخطة، ولهم درجات: فأولها الخشية يمتنع بها من جميع ما كره الله تعالى دق أوجل والخشية من القربة والعلم بالله فإذا علم لزمه خوف العظمة لا خوف العقاب، وإذا كان الخوف لازما للقلب غشاه بالمحبة فيكون بالخوف معتصما مما كره وبالخشبة وبالمحبة منبسطا فى أموره إذ لوترك مع الخوف لانقبض وعجز عن كثير من أموره ولو ترك مع المحبة لاستبد وتعدى لكنه لطف له فجعل الخوف بطانته، والمحبة طهارته، حتى يستقيم به قلبه ثم يرقيه إلى مرتبة أخرى وهى الهيبة والأنس فالهيبة من جلاله والأنس من جماله فإذا نظر إلى جلاله هاب وانقبض ولو ترك هكذا لصار عاجزا فى جميع أموره كجثة بلا روح، وإذا نظر إلى جماله امتلأ كل عرق منه فرحا وسرورا ولذة، ونعيا لإمتلاء قلبه ولو ترك هكذا أداه إلى التعدى والإفراط لكنه لطف له فجعل الهيبة شعاره والأنس دثاره، حتى يستقيم به قلبه فهو عبد ظاهره الأنس بالله تعالى وباطنه الهيبة من الله تعالى ثم يرقيه إلى مرتبة أخرى وهى مرتبة الانفراد بالله قربه القربة العظمى وأدناه ومكن له بين يديه ونقاء وفتح له الطريق إلى وحدانيته فهو ناظر إلى فردانيته فأحياه الله تعالى به واستعمله فبه ينطق وبه يعقل وبه يعلم وبه يعمل وقد جاوز مقام الهيبة والأنس إلى مقام الأمناء

= الزوائد - كتاب الزهد - باب ساعة وساعة (١٠/٣٠٨) من رواية أنس وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

ويصير سيد الأولياء والعارفين وأمان أهل الأرض ومنظر أهل السماء، وخاصة الله تعالى وموضع نظره وموضع سره وهو سوط الله فى خلقه يؤدب به عباده وبه يحيى القلوب الميتة وبه يرحم أهل الأرض وبه يمطر ويرزق ويدفع عنهم البلاء مفتاح الهدى وسراج الأرض، وهو شفاء الأدواء، وإمام الأطباء، كلامه قيد القلوب، ونظره شفاء النفوس، وإقباله قهر الأهواء، فهو ربيع يزهر بنوره وخريف يجتنى ثماره وكهف يلجأ إليه ومعدن يؤمل ما لديه، وفصل بين الحق والباطل وهو الولى العارف والصديق المقرب والفاروق المجتبى وأحد الله فى أرضه، كما قال إبراهيم عليه السلام «اللهم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الأرض»، وقد قال النبى عليه السلام «يكون فى هذه الأمة رجال قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام» وقوله ساعة وساعة أى ساعة للذكر، وساعة للنفس، فساعة الذكر تكون الجنة والنار رأى عينه. وساعة يقبل على المعاش ومرمته لأن القلب ربما عجز عن احتمال ما يحل به فيحتاج إلى مزاج. ألا ترى أن ما روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما انتهيت إلى السدرة إذا ورقها مثل آذان الفيلة، وإذا نبقها أمثال القلال فلما غشيها من أمر الله تعالى ما غشيها تحولت ياقوتا. وفى رواية حال دونها فراش من ذهب، وفى رواية رأيت النور الأعظم ولط دونى الحجاب رفرفنا الدر، والياقوت فأوحى إلىّ ما شاء أن يوحى»[4] لما لم يعمّ بصره للنور عورض بالزبرجد والياقوت وفراش الذهب حتى يقوى ويستقر كأنه شغل قلبه بهذا المزاج عمار أى حتى لا ينفر ويجد قرارا ويقدر احتماله، فكان هذا من تدبير الله تعالى للعبيد، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون تلك الساعة حتى قال معاذ رضى الله عنه لرجل: «تعال نؤمن ساعة»

---

(٤) فى نسخة أخرى [لم يعم].

فذكر ذلك الرجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم قول معاذ وقال يا رسول أوما نحن بمؤمنين فقال صلى الله عليه وسلم «دع عنك قول معاذ فإن الله تعالى يباهي به الملائكة».

ولهذا قال عبد الله بن رواحة لأبي الدرداء: يا عويمر تعال نؤمن ساعة فللقلب أسرع انقلابا من القدر حين تغلي وإنما الإيمان بمنزلة القميص بينا أنت لبسته إذ أنت نزعته.

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» أي أنه إذا فعل ذلك فقد خلع القميص ووضعه ناحية وإذا تاب ورجع إليه بالصدق كساه وألبسه ذلك القميص فكان هذا الأيمان عندهم استقرار ذلك النور وإشراقه في صدورهم حتى تصير الآخرة وأمر الملكوت لهم معاينة فمنهم من هذا النور له دائم فتدوم له معاينة أمور الآخرة وأمر الملكوت وهو مع ذلك يصاحب الأزواج والأولاد ويرم المعاش وعددهم في كل زمان قليل قال الله تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (٥).

فالثلة الجماعة وهم الأنبياء عليهم السلام وختمت النبوة برسولنا صلى الله عليه وسلم وقليل من الآخرين وهم الأولياء (٦) عددهم قليل في كل زمان. وقال عليه السلام «في كل قرن من أمتي سابقون وهم البدلاء والصديقون بهم يسقون وبهم يرزقون وبهم يدفع البلاء عن أهل الأرض» (٧).

---

(٥) الواقعة (١٣/٥٦). راجع تفسير الخازن (١٥/٤).
(٦) كذا قال المصنف رحمه الله.
(٧) حديث الإبدال له طرق عن أنس وغيره مختلفة وكلها ضعيفة.

[الأصل الثالث والسبعون فى خصال سألها سليمان عليه السلام]

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لما فرغ سليمان عن بناء بيت المقدس سأل ربه حكما يصادف(١) حكمه، وملكا لا ينبغى لأحد من بعده، وأن لا يأتى أحد هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أما اثنتان فقد أعطيها وأما الثالثة فأرجو أن يكون قد أعطى»(٢). قوله حكما يصادف(١) حكمه معناه أن يحكم بين عباد الله بما يصادف(١) حكم الله تعالى لأن أمور العباد فى الغيب وإنما أمروا أن يعملوا بالظاهر عندهم بالشاهد أو اليمين، وربما كان شاهد زورا وكان فى يمينه كاذبا فليس على الحاكم إلا الحكم بما يظهر عندهم ويكلهم فيما غاب عنهم إلى الله تعالى.

وأما سؤاله ملكه لا ينبغى لأحد من بعده فإن أحباب الله وخاصته يتنافسون فى المنزلة عنده ويغار أحدهم أن يتقدمه غيره من نظرائه(٣).

---

(١) يصادق فى المواضع الثلاث [نسخة أخرى].

(٢) أخرجه النسائى فى سننه - كتاب الآذان - باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه (٢٨/٢)، وأخرجه ابن ماجة فى سننه - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب ما جاء فى الصلاة فى مسجد بيت المقدس (٤٥٢/١)، وابن حبان فى صحيحه - كتاب الحج - باب الصلاة فى مسجد بيت المقدس ص٢٥٧، وأخرجه الحاكم فى المستدرك - كتاب الإيمان - باب من شرب الخمر شربه لم تقبل أربعين صباحاً (٣٠/١)، وأحمد فى مسنده من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص (١٧٦/٢).

(٣) من نظرائه: من أضرابه وأترابه، ونظير الشىء مثله.

قال عليه السلام فى حديث المعراج «لقيت موسى عليه السلام فى السماء السادسة فلما جاوزته بكى وقال يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم ولد آدم على الله وجل وقد جاوزنى» فللأنبياء والأولياء عليهم السلام تنافس فى محل القربة، وحق لهم ذلك، فسخر الله الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب أى لينة مع قوتها وشدتها حتى لا تضر بأحد وتحمله بعسكره، وجنوده، وموكبه، وكان موكبه فيما روى فرسخا فى فرسخ مائة درجة بعضها فوق بعض فى كل درجة صنف من الناس، وهو فى أعلى درجة منه مع جواريه، وحشمه، وخدمه، وكانت الريح تحمله بهذا الموكب فتهوى به فى الجو مسيرة شهر فى غداة واحدة ومسيرة شهر فى رواح واحد، قال الله تعالى:

﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ (٤).

وكانت الريح لا تدع كلمة يتكلم بها إلا القتها فى أذنه، وعلم منطق الطير ومر بوادى النمل فقالت نملة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥).

فمرت به الريح فألقته فى مسامعه وسخر له الجن.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت ليلة شيطانا فخنقته حتى وجدت برد لسانه ولهاته (٦) على يدى فأردت أن أربطه على سارية فى المسجد، لتنظروا إليه إذا أصبحت ثم ذكرت دعوة أخى سليمان فتركته» وكان لكل نبى دعوة، فجعلها سليمان فى ذلك وأخرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته. وعن عبد الرحمن بن عقيل رضى الله

(٤) سبأ (١٢/٣٤).

(٥) النحل (١٨/٢٧)، راجع تفسير الطبرى (٨٨/١٩).

(٦) لأن الشيطان يمكنه التشكل فى أية صورة؛ فيمكنه أن يأخذ قانون هذه الصورة فيجرى عليه ما يجرى عليها.

عنه قال: انطلقت في وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيناه فقال قائل منا يا رسول الله ألا سألت ربك ملكا كملك سليمان فضحك ثم قال: «فلعل لصاحبكم عند الله أفضل من ملك سليمان إن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا أعطاه دعوة فمنهم من اتخذ بها دنيا فأعطيها ومنهم من دعا بها على قومه إذا عصوه فأهلكوا بها وأن الله تعالى أعطانى دعوة اختبأتها عند ربى شفاعة لأمتى يوم القيامة».

فلكل نبى دعوة مجابة وسليمان عليه السلام ما سأل الدنيا لنفسه وإنما سألها الله تعالى، وكان رسولنا صلى الله عليه وسلم يسأل شيئا من الدنيا ولم يسأل كلها، قال «اللهم اجعل أوسع رزقى عند كبر سنى» وكان نوح عليه السلام سأل إهلاك الدنيا فقال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» (٧) فغرقت الدنيا كلها بدعوته وإنما سأل إهلاكها الله تعالى لا لنفسه فأجيب إلى ذلك، وأما رسولنا صلى الله عليه وسلم فأخرها لتكون تلك الحاجة مقضية له فى اليوم الذى يعز فيه العفو، ويظهر الجود، والكرم من ربنا وما يقضى له هناك، فالخلق إليه أحوج منه فى هذه الدنيا مما سأل سليمان عليه السلام فإنما سأله مملكة الدنيا، وقد كان ابوه داود عليه السلام ممن عرضت عليه الخلافة فقبلها، وكان حاكم الله فى أرضه، وعرضت على لقمان فأبى، فأعطى (٨) الحكمة فكان حكيم الله فى أرضه، قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ (٩).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لقمان كان عبدا كثير التفكر، حسن النظر كثير الصمت أحب الله فأحبه الله فمن عليه بالحكمة تودى

---

(٧) نوح (٢٦/٧١) ديّاراً: أحداً، يقال: ما بالمنازل من ديّار: أى ما بها أحد. وقد ذكر ذلك الطبرى (٦٣/٢٩) وابن منظور فى اللسان (٣٨٥/٥) والتسهيل لعلوم التنزيل (١٥١/٤).

(٨) فى نسخة أخرى [وما يعطى].

(٩) لقمان (١٢/٣١). انظر القرطبى (٦٩/١٤) والطبرى (٤٣/٢١).

بالخلافة قبل داود عليه السلام، فقيل له يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الأرض تحكم بين الناس بالحق؟ قال لقمان عليه السلام: أن جبرنى ربى قبلت فإننى أعلم أن فعل ذلك بى أعاننى وعلمنى وعصمنى وإن خيرنى ربى قبلت العافية ولم أسأل البلاء، فقالت الملائكة بصوت لا يراهم يا لقمان لم قلت هكذا؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان فيخذل أويعان وإن أصاب فبالأحرى أن ينجو ولئن أخطأ أخطأ طريق الجنة ومن يكن فى الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفا ضائعا، ومن يختار الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا ولا يصبر إلى ملك الآخرة فعجبت الملائكة لحسن منطقه فنام نومه فغط بالحكمة غطا فانتبه فتكلم بها ثم نودى داود عليه السلام بعده بالخلافة فقبلها ولم يشترط شرط لقمان فأهوى فى الخطيئة فصفح الله عنه وتجاوز وكان لقمان يوازره بعلمه وحكمته فقال داود عليه السلام: طوبى لك يا لقمان آوتيت الحكمة، وصرفت عنك البلية، وأوتى داود الخلافة، وابتلى بالرزية، والفتنة فكان داود عليه السلام يحكم بين خلقه.

قال الله تعالى:

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (١٠).

وسخرت له الجبال ليسجن معه بالعشى والإشراق والطير كى يزداد قوة على إسعاد الجبال والطير له بذلك فلا يفتر فترة الآدميين فإن فى الإسعاد قوة، قال الله تعالى:

﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ (١١).

---

(١٠) ص (٢٠/٣٨). راجع القرطبى (١٦٢/١٥).

(١١) سبأ (١٠/٣٤). التأويب: التسبيح، وأصله مشتق من التأويب فى السير؛ أى تسير النهار كله، ثم تنزل ليلاً. راجع ابا حيان فى بحره المحيط (٢٦٣/٧) وتفسير القرطبى (٢٦٥/١٤).

ثم قال تعالى:

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ (١٢).

فجعل الحديد فى يده كالعجين يعمل الدروع فجعل قوته ومطعمه منها ليكون من كد يده.

وروى فى الخبر أنه كان عليه السلام يرتفع له كل يوم درع فيبيعة بستة آلاف، فينفق على بنى اسرائيل أربعة آلاف وعلى عياله ألفين. فأوتى داود ما أوتى ثم قيل له: اعملوا آل داود شكرا وأعطى سليمان منطق الطير والريح وعين القطر أسيلت له ثلاثة أيام فاتخذ منها تماثيل على صور الرجال من النحاس.

روى عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى وتماثيل قال: اتخذ سليمان تماثيل من نحاس فقال يارب انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة فنفخ الله فيها الروح فكانت تخدمه وكان اسبنديار(١٣) من بقاياهم. فلما انتهت خلافة داود عليه السلام أراد أن يستخلف ابنه سليمان عليه السلام قال له سليمان «أبجب الولد تفعل هذا أم بشىء أمرك الله تعالى؟ قال داود عليه السلام: بجب الولد فأبى سليمان عليه السلام أن يقبلها حتى أمره الله تعالى بذلك قال تعالى:

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ (١٤).

وجعل الله تعالى السيف فى يد محمد صلى الله عليه وسلم، والرعب جنده يرعب منه العدو مسيرة شهر وجعل قوته ومطعمه من الغنائم(١٥)

---

(١٢) سبأ (٣٤/١٠). راجع القرطبى (١٤/٢٦١).

(١٣) فى نسخة أخرى [اسفنديار].

(١٤) النمل (٢٧/١٦). قال عليه الصلاة والسلام: نحن الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة، ولكل ميراث سليمان من داود كان العلم فلا تعارض بين الحديثين.

(١٥) الغنائم: جمع مفرده غنيمة، وقد وردت بالأصول [العنايم] وهو تصحيف.

فقيل لداود عليه السلام خذ هذا الحديد فقد ألنتها لك من عطفى عليك لتعمل منه دروعا فيكون منها رزقك.

وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم خذ هذا الحديد الذى قد حددتها من سلطانى فاضرب بها رقاب أعدائى وصيرت أموالهم نحلة وطعمة خصصتك بها من بين الخلق ولم تكن لأحد قبلك ثم قال حلالا طيبا، وفى السيف عز وسلطان، وملك ليس فى التجارة ذلك فأنت تجاهد أعدائى لى، وتملك ما خولتهم، فتأخذ منهم ذلك على سبيل القهر وأنا معك فى النصرة، فلمحمد صلى الله عليه وسلم فى هذا تكرمة العز والسلطان، ولداود عليه السلام تكرمة العطف إن لان له الحديد.

قال عليه السلام «إن الله تعالى بعثنى بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم» [١٦] فلما ورث سليمان داود جعل دعوته فى ذلك فسأل مملكة الدنيا كلها ليسوى الدنيا وأهلها ويحكم فيهم حكما يصادف حكمه، وينفى الظلم عن أهل الأرض، وينصف بعضهم من بعض، حتى الجن والإنس والطير والوحوش والسباع وبقاع الأرضين، والجبال، والبحار فكان له حكم فى كل ذلك، ومملكة وسلطان وأعين بالريح، والشياطين، والجن فسخر ذلك له وأعطى الفهم لمازيد فى المعرفة، قال عليه السلام «إن المعونة تنزل من السماء على قدر المؤنة» وكان يعول خلقا من خلق الله تعالى، ويعطف على عبيد الله تعالى، وإمائه شفقة على خلق الله فوهب له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ثم قال:

﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [١٧].

(١٦) الحديث رواه بنحوه أحمد فى مسنده، وأبو يعلى فى مسنده والطبرانى عن ابن عمر، وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (١/١٢٦) وسكت عليه.
(١٧) ص (٣٨/٣٩).

فكان المهنأة فيه أنه لاتبعة له عليه وجعل نوح عليه السلام دعوته إهلاك الكفار لتطهر الأرض من أقذارهم، ونجاسة شركهم شفقة على حق الله ليخلص الحق من أنجاسهم، ومحمد صلى الله عليه وسلم أخر دعوته إلى يوم الثواب، والعقاب ليفتح الله تعالى على لسانه خزائن الرحمة على عبيده فى يوم بروز الجود والكرم وشدة الفاقة فى ذلك المقام المحمود، فعمت الملائكة والأنبياء والرسل وجميع الموحدين بالرحمة وسكن الهول، واطمأنت القلوب وكان أهل الموقف كلهم محتاجين إلى ما أدخره عليه السلام ليوم القيامة وصاروا عيالا عليه حتى قال عليه السلام «إن إبراهيم عليه السلام ليرغب إلى يوم القيامة فى تلك الدعوة ويحتاج إلىّ».

وروى أنس رضى الله عنه أنه قال عليه السلام: «لكل نبى دعوة دعا بها فى أمته فأنى اختبأت دعوتى شفاعتى لأمتى يوم القيامة».

[الأصل الرابع والسبعون في نشر السجلات يوم الحشر]

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سيصاح برجل من أمتى يوم القيامة على رءوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منه مد البصر فيقول: الله تعالى: عبدى هل تنكر من هذا شيئاً فيقول: هذه حجتك فيقول لا يا رب فيقول: هل لك من حجة فيقول: لا يا رب فيقول: بلى لا ظلم (١) عليك اليوم، فيخرج الله تعالى له بطاقة فيقول: هذه حجتك فيقول: أى رب وما تغنى هذه البطاقة من هذه السجلات فيقول: يا عبدى لا ظلم عليك اليوم فيؤتى بالميزان فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة وإذا فيها شهادة أن لا إله إلا الله» (٢)، فهذا عبد كثرت سيئاته حتى غمرته فأدركه غوث تلك الكلمة وليست تلك أو مما قالها ولكنها كانت مقالة طاهرة خرجت من زكاوة قلبه، فى ساعة من عمره، فأنجته فحاطت ذنوبه (٣)، وهدمتها، وطاشت بالسجلات يوم الوزن لوزن تلك الكلمة، وإنما ثقلت لعظم نورها لأنها خرجت من نور استنار قلبه بالنطق بها وإذا أراد الله

---

(١) فى نسخة أخرى [بل لا ظلم].

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الإيمان ـ باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٥/٢٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه ابن ماجة فى سننه ـ كتاب الزهد ـ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (١٤٣٧/٢)، وأحمد فى مسنده (٢١٣/٢)، وابن حبان فى صحيحه ـ كتاب الزهد ـ باب فى الخوف والرجاء ص٦٢٥.

(٣) فى نسخة أخرى [فحطمت ذنوبه].

بعبد خيراً منَّ عليه فى ساعة من عمره، ونبهه؛ فإذا انتبه انفتح قلبه واستنار صدره من تلك الفتحة فإذا انفتح القلب خرج النور إلى الصدر فأشرق، فأى كلمة نطق بها فى ذلك الوقت فإنما ينطق على شرح الصدر والمعاينة لصورة تلك الكلمة فتلك الكلمة تسمى كلمة الإخلاص، وكلمة يقين تثقل فى الوزن يوم الوزن وتكون سبباً لنجاة صاحبها، وهذا

لعبد إذا نظر الله إليه أن يعطيه سؤاله» شرط إخلاص الروح فإن الروح سماوى خلقها الطاعة والنفس أرضية خلقها الشهوة معصية كانت أو طاعة، فإذا قال العبد هذه الكلمة فى وقت فتحة القلب واستنارته وانشراح الصدر فنمقت(٤) النفس وذلت وانخشعت وتخلص الروح من أسرها، وتعلقها به فصار روحه كالعازم على هذه الكلمات بحقائقها،

لا يكون فى شهادة التوحيد إذ لو كان لها لاستوى الناس فيها. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير مخلصاً بها روحه مصدقاً بها لسانه وقلبه إلا فتقت له السماء فتقاً حتى ينظر الرب سبحانه وتعالى إلى قائلها من أهل الدنيا، وحق

فصار خالصاً لله تعالى، قد باين النفس، وهواها، وصدق بها لسانه وقلبه، لأن القلب قد أستنار بالكلمات فاستوى اللسان بالقلب والقلب باللسان وقد صدق بالكلمة لسانه وقلبه وأخلص روحه فاستوجب النظر إليه فإذا أراد الله بعبد خيراً رزقه فتحة قلبه وخرجت منه هذه الكلمة فى ذلك الوقت فعظم وزنها وقدرها عند ربها، قال الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٥).

ثم قال:

---

(٤) فى نسخة أخرى [فانقمعت].

(٥) الأنفال (٨/٢).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (٦)

وصفهم بحقيقة الإيمان، قالت عائشة وأم الدرداء رضى الله عنهما: «إنما إيمان الرجل فى القلب كاحتراق السعفة لا يكاد يلبث طويلاً فإذا وجد أحدكم فليدع الله تعالى فإن الدعاء عند ذلك يستجاب».

وعن ثابت البناني رضى الله عنه قال: «إنى لأعلم متى يستجاب لىّ، قالوا: ومن أين تعلم ذلك؟ قال: إذا أقشعر جلدى، ووجل قلبى، وفاضت عيناى، فذاك حين يستجاب لىّ لأن هذه نفوس لا تحتمل ما يرد على القلب فتقشعر منه الجلود».

أما أهل اليقين الذى استنارت صدورهم بنوره فهذا لهم دائم فى الأمور كلها، وهم الذين يذكرون الله تعالى، على كل حال لا ينقطع ذكرهم لأنهم بنور يقينهم قد صارت قلوبهم بين يديه يعبدونه كأنهم يرونه.

قال عليه السلام: «أعبد الله كأنك تراه» ولأن نفوسهم قد اطمأنت إلى رؤية الملكوت وما يرد على القلوب ومرنت على ذلك واعتادت، ومثل ذلك فى الدنيا مثل جرة لم يصبها الماء فإذا وضعتها فى الماء انتشقت، وسمعت لها قشيشاً فإذا تكرر عليها ذلك لم تسمع لها ذلك لأنها قد تشربت من الماء وارتوت فكذلك قلب العارف قد ارتوى من سقيا الله تعالى.

وعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال لىّ جبريل: «يا محمد إن الله عز وجل يخاطبنى يوم القيامة فيقول: يا جبريل مالى أرى فلان بن فلان فى صفوف أهل النار فأقول: يا رب إنا لم نجد له حسنة يعود عليه خيرها اليوم قال: يقول الله

---

(٦) الأنفال (٨/٢).

تعالى: إنى سمعته فى دار الدنيا يقول: ياحنان يامنان فائته فاسأله ماذا عنى بقوله ياحنان يامنان، فآتيه فأسأله فيقول: وهل من حنان ومنان غير الله، فآخذ بيده من صفوف أهل النار فأدخله فى صفوف أهل الجنة».

[الأصل الخامس والسبعون فى أن غرس الله محفوظ فى الدارين]

عن أبى عتبة الخولانى رضى الله عنه وكان ممن صلى القبلتين مع النبى صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرساً يستعملهم بطاعته فغرس الله محروس فى الأحوال ومحفوظ فى الأصلاب والأرحام ومراعى فى قطع الأسفار إليه يكلؤه ويرعاه، وهم رجاله فى أرضه وأولياؤه والدعاة إليه، وغرس الله راسخ عروقه فى الأرض باسق فروعه فى الملكوت، غرسهم الله تعالى، وأنبتهم وهو يجنى ثمرتهم» (1) وغرسهم أى اجتباهم بمشيئته، وأنبتهم أى راض نفوسهم وأدبها وقوم أخلاقها بتدبيره، وهو يجنى ثمرتهم أى لما وصلوا إليه وقبلهم ورتب لهم عنده فى تلك الخلوات، والمجالس وصاروا فى قبضته، وهو الذى يستعملهم بطاعته.

وهو قوله عليه السلام فيما يحكى عن الله تعالى أنه قال: «إذا أحببت عبدى، كنت سمعه وبصره ويده ورجله فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يعقل، وبى ينطق» (2) ومن علامة أولئك أنه يخرجهم من بطون أمهاتهم أحراراً من رق النفوس، قد طبع نفوسهم على

---

(1) أخرجه ابن حبان فى صحيحه - كتاب العلم - باب فيمن له رغبة فى العلم ص٥، «موارد الظمآن للهيثمى»، وابن ماجة فى سننه - المقدمة - باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١/٥)، وأحمد فى المسند من حديث أبى عتبة الخولانى (٤/٢٠٠)، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (١/٣٢١) وعزاه لابن جرير الطبرى والحكيم الترمذى فى النوادر.

(2) حديث قدسى عن رب العزة.

أخلاق الكرام؛ من السخاوة، والشجاعة، والسماحة، والحلم، والتأني، والنزاهة، والصيانة، فهذا حر من رق النفس، ومن كان ضد هذه الأشياء مثل البخل والضيق والمكر والعجلة وحدة الشهوة والحرص والجبن فهو عبد نفسه فإن رزق تقوى احتاج إلى أن يجاهد نفسه حتى لا يستعجل أركانه بما يصير به عاصياً فهو وإن جاهد فهذه الأخلاق باطنة، وهو قول عيسى عليه السلام لبني إسرائيل فلا عبيد أتقياء ولا أحرار كرماء فالعبيد الأتقياء هؤلاء الذين فيهم هذه الأخلاق فهم أتقياء يتقون الله أن يعصوه بجارحة وتتردد فيهم هذه الأخلاق فان عملوا بطاعة عملوها بكزازة نفس وجهد والأحرار الكرماء قد عوفوا من هذه الأخلاق طبعاً فإن انتهوا عما نهى الله تعالى عنه لم يحتاجوا إلى أن يحاربوا ويجاهدوا نفوسهم، وإن عملوا بطاعة، عملوها تكرماً، وسماحة فقلبه لين منقاد ليس فيه كزازة حيث ما قاده مولاه في أموره انقاد من غير تلجلج، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا للعنب كرم إنما الكرم قلب المؤمن» وإنما سمي العنب كرماً لأنه لين ينقاد حيث ما استقيد فكذلك المؤمن قلبه لين رطب يذكر الله سبحانه وتعالى، ينقاد لله تعالى في أموره وأحكامه.

[الأصل السادس والسبعون في منع الشيطان من المشاركة في كل شيء]

عن نبيشة الخير وأنس بن مالك رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أكل من قصعة(١) ثم لحسها استغفرت له القصعة وصلت عليه»(٢) المؤمن إذا سمى الله تعالى على كل أمر منع الشيطان من مشاركته فى طعامه وشرابه ولباسه وجميع أموره، وإذا ترك التسيمة وجد فرصة فشاركه فى ذلك حتى فى إتيانه أهله.

وعن مجاهد رضى الله عنه قال: «إذا جامع الرجل أهله ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه» فذلك قوله تعالى:

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ (٣)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فقال: «إن الله عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما علمنى وأن

---

(١) فى نسخة أخرى [فى قصعة].

(٢) أخرجه الدارمى فى سننه -كتاب الأطعمة- باب فى لعق الصفحة (١٩٦/٢)، وأخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الأطعمة- باب ما جاء فى اللقمة تسقط (٢٥٩/٤)، وقال أبوعيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث المعلى بن راشد، وأخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الأطعمة- باب تنقية الصحفة (١٠٨٩/٢) وأحمد فى مسنده (٧٦/٥)، وأشار السيوطى فى الجامع الصغير (١٦٦/٢) إلى أمة حسن وعزاه لأحمد والترمذى وابن ماجة.

(٣) الرحمن (٥٥/٥٦). قال أبوعبيدة -رضى الله عنه- أى لم يمسهن. راجع الدر المنثور (٤٧/٦) والطبرى (٨٧/٢٧) والقرطبى (١٨١/١٧) وروح المعانى للألوسى (١١٩/٢٧).

أؤدبكم إذا قمتم على أبواب حجركم فسلموا يرجع الخبيث عن منازلكم وإذا وضع بين يدى أحدكم طعام فليسم كيلا يشارككم الخبيث فى أرزاقكم ومن اغتسل بالليل فليحاذر على عورته فإن لم يفعل فاصابه لمم فلا يلومنّ إلا نفسه وإذا رفعتم المائدة فاكنسوا ما تحتها ، فإن الشياطين يلتقطون ما تحتها فلا تجعلوا لهم نصيباً فى طعامكم » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « إذا وضعت يدك فى الطعام فنسيت أن تقول : بسم الله فقل حين تذكر بسم الله فى أوله ، وآخره » فإنما يمتنع المؤمن من هذا العدو باسم الله تعالى ، فإذا سمى على طعامه فالشيطان منه بمزجر الكلب وإذا فرغ من الطعام ولم يلحس القصة جاء الشيطان فلحسها لينال ما بقى هناك فإذا لحسها فقد خلصها من الشيطان ولحسه فاستغفرت له وصلت عليه شكراً له » .

[الأصل السابع والسبعون فى حقيقة الرؤيا وأن الشيطان لا يتمثل بالنبى عليه السلام]

عن أبـي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يستطيع أن يتمثل بى[1] فكان الرجل إذا قص عليه الرؤيا يقول له كيف رأيه فإن جاء بالرؤيا على وجهها وإلا قال لم تره»، قوله من رآنى فى المنام أى على نعتى الذى أنا عليه واعلم أن الرؤيا ثلاث منازل منها ما يريه الملك الموكل على الرؤيا فذاك حق ومنها ما يمثل له الشيطان، ومنها ما يحدث به المرء نفسه.

قال صلى الله عليه وسلم فى رواية أبى هريرة رضى الله عنه: «الرؤيا ثلاثة فرؤيا حق، ورؤيا يحدث به المرء نفسه، ورؤيا تحزين من الشيطان، فمن رأى ما يكره فليقم فليصل».

وفى رواية أبى قتادة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الرؤيا على ثلاث منازل، فمنها ما يحدث به المرء نفسه ليست بشىء، ومنها ما يكون من الشيطان، فإذا رأى أحدكم

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب العلم ـ باب إثم من كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٠٢/١)، وأخره أبوداود فى سننه ـ كتاب الأدب ـ باب ما جاء فى الرؤيا (٣٠٥/٤)، وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الرؤيا ـ باب ما جاء فى قول النبى صلى الله عليه وسلم من رآنى فى المنام فقد رآنى (٥٣٥/٤)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة فى سننه ـ كتاب تعبير الرؤيا ـ باب رؤية النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام (١٢٨٤/٢)، وأحمد فى مسنده من حديث أمين عباس (٣٦١/١).

مـا يـكـره فليبصق عن يساره، وليستعذ بالله من الشيطان، فلن يضره بعد ذلـك، ومنهـا بـشرى من الله تعالى ورؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جـزءاً مـن الـنـبـوة، فـإذا رأى أحدكم رؤيا فليعرضها على ذى رأى نـاصـح فـلـيـقـل لـه خـيـراً أو لـيـتأول خيراً» فقال عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه والله يـا رسـول الله لو كانت حصاة من عدد الحصى لكان كثيراً.

وفى روايـة لـقـيـط بـن عـامر رضى الله عنه أنه قال صلى الله عليه وسلـم: «الـرؤيـا عـلى رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت» فالرؤيا أصلـه حق جاء من عند الحق يخبر عن أنباء الغيب، وهو من الله تعالى تـأيـيـد لـعبـده بشرى ونذارة ومعاتبة ليكون له فيما ندب له، ودعى إليه عوناً، وقد وكل بالرؤيا ملك يضرب من الحكمة الأمثال، وقد اطلع على قصص ولد آدم من اللوح فهو ينسخ منها ويضرب لكل على قصد مثله، فإذا نـام وخرجت نفسه تمثل له تلك الأشياء على طريق الحكمة لتكون لـه بـشـرى أو نـذارة أو مـعـاتـبـة لـيـكـونوا على بصيرة من أمورهم، فأما البشرى، فمثل ما يروى أن صهيباً جاء إلى أبى بكر رضى الله عنه فقال: «إنـى رأيـت كـأن يـدك مـغـلولة إلى عنقك إلى سـرير إلى الحشر فقال أبوبكر رضى الله عنه: الله أكبر جمع لىّ دينى إلى يوم الحشر».

وأمـا النذارة فما يروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه (٢) رجع مـن اليمـن بـعـد وفـاة رسـول الله صلى الله عليه وسلم قدم معه برقيق قد أصابه هناك فقال له عمر اذهب بها إلى أبى بكر حتى تطيب لك فأبى، وقـال: إنمـا بـعـثـنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجبرنى فيما أصابنى مـن الـديـن وطـيـب لى الهدية فلما رجع إلى أهله وبات رأى تلك الليلة كـأنـه قـد وقـع فى ماء غمره فأتاه عمر فأخذ بيده حتى أخرجه منها فلما

(٢) لعل الأصح [لعله أنه لما رجع].

أصبح غدا بالسبي إلى أبي بكر رضي الله عنه فقص عليه قصته فقال أبوبكر: قد علمت أن رسول الله صلـــى الله عليه وسلم إنما بعثك ليجبرك هم لك حل.

وما روى في فتح نهاوند حيث حمل إلى عمر السفطين فيهما حلى وقد كان للنجيرجان كنز فدله ذلك الرجل على الكنز على أن له الأمان ولأهل بيته فجمع ذلك فحمله السائب بن الأقرع إلى عمر رضى الله عنه مع أصحابه فجمع أصحاب رسول الله صلـــى الله عليه وسلم فختمه ووضعه في خزائنه فرأى تلك الليلة كأن ملائكة جاءت بسفطين فأوقدوا مافيهما جمراً يتوقد فجعلت أنثنى عنها وأنكص، وأقدم إليهما فكاد ابن الخطاب يحترق فاتعبه بريدا(٣) إلى الكوفة حتى جاء فقال مالى ولك ياسائب انى رأيت كذا فاذهب بها إلى الكوفة وبعها بأعطيات المقاتلة والذرية.

وأما المعاتبة فما روى سليمان بن يسار قال: «استيقظ أبو أسيد الأنصارى رضى الله عنه ليلة وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون فآتنى وردى الليلة وكان وردى البقرة فقد رأيت في المنام كأن بقرة تنطحنى» وأما الخبر الذى يلقى إليه من أمر الدنيا والآخرة مثل ماروى ابن عمر رضى الله عنها قال: «جاء رجل إلى عمر وهو عند أبى بكر رضى الله عنها فقال: إنى رأيت رؤيا فقال عمر رضى الله عنه: لاحاجة لنا برؤياك، فقال أبوبكر: هات قال: رأيت كأن الناس قد حشروا فكأنك قرعت الناس بثلاث بسطات، قلت: بأى شىء قرع عمر الناس بثلاث بسطات؟ قال: بأنه يكون خليفة وأنه لاتأخذه في الله لومة لائم وأنه يقتل شهيداً، فقال عمر رضى الله عنه: أضغاث أحلام لاحاجة لنا برؤياك، قال أبوبكر رضى الله عنه: رأيت خيراً وخيراً يكون، فلما أتى عمر رضى الله عنه الشام وبصر بالرجل قال: علىّ

(٣) البريد: اثنا عشر ميلاً.

بالرجل وقال: أنت صاحب الرؤيا، قال: وما تصنع برؤياى وما تنتهرنى حتى أنى قد جئت بأمر قال: قصها قال: رأيت كأن الناس يحشرون، فرأيتك قرعت الناس بثلاث بسطات، فقلت بأى شيء قرع عمر الناس بثلاث بسطات، قال: بانه يكون خليفة قال: فقد كانت تسأل الله خبرها وتعوذ بالله من شرها قال وبأنه لا تأخذه فى الله لومة لائم، قال: إنى أرجو من الله أن يكون كذلك أو أن يعلم الله ذلك منى، قال: وبأن تقتل شهيداً، قال عمر رضى الله عنه أما الشهادة فأنى الشهادة ثم قال: بل يأتى الله بكافر فينقرنى نقر الديك فيكرمنى الله بهوانه ويهينه بكرامتى» وكان شأن الرؤيا عظيماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

روى عن سفيان قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الصبح أقبل على أصحابه، قال: أيكم رأى الليلة رؤيا فقال ذات يوم ذلك فقال رجل أنا يا رسول الله رأيت كأن ميزاناً دلى من السماء فوضعت فى كفة الميزان ووضع أبوبكر فى كفة فرجحت بأبى بكر ثم رفعت، وترك أبوبكر ثم جيء بعمر فوضع فى الكفة الأخرى فرجح أبوبكر بعمر، ثم رفع أبوبكر وترك عمر حتى جيء بعثمان فوضع فى الكفة الأخرى فرجح عمر بعثمان ثم رفع الميزان فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: خلافة نبوة ثلاثين عاماً ثم يكون ملكا (٤) قال: سفينة امسك سنتين أبوبكر وعشراً عمر وثنتى عشرة عثمان وستاً على رضوان الله عليهم أجمعين».

الرؤيا من أخبار الملكوت من الغيب وهو جزء من أجزاء النبوة، وقد قال عليه السلام يوم وفاته: «إنه لم يبق بعدى من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة» وقد قال الله تعالى:

---

(٤) فى أحد الأصول [ملك] وهو تحريف.

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (٥).

قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى:

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

قال: «هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له».

وعن عبادة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به العبد ربه فى المنام» وقال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ (٦).

قال فى منامه وعلم الله تعالى يوسف عليه السلام تأويل الرؤيا وسماه حديثاً فقال تعالى:

﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ (٧).

والمحدث على ثلاثة أنواع: محدث بالوحى وهو الذى يخفق على القلب بالروح ومحدث فى المنام أمره على الأرواح إذا خرجت الأرواح من الأجساد كلموا ومحدث فى اليقظة على القلب بالسكينة فيعقلوه ويعلموه، أما المحدث فى المنام مثل ما روى عن رقية بن مصقلة قال: رأيت رب العزة جل جلاله فى المنام فقال: وعزتى وجلالى لأكرمن مثوى سليمان التيمى وما روى عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه قال ذات يوم: اللهم فإنه قد وقع الشوق إليك فىّ قلبى والنظر إليك وقد علمت أنك

---

(٥) يونس (١٠/٦٤). البشرى فى الدنيا: هى الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن، أو ترى له وقد ذكر ذلك الطبرى فى تفسيره (٩٣/١١) وما بعدها.

(٦) الشورى (٥١/٤٢). راجع البحر المحيط (٥٢٧/٥٢٦/٧) والطبرى (٢٨/٢٥).

(٧) يوسف (٦/١٢).

لا ترى فى الدنيا فهب لىّ من عندك ما يسكن إليه قلبى، فغفى فى مجلسه ذلك ثم أفاق فقال: سبحان الله فقيل له: مم سبحت قال: من لطف ربى إنى بينما أنا غافى إذا أتانى آت من ربى فقال: يا رجل أجب ربك فأتيت ربى فكاد يذهب بصرى لنور ربى فنادانى ربى فقال: يا إبراهيم تسألنى بدلاً من النظر إلى الشوق إلى لقائى فهل لذاك

من بدل فقلت: يا رب، دهشت فى حبك وكان قلبى [٨] إليك فلم أتمالك أن قلت ما قلت فكيف تأمرنى أن أقول فقال: يا إبراهيم، من وجدت قلبه خالياً من الدنيا والآخرة ملأته حبى حتى إذا ملأته قبضت [٩] عنه فكان فى قبضى فإذا كان فى قبضى كنت سمعه الذى به يسمع وبصره الذى به يبصر ويده الذى بها يبطش وعزتى وجلالى لو

سألنى جميع الدنيا كلها فى كفة لفعلت وكيف يتفرغ إلى المسألة من سهلت له السبيل إلى نفسى، وأريته كرامتى فإن كنت لا بد سائلاً فاسألنى إن أجمعك إلى وأونسك بكلامى وآذن لأرواح أنبيائى فى الالتقاء معك فإن ذلك يهون علىّ لأوليائى، وهذا لأن العامة فى تخليط من الشهوات وميل النفوس [١٠] فلم يكلموا إلا بعد مزايلة [١١] الأرواح

من النفوس والشهوات ولما صفت عقول المحدثين وطهرت قلوبهم وتنزهت من الآفات والشهوات والعلائق كلموا على القلوب، فإذا كان الكلام على الأرواح فى المنام جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، كان الكلام على القلوب فى اليقظة أكثر من ثلث النبوة على قدر قربها من ربها فى تلك المجالس، وعن أبى سلمة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلـــى الله عليه وسلم: «بينا أنا نائم إذا أتيت بقدح لبن فشربت

---

(٨) فى نسخة أخرى [وطار قلبى].

(٩) فى نسخة أخرى [قبضت عليه].

(١٠) أى ميل النفوس إلى الشهوات والملذات.

(١١) مزايلة: مفارقة.

منه حتى أني لأرى الري جرى من أطرافي ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب فقال من حوله: ماذا أوتيه يا رسول الله قال: العلم، قال: ورأيت الناس يعرضون عليّ وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ الركب، ومر عمرو عليه قميص يجره، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين».

[الأصل الثامن والسبعون في أن المعدة إذا كانت صحيحة ترجى معها النجاة]

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنه كان عبد من عباد الله آتاه الله مالاً وولداً فكان لا يدين لله ديناً فلبث حتى إذا ما ذهب عمر، وبقى عمر ذكر فعلم أنه لن يبتئر عند الله خيراً دعا بنيه فقال: أى بنى تعلمونى قالوا: خيراً يا أبانا قال: فإنى والله لا أدع عند رجل منكم مالا هو منى إلا أنا آخذ منه أو لتفعلن بى ما آمركم فأخذ منهم ميثاقاً وربى قال أما إنى فإذا مت فخذونى فألقونى فى النار حتى إذا كنت حمما فدقونى، ثم أذرونى فى الريح لعلى أضل الله ففعلوا به، ورب محمد حين مات فجىء به أحسن ما كان قط فعرض على ربه فقال: ما حملك على النار؟ قال: خشيتك يا رباه قال: إنى أسمعك راهباً فتيب عليه(1)، وفى رواية أبى سعيد رضى الله عنه دخل رجل الجنة ما عمل خيراً قط فذكر الحديث.

وفى رواية أبى بكر رضى الله عنه فيقول الله عز وجل: انظر إلى ملك أعظم ملك فى الدنيا فإن لك مثله وعشرة أمثاله فيقول: لم تسخر بى وأنت الملك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فذاك الذى أضحكنى».

---

(1) أى تاب الله عليه، والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٩٤/٦) وأخرجه مسلم فى الصحيح أيضاً (٧٢/١٧)، وأخرجه النسائى (١١٣/٤) وابن ماجة (١٤٢١/٢).

قوله: لايدين لله ديناً أى لم يكن يسير فى شريعته سير المطيعين، فأما قبول الشريعة فلم يكن يخلو منه إذ لو جحد الدين لكفر وهو مثل قوله فى الحديث الآخر: «لم يعمل خيراً لله قط» قوله: اسمعك راهباً أى رهبت منى وهو كقوله: هربت منى والهرب بالنفس، والرهب بالقلب، فهذا عبد كانت المعرفة استقرت فى قلبه بالتوحيد لله تعالى، وبالبعث بعد الموت، والثواب، والعقاب، والغالب عليه الجهل بالله وبأمره فأهمل الحدود، وعطل العمر؛ فلما حضره الموت هاج منه خوف التوحيد فأعمل فى قلبه فطلبته نفسه الجاهلة بالله ملجأ وخلاصاً من الله فدلته نفسه على ما أوصى به أهله من الإحراق، والسحق، والتذرية فذهل عقله من المخافة وانقطعت حيله، فهذا بذلك فألجأه الله تعالى بالمعرفة من غير التفات إلى العبودة.

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (٢).

فلم يعمل خيراً قط فأدركته دولة السعادة فأصاب حظاً من الخشية والخشية إنما تنال عند كشف الغطاء، وانشرح الصدر بالنور، وكان قد سبق له من الله تعالى أثرة وحظ، وهو يقطع عمره فى رفض العبودة، ويضيعها فلما حضر أو أن شخوصه إلى الله تعالى جاءت الأثرة والسعادة بذلك الحظ الذى كان سبق له فاستنار الصدر بالنور وانكشف الغطاء حتى صار بحال لايعقل مايقول من الرهب من الله تعالى فقدم عليه معها فغفر له بخشيته. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بينا عبد لم يعمل لله خيراً قط ففرق فخرج هارباً فجعل ينادى:

(٢) الأنعام (٦/٨٢) والظلم هنا هو الشرك أى لم يخلطوا إيمانهم وتوحيدهم الخالص بأى نوع من أنواع الشرك، راجع نحو ذلك فى الطبرى (٧/١٧١).

يـا أرض اشـفعى لى ويا سماء اشفعى لى ويا كذا اشفعى لى حتى أصابه العطش فوقع فلما أفاق قيل له: قم فقد شفع لك من قبل فرقك(٣) من الله تعالى».

وعـن العبّـاس رضـى الله عنـه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلـم: «إذا اقـشعـر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما تحات عن الشجرة البالية ورقها».

وروى عـن رسـول الله صـلى الله عـليـه وسلـم أنـه قال: قال الله تعـالى: «وعـزتـى لا أجمـع عـلـى عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين، فما خافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة».

---

(٣) فرق: خاف.

[الأصل التاسع والسبعون فى أن الخل منافع الدين والدنيا]

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أقفر بيت فيه خل»[1] أقفر أى خلا، والخل من الأدم التى تعم منافعها.

وقيل فى تفسير قوله تعالى:

﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [2].

انه الخل وفيه منافع الدين والدنيا فلذلك قال: ما أقفر بيت فيه خل أى ما خلا من أمر الدين والدنيا، وذلك بأنه بارد يطفىء حرارة الشهوة ويقطعها، وعن عمرة بنت عبدالرحمن قالت: «كان عامة إدم ازواج النبى صلى الله عليه وسلم بعده الخل ليقطع عنهن ذكر الرجال».

وخلق ابن آدم مجبولاً على الشهوات الرجال منهم والنساء، وكلما وجدوا عوناً لهم على طفىء ذلك منهم كان عوناً لهم، وكل شىء هو

(١) أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الأطعمة- باب ما جاء فى الخل (٢٧٨/٤) وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأخرجه الحاكم فى المستدرك -كتاب معرفة الصحابة- باب ذكر أم هانئ (٥٤/٤)، وأخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الأطعمة- باب الائتدام بالخل (١١٠٢/٢)، وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (١٤٣/٢) ورمز له بالحسن.

(٢) النحل (٦٧/١٦). سكراً: خمراً، وذكر الطبرى (٩١/١٤) أن ذلك نزل قبل تحريم الخمر. قال أبوعبيدة: السكر: الطعم. القرطبى (١٢٩/١٠).

عون للدين فالبركة حالة به وإذا بورك فى الشىء سعد[3] به أهله، قال عليه السلام فيما رواه أنس رضى الله عنه: «نعم الإدام الخل»[4].

(٣) لأجل البركة فيه.

(٤) رواه أحمد فى مسنده، والأربعة عن جابر، ومسلم والترمذى عن عائشة رضى الله عنها، وصححه السيوطى فى الجامع الصغير (١٨٨/٢).

[الأصل الثمانون فى دفع المنكرات بالدعاء]

عن زياد بن علاقة عن عمه رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم جنبنى منكرات الأعمال والأخلاق والأهواء والأدواء»(١) ابن آدم لا ينفك فيما عده عليه السلام فى متقلبه ليلاً ونهاراً، فالكبائر منكرات الأعمال، وسوء الخلق من منكرات الأخلاق، وهو الحقد، والحسد، والبخل والشح وما أشبهه، والزيغ منكرات الأهواء، والسل وذات الجنب، والجذام، وما أشبهه منكرات الأدواء، وهذه كلها بوائق الدهر(٢)، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «أعوذ بك من بوائق الدهر، وفجأة النقم» أما منكرات الأعمال والأخلاق، والأهواء فنها ما يعظم الخطب فيه، حتى يصير منكراً غير متعارف فيما بينهم، فذاك الذى يشار إليه بالأصابع، روى أن عبد الله بن عائذ الثمالى رضى الله عنه حين حضرته الوفاة قال له غضيف بن الحارث إن استطعت أن تلقانا فتخبرنا ما لقيت فتوفى فرؤى فى المنام فقال: وجدنا ربنا خير رب يقبل الحسنات ويغفر السيئات إلا ما كان من الإحراض قيل وما الاحراض(٣) قال: الذى يشار إليه بالأصابع فى الشر.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الدعوات- باب دعاء أم سلمة (٥/٥٧٥) وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه الحاكم فى المستدرك -كتاب الدعاء- باب التعوذ من الكفر والدين (١/٥٣٢) وقال: هذا حديث على شرط مسلم، وذكره السيوطى فى جامعه الصغير (١/٥٦) وحسنه.

(٢) بوائق: دواهى، جمع بائقة.

(٣) الأحراض: المحرض على الشر.

وروى الحسن رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بحسب امرئ من الشر أن يشار إليه بالأصابع فى دين أو دنيا إلا من عصمه الله تعالى إنما يشار إليه فى دين لأنه أحدث بدعة ومنكراً وفى دنيا أحدث منكراً من الكبائر فأشير اليه»، وقوله عليه السلام بحسبه من الشر لأنه قد هتك الله ستره والمهتوك ستره يكون فى دنياه فى عار، وغدا فى النار، ومن ستر الله عليه فى الدنيا رجى له العفو فى الآخرة، قال عليه السلام: «إذا ستر الله على عبد فى الدنيا لم يفضحه غدا» وقال على رضى الله عنه: «أقسم على ذلك من غير أن أستثنى لا يستر الله على عبد فيفضحه غدا».

[الأصل الحادى والثمانون فى أن النفس تألف بمن يبرها وبيان سره]

عن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا دعى أحدكم إلى طعام، فليجب فإن شاء طعم وإن شاء ترك» (١)، المقصود من الدعوة ابتغاء الألفة والمودة وفى النفس هنأة، وفى الصدر سخائم (٢) والنفوس جبلت على حب من أكرمها، وقد حثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإجابة ليصل ذلك البر الذى برّ به أخوه حتى تتأكد الألفة وتصفو المودة، وتنفى خزازات (٣) الصدر فإن صاحب الغل والحقد لايسلم له دينه (٤) من سوء مايضمر لأخيه فالإطعام برّ للنفس يطفى حرارة الحقد، وينفى مكامن الغل، وقد كانت للقوم أحقاد الجاهلية فألف الله تعالى بين قلوبهم بالإيمان، فحثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على إجابة الدعوة لألفة النفوس.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه -كتاب النكاح- باب الأمر بإجابة الداعى إلى دعوه (٢٣٥/١)، وأخرجه أبوداود فى سننه -كتاب النكاح- باب ماجاء فى إجابة الدعوة (٣٤١/٣)، وأخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الصوم- باب ماجاء فى إجابة الصائم الدعوة (١٤١/٣)، وقال أبوعيسى: حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الصيام- باب من دعى إلى طعام وهو صائم (٥٥٧/١).

(٢) السخائم: جمع سخيمة وهى الحسد، والحقد، والشنآن.

(٣) الحزازات: جمع حزازة: وهى الوغر والحسد.

(٤) مايضمر: أى مايحمل فى طويته، ودخيلة نفسه.

ولذلك قال عليه السلام: «من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله» لأنهم كانوا يتخذون الطعام يدعون عليها النفى البخيمة (٥)، فمن امتنع عليه ليثبت على الغل والحقد فقد عصى الله ورسوله، وامتنع من حق عظيم والألفة من ثلاثة وجوه إذا حصل تأكد واستتم فالقلب يألف بالإيمان الذى فى قلب صاحبه، والروح تألف بطاعته، والنفس من شأنها الشهوة واللذة، وليست همتها الإيمان والطاعة فتألف ببرها فإذا برها صفت وصارت طوعاً وإلا فهو كالمكره، فإنما دعاه أخوه إلى قبول برّه، فندبه صلى الله عليه وسلم إلى أن يقبل ذلك من أخيه كيلا يضيع كرامته ولا يجد الشيطان سبيلاً إلى وسوسته بالشر ثم له الخيار ان شاء طعم وإن شاء ترك، وترك الإجابة مما يدل على الجفاء، والبعد، والاستهانة به، فهناك يجد العدو سبيلاً إلا أن يعتذر إليه المدعو فيقبل الداعى عذره، وإن أحس بالشر فى الدعوة فله فى التخلف عنها عذر، مثل ان كان ذلك الطعام لمباهاة أو رياء فله عذر فى ترك الإجابة، وقد نهى عليه السلام عن طعام المتباهين أن يؤكل أو يكون فى تلك الدعوة أمور منهى عنها من اللهو واللعب المحظور عليهم، فهذا عذر، لما روى الحكم بن عمير وكان بدرياً قال: «أرسل رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى طعام وكان عليه السلام يحفر الخندق فجاء وأصحابه فقال: أدخل يانبى الله البيت، فدخل فرأى البيت منجداً مستراً فخرج فقال: يا رسول الله ما أخرجك؟ فقال: أطعمنا بالفناء فأطعمهم حتى إذا شبع القوم فلما تفرقوا قال: يا رسول الله لو كنت دخلت فإن البيت كان أبرد وأطيب، قال: إنك نجدت البيت وسترته وهذا لا يحل شبهته بيت الله ولو شئت بسطت فيه، وطرحت فيه وسائد».

---

(٥) وكانت العرب ترى أن من يأكل معك يصبح بينك وبينه عهدٌ وميثاق ألا يخونك أو يغدر بك، أو يكيد لك؛ لذلك فقد توجس فى نفسه خيفة إبراهيم عليه السلام من الملائكة عندما قدم لهم الطعام فلم يطعموا.

[الأصل الثانى والثمانون فى أصل الأدوية وسر الحكمة فى التداوى]

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء(١) علمه من علمه وجهله من جهله»(٢) وعن أسامة بن شريك رضى الله عنه يقول: «شهدت الأعراب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم هل علينا جناح فى كذا، هل علينا جناح أن نتداوى؟ فقال: تداووا عباد الله فإن الله تعالى لم ينزل داء إلا وضع له شفاء إلا الهرم»(٣)، فالطبائع تتغير بحدوث الأزمنة من الحر والبرد وفساد الهواء فيصير داء فى الأجساد وتحدث فى الجسد الأحداث من الطعم، وما يتعاطاه ابن آدم من قضاء الشهوات واللذات والنصب، والسهر، والتعب، والهموم، وما يجتمع فى الجسد من الدم، والمرة، والبلغم، وكل ذلك يحدث منه

---

(١) فى نسخة أخرى [له الشفاء].

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه -كتاب الطب- باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (١٠/١٣٤)، وأخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الطب- باب ما جاء فى الدواء والحث عليه (٤/٣٨٣)، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم فى المستدرك -كتاب الطب- باب أن الله لم ينزل داء إلا أنزل معه دواء (١/١٩٦) ورجاله ثقات. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وأخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الطب- باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٢/١١٣٨)، وأحمد فى مسنده من حديث عبدالله بن مسعود (١/٣٧٧).

(٣) الهَرَم: كبر السن.

مـا يـتـغير حـالـه فيحتاج إلى دواء يسكن منه ما هاج فهذا تدبير الجسد، فـإذا تـرك تـدبـيـره ضيعه كما لو ترك تدبير المعاش ضاع، فالتداوى حق وهـو فـعـل الأنـبـياء عليهم السلام، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينـة، وهـم يـلـقحون النخل، فقال: ما أرى يغنى هذا شيء فذهبت عـامـة ثمارهم، وصارت دقلاً فعرف أن التدبير من الله تعالى: فى ذلك غير مـا رأى فـأمـرهـم أن يـعـودوا إلـى مـا كانوا عليه، فكذا وضعت علل الأجسـاد أن تـعـالـج حتى ترد إلى الهيئة التى كانت عليها، ولولا ذلك لـكـانـت الأدوية مهملة، ولم يخلقها الله تعالى عبثاً، وكان سليمان عليه الـسـلام تـنبت فى محرابه كل يوم شجرة ثم تناديه الشجرة أنا دواء لكذا فـتـقـطـع، وتـوضـع فـى ديـوان الـطـب، فـعامة الطب إنما ورثوه من تلك الـكـتب، فالناس فى التداوى، على ثلاث طبقات: فالطبقة الأولى هم الأنـبياء والأولياء عليهم السلام أهل يقين ومشاهدة يتداوون، وقلوبهم مع خـالـق الـدواء الـذى جـعـل الـشـفـاء فى ذلك الدواء فهم يتداوون على مـا هـيـأ لـهـم مـن التدبير وينتظرون الشفاء من الله تعالى، وقلوبهم خالية عـن فـتنة الدواء. والطبقة الثانية هم أهل اليقين لم يأمنوا خيانة نفوسهم أن تـطـمـئن إلى الدواء وتركن إليه فيفروا من ذلك فكلما عرض لهم داء فـوضوا الأمر فى ذلك إلى الله تعالى، وتوكلوا عليه، ولم يتكلفوا تداوياً، وتـركـوا التداوى، من ضعف يقينهم خوفاً على قلوبهم أن تطمئن نفوسهم إلـى الـدنـيـا فيصير سبباً يتعلق به قلوبهم، والأول أعلى وأقوى. والطبقة الـثـالـثة أهل تخليط، وقلوبهم مع الأسباب، لا ينفكون منها فهم محتاجون إلى التداوى ولا يصبرون على تركها وهم العامة.

عـن أبـى هـريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلـم: «المؤمـن الـقوى خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف وفـى كـل خير أحـرص عـلى ما ينفعك ولا تعجز فإن غلبك أمر فقل قدر

الله وما شاء وإياك واللوّ فإن اللوّ يفتح عمل الشيطان» (٤) فالأقوياء تداووا ومروا فى الحيل والأسباب وقلوبهم مع رب الأدوية لا مع الأسباب، وهم الأنبياء والأولياء عليهم السلام والمؤمن الضعيف أن يحجبه تداويه عن الله تعالى ويتعلق قلبه به وذلك لضعف يقينه وفى كل خير، والقوى أحب إلى تعالى وقوله: أحرص على ما ينفعك أى استعمل تدبير الله تعالى فى هذه الأمور ولا تعجز بتركه، فإن استعملت ولم يكن الذى أردت فقل قدر الله وما شاء، أى هكذا كان قدر وشاء فارض بحكمه وإياك أن تقول: لو كان كذا كان هذا الأمر كذا، ولو لم يكن كذا لكان كذا فهذا قول من يتعلق قلبه بالأسباب وعمى عن تدبير الله تعالى وصنعه. وما رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يدخل سبعون ألفاً من أمتى الجنة بغير حساب، قيل يا نبى الله، من هم؟ قال: الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون» (٥) فإنما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم الكى، واستعمال النار فى الأدوية، وكذلك الرقى لأن أكثره يشوبه الشرك، قال عليه السلام: «أقرب الرقى إلى الشرك رقية الحية والجنون».

وكذلك الطيرة من فعل الجاهلية، فرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الخصال المكروهة أنهم تركوها تورعاً وتوكلوا على ربهم ولم يذكر أنهم لا يتداوون، وليس فى طلب المعاش، والتداوى والمضى فى الأسباب على تدبير الله تعالى ترك للتفويض والتوكل، إذ الأنبياء

---

(٤) رواه أحمد ومسلم وابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه. ولا يعارض هذا الحديث ما أورده البخارى فى تاريخه عن أنس: المؤمن ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لابره، فإن المراد بالقوى فى الحديث الأول القوة فى الدين، وفيما يوافق الشرع، وبالضعيف فى الثانى فى أمور الدنيا، وما لا نفع فيه. أنظر أيضاً كشف الخفاء للعجلون (٢/٤١١/٢٧١٣).

(٥) السبعون ألفاً هنا جمع كثرة؛ وليست سبعين ألفاء عددياً لأن كل واحد من السبعين ألفاً له شفاعة فى أهل بيته ووليجته.

والرسل عليهم السلام هم طلاق المعاش وأهل الحرف والتجارات، قال عليه السلام: «إن الله يحب أن يرى العبد محترقاً» ومر عمر رضى الله عنه بقوم فقال: «من أنتم؟ قالوا: المتوكلون، فقال: أنتم المتأكلون إنما المتوكل رجل ألقى حبة فى بطن الأرض وتوكل على ربه».

وإنما ترك التوكل بالقلب إذا غفل عن الله تعالى وكان قلبه محجوباً فإذا طلب المعاش أو تداوى صار فتنة عليه، وتعلق قلبه به وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرقى ثم رخص فيما يؤمن فيه الشرك، روى جابر رضى الله عنه «أن عمرو بن حزم دعى لامرأة بالمدينة لدغتها حية ليرقيها فأبى، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه فقال عمر: وإنك لتزجر عن الرقى فقال: اقرأها عليه فقرأها، فقال: لا بأس بها إنما هى مواثيق فارق بها».

وعن جابر رضى الله عنه قال: «كان بالمدينة رجل يكنى أبا مذكر يرقى من العقرب ينفع الله بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا مذكر ما رقيتك هذه أعرضها علىّ، فقال أبومذكر: شجة قرنية ملحة بحر قفطى، فقال عليه السلام: لا بأس بها إنما هى مواثيق أخذها سليمان بن داود عليه السلام، على الهوام وهذه لغة حمير».

[الأصل الثالث والثمانون فى التنبيه على أن العقوبة من الله تعم والرحمة للمطيع]

عن يوسف بن عطية الصفار قال: سمعت ابن سيرين وسأله رجل فقال: «يا أبا بكر ما تقول فى هذا الذرّ يقع فى طعامنا وشرابنا فنقتله؟ فقال: حدثنا أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نبياً من الأنبياء كان فى غزاة له فنزل تحت شجرة فلذعته نملة فأمر بتلك الشجرة فأحرقت، فأوحى الله تعالى إليه ألا نملة مكان نملة» (١) كان هذا النبى قد حاور ربه فى شأن الخلق وروى أن ذلك كان موسى بن عمران فقال: يا رب تعذب أهل قرية بمعاصيهم، وفيهم المطيع، فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده، فسلط عليه الحر حتى التجأ إلى ظل شجرة مستروحاً وعندها بيت النمل، فغلبه النوم فلما وجد لذة النوم، لذعته النملة فاضجرته فدلكهن، بقدمه وأحرق تلك الشجرة التى عندها مساكنهم فأراه الله تعالى العبرة فى ذلك أنه إنما لذعتك نملة فكيف أصبت الباقين بعقوبتها يريد أن ينبه على ذلك أنك تحيرت فى عذابى أهل قرية وفيهم المطيع والعاصى، وإنما أجرمت إليك نملة فكيف قتلتهم وليس فى هذا حظر عن قتل النمل لأن كل ما آذاك أبيح لك قتله ألا ترى أن الفأر والغراب والكلب والحية والعقرب قد أبيح للمحرم قتلها، وكذلك سائر الهوام المؤذية إلا أن المؤمن لا يقتل هذه الأشياء عبثاً

---

(١) أخرجه البخارى (٣٥٦/٦) ومسلم فى الصحيح (١٧٥٩/٤) والنسائى (٢١٠/٧) والإمام أحمد فى مسنده (٣١٣/٢).

ولكنه يقتلها بحق إذا كان من تأذ أو خوف وليس ذاك بأعظم حرمة من المؤمن ومع ذلك يباح دفعه بالقتل.

[الأصل الرابع والثمانون فى أن الناس ينزلون منازلهم وتدبير الله فى اختلاف أحوالهم]

عن ميمون بن أبى شبيب عن عَائشة رضى الله عنها قالت: «مر عليها سائل فأمرت له بكسرة ومر عليها رجل ذو هيئة فاقعدته فقيل لها فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن ننزل الناس منازلهم» (١) دبر الله تعالى لعبيده الأحوال غنى وفقراً وعزاً وذلاً ورفعة وضعة ليبلوهم فى الدنيا أيهم يشكر على العطاء وأيهم يصبر على المنع وأيهم يقنع بما أوتى وأيهم يسخط ثم ينقلهم إلى الآخرة فذلك يوم الجزاء فالعاقل يعاشر أهل دنياه على ما دبر الله لهم، فالغنى قد عوده الله النعمة، وهى منه كرامة إبتلاء لا كرامة ثواب، قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ * كَلَّا﴾ (٢)

أى لست أكرم بالدنيا ولا أهين بمنعها فإذا لم تنزله المنزلة التى أنزل الله تعالى استهنت به، وجفوته من غير جرم استحق به ذلك الجفاء وتركت موافقة الله تعالى فى تدبيره وأفسدت عليه دينه، وهو قوله عليه السلام: «أنزلوا الناس منازلهم» أى المنازل التى أنزلهم الله من دنياهم. أما الآخرة فقد غيب شأنها عن العباد فإذا سويت بين الغنى والفقير فى

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه ـ كتاب الأدب ـ باب فى تنزيل الناس منازلهم (٢/٦١٢).

(٢) الفجر (٨٩/١٥، ١٦، ١٧). راجع قول القرطبى فى تفسيره (١٩/٥١).

مجلس أو مأدبة أو هدية كان ما أفسدت أكثر مما أصلحت، فإن الغنى يجد عليك إذا ازريت بحقه فإن الله تعالى لم يعوده ذاك والفقير يعظم ذلك القليل فى عينه ويقنع بذلك لأن تلك عادته، وكذلك معاملة الملوك والولاة على هذا السبيل، فإذا عاملت الملوك بمعاملة الرعية فقد استخففت بحق السلطان وهو ظل الله تعالى فى أرضه به تسكن النفوس، وتجتمع الأمور فالناظر إلى ظل الله عليهم فى الشغل عن الإلتفات إلى سيرهم وأعمالهم وإنما نفر قوم من السلف عنهم وجانبوهم لأنه لم تمت شهوات نفوسهم ولم يكن لقلوبهم مطالعة، ظل الله تعالى عليهم فخافوا أن يخالطوهم أن يجدوا حلاوة برهم فتخلط قلوبهم بقلوبهم فجانبوهم وأعرضوا عنهم وتأولوا فى ذلك لحديث ابن عباس رضى الله عنهما: «ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر».

وهذا من قلة معرفتهم بتأويله فإنهم لو نظروا إليهم بما ألبسوا من ظله لشغلوا عن جميع ما هم فيه ولم يضرهم اختلاطهم وبهذه القوة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون بعدهم بإحسان يلقون الأمراء الذين قد ظهر جورهم (٣) ويقبلون جوائزهم ويظهرون العطف عليهم والنصيحة لهم.

وأما حديث ابن عباس رضى الله عنهما فتأويله أن الذى يعظم فى عينه حطام الدنيا وباع آخرته بدنياه من المنافسة فى الدنيا والرغبة فيها وعظم شأن الأغنياء فى عينه لما يرى عليهم من الدنيا فيعظمهم ويتملقهم (٤) ويكرمهم تكريماً وتعظيماً لما فى أيديهم وإذا رأى من قد منع هذا وزويت (٥) عن الدنيا ازدراه (٦) وحقره فلغلبة الشهوات يعظم

(٣) الجور: الظلم.
(٤) يتملق: يداهن؛ لأجل مصلحة يطمع فى نوالها.
(٥) زويت عنه: حجبت عنه.
(٦) الازدراء: الاحتقار.

أبناء الدنيا ويحقر أبناء الآخرة، فهو مستوجب لعنة الله تعالى لأنه مفتون يكرم (٧) مفتوناً فأما عبد دقت الدنيا فى عينه ورحم أهل البلاء فهو يرى الغنى مبتلى بغتاه قد تراكمت عليه أثقال النعمة وغرق فى حسابها وعليه وبالها غدا فيرحمه فى ذلك كالغريق الذى يذهب به السيل فإذا لقيه أكرمه وبره على ما عوده. الله تعالى إبقاء على دينه لئلا يفسد فإنه قد تعزز بدنياه، وتكبر وتاه ويعظم ذلك فى نفسه، فإذا حقرته فقد أهلكته لأن عزه دنياه، فإذا أسقطت عزه فقد سلبته دنياه، وهذه محاربة لاعشرة؛ فعليك أن تبره وتكرمه مدارياً له (٨) على دينه، ورفقاً به وترحمه بقلبك، وقد صغر فى عينيك ما خوله الله تعالى من الدنيا، وهذا فعل الأنبياء والأولياء وبذلك أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إذا جاءكم كريم قوم فاكرموه» (٩) أراد من عوده قومه الإكرام من غير أن ينسمه إلى دين أو صلاح فإذا أنت مأجور بإكرام من عوده قومه الإكرام فكيف من عوده الله تعالى، وأكرمه ونعمه كرامة الابتلاء، فإذا رأى ذا نعمة عظمه فى الظاهر تعظيم بر ولطف لبقى من دينه ودين نفسه، وليكون تدبير الله تعالى الذى وضعه له فى العز (١٠) والتعظيم بمكانه وهو فى الباطن قلبه منه بعيد، وهكذا أهل الفساد من الموحدين يلطف بهم ويرفق بهم فى الظاهر إبقاء على أحوالهم فى أمر دينهم، والرفق محبوب مبارك، عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله

---

(٧) ما أجمل هذه العبارة: «مفتون يكرم مفتوناً» إنها حال أهل النار فى الدنيا، وخلتهم الموسومين بها، فتبرأ إلى الله منها ومنهم.

(٨) من المداراة، وقد روى منذ القديم مثلاً:

دارهم ما دمت فى دارهم — وأرضهم ما دمت فى أرضهم

ومن كثرة ذيوع هذا وانتشاره؛ وهم كثير من الناس إنه حديث، لكن بعضاً من الحفاظ أنكروه فقال فى المقاص: ما علمته، وقال النجم: ليس بحديث.

(٩) لذلك قال صلى الله عليه وسلم لأبى سفيان: «كل الصيد فى جوف الفرا».

(١٠) فى نسخة أخرى [من الفرا].

صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الرفق كله»(11)، وقال عليه السلام: «من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة»(12)، وقال عليه السلام: «إذا أراد الله تعالى بأهل بيت خيراً أدخل عليهم باب الرفق» صدق رسول الله.

---

(11) وفي رواية أخرى: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله».

(12) رواه مسلم بنحوه عن أنس، وقد ذكره الشيباني في التمييز ص38، ص39.

[الأصل الخامس والثمانون فى أن المؤمن يموت بعرق الجبين]

عن بريدة عن أبيه رضى الله عنهما، وكان بخراسان فدخل على ابن أخ له يعوده فوجده فى الموت فإذا هو يعرق جبينه فقال بريدة: «الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: المؤمن يموت بعرق الجبين» (1)، المؤمن لما رأى ذنوبه فى وقت مقدمه على ربه فترائى له قبح ما جاء به فيستحيى منه فيعرق لذلك وجهه لأن ما سفل منه قد مات وإنما بقيت قوى الحياة وحركاتها فيما علا، والحياء فى العينين، وذلك وقت الحياء، والرجاء والأمل، فإذا عرق فذاك علامة الإيمان، فأما الكافر فى عمى عن هذا كله.

وعن سعيد بن سوفة قال: دخلنا على سمان الفارسى نعوده وهو مبطون فقال: إنى محدثك حديثاً لم أحدثه أحداً قبلك ولا أحدث أحداً بعدك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ارقبوا الميت عند موته فإما أن رشحت جبينه وذرفت عيناه، وانتشر منخراه، فهى رحمة من الله تعالى قد نزلت به، فإن غط غطيط البكر المخنوق وخمد لونه وازبد شدقاه فهو عذاب من الله تعالى قد حل به، ثم قال لأمرأته: ما فعل

---

(1) أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الجنائز- باب ما جاء أن المؤمن يموت بعرق الجبين (٣٠١/٣) وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن، وأخرجه النسائى فى سننه -كتاب الجنائز- باب علامة موت المؤمن (٥/٤)، وأحمد فى مسنده (٣٥٠/٥، ٣٥٧، ٣٦٠ق٣)، وأخرجه الحالكم فى المستدرك -كتاب الجنائز- بال المؤمن يموت بعرق الجبين (٣٦١/١)، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

المسك الذى جئنا به من بلنجر؟ قالت: هو ذا قال: فألقيه فى الماء ثم اضربى بعضه ببعض، ثم انضحى حول فراشى فإنه يأتينى الآن قوم ليسوا بجن ولا إنس ففعلت فقمنا من عنده ثم رجعنا فوجدناه قد قبض».

وعن عبد الله (٢) قال: «موت المؤمن بعرق الجبين إن المؤمن يبقى عليه خطايا من خطاياه فيجازف بها عند الموت فيعرق لذلك جبينه».

(٢) فى نسخة أخرى [وعن عبيد الله].

[الأصل السادس والثمانون فى أن الكيس من أبصر العاقبة والأحمق من عمى عنها]

عن ابن عمر رضى الله عنهما «أن رجلاً قال يا نبى الله أى المؤمنين أكيس قال: أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم له استعداداً وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع قالوا: ما آية ذلك يا نبى الله؟ قال: الإنابة (١) إلى دار الخلود، والتجافى (٢) عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» ثم قرأ:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (٣)

الموت عاقبة أمر الدنيا فالكيس من أبصر العاقبة والأحمق من عمى عنها وإنما عمى عنها بحجب الشهوات التى قامت بين يدى قلبه فاقتضته إنجازها وجاءته الأمانى بمواعيدها الكاذبة المخلفة فتقول له خذها ثم تتوب وأتته الشهوة وتقول له خذنى إليك ثم تستغفر فإن الله غفور للمذنبين وحبيب للتائبين، فهذه حجب كثيفة دون العاقبة فلا يراها والكيس من سعد بجميل نظر الله تعالى وأعطى النور الزائد على نور الموحدين، وهو نور اليقين يهتك هذا النور الحجب والدخان والظلمة التى فى الصدر من

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك -كتاب الفتن والملاحم- باب ذكر خمس بلاء أعاذ النبى صلى الله عليه وسلم منها المسلمين (٥٤٠/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. وأخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الزهد- باب ذكر الموت والاستعداد له (١٤٢٣/٢). ورواه الطبرانى فى الصغير (٨٧/٢) من رواية ابن عمر، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣٢٥/٥).

(٢) التجافى عن دار الغرور: الرغبة عنها، والزهد فيها.

(٣) الزمر (٢٢/٣٩). راجع الطبرى (١٣٤/٢٣).

الشهوات فسكن الدخان، وانقشعت الظلمة، واستنار الصدر فأبصر عاقبة أمره وأنها قاطعة لكل لذة وشهوة، وحائلة بينه وبين كل أمنية وأن عمره انفاس معدودة لا يدرى متى ينفد العدد فصار من ذلك على خطر عظيم ولا يعلم متى يحل به الموت ويبغت به الأمر فيرحل إليه من دار الغرور مغتراً به مخدوعاً عنه مع دنس المعاصى وقبح الآثام فلا وصول إلى توبة، ولا مهلة له فى إنابة فيكون مقدمه مقدم العبيد الأباق الذين أمهلهم الله فى الدنيا وحلم عنهم وكانوا يحكمون لأنفسهم بما يشتهون فى دنياهم، وهم مستدرجونَ فى مكره فيردهم إليه ويحكم فيهم بما يستوجبون من أباقهم.

قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ (٤)

فالكيس نظر بنوره الذى منّ الله تعالى عليه به فأبصر أن الموت قاطع كل لذة، حائل بينه وبين التوبة؛ فانكسر قلبه وذبلت نفسه، وخمدت نار شهوته، واكفهر الحق فى وجه امنيته، واستعد لكل ذنب توبة واعتذاراً، ومكان كل سيئة حسنة واستغفاراً، لتكون الحسنة غطاء للسيئة والتوبة محاء للخطيئة، فهذا تفسير قوله عليه السلام: «أكيسهم أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم له استعداداً» فالاستعداد أن يجانب التخليط مجانبة لا يحتاج إلى استمهال إذا فاجأه أمر الله تعالى وجاءته دعوته فيقول: أمهلنى حتى أتوب وأصلح أمرى وحسن الاستعداد أن يكون قد استعد للقائه والعرض عليه بعد علمه أن الموت يؤديه إليه فطاب قلبه بالله تعالى وروحه بالطاعة ونفسه تجتنب الشهوات والمنى ورفض التدبير لنفسه وتفويض ذلك إلى خالقه، وهذا صفة أهل اليقين الذين قال الله تعالى فيهم:

(٤) الأنعام (٦/٦٢).

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (٥) الآية

تسلم عليهم الملائكة من الله تعالى وتبشرهم بدخول الجنة من غير حبس في موطن أى حساب فى موقف، وإنما سموا طيبين لأنه لم يبق فيهم تخليط فطابوا روحاً وطابوا قلباً وطابوا نفساً، وأما أهل التخليط لا يقال لهم هذه الكلمة عند الموت، وإنما يقال لهم طبتم فادخلوها خالدين عند باب الجنة بعدما محصوا(٦) بعذاب القبر، وأهوال القيامة وتناول النيران فيهم بلفحاتها على الصراط والحبس فى العرض الأكبر فإذا خلى عنهم وبلغوا باب الجنة نودوا:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ (٧)

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الناس يعرضون ثلاث عرضات يوم القيامة» فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما فى العرضة الثالثة تطاير الصحف، فالجدال للأعداء لأنهم لا يعرفون ربهم، فيظنون أنهم إذا جادلوه نجوا وقامت حججهم، والمعاذير لله الكريم يعتذر إلى أنبيائه عليهم السلام، ويقيم حجته عندهم على الأعداء ثم يبعثهم إلى النار، قال عليه السلام: «لا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى ولا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى» والعرضة الثالثة للمؤمنين وهو العرض الأكبر، وهم على ضربين منهم من نبه فى الحياة الدنيا فكاد يموت حياء وفرقاً(٨) فأعطى الأمان غداً من ذلك فإنه لم يجمع ذلك على العبد فى موطنين، قال عليه السلام: «قال ربكم وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين فمن خافنى فى

---

(٥) النحل (٣٢/١٦).

(٦) محصوا: من التمحيص، وهو الاختبار والتنقية.

(٧) الزمر (٧٣/٣٩). راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (٢٧٢/٢٦).

(٨) فرقاً: خوفاً.

الدنيا أمنته في الآخرة ومن أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة » (٩) ومنهم من يريد أن يعاتبه حتى يذوق وبال الحياة منه ويفيض عرقاً بين يديه ، ويفيض العرق منهم على أقدامهم من شدة الحياء ، ثم يغفر لهم ، ويرضى عنهم ، فمن استحيى من الله تعالى فى الدنيا مما صنع استحيى الله تعالى من تفتيشه ، وسؤاله ، ولا يجمع عليه حيائين كما لا يجمع عليه خوفين ، وقد ستر محاسنه مساويه حتى يصير فى ستر محاسنه ، وستر عليه علمه حتى لا يستحيى من الخلق ، ومن نفسه وقوله عليه السلام: « إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح » فدخول النور فى القلب ، والانفساح فى الصدر فإن الصدر بيت القلب ، ومنه تصدر الأمور فيدخل النور فى القلب ، ومنه ينفسح الصدر وينشرح ويتسع لأن الصدر كان مظلماً بالشهوات المتراكمة فيه والأماني ، والفكر ، وعجائب النفس ، ودواهيها فكان يضيق بأوامر الله تعالى لأنها خلاف أمنيته وهواه فلما قذف بالنور فيه نفى الظلمة ، وأشرق الصدر، واتسع فيه أمر الله تعالى ، ونصائحه وآدابه ، ومواعظه ، فهذا كله علامة الباطن ، وأما علامة الظاهر فثلاثة خصال أشار عليه السلام إليها بقوله : « الإنابة (١٠) إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت » .

فأما الإنابة إلى دار الخلود فهى أعمال البرّ؛ لأنها وضعت جزاء لأعمال البر قال الله تعالى :

﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١١)

فإذا انكمش فى أعمال البرّ فهو إنابته وأما التجافي عن دار الغرور فهو أن يخمد حرصه على الدنيا ولها عن طلبها وأقبل على ما يعينه منها واكتفى بها وقنع فقد تجافى عن دار الغرور، وأما الاستعداد للموت هو

---

(٩) هذا من لطف الله ورحمته.

(١٠) الإنابة : الرجوع إلى الله.

(١١) الاحقاف (١٤/٤٦).

أن يعلم أنه ربما كان فى قضاء شهوة فى مساخط الله تعالى، ويغافص بأمر الله تعالى، ويبغت بدعوته، ولابد من الإجابة فى أسرع من اللمحة، فلا رجاء للمهلة ولا وصول إلى التوبة فيحكم أموره بالتقوى فكان ناظراً فى كل أمر واقفاً متأنياً متثبتاً حذراً يتورع عما يريبه إلى مالا يريبه، فمن فعل ذلك فقد استعد للموت وإنما صارت له هذه الرؤية بالنور الذى ولج القلب [١٢].

(١٢) ولج القلب: دخله.

[الأصل السابع والثمانون فى أن من الناس مفاتيح للخير ومن الناس مفاتيح للشر]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من الناس ناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، ومن الناس ناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل مفاتيح الخير على يديه وويل لمن جعل مفاتيح الشر على يديه» (١)، فالخير مرضاة الله والشر مسخطه، وإذا رضى الله عن عبد كان علامة رضاها عنه أن يجعله مفتاحاً للخير فإن رؤى ذكر الخير برؤيته، وإن حضر حضر معه الخير، وإن ذكر ذكر الخير معه، وإن نطق نطق بخير وعليه من الله تعالى سمات ظاهرة تذكر بالخير من لقيه، يتقلب فى الخير بعمل الخير، وينطق بالخير، ويفكر فى الخير، ويضمر على الخير، وهو مفتاح الخير حيث ما حضر، وسبب الخير لكل من خالطه أو عاشره أو صحبه، والآخر يتقلب فى الشر، يعمل بالشر، وينطق بالشر، ويفكر بالشر، ويضمر على شر، فهو مفتاح الشر حيثما حضر، وسبب الشر لكل من خالطه أو صحبه، فصحبة الأول دواء لا ترجع منه إلا بزيادة، وصحبة الثانى داء لا ترجع منه إلا بنقصان، فمن كان بين يدى قلبه دنياه فإنما يفتتح بدنياه إذا لقيك، ومن كان بين يدى قلبه آخرته، فإنما يفتتح بآخرته إذا لقيك، ومن كان بين يدى قلبه خالقه فإنما يفتتح بذكره إذا لقيك، كل إنما ينشر عليك بره

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه -فى المقدمة- باب من كان مفتاحا للخير (٨٦/١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٧٩/١). وفى نسخة أخرى [لمن جعل مفتاح] فى الموضعين.

ويحدثك عما يطالع قلبه، فالناطق عن دنياه يرغبك فيها ويزين لك أحوالها، فالاستماع منه سقم يورطك فى ورطته ويلقيك فى وهدته، والناطق عن آخرته يرغبك فيها ويزين لك أحوالها ويقلل الدنيا فى عينك، ويزهدك فيها، ويقف بك منها على سبيل خطر لما يخبرك عن فتنتها وغرورها، وخدعها، وأمانيها الكاذبة، وما يلقى أهلها غداً من شدة الحساب وأهوال القيامة، والناطق عن الله تعالى عز ذكره يقف بك على تدبير الله تعالى، وعلى سبيل الاستقامة فى العبودة ويلهيك عن نفسك، وعن الدارين، لما يفتح عليك من منن الله تعالى وإحسانه ولما يكشف عن آلاء الله من الغيوب المستترة التى حرم هذا الخلق معرفتها والانتباه لها حتى يؤديك إلى سنن التوحيد فيرقى بك إلى فردانيته فتنفرد للفرد الواحد، وهم الكبراء الذين روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يا أبا جحيفة جالس الكبراء وخالل الحكماء وسائل العلماء» (٢)، فالعلماء بعلم أموره ينطقون فالمسائلة لهم تسائلهم عن حلال الله وحرامه، والحكماء بعلم تدبيره ينطقون فالمخاللة لهم تخالله وتصير له، مأمناً فيفضى إليك حكمته، والكبراء بعلم آلائه ينطقون تكبروا فى كبرياء الله وعظمته، وانفردوا فى فردانيته واعتزوا به، فرؤيتهم دواء، وكلامهم شفاء، فالمجالسة لهؤلاء فقد جعل الله تعالى فى الخير من البركة ما يغلب الشر حيث ما كان.

---

(٢) ومن كان جلساؤه من الكبراء، وأخلاؤه من الحكماء ومسائله للعلماء، كان خليقاً بالصدق والاستقامة.

[الأصل الثامن والثمانون فى أن إجماع الأمة حجة واختلافهم رحمة]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجمع الله أمتى أو هذه الأمة على ضلالة أبداً ويد الله على الجماعة هكذا فاتبعوا السواد الأعظم فإنه من شذ شذ فى النار» (١)، وعد الله رسوله أن لا يزال دينه ظاهراً على الأديان عالياً غالباً لأهلها النصرة معه حيثما كان قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ (٢)

وهذا الدين يشتمل على الإيمان والإسلام، فجملة الإيمان هو الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبالرسل عليهم السلام والكتب كلها، والملائكة واليوم الآخر، والبعث والجزاء، والقدر خيره وشره، هذا جملة الإيمان وجملة الإسلام هى الصلوات الخمس، بوضوئها فى مواقيتها والغسل من الجنابة والزكاة والصوم، وألحج وتحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل الله تعالى، هذه جملة الإسلام وعليه السواد الأعظم لا يختلفون فيه، فمن شذ عن شيء منه فجحده فقد خرج من الشريعة وخاب من الإسلام، وزاغ

(١) أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الفتن- باب ما جاء فى لزوم الجماعة (٤٦٦/٣). وأخرجه الحاكم فى المستدرك -كتاب العلم- باب لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبداً (١١٥/١). وأخرجه ابن ماجة فى سننه -كتاب الفتن- باب السواد الأعظم (١٣٠٣/٢)، وذكره البيهقى فى الأسماء والصفات -باب ما جاء فى اثبات اليدين ص ٣٢٢. وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٢٢٢/٢).

(٢) التوبة (٣٣/٩).

عـن سـبيل الهدى، وشذ إلى النار ثم للعلماء مداخل، مقال فى الحوادث مـن طريق الأحكام واختلافهم فيها رحمة واسعة لأمة محمد صلى الله عليه وسـلـم مـن الله تـعـالـى عليهم بذلك وسهل لهم سبل النظر والاجتهاد فى الرأى فيما لم يجدوا فيه تنزيلاً ولا سنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

[الأصل التاسع والثمانون فى صفة الجنان الأربع]

عن عبد الله بن قيس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جنان الفردوس (١) أربع: جنتان من فضة آنيتها، وما فيها، وجنتان من ذهب آنيتها وما فيها، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم الإرداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» (٢)، هذا تأويل قوله تعالى:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (٣)،

وقوله:

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ (٤)،

وقد وصفها الله تعالى فى سورة الرحمن وقوله: ما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء فى جنة عدن، فجنة عدن دار الرحمن، ومقصورته، والفردوس جنات الأولياء والأنبياء عليهم السلام بقرب جنة عدن، فعدن كالمدينة، والفردوس كالقرى حولها، فإذا تجلى الرب لأهل الفردوس رفع الحجاب، وهو رداء الكبرياء، فينظرون إلى

---

(١) فى نسخة أخرى [جنات الفردوس].

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٤/٨) ومسلم فى الصحيح (١٥/٣، ١٦) والترمذى (٦٧٣/٤) وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. كذا أخرجه أحمد فى المسند (٤١١/٤، ٤١٦).

(٣) الرحمن (٤٦/٥٥).

(٤) الرحمن (٦٢/٥٥).

جلاله، وجماله، فحجابه فى جنات عدن رداء الكبرياء وفى الدنيا النار، وقال عليه السلام: «حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره» وهذا لأن أيام الدنيا أيام الملك والسلطان والربوبية، وأيام الآخرة أيام المجد والكرم، والبر والمفاوضة فقال ههنا حجاب، وهناك رداء، قال عليه السلام: «إن من أهل الجنة من ينظر إلى الله تعالى، غدوة وعشياً» وفى حديث آخر: «أن أهل الجنة يزورون فى كل يوم جمعة فينظرون إلى الله تعالى» وللقوم فى ذلك منازل ودرجات متفاوتة.

[الأصل التسعون في الفرق بين حسن الأشياء عند أولي الألباب وبين حسنها عند السفهاء]

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أهدى النجاشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حلية فيها خاتم من ذهب فيه فص حبشي فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود أو ببعض أصابعه وإنه لمعرض عنه ثم دعا ابنة ابنته أمامة ابنة أبي العاص، فقال: تحلي بهذا يا بنية» [1]، جعل الله الحلية زينة لجوارح الإنسان فإذا لبسها زانه ذلك وإذا زانه حلاه فصار ذلك العضو أحلى في أعين الناظرين ولذا سمى حلية لأنه تحلى تلك الجوارح في أعين الناظرين، وفي قلوبهم، قال الله تعالى:

﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [2]

وهي اللؤلؤ فما كان من ذهب فللإناث، ويحرم على الذكور، وما كان من فضة أو جوهر فطلق للرجال والنساء، وقد لبس عليه السلام خاتماً اتخذه من فضة وفصه منه، وعن نافع «أن حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم صاغت حلياً بثلاثين ألف درهم، وجعلته حبيساً على نساء آل عمر رضي الله عنه فلم تكن تؤدي زكاته» وقد خلق الله تعالى الآدمي خلقاً سوياً بارزاً فضله وقدمه على سائر الخلق في أرضه وكل خلق ربي حسن.

---

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/١٤١) وأبو داود (٤/٩٢)، وابن ماجة (٢/١٢٠٢)، وأحمد في مسنده (٦/١١٩).

(2) النحل (١٦/١٤).

قال الله تعالى:

﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (٣)،

وظهر حسن الأشياء عند أولى الألباب والبصائر والعقول لأنهم ينظرون إلى صنعه فى الأمور وأحكامه ولطفه فى الأشياء، وظهر الحسن عند السفهاء ما تحلوا فى نفوسهم عند موافقة شهواتهم فإنهم ينظرون بعين الشهوة وهى سقيمة، والحكماء ينظرون بعين الحكمة، وهى صحيحة والعارفون ينظرون بعين المعرفة إلى صنعه، ولطفه فتبارك الله أحسن الخالقين، والزينة والحلية حق وإنما يفسدها الإرادة والقصد، فإذا كانت الإرادة لله تعالى فقد أقام حقاً من حقوق الله تعالى، وعبد الله بإقامته، وإذا كان لغير الله صار وبالا كسائر الأشياء، ومثل ذلك ما يروى عن جماعة اتوا منزل زكريا عليه السلام فإذا فتاة جميلة رائعة أشرق لها البيت حسناً قالوا: من أنت، قالت: أنا امرأة زكريا قالوا فيما بينهم كنا نرى نبى الله لا يريد الدنيا فإذا هو قد اتخذ امرأة جميلة رائعة قالوا: فأين هو، قالت: فى حائط (٤) آل فلان يعمل له فأتوه فإذا هو قرب رغيفين فأكل ولم يدعهم ثم قام فعمل بقية عمله، وقال لهم: حاجتكم، قالوا: جئنا لأمر ولقد كان يغلبنا ما رأينا على ما جئنا له فقال: هاتوا، قالوا: أتينا منزلك فإذا امرأة جميلة رائعة، وكنا نرى نبى الله لا يريد الدنيا فقال: إنى إنما تزوجت امرأة جميلة رائعة لأكف بها بصرى، وأحفظ بها فرجى، قال: فخرج نبى الله مما قالوا، وقالوا: ورأيناك قربت رغيفين فأكلت ولم تدعنا، قال: إن القوم استأجرونى على عمل فخشيت أن أضعف عن عملهم إن لم آكل، ولو أكلتم معى لم يكفنى ولم يكفكم، فخرج نبى الله مما قالوا.

---

(٣) السجدة (٣٢/٧).

(٤) الحائط: البستان.

[الأصل الحادى والتسعون فى الخصال المنظومة للشكر]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يخطب الناس وتلا هذه الآية:

﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (١)

ثم قال: «ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى داود، فقيل له ما هى يا رسول الله؟ قال: العدل فى الرضى والغضب، والقصد فى الفقر والغنى، وخشية الله فى السر والعلانية» (٢)، معناه أن هذه الخصال منتظمة للشكر من أتى الله بهن فهو شاكر، وهو قوله عليه السلام: «ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فأما المنجيات فخشية الله فى السر والعلانية، والحكم بالحق عند الرضى والغضب، والاقتصاد عند الفقر والغنى، وأما المهلكات فشح مطاع، وهو متبع، وإعجاب المرء بنفسه» وقد أمر الله آل داود أن يعملوا شكراً أى يعملوا عملاً يكون ذلك العمل شكراً لما آتاهم من النعم، وفضلهم بها فأجمل عليه السلام لهذه الأمة فى ثلاث خصال، فقال: «من أوتيهن فقد أوتى الشكر فهو شاكر كشكر آل داود عليه السلام» ويجوز أن يكون معناه أن الأشياء التى أعطيت داود وسليمان عليهما السلام فاستعملاها من أجلى شكر إلى ولم يبطروا

---

(١) سبأ (١٣/٣٤).

(٢) العلانية: العلن. والحديث أوردة السيوطى فى الدر المنثور (٢٢٩/٥) وقال: أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء بن يسار، وأخرجه الحكيم الترمذى عن طريق عطاء بن يسار، وأخرجه ابن النجار فى تاريخه عن طريق عطار بن يسار.

بهذه النعمة، فيغفلوا عنى بل صبروا استعمالها لى فصار شكراً وإذا أوتى العبد هذه الخصال الثلاث قوى على ما قوى عليه آل داود عليه السلام.

[الأصل الثاني والتسعون في الحث على ترك ما لا يعنى]

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1]، الأشياء لا تكون قبيحة ولا حسنة في نفسها وإنما تحسن وتقبح بالشرع، ولهذا كان فيما تقدم من الشرائع أفعال قد أطلق الله تعالى فيها فكان غير قبيح، فلما حرمه حل به القبح كنكاح الأخوات، والجمع بين الأختين كان مطلقاً، وكان حسناً، فلما حرمها صارت فاحشة، ومقتاً، والمسلم قد اعتقد بقلبه، وحدانية الله تعالى لا شريك له وعرفه رباً أسلم نفسه إليه وصار له عبداً بكل ما يأمر وينهى ويحكم ويشاء، فأمرهم بالحق وزجرهم من الباطل، وبين الحق والباطل في تنزيله الكريم فكل شيء يعرض للمؤمن، فلم يعنه تركه من فضول الأشياء وفضول الطعام، وفضول الكلام، وفضول المال، وفضول الأعمال، والأمور التي له منها بد وغنى فترك هذه الفضولات دليل على حسن الإسلام نفسه إلى ربه وبذله عبودة له.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه -كتاب الإيمان- باب حسن اسلام المرء (١/٩٨). وأخرجه النسائى فى سننه -كتاب الإيمان- باب حسن إلاسم المرء (٨/١٠٥). وأخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٠١). وابن ماجة فى سننه -كتاب الفتن- باب كف اللسان فى الفتنة (٢/١٣١٦). ومالك فى الموطأ -كتاب ما جاء فى حسن الخلق (٢/٢١٠).

[الأصل الثالث والتسعون فى التعوذ بنسبة الحق تعالى]

عن عثمان رضى الله عنه قال: دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذنى فقال: «أعيذك بالله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد من شر ما تجد فرددها سبعاً، فلما أراد القيام قال: تعوذ بها فما تعوذ بخير منها يا عثمان فمن تعوذ بها فقد تعوذ بما يعدل ثلث القرآن وبنسبة الله تعالى التى رضيها لنفسه»[1].

---

(١) أورده السيوطى فى مسانيد الجامع الكبير (٩/٢) من مسند عثمان وأخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة- باب دعاء المريض لنفسه ص١٧٧. وأشار إليه الزبيدى فى الاتحاف (٢٩٦/٦). وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد -كتاب الطب- باب ما جاء فى الرقى للعين والمرض وغير ذلك (١١٠/٥).

[الأصل الرابع والتسعون فى حكمة الله تعالى فيما نهى عن قتله وأمر بقتله]

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النملة والنحلة والهدهد والصرد» (١)، خلق الله تعالى فى الأرض أمماً ثم خلق آدم عليه السلام، وأبرز فضله على سائر البرية بأن سخر له ما فى السموات وما فى الأرض.

قال الله تعالى:

﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٢)،

بأن فضل الآدمى على سائر الأمم.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ ﴾ (٣) الآية،

وعن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله تعالى خلق ألف أمة: ستمائة فى البحر، وأربعمائة فى

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١٠٧٤/٢)، والبيهقى فى السنن (٣١٧/٩) وأبو داود (٣٦٧/٤) وأحمد فى المسند من حديث ابن عباس (٣٣٢/١).

(٢) البقرة (٢٩/٢).

(٣) الإسراء (٧٠/١٧).

البر، وان أول هلاك هذه الأمة الجراد فإذا هلكت الجراد تتابعته الأمم مثل نظام السلك إذا انقطع».

وإنما تهلك الأمم لهلاك الآدميين لأنها سخرت لهم ومن فضل الآدميين على سائر الأمم أن جميعها يعودون تراباً يوم القيامة الآدميون يوقفون للثواب والعقاب، والآدميون وغيرهم من الأمم جواهر على اختلاف تربتها التى منها خلقت، وقال عليه السلام: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنوا آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض والسهل والحزن والخبيث والطيب» فكما ترى فى بنى آدم جواهرهم، حتى يظهر منهم معالى الأخلاق، ومدانيها، كذلك فى سائر هذه الأشياء من الدواب، والوحوش، والطير، فالحية أبدت جوهرها حيث خانت آدم عليه السلام حتى لعنت وأخرجت من الجنة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها، وقال اقتلوها وان كنتم فى الصلاة، والوزغة أبدت جوهرها فنفخت على نار نمرود عليه اللعنة فلعنت، قال عليه السلام: «من قتل وزغة فكانما قتل كافراً» والفأر أبدت جوهرها فكن يقرضن حبال سفينة نوح عليه السلام، فشكى نوح إلى الله تعالى فأوحى إليه أن امسح جبهة الأسد فعطس فخرج سنوران فأكلا الفار(٤)، ثم كثرت العذرة(٥) فى السفينة فأوحى إليه أن امسح ذنب الفيل فنثر خنزيران(٦) فاكلا العذرة، والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض، فترك أمره وأقبل على جيفة والحمار أبدى جوهره حيث تلوط(٧) ونزا(٨) على ذكر قال ابن سيرين: ليس شىء من

(٤) الفأر فى بعض النسخ، ومن غير الهمزة فى أخرى.

(٥) العذرة: وتجمع على عذرات.

(٦) خنزيران: مثنى خنزير.

(٧) تلوط: عمل عمل قوم لوط، من اللواط.

(٨) نزا: وثب.

الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير، والحمار، والضفدع أبدى جوهره حيث جاء بالماء ليطفىء عن إبراهيم عليه السلام ناره فأثيب أن جعل مكانه الماء وأنها أكثر الدواب تسبيحاً، والنملة أبدت جوهرها حيث أثنت على سليمان عليه السلام فقالت: «ليحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون»، والنحلة مذكورة فى التنزيل.

قال الله تعالى:

﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (٩)،

والهدهد كان رسول سليمان عليه السلام إلى بلقيس وحامل كتابه، والمؤدى عنها خبرها إلى سليمان عليه السلام، والصرد يقال له صرد الصوام، قال أبوهريرة رضى الله عنه: «أول طير صام الصرد لما خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم فى بناء البيت كانت السكينة معه والصرد وكان الصرد دليله إلى الموضع والسكينة مقداره فلما صار إلى البقعة وقفت السكينة على موضع البيت ونادت ابن إبراهيم على مقدار ظلى» نهى عن قتل النملة لأنها أثنت على سليمان عليه السلام بأبلغ ما تقدر ونهى عن قتل النحل لأن فيه شفاء.

قال أبو هريرة رضى الله عنه الذبان(١٠) كلها فى النار يجعلها عذاباً لأهل النار إلا النحل، ونهى عن قتل العنكبوت لأنه نسج على غار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن الهدهد لأنه كان دليل سليمان عليه السلام على الماء، وعن الضفدعة(١١)، لأنها كانت تصب الماء على نار إبراهيم عليه السلام، وعن الصرد لأنه دل إبراهيم عليه

---

(٩) النحل (٦٨/١٦).
(١٠) الذبان: الذباب، كما ورد فى نسخة أخرى.
(١١) عن الضفدع [نسخة أخرى].

السلام على البيت فقد علم الله سبحانه من جواهر هذا الخلق؛ فاختار لمحبوبه من الأمور من قد علم طيب جوهره وأظهر الآخرون بأفعالهم خبث جواهر هم مثل الفأرة، والغراب، والوزغة، والحية، ويحل قتلها من غير أذى فأما غير ذلك إذا آذى فيحل قتله، ودفع شره عن نفسه، وعن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الديك فإنه يدعو إلى الصلاة».

[الأصل الخامس والتسعون في سر قوله تعالى: «من يعمل سوء يجزيه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً»]

عن حيان قال: صحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة، فقال لنافع لا تمر بي على المصلوب يعني ابن الزبير قال: ففافجئه في جوف الليل أن صك محملة جذعه فجلس يمسح عينيه ثم قال: يرحمك الله أبا خبيب إن كنت ولقد سمعت أباك الزبير يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يعمل سوء يجز به في الدنيا أو في الآخرة فإن يك هذا بذاك فهمه همه» (1) قال الله تعالى:

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (2)

وهذا عام ثم ميز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يجزبه في الدنيا أو الآخرة وليس يجمع الجزاء في الموطنين»، وروى أنه لما نزل قوله تعالى:

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (2)

قال أبوبكر رضي الله عنه يا رسول الله ما هذه ببقية منا، قال: «يا أبا بكر إنما يجزى به المؤمن في الدنيا، ويجزى به الكافر يوم القيامة»

---

(1) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد -كتاب التفسير- تفسير سورة النساء (١٢/٧). وأحمد في مسنده من حديث أبي بكر الصديق (٦/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٣٤/١). وذكره ابن كثير في تفسيره سورة النساء (٣٧٠/٢).

(2) النساء (١٢٣/٤).

وفى رواية أخرى قال: «ألست تنصب ألست تحزن الست تصيبك اللأواء (٣) قال: بلى (٤)، قال: فذلك ما تجزون به».

وقول ابن عمر إن يك هذا بذاك فهمه همه فإن ابن الزبير قاتل فى حرم الله وأحدث فيها حدثاً عظيماً حتى أحرق البيت ورمى الحجر الأسود بالمنجنيق فانصدع حتى ضبب بالفضة فهو إلى يومنا كذلك، وسمع للبيت أنيناً آه آه.

وقد قال عليه السلام يوم فتح مكة: «إنها لا تحل لأحد بعدى وإنما أحلت لى ساعة من نهار وإنها حرّمت يوم خلق الله السموات والأرض».

فلما رأى ابن عمر فعله ثم رآه مصلوباً ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ذلك وذلك لأن المؤمن من يجزى بالسوء فى الدنيا بالنصب والتعب ونوائب الدنيا الحزن والغم والكافر يصيبه ذلك وليس ذاك جزاء له بالسوء الذى قد عمل وادخر جزاؤه إلى يوم القيامة لأن جميع ما يصيب الكافر من المصائب لا يصبر فيها وإن صبر فصبره تجلد، لا حسبة وتسليم، والمؤمن فى كل ذلك صابر محتسب، مذعن والكافر ساخط على ربه، مضمر على عداوته لأن المؤمن حبب إليه الإيمان وزين فى قلبه فالتذت نفسه، وطابت فلان القلب، ورق الفؤاد، وراحت النفس، وطابت بلذتها فانقاد له، واستسلم وألقى بيديه سلما فإن جاءته أحوال المكاره تحملها، وهو فى ذلك راض عنه طيب النفس يحمده بلسانه، ويرجوه بقلبه، وطابت نفسه بما يرى من رحمة الله تعالى عليه،

---

(٣) اللأواء: الشدة.

(٤) تكون (بلى) عادة للإجابة على السؤال المنفى مثل قوله تعالى: «ألست بربكم، قالوا بلى».

بأنه قد محصه وطهره وإذا خرج من الدنيا انقطع رجاؤه من جميع الخلق وكان متعلق رجائه خالقه، فإذا أعطى صحيفته يوم القيامة فأتى على سيئاته قيل له تجاوز عن قراءتها فقد تجاوزنا عنك بما أصابك فى الدنيا، قال عليه السلام: «ما من شىء يصيب المؤمن من حزن ولا نصب ولا وصب حتى الهم يهمه إلا ان الله تعالى يكفر عنه سيئاته» وفى رواية عن عائشة رضى الله عنها قال عليه السلام: «لا تصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه خطيئة» ومن ههنا قيل أن المرض إذا كان عقوبة لا يقبل الدواء لأنه قد جوزى بها فى الدنيا.

قال النبى عليه السلام: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء فإذا كانت عقوبة فلا دواء له حتى تنقضى مدة العقوبة، وينزل العفو إن شاء الله تعالى».

[الأصل السادس والتسعون فى القبلى وتقبيل الباكورة]

عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالباكورة من كل شىء قبلها ووضعها على عينه اليمنى ثلاثة ثم على عينه اليسرى ثلاثة ثم يقول: «اللهم كما بلغتنا أولها فبلغنا آخرها ثم يعطيها أصغر الولدان» (١)، القبلة على وجوه: قبلة شهوة، وقبلة رحمة، وقبلة حنين، وقبلة اشتياق، وكلها عبادة إذا أريد بها وجه الله تعالى، وأصلها من القلب؛ لأن الرأفة والرحمة معدنها القلب، ثم تصير الرحمة منها إلى الكبد، والرأفة إلى الطحال، ولذلك قال على كرم الله وجهه: «الرحمة فى الكبد والرأفة فى الطحال» (٢) فإذا تقلب القلب بما فيه من الرأفة فارت الرأفة وإنما قيل رأفة لأنه يرؤف ويفور بحرارته، والرؤف والفؤر بمعنى واحد وإذا فار خرجت حرارته من فم القلب إلى الصدر وفار إلى الحلق، فاستعمل الشفتين بذلك، وهو تقبيلها لتقليب القلب، بالرأفة، فقبل وقبل وقلب بمعنى واحد، إلا أن فى الشفتين قبل وفى القلب قلب، وإنما يفور ذلك من نور الإيمان، وكانت الأنبياء عليهم السلام أعظم نوراً وأوفر حظاً من الرأفة إذا عرفت هذا فقبلة الشهوة للزوجة وذاك، من الرحمة والمودة التى جعلت بين الزوجين.

---

(١) أخرجه بمعناه الترمذى في سننه ـ كتاب الدعوات ـ باب مايقول إذا رأى الباكورة من الثمرة (٥/٥٠٦) وقال أبو عيسى حديث حسن صحيح. وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب الأطعمة ـ باب فى الباكورة من الثمرة (٥/٣٩). وأخرجه الدارمى فى سننه ـ كتاب الأطعمة ـ باب فى الباكورة (٢/١٠٦).

(٢) فى نسخة أخرى [انقلب].

قال الله تعالى:

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٣).

والرأفة والرحمة يهيجان الشهوة لأنها حارة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل عائشة، ويمص لسانها وهو صائم، وأما قبلة الرحمة فهى للولدان ومن أشبههم، وإذا قبله فمن رحمته له لأنه من ريحان الله تعالى، وكان يستروح إلى تقبيل الولد.

قال عليه السلام حين قبل الحسن: «إنكم لتبخلون أو تجهلون وتجبنون وأنتم لمن ريحان(٤) الله تعالى»، وفى رواية من ريحان الجنة، وأما قبلة الحنين، فهى للحجر الأسود فكان إذا قبل الحجر قبله حنيناً إلى الجنة لأنه من الجنة والجنة دار الله تعالى، وإنما يحن الأنبياء عليهم السلام إلى دار الله تعالى لأجل الله سبحانه وتعالى لا من أجل التنعيم.

قال عليه السلام لعمر حين قبل الحجر وبكى: «ههنا تسكب العبرات».

وأما قبلة الاشتياق فهى للباكورة لأنه يرى أثر صنعه لعباده فأول ما تخرج الثمرة طرياً لم تدنس بظلمة الدنيا، وهو فلقها، قال الله تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ (٥).

فإذا رأى الباكورة، وهو الذى قد ابتكر بخروجه تحرك نور الإيمان بما أبصر من صنعه ولطفه فانقلب بالرأفة التى فيه فانفلق القلب، أى فتح بابه فخرجت تلك الحرارة من القلب إلى الفم فاستعمل الشفتين بالحركة فقبلها، ثم يضمها على عينه وأشفاره إكراماً وتعظيماً له ثم يدعو بذلك

---

(٣) الروم (٣٠/٢١).

(٤) فى نسخة أخرى [وإنكم لمن].

(٥) الأنعام (٦/٩٥).

الدعاء، ثم يعطيها من لم يتدنس بالذنوب، هو الصبى لأن القلم عنه
مرفوع، والرحمة عليه ظاهرة، ولا يؤاخذ بذنب.

[الأصل السابع والتسعون في أن رهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله تعالى]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل أمة رهبانية ورهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله» (١)، فالرهبانية والسياحة قد كانت فى الأمم الماضية كان أحدهم إذا علاه الخوف والرهبة من الله تعالى، ساح فى البرارى، واتخذ صومعة فى برية فترهب بها لتدوم رهبته فى تلك العزلة، ليستعين بها على بذل النفس لله تعالى عبودة، وأعطى الله تعالى هذه الأمة السيف يضربون به وجوه أعدائه ويضربون.

قال الله تعالى: ﴿ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ (٢).

وهذا أعظم الامتحان فى بذل النفس؛ فمن تلقى سيوف العدو بوجهه فقد صدق الله تعالى فى بذل النفس له عبودة، فهى رهبانية هذه الأمة، ورسولنا عليه السلام مبعوث بالجهاد والحرب عن الله تعالى، حمية له ونصرة لخلقه، وكلمته العليا، قال عليه السلام: «إن الله تعالى بعثنى بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذلة على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم».

---

(٦) أخرجه أحمد فى مسنده من حديث أنس بن مالك (٣/٢٦٦)، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ـكتاب الجهادـ باب فضل (٥/٢٧٨). وأورده الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (٤/٤٤٣).

(٧) التوبة (٩/١١١).

[الأصل الثامن والتسعون في دعم المغموم]

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة فشغله أعرابى فلما قام تبعته، فلما خفت أن يسبقنى إلى بيته ضربت بقدمى على الأرض، فالتفت فقال: أبوإسحاق مه(١)، قلت: يارسول الله دعوة ذكرتها فشغلك الأعرابى، قال: نعم دعوة ذى النون فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ما دعا بها مسلم إلا استجيب له»، العبد إذا وحده، ونفى عنه الشرك ثم نزهه عما رآه عليه من السوء واعترف بأنه من الظالمين، تكرم عليه ربه وتفضل على العبد فلم يخيبه فيما أمل ورجا، وكذلك وعد الله فى تنزيله الكريم فقال:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا ﴾ (٢) الآية.

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٠٥/١) وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وأخرجه الترمذى (٥٢٩/٥) وأحمد فى مسنده (١٧٠/١) من حديث سعد بن أبى وقاص، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٥٨/١٠).

(٢) الأنبياء (٨٧/٢١). النون: الحوت، وذا النون: صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام. راجع الطبرى (٦١/١٧) والقرطبى (٣٢٩/١١) بتصرف.

[الأصل التاسع والتسعون في أن هدى الله تعالى على لسان الناطقين بالحق]

عن أبي رافع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن يهدى الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس» (1)، الهدى على يديه شعبة من الرسالة لأن الرسل عليهم السلام بعثت لتؤدى عن الله تعالى عز وجل وتهدى عباده، فالرسول هاد بما جاء من البيان والله هادى القلوب، يهدى القلوب بما يهدى رسوله بالمنطق بياناً وأداء عنه، فمن كان داعياً إلى الله فهدى الله به عبداً فقد أخذ شعبة من الرسالة واحتظى من ثواب الرسل، حظا من الكرامة، فلذلك صار خيراً له مما طلعت عليه الشمس، قال الله تعالى:

(يا داود لإن تأتينى بعبد آبق أحب إلى من عبادة الثقلين).

وإذا هدى الله تعالى قلباً على لسان ناطق بالهدى فقد أكرم الناطق بجزيل الكرامة، فمن إحدى الكرامات أن جعل لكلامه حكم الصدق والعدالة في القلوب، وكساه من النور كسوة تلج آذان السامعين مع تلك الكسوة فتخرق حجب الشهوات حتى تصل إلى مستقر الإيمان من قلوبهم فيحيى مامات منهم، ويشفى ماسقم منهم وجعل له من السلطان مايذهل نفوس المخاطبين عن شهواتهم، فيأخذ بنواصى قلوب العبيد

---

(1) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد -كتاب الجهاد- باب فيمن يسلم على يديه أحد (٣٣٤/٥). وأورده ابن عبد البر في كتاب جامع بيان العلم وفضله، باب جامع لنشر العلم (١٢٢/١). وأحمد في مسنده من حديث معاذ بن جبل (٢٣٨/٥).

الأبـاق فيـردهم إلى الله تعالى، جذباً وجعله من العملة الحرثة للقلوب، يبذر بذرة فيزرعه الله وينميه.

وروى أبـو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلـم: «مـن أفـضـل ما أعطى العبد فى الدنيا العافية، ومن أفضل ما أعطى العبـد فى الآخرة المغفرة، ومن أفضل ما أعطى العبد من نفسه موعظة حسنة صدر بها قوم عن خير».

[الأصل المائة فى حقيقة النصح لله تعالى وبيان سره]

عن أبى أمامة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله عز وجل أحب ما تعبدنى به عبدى النصح لىّ» (١)، فالنصح له الإقبال عليه بالعبودية، وإن يرفض جميع مشيئاته بمشيئة مولاه، وأن لا يخلط بالعبودية شيئاً من شأن الأحرار وأفعالهم فيكون فى سره وعلانيته قد آثر أمر الله تعالى على هواه وآثر حق الله الكريم على شهوات نفسه، فهذا هو النصح لله تعالى. روى أبوأمامة رضى الله عنه قال: «قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام: ما الناصح (٢) لله قال: الذى يبدأ بحق الله قبل حق الناس، ويؤثر حق الله تعالى على حق الناس، وإذا عرض أمران أحداهما للدنيا والآخر للآخرة بدأ بأمر الآخرة قبل أمر الدنيا؛ وهذه درجة المقتصدين.

وأما المقربون فقد جاوزوا هذه الخطة بجميع أمورهم كلها للآخرة لأنها صارت لله تعالى وقد ماتت نفوسهم عن أن تأخذ بحظها من الأعمال وحيت قلوبهم بالله تعالى؛ فاستوى عندهم عمل الدنيا والآخرة وحقوق الله تعالى، وحقوق الناس فصارت كلها حقوق الله تعالى عندهم، ولهذا كان عليه السلام يصلى وهو حامل أمامة بنت زينب فإذا سجد وضعها وإذا قام رفعها.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥٤/٥)، وأشار إليه الهيثمى فى مجمع الزوائد -كتاب الايمان- باب النصيحة (٨٧/١)، وأبو نقيم فى حلية الأولياء (١٧٥/٨)، والبغوى فى شرح السنة -كتاب البر والصلة- باب النصيحة (٩٦/١٣).

(٢) فى نسخة أخرى [ما المناصح].

وروى شداد بن الهادى عن أبيه قال: «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحدى صلاة العشاء وهو حامل إحدى ابنى ابنته الحسن أو الحسين فتقدم فوضعه عند قدمه اليمنى ثم صلى؛ فسجد بين ظهرانى صلاته سجدة أطالها. قال أبى فرفعت رأسى من بين الناس، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد وإذا الغلام على ظهره فعدت، فسجدت، فلما قضى صلاته قيل يا رسول الله لقد سجدت سجدة ما كنت تسجدها أفشىء أمرت به أم كان يوحى إليك، قال: كل لم يكن ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته».

وعن علقمة قال: قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم هدية فقبضها ثم جلسوا وشغلوه بالمسألة، فما صلى الظهر إلا عند العصر، فالأنبياء والأولياء المقربون عليهم السلام، قد تخلصوا من نفوسهم، فأعمالهم خالصة لله تعالى دنيا كانت أو آخرة، حق الله تعالى كان أو حق الناس، لأن الأمور قد صارت لهم معاينة بنور يقينهم، وعلموا أن الدنيا والآخرة لله تعالى، وأن حق الناس هو حق الله تعالى أوجبه عليهم، وهم فى قبضة الله تعالى، يستعملهم فى أمور دنياهم وأخراهم وحقوقه وحقوق الناس، كيف شاء وقد فارقهم المقتصدون فى ذلك لأنهم قد احتاجوا إلى تقديم الأمرين، وتمييز الحقين لأنهم لم يفارقوا أنفسهم فأى عمل عملوه من دنيا وآخرة فحظوظ نفوسهم فيها قائمة لأن شهواتهم عاملة تأخذ بحظها؛ فإذا اجتمع عليهم أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة أو حقان أحدهما لله تعالى والآخر للناس فشهواتهم عاملة فى أمر دنياهم منزوعة فى أمر آخرتهم، فمن نصيحتهم لله تعالى أن يؤثروا الأمر الذى لا شهوة لنفوسهم فيه ويؤخروا ما فيه حظ للنفس.

كما يروى عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت: «يا رسول الله إن بنى أبى سلمة فى حجرى وليس لهم شىء إلا ما أنفقت عليهم أفلى أجر إن أنفقت عليهم، فقال عليه السلام: «انفقى عليهم فإن لك أجر ما أنفقت عليهم» فأذن المقتصد إذا صلى أو قرأ القرآن أو عمل شيئاً من هذه الأعمال عدها آخرة، وإذا أكل أو شرب أو نام أو جامع عدها دنيا لأنه لا يقدر أن يخلصها حتى يصفو من الشهوة النفسية فافترق أمراه دنيا وآخرة فما كان من أمر الآخرة أمكنه تصفيته على حسب طاقته، وما كان من أمر دنياه، فالشهوة غالبة عليه قاهرة له، فمن النصح له أن يبدأ بأمر الآخرة، وأما المقرب فقد صارت شهوته منية، فالفرق بين الشهوة والمنية أن النفس صارت حية بشهوتها، فإذا عرض لها ما تلتذ به، اهتشت النفس بالعجلة إليه حرصاً وشرها فتلك شهوة، والمنية لما ماتت شهوة النفس، حيى القلب بالله تعالى، فإذا عرض لها ما تلتذ به بالله تعالى، لحظت إلى الله تعالى، وراقبت تدبيره، فإن أعطيت أخذت وان منعت قنعت فتلك منية، فالمقرب منيته فيما دبر الله تعالى له يراقب ما يبدو له من غيب الملكوت فيتلقاه، بالرضاء والذلة والانقياد والقبول عبودة لله تعالى ومسكنة فصارت الأمور كلها آخرة عنده والحقوق كلها حقوق الله تعالى، فالغالب على أمور المقرب ذكر الله تعالى، والغالب على أمور المقتصد ذكر النفس.

قال على كرم الله وجهه فى وصف الشيخين: «إنا أبا بكر كان أواه القلب منيباً، وأن عمر كان عبداً ناصحاً لله تعالى فنصحه»، فالأواه لا يميز بين الأمرين لأنها كلها لله تعالى، وليس فيها ذكر النفس، والناصح لله عبد تفرد لله تعالى بقيام حقوقه فكلما اجتمع أمران للنفس فى أحدهما نصيب آثر الذى لا نصيب لها فيه، وبدأ به، ففعل عمر رضى الله عنه فى الظاهر فعل المقتصدين، وفى الباطن من المقربين لأن المقربين صنفان: صنف منهم قد انفردوا فى فردانيته فخلت قلوبهم

من ذكر نفوسهم والله تعالى يستعملهم ووحدانيته تملك قلوبهم، وهذه صفة أبـى بكر رضى الله عنه، وصنف منهم لم يصلوا إلى هذه الخطة قد انكشف على قلوبهم من جلال الله تعالى، وعظمته ما ملأت قلوبهم من هيبته فهم القائمون على نفوسهم فلا يدعونها تلحظ إلا إلى حق، فالحق يستعملهم، والهيبة تملك قلوبهم، وعمر رضى الله عنه منهم.

روى كعب بن مالك: «أن أبا بكر رضى الله عنه أتى من اليمن بثلاثة سيوف أحدها محلى فقال ابنه عبدالله بن أبى بكر: مرلىّ بهذا السيف المحلى، فقال أبوبكر رضى الله عنه: فهو لك فقال عمر رضى الله عنه: بل إياى فاعطنى، فقال أبوبكر: فأنت أحق به فأخذه عمر رضى الله عنه فانقلب عمر بالسيف إلى منزله فراح، وقد جعل حلية السيف فى ظبية والنصل معه، فقال عمر: يا أبا بكر استعن بهذه الحلية على بعض ما يعروك (٣)، ورمى بالنصل إلى عبدالله بن أبـى بكر، وقال: والله ما صنعت هذا نفاسة(٤) عليك يا أبا بكر ولكن للنظر لك فبكى أبوبكر رضى الله عنه وقال: يرحمك الله يرحمك الله».

دق عند أبى بكر شأن ذلك السيف، وحلية فلم يظهر على قلبه قدر ذلك فاستوى عنده سؤال ولده وسؤال الأجنبى، فأنعم، ثم لما سأله الأولى آثره عليه، وعمر نظر إلى الحق، وإلى تدبير الحق فإن من تدبير الحق جل جلاله أن ينزع الحلية فيستعين بها فى النوائب، وفى النصل بلا حلية كفاية وتابعه أبوبكر رضى الله عنه فى ذلك لأنه أشار إلى الحق وبكى فرحاً بما وجد من التأييد والعون، فيا قلده الله تعالى عند أخيه وصاحبه، ودعا له بالرحمة لما وجده ناصحاً لله تعالى، ولإمامه مشفقاً عليه، ولكن فعل أبـى بكر فعل الرسل عليهم السلام، فالرسول

(٣) يعرو: يصيب.
(٤) نفاسة: حسداً.

ومن فى درجته قريب منه فى سعة عظيمة من ملكه، وفعل عمر رضى الله عنه فعل المحقين لأنهم فى أمر عظيم من القيام بحقه حزماً واحتياطاً وصحة وتقويماً، وقد روى زيد بن أسلم عن أبيه قال: «قدم عبدالله وعبيدالله ابنا عمر رضى الله عنهم على أبى موسى الأشعرى من مغربى لهما، فقال أبوموسى: وددت أنى قدرت أن أنفعكما، قال: ثم قال: ههنا من مال الله فخذاه فاشتريا به تجارة من تجارة المدينة واضمناه، فإذا قدمتما فأديا المال إلى أمير المؤمنين. وكتب إلى عمر رضى الله عنه أن اقبض منهما كذا وكذا فلما قدما على عمر رضى الله عنه قال لهما: أديا المال وربحه فأما عبدالله فسكت وأما عبيدالله فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت لو تلف هذا المال، أما كنت تأخذه منا قال: بلى، قال: فلم تأخذ الربح؟ فقال رجل فى مجلسه يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً قال: فقاسمهما الربح وأخذ المال، فهذه معاملة عمر مع ولده ومع سائر الخلق إقامة الحق ونصرته فى الأمور كلها.

قال عليه السلام: «إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه».

وقال فى رواية: «الحق بعدى مع عمر وقلبه».

وقال فى رواية: «الحق بعدى مع عمر حيث كان»، ووصفه ابن عباس رضى الله عنهما فقال: «كان عمر رضى الله عنه كالطير الحذر، الذى يرى أن له فى كل طريق شركا» فهذا شأن النصحاء لله تعالى.

وروى جابر رضى الله عنه قال: «دخل أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يضرب بالدف عنده فقعد ولم يزجر، لما رأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء عمر رضى الله عنه فلما سمع رسول الله صوته كف عن ذلك فلما خرجا قالت عائشة رضى الله عنها: يا رسول الله كان حلالاً، فلما دخل عمر صار حراماً، فقال عليه السلام: «يا عائشة ليس كل الناس مرخا عليه»،

فهذه كلمة تكشف لك أن المقربين صنفان صنف منهم قلوبهم فى جلاله، وعظمته هائمة فقد ملكتهم هيبته، فالحق سبحانه وتعالى يستعملهم فى كل أمر فهم مشرفون على الأمور مشمرون لها، وصنف آخر قد أرخى من عنانه فالأمر عليه أسهل لأنه قد جاوز قلبه هذه الخطة فقلبه فى محل الشفقة فى ملك الوحدانية، وكلما كان القلب محله أعلى ومن القربة أوفر حظاً كان الأمر عليه أوسع وهذا لأن الله تعالى تلطف بلطفه بعبده المؤمن فإذا علم منه أن نفسه صعبة وأنه محتاج إلــى اللجام ألجمها بلجام الهيبة وابدا على قلبه من سلطانه وعظمته لئلا يفسد، وإذا علم أن نفسه لينة كريمة أرخى من عنانه فابدا على قلبه من الوحدانية والفردانية ما انفرد له قلبه ونفسه، وماتت شهوته وذهل عن ذكر نفسه فهو يستعمله، وهو يكلؤه فالمحق فى الظاهر أعلا فعلاً عند أهله والأواه فى الباطن أعلا

[الأصل الحادى والمائة فى أن العقوبة لا تثنى فى الآخرة]

عن على كرم الله وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أصاب فى الدنيا ذنباً فعوقب به فالله أعدل من أن يثنى عليه عقوبته، ومن أذنب فى الدنيا ذنباً فستره الله وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود فى شىء وقد عفا عنه»(١) قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾(٢)

والكثير من الله تعالى لا يحصى عددا(٣).

وقد بين عليه السلام فى هذا الحديث مايعفى عنه مما لا يعفى عنه فقال: «من أذنب ذنباً فستره الله ذكر الستر» وقوله تعالى:

﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٤)

هم الذين قد ستر الله عليهم فإذا دام هذا الستر لهم فالله سبحانه وتعالى أكرم من أن يهتك ما قد ستره أيام الدنيا، وقال عليه السلام قال الله

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب الايمان (٦٤/١)، وكتاب مناقب الأنصار باب وفود الأنصار إلى النبى صلى الله عليه وسلم (٩٩/٧). وأخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب الحدود ـ باب الحدود كفارة لأهلها (١٣٣٣/٣)، وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الحدود ـ باب ما جاء أن الحدود كفارة لأهلها (٤٥/٤) وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه الحاكم فى المستدرك ـ كتاب الحدود ـ باب أفضل أية فى كتاب الله (٣٨٨/٤) وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٢) سورة الشورى. الآية رقم ٣٠.

(٣) لأن الكثير من الله مرهون بقدرته غير النهائية، وقد ورد فى نسخة أخرى [لا يحصى عدده].

(٤) المائدة (١٥/٥).

تعالى: «لأنا أكرم وأعظم عفواً من أن أستر على عبد لى مسلم فى الدنيا ثم أفضحه بعد أن سترته ولا أزال أغفر لعبدى ما استغفرنى» وقال عليه السلام يقول الله تعالى: «إنى لأجدنى أستحيى من عبدى، يرفع يديه إلى ثم أردهما صفرا، قالت الملائكة إلهنا ليس لذلك بأهل، قال الله تعالى: لكنى أهل التقوى وأهل المغفرة وأشهدكم أنى قد غفرت له» قال: ويقول الله تعالى: «إنى لأستحيى من عبدى وأمتى يشيبان فى الإسلام ثم أعذبها بعد ذلك فى النار» فنستغفر الله العظيم.

[الأصل الثانى والمائة فيما كتب على جباه الجهنميين وجباه المتحابين فى الله]

عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يدخل قوم النار حتى إذا صاروا فحماً أخرجوا فادخلوا الجنة فيقول أهل الجنة من هؤلاء فيقال الجهنميون»(١)، هؤلاء قوم موحدون وحدوا الله تعالى بألسنتهم، وقلوبهم، وضيعوا العبودة التى أوجبها الله تعالى على خلقه امتحاناً فهم مكذبون فى الظاهر، مصدقون فى الباطن، فقدموا عليه مع كذب الظاهر وصدق الباطن، وإنما وكل الحق بفعل الظاهر فهو يقتضى الخلق القيام بذلك قال الله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢).

فإذا كان يوم الجزاء جاء الحق تعالى يقتضى حقه فلم يجد عندهم شيئاً فحبسهم فى النار ثم تدركهم رحمته ويترك ما وجب له من العبودة ويهبها منهم ويعتقهم ويكتب على جباههم الجهنميون، عتقاء الله تعالى وفى رواية محررى الرحمن رحمهم بصدق الباطن وأنهم كانوا لا يلتفتون إلى غيره ولا يشركون به، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب صفة جهنم (٧١٥/٤) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد فى المسند من حديث أنس بن مالك (١٣٣/٣) وأبو داود فى سننه ـ كتاب السنة ـ باب الشفاعة (٥٨٦/٢).

(٢) الذاريات (٥٦/٥١) ليعبدون: أى ليوحدونى، وهذا خاص بالجان المؤمن. راجع القرطبى (٥٥/١٧).

أمتى ثم ماتوا عليها فهم فى الباب الأول من جهنم لا تسود وجوههم، ولا تزرق أعينهم ولا يغلون بالأغلال، ولا يقرنون مع الشياطين، ولا يضربون بالمقامع، ولا يطرحون فى الإدراك، فمنهم من يمكث فيها ساعة ثم يخرج، ومنهم من يمكث فيها يوماً ثم يخرج، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج، وأطولهم مكثاً فيها، مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم أقتت (٣) وذلك سبعة آلاف سنة، ثم إن الله عز وجل إذا أراد أن يخرج الموحدين منها قذف فى قلوب أهل الأديان فقالوا لهم: كنا نحن وأنتم جميعاً فى الدنيا فآمنتم، وكذبنا وأقررتم، وجحدنا فا أغنى ذلك عنكم فنحن وانتم اليوم فيها جميعاً سواء تعذبون كما نعذب، وتخلدون كما نخلد فيغضب الله عند ذلك غضبا لم يغضبه فى شيء فى مامضى ولايغضب فى شيء فى ما بقى فيخرج أهل التوحيد منها إلى عين بين الجنة والصراط يقال لها نهر الحياة فيرش عليهم من الماء فينبتون (٤) كما تنبت الحبة فى حميل السيل، ما يلى الظل منها أخضر، وما يلى الشمس منها أصفر، ثم يدخلون الجنة فيكتب فى جباههم عتقاء الله من النار إلا رجلاً واحداً فإنه يمكث فيها بعدهم ألف سنة ثم ينادى: يا حنان يا منان فيبعث الله إليه ملكاً ليخرجه فيخوض فى النار فى طلبه سبعين عاماً لا يقدر عليه، ثم يرجع فيقول: يا رب إنــك أمرتنى أن أخرج عبدك فلاناً من النار وإنى أطلب فى النار منذ سبعين سنة فلم أقدر عليه فيقول الله تعالــى: انطلق فهو فى وادى كذا وكذا تحت صخرة فأخرجه فيذهب، فيخرجه منها فيدخله الجنة، ثم أن الجهنميين يطلبون إلى الله تعالى أن يمحو ذلك الاسم عنهم فيبعث ملكاً فيمحو عن جباههم ذلك ثم إنه يقال لأهل الجنة ومن دخلها من الجهنميين اطلعوا إلى النار فيطلعون إليهم فيرى الرجل أباه، ويرى أخاه، ويرى جاره، ويرى صديقه، ويرى العبد مولاه، ثم إن الله تعالى يبعث

(٣) فى نسخة أخرى [إلى يوم أفنيت] وهو تحريف.
(٤) فى نسخة أخرى [فيستوون] وهو تحريف خطير.

إليهم ملائكة بأطباق من نار ومسامير من نار وعمد من نار فيطبق عليهم بتلك الأطباق، ويشد بتلك المسامير ويمد بتلك العمد، ولا يبقى فيه خلل يدخل فيه روح لا يخرج منه غم وينساهم الجبار على عرشه ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبدا، وينقطع الكلام فيكون كلامهم زفير وشهيق فذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ (٥).

أحب الله تعالى أن يظهر عذره عند أهل الجنان فى تأخرهم دخول الجنة وأنهم لم يدخلوها إلا برحمته ولم ينالوا جواره إلا بكرامه، وهؤلاء قوم لم يتخلصوا من نفوسهم فى الآخرة، كما لم يتخلصوا فى الدنيا طرفة عين وانفوا من هذا الاسم أن ينسبوا إلى جهنم واستحيوا من إخوانهم وأرادوا أن تكون العقوبة التى حلت بهم مستورة عند أهل الجنة، ولا يدرى أحد أنهم ممن ابتلوا بهوان الله وعقوبته أنفة وذهاباً بنفسه، وليس فى الجنة أذى إنما هى محشوة بكرم رب العزة فترك الله تعالى محبته، لمحابهم، ومحى عنهم ذلك الاسم تكرماً وتفضلاً، وإتماماً للمن عليهم، ولو كان لهم من الإنسانية والتكرم لما آثروا محابهم على محابه ولو كان المحبون له ابتلوا بهذا لم يسألوه أبداً أن يمحو اسمه من جباههم، والكتابة على الجباه سيماهم فى الجنان كما كتبت على جباه أهل الصفوة، والأولياء عليهم السلام هؤلاء المتحابون فى الله، روى ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المتحابين فى الله لعلى عمود من ياقوتة حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة يضىء حسنهم أهل الجنة كما تضىء الشمس أهل الدنيا، يقول بعضهم لبعض: انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين فى الله فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم أهل الجنة، كما تضىء الشمس أهل الدنيا عليهم ثياب خضرة من سندس مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون فى الله».

---

(٥) الهمزة (١٠٤/٨، ٩).

[الأصل الثالث والمائة فى علامات أولياء الله تعالى]

عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال: «قيل يارسول الله من أولياء الله قال: الذين إذا رئوا ذكر الله»(1)، وفى رواية أخرى عنه قيل: «يارسول الله أى جلسائنا خير قال: من ذكركم بالله رؤيته وزاد فى أعمالكم منطقه، وذكركم بالآخرة عمله».

وفى رواية عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال عليه السلام: «خياركم من ذكركم بالله رؤيته وزاد فى عملكم منطقه ورغبكم فى الآخرة عمله» وهم الأولياء الذين عليهم سمات ظاهرة من الله تعالى، قد علاهم بهاء القربة ونور الجلال، وهيبة الكبرياء، وأنس الوقار فإذا نظر الناظر إليه ذكر الله لما رأى عليه من آثار الملكوت والقلب معدن هذه الأشياء، ومستقر النور، وشرب الوجه، من ماء القلب فإذا كان على القلب نور سلطان الوعد والوعيد تأدى إلى الوجه ذلك النور فإذا وقع بصرك عليه ذكرك البر والتقوى، ووقع عليك منه مهابة الصلاح، والعلم بأمور الله تعالى، ومتى كان على القلب نور سلطان الحق ذكرك الصدق والحق، ووقع عليك مهابة الحق والاستقامة، وإذا كان عليه نور سلطان الله تعالى، وعظمته، وجلاله ذكرك عظمته وجلاله وسلطانه، وإذا كان على القلب نوره، وهو نور الأنوار بهتك رؤيته فكل نور من هذه الأنوار كان فى قلب فشرب وجهه من ذلك الأنوار التى فيه لا غير قال الله تعالى:

(1) أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٣٧٩/٢) وأبو نعيم فى أخبار أصفهان (٢٣١/١).

﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ (٢)

أى سروراً فى القلب ونضرة فى الوجه فإذا سر القلب برضاء الله تعالى عن العبد، وبما يشرق قلبه وصدره من نوره حيث ينكشف الغطاء، نضرت الوجوه، بما ولجت القلوب، وهو الذى دله عليه السلام على الذكر عند رؤيته وصيره علامة لأهل ولايته، والناس على ثلاث طبقات كل طبقة تعرف بما عندها وهم رجال ما عندهم، فرجال هم علماء بأمور الله تعالى من الحلال والحرام فعليهم سمات العلم وبالعلم يعرفون، ورجال هم علماء بتدبير الله تعالى فعليهم سمات الحكمة وبالحكمة يعرفون، ورجال هم علماء بالله تعالى فعليهم سمات نوره وهيبته فبالله يعرفون فهم أولياء الله، وهم الذى قال عليه السلام لأبى جحيفة: «سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء» (٣) لأن فى مجالستهم شفاء، وفى رؤيتهم دواء، وسائر الناس عمال، وعباد وأهل بر وتقوى بذلك يعرفون وإلى أعمالهم ينسبون، يقال هذا رجل زاهد، وهذا رجل متق، فإذا جاء الولى ذهب هذا الذكر من القلوب وغلب على قلوب الناظرين ذكر الله تعالى، روى عمرو بن الجموح (٤) رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: إن أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم».

وعن أنس رضى الله عنه يقول: «قالوا يا رسول الله أينا أفضل كى نتخذه جليساً معلماً قال: الذين إذا رئوا ذكر الله لرؤيتهم» وقوله: يزيد فى عملكم منطقه لأنه عن الله ينطق، ومن كان يذكر بالله رؤيته يزيد فى العمل منطقه، والناطق صنفان: فصنف ينطق بالعلم عن الصحف

---

(٢) الإنسان (١١/٧٦).

(٣) تقدم هذا الحديث.

(٤) فى نسخة أخرى [روى عمر].

تحفظاً، وعن أفواه الرجال تلقفاً، وصنف ينطق بذلك العلم عن الله تلقياً (٥)، فالذى ينطق عن الصحف، وهو غير عامل به يلج (٦) آذان المستمعين عريان بلا كسوة، والذى ينطق كذلك وهو عامل به يلج آذانهم عارياً خلق(٧) الكسوة لأنه لم يخرج من قلب نورانى وإنما خرج منقلب دنس، وصدر مظلم وإيمان مغشوش بحب الرياسة والعز والشح على حطام الدنيا، والذى ينطق عن الله تعالى إنما يلج آذان المستمعين مع الكسوة التى تخرق كل حجاب، وهو نور الله تعالى، لأنه خرج من قلب مشحون بالنور وصدر مشرق به فإذا خرج المنطق مع ذلك النور، فولج آذان المستمعين خرق هذا النور كل حجاب قد تراكم على قلوب المخلطين من رين الذنوب، وظلمة الشهوات، ومحبة الدنيا فخلصته إلى نور التوحيد فأنارته ومثل ذلك مثل جمرة قد أحاط بها الرماد فذهب بجرها وضيائها فلما وصلت النفخة إليها طيرت الرماد عنها فتلهبت وأضاءت البيت.

كذلك الكلمة التى تخرج من الناطق عن الله تعالى تخرج من نور وكسوته النور فإذا وصل إلى الصدر خرقت حجب الظلمات حتى وصلت إلى القلب فأثارت نور التوحيد فأضاءت البيت فاستغفر، وبكى، وندم، وأبصر، قال الله تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ (٨).

أى على معاينة وهذا لمن تفرغ من نفسه واشتغل بالله تعالى فأما من ليس عبداً لله تعالى، ولا هو لله عز وجل وإنما قلبه عبد نفسه، ولنفسه، ومشغول بشهوته، ونهمته فكيف يدعوا إلى الله تعالى، وقوله: يزيد فى

(٥) كذا ورد فى الأصل، وهو على عهده المؤلف رحمه الله. وقد ورد فى نسخة أخرى [تلقنا] وهو تصحيف من الناسخ.
(٦) يلج: يدخل.
(٧) خَلَق: بالى.
(٨) يوسف (١٢/١٠٨).

عملكم منطقه، فإنه إذا نطق نطق بآلاء الله تعالى، وتدبيره وصنعه، فأما آلاء الله تعالى فهو ما أبدا من الهيبة فى وحدانيته كالجلال، والجمال، والعظمة، والهيبة، والكبرياء، والبهاء، والسلطان، والعز، والفخر، فهذه صفات على قلوب الأنبياء والأولياء عليهم السلام فتمالكوا مع ذلك، واحتملته عقولهم، وأما تدبيره فما دبر من خلقهم من تراب، ثم جعل فيهم أرواحاً سماوية ثم أعطاهم جوارح قوالب لتلك الأرواح، ثم اضطرهم إلى التربية، والمعاش ثم دبر لهم الموت، ثم هيأ لهم يوماً يحاسبهم، ويفتشهم، ويقتضيهم حقه فيه ثم جعل ممرهم إلى الجنة على متن النار ثم أكرم وأهان وأدنى وأقصى وحرم وأعطى وأبرز عدله ثم أفضل على من شاء بجوده وكرمه ومنته لهذا من تدبيره منذ أبدا خلقه، وأما صنعه فأحوال العباد فى الدنيا كيف يغفر وكيف يغنى ويعز ويذل، ويملك، وينزع الملك، ويبتلى ويعافى ويغير الأحوال ساعة فساعة، وقوله: (ويرغبكم فى الآخرة عمله)

لأن على عمله نوراً وعلى أركانه خشوعاً وعلى تصرفه فيها صدق العبودة مع البهاء، والوقار، والحلاوة، والمهابة لأنه عمل على معنى المعاينة، وعامل الله بتلك الأعمال عبودة لا متاجرة، فإذا رآه الراءون تقاصرت إليهم أعمالهم، وهم فى تلك الأعمال بأعيانها، وليس لأعمالهم ذلك النور، وتلك المهابة، والحلاوة لأنهم يعاملون على الرغبة والرهبة والخوف، والطمع، وهؤلاء أهل اليقين، يعاملونه على المعاينة على الشوق، والمحبة، عبودة له قد سبت(٩) قلوبهم محبته فعملوا على اليسر وطيب النفس، قال بعض الأنبياء عليهم السلام لبعض العباد: أنتم تعملون على الرغبة والرهبة، ونحن نعمل على الشوق والمحبة، وشتان ما بين عبدين أحدهما يعمل لخوف وعد مولاه وحرمان وعده، والآخر يعمل لمولاه شفقة على عمله، ونصحاً له، وتذللاً، وتخشعاً، ومحبة له، وشغوفاً به.

---

(٩) وردت [قد شربت] فى نسخة أخرى، وهو تحريف.

قال عليه السلام لعوف بن مالك الجشمى رضى الله عنه: «أرأيت لو كان لك عبدان أحدهما يخونك، ويكذبك والآخر يصدقك ولا يخونك أيهما أحب إليك، قال: الذى يصدقنى ولا يخوننى، قال: فكذلك أنتم عند ربكم».

[الأصل الرابع والمائة فى أن التمطر من أمارات المشتاقين إلى الله تعالى]

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: «أصابتنا السماء ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مطر فحسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الثوب عن رأسه حتى أصابه من المطرفقلنا يا رسول الله لم صنعت هذا قال: لأنه قريب عهد بربه سبحانه» (1)، هذا فعل المشتاقين وأولاهم بالله أشدهم شوقاً، وكلما ازداد العبد انتباهاً ويقظة ازداد شوقاً وكمداً، وكان عليه السلام طويل الفكر دائم الأحزان ولا يكون حزنه إلا من الحبس عن لقاء الصفاء فأعلاهم منزلة وأقربهم قرباً وأشدهم حرقة فى القلوب شوقاً وينتظر متى يدعى فيجيب، فكأنه صلى الله عليه وسلم وجد روحاً إلى ذلك المطر، بما وصف من حداثة (2) عهده بربه عز وجل، وكذلك جد المشتاق إلى لقاء من غاب عنه فهو قلق لمكانه، فإذا ورد عليه منه كتاب أو شيء من أثاره كان له فيه أنس وإليه استرواح (3) وبه تلذذ، وروى عن موسى عليه السلام أنه كان يخرج إلى طور سيناء فربما ضاق عليه الأمر فى الطريق

---

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه -كتاب الاستسقاء- باب الدعاء فى الاستسقاء (٦١٥/٢). والحاكم فى المستدرك -كتاب الأدب- باب الدعاء عند رؤية الهلال (٢٨٥/٤) وقال الحاكم صحيح وأقره الذهبى. ورواه البيهقى فى السنن -كتاب صلاة الاستسقاء- باب البروز للمطر (٣٥٩/٣). وأحمد فى المسند من حديث أنس (١٣٣/٣، ٢٦٧).

(2) حداثة عهده: جدته، والحدث هو الصغير.

(3) استرواح: راحة.

فشق قميصه من شدة الشوق، والعجلة التى كانت تأخذه وهو الذى حمله على سؤال الرؤية لما سمع الكلام قلق، وغلى شوقه غلى المرجل، وضاق به الأمر ففزع إلى الرؤية طمعاً لتسكين غليانه فأعلم الله تعالى أنه لا يحتمل، ذلك فأبى عليه وألقى إليه عذره بأن جعل الجبل دكاً يعلمه أنك لا تقدر احتمال ذلك لأن الجبل حجر، وحديد، وصخر، وأنت لحم ودم، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: «ربى أرنى أنظر إليك» قال تعالى: «يا موسى لن ترانى إنه لا يرانى حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تفرق إنما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم، ولا تبلى أجسادهم».

وكان رسول الله صلــى الله عليه وسلم يقول: «أسألك الشوق إلى لقائك ولذة النظر إلى وجهك الكريم»، وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعل فى دعائك ارزقنى لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك».

١

[الأصل الخامس والمائة في أن مناولة المسكين تقى ميتة السوء وأن خصلتين لا يكلها إلى أحد]

عن حارثة بن النعمان أنه جعل خيطاً من مصلاه إلى باب حجرته، وكان قد ذهب بصره فيضع مكتلاً فيه تمر، وغير ذلك فكان إذا اسلم المسكين أخذ من ذلك المكتل ثم أخذ الخيط حتى ينتهى إلى باب الحجرة فيناول المسكين فكان أهله يقولون نحن نكفيك فيقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن مناولة المسكين تقى ميتة السوء» (١)، ففى مناولة المسكين خصلة تعلو الخصال؛ لأن الله تعالى قد شرف هذه الأمة من بين الأمم، وعظم شأنها وأكرمها بفضل يقينها، وجعل صدقاتها تؤخذ من أغنيائها فترد إلى فقرائها فيبقى النفع فيهم، وكانت الأمم من بنى إسرائيل صدقاتها، وقربانها توضع فتجىء نار فتقبله وتترك من لم يتقبل منه فيصير منهتك الستر، وكانت نفوسهم لا تسخو إلا على عيان وجهر حتى بلغ بهم أن قالوا لموسى عليه السلام أرنا الله جهرة، وأيدت هذه الأمة بفضل يقين فعلموا أن الشىء إذا أعطوه لله تعالى أن الله لا يضييعه وتفضل عليهم أن ولى أخذ صدقاتهم منهم بنفسه الكريمة، فلم يكلها إلى ملائكته، ولا إلى أحد من خلقه.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٣/٢٥٨، ٢٦٠). وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/١١٢). وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/٣٥٦). وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٢/١٨٣).

وله شاهد أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الزكاة- باب ما جاء فى فضل الصدقة (٣/٤٣) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ (٢).

ويأخذ الصدقات، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكل خصلتين إلى أحد فكان يمشي بالصدقة إلى المسكين، ويستقى لوضوء الماء، ولا يكله إلى أحد، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذى نفسى بيده ما من عبد يتصدق بصدقة حسنة طيبة فيضعها فى حق إلا كانت تقع فى يد الرحمن يربيها كما يربى أحدكم فصيله أوفلوه (٣) حتى أن التمرة واللقمة لتصير مثل الجبل العظيم، ثم قرأ:

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ (٤).

وقال عليه السلام: «إن الصدقة لو جرت على يد سبعين نفساً لكان أجر أحدهم مثل أجر آخرهم» ومعناه أن هذه الأيدى كلها منتهية إلى يد الله تعالى بنقل تلك الصدقة.

«وكان على بن حسين رضى الله عنه إذا أعطى لسائل شيئاً قبله ووضعه على يده» وإنما قبله لأنه علم من يأخذه وقوله عليه السلام: «مناولة المسكين تقى ميتة السوء» لأنه يصير بالمناولة فى قرب الله تعالى، ومن وقع فى قرب الله كان له مأمناً، وذمة وكان فى ذمته، ويوفى مصارع السوء، وميتة السوء أن يموت مصراً على معصيته أو قانطاً من رحمته أو يفجأه الموت من غير توبة، فمن كان فى ذمة الله وفى هذه الأشياء، قال عليه السلام: «من صلى الغداة فهو فى ذمة الله لأنه

---

(٢) الشورى (٤٢/٢٥).

(٣) الفلو: على وزن الجرو، وبتشديد الواو: المهر والأنثى (فلوة).

(٤) البقرة (٢/٢٧٦).

شهد الله عز وجل وملائكته» قال تعالى:

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٥).

معناه ليشهد الله وملائكته.

(٥) الإسراء (١٧/٧٨).

[الأصل السادس والمائة في حقيقة الزهاد وحقيقة الإيمان وحقيقة الإخلاص]

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال، ولكن الزهادة أن لا يكون شيء مما في يديك أوثق منك مما في يدي الله تعالى، وأن يكون ثواب المصيبة أحب إليه من أن لو نفيت المصيبة عنه، ولكل حق حقيقة ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ولكل حق حقيقة ولا يبلغ العبد حقيقة الإخلاص، حتى لا يحب أن يحمد في كل شيء يعمله لله تعالى» (1).

الزهد القلة فالزاهد قلت في عينه الدنيا بما فتح له من الغيب فرأى الآخرة ببصر قلبه فاستقل هذه وتهاون بها وشخص بصره إلى ضامن الرزق الذي ضمن له رزقه ووثق بضمانه وصار هذا الذي في يده كأنه أودع وديعة وكل بحفظها على نوائب الحق لينقعها هناك، وضمان الرب لعبده الرزق له أوكد عنده، وأعظم شأناً من أن يتلف مما في يده، ويكون ثواب المصيبة آثر عنده من أن لو بقي عنده ذلك الشيء لأن الشيء من الدنيا وقد دق في عينه والثواب من الآخرة، وقد عظم في عينه فأما من لم يفتح بصره في الآخرة وعظم قدر الدنيا في عينه حتى

(1) أخرجه ابن ماجة (١٣٧٣/٢) والترمذي (٥٧١/٤) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ومجمع الزوائد (٢١٦/١٠).

وجد شيئاً منها احتدت مخاليبه (٢) فيها وعلق قلبه بها، ولم يستبن عند قلبه ضمان الرزق وكلما ذكر الفقر أوجس فى نفسه خيفة فركن إلى ما فى يده فهذا وإن جانب الدنيا ولبس المسوح (٣) وأكل الحشيش، فليس بزاهد إنما هو متزهد يتكلف الزهد بجوارحه.

وقوله: ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه؛ فالموحدون كلهم يعلمون هذا علم اللسان ولكن لا تستقر قلوبهم مع هذه الكلمة ولهذا يفرون من المخلوق فراراً فيه عصيان الله تعالى، فأما أهل اليقين قد استقر هذا العلم فى قلوبهم وانشرحت به صدورهم فكانوا فى النوائب كرأى العين أن هذا الذى ناب قد كان فى سابق العلم ثم تصور عندهم كونه فى اللوح مسطوراً فاستقرت نفوسهم لعلم يقينهم بذلك فهذا حقيقة الإيمان، وأما حقيقة الإخلاص فإن ينفى عن قلبه وصدره حب المحمــدة والثناء، ويكون مخلصاً لله تعالى فى أمور يعملها من أعمال البر وذلك لأن النفس تحب المحمدة والثناء لينفذ قوله، وينال نهمته فى دنياه من خلقه ويقول بلسان التوحيد هذا كله من الله تعالى ثم تراه معلق القلب بخلقه طامعاً فيما لديهم غير ناج من التزين والترائى، يريد بذلك التحمد عندهم لتنال النفس ما تطمع فيه ولم يبلغ حقيقة الإخلاص حتى استنار صدره بالإيمان وتعلق قلبه بالله تعالى، وينجو من الخلق والأسباب، وشخصت آماله إلى خالقه فينبىء (٤) الخلق ما تصور فى صدره مما تنطق الألسنة به من قوله لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع.

---

(٢) مخاليبه: جمع مخلب، وفى نسخة أخرى [اجتذبت مخاليبه].

(٣) المسوح: أى الممسوح.

(٤) فى نسخة أخرى [فيتقى الخلق].

[الأصل السابع والمائة فى أن الله تعالى أحق أن يستحيى منه]

عن بهز بن حكيم عن جده عن أبيه رضى الله عنه قال: «قلت يا رسول الله عوراتنا ما نأتى منها وما نذر قال: احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» (١) قلت أرأيت إذا كان القوم بعضهم فى بعض قال: فإن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها قلت: أفرأيت إذا كان أحدنا خلياً قال صلى الله عليه وسلم: «فالله سبحانه وتعالى أحق أن يستحيى منه»، فالعورة كانت مستورة من آدم وحواء عليهما السلام، وعاشا ودخلا الجنة فلما خرجا من ستر الله تعالى بالخطيئة وأكلا من الشجرة وانكشفت سوآتهما أمرا بالستر.

قال تعالى:

﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ﴾ (٢).

والزوجة وملك اليمين مطلق فى ملامستها فيحل النظر إليها قال الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ

(١) ذكره الحاكم فى المستدرك ـ كتاب اللباس ـ باب التشديد فى كشف العورة (٤/١٨٠) وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى. ورواه البيهقى فى السنن الكبرى ـ كتاب الطهارة ـ باب كون الستر أفضل وإن كان خاليا (١/١٩٩). وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الاستئذان ـ باب ما جاء أن الفخذ عورة (٢/١٠٨). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٢) الأعراف (٧/٢٧).

أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (٣).

إلا أن الحياء يحجر صاحبه (٤) عن ذلك، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوقى أن يرى أحداً (٥) من نسائه عورته، قالت عائشة رضى الله عنها: «ما رأيت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وما رأى منى قط» وأما إذا كان خالياً فتعرى، ولم يحتشم عن ذلك فهذا قلبه غافل عن الله تعالى لم يعلم أن الله تعالى يراه ثم لا يأخذه الحياء ولا يثقل ذلك عليه، قال أبوبكر رضى الله عنه: «إنى لأدخل الخلاء فأقنع رأسى حياء من الله تعالى».

وكان عثمان رضى الله عنه إذا اغتسل اغتسل فى بيت مظلم.

---

(٣) المؤمنون (٢٣/٦).

(٤) يحجب صاحبه [نسخة أخرى].

(٥) وردت فى بعض النسخ [أحد] وهو خطأ تحريف.

[الأصل الثامن والمائة فى فضل الإحسان إلى اليتيم]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحسن إلى يتيم أو يتيمة كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين وقرن بين أصبعيه» (1)، وفى رواية أخرى «أنا وكافل اليتيم له ولغيره إذا اتقى الله فى الجنة كهاتين».

إنما فاق هذا سائر الأعمال لأن اليتيم افتقد برأبيه ولطفه، وتعاهده ومصالح أموره، والله تعالى ولى ذلك كله يجريها على الأسباب، فإذا قبض أبوه فهو الولى لذلك اليتيم فى جميع أموره يبتلى به عبيده لينظر أيهم يتولى ذلك، قال موسى عليه السلام: يا رب أتميت أبوى الصبى، ومن لا حيلة له وتدعه هكذا، قال: يا موسى أما ترضى بى كافلاً فاليتيم كافله خالقه، لأنه قطع عنه من كان قيض له وطوع عنه أسبابه، فمن مد يده إلى كفالته فإنما ذلك عمل يعمله عن الله تعالى، لا عن نفسه، كما أن الرسل عليهم السلام يعملون عن الله تعالى، يؤدون عنه حججه إلى خلقه، وبيانه، وهاديته، والذى يكفل اليتيم يؤدى عن الله تعالى ما تكفل به فلذلك صار بالقرب منه فى الدرجة فى ذلك الموقف، وليس فى الجنة بقعة أروح ولا أطيب ولا أنور ولا آمن من البقعة التى يكون بها الرسل عليهم السلام، فإذا نال كافل اليتيم القرب من تلك البقعة فقد

---

(1) أخرجه الترمذى فى سننه -كتاب البر والصلة- باب ما جاء فى رحمة اليتيم وكفالته (٣٢١/٤) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وذكره أحمد فى مسنده من حديث أبى أمامة (٢٥٠/٥) ومن حديث سهل بن سعد. وذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٥٨/٢). وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (١٦٠/٢).

سعد جده وأما سائر الأعمال سوى الجهاد بعمله العمال عن أنفسهم والجهاد فى ذب (٢) عن الدين وإعلاء كلمة الله تعالى، فهم على أثر الأنبياء عليهم السلام يومئذ وبالقرب منهم وقد ذكر الله تعالى شأن العفو فقال:

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (٣).

ولم يوجد شيء من أعمال البر أجره مضموناً فى عاجل الدنيا غير العفو لأن الرجل إذا ظلم وقع قلبه فى سجن المعصية وصار محجوباً عن الله تعالى فهو وان تاب فهو غير مقبول منه حتى يتحلل المظلوم فيهب ظلامته، فيكون فى خذلان من ربه، وعمى عن رؤية الحق تعالى؛ فإذا رحمه هذا المظلوم لما يعلم من فساد قلبه وعفا وأصلح ما فسد من قلبه لسؤال ربه المغفر له فإنما عملٌ لله تعالى، لا لنفسه فأجره على الله تعالى، فى عاجل الدنيا قال تعالى:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٤).

فسمى سؤال الغفران له من عزم الأمور فقد أخذ هذا الذى عفا وطلب له المغفرة، بحظ من أمر أولى العزم، وكان أولوا العزم من الرسل عليهم السلام من يضربه قومه؛ حتى تسيل دموعه على وجنته فإذا أفاق قال: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون». وعن الحسن رضى الله عنه قال: «ينادى مناد يوم القيامة إلا من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم إلا من عفا الله تعالى».

---

(٢) ذب عن الدين: دافع عنه.
(٣) الشورى (٤٢/٤٠).
(٤) الشورى (٤٢/٤٣).

[الأصل التاسع والمائة فى أن الحوض لا يرده من كذب به]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لى حوضاً ما بين عدن إلى عمان آنيته عدد نجوم السماء وله ميزابان أحدهما من ورق والأخر من ذهب يمدانه من الجنة لا يرد عليه من كذبه»(١)، فالحياض يوم القيامة للرسل عليهم السلام لكل على قدره، وقدر تبعه وقد هيأ له مشربا يروى منه فلا يظمأ بعدها أبدا.

عن ابى بن كعب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أول من يدعى يوم القيامة أنا فأقوم وألبى ثم يؤذن لى بالسجود فأسجد له سجدة يرضى بها عنى ثم يأذن لى فأرفع وأدعو بدعاء يرضاه عنى، فقلنا يا رسول الله وكيف تعرف أمتك يوم القيامة قال: يقومون غرا محجلين من آثار الطهور، ويردون إلى الحوض ما بين بصرى إلى صنعاء أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك، فيه من الآنية عدد نجوم السماء، من ورده فشرب منه لم يظمأ بعد أبداً، ومن صرف عنه لم يرو بعده أبداً، ثم يعرض الناس على الصراط، فيمر أوائلهم كالبرق ثم يمرون كالريح ثم يمرون كالطرف ثم يمرون كأجود الخيل والركاب وعلى كل حال وهى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ باب حجة من قال بالبسملة أية من كل سورة (١١٢/٤). وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب صفة القيامة ـ باب ما جاء فى صفة الحوض (٦٢٨/٢) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. ورواه أحمد فى المسنده (٢٧٥/٥). وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى حوض النبى صلى الله عليه وسلم (٣٦١/١٠).

الأعمال والملائكة جانبى الصراط يقولون: رب سلم سلم، فسالم ناج، ومخدوش ناج، ومرسل فى النار، وجهنم تقول: هل من مزيد، حتى يضع فيها رب العالمين ما شاء أن يضع فتنزوى، وتنقبض وتغرغر كما تغرغر، المزادة الجديدة إذا ملئت وتقول: قط قط».

[الأصل العاشر والمائة في أن الولد من ريحان الله تعالى]

عن أنس رضي الله عنه قال: لما قبض إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم رسول الله صلـى الله عليه وسلم: «لا تدرجوه في أكفانه حتى أنظر إليه فأتاه وانكب عليه وبكى»(١)، الولد من ريحان الله تعالى يشمه المؤمن فيلتذ به، قال عليه السلام: «إنكم لتجهلون ولتجنبون وتبخلون وإنكم لمن ريحان الله تعالى».

فكأنه عليه السلام أحب أن يتزود من ريحان الله تعالى آخر العهد به، ولذلك قيل ريح الولد ريح الجنة، فكان عليه السلام يفعل فعل المشتاقين إذا هاج غليان الشوق إلى الله تعالى، ولهذا كان إذا أمطرت السماء تجرد(٢) وكشف عن رأسه، وأبرز ثم يتلقاه بجسده ويقول إنه حديث العهد بربه، وكان ينكب على الحجر الأسود ويقول: «ههنا تسكب العبرات» ألا ترى أنه كان يستبطىء جبريل عليه السلام في مجيئه حتى قال: يا محمد ما نتنزل إلا بأمر ربك، فانكبا به على إبراهيم عليه السلام وتزود منه، وبكاؤه توجع منه؛ لمفارقة من يشمه ريحاناً من الله تعالى، فنسب إلى الله تعالى لأنه هبة الله والهبة منه حشوها البر، واللطف، وظاهرها الابتلاء، قال تعالى:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ (٣).

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه ـ كتاب الجنائز ـ باب ما جاء في النظر إلى الميت إذا أدرج في أكفانه (٤٧٣/١).

(٢) وكان يتجرد ويكشف ويبرز [نسخة أخرى].

(٣) الشورى (٤٩/٤٢). راجع التسهيل لعلوم التنزيل (٢٤/٤).

وقال عليه السلام: «أولادكم من هبة الله تعالى لكم فكلوا من كسبكم».

[الأصل الحادى عشر والمائة فى أن أقراض الله تعالى سفاتج الآخرة وسره]

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: لما نزلت:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (١)

قال أبو الدحداح الأنصارى، أو أن الله تعالى يريد القرض منا قال: نعم يا أبا الدحداح قال أرنى يدك يا رسول الله بأبى أنت وأمى قال فناوله يده قال فانى أقرضت ربى حائطى (٢) فيه ستمائة نخلة قال فجاء إليه فنادى وهو خارج من الحائط يا أم الدحداح مرتين قالت: لبيك قال: اخرجى فقد أقرضت ربى عز وجل» (٣). القرض سفاتج الآخرة فإن الله تعالى خلق هذا المال قواما لمعاش بنى آدم وجعل قوام الروح به فأحبه الآدمى على قدر نفعه منه والمحبة لازقة بالقلب لأنها تخلص إلى حبة القلب أى باطنه وشهوته وإنما هما بضعتان قلب، وفؤاد فالقلب ما بطن، والفؤاد البضعة التى قد اشتملت على قلبه وفى الفؤاد العين والأذن قال الله تعالى:

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ (٤)

---

(١) البقرة (٢ / ٢٤٥).

(٢) الحائط: البستان، وفى نسخة [حائطا] وهو تحريف.

(٣) أخرجه البزار فى مسنده -كتاب الزكاة- باب التسارع الى الصدقة (١/٤٤٧). وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد -كتاب الزكاة- باب الصدقة بأفضل ما يجد (٣/١١٣). وأورده السيوطى فى الدر المنثور (١/٣١٢).

(٤) النجم (٥٣/١١) قال المفسرون: إنه أراد رؤية البصيرة بالقلب. راجع تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٨.

نسب الرؤية إلى الفؤاد ثم قد يجتمعان فى اسم واحد فيقال للكل قلب كما قيل نفس. وقال عليه السلام «أتاكم أهل اليمن ألين قلوبا وأرق أفئدة»(٥) وصف القلب باللين والفؤاد بالرقة وذلك لأن القلب بضعة لحم فى بضعة أخرى، فالقلب، ما بطن منه والفؤاد ما ظهر منه، وفيه العينان والأذنان، يقال فى اللغة لخبز الملة خبز فئيد إذا كان له ظهارة وبطانة فنور التوحيد فى القلب وشهوة النفس قد خلصت إلى حبة القلب فلصقت به، وذاك معدن الإيمان، والحكمة، والعلم ومستقر النور، وليس بموضع شهوة فإن الشهوة داء القلب وسقم الإيمان قال عليه السلام «حبك الشيء يعمى ويصم» فإذا خلص حب الشهوات إلى القلب فقد أعمى بصر القلب وأصم أذنه لأنه صار سميعا وبصيرا بالنور فإذا خالطه حب الشهوات، ودخانها ثقل الأذن وغشى البصر ومن ههنا قال عليه السلام لسلمان رضى الله عنه «قل اللهم إنى أسألك صحة فى الإيمان» سأل الصحة من السقم وسقم الإيمان ما خالط من شهوة النفس، وقد ذكر الله تعالى فى تنزيلة الكريم: خروج العباد من أموالهم وذكر ثواب كل واحد منها فذكر الإنفاق والأيتاء والإطعام وأشار فى جميع ذلك إلى المساكين والى سبيله فقال تعالى:

﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ (٦).

وقال:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ (٧)

---

(٥) وقد ورد بزيادة [الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء فى أصحاب الإبل، والسكينة والوقار فى أهل الغنم] وقد رواه الشيخان عن أبى هريرة. راجع كشف الخفاء (٩٥/٤٦/١).

(٦) البقرة (٢٧٢/٢).

(٧) البقرة (٢٦١/٢).

وقال في شأن الصدقة:

﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ (٨)

وقال في شأن الإطعام:

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ (٩)

فلما صار إلى ذكر القرض أشار إلى اقراضه دون خلقه وذكر ثواب القرض فقال:

﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (١٠)

وعد المغفرة والتضعيف، وقال في موضع آخر:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ (١١)

والكثير من الله تعالى لا يحصى والقرض زائد على الجميع في الاسم الذي سمي به والشرط الذي علق به فقال تعالى يقرض الله قرضا حسنا فالقرض هو القطع وسمي بالمقراض لأنه يقطع به الشيء اللاصق بالشيء وليس منه وإنما يحسن قرضه إذا قرضه من أصله قرضا لا يبقى هناك شيء فإذا أقرض الشيء الذي قد لصقت شهوته ومحبته بالقلب، وصرفه إلى نوع من أنواع البر فقد قرض محبته من قلبه لأنه قد فارقه ملكًا وآخرجه إلى ملك غيره، فأما إذا أعطى وعلى قلبه كراهة الإعطاء وعسره فقد قطعه وبقي هناك شيء فلم يستأصله، وإذا أعطى، وانتظر الخلف والثواب فقد شخصت عيناه إلى محبة شيء هو أعظم من الذي أعطى فقد أنهك القطع وقصر فيه، وهذا لأن الله تعالى ابتلى العباد

(٧) الأنفال (٢٩/٨).
(٩) الانسان: آية رقم: ١١.
(١٠) التغابن: آية رقم: ١٧.
(١١) البقرة: الآية رقم: ٢٤٥.

بما أعطاهم من الدنيا ثم سألهم منها بعد إذ ولجت (١٢) لذة منافعه قلوبهم محنة لسرائرهم، فمن أسكرته لذة هذه المنافع فقد سكرت عقولهم عن الله تعالى: فصارت فتنة لهم فإن أعطى كرها أوأعطى على طمع ثواب أوخلف لم تصف عطيته، وإنما تصفوا إذا أعطى ربه عطاء لاتتبع نفسه العطية ولاتنتظر الخلف منها، ولا الثواب عليها عطاء من كان الشيء عنده بأمانة فإذا استرد أغتنم ذلك منه، وتسارع إلى ردها، ولا يقوى على هذه الخطة إلا أهل اليقين، وهم المقربون السابقون لأن الأشياء عندهم عوارى وودائع قبلوها عن الله تعالى بقلوبهم وأمسكوها لله تعالى على نوائب حقوقه، وقد سقط عن قلوبهم قدر الدنيا، وما فيها وولجت قلوبهم عظمة الله تعالى، فدقت (١٣) الدنيا فى أعينهم، فإذا أعطوا منها شيئا فإنما هى عندهم أمانة خرجوا منها إلى الله تعالى فى وقت نائبة الحق فهم خزانه وأعوانه وأمناؤه فى أرضه وقد ماتت شهوات نفوسهم عن جميع حطامها وإمساكها حرصا وعدة والدنيا عندهم، كما قال عليه السلام «إنما مثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح منها» (١٤) وكما فعل أبو بكر رضى الله عنه حين حثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة فأتاه بماله كله فقال: ما تركت لأهلك يا أبا بكر قال الله تعالى ورسوله.

فالمستغنى بالله لا بالمال هكذا قلبه فمن أعطى العطية وغناه بالله تعالى لم تشخص عيناه إلى الخلف والثواب ولم يكن عليه فى وقت الإعطاء عسر، ولا كراهية فهذه عطية الأولياء ونفقاتهم، ومن قبيل ذلك ما فعله أبو الدحداح فإنه صفق يده على رسول الله بالعطاء فإن من أعطى الرسول فقد أعطى الله، فالرسول ولى الله تعالى فى الأرض يتولى

---

(١٢) ولج: دخل.

(١٣) دقت الدنيا فى أعينهم: صغرت فى نظرهم.

(١٤) أى تركها، وانصرف عنها.

قبض مايعطى لله تعالى حتى يضعه حيث يأمر الله تعالى ثم صار إلى الحديقة لم يدخلها وأخرج عياله منها وخلا عنها وقال إنى أقرضته ربى وإنما توفى دخولها مخافة أن تتبعه نفسه شيئا مما ذكرنا فلم يأمن نفسه فاجتنب دخولها لئلا يكون فى النفس شىء منه.

وقال عليه السلام كم من عذق مذلل لأبى الدحداح فى الجنة.

وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا أعجبه الشىء أخرج منه إلى الله تعالى، وكانت له سرية وكان بها معجبا فأعتقها وزوجها بعض مواليد فولدت له غلاما، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يضم ولدها إلى نفسه، ثم يقبله ثم يقول واها إنى أجد منك ريح فلانة يعنى جاريته.

قال وكان راكبا بعيرا له فأعتق واعجبه سيره فقال أخ أخ فنزل ثم قال يا نافع، جلله، وألحقه بالبدن.

[الأصل الثانى عشر والمائة فى أن زيارة قبر النبى عليه السلام هجرة المضطرين]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من زار قبرى وجبت له شفاعتى»[1] زيارة قبره صلى الله عليه وسلم هجرة المضطرين هاجروا إليه فتوجب لهم شفاعة تقيم حرمة زيارتهم، والشفاعة لمن أوبقته ذنوبه[2]. قال عليه السلام «شفاعتى للمتلوثين المتلطخين المؤيسين فأما المتقون فقد كفوا أنفسهم».

وشفاعته عليه السلام من الجود، قال عليه السلام «إن إبراهيم عليه السلام ليرغب يوم القيامة» وفى حديث آخر «يحتاج إلى» وشفاعة غيره من الأنبياء عليهم السلام من الصدق والوفاء والحظوظ.

---

(١) أخرجه البزاز فى مسنده (٥٧/٢) والبيهقى فى السنن الكبرى (٢٤٦/٥) والدارقطنى (٢٧٨/٢).

(٢) أوبقته الذنوب: أهلكته.

[الأصل الثالث عشر والمائة فى أن أفضل الصلاة الصلاة لوقتها]

عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «صل الصلاة لوقتها فإن أتيت الناس، وقد صلوا كنت قد أحرزت وإن لم يكونوا صلوا كانت لك نافلة»(1) وقت الصلاة ممتد إلى آخر الوقت، واعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما يكون بعده من الأحداث والفتن.

حتى قال: «سيكون بعدى أمراء يميتون الصلاة فيصلونها لغير وقتها فصلوها لوقتها واجعلوا صلاتكم معهم سبحة» وظهر تأويل هذا الحديث فى زمن بنى أمية فإنه روى أبو مسلم قال: كان يخطبنا الحجاج يوم الجمعة فلم يزل يخطب، حتى غربت الشمس ثم نزل وصلى الظهر، والعصر والمغرب، وروى سالم قال لما قدم الوليد بن عبد الملك جاءت الجمعة فجمع بنا فما زال يخطب، حتى مضى وقت الجمعة ثم ما زال يخطب حتى مضى وقت العصر ولم يصل، قال: له القاسم بن محمد فما قمت وصليت قال لا قال: فما صليت قاعدا قال: لا قال: فما أومأت(2) قال: لا والله خشيت أن يقال رجل من آل عمر. وقوله عليه السلام

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه -كتاب المساجد- باب كراهة تأخير الصلاة عن وقتها (149/5). وأخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الصلاة- باب ما جاء فى تعجيل الصلاة إذا أخرها الإمام (332/1) وقال أبو عيسى: حديث أبى ذر حديث حسن. وأخرجه أحمد فى المسند من حديث أبى ذر (147/5).

(2) أومأت: أشرت.

كانت لك نافلة أى صلاتك التى صليت معهم هى النافلة لأن الفريضة قد مضت .

[الأصل الرابع عشر والمائة في أن البداية في الخيرات بالأكابر]

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إستن فأعطى أكبر القوم ثم قال: أمرني جبريل عليه السلام أن اكبر»(1). وروى زيد بن رفيع قال: دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل وميكائيل، وهو يستاك فناول رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل السواك فقال جبريل له أكبر(2) أي ناول ميكائيل فإنه أكبر.

وعن عبد الله بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استن أعطى السواك الأكبر وإذا شرب أعطى الذي عن يمينه، لأن أكبرهم سنا أقدمهم خروج أسنان، ومن كان أقدم فهو أحق وهكذا في حق الجوارح يبدأ بالأقدم.

روى أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا دهن أحدكم فليبدأ بحاجبه فإنه يذهب بالصداع»(3) وذلك

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه -كتاب الوضوء- باب دفع السواك إلى الأكبر (٣٥٦/١). وأخرجه مسلم في صحيحه -كتاب الرؤيا- باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم (١٧٧٩/٤). ورواه البيهقي في السنن الكبرى -كتاب الطهارة- باب دفع السواك إلى الأكبر (٤٠/١). وأخرجه أحمد في المسند (١٣٨/٢).

(2) فقال جبريل له كبر [نسخة أخرى].

(3) أول ما نبت [نسخة].

أول ما ينبت على ابن آدم من الشعر فإذا قدم الشيء في الخلقة فهو المقدم في التدبير عند خالقه، وصاحبه مطلوب بحفظ ذلك، ورعايته، ليقدم ما قدم الله سبحانه وتعالى، ويؤدى حقه فإذا اتبع الحق فى كل شيء من أمره فعقله مستريح (٤) وإذا اتبع الجهل أتعبه، لأن العقل مسكنه الدماغ، وتدبيره على القلب، فإذا بدأ بالحاجبين فى الادهان فقد أدى حقه لأنه بدئ به فى الخلقه فإذا ضيع الحق فى ذلك فقدم المؤخر وأخر المقدم، فغير مستنكر أن يهيج الصداع لأن فى فعله أتعاب الحق، والعقل، ويبدأ بالاكبر فالأكبر فى كل شيء لأنه إذا لم يبدأ به لم يوقره، وقال عليه السلام «ليس منا من لم يوقر كبيرنا» (٥).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سقى قال: «ابدؤا بالأكابر فإن البركة مع أكابركم» (٦) وقوله: إذا شرب أعطى الذى عن يمينه لأن الإناء كان واحدا فإذا شرب الكبير وقد فضلت فضلة لم يجد بدا من مناولته غيره فالحق لليمين، ومن على اليمين كذلك، بروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(٤) فقلبه مستريح [نسخة أخرى].

(٥) حديث صحيح.

(٦) رواه ابن حبان، ورواه الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخارى. راجع التمييز ص٥١.

[الأصل الخامس عشر والمائة فى المبادرة إلى الآخرة]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدى فقال: «كن فى الدنيا كأنك غريب أوعابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور»(١). الغريب نازع قلبه إلى الوطن ما دعينه إلى أهله شاخص أمله إلى وقت الارتحال، متى ينادى بالرحيل فيرتحل، وكلما قطع مرحلة خف ظهره، وهاج شوقه ينتظر نفاد المراحل، ونهاية المسافة فإذا بلغ آخر مرحلة قلق وضاق ذرعا، فإذا وقع نظره على وطنه رق ودمعت عيناه فبكى من طول الغربة ومقاساة الوحشة ثم بكى فرحا بوصوله إلى الوطن ونظره إلى الأحباب، فعلى هذه الصفة دله عليه السلام أن يكون نازع القلب إلى دار السلام، ما دعينه إلى الملك العلام شاخص أمله إلى دعوته ينتظر متى يدعى فيجيب وكلما قطع يوما من عمره خف ظهره من أثقال العمر، وهاج شوقه ينتظر نفاد الليالى، والأيام التى أجلت له فإذا بلغ آخر يومه قلق، وضاق ذرعا لخوف الخطر الذى ركبه وأنه لا يدرى بم يختم له فإذا كشف الغطاء عنه وبشر بالسلامة وارى مكانه رق وبكى من طول الغربة، ومقاساة جهد النفس، ثم بكى فرحا بلقاء مولاه ووصوله إليه والغريب منفرد منكسر القلب، لا يتهنى بعيش وإن كان فى سعة من العيش، ونعمة لا يتوجع

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه -كتاب الرقاق- باب قول النبى صلى الله عليه وسلم «كن فى الدنيا كأنك غريب أوعابر سبيل» (٢٣٣/١١). وأخرجه الترمذى فى سننه -كتاب الزهد- باب ما جاء فى قصر الأمر (٥٦٨/٤). وأخرجه أحمد في المسند من حديث ابن عمر (٢٤/٢، ٤١).

لما ينوبه في سفره (٢) ولا يجزع لما يقاسي من الشدة لأنه يعلم أن سفره منقطع، وقوله وعد نفسك من أهل القبور أن يقول: ساعة بعد ساعة، الآن يحضرني أمر الله تعالى فيعد نفسه منهم لا من الأحياء لأن أهل القبور قد انقطعت أطماعهم من الأحياء وقطعوا الدنيا، ورفعوا بالهم عنها ولهذا كان السلف يبادرون إلى تصحيح الأمور مخافة أن يحال مما يحافظ بينهم وبين ذلك فإن الأمر قد غيب عن الخلق، وكان عامر بن عبد القيس، رحمة الله عليه يمر مسرعا إلى أمر فقيل له فقال: أبادر طي صحيفتي وانتهى كرز بن وبرة إلى قنطرة وعليها زحام فنزل عن حماره وقام يصلي وقال أكره أن تبطل من عمري ساعة وقيل لجعفر بن برقان ألا تخضب (٣)، قال أكره أن يأتيني رسول ربي وأنا مشتغل به، وسئل محمد بن النضر عن الصوم في السفر فقال المبادرة المبادرة، فاغتنم وسئل داود الطائي عن الرمي وتعليمه فقال إنما هي أيامك فاقطعها بما شئت.

---

(٢) ينوبه: يصيبه.
(٣) ألا تخطب [نسخة أخرى].

[الأصل السادس عشر والمائة فى أن خوف الإقلال من سوء الظن بالله تعالى]

عن عمر رضى الله عنه أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه فقال عليه السلام: «ما عندى شىء ولكن اتبع على فإذا جاء قضينا» فقال عمر رضى الله عنه ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قول عمر، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وعرف السرور فى وجهه لقول الأنصارى ثم قال عليه السلام «بذلك أمرت»(1).

خوف الإقلال من سوء الظن بالله تعالى، لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لبنى آدم قال تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (2)

فهذه الأشياء سخرة للآدمى قطعا لعذره، ليكون له عبدا فى الدنيا ويقدم عليه غدا فيحرره من العبودية ويبعثه ملكا إلى داره فالمستقيم من رفع باله، وهمته عن الدنيا، وكان كل همته فى إقامة العبودة والكون له

---

(1) أخرجه الترمذى فى الشمائل، باب ما جاء فى خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ص٢٨١. وأخرجه ابن حبان الأصبهانى فى كتاب أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم وآدابه، باب فى جوده وسخائه ص٥٣. وأورده الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (١٤٠/٧). وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد -كتاب الزهد- باب فى الانفاق والامساك (٢٤١/١٠).

(2) الجاثية (١٣/٤٥). راجع القرطبى (١٦٠/١٦) والتفسير الكبير للفخر الرازى (٢٦٢/٢٧)

كما خلقه مراقباً لأموره في السر والعلانية منقاد الحكمة بعد نفسه عبد لا يملك شيئاً وأحواله عواري (٣) يقبلها وليها ساعة فساعة كيف شاء ليس له فيها مشيئة، ويتوقى أن يفكر فيها فيحدث له مشيئة ناظراً إلى ما برز له من مشيئة الغيب، وخوف الإقلال يضمحل من القلب بأن يحسن الظن بالله تعالى ويعلم أنه رب غني كريم، وقد استنار في صدره غناه وكرمه، فإذا أنفق لم يخف الإقلال لأنه يخلف، ولا يعوزه شيء وإذا عرفه بالقلة أو بالضيق، والبخل جبن في ذلك، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: «سبقت رحمتي غضبي يا ابن آدم انفق انفق عليك يمين الله ملأى سحاء لا يغضها شيء بالليل والنهار».

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أطعمنا يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» (٤).

وعن الزبير رضي الله عنه قال: «جئت حتى جلست بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بطرف عمامتي من ورائي ثم قال: يا زبير إني رسول الله إليك خاصة وإلى الناس عامة أتدري ماذا قال ربكم؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: قال ربكم حين استوى على عرشه ونظر إلى خلقة عبادي أنتم خلقي وأنا ربكم أرزاقكم بيدي، فلا تتعبوا فيما تكلفت لكم (٥) واطلبوا مني أرزاقكم، وإليّ فارفعوا حوائجكم انصبوا إلي أنفسكم أصب عليكم أرزاقكم. أتدرون ماذا قال ربكم؟ قال تعالى: «عبدي أنفق عليك وأوسع أوسع عليك، ولا تضيق فأضيق عليك ولا تضر فأضر عليك ولا تحزن فأحزن عليك إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات متواصل إلى العرش لا يغلق ليلاً ولا نهاراً

(٣) عواري: جمع عارية؛ يقصد بذلك مفضوحة، مكشوفة الستر.

(٤) إقلال: تقتير وتضييق.

(٥) فلا تتبعوا فيما تكلفت لكم [نسخة أخرى].

ينزل الله تعالى منه الرزق على كل امرئ بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته من أكثر أكثر له ومن أقل أقل له ، ومن أمسك أمسك عليه ، يا زبير فكل واطعم ولا توك فيوكى عليك ، ولا تحص فيحصى عليك ، ولا تقتر(٦) فيقتر عليك ، ولا تعر فيعر عليك ، يا زبير إن الله تعالى يحب الإنفاق ، ويبغض الإقتار ، وإن السخاء من اليقين ، والبخل من الشك فلا يدخل النار من أيقن ولا يدخل الجنة من شك ، يا زبير إن الله يحب السخاء ولو بفلق ثمرة والشجاعة ولو بقتل عقرب أو حية ، يا زبير إن الله تعالى يحب الصبر عند زلزلة الزلزال (٧) ، واليقين النافذ عند مجيء الشبهات ، والعقل الكامل عند نزول الشهوات ، والورع الصادق عند الحرام ، والخبيثات ، يا زبير عظم الارخوان ، وجلل الأبرار ، ووقر الأخيار ، وصل الجار ، ولا تماش الفجار ، وأدخل الجنة بلا حساب ، ولا عذاب هذه وصية الله إليّ ووصيتي إليك يا زبير» .

(٦) أي فلا تضيق ، فيضيق عليك .
(٧) الزلازل [في نسخة أخرى] .

[الأصل السابع عشر والمائة فى النعمة والرحمة وذكر بلوغ ذرى الإيمان]

عن واسلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له فيقول له: بأى الأمرين أحب إليك أجزيك بعملك أم بنعمتى عليك، قال: يا رب تعلم إنى لم أعصك، قال: خذوا عبدى بنعمة من نعمى فلا تبغى له (١) حسنة إلا استفرغتها تلك النعمة فيقول: يا رب بنعمتك ورحمتك، قال فيقول: بنعمتى ورحمتى ويؤتى بعبد محسن فى نفسه لا يرى أن له سيئة فيقال له: هل كنت توالى أوليائى، قال: يا رب كنت من الناس سلماً، قال: فهل كنت تعادى أعدائى، قال: يا رب لم أكن أحب أن يكون بينى وبين أحد شىء قال: يقول الله عز وجل: وعزتى لا ينال رحمتى من لم يوال أوليائى ولم يعاد أعدائى» (٢).

فالأول عبد غافل عن ربه، متيقظ لآخرته مكب على نفسه يحب أن يلقى الله تعالى بالصدق من نفسه فيقتضى الثواب منه على صدقه، وقد خفى عليه شأن المنة، والنعمة عاش حافظا لأموره ماداً عينه إلى ثوابه فإذا لقيه نطق لسانه بما توطنه فى الدنيا وعامل الله تعالى به فتح له

---

(١) فما بقى له حسنة [فى نسخة أخرى].

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب البعث ـ باب ما جاء فى الحساب (١٠/٣٤٩)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/١٨٦)، والمنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/٣٩٩) وقال: رواه الطبرانى.

الحق وطلب منه ما يقتضيه شكراً لنعمه فأخذ بأصغرها فاستفرغت عمله فعندها انكشف له الغطاء عن شأن المنة، والنعمة، وقدرهما، فطلب النعمة والرحمة، وهذا عبد لم يفقه. إذ لو فقه وكانت له عبادة الثقلين عمر الدنيا لم يلحظ إليها أنه عمل شيئاً ولم يوازن ذلك أصغر نعمة من نعم الله تعالى، قال عليه السلام: «ما عبد الله بمثل الفقه»(٣) وقال: «من أراد الله به خيراً يفقهه فى الدين»(٤) ولو كان جريج الراهب فقياً لعلم أن إجابة أمة من عبادة ربه تعالى، وأما العبد الثانى فهو عبد رعى نفسه، وعجز عن رعاية الحق سبحانه، فمن رعى نفسه فإنما عمله حفظ جوارحه، وأداء فرائضه أيتماراً لأمره، وتناهياً عن نهيه؛ لئلا يهلك نفسه فلذلك صار للناس سلماً ولم يدر أن فى رعاية الحق نجاة نفسه، والراعى للحق انكشف له الغطاء عن جلاله وعظمته فاشتعلت الحرقات فى جوفه حباله وشغوفاً به حتى أداه ذلك إلى معرفته فامتلأ قلبه من جلال الله وعظمته، فوالى أولياءه وعادى أعداءه، موافقة له كما أن من حل من قلبك محلاً ترى الدنيا به فهيج حبك له أن تحب من أحبه وتعادى من عاداه، وهذا من بلوغ العبد ذرى الإيمان.

---

(٣) رواه البيهقى فى شعب الايمان، عن ابن عمر، وضعفه السيوطى فى الجامع الصغير (١٤٦/٢).

(٤) الحديث متفق عليه من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه.

[الأصل الثامن عشر والمائة فى دعائه صلى الله عليه وسلم]

عن عمر رضى الله عنه قال: علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم اجعل علانيتى صالحة واجعل سريرتى خيراً من علانيتى اللهم إنى أسألك من خير ما يؤتى الناس من المال والولد غير الضال والمضل» (١)، العلانية الصالحة مرضاة الله تعالى من الإيتمار بأمر الله تعالى، والتناهى عن نهيه. والسريرة التى هى خير من العلانية تعظيم أمره ونهيه والوقوف عند حكمة وترك الاختيار فى جميع أحواله، وموافقته فى مشيئته، حتى ما يحب إلى ما يحب، ولا يكرع إلا ما يكره، ولا يريد إلا ما يريد. وقوله: أسألك من صالح ما يؤتى الناس فإن الله يؤتى الناس ما يصير عليهم وبالاً ويؤتى ما يبارك لهم فيه فما بورك لهم فيه من مال، وولد فهو صالح ما يؤتى، وليس ذلك بضال، ولا مضل، وما نزعت منه البركة، من المال والولد فهو الفاسد، وهو الضال المضل.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ــ كتاب الدعاء ــ (٥/٥٧٣)، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من الوجه وليس إسناده بالقوى، وأورده الزبيدى فى أتحاف السادة المتقين (١/ ٨٠)، وأورده السيوطى فى مسانيد الجامع الكبير (١/ ١٦٦) وعزاه لابن أبى شيبة وسعيد بن منصور ويوسف القاضى.

[الأصل التاسع عشر والمائة فى مبادرة العاطس بالحمد]

عن واثلة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من بادر العاطس بالحمد لم يضره شىء من داء البطن»(١)، العطاس تنفس الروح وسطوعه إلى الملكوت حنينا إلى قرب الله تعالى لأنه من عنده جاء وهو منىء لطيف طاهر طيب ملكوتى تمكن له فى لحم ودم وأمر بالقرار فيه فاستقر لهذا من لطف ربنا لعبده وكرامته إياه، ولولا الأرواح لم ينتفع بهذه الجوارح قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾

إلى قوله:

﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٢)

وقال عليه السلام: «الأرواح للملائكة والآدميين والجن والأنفاس للدواب» ويقال: إن الروح فى الرأس ثم هو بعد كالسربال فى الجسد، قال تعالى:

﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (٣)

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (١٢/١) وقال: أخرجه الحكيم الترمذى عن واثلة بن الأسقع، وذكره السيوطى كذلك فى اللآلىء المصنوعة (١٥٣/٢) وعزاه للحكيم الترمذى عن واثلة، وأورده السخاوى فى المقاصد الحسنة ص٤١٤ حديثاً فيه هذا المعنى.

(٢) الإسراء (٧٠/١٧).

(٣) الأنفال (١٢/٨). أراد سبحانه وتعالى بقوله: (فوق الأعناق) أى الأعناق، لأن الضرب=

دل على مستقر الروح وهو المقتل، فإذا عطس المؤمن فإنما ذلك وقت ذكر الله تعالى لعبده وتعزية (٤) للروح بما وقع فيه من الضيق، فإذا أخلص إلى الروح تاق إلى موضعه وموطنه فتلك الصيحة (٥) منه، فالمؤمن رأى عظيم صنع الله تعالى فى جسده فحمده على صنعه، وكرامته إياه بالروح فالمبادر بالحمد أفهمهم لذلك. ألا ترى أن آدم عليه السلام لما عطس بادر بالحمد. فقال الله تعالى له: «يرحمك ربك سبقت رحمتى غضبى» فكذلك المؤمن المتنبه لما عطس حمد فبورك عليه، وإذا سمع عاطساً سبقه إلى الحمد لأنه رأى عظيم صنع الله تعالى فيه فاستوجب بذلك البركة والعطف من الله وإذا بورك فيه وقى داء البطن، وهو وجع الخاصرة. وقد روى وقى وجع الخاصرة والمكر وسوء السرائر فى الكليتين فذلك داء البطن، فإذا كان سابقاً بالحمد كان متنبهاً، وكان صدره وجوفه مستنيراً فلم يعمل المكر فيه شيئاً. روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام إن عطس عاطس من وراء سبعة أبحرٍ فاذكرنى. ولذلك قال عليه السلام: «حق المسلم على المسلم ست خصال» فكان إحداهن تشميت العاطس، وذاك تهنئة بما ظهر للعبد من الحال عند ربه تعالى، فإذا لم يهنه فقد استهان به ومن استهان بأمر الله أهانه الله تعالى.

= لا يكون إلا للأعناق، وليس فوقها، والبنان هى أطراف الأصابع، قال الإمام الطبرى ـ شيخ المفسرين ـ فى جامع البيان: (٩/١٣٢): «والبنان جمع بنانه، وهى أطراف أصابع اليدين والرجلين» أهـ. وقال صاحب التسهيل (٢/٦٢): «وفائدة ذلك أن المقاتل إذا حزبت أصابعه تعطل عن القتال؛ فأمكن أسره وقتله» أهـ. بتصريف يسير، قال الفيروزابادى فى القاموس المحيط (٤/٢٠٥): «والبنان الأصابع وأطرافها».

(٤) وتقوية للروح [نسخة أخرى] وهو تحريف.

(٥) فتلك الضحية [نسخة أخرى] وهو تحريف وتصحيف معاً.

[الأصل المائة والعشرون فى أن أطيب الكسب كسب التجار وسنى خصالهم]

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا أئتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يطروا ، وإذا كان عليهم لم يمطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا » (١) ، فهذه خصال الحافظين لحدود الله ، ولا يقدر على الوفاء بها إلا من وثق بضامن الرزق فى شأن الرزق ، وسقط عن قلبه خوفه ، وسكنت نفسه ودرس محسبة الرزق من أين وكيف فعندها يستحق اسم التقوى ، والتقوى يصير رزقه من غير محسبة ، قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٢)

ومحسبة الرزق مظانة ومعادنه وأسبابه التى تعلقت قلوب الخلق بها حتى يعصى الله من أجل سبب لا يدرى فيه رزقه أم لا . مثل إن اشترى سلعة فخان فيها أومدح بما ليس فيه فإنما فعل ذلك لغنية قلبه وإنه يحسب أن ذلك رزقه ومعيشته ، وكم من مغرور بمثل هذا قد خدعه شيطانه ، وأمانى نفسه ثم يبغت بالموت ، وقد عرى من منفعته فيصير

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الكبير (١٠٦٢/١)وجاء فى فيض القدير(٤٢٥/٢) : أن السيوطى ذكره فى الجامع الصغير ونسبه للحكيم الترمذى والبيهقى فى شعب الإيمان (وضعفه) .

(٢)قال المفسرون : الآية عامة ، وقد نزلت فى عوف بن مالك الأشجعى وقد أسر المشركون ابنه . راجع قصته فى الطبرى (٩٠/٢٨) والقرطبى (١٦٠/١٨) والآية هى رقم ٣ من سورة الطلاق .

مهنأة لوراثه، والوبال عليه. فلو سقط عن قلبه محسبة معاشه، ورزقه. وعلم أن ذلك بيد الله تعالى؛ يخرجه من مشيئة الغيب فيجريها بالأسباب كان مراقباً لما يصنع مولاه ماداً عينه إلى ما يختار له ثم لا يتهمه أن أتاه غير ما تحب نفسه يوتى برزقه عفواً صفواً وتقواه معه وعلى رزقه طابع الإيمان، قال عليه السلام: «أفضل الأعمال أن لا تتهم الله تعالى فى شيء قضى عليك» والمتعلق بأسباب الرزق قلبه جوال ونفسه جشعة، وهو كالهمج (٣) فى المزابل يطير من مزبلة إلى مزبلة. حتى يجمع أوساخ الدنيا ثم يخلفها وراء ظهره، وينزع قابض الأرواح مخاليبه التى قد أحتدت (٤) للقبض على حطام الدنيا، و.يلقى الله تعالى بإيمان سقيم دنسه وسخه، ويخاطبه ربه عز وجل فى وقفته بين يديه «عبدى من كنت تعرف لنفسك رباً وإلهاً، فيقول له: إياك عرفت، وبك آمنت، فيجيبه أمن معرفتك إياى أو إيمانك بىّ كان يحل بك من خوف القوت والرزق ما حملك على أن عصيتنى بأنواع المعصية لأجله، أشككت فى ضمانى أم اتهمتنى، أم أسأت الظن بىّ؟» فمن فتح له طريق الهداية إلى الله تعالى، وعرف ربه عز وجل معرفة الموقنين، سقط عن قلبه هم الرزق وفكره، ولها عنه وشغله عن ذلك خوف جلاله وعظمته فكفى مؤنته.

ومن لم يفتح له طريق الهداية تعب قلبه بما.يرد عليه من المخاوف صب مما تتعاوره (٥) ظنون السوء بالله تعالى. وكل بدنه فى السعى خلف زانية لا ترد يد لامس، تزين وتتشوق حتى إذا سبت (٦) القلب

---

(٣) الهمج: بفتحتين جمع (همجة) وهى ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها.

(٤) احتدت: اشتدت وعظمت.

(٥) تتعاوره ظنون السوء: تحيط به وتكتنفه.

(٦) سبت: من السبى وهو الأسر.

ولت (٧) هاربة والمسبى على أثرها كالواله (٨)، وهذا جزاء من أعرض عن الله تعالى وإحسانه وأياديه ومننه وهل يجازى إلا الكفور المكب (٩) على جمع حطام الدنيا من بين شبهة وحرام وحلال، وقد عصى الله تعالى، وينفقها فى شهواته ومناه مضيعاً لحدود الله تعالى فيها مسرفاً، بطر. يأخذون الدنيا على غفلة ويخزنونها على تهمة، وينفقونها فى نهمة، ولا يذكرون ما أمامهم من الصراط والعرض على الله تعالى، والسؤال ونسوا وعيده الذى قدمه الله فقال:

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ (١٠)

ومن قنعت نفسه بما أعطيت من الدنيا ولم يرفع بما سواه رأساً ورضيت فى الأحوال بتدبير الله تعالى وحكمه فقال له:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (١١)

وقال عليه السلام: «من انقطع إلى الله كفاه الله مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب»، وقال عليه السلام: «التاجر الصدوق مع النبيين

---

(٧) ولت: ذهبت وانصرفت.

(٨) الواله: الذى ذهب عقله من التحير من شدة الوجد، يقال (واله) بالكسر يوله (ولهاً) و(ولهاناً)، يقال: رجلٌ (والهٌ)، وامرأة (والهٌ) وامرأة (والهةٌ).

(٩) المكب على حطام الدنيا: المتهالك عليها.

(١٠) المعارج (٧٠/ ١٥ - ١٨) يقصد بالشوى: جلود الرؤوس وهى جمع واحداها (شواة) راجع الطبرى (٢٩/ ٤٨) وقد قرئت (نزاعة) بالفتح، وبالضم. راجع أيضا البحر المحيط لأبى حيان (٨/ ٣٣٠) والقرطبى (١٨/ ٢٨٨).

(١١) الفجر (٨٩/ ٢٧ - ٣٠).

والصديقين والشهداء »(١٢)، وعن قيلة أخت بنى انمار(١٣) رضى الله عنها قالت : كنت امرأة أشترى وأبيع فى السوق فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فأتيته وهو عند المروة فقلت : يا رسول الله إنى امرأة أشترى وأبيع فى السوق فيأتينى الرجل يريد أن يشترى منى الشىء فأستام (١٤) عليه بأكثر مما أريد أن أبيعه فلا أزال أنقص، وأنقص حتى أبيعه بالذى أريد، وكذلك فى الشراء، قال : « فلا تفعلى يا قيلة إذا أردت أن تبيعى شيئاً فاستامى بالذى تريدين أن تبيعيه به أعطيت أومنعت وإذا أردت أن تشترى شيئاً، فأشترى بالذى تريدن أن تشريه به أعطيت أومنعت ».

وكان زاذان رضى الله عنه يبيع الكرابيس، وكان يسوم سومة واحدة، وكان إذا جاء المشترى ناوله شر الطرفين.

(١٢)رواه بهذا اللفظ الترمذى، والحاكم عن أبى جعيد عن أبى سعيد ورواه بنحوه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر، وقد ورد بروايات أخرى وبنفس المعنى وذكره الجعلونى (٩٤١/٣٤٩/١).
(١٣) بنى أنمار [فى نسخة أخرى].
(١٤) استام: عن المساومة.

[الأصل الحادى والعشرون والمائة فى أن الروحانيين قراء أهل الجنة وأن من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يستمع أصواتهم]

عن سهل من ولد أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يستمع الروحانيين فى الجنة، فقيل: وما الروحانيون؟ يا رسول الله، قال: قراء أهل الجنة، وفى الجنة أئمة كالعرفاء وهم الأنبياء عليهم السلام إذا صاروا إلى الله تعالى فهم أمام القوم والسابقون إليه، وعرفاؤهم أهل القرآن الذين عرفوا به ههنا تلاوة له وعملاً به» (1)، قال عليه السلام: «أهل القرآن عرفاء أهل الجنة، وقراءها فيلذذون أهل الجنة بما يعطون من الأصوات وحظ كل واحد منهم من الله على قدر درجته فمنهم من كانوا يفرحون فى الدنيا بالعطاء مع نفوسهم فهم كذلك فى الجنة فرحهم بما يعطون فى الجنة، فبه يتلذذون وبه يفرحون، ومنهم من كانوا يفرحون بالله تعالى، فهم كذلك فى الجنة فرحهم بالله تعالى، ودقت الجنة فى جنب فرحهم بالله تعالى، وهم الأولياء ويسموا الروحانيون».

فالروح الذى على قلوبهم شهرهم وحسن أصواتهم فى الجنة حتى يطربوا، ويلذذوا أهل الجنان وهذه الطبقة على ثلاثة أصناف: منهم من

(1) جاء فى فيصد القدير (٦/٦٠) أن السيوطى ذكره فى الجامع الصغير ونسبه إلى أبى موسى الأشعرى عند الحكيم الترمذى وأشار إلى ضعفه، وذكره الهندى فى كنز العمال (١٥/١٢٩) وقال: أفرده الحكيم عن أبى موسى.

يـكون الروح على قلوبهم ، والفرح غالب عليهم ، ومثالهم فى الملائكة هم المقربون .

ومنهم من يكون الهول على قلوبهم والأحزان غالب عليهم ومثالهم فى المـلائكـة الكروبيون ، فالأول أهل روح من شأنهم التسبيح ، والتحميد ، والتقديس و فتح لهم من جماله وبهائه فانبسطوا وملكهم الفرح به ، والثانى أهـل كـرب مـن شـأنهـم الـبـكـاء فـتـح لهـم من جلاله وعظمته فاكتأبوا ومـلـكـهـم الـكرب ، ويقولون فى تسبيحهم سبحانك ما لم تبلغه قلوبنا من خـشـيـتـك فـاغـفـر لـنـا يـوم نـقـمتك من أعدائك وإنما يأخذ كل واحد مـا أعـطـى ، ويـنـظـر إلى ما وضع بين يديه وكشف له عنه وفتح له من الـغـيـب ، فـالـكـروبيون كربهم وأحزانهم من رؤية التقصير، والروحانيون شغلهم جماله عن الألتفات إلى أنفسهم وأعمالهم ، فإذا ذكروها لم تدعهم رؤيـة جمـالـه إلا أن يحسنوا الظن به ، فحسن الظن به غالب على رؤية التقصير، والفرح لهم به دائم والروح على قلوبهم مترادف ، وصنف ثالث أعـلـى مـن هـذيـن قد جاوزوا هاتين الخطتين إلى وحدانيته ؛ فانفردوا به فشغلتهم وحدانيته عن الجلال والجمال ، فهم أمناء الله تعالى وأعلامه فى أرضـه وقـواد ديـنه ، وهم الذين قال عليه السلام لأبى جحيفة : «جالس الـكـبـراء» وهـم الذين تكبروا فى عظمة الله تعالى وجلاله ، واعتزوا به وله ، والفرح على ثلاثة أضرب(٢) ، فرح بالدنيا الدنية الزائلة فقد خسر أهله ، وهو فرح الظالمين ، قال الله تعالى :

﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ (٣)

وقال فى قصة قارون :

---

(٢) أضرب: أنواع.
(٣) الرعد (١٣/٢٦).

﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ (٤)

وفرح بفضل الله تعالى ورحمته أن فضلهم بمعرفته والإيمان به وهذا فرح المقتصدين الشاكرين، قال تعالى:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥)

وفرح بالله تعالى حيث انتبهوا أنه ربهم فى عظمته وجلاله ومجده وكبريائه وملكه وكرمه وغناه، وهذا فرح المقربين، فالأول عبد ملكته دنياه فكان بها يفتخر ويصول وبها يفرح، ثم أفاق إفاقة فملكته نفسه بالعطايا التى وردت على قلبه فكان بها يفتخر، ويصول وبها يفرح، ثم أفاق إفاقة فملكه الحق ليروضه، ويؤدبه بين يديه، حتى يصلح له، فإذا تمت رياضة الحق له بباب الملك الأعلى رفع الحجاب عن قلبه وأوصله إلى قربه فكان بين يديه به يفتخر(٦)، وبه يصول وبه يفرح، حتى ارذا اطمأن على المقام واعتاده وسكنت منه الأفراح لاوالأهوال والدهشات من النظر إلى جلاله وجماله قدمه إلى الوسيلة العظمى، والقربة الأوفى. فغرق قلبه فى وحدانيته فصار منفرداً به مشغولاً عن جميع صفاته، فهو أمينه وواحد بين عبيده، فهو الذى إذا ناداه فى أرضه ياواحدى يصدق فى قوله، وهو الذى قال عليه السلام: «سيروا فقد سبق المفردون، قالوا: يارسول الله ومن المفردون؟ قال: الذين أهتروا فى ذكر الله يأتون يوم القيامة خفافاً يضع الذكر عنهم أثقالهم» فالمهتر هو الذى خرف فذهب عقله فإذا تكلم هتر فى كلامه كأنه يهذى، والمفرد قد فرد قلبه

(٤) القصص (٢٨/٧٦) والمقصود بقوله تعالى (لاتفرح) ليس مراداً به مجرد الفرح أو الإبتهاج إنما المراد بذلك البطر أى لا تأشر، ولا تبطر. راجع المعنى فى تفسير القرطبى (١٣/٣١٣) والطبرى (٢٠/٧١) بتصرف.

(٥) يونس (١٠/٥٨). ذكر الطبرى فى تفسيره (١١/٨٧): أن فضله: الإسلام، ورحمته: القرآن. راجع أيضاً تفسير غريب القرآن ص ١٩٧، ابن عباس رضى الله عنها قد قال: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام، راجع البحر المحيط لأبى حيان (٥/١٧١) بتصرف.

(٦) يفتخر: من الفخر.

للواحد فى وحدانيته، وجاز من الجلال والجمال إلى وحدانيته، قد خمد نور عقله فنور وجهه الكريم فصار كالواله فى ذكره كالذى يهذى لأن من شأن العقل أن يقيم بك على الحدود والأشياء المقدرة المعلومة، فإذا خمد العقل فقد ذهب عمله فهو الذى اهتز فى ذكر الله تعالى.

فالمقتصدون يتعبدون بذكره، ويفرحون بفضله عليهم، والصديقون به يتنعمون وبه يفرحون، فإذا أدخلوا الجنة فهمة المقتصدين الوصول إلى ثوابه من المساكن والحور فى الحجال، وهمة الصديقين وقصدهم قربهم إلى ربهم، يروى أن الملائكة يأتون يوم القيامة فيقولون يا أولياء الله انطلقوا، فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، فيقولون: ارنكم لتذهبون بنا إلى غير بغيتنا، فيقال لهم: ما بغيتكم؟ فيقولون: المقعد الصدق مع الحبيب، وقال عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ (٧)

إن أهل الجنة يدخلون على الجبار كل يوم مرتين فيقرأ عليهم القرآن، وقد جلس كل امرىء منهم مجلسه على منابر الدر والياقوت والزمرد والذهب والفضة بالأعمال فلا تقر أعينهم قط كما تقر بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى رحالهم قريرة أعينهم ناعمين إلى مثلها من الغد».

---

(٧) القمر (٥٤/٥٤)، قال الفراء: «وحّد: لأنه رأس آية، فقابل بالتوحيد رؤوس الآيات» وقد ورد عن ابن جريج نحو ما قال به الفراء ابتداء، وذكر ذلك القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٤٩)، ويقال: النهر: الضياء، والسقة، ومن ذلك قول القائل: أشهرت الطعنة؛ إذا وسعتها. راجع جامع البيان (٢٧/٦٧) ونحو ذلك عند السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٦/١٣٩).

فهؤلاء الروحانيون الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قراء أهل الجنة فمن استمع إلى صوت غناء فى الدنيا ثم دخل الجنة حرم أصواتهم .

[الأصل الثاني والعشرون والمائة في أن خير هذه الأمة أولها وآخرها استقامة]

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير أمتي أولها وآخرها وفي وسطها الكدر» (1)، وفي رواية ابن عمر رضي الله عنهما: «مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أو آخره» (2).

وعند عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: بعثني خالد بن الوليد بشيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم موته فلما دخلت عليه قلت: يا رسول الله فقال: «على رسلك (3) يا عبد الرحمن اخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل زيد حتى قتل، رحم الله زيداً، ثم أخذ اللواء جعفر فقاتل جعفر حتى قتل، رحم الله جعفراً، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل فقتل، رحم الله عبد الله، ثم أخذ اللواء خالد ففتح الله لخالد فخالد سيف من سيوف الله تعالى فبكى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم حوله، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: وما لنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا، قال: لا تبكوا فإنما

---

(1) ذكره الهندي في كنز العمال (527/11) وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه للحكيم الترمذي. راجع فيض القدير (483/3).

(2) رواه الترمذي عن أنس به مرفوعاً، وأشار إليه ابن عبد البر وقال إنه حسن، وقول النووي في فتاويه أنه ضعيف متعقب.

(3) على رسلك: رويداً، ومهلاً.

مثل أمتى مثل حديقة قام عليها صاحبها فاجتث رواكبها (٤) وهيأ مساكنها وحلق سعفها فأطعمت عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً ولعل آخرها طعماً يكون أجودها قنواناً، وأطولها شمراخاً، والذى بعثنى بالحق نبياً ليجدن ابن مريم فى أمتى خلقاً من حواريه».

وفى رواية أخرى «ليدركن المسيح من هذه الأمة أقوام (٥) إنهم لمثلكم أو خير منكم ثلاث مرات، ولن يخزى الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها».

منّ الله تعالى على هذه الأمة فقال تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٦)

وقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (٧)

أى عدلاً لايميل إلى إفراط ولا إلى نقصان، فالميزان لسانه فى وسطه، وباستواء الطرفين، والكفتين يستوى لسان الميزان ويقوم الوزن، فجعلت أوائل هذه الأمة وأواخرها ككفتى الميزان يستويان لأنهم يهدون بالحق وبه يعدلون، ومابينهما من العوج كلسان الميزان، يستقيم باستواء الكفتين فإنه إن مال الوسطانى أى الجانبين مال إلى ركن وليق فعم استواء الكفتين اعوجاج الوسط وقد جاء فى الخبر «أنه سيظهر العلم فى آخر الزمان، ويقبل الناس على أمر الله تعالى حتى تتم حجة الله على عباده».

---

(٤) زواكيها [نسخة أخرى] وهو تحريف وتصحيف.

(٥) فى نسخة أخرى [أقواماً] وهو تحريف.

(٦) آل عمران (١١٠/٣).

(٧) البقرة (١٤٣/٢) أمة وسطا: عدلاً خياراً. ومن ذلك ذكر ابن منظور فى لسان العرب (٣٠٩/٩) قولهم للنبى صلى الله عليه وسلم: «هو أوسط قريش حسباً» أهـ.

[الأصل الثالث والعشرون والمائة فى شرائط الولاية]

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن من أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلوته أحسن عبادة ربه، وكان غامضاً فى الناس، وكان رزقه كفافاً، فصبر عليه، فعجلت مينته، وقل تراثه، وقلت بواكيه» وقال عليه السلام: «هكذا ونقر بأصبعه هكذا» (١) الولى من كتب الله له الولاية، وجعل له حظاً فبحظه من الله تعالى يقدر أن يتولاه كما أن النبوة لمن كتب له النبوة وجعل له حظاً فبحظه من الله تعالى قامت له النبوة، وبين الأنبياء عليهم السلام تفاوت فى الدرجات، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (٢)

وقال تعالى:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٣)

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى الكفاف والصبر عليه (٥٧٥/٤). وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وأخرجه الحاكم فى المستدرك ـ كتاب الأطعمة ـ باب النهى عن التكلف للضيف (١١٣/٤)، وأخرجه ابن ماجة فى سننه ـ كتاب الزهد ـ باب من لايؤبه له (١٣٨٧/٢). وأخرجه أحمد فى المسند (٢٥٢/٥)، وأورده الطيالسى فى مسنده (٤٠٤/٥).

(٢) الإسراء (٥٥/١٧).

(٣) المجادلة (٢٢/٥٨). حاد الله: شاقه، قال الفخر الرازى فى الكبير (٢٧٦/٢٩): «أى لايجتمع الإيمان مع حب أعداء الله، وذلك لأن من أحب أحداً امتنع أن يحب عدوه، لأنهما لايجتمعان فى القلب، فإذا حصل فى القلب مودة أعداء الله، لم يحصل فيه الإيمان» أهـ.

وهــذه الآيـات نـزلت فى أبى عبيدة بن الجراح (٤) رضى الله عنه حين قـتـل أبـاه يـوم بدر، وقال عبد الرحمن بن أبى بكر لأبيه رضى الله عنهما بـعـدمـا أسلم : «يا أبت لقد أهدفت لىّ يوم بدر فضفت (٥) عنك، فقال أبـو بـكـر رضـى الله عـنـه : أمـا إنـك لـو أهـدفت لىّ ما ضفت عنك »، وكـتـب الله لأهل الولاية ولايتهم وأيدهم بروح منه، فلا تأخذهم فى الله لـومـة لائم، ولا حـب ولد، ولا والد، ولا أهل، ولا تالد. قال ابن عباس رضـى الله عنهما: «لا يـنـال الـرجـل ولايـة الله وإن كـثـرت صـلاتـه، وصـيـامـه، حـتـى يحـب فـى الله، ويـبـغـض فى الله، ويوالى فى الله، ويـعـادى فـى الله» فبين الأنبياء تفاوت فى القلوب والدرجات، وكلهم أنـبـيـاء عليهم السلام، فكذلك الأولياء بينهم تفاوت، وكلهم أولياء فهذا الـذى وصـفـه عـلـيـه السلام كأنه يحكى عن الله تعالى فقال: «إن من أغـبـط أوليائى عندى فالمغوط من يقرب درجته من درجة الأنبياء (٦) علواً وارتـفـاعـاً مـوئـن خـفـيـف الحـاذ مثل أوبس القرنى وأشباهه وهذه صفة الـظـاهـر لا صفة الباطن» وقد يكون من الأولياء من هو أرفع درجة وذاك عـبـد قد ولى الله استعماله فهو فى قبضته يتقلب به ينطق وبه يبصر وبه يـبـطـش وبـه يـعـقـل شـهـره فى أرضه وجعله إمام خلقه، وصاحب لواء الأولـيـاء وأمان أهل الأرض ومنظر أهل السماء، وريحانة الجنان، وخاصة الله، ومـوضـع نظره، ومعدن سره، وسوط الله فى أرضه يؤدب به خلقه، ويحـيـى الـقـلـوب المـيـتـة بـرؤيـتـه، ويرد الخلق إلى طريقه، وينعش به حقوقه، مفتاح الهدى، وسراج الأرض، وأمين صحيفة الأولياء وقائدهم، والـقـائم بالثناء على ربه بين يدى رسوله صلى الله عليه وسلم، يباهى به

---

(٤) قال ابن كثير فى المختصر (٤٦٧/٣): (ولو كانوا آباهم) نزلت فى أبى عبيدة (أو أبناءهم) فى أبى بكر الصديق (أو إخوانهم) فى مصعب بن عمير (أو عشيرتهم) فى حمزة. وعلى. وعبيدة بن الحارث» أهـ. بتصرف.

(٥) ضفت عنك: صدفت، وألويت وجهى عنك.

(٦) كذا ورد بالأصل.

الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك الموقف، وينوه الله باسمه فى ذلك المقام، ويقر عين الرسول به صلى الله عليه وسلم قد أخذ الله بقلبه أيام الدنيا ونحله حكمته العليا، وأهدى ارليه توحيده، ونزه طريقه عن رؤية النفس وظل الهوى و وأئتمنه على صحيفة الأولياء، وعرفه مقاماتهم، وأطلعه على منازلهم، فهو سيد النجباء، وصالح الحكماء، وشفاء الأدواء، وإمام الأطباء، كلامه قيد القلوب، ورؤيته شفاء النفوس، وإقباله قهر الأهواء، وقربه طهر الأدناس، فهو ربيع يزهر بنوره، وخريف يجتنى ثماره، وكهف يلجاء إليه، ومعدن يؤمل ما لديه (٧)، وفصل بين الحق والباطل، وهو الصديق والفاروق، والولى، والعارف، والمحدث واحد الله فى أرضه، قال عليه السلام: «يكون فى هذه الأمة قلوب على قلب إبراهيم عليه السلام، وهم صنف من البدلاء» (٨).

وقال فى شأن هلال عبد المغيرة بن شعبة: «هذا أحد السبعة الذين بهم تقوم الأرض بل هو خير منهم».

روى أبو الدرداء رضى الله عنه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة قال أبو الدرداء رضى الله

---

(٧) فى نسخة أخرى [يؤمل لديه].

(٨) وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم: (الأبدال فى هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً). عزاه فى اللآلىء لمسند أحمد عن عبادة بن السامت مرفوعاً، وفى لفظ له عنه «الأبدال فى هذه الأمة ثلاثون رجلاً قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن إلى آخر ما تقدم بلفظه، ثم قال فيها وحكى عبد الله بن أحمد عن أبيه أنه منكر تفرد به الحسن بن ذكوان، قال ابن كثير: وهو كما قال، ووثق البخارى الحسن المذكور، وضعفه الأكثرون، حتى قال أحمد: أحاديثه أباطيل، وقال الزركشى أيضا هو حسن، وقال الشيبانى فى التميز تبعاً للأصل (ص ٤) له طرق عن أنس مرفوعاً بألفاظ مختلفة وكلها ضعيفة. ولكن العجلونى رأى أنه يتقوى بتعدد طرقه (٣٥/٢٥/١) وقد توسع وبسط القول فى هذه الطرق.

عنه: فخرجت من ذلك الباب، فضيت فنظرت هل أرى أحداً فلم أر أحداً فدخلت فيه فقعدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما إنك لست به يا أبا الدرداء، ثم جاء رجل حبشى، فدخل من ذلك الباب، وعليه جبة صوف فيها رقاع من أدم رام بطرفه إلى السماء حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليه فقال: كيف أنت يا هلال فقال: بخير يا رسول الله، جعلك الله بخير، فقال عليه السلام: ادع لنا يا هلال واستغفر لنا فقال رضى الله عنه يا رسول الله وغفر لك، فقال أبو الدرداء: فقلت له: استغفر لىّ يا هلال فأعرض عنى ثم عاودته الثانية فأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: أراض أنت عنه يا رسول الله قال: نعم، قال: رضى الله عنك وغفر لك، لقد أقبل وهو رام بطرفه إلث السماء، ومايقلع ثم خرج وهو على ذلك قال عليه السلام: لئن قلت ذاك أن قلبه لمعلق بالعرش أما أنه لم يبق فيكم أكثر من ثلاثة أيام فأحصيت الأيام فلما كان اليوم الثالث وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر خرج من المسجد ونحن معه فخرج يؤم دار المغيرة بن شعبة فلقى المغيرة خارجاً من داره فقال له: آجرك الله يا مغيرة قال: يا رسول الله ما مات فى دارنا الليلة أحد، قال: بلى توفى هلال فالتمسه برسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده فى ناحية الدار فى اصطيل لهم خاراً على وجهه ساجداً ميتال فأمر أصحابه فاحتملوه فولى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى دفن ثم أقبل على أبى الدرداء، فقال: يا أبا الدرداء أما أنه أحد السبعة الذين بهم كانت تقوم الأرض، وبهم كنتم تستسقون المطر بل هو خيرهم».

فالصديقون امان أهل الأرض(٩)، وهم خلفاء النبيين لما خلت الأرض عن النبوة شكت إلى الله تعالى وعجلت فقال سوف أجعل عليك أربعين صديقاً كلما مات واحد بدل الله مكانه والحظ هو أن فتح

(٩) بدعائهم وعبادتهم وليس بذوات أشخاصهم.

الله تعالى لعبده قلبه وقذف فى صدره النور حتى ينخرق حجب الشهوات ويضىء صدره فهو على نور من ربه وجعل له طريقاً إليه فذاك مبتدأ الحظ فلا يزال يسير إليه ويأتيه المدد من النور حتى يصل إليه فيظهر على قلبه جلاله وعظمته وجماله وبهاؤه فلا يزال هناك حتى يصل إلى فرديته فيصيروا لها به مبهوتاً فث وحدانيته فهذا هو الحظ الوافر الباهر.

قال الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (١٠)

فالأنبياء عليهم السلام لهم حظ النبوة والأولياء لهم حظ الولاية.

قال تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ * لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (١١)

هم طائفة من المؤمنين قد خصهم الله تعالى بالولاية، وعصمهم باليقين، ونور قلوبهم بالهداية، ولى الله تعالى منهم ذلك، واجتباهم لنفسه فهم صنيعه، وهم الذين ذكرهم الله تعالى:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ (١٢)

---

(١٠) العنكبوت (٢٩/ ٦٩).

(١١) يونس (١٠/ ٦٢ـ ٦٤)، والبشرى التى أنعم الله بها على الأولياء فى الدنيا: هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو ترى له، وقال بعض المفسرين: هى بشارة المؤمن عند الموت. أنظر تفسير الطبرى (١١/ ٩٣) ومابعدها، والمختار عند الطبرى هو البشارة عند الموت.

(١٢) الزمر (٣٩/ ١٨). قال ابن عباس رضى الله عنهما: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح، فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبيح فلا يتحدث به. راجع تفسير القرطبى (١٥/ ٢٤٤).

قال الضحاك رحمه الله : احشنه ما أمر الله تعالى النبيين من الطاعة .

وقال عليه السلام فى حديث جبرائيل عليه السلام حين سأله عن الإحسان : «ما الإحسان؟ فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فارن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فإذا فعلت ذلك فأنا محسن ، قال : نعم ، قال : صدقت» فمن عبد الله كأنه يراه استمع القول فاتبع أحسنه ونظر إلى الأمور فعمل بأحسنها .

[الأصل الرابع والعشرون والمائة فى ضغطة القبر وعذابه]

عن حذيفة رضى الله عنه قال: كنا فى جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهينا إلى القبر جلس عليه السلام على شفته، وجعل ينظر ثم قال: «يضغط المؤمن فى هذا ضغطة يزول منها حمائله ويملأ على الكافر ناراً» (١)، فالمؤمن من أشراق نور الإيمان فى صدره فباشر اللذات والشهوات، وهى من الأرض، والأرض مطيعة وخلق الآدمى منها، وقد أخذ عليه العهد والميثاق فى العبودة فانقض من وفاء العبودة، صارت واجدة عليه (٢)، فإذا وجدته فث بطنها ضمته ضمة ثم تدركه الرحمة فترحب عليه، وعلى قدر مجىء الرحمة يتخلص من الضمة، فإن كان محسناً فإن رحمة الله قريب من المحسنين، فلم يكن للضمة لبث، وإن كان خارجاً عن حد المحسنين يطول اللبث فى الضمة حتى تدركه الرحمة، وهذا لأن المحسن توسع عليه الرحمة وتلك الضمة ضمته الشفقة لا ضمة السخطة لأنه كان على ظهرها محسناً، وكانت مشتاقة إليه فلما وجدته فى بطنها ضمته كغائب وجد غائبة بعد الشوق إليه، والظالم المخلط يكون لضمته لبث حتى تدركه الرحمة، والكافر لا خلاق له من الرحمة، فيملأ عليه ناراً.

---

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد– كتاب الجنائز– باب فى ضغط القبر (٤٦/٣)، وأخرجه أحمد فى المسند من حديث حذيفة (٤٠٧/٥)، وأخرجه الزبيدى فى أتحاف السادة المتقين (٤٢٢/١٠)، وقال: قال العراقى: رواه أحمد بسند ضعيف. وأضاف الزبيدى. وكذلك رواه الحكيم فى النوادر، والبيهقى فى عذاب القبر.

(٢) واجدة عليه: من الوجد وهو الحزن والأسى.

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن فى قبره فى روضة خضراء يرحب (٣) له قبره سبعين ذراعاً وينور له قبره مثل ليلة البدر أتدرون فيم نزلت هذه الآية:

﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (٤)

قال: عذاب القبر، والذى نفسى بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية لكل حية منها تسعة رؤس ينفخن فى جسمه، ويلسعنه، ويخدشنه إلى يوم يبعثون».

وهذا لأن من عاد من بنى آدم إلى الأرض بعد الموت، وقد وضع الله تعالى وزره فلا سبيل للأرض عليه، لأن نفسه قد طهرت من الدنس، فإذا عاد جسده إلى الأرض التى منها ابتدئت مع نور الإيمان ونور الطاعات، فذاك جسد أشرف وأعظم خطراً من أن تضمه الأرض، وتضغطه، فإن هذا الجسد صار فى مرتبة أعظم من مرتبة الأرض من منن الله تعالى عليها وطاعته لا تشبه طاعة الأرض لأن نفس الأرض مجبورة، ونفس الآدمى مفتونة بالشهوات فليست طاعة شىء من خلق الله تشبه طاعة الآدمى، لأنه يخرجه من بين شهوات ووساوس، وعجائب.

وما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما فى شأن سعد بن معاذ رضى الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل قبره فاحتبس فقالوا: ما حبسك يا رسول الله؟ قال: ضم سعد فى القبر ضمة فدعوت الله أن يكشف عنه».

وفى رواية أخرى جلس على القبر فقال: «لا إله إلا الله سبحان الله هذا العبد الصالح، لقد ضيق عليه قبره حتى خشيت أن لا يوسع عليه ثم وسع له».

---

(٣) يرحب: يوسع له.

(٤) طه (١٢٤/٢٠). المعيشة الضنك: الضيقة، راجع مختصر ابن كثير (٤٩٧/٢) بتصرف.

وروى فى الخبر أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: «كان يقصر فى بعض الطهور من البول» فإن القوم فى ابتداء الإسلام يتمسحون بالحجارة والتراب فلما نزل قوله تعالى:

﴿ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (٥)

فشا فيهم الطهور فمنهم من كان يستنجى ومنهم من كان يتطهر بالماء وليس الاستنجاء بذنب عندهم ولا خطيئة فيحاسبون فى قبورهم، فمن ورد اللحد مع التقصير نالته ضمة الأرض، كما نالت سعداً مع عظم قدره فكانت ضمة ثم فرج عنه.

قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: «فى القبر حساب وفى الآخرة حساب، فمن حوسب فى القبر لم يعذب فى الآخرة» (٦)، وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا البول فإنه من أول ما يحاسب به العبد فى القبر» (٧).

وروى أنه لما توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازتها قال: فكأنما يسقى على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الرماد، فلما دفنت ذهب عنه بعض ذلك فقالوا: «يا رسول الله لا تزال نرى فى وجهك ما نكرهه، قال: إنى ذكرت ضعفها وضغطة القبر، فعفى لى عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع كل شىء إلا الثقلين» (٨).

---

(٥) التوبة (١٠٨/٩).

(٦) ليس هذا على إطلاقه إنما هناك من يعذب فى قبره، ثم يجازى يوم القيامة أيضاً، وليس هذا نسخا لقول حذيفة بن اليمان رضى الله عنه بل ربما يكون ذلك تقييداً لمطلقه، أو مخصصاً لعمومه والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم.

(٧) رواه الطبرانى عن أبى أمامة، وفى لفظ: «فإن عامة عذاب القبر منه». راجع أيضاً العجلونى (٧٤/٣٩/١).

(٨) الحديث أخرجه القرطبى عن زاذان عن أبى عمر فى التذكرة فى أصول الموتى وأمور الآخرة (١٢٨/١) ط. العلمية.

وقال عليه السلام: «لو أفلت أحد من فتنة القبر أو ضمه لنجا سعد ولقد ضم[9] ضمة ثم أرخى عليه» وهذا لأهل الإستقامة يكون من التقصير ثم رفع عنهم لأن الحق يقتضى حقه ثم تجيئه الرحمة فتكشف عنه فأما الأنبياء والأولياء عليهم السلام فليس لهم[10] ضمة ولا سؤال لأنهم بحظهم من ربهم امتنعوا من ذلك وتخلصوا فإن على قلوبهم من جلال الله تعالى وعظمته ما إذا وردوا اللحود تهابهم[11] اللحود من جلالتهم، قال عليه السلام: «من هاب الله تعالى أهاب الله منه كل شيء»، وقال عليه السلام: «من اتقى الله أهاب الله عز وجل منه كل شيء، ومن لم يتق الله أهابه الله من كل شيء».

وقال عليه السلام: «لو عرفتم الله تعالى حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال».

وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه على مصاب:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ [12]

فبرأ فقال عليه السلام: «لو قرأها موقن على جبل لزال».

وهذا لأن القلب إذا كان له حظ من السلطان والهيبة، والجلال نفذ قوله وفعله، فمن نور الله قلبه باليقين، وفتح على قلبه من جلاله، وعظمته وسلطانه، هابه كل من رآه، ومن ههنا قال ابن عباس رضى الله عنهما: «والله لدرة عمر كانت أهيب فى صدور الناس من سيوف غيره»، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يهابونه، وإذا

(٩) راجع الحديث فى التذكرة (١٢٨/١) أيضاً من حديث شعبة بن الحجاج بإسناده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها.

(١٠) أى ضمة فى القبر.

(١١) اللحد: هو الشق.

(١٢) المؤمنون (١١٥/٢٣).

أرادوا أن يكلموه بشيء رفعوا ذلك إلى بنته حفصة رضى الله عنها هيبة له .

وعن نافع قال : «خرج عنق نار من حرة النار لا تمر على شيء إلا أحرقته » فأتى عمر رضى الله عنه فأخبر بها فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أيها الناس اطفؤها بالصدقة » فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار فقال عمر : ماذا صنعت حصرت الناس فتصدق الناس فأتى عمر رضى الله عنه فقالوا له قد طفئت ، فقال : لو لم تفعل (١٣) لذهبت ، حتى أنزل عليها . وزلزلت المدينة على عهد عمر رضى الله عنه حتى اصطفقت السرر، فقام عمر رضى الله عنه على المنبر فقال : أيها الناس ما هذا ما أسرع ما أحدثتم ، قال : فسكنت فقال : لئن عادت لا أساكنكم فيها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع طلاقته ، وبشاشته إلى أصحابه ، ورحمته ، وعطفه على الأمة يهابه الخلق كأنما على رؤسهم (١٤) الطير، حتى كانوا يغتنمون أن يجيئهم أحد من البادية فى جفائه فيسأله عن بعض الأمر، وقال لرجل جلس عنده فأخذته الرعدة (١٥) فقال : «هون عليك فإنما أنا ابن امرأة (١٦) كانت تأكل القديد » (١٧) ، فإذا كان هذا حال المؤمن ، على ظهر الأرض فكيف يجوز أن تضمه .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن المؤمن إذا مات تجملت المقابر لموته فليس منها بقعة إلا

---

(١٣) فى نسخة أخرى [لو لم تفعلوا] وهو تحريف .
(١٤) كأن على رؤوسهم الطير: كناية عن السكون وعدم الحركة .
(١٥) الرعدة : من الارتعاد وهو الاضطراب ، يقال ارتعاد فرائصه من الفزع .
(١٦) هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه؛ ليعطينا مثلاً ونموذجاً للأخلاق السرية الرفيعة ، والشمائل النقية .
(١٧) القديد : اللحم المقدد . وقيل الخبز اليابس .

وهى تتمنى أن يدفن فيها، فإذا دفن فى البقعة التى قضى الله أن يدفن فيها دخل عليه ملكا الرحمة فأجلساه ثم سألاه فقال أحدهما للآخر: ارفق بولى الله فإنه نجا من هول شديد، ثم يسأله عن الرب فعظم إجلاله فأخبره بعظمته، ثم يسأله عن نبى الله فصلى عليه وأثنى عليه، وأن الأرض تزينت له فقالت رب منى خلقته، وفى أعدته ومنى تبعثه للحساب فأذن لىّ حتى أدخل على عبدك فلان فأمر الله الأرض، فتزينت فى صورة لم تر الأعين مثلها، ودخلت على من هو أحسن منها فقالت له حين دخلت عليه: ما أحسن وجهك وأطول نعمك وأفسح مضجعك، فقال لها ومن رآك فى هذه الصورة فليحسن وجهه وليطل نعمه وليفسح مضجعه فقالت له: أنت منى خلقت، وعلىّ أعدت، وفى أكرمت، وخرجت من عنده فكان ابن آدم ناعماً حتى يبعث أولياء الله تعالى لم يذق عذاب القبر، ويبعث مبياض (١٨) وجهه حتى يبلغ الجنة فتلقاه الملائكة فيقولون: سلام عليكم هذا بشراك الذى كنت توعد».

عن أبى الحجاج الثمالى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول القبر للميت حين يوضع فيه، ويحك يا ابن آدم (١٩) ماغرك بى، ألم تعلم أنى بيت الظلمة، وبيت الفتنة، وبيت الوحدة، وبيت الدود، ماغرك بىّ إذ كنت تمر بى فدادا (٢٠)، قال: فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر فيقول: أرأيت إن كان ممن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فيقول: إنى إذا أعود إليه خضرا ويعود جسده عليه نوراً وتصعد روحه إلى رب العالمين».

---

(١٨) فى نسخة أخرى [مبيض وجه] وهذا تحريف خطير.

(١٩) هذا القول على سبيل المجاز، أو مقتضى الحال. والله أعلم.

(٢٠) فداداً: من الفدادة، ومنها الفدادون، وهم الذين تعلو أصواتهم فى حروثهم ومواشيهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إن الجفاء والقسوة فى الفدادين». والفديد هو الصوت.

[الأصل الخامس والعشرون والمائة في أن سعادة ابن آدم الاستخارة والرضى بالقضاء]

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سعادة ابن آدم استخارته ربه، ومن سعادة ابن آدم رضاه بقضاء الله تعالى»(١). الاستخارة في الأمور لمن ترك التدبير في أمره وفوضه إلى ولي الأمور الذي دبر له ذلك وقدره قبل أن يخلقه، قال الله تعالى لداود عليه السلام: «تريد وأريد ويكون ما أريد، فإن أردت ما أريد كفيتك ما تريد ويكون ما أريد، وإن أردت غير ما أريد عنيتك فيما تريد ويكون ما أريد». وسئل بعض السلف رحمهم الله تعالى بم تعرف ربك قال: بفسخ العزم، فالآدمي يفكر ويدبر ويعزم. وتدبير الله تعالى من ورائه بإبطال ذلك(٢) وتكون تلك الأمور على غير ما فكر ودبر، فأهل اليقين والبصائر والتفويض لما علموا علم اليقين أن إرادتهم تبطل عند ارادته رموا بارادتهم وفكرهم وأقبلوا عليه يراقبون تدبيره

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ـ كتاب القدر ـ باب ما جاء في الرضا بالقضاء (٤٥٥/٤). وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرك ـ كتاب الدعاء ـ باب من سعادة ابن آدم استخارته الله عز وجل (٥١٨/١). وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي، وأخرجه أحمد في المستدرك من حديث سعد بن أبي وقاص (١٦٨/١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٩/٢).

(٢) ومحال أن يخرج شيء عن قدر الله، وحيث أن سلطانه غير المحدود، وقدرته المهيمنة، وقيوميته الموصولة بإرادته وقدرته ـ فلا مندوحة، ولا مفر من التسليم له والتفويض إليه، وإرجاع الأمر كله إليه.

وينتظرون حكمه فى الأمور فإذا أنابهم (٣) أمر قالوا اللهم (٤) خر لنا فهذا من سعادته. فإذا خار الله له رضى بذلك وافقه (٥) أولم يوافقه. والآخر ترك الاستخارة فإذا حل به تدبيره وقضاؤه سخط، وضاق (٦) به ذرعا، وخنق نفسه ولا يزداد إلا اختناقا، وقد صدر (٧) الوهن فى عنقه ومن سنة الاستخارة ماروى جابر رضى الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل اللهم إنى استخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى، ودنياى، ومعاشى، ومعادى، وعاقبة أمرى أوقال عاجل أمرى، وآجله فاقدره لى ويسره لى وبارك لى فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى، ومعاشى ومعادى، وعاقبة أمرى فاصرفه عنى وأصرفنى عنه، وأقدر لى الخير حيث كان ورضنى به، وتسمى حاجتك باسمها» (٨).

فإن قيل هذا رضاه بالمقدور من المضار، والمنافع فى الدنيا، فكيف يكون رضاه بالمقدور من المعاصى قيل له رضاه بتقدير الله تعالى، وسخطه على نفسه بإرادتها وعلى جوارحه فى حركاتها فيما لم يؤذن له فيه وتقديره محمود عليه لأنه لم يظلمك، ومن هو منزه عن الظلم فمحمود فى

---

(٣) نابهم: أصابهم.

(٤) خر لنا: اختر لنا، ومنها الاستخارة، طلب الاختيار.

(٥) لأن الله سبحانه وتعالى يريد الخير لعباده، ولا يرضى لهم إلا سعادة الدارين، الدنيا والآخرة.

(٦) ضاق بالأمر ذرعاً: لم يصبر عليه، ولم يطقه.

(٧) الوهن: الضعف والخور.

(٨) رواه البخارى (١١/١٥٥ ـ ١٥٨) فى الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، فى التطوع باب ما جاء فى التطوع مثنى مثنى، وفى التوصية باب قول الله تعالى: (وهو القادر).

جميع شأنه ، وقد اتخذ عليك الحجة البالغة بما أعطاك من العلم والعقل ، والهدى والبيان ولم يوجب لك على نفسه العصمة إن شاء عصم وإن شاء خذل ، فارض بتقديره ولا تسخط عليه واسخط على نفسك (٩) الجائرة ومعنى تقدير الله تعالى إبراز عمله فى عبده من الغيب فقد علم ما يعمل هذا العبد فأبرز علمه .

---

(٩) الجائرة: الظالمة ، من الجور وهو الظلم .

[الأصل السادس والعشرون والمائة فى أن الندم التوبة]

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الندم توبة»(1) وعن أنس رضى الله عنه مثله.

الندم العزم على أن لا يعود، ومعناه إقامة القلب بين يدى الرب جل جلاله لأن العبد بايع ربه أن يكون بين يديه، وما دام بين يديه فهو مطيع له، فإذا أقبل على عمل غيره فقد أعرض عنه وتولى، فإذا انتبه من نومته أو أفاق من سكرته انقلب راجعا إلى مولاه فوقف بين يديه عازما على أن لا يبرح فتلك الإقامة تسمى ندما، ومنه سمى الندم، لأنه مداوم على مجالسته، ويقال مدن الرجل بأرض كذا إذا أقام بها ومنه سميت المدينة لإقامة الناس بها واتخاذها وطنا بحيث لا يبرحون(2) عنها.

فإذا كانت الإقامة بالبدن قيل مدن، وإذا كان بالقلب بين يدى الله تعالى قيل ندم فقدم الميم وأخر النون هناك وقدم النون وأخر الميم ههنا وهو ذلك العزم الذى يعزم للإقامة بين يدى الله تعالى مطيعا، والتوبة الرجعة إلى الله تعالى وهو أن يعطى من جوارحه لله تعالى ما يأمر به، حتى يقيم العبودة التى لأجلها خلق فإذا أذنب فقد منع الله تعالى من جوارحه العبودة فليس بمطيع، والمؤمنون فى أحوالهم على

---

(1) أخرجه ابن حبان فى صحيحه- كتاب التوبة- باب الندم على الذنب والتوبة منه ص ٦٠٨، وأخرجه ابن ماجة فى سننه- كتاب الزهد- باب ذكر التوبة (١٤٢٠/٢)، وأخرجه الحاكم فى المستدرك- كتاب التوبة والإنابة- باب الندم توبة (٢٤٣/٤)، وأحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن مسعود (٣٧٦/١).

(2) لا يبرحون عنها: لا يزولون.

ضربين (٣): ضرب منهم سكارى، قد أسكرتهم شهوات نفوسهم عن الله تعالى، وحالت تلك الشهوات بين قلوبهم وبين العقل فلا يبصرون قبح ما يأتون. لأن معدن العقل فى الدماغ، وعلى القلب تدبيره، فبذلك النور الذى على القلب من العقل يبصر محاسن الأمور، ومشاينها (٤) فجاءت هذه الشهوات فسدت طريق العقل فسكر.

وضرب آخر قد أفاقوا من سكرتهم بعمل النور الوارد على قلوبهم فأبصروا الوعد، والوعيد فذهب سد الطريق فهم على معاينة من الجنة والنار إلا أنهم نيام عن الله تعالى، وهم المقتصدون أهل الاستقامة مطيعون لله تعالى حافظون لحدوده ولكن لنومته عن الله إن أطاع، وعمل أعمال البر استكثر ذاك من نفسه وإن تورع عن الذنب، كبر فى صدره فعله ويرى أنه عمل شيئا عظيما ولم ير أنه غريق فى نعم الله تعالى ومنته وتتابع إحسانه فإذا أفاق الضرب الأول من سكرته وانتبه الآخر من نومته فر إلى الله راجعا إلى الكون بين يديه، فعزم على أن لا يبرح فذلك العزم هو الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه توبة لأنه باطن فيما بينه وبين الله تعالى ولم يظهره بلسانه.

والاستغفار سؤال العبد ربه أن يستره بعد ذلك فإنه لما برح من بين يديه، وترك مقامه فأخل بمركزه انحطت درجته وبعد من ربه وخرج من ستره وتعرى فلما رجع بندمه إليه عاريا استحيى منه ومن خليقته فأمر أن يسأل ربه المغفرة أى الغطاء والستر، فإذا قال: اغفر لى أى غطنى واسترنى فإنى خرجت من سترك، وبقيت عاريا بين يديك تنظر إلى ملائكتك، وسماؤك وأرضك، ولم يكن أحد يسترنى غيرك، وهو مضطر لا يجد أحدا يستره عليه، فستره الله تعالى وغفره.

---

(٣) ضربين: نوعين.
(٤) وردت بأحد النسخ (مشانيها) والأصح ما أوردناه.

قال الله تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (٥) .

وقال :

﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (٦) .

فهذا عزم أهل اليقين وتوبتهم ، فمن فهم ذلك فله حظه ومن لم يفهم مر على الظاهر كما وجد ، وقيل له التوبة والاستغفار باللسان والندم بالقلب ، والإقلاع بالبدن والإضمار على أن لا يعود .

---

(٥) النمل (٢٧/٦٢) .

(٦) آل عمران (٣/١٣٥) .

[الأصل السابع والعشرون والمائة فى بيان أن الدعاء لم صار مخ العبادة]

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدعاء مخ العبادة» (1) إنما صار مخا لها لأنه تبرء من الحول، والقوة، واعتراف بأن الأشياء كلها له وتسليم إليه إن كان رزق أوعافية أونوال أودفع عقاب فنه إذا سأله فقد تبرأ من الاقتدار، والتملك، والحول، والقوة والدعاء، سؤال حاجة وافتقار فإنما يظهر على القلب ثم على اللسان، فما على القلب يسمى عبودة وما على اللسان عبادة.

وعن كعب رضى الله عنه قال: قال تعالى لموسى «ياموسى قل للمؤمنين لا يستعجلونى إذا دعونى ولا يبخلونى، أليس يعلمون أنى أبغض البخل فكيف أكون بخيلا، ياموسى لا تخف منى أن تسألنى عظيما ولاتستحى أن تسألنى صغيرا اطلب إلى العلف لشاتك، ياموسى أما علمت أنى خلقت الخردلة فما فوقها وإنى لم أخلق شيئا إلا وقد علمت أن الخلق يحتاجون ارليه فمن سألنى مسألة وهو يعلم أنى قادر أعطى وأمنع أعطيته مسألته مع المغفرة فإن حمدنى حين أعطيه، وحين أمنعه أسكنه دار الحمادين، وأيما عبد لا يسألنى مسأله ثم أعطيه كان أشد عليه عند الحساب ثم إذا أعطيته، ولم يشكرنى عذبته عند الحساب».

---

(1) أخرجه الترمذى فى سننه ــ كتاب الدعاء ــ باب ما جاء فى فضل الدعاء (٤٥٦/٥)، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. وذكره ابن حجر فى «فتح البارى» ــ كتاب الدعوات ــ (٩٤/١١). وأورده الغزالى فى «إحياء علوم الدين» (٣٠٦/١) وقال العراقى: غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

وقال عروة بن الزبير رضى الله عنه: انى لأسأل الله تعالى حوائجى فى صلاتى حتى الملح لأهلى. وكان محمد بن المنكدر رضى الله عنه يقول فى دعائه اللهم قو ذكرى فإن فيه منفعة لأهلى، سأل القوة فى ذلك للخروج، من حق الزوجة لأن المرأة نهمتها فى الرجال فإذا لهى عن حاجتها فهو مسؤل عن ذلك وما سأل لقضاء نهمة نفسه.

[الأصل الثامن والعشرون والمائة فى تلاقى الأرواح فى الدنيا]

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أرواح المؤمنين لتتلاقى على مسيرة يوم وما رأى صاحبه قط»[1]. الأرواح شأنها عجيب، وهى خفيفة سماوية وإنما ثقلت إذا اشتملت النفس عليها بظلمة شهواتها وإذا ريضت[2] النفس، وتخلص الروح منها وصفا من كدورتها، عادت إلى خفتها، وطهارتها، وكان لها شأن لا يؤمن به الأكل مؤمن قلبه بالله مطمئن. ومن ههنا قال عمر رضى الله عنه لأبى مسلم الخولانى حين ورد المدينة بعدما ألقى فى النار فلقيه عمر رضى الله عنه فقال: أنشدك بالله أنت عبد الله[3] بن توسى الذى حرقه الكذاب صاحب صنعاء. قال: اللهم نعم فاعتقه عمر رضى الله عنه.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الجامع الكبير» (١٠٧٩/٢) وقال: أخرجه أحمد عن ابن عمرو، وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» ــ كتاب الزهد ــ (٢٧٤/١٠) وقال: رواه أحمد ورجاله وثقوا على ضعف بعضهم ورواه الطبرانى، وأخرجه أحمد فى المسند من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (١٧٥/٢، ٢٢٠)، ورواه البخارى فى «الأدب المفرد» من طريق ابن وهب ص ٤١.

(٢) ريضت النفس: تريضت من الرياضة.

(٣)فى نسخة أخرى [عبد الله بن ثوب]. وهو عبد الله بن ثوب الخولانى، من التابعين، كان فقيهاً عابداً زاهداً، وقد نعته الذهبى بريحانة الشام، وهو يمنى الأصل، أدرك الجاهلية، وانشرح صدره للإسلام فأسلم قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يره، وقد توفى بدمشق سنة ٦٢ هـ. راجع تهذيب التهذيب (٢٣٥/١٢) وفوات الوفيات لابن شاكر (٢٠٩/١) وتذكرة الحفاظ (٤٦/١) والبداية والنهاية (١٤٦/٨).

ومثله ما يروى أن الحارث بن عميرة أتى باب سلمان رضى الله عنه فخرج إليه فقال: أما تعرفنى يا أبا عبد الله قال: نعم عرف روحى روحك قبل أن أعرفك.

ومثله قول أويس لهرم حيث قال له: السلام عليك يا أويس. قال: وعليك السلام يا هرم بن حيان، قال: ومن أين علمت رحمك الله أنى هرم بن حيان قال: عرف روحى روحك وأن الأرواح خلقت قبل الأجساد (٤) بألفى عام فتشامت (٥) كما تشام الخيل، وهذا لأن بصر الروح متصل ببصر العقل فى عين الإنسان، فالعين جارحة والبصر من الروح وإدراك الألوان من بينهما، فإذا تفرغ العقل والروح من اشتغال النفس أبصر الروح وأدرك العقل ما أبصر الروح، فعلم وإنما عجزت العامة عن هذا لشغل الأرواح بالنفوس واشتباك الشهوات بها فيشغل بصر الروح عن إدراك هذه الأشياء، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة فاطلع جرير».

وقوله عليه السلام: «إن أرواح المؤمنين لتتلاقى».

أراد بذلك المؤمن المستكمل لحقائقة الذى قد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، ليس الموحد الذى أقبل على شهواته، وتشاغل عن عبودته حتى خلط على نفسه الأمور، قلبه مأسور، وروحه مشغول، ونفسه مفتونة فكيف يبصر أويعقل.

---

(٤) هذا الذى ذهب إليه الحكيم الترمذى قال به آخرون، وهو المختار عند بعض العلماء.
(٥) أى تراءت.

[الأصل التاسع والعشرون والمائة فى أن أمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة عبيدة بن الجراح» (1) فالأمانة ترك الأشياء فى مواضعها كما وضعت وإنزالها حيث أنزلت، وقد جعل الله تعالى الدنيا ممرا، والآخرة مقرا، والروح (2) عارية والرزق بلغة (3) والمعاش حجة، والفضول بلوى، ووديعة، والسعى جزاء إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وخلق الخلق فى ظهر آدم عليه السلام واستخرجهم ولهم بين يديه مقام قررهم بالعبودة وقلدهم إياها وأخذ عليهم العهد، والميثاق، ثم نقلهم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى اللحود، ومن اللحود إلى النشور، ومن المنشر (4) إلى المحشر، ومن المحشر إلى الصراط، ومن الصراط إلى مقام العرض، والسؤال من الوقت الذى بلغ الحلم إلى وقت فراقه من الدنيا وخلق الليل والنهار ليركضان (5) بالخلق إليه دؤبا (6) فالأمين استقرت نفسه فأبصر هذه

---

(1) أخرجه البخارى (٩٢/٧) والترمذى (٦٦٥/٥)، وقال الترمذى: (هذا حديث صحيح) أهـ. كذلك أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٨/١، ٣٥).

(2) لعله يقصد بذلك مجردة.

(3) البلغة: مايتبلغ به المرء من العيش.

(4) فى نسخة أخرى [النشور].

(5) يركضان: يعدوان، وأصلها من ركض الفرس إذا عدا.

(6) دؤبا: أى باستمرار.

الأشياء ببصيرة نفسه على هيئتها التى خلقت وإنما تبصر إذا سكنت، واستقرت وأطمأنت إلى خالقها فقد صارت أمينة لا تخون، وأما إذا كانت فى العدو، والالتفات إلى أحواله يمنه ويسرة وفيها شهوة ولها أخلاق (٧) ردية دنية مفرطة لأمر الله عجولة فى مهواها تشبثت بمخالبها فى دنياها لما وجدت من اللذة وقضاء النهمة (٨) عميت عن أنها دار ممر (٩) وألهتها عن أن تذكر دار المقر وشغفت بالحياة فنسيت عن أن تذكر الروح، وكونها عارية وطلبت المعاش حرصا لتجمع الكثير عدة لتهماتها وتناولت الرزق على قضاء شهواتها، ولهت عن السعى ورفعت بالها عنها ونسيت أنها تحتاج إلى سعى منها مع ركض الليل، والنهار سعيا يصلح فى ذلك الموقف العظيم فى صفوف الملائكة والأنبياء والمرسلين وعباده الصالحين. وإنما جاءت هذه الفتنة من قبل النفس، فإذا كانت ساكنة الطبع مطمئنة الفطرة، ميتة الشهوات، وجدتها كريمة حرة ووجدت أخلاقها مستوية (١٠) فأبصر القلب الأشياء على هيئتها التى خلقت وصار ذا أمانة إذ ليس هناك ما يظلم الصدر ويحجب النور عن إشراقه.

ولهذا قال عليه السلام «ما من أحد من أصحابى إلا لو شئت عبت عليه فى خلقه غير أبى عبيدة بن الجراح».

---

(٧) ردية: رديئة.
(٨) قضاء النهمة: نوال الوطر، وبلوغ الغاية.
(٩) يقصد أنها دار انتقال تمر بها إلى الآخرة.
(١٠) أخلاق مستوية: مستقيمة.

[الأصل المائة والثلاثون فى الاعتبار بكل شيء والاتعاظ بكل شيء]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعم البيت يدخله الرجل المسلم بيت الحمام، وذلك إذا دخله سأل الله تعالى الجنة واستعاذه من النار، وبئس البيت يدخله الرجل المسلم بيت العروس وذلك لأنه يرغبه فى الدنيا وينسيه الآخرة»(١) هذا لأهل الغفلة. فأما أهل اليقين قد صارت الآخرة نصب أعينهم لا بيت الحمام يزعجه ولا بيت العروس يستفزه. لقد دقت الدنيا بما فيها فى جنب الآخرة حتى أن جميع الدنيا فى أعينهم كنثارة الطعام من مائدة عظيمة، وجميع شدائدها فى أعينهم، كتفلة عوقب بها محرم استوجب القتل فلم يحتاجوا إلى الاتعاظ والاعتبار بالحمام، وعمل على قلوبهم شأن كرمه، وجوده، ومجده، وبره بعباده، فأنساهم كل نعيم وبؤس، فأما أهل الغفلة يحتاجون إلى كل شيء من الدنيا أن يتعظوا منها ويعتبروا بها فإذا رأى بقعة حامية ذات بخار وماء حميم، ومرة هائجة تذكره الآخرة، وعجائبها، ودار العقاب وفنون عذابها، وإذا عاين بقعة مزينة بزينة الدنيا منجدة بمتاع غرورها مشرقة بحطامها مغشوشة بأفراح خدعها تمنيه نفسه وترغبه فى ذلك وأنسته الآخرة لعاجل ما يجد

---

(١) أخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» باب ما يقول إذا دخل الحمام ص ١٠٣، رقم (٣١٦)، وقد ذكره ابن حجر فى المطالب العالية (٥٠/١)، وذكره الزبيدى فى «اتحاف السادة المتقين» (٤٠٠/٢).

من اللذة والشهوة ودخول الحمام الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن دخله متأدبا بأدب الله تعالى مستترا طالبا لخلوة أوغاضا بصره لا يرى عورة ، ولا يرى له .

وقد جاء عنه عليه السلام ما يحذر ذلك ، ويؤدب وإن كان خاليا «اتقوا بيتا يقال له الحمام قيل : يا رسول الله إنه يذهب الوسخ ويذكر النار فقال : إن كنتم لا بد فاعلين فادخلوه مستترين .

وعن معاوية القشيرى رضى الله عنه قلت : يا رسول الله عوراتنا ما نأتى منها وما نذر قال احفظ عورتك إلا من زوجتك أوما ملكت يمينك ، قلت يا رسول الله فإذا كان أحدنا خاليا قال : فالله أحق أن يستحيى منه .

[الأصل الحادى والثلاثون والمائة فى أن الهدية خلق من خلق الإنسان]

عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت ' اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع من رطب وأجر زغب فأعطانى ملأ كفه حليا أوذهبا فقال: «تحلى بهذه يا بنية» (١) القناع الطبق وكل شيء أقنع أى ارتفع من الأرض، وأجر واحدة جرو وهو القثاء أول ما يدرك، وهو الذى له زغب كهيئة زئبر الثوب، فالهدية خلق من خلق الإنسان، عليه دلت الرسل وإليه ندبت لائتلاف القلوب ولنفى سخائم الصدور فإن ابن آدم مقسوم على ثلاثة أجزاء: القلب بما فيه من الإيمان. والروح بما فيه من الطاعة. والنفس بما فيه من الشهوة. فالإيمان يدعوا إلى الله، والروح تدعوا إلى الطاعة، والنفس تدعو إلى البر واللطف، والنوال، فكانت القلوب تأتلف بالإيمان والأرواح بالطاعات، وحظ النفس باقية فإذا تهادوا تمت الألفة ولم تبق هناك (٢) حزازة، وكان عليه السلام جوادا (٣) يقبل الهدية، ويكافئ من وجده بأمثالها. والربيع كانت ممن قتل أبوها يوم بدر وكان عليه السلام يبرها ويكرم أحوالها فوافقت هديته

---

(١) أخرجه الترمذى فى «الشمائل». باب ما جاء فى صفة فاكهة رسول الله صلى الله عليه وسلم ص ١٧١. وأخرجه أحمد فى المسند من حديث الربيع بنت معوذ (٦/٣٥٩)، وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد»ـ كتاب المناقبـ باب فى جوده صلى الله عليه وسلم (٩/١٣). وقال: رواه الطبرانى واللفظ له وأحمد بنحوه وإسنادهما حسن.

(٢) الحزازة: الوغر فى الصدر، والوجع فى القلب من الغيظ.

(٣) جواداً: كريماً، من الجود وهو الكرم.

سعة الوجد(٤) منه، وكان قلبه واسعا وأعطاها ملء الكف ذهبا ليعلم من بلغه ذلك، ومن عاينه أن لا قدر للدنيا عنده، ولأن للبر أثقالا فالكريم لا يكاد يتخلص من تلك الأثقال إلا بأضعاف ذلك البر، فإذا ضاعف فى المكافأة انحطت عنه أثقال بره وذهب عنه خجل نفسه، وقوله عليه السلام تحلى بها يا بنية، رخصة لها فى الحلية وأنها حق، وأنه يجوز أن يقال لولد غيره يا بنى والمكافأة حق من الحقوق، وكل أحد يكافىء على قدره من خلقه وسعته ولم يكن يخلو فى ذلك الوقت بالمدينة من فقير وذى حاجة من أصحابه ولكنه كان يعطى على نوائب الحق فرأى هذا حقا فأعطاه. قال وهب رضى الله عنه ترك المكافأة من التطفيف، وناول شاب الليث بن سعد(٥) رضوان الله عليهم أجمعين أترنج باكورة. فأمره أن يعطى دينارا، وكان الأسخياء يفعلون مثل ذلك وجاءت عجوز إلى الليث بن سعد(٥) رضى الله عنه فقالت: يا أبا الحارث مر وكيلك أن يعطينى رطلا من عسل فإن ابنى مريض يشتهيه فقال لوكيله اعطها مطرا من عسل قيل له إنما سألتك رطلا فقال: هى سألت على قدرها، ونحن نعطيها على قدرنا، والمطر وقر بعير مائتان وخمسون منا. وأتى قوم عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما فقالوا: إن لنا مريضا قد تشنجت أعضاؤه من الرياح، ووصف لنا أن نعالجه بلبن الجواميس فينفعه فيه فنحب أن تعيرنا من جواميسك، فقال لوكيله كم لنا بالطف من الجواميس؟ قال: خمسمائة فقال: سقها إليهم فقالوا: رحمك الله إنا سألناك عارية قال: إنا لا نعير الجواميس وأعطاها إياها.

---

(٤) الوجد: يقال وَجَد عليه فى الغضب موجدة بكسر الجيم، ووجداناً بكسر الواو.

(٥) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى، بالولاء، أبو الحارث، كان إمام عصره وفقيه زمانه، شيخ الفقهاء فى مصر، ولد فى خراسان سنة ٩٤هـ، وقد قال فيه الشافعى (رضى الله عنه): الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به، توفى سنة ١٧٥هـ. راجع تذكرة الحفاظ (٢٠٧/١)، وحلية الأولياء (٣١٨/٧)، والنجوم الزاهرة (٨٢/٢)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٤٣٨/١)..

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الهدية رزق من الله طيب فإذا أهدى إلى أحدكم فليقبلها، وليعط خيرا منها»(٦).

(٦) لأن الهدية تؤلف القلوب، قال صلى الله عليه وسلم أيضاً:ـ «تهادوا تحابوا».

[الأصل الثاني والثلاثون والمائة في بيان صفات ولاة الأمور العادلين]

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من ولى من أمر أمتى شيئا فحسنت سريرته رزق الهيبة من قلوبهم وإذا بسط يده لهم بالمعروف، رزق المحبة منهم وإذا وفر عليهم أموالهم، وفر الله عليه ماله، وإذا أنصف الضعيف من القوى، قوى الله سلطانه وإذا عدل مد الله فى عمره»(١) فحسن السريرة من هيبة الله تعالى، فإذا هاب عبد ربه ظاهرا وباطنا سرا وعلنا أهاب الله منه خلقه، وصنايع المعروف لاتكون إلا من حسن الخلق، ومن حسن الله خلقه أحبه، ومن أحبه الله ألقى محبته على قلوب عباده.

قال تعالى لموسى عليه السلام:

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ (٢).

فكان لايراه أحدا إلا أحبه حتى فرعون اللعين الذى كان يذبح بنى إسرائيل لأجله، وهو يوسعه فى صدره، ومن بسط اليد سقط عن قلبه(٣) قدر الدنيا فهى، ومن فيها مقبلة عليه خادمة له، وإنصاف

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨٢/٣). وعزاه للحكيم الترمذى عن ابن عباس. وذكره صاحب كنز العمال (١٤/٦). وعزاه الحكيم الترمذى. والديلمى. وابن النجار عن ابن عباس.

(٢) طه (٣٩/٢٠).

(٣) أى لم يعطها اهتماماً فأشاح وجهه عنها، وجنف عن حطامها الفانى. وخلابتها الزائفة العافية.

الضعيف فإنما أعطى السلطان على أن يأخذ للضعيف من القوى ، ولولا ذلك لم يحتج إلى سلطان ، فإذا فعل ذلك فقد تمسك بالذى أعطى على هيئة ما أعطى فأديمت له قوة ذلك الذى أعطى ، وإذا ضيع ذلك فقد ضيع سلطانه وذله ، فكيف يبقى معه قوة والسلطان ظل الله فى الأرض ، يأوى إليه كل مظلوم ، وإذا عدل مد فى عمره لأن العدل صلاح الأرض والجور فسادها [4] ، وبالعدل قامت السموات والأرض فإذا جار فالأرض تعج منه ، والسماء تجأر [5] والبحار تئن ، الجبال تشكو ، فيقطع الله عمره ، وإذا عدل وصل الله عمره من كرمه فدله لأنه أقام عدله الذى ارتضاه لنفسه عزت من نفس كريمة شريفة .

---

(٤) الجور: الظلم.
(٥) تجأر: تضرع، يقال: جأر إلى الله: تضرع بالدعاء.

[الأصل الثالث والثلاثون والمائة فيما يعلم به منزلة العبد عند الله تعالى]

عن جابر رضى الله عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أيها الناس من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله عز وجل ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه، وإن لله سرايا من الملائكة تحل، وتقف على مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا فى ذكر الله فى الأرض، ألا فارتعوا فى رياض الجنة قالوا: وأين رياض الجنة يا رسول الله قال: مجالس الذكر قال: فاغدوا وروحوا فى ذكر الله واذكروه بأنفسكم»(١).

فمنزلة الله عند العبد إنما هو على قلبه على قدر معرفته إياه وعلمه به، وهيبته منه، وإجلاله وتعظيمه له، وخشيته وحيائه منه، والخوف من عقابه(٢)، والوجل عند ذكره، وإقامة الحرمة لأمره ونهيه، ورؤية تدبيره والوقوف عند أحكامه بطيب النفس، والتسليم له بدنا وقلبا وروحاً ومراقبة لتدبيره فى أموره ولزوم ذكره، والنهوض بأثقال نعمه،

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه– كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار– باب فضل مجالس الذكر (١٧/١٤)، ورواه الحاكم فى «المستدرك»– كتاب الدعاء– باب من يحب أن يعلم منزلته عند الله (١/٤٩٤)، وقال الحاكم صحيح الإسناد، وأخرجه الهيثمى فى «مجمع الزوائد»– كتاب الأذكار– باب ما جاء فى مجالس الذكر (١٠/٧٧)، وقال: رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى فى الأوسط وفيه عبد الله مولى عفرة وقد وثقه غير واحد، وضعفه جماعة وبقية رجالهم رجال الصحيح.

(٢) الوجل: الخوف.

وإحسانه، وترك مشيأته لمشيأته وحسن الظن به فى كل ما نابه (٣)، والناس فى هذه الأشياء يتفاضلون فمنازلهم عند ربهم على قدر حظوظهم منها فأوفرهم حظا من المعرفة أعلمهم به وأعملهم به أوفرهم حظا من هذه الأشياء، وأوفرهم حظا منها أعظمهم منزلة عنده، وأقربهم وسيلة وأرفعهم درجة، وعلى قدر نقصانه من هذه الأشياء ينتقص حظه، وتنحط درجته، وتبعد وسيلته، ويقل علمه وتضعف معرفته، قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (٤)

وإنما فضلوا على الخلق وبعضهم على بعض بالمعرفة له والعلم به لا بالأعمال الظاهرة، فبالمعرفة تطهر الأبدان، وتزكوا (٥) الأعمال وبها تقبل منهم فإن اليهود والنصارى عملوا أعمال الشريعة فصارت هباء منثورا، فمن فضل بالمعرفة فقد أوتى حظا من العلم.

قال عليه السلام حين عرج به إلى السدرة فإذا النور الأكبر قد تدلى فالتفت إلى جبرئيل فإذا هو ميت من الفرق (٦) كالحلس الملقى من خشية الله فعرفت فضل علمه بالله على علمى.

وعن أنس رضى الله عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فصنع شيئا لم نره صنع فى غيره مد يده، ثم أخرها فقلنا يا رسول الله لقد صنعت فى صلاتك شيئا لم نرك صنعت فى غيرها قال إنى رأيت الجنة فرأيت فيها دالية قطوفها، دانية حبها كالدباء فأردت أن أتناول منها فأوحى إليها أن استأخرى، ثم رأيت النار فيما

---

(٣) ناب ينوب، أصاب يصيب.

(٤) الإسراء (١٧/٥٥).

(٥) تزكو الأعمال: تنمو؛ لأن الزكاة هى النماء.

(٦) الفرق: الخوف والفزع.

بينى وبينكم، حتى رأيت ظلى وظلكم فأومأت إليكم أن استخروا فقيل لى أقرهم فإنك أسلمت، وأسلموا وهاجرت وهاجروا، وجاهدت وجاهدوا فلم أر لى فضلا عليكم إلا بالنبوة.

فبالنبوة أدرك رؤية ما وصف فأدنيت(٧) الجنة منه ليعرف حاله صلى الله عليه وسلم أنه بهذه المنزلة ليس بينه وبينها إلا قبض الروح ولهذا لما مد يه ليتناولها أوحى إليها أن تأخرى، فإنه فى بقية من أجله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا، ولا ينال أحد الجنة إلا بعد مفارقة الروح ثم أرى النار بينه وبين القوم رضوان الله عليهم أجمعين يعرفه أنك قد جزت النار بقلبك بما أعطيت من النبوة وفرغت من أمر الصراط، ومن خلفك من الأمة لم يجوزوا بعد بقلوبهم فهو باق عليهم إلى يوم القيامة. قال عليه السلام فيما رواه أنس رضى الله عنه «إذا ضرب الصراط على النار قيل قرب أمتك فإذا دنوت منها قال لى جبريل يا محمد، خذ بحجزتى فاخذ بحجزة جبريل فيضعنى من وراء النار، ويقال للأمة جوزوا فيجوزون بأبدانهم، فمنهم فى السرعة فى مثل اللحظة والبرقة، ومنهم فى مثل الريح، ومنهم فى مثل أجاويد الخيل، ومنهم ركضا، ومنهم سعيا، ومنهم مشيا، ومنهم زحفا».

فالنبى عليه السلام بفضل النبوة جاز النار بقلبه أيام الحياة فلما وصل إليها أجيز من غير تكلف ولا مباشرة، وأهل اليقين لهم حظ من النبوة، قال عليه السلام «الاقتصاد والهدى الصالح، والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة».

ويجوزونها بأبدانهم على قدر إيمانهم، ويقينهم، وحظهم من النبوة قال تعالى:

---

(٧) أدنيت الجنة منه: قربت.

﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ (٨)

فأهل اليقين فى الدنيا يرونها بعلم اليقين فيجوزونها بقلوبهم، ثم يرونها عين اليقين غدا معاينة، فمعاينة القلب علم اليقين، ومعاينة الجسد بعينه التى ركبت فيه عين اليقين، فمن أعطى علم اليقين فى الدنيا طالع الصراط، وأهوالها بقلبه (٩) فذاق من الخوف وركبته من الأهوال فوضع عنه غدا ومر عليها فى مثل البرق فإن الله تعالى لا يجمع على عبد خوفين.

قال عليه السلام «قال ربكم وعزتى وجلالى لا اجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين» وكل من كان له ههنا حظ من اليقين طالع بقلبه بقوة ذلك اليقين فعاين منه ماذاق من الخوف فسقط عنه من الخوف على قدر ما ذاق ههنا فكذلك تفاوت جوازهم، وقوله عليه السلام «حتى رأيت ظلى وظلكم فيها» فإن النار سوداء مظلمة، المؤمنون أهل نور وضياء فوقع ضوؤهم على ظلمة النار على مقادير نورهم وأجسادهم، وقوله عليه السلام: أقرهم معناه أنهم قد ائتمروا بأمرى فإنى أمرتهم بالإسلام والهجرة، والجهاد فليس للنار عليهم سبيل لأن رحمتى قد نالتهم.

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٠).

(٨) التكاثر (٧/١٠٢). قال أبو حيان فى بحره المحيط (٥٠٨/٨): «زاد التوكيد بقوله: (عين اليقين) نفياً لتوهم المجاز فى الرؤية الأولى» أهـ. بتصرف.

(٩) أى ببصيرته وليس بالمعاينة بالبصر.

(١٠) البقرة (٢١٨/٢).

حقق رجاءهم وأخبر أنهم صدقوا فى الرجاء ثم وعدهم المغفرة. وقوله عليه السلام «ولم أر لى فضلا عليكم إلا بالنبوة» كفى بها فضلا، ولا ينال ما وصف إلا بالأعمال والأعمال إنما تقوم ويعظم خطرها بالنيات والنية بدؤها من الإيمان يبدو لهم من إيمانهم ذكر الطاعة، فينهض قلوبهم إلى الله تعالى من مستقر نفوسهم، والنية النهوض، يقال ناء ينوء إذا انهض، فنهوض القلب من معدن الشهوات إلى الله تعالى بِنُه بعمل طاعة هو نية فأما أهل اليقين قد جاوزوا هذه المنزلة فإنه زايلت [11] قلوبهم نفوسهم وصارت مع الله تعالى، وقد فرغوا من النية، فمن كان قلبه بين يدى الله تعالى محال أن يقال له نهض قلبه إلى الله فى أمر فإن قلبه ناهض إليه بمرة واحدة واقف بين يديه نهوضا لا يرجع ولا ينصرف إذ قد نفض الوطن وارتحل إلى الله تعالى ويعملون، وقلوبهم هناك واقفة بين يدى الله تعالى فى جلال الله، وعظمته باهتين سكارى وما هم بسكارى فارتفع أعمال هؤلاء من الذين ينهضون بقلوبهم فى ذلك العمل لله عز وجل ويريدونه به وهم المقتصدون، فتفاوتت لذلك مدة جوازهم على الصراط.

---

(١١) زابلت: فارقت.

[الأصل الرابع والثلاثون والمائة فى فضل الاستغاثه من النار بعفو الله تعالى]

عن سعيد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فى جوف الليل وهو يقول: واغوثاه من النار يرددها ذلك ليلا طويلا ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنت القائل الليلة واغوثاه من النار قال: نعم يا رسول الله قال: «لقد أبكيت أعيان ملأ من الملائكة كثيرة» (١).

النار حشوها غضب الله وإنما أسودت من غضبه يحل ذلك الغضب عذابا بأجساد العداة العصاة فتنتقم النار منهم لحق الله عز وجل جلاله، والمستغيث منه على ثلاثة أضرب مستغيث من نار الله بعفو الله، ومستغيث من غضب الله تعالى برحمة الله ومستغيث بالله من الله تعالى، وقد جمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أتاه جبريل وأمره أن يكون ذلك فى السجود فقال أعوذ بعفوك من عقابك، ثم قال: وأعوذ برضاك من سخطك، ثم قال: وأعوذ بك منك.

(١) هذا الحديث لم نعثر عليه فيما بين أيدينا من مراجع.

[الأصل الخامس والثلاثون والمائة في قوله صلى الله عليه وسلم «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»]

عن الأغر المزنى رضى الله عنه قال: خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رافع يديه وهو يقول: «يا أيها الناس، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه فوالله إنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة»[1] وفى رواية وإنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة.

المغفرة هى الغطاء والستر ومنه سمى المغفر، دبير الثوب، وهو الذى يعلق الثوب الجديد. والعبد المؤمن بايع الله تعالى يوم الميثاق أن يعطيه، ويكون بين يديه فلما أذنب ذنبا، وترك مقامه خرج من ستره، فتعرى، فقيل له تب أى ارجع إلى مقامك فلما رأى نفسه عاريا طلب السترة ففزع إلى الله تعالى عن عريه فستر فقيل: ارجع إلى ربك إلى مقامك فى البيعة مع الستر فأنت فى كنفه ما دمت واقفا بمقام البيعة، فلذلك بدئ بالاستغفار ثم بالتوبة قال تعالى:

﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ [2].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه- كتاب الذكر والدعاء- باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٠٧٥/٤)، وأخرجه الترمذى فى سننه- كتاب التفسير- تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم (٤٨/٥)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو داود فى سننه- كتاب الصلاة- باب الاستغفار (١/ ٣٨٠)، وأخرجه أحمد فى المسند (٢٦٠/٤).

(٢) هود (٣/١١).

وقال عليه السلام «طوبى لمن وجد فى صحيفته استغفارا كثيرا»(٣) وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن للقلوب صداء كصدأ الحديد وجلاؤه الاستغفار».

وقال عليه السلام «إن العبد إذا أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإذا عاد نكتت أخرى حتى يسود القلب، فإذا تاب ونزع صقل قلبه ثم تلا: «كلانا وإن على قلوبهم ما كانوا يكسبون»(٤) واعلم أن للمغفرة درجات فمغفرة الرسول صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومغفرة من بعده بأعمال بر عملوها لا يخلو من ذلك. والستر أنواع: فمنهم من لا يستر عليه أيام الحياة فإذا صار ممره إلى النار يستر لئلا تصيبه النار. ومنهم من يستر فى الموضعين، ولم يستر عليه فى العرض، ومنهم من يستر عليه فى الموضعين والعرض، عند الملائكة. وخلا به ربه فى السؤال فلقى شدة الحياء، ومنهم من يستر عليه فى الحجب عن نفسه حتى لا يراها فيستحيى. ومنهم من يستر عليه سترا لا يذكرها حتى يذهب عنه ذكرها فذاك ستر بينه وبين العبد يستره عن عمله، وحتى لا يخجل كما ستر أهل الجنان بالإنس به إذا ذكروا ذنوبهم لم يخجلوا، ولم يثقل عليهم ذكرها فكل من كان فى الدنيا من الإنس به أوفر حظا فإن ستره من ذنوبه هناك اكثف. وأنسه بالله تعالى أكثر. والأنس بالله تعالى من الاحتظاء من جماله فإذا كان قلبه عنده فى ملك الجمال فالغالب عليه الإنس وجزاء الإنس به اليوم الأمل غدا، ومن كان قلبه عنده فى ملك الجلال فالغالب عليه الهيبة، وجزاؤه منه الأمن غدا، ومن كان قلبه عنده فى ملك ملكه، وجاوز ملك الجمال، والجلال إلى

---

(٣) رواه ابن ماجة عن عبد الله بن بسر، وأبو نعيم فى الحلية عن عائشة رضى الله عنها، وأحمد فى الزهد عن أبى الدرداء مرفوعاً، وقال النووى: سنده جيد. وذكره العجلونى (١٦٨٢/٦٣/٢)، وسكت عليه السيوطى فى الجامع الصغير (٥٥/٢).

(٤) المطففين (١٤/٨٣). قال المفسرون: الران هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب، راجع تفسير الصابونى (١٧٠٣/٣٠).

وحدانيته، وانفرد به فى فردانيته (وهم الذين وصفهم عليه السلام سيروا فقد سبق المفردون قالوا: من هم يا رسول الله قال: الذين اهتروا بذكر الله تعالى يضع الذكر أثقالهم).

يأتون يومئذ خفافا فهم أمناؤه فى أرضه قلوبهم فى ملك الملك فى تلك الخلوة التى قد انقطع علم الصفات عندها، فلا يوصف ما فى قلوبهم أيام الحياة فجزاؤهم غدا الدلال فصاحب الهيبة فى عبودته، ومعاملته من الفرق كالميت فى كل أمر من أموره على هول عظيم، وخطر جسيم، وصاحب الأنس فى عبودته ومعاملته قد خف عنه ذلك لما يأمل من عطفه، ورأفته به، ومحبته، وصاحب البهتة أمينه فهو كالمطمئن لأنه صار فى قبضته وهو يستعمله فباستعماله أشرف على الأمور فهو المدل فى دنياه المدل فى آخرته، وهو الأمين الذى بسطه فانبسط، وهو المحدث وهو أعلى من الصنفين الأولين صاحب الأنس وصاحب الهيبة، فإن صاحب الإنس بسسطه الإنس بالملك، وهذا قد بسطه الملك وشتان من بسطه الملك ومن بسطه الإنس بالملك.

[الأصل السادس والثلاثون والمائة في تأثير هيبة الرسول عليه السلام في حياته وتأثير وفاته في القلوب]

عن أنس رضي الله عنه قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء كل شيء منها فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم كل شيء منها ومانفضنا الأيدي عن النبي صلى الله عليه وسلم: وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا (١). كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نور أضاء العالمين قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (٢)

فكان يستنير سراجه في العالمين، وإذا مشى في الطريق فاح منه ريح الطيب حتى يوجد عرقه في ممره صلى الله عليه وسلم فيعرف أنه مر بهذا المكان، وكان طاهرا طيبا، طهره الله تعالى بالحفظ في الأصلاب والأرحام وطفلا وناشئا وكهلا حتى قدسه بطهر النبوة وشرفه بالقربة، وطيبه بروحه، جلله ببهائه، فمن فتح الله قلبه بالنور الذي جعله في

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه– كتاب المناقب – باب في فضائل النبي صلى الله عليه وسلم (٥/٥٨٨). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد في المسند من حديث أنس (٣/٢٢١)، وأخرجه ابن ماجة في سننه– كتاب الجنائز– باب ذكر وفاته ودفنه صلى الله عليه وسلم (١/٥٢٢).

(٢) الأحزاب (٣٣/٤٥، ٤٦)، قال ابن كثير في المختصر (٣/١٠٢): «أي أنت يا محمد كالشمس في إشراقها وإضاءتها لايجحدها إلا معاند» أهـ. بتصرف.

قلبه، أن يكون شفاء القلب إلا من ختم الله على قلبه وجعل على سمعه وبصره غشاوة كما قال تعالى:

﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٣)

وكانت هيبته، ووقاره، وجلاله، وطهارته سداً بين القلوب، والنفوس فكانت النفوس قد ألقت بأيديها منقادة مستسلمة هيبة له واجلالا وحياء منه صلى الله عليه وسلم، وكان له طلاوة وحلاوة ومهابة فأين ما حل ببقعه أضاءت تلك البقعة بنوره وطلاوته، وحليت بحلاوته وتهيأت شؤنها بمهابته فلما قبض عليه السلام، ذهب السراج وزال الضوء، وفأتت تلك الطلاوة، والحلاوة، والمهابة، وقوله: وما نفضنا الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا أخبر عن قلبه وعن قلب أشباهه من القلوب التى لم تغلب عليها الهيبة من الله تعالى، وتأخذها هيبة المخلوقين، وكان عليه السلام آية من آيات الله العظمى فمن عرفه وتمكنت معرفته من هذا الطريق فإذا فقده أنكر قلبه، لأن نفسه كانت فى قهر ما اعطى الرسول عليه السلام من السلطان فلما أحست النفس بذهابه وجدت زمامها ساقطة بالأرض، كالمخلاة عنها فتحركت، وتشوقت لمناها وأصاخت (٤) أذنا لمطامعها، ومن غلب الهيبة من الله تعالى على قلبه، وملكته لم ينكر قلبه بقبضه، ولم يتغير شأنه بفقده وهم الصديقون والأولياء عليهم السلام فقد دخل قلوبهم من جلال الله تعالى، وعظمته ما بهتهم فهابوه، ونفوسهم قد صارت كالميتة من الخشوع لله تعالى، فتلك هيبة أحتشت القلوب منهم من محبة الله تعالى، فغمرت ما كان للمخلوقين فيها من المحبة من غير أن تزول هيبة الرسول عليه السلام، ومحبته من قلبه، فإن كل ما عظمت هيبة الله تعالى، ومحبته فى قلب عبد فهو للهيبة من رسول الله صلبى الله عليه وسلم أشد وحبه فى قلبه أعظم، وأصفى، ولكن محبته وهيبته غامرة

(٣) الأعراف (٧/١٩٨).

(٤) أصاخت: استمعت..

لما سواها فلا يستبين بمنزلة واد ينصب فى بحر فالوادى ينصب بهيبته ولكن لا يستبين فى جنب البحر، وبمنزلة قمر مضىء فإذا أشرقت الشمس، غمر اشراقها ضوء القمر، فالقمر يضىء فى مجراه والشمس بإشراقها غالبة عليه كذا حب الله تعالى، وهيبته فى حب الرسول عليه السلام وهيبته.

[الأصل السابع والثلاثون والمائة فى فضل نظرة المشتاق]

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نظر الرجل إلى أخيه على شوق خير من اعتكاف سنة فى مسجدى هذا»[1] الاعتكاف إقبال العبد على الله تعالى والتخلى عن الدنيا وشهواتها وكف النفس عن التردد فى ساحات العيش، ومنعها عن الإنبساط والتفسح، ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضع مهاجره ومبوء الإسلام يعدل الاعتكاف فيه اعتكاف ألف سنة فى سائر المساجد.

قال عليه السلام «صلاة فى مسجدى هذا تعدل ألف صلاة فيما سواه» كذا حكم الاعتكاف فقد جعل عليه السلام النظر إلى أخيه على شوق منه أكثر منه لأن المؤمن لما انتبه بقلبه وعرف ربه تبارك وتعالى، واشتعل نور اليقين فى قلبه فانكشف له الغطاء عن جلاله وعظمته، وجماله ومجده، وبهائه اشتاق إليه فلم يزل يدوم له الشوق حتى قلق وبرم بالحياة وضاق به ذرعا فهو عطشان من ظمأ الشوق قد أسكرته محبته عن جميع الدنيا، وأذهلته آماله فيها عن جميع مناه فيها، وأقلقته بقية أنفاسه ويتمنى أن ينقضى جميع أنفاسه فى نفس واحد حتى يطير بروحه إلى الله تعالى فهو فى[2] محبسه يتردد آثار من قد اجتباه من

(١) ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٢٠٢/١)، وعزاه للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، وذكره المناوى فى «فيض القدير» (٢٨٥/٦)، وقال: ذكره السيوطى فى الجامع الصغير وعزاه للحكيم الترمذى عن ابن عمرو ورمز له بالضعف.

(٢) فى نسخة أخرى [محبته] وهو تحريف خطير من الناسخ.

بين خلقه ، وسبى قلبه بنوره وقد انقطع طمعه من أن يراه ، وهو ينادى فى خلال ذلك ارحم من تراه ولا يراك ، لأنه قد سبق إلى ذلك رأس المشتاقين كليم الله و صلوات الله عليه لما من عليه بالكلام طمع فى الرؤية فآنسه وأعلمه سبب المنع كالمعتذر فقال : لن ترانى أى لا تقدر ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، وكذلك فعل الحبيب بالحبيب إذا سأله حاجة لا طاقة له بها ، ولا يقوم لها وإن الحاجة تضيع لم يواجهه بالمنع ، ولم يوحشه بالرد ، ويقيم لنفسه عذرا فالمؤمن يطلب الآثار إليه شوقا ، ولله تعالى فى أرضه أربعة من آثاره بها يقطع المشتاقون أعمارهم . فإحدى الآثار كلامه وعليه طلاق ، فإذا نظر إلى القرآن استروح لأنه كلامه ، والثانى كعبته ، وهو بيته ، ومعلمه ومظهره ، وعليه وقاره ، فإذا نظر إليها استروح ، والثالث السلطان وهو ظله ، وعلى ظله هيبته فإذا نظر إليه استروح ، والرابع وليه المؤمن ، وهو خليقته فى أرضه وعليه نور جلاله فإذا نظر إليه استروح ، لأنه حبيبه وفيه بره وسياء نوره قد أشرق فى وجهه .

قال عليه السلام «أن الله أعطى المؤمن ثلاثا المقة (٣) والملأحة ، والمحبة فى صدور المؤمنين» ثم تلا :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ (٤) .

وقال عليه السلام «من نظر إلى أخيه نظر ود غفر الله له» .

لأن المشتاق آيس من أن ينظر إلى مولاه فى الدنيا ، فإذا نظر إلى هذا العبد فإنما يقضى المنية من ربه ، ولا يشفيه ذلك بل يذوب (٥) على قدميه ، فكل لحظة بلحظة إلى هذا العبد وقصد به التشفى من حرقات

---

(٣) المقة : المحبة .

(٤) مريم (٩٦/١٩) . أى سيجعل الله لهم فى قلوب الناس وداً ومحبة .

(٥) فى نسخة أخرى [يدأب] وهو تحريف خطير من الطابع .

الشوق إلى الله تعالى، وقد حبسه الله تعالى بباقى أنفاسه يستوجب بتلك النظرة التى من أجل الله تعالى كانت ولم يصل إلى مراده ومنيته الرضوان والمغفرة منه، وهؤلاء الأربعة الذين هم آثار الله تعالى فى أرضه بهم تقوم الأرض، فإذا دنا قيام الساعة رفع القرآن، وهدمت الكعبة، وذهب السلطان، وقبض الأولياء عن آخرهم، فالمتنبهون إنما يأخذون من القرآن لطائفه، وطلاوته ويلحظون من السلطان هيبة ظله، دون أفعاله وسيره ومن البيت وقاره دون الأحجار والبنيان، ومن المولى نور جلاله الذى قد أشرق فى صدره دون جسده، ولحمه ودمه.

[الأصل الثامن والثلاثون والمائة في أدب التنزه في المأكول وتناوله]

عن عبد الله بن بشير(١) رضى الله عنه قال: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فطعم ثم أتى بسويق، فشرب ثم أعطى الذى عن يمينه وكان إذا أكل التمر، وضع النواة على ظهر أصبعه الوسطى والمشيرة ثم ألقاها(٢). لو أخذ النواة بباطن أصبعه ثم عاد إلى بقية التمر لكان لا يخلو أن تكون أصابعه مبتلة من ريق الفم عند أخذ النواة فكره أن يعود إلى بقية التمر وفى يده بلة النواة مراعاة للأكيل، وحرمة للصاحب ليتأدب به من بعده فإنه قد يعاف الرجل صاحبه فى فعله من ذلك ويكرهه، فكان يأخذ النواة بظاهر إصبعيه ويستعمل باطنها فى تناوله.

ومما يحقق ذلك ماروى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يجمع بين التمر والنوى، وبين الرطب والنوى على الطبق.

---

(١)فى نسخة أخرى [عبد الله بن بشر]. وهو عبد الله بن بشر بن عمرو العبدى، سيد بنى عبد القيس فى عصره. تصد للحجاج بن يوسف الثقفى، وحزب الناس وألبهم عليه، كان جريئاً شجاعاً، وانتهت مغامراته الجريئة بقتله سنة ٧٦هـ، راجع الكامل فى التاريخ لابن الأثير (١٤٧/٤) وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب الأشربة ـ باب استحباب وضع النوى خارج التمر واستحباب دعاء الضيف لأهل الطعام وطلب الدعاء من الضيف الصالح واجابته لذلك (١٦١٥/٣). وأخرجه الترمذى فى سننه ـ كتاب الدعوات ـ باب فى دعاء الضيف (٥٦٨/٤). وقال عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أبو داود فى سننه ـ كتاب الأشربة ـ باب فى النفخ فى الشراب والتنف فيه (٣٣٢/٢). وأحمد فى «المسند» من حديث عبد الله بن بسر (١٨٨/٤).

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بطبق من رطب فأكل منه شيئا ثم يلقى النوى، من فمه بشماله فمرت به داجنه فناولها إياه فأكلت.

[الأصل التاسع والثلاثون والمائة في أن مايستصلح به الأقوات سيد الإدام]

عن عيسى بن أبى عزة رضى الله عنه قال: سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه يقول: سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: «سيد أدامكم الملح»(٢). فالملح به إصلاح الأطعمة وطيبها فيكون مزاجا للأشياء.

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه ــ كتاب الأطعمة ــ باب الملح (١١٠٢/٢). وأورده السخاوى فى «المقاصد الحسنة» ص ٢٤٤ وقال: رواه ابن ماجه وأبو يعلى والطبرانى والقضاعى من حديث عيسى بن أبى عيسى البصرى عن رجل آراه موسى عن أنس مرفوعاً. وذكره الشوكانى فى «الفوائد المجموعة» ص ١٦٩ وقال: فى إسناده ضعيف.

[الأصل الأربعون والمائة فى أن المرء مع من أحب]

عن على كرم الله وجهه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: متى الساعة؟ قال: وما أعددت لها قال: حب الله ورسوله قال: فأنت مع من أحببت (1). الحب هيجه للسؤال عن قيام الساعة لأنه علم أن لقاء العبد سيده بعد قيام الساعة فقلق وضاق بالحياة ذرعا فسأل عن الساعة متى تقوم استرواحا إليها، وإنما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعددت لها تطلعا لمن يحن ضميره، وتعرفا للذى عجله عليه من السؤال، إلى معدن هاجت هذه الكلمة وهذا السائل من المشتاقين ألا ترى أنه لم يذكر من عدته شيئا من أعمال البر وإنما ذكر الذى كان بين يدى قلبه، وما اعترض به فى صدره فأجابه على ما وجده عليه فقال: أنت مع من أحببت فالموحدون كلهم يحبون الله تعالى حب إيمان لأن الغالب عليه نفسه وشهوته، وإنما يقلق لذلك، ويجيش صدره إذا فاته شىء من شهواته، ونهماته فى الدنيا فذاك إنما يعد للساعة أعمال بره وجعل ذلك عدته يرجو لها الثواب من الله تعالى، حتى إذا ورد القيامة حصلت سرائره وبلى خبره واقتضى صدقه فى الأعمال فإن وجد صادقا فى ذلك أثيب وأكرم على قدره وإن وجد كاذبا رمى به فى وجهه، وهو موقوف فى العرصة، يرجو

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه- كتاب الأدب- باب علامة الحب فى الله (١٠/٥٥٧). وأخرجه مسلم فى صحيحه- كتاب البر والصلة- باب المرء مع من أحب ص ٦٢١. وأخرجه الترمذى فى سننه- كتاب الزهد- باب المرء مع من أحب (٤/٥٩٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد فى المسند من حديث أنس (٣/١٠٤) ومن حديث ابن مسعود (١/٣٩٣).

بأعماله النجاة من النار، ونوال الثواب فتخلص حسناته وتصفى ثم توزن بالسيئات فإن فضل له شيء أعطى بقدر ما فضل، وهذا السائل قد كانت الأشياء كلها تلاشت عن قلبه فى جنب معبوده فلحبه إياه غليان فى صدره فكان ذلك عدته فلذلك قال: أنت مع من أحببت، ولعله كان أشدهم اجتهادا وأصفاهم عملا، وأخلصهم قلبا، وأطهرهم إيمانا، وأبعدهم عن كل ريبة وريب، ودنس وعيب، وأخلقهم بمعالى الأخلاق وأنزههم عن مدانيها لأن حب الله تعالى لا ينال إلا محبوبه. قال تعالى:

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [2].

بدأ بحبه إياهم ثم بحبهم له ثم وصف أخلاقهم، وشمائلهم.

فقال:

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [3] الآية.

وإذا فتح الله قلب عبد وأشرق النور فى صدره وانتبه من غفلته فحال أن لا يجيش صدره بحب مولاه، حتى ينسى فى حبه حب كل مذكور، ويلهو عن كل شيء سواه، كما قال الحسن رضى الله عنه حق على من عرفه أن ينكر كل شيء سواه، وقال عليه السلام: «لا يبلغ أحدكم ذروة الإيمان حتى يكون الناس عنده أمثال الأباعر فى جنب الله تعالى ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أحقر حاقر».

وقال عليه السلام: «حبك الشيء يعمى ويصم»[4] فالقلب واحد فإذا أحب الدنيا أعماه وأصمه عن الآخرة فإن الحب حرارة تتوقد فى القلب فإذا ولج القلب حرارة الشهوة تعميه، وتصمه عن كل شيء سواه، وإذا أحب الآخرة أعماه عن الدنيا وأصمه لأنه صارت له الآخرة

(٢) المائدة (٥/٥٤).

(٣) المائدة (٥/٥٤).

(٤) حبك الشيء يعمى ويصم أى يعميك عن رؤية مساوئه، ويصمك عن سماع مناقصه. =

معاينة بالنور الوارد على قلبه، وهاجت شهوته لها واستجر قلبه، وتوقد فأعماه وأصمه عن كل شيء سواها وإذا أحب مولاه أعماه وأصمه عن جميع ما خلق، وعن كل ما سواه لأنه إذا توقد نوره في قلبه انكشف الغطاء عن جلاله وعظمته وجماله، وبهائه، وكبريائه، فأعماه وأصمه عن كل شيء سواه، وهكذا ركب في طباع الآدميين أن يسمو قلبه إلى الأرفع فالأرفع إذا رأى أهل النعيم والزينة يسمى قلبه أعظمهم قدرا وأوفرهم حظا من ذلك، وإذا عاين الآخرة دق هذه في جنبها، وإذا وقع على قلبه من جلال الله وعظمته دق هذا كله في جنب ما عاين ويحب الآدمي، كلا على قدره وأهل المحبة قوم سبقت لهم من الله تعالى سعادة زائدة فاضلة على من دونهم من عمال الله تعالى أجتباهم بمشيئته وهداهم بإنابتهم[5] وهم صنفان ذكرهما الله تعالى في تنزيله الكريم:

﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [6].

فالأول طريق الأنبياء عليهم السلام بمشيئته اجتباهم، وجذب قلوبهم إليه جذبة بمشيئته من غير تردد وتكلف وطلب. والثاني طريق الأولياء المهذبين سلام الله تعالى عليهم أنابوا، وساروا إليه بقلوبهم، وأوصلهم إليه فأحبهم ويحبه أوصلهم إلى حبه وقال الله تعالى:

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [7].

= والحديث رواه ابو داود من حديث أبي الدرداء مرفوعاً، وذكره الشيباني في التمييز ص ٦٥ وقد بالغ الصنعاني فحكم عليه بالوضع، قال العراقي: ويكفينا سكوت أبي داود عليه، فليس بموضوع، ولا شديد الضعف فهو حسن.

وذكره العجلوني وقال: وفي سنده ابن أبي مريم ضعيف. وقال القاري بعد أن ذكر ما تقدم فالحديث إما صحيح لذاته أو لغيره مرتق عن درجة الحسن لذاته إلى صحة معناه، وإن لم يثبت مبناه. انتهى. راجع كشف الخفاء (١/٤١٠/١٠٩٥) بتصرف.

(٥) الإنابة: الرجوع والتوبة.

(٦) الشورى (٤٢/١٣).

(٧) المائدة (٥/٥٤).

ولهذا تفسيران تفسير المقتصدين أهل الاستقامة ، وتفسير الأولياء أهل اليقين ، فأما أهل الاستقامة يذل عند حق المؤمن لحقه ، ويرق له ويعطف عليه ، ويحب له ما يحب لنفسه ، ويعز على الكافر بالله تعالى على باطله فيقهره، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، فمن حبهم إياه دق شأن الخلق ، وذمهم ، ومدحهم فى جنبه . وأما تفسير أهل اليقين أعزة على الكافرين ، يذلون عند كل مشيئة لله تعالى يظهر من الغيب من أحكامه عليهم فينقادون له تسليما له بلا تلجلج ، ويعزون على (٨) الباطل فيمتنعون منه ، حتى لا يجدوا سبيلا ، ولا تجد النفس إلى خدعها طريقا ، ويعزون على أهله فلا يستقبلهم مضاد إلا انقمع لهم ، وسلس ، ولا يخافون لومة لائم ، قد سقط عن قلوبهم خوف سقوط المنزلة عند الخلق ، وهذه عقبة عظيمة من جازها فقد ولى الدنيا ، وراء ظهره ، ورفع عن الناس بالأ . وهما عقبتان كؤدتان فطلاب الآخرة أعرضوا عن الدنيا توليا عنها وأقبلوا على الآخرة إلا أنهم بقوا فى العقبة الثانية فهم حرصاء أن يكون جاههم ، وقدرهم باقيا عند الخلق وأن لا يسقطوا من أعينهم وهو الشهوة الخفية التى بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له فى ذلك فقال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك والشهوة الخفية» (٩) فحب الثناء وحب المحمدة هى الشهوة الخفية ، وهى من أقوى الأشياء فى الآدمى ، يبقى ذلك فى العمال والقراء والزهاد والورعين فهم منه فى جهد وهذا الذى حملهم على الاختفاء والهرب من الخلق وإخفاء العمل وكتمان الأشياء التى يكرمهم الله تعالى بها مخافة التزين والمباهاة فى الأقوال فمن أشرب حب الله قلبه شربة أسكرته عن الدارين ، وعن الخلق فطارت هذه المحبات عنه وزال عنه حب المحمدة ، والثناء ، ورفع المنزلة عند الخلق ، وذهب باله ونسى هذا كله ، ولا يبقى على قلبه إلا عظمة الله تعالى ، وجلاله إذا شرق الصدر بنوره ، فامتلأ

(٨) فى نسخة أخرى [عند الباطل] وهو تحريف خطير من الناسخ .
(٩) لأن الشرك أهم ما يفسد فطرة الإنسان وبباعده عن ربه .

من عظمته، ولزمته هيبته وهاجت هوائج المحبة له والشوق إليه وظهر الوله، والحنين فيه فحينئذ تموت هذه الأشياء منه ويحيى قلبه به ولا يخاف فى الله لومة لائم فإذا ترقى من هذه الدرجة إلى الدرجة العظمى، فانفرد بوحدانيته وبهت فى جماله، وجلاله واستولت على قلبه هيبته افتقد ذكر هذا كله من نفسه فيصير فى قبضته مستعمله فى أموره معتزا به، به يقوم، وبه يقعد، وبه يتصرف فى الأحوال، وهذا السائل الذى سأله عليه السلام عن الساعة من جملتهم، ولهذا روى أنس بن مالك رضى الله عنه فى آخر الحديث «كم من بدوى من رجال الله وخاصته لا يعرف ولا يؤبه به»، وقال ثابت البنانى رضى الله عنه: لا تسخروا من أحد، ولا تستهزؤا من أحد فإن أنس بن مالك رضى الله عنه حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بالبقيع فإذا هو بأعرابى أعمش العينين خمش الذراعين، دقيق الساقين، عليه شملتان، ومعه عكة من سمن يبيعها، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا زاهر قال: لبيك يا رسول الله قال: من يشترى منى زاهرا فقال: يا رسول الله إذا تجدنى كاسدا فقال: يا زاهر إن تكن عند الناس كاسدا فإنك لست عند الله كاسد إذا قدمت المدينة فأنزل علىّ وإذا أنا بدوت نزلت عليك.

[الأصل الحادى والأربعون والمائة فى أى النساء خير]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «قيل يا رسول الله أى النساء خير قال: التى تسره إذا نظر، ولا تعصيه إذا أمر، ولا تخالفه لما يكره فى نفسها ومالها»(١). تسره إذا نظر لعفتها وجمالها فإن المرأة إذا كان لها جمال كان ذلك عونا على عفة الرجل، ودينه فلا يلحظ إلى إمرأة إلا كان فى غنى عنها بما عندها من جمالها.

روى أن جماعة قصدوا دار زكريا عليه السلام فإذا فتاة جميلة رائعة قد أشرق البيت لها حسنا قالوا من أنت قالت: أنا امرأة زكريا عليه السلام، قالوا بينهم كنا نرى نبى الله زكريا لا يريد الدنيا فإذا هو اتخذ امرأة جميلة رائعة، فقال عليه السلام: إنى إنما تزوجت امرأة جميلة رائعة لاكف بها بصرى واحفظ بها فرجى.

وقال عليه السلام: «مثل عائشة فى النساء كالثريد فى الطعام» فهذا تمثيل منه، وذلك أن الثريد مشبع يجزى عن سائر الطعام، يستغنى به صاحبه عما سواه ولا يقوم مقامه شىء من الطعام ولأن الله تعالى قد أخذ على الأزواج ميثاقهم فى شأن نسائهم، وأمرهم بالإحسان إليهن

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه ــ كتاب الزكاة ــ باب فى حقوق المال (٤٢٢/١) وأخرجه ابن ماجة فى سننه ــ كتاب النكاح ــ باب أفضل انساء (٥٩٦/١). وأخرجه أحمد فى لمسند من حديث أبى هريرة (٢٥١/٢). وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» كتاب النكاح ــ باب أى النساء خير (١٦١/٢) وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبى.

والمعروف لهن، قال تعالى:

﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «النساء عندكم عوان أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فيهن»(٣) أأى فى حسن عشرتهن، والخروج إليهن من حقوقهن، فمن رزق امرأة على وفاق نفسه كان ذلك عونا له على حسن العشرة، وإقامة الحقوق، فإن النفس إذا هويت شيئا مالت إليه فصار أمرهما على اتفاق فلم يبق للنفس تردد ولا تلكؤ، فهذا قوله عليه السلام تسره إذا نظر وقوله ولا تعصيه إذا أمر، فإنما عظم أمر الأزواج الذى يلزمهن أن لا تخرج من بيته إلا بإذنه، ولا تكلم غير ذى محرم من الرجال ولا تمنع نفسها فى حال حاجته إليها هويت أولم تهو خف ذلك عليها أوثقل. قال عليه السلام «لا تمنع المرأة نفسها من الزوج وإن كانت على رأس تنور».

وفى حديث آخر «وإن كانت على قتب» أى فى حال ولادتها فإن القوابل كانت يعز وجودها فى تلك البوادى فيحملون نسائهم على القتب عند ولادها وقد هيىء القتب بالأرض حتى يتمكن من القعود عليها فتلد، ويقبلون ولدها من تحت القتب.

وعن أبى كبشة رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ مرت بنا امرأة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل منزله ثم خرج إلينا قد اغتسل فقلنا نرى أن قد كان شيء يا رسول الله قال: «مرت بى فلانه فوقعت فى نفسى شهوة النساء، فقمت إلى بعض أهلى فوضعت شهوتى فيها، وكذلك فافعلوا فإنه من أماثل أعمالكم» وقوله: «ولا تخالفه لما

---

(٢) البقرة (٢/٢٢٩)، التسريح بإحسان هو التطليقة الثالثة.

(٣) عوان: جمع عانية أى أسيرات.

تكره فى نفسها، وما لها هو أن تساعده على أموره ما لم يكن فيها معصية فإن حسن الصحبة، فى المساعدة، وحسن العشرة ترك هواها لهواه».
روى أنس رضى الله عنه أن رجلا انطلق غازيا فأوصى امرأته أن لا تنزل من فوق البيت، وكان والدها فى أسفل البيت، فاشتكى أبوها فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تخبره. وتستأمره فأرسل إليها اتق الله وأطيعى زوجك ثم إن والدها توفى فأرسلت إليه صلى الله عليه وسلم تستأمره فأرسل إليها مثل ذلك وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسل إليها أن الله قد غفر لك [٤] بطواعيتك لزوجك.

وقال عليه السلام: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة».

وقال عليه السلام «خير ما اعطى العبد من الدنيا زوجة مؤمنة تعينه على إيمانه» وقال لقمان عليه السلام: «مثل المرأة الصالحة مثل التاج على رأس الملك ومثل المرأة السوء كمثل الحمل الثقيل على ظهر الشيخ الكبير».

(٤) فى نسخة أخرى [قد غفر لأبيك].

[الأصل الثانى والأربعون والمائة فى المعمرين فى الإسلام]

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عز وجل إذا بلغ عبدى أربعين سنة عافية من البلايا الثلاث من الجنون والبرص والجذام، فإذا بلغ خمسين سنة حاسبته حسابا يسيرا، وإذا بلغ ستين سنة، حببت إليه الإنابة وإذا بلغ سبعين سنة أحبته الملائكة، وإذا بلغ ثمانين سنة كتبت حسناته وألقيت سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة قالت الملائكة أسير الله فى أرضه فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفع فى أهله»(١).

يروى هذا الحديث بروايات أخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها حكاية عن الله تعالى، فى رواية أنس رضى الله عنه: «ما من معمر يعمر فى الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله تعالى عنه ثلاثة أنواع من البلاء وقال فى الخمسين لين الله حسابه».

وفى رواية أخرى عن أنس رضى الله عنه قال: المولود قبل أن يبلغ الحنث ما يعمل من حسنة كتبت لوالديه وإن عمل سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغن الحنث وجرى عليه القلم أمر الملكان اللذان معه أن يحفظا ويسددا فإذا بلغ أربعين سنة وسرد الحديث إلى أن قال

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٨٣/٢) وأشار إلى تفرد الحكيم به، ورمز له بالضعف. وذكره أيضا السيوطى فى الجامع الكبير (٢٥/٢) وكذا فى اللآلئ المصنوعة (٧٤/١) بروايات متعددة. وقد ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ــ كتاب الزهد ــ باب فيمن طال عمره من المسلمين (٢٠٥/١٠).

بعد التسعين، فإذا بلغ أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا كتب الله له بمثل ماكان يعمل فى صحته من الخير وإن عمل سيئة لم تكتب عليه.

وفى رواية أبى هريرة رضى الله عنه فإذا بلغ مائة سنة سمى حبيس الله فى الأرض حق على الله أن لا يعذب حبيسه فى الأرض.

هذا الحديث يخبر عن حرمة الإسلام، ومايوجب الله تعالى لمن قطع عمره مسلما من الكرامات، ومايقصد فى ذلك بيان الأعمال، والدرجات، واكتساب الطاعات، فذاك ثوابه على قدر ماسعى، واكتسب، ومثل هذا موجود فى حق الخلق، ترى الرجل يشترى عبدا فإذا أتت عليه ستون يقال عتق عندنا، وطالت صحبته معنا، فترفع عنه بعض العبودة، ويخف عليه فى الضريبة، فإذا زادت مدة صحبته زيدت رفقا وعطفا، وإذا وجد منه تخليط وإساءة عمل فلطول صحبته لا يمنع رفده، ورفقه لإساءته فإذا شاخ، وكبر أعتقه احتشاما من بيعه، والإساءة إليه.

لهذا قال عليه السلام «إن الله تعالى يستحى من عبده وأمته أن يشيبا فى الإسلام فيعذبهما» ففى بلوغ العمر أربعين سنة استكمال الشباب واستجماع القوة وهو عمر تام ولا يزال بعده فى نقصان وإدبار(٢) فإذا عاش فى الإسلام عمرا تاما وجب له من الحرمه مايدفع عنه الآفات الثلاثة التى لا تقبل الدواء منه من الداء العضال، ووجود العدو إليه سبيلا فى أخذ قلبه، فإذا بلغ خمسين سنة، وهو نصف المائة التى هو أرذل العمر الذى يرفع عنه الحساب فهو على النصف من ذلك فخفف عنه حسابه ولين، وحوسب حسابا يسيرا، وخفة الحساب فى

(٢) إدبار: ذهاب، وتولى.

الدنيا أن لا يؤاخذه فيها، ولا ينزع منه البركة ولا يحرمه (٣) الطافه، ولا يقصيه، ولا يخذله ومن قبل الخمسين لم يستوجب هذه الحرمة، فإذا بلغ ستين سنة وهو عمر التذكر والتوقف، قال عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نودى أبناء الستين أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر» (٤) فإذا عمر ستين سنة فقد جاء أوان التذكر لأن الأربعين منتهى استتمام القوة، فإذا جاوز إلى ستين فقد أتى عليه عشرون سنة فى النقصان، وهو نصف الأربعين الذى هو منتهى القوة فقد افتقد من نفسه نصف القوة فلذلك صار حجة عليه فأوجب له حرمة بأن رزقه الإنابة إليه فيما يحب وهو التذكر فإنه إذا تذكر رزقه الإنابة إليه فى الطاعات، ولم يخذله حتى يصير عمره وبالا وحجة عليه فيعير به كما يعير أهل النار.

قال الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (٥).

وإذا بلغ سبعين سنة فقد عمر حقبا من الدهر وهو سبعون سنة وهو غاية وحد ينتهى إليه فى الطول، وهو منتهى أعمار هذه الأمة.

قال عليه السلام: «أقل أمتى أبناء السبعين» وقال عليه السلام: «معترك المنايا ما بين الستين والسبعين» فإذا عمر فى الإسلام سبعين سنة قال: هذا عبد قد كان فى عبودة مولاه حقبا لم يأبق منه ولم يتول حتى مات فى عبودته وذهب شبابه، وقوته فى طاعته فأوجب

---

(٣) فى نسخة أخرى [ولا يحرمه الطاعة] وهو تحريف.

(٤) قيل إن النذير: هو محمد صلى الله عليه وسلم، ويقال: الشيب. ومن أراد الشيب فإنه أراد «أو لم نعمركم حتى شبتم».

راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (٣٥٣/١٤) وجامع البيان للطبرى (٩٣/٢٢).

(٥) فاطر (٣٧/٣٥).

له محبته، وأحبه أهل السماء، فإنه يشهر حبه فيهم وتحقيق ما ذكرنا ماروى وهب قال: «مكتوب فى التوراة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده، ابناء الخمسين هلموا إلى الحساب لاعذر لكم، أبناء الستين ماذا قدمتم، وماذا أخرتم، أبناء السبعين ماذا تنتظرون؟ ألا ليت الخلق لم تخلقوا فإذا خلقوا علموا لماذا خلقوا ألا أتتكم الساعة فخذوا حذركم، فإذا بلغ ثمانين سنة قبلت حسناته وتجاوز الله تعالى عن سيئاته فإنه عمر ضعف العمر فإن العمر التام أربعون ثم عمر أربعين آخذ (٦) فى نقصان وإدبار فى الإسلام فاستوجب أن قبلت حسناته وتجاز عن سيئاته» فإن الله تعالى قال فى الإستقامة:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ ﴾ (٧) إلى آخر الآية.

وقال الله تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ (٨)

إلى قوله:

﴿ يُوعَدُونَ ﴾ (٩).

فهذا لمن بلغ أربعين سنة فى الاستقامة فإذا كان مخلطا فعمر فى الإسلام ضعف أربعين أوجب له بحرمه ذلك العمر ما يوجب للمستقيم فى وقت الأربعين. روى أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا بلغ الرجل من أمتى ثمانين سنة حرم الله جلده

---

(٦) وردت فى بعض النسخ [آخر] وهو تحريف.

(٧) الأحقاف (١٥/٤٦)

أوزعنى: ألهمنى، وأصل الإيزاع: الإغراء بالشيء، يقال: فلانٌ موزعٌ بكذا أى مولع به.

راجع تفسير القرطبى (١٧٦/١٣) والطبرى (٨٨/١٩) ثم ابن منظور فى لسان العرب (٢٧١/١٠).

(٨-٩) الأحقاف (١٦/٤٦).

على النار، وإذا بلغ تسعين سنة فقد افند وفقد عقله، وكان العقل حجة الله عليه فغفر له ما تقدم من ذنبه بقطع هذا العمر مسلما، وما تأخر بفقد عقله لأنه فى أول ما اجتباه ألقى فى قلبه نور المعرفة فسبى (١٠) قلبه عليه فما زال يستغله فيغل غلته ويؤدى خراجه، حتى إذا شاخ وكبر وعجز عن العلة وذهبت القوة وفقد العقل رفع عنه الضريبة والخراج، وتبعة الذنب فيما بقى وسمى أسير الله فى الأرض لأنه فى ربقة الإيمان كأسير فى وثاق لا يقدر براحا قد عجز عن أعمال البر وهو فى ربقة الإسلام فإذا بلغ مائة سنة فقد رد إلى أرذل العمر، فصار كالصبى فبلغ من حرمته أن يجرى له حسناته ولم يكتب عليه سيئاته لأنه قد بلى فوجد صادقا فى التوحيد لم يتردد فيه، ودام عليه ناشئا فتيا، وشابا طريا، وكهلا سويا، وبجالا بهيا، وشيخا رضيا، فلما صار إلى أرذل عمره عاد إلى أحكامه طفلا وصبيا، فأجرى له ما كان يعمل من الحسنات فى سالف أيامه، ورفع عنه سيء ما يجيء منه» قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ (١١).

ثم استثنى فقال:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (١٢).

أى غير مقطوع، وقال عليه السلام «غير ممنون ما يكتب لهم صاحب اليمين فإن عمل خيرا، كتب صاحب اليمين وإن ضعف عن ذلك كتب له صاحب اليمين وأمسك صاحب الشمال فلم يكتب سيئة».

---

(١٠) سبى: أسر. من السبى وهو الأسر.

(١١) التين (٥/٩٥).

أسفل سافلين: أى إلى الهرم والسافلون: هم الزَّمنى والأطفال والهَرْمَى. قال الحسن ـ رضى الله عنه ـ: أسفل سافلين فى النار. وهو أيضا عن مجاهد وقتاده أبى العالية وابن زيد، كما ذكر الطبرى (١٥٧/٣٠) والقرطبى (١١٥/٢٠) والدر المنثور للسيوطى (٣٦٧/٦).

(١٢) الأجر غير الممنون هو غير المنقوص، أو غير المقطوع.

[الأصل الثالث والأربعون والمائة فى فضل ذاكر الله فى أهل الغفلة]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دخل سوقا من أسواق المسلمين فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة وحطت عنه ألف ألف خطيئة ورفعت له ألف ألف درجة»(1) هذه كلمات يخرج بها العبد من حال الغفلة وإنما خص بها الاسواق لأن الغفلة مستولية على أهلها، وذلك لأن الله تعالى هو المعطى والمانع، والقابض والباسط، والرازق بيده خزائن الأشياء ومفاتيح الغيب، فمن قدر على شىء فبقدرته إياه قدر ووضع الأشياء فى الأسباب وجعل الأسباب (2)من أبواب المكاسب ووجوه الأرزاق نصب أعين الآدميين فأهل اليقين بنور بصائرهم نفذوا من الأسباب إلى وليها بحيث لا تقدر الأسباب أن تصير فتنة عليهم، فهم يعملون فى الأسباب مع وليها يزرعون وينظرون، رحمته فإذا اركى قالوا هذا من فضلك، ورحمتك ويتجرون، يبتغون الأرباح من فضل الله تعالى، فإذا تعذر عليهم شىء سألوه كما قال تعالى:

---

(1) أخرجه الترمذى فى سننه ــ كتاب الدعوات ــ باب ما يقول إذا دخل السوق (٤٩١/٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب. وأخجه ابن ماجة فى سننه ــ كتاب التجارات ــ باب الأسواق ودخولها (٧٥٢/٢) وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» ــ كتاب الدعاء ــ باب دعاء دخول السوق (٥٣٩/١).

وقال: هذا إسناد صحيح. وأخرجه أحمد فى المسند من حديث عمر بن الخطاب (٤٧/١).

(2) فى نسخة أخرى [وجعل الأسباب نصب أعين الآدميين].

﴿ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (٣)

﴿ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ (٤)

وأهل الغفلة تعلقت قلوبهم بالزراعات، والحرف، والتجارات، وما وضع لهم فيه من التدبيرات فإليه ينظرون وإياه يطلبون، وبه يفتنون، ومن أجله يعصون، فالأسواق معدن النوال، ومظان الأرزاق، وهى مملكة وضعها الله تعالى لأهل الدنيا يتداولون ملك الأشياء فيما بينهم، فترى الشيء الواحد يدور ملكه فى اليوم الواحد على أيدى المالكين مرات والتدبير على المملكة الأعلى وهى العرش فمملكة التداول فى الأسواق، ومملكة تدبير التداول هى العرش، والسوق، رحمة من الله تعالى لعباده دبره معاشا لخلقه يدر عليهم منها حوائجهم ليلا ونهارا وشتاء، وصيفا، نقلا من بلد إلى بلد لتكون الأشياء كلها موجودة فى الأيدى، عند الحاجة إليها.

قال تعالى:

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ (٥)

وجعل الذهب والفضة اثمان كل شيء، وما سواها عرضا وصرف أرزاقهم إلى مثل هذه الأرباح، وصرف بوجوههم للطلب إلى مطالب الكسب، لتكون الأسواق قائمة والتدبير جاريا والمعاش نظاما، وجعل الحرف والصنايع بعضها متعلقة بالبعض و ينتفع هذا بصنعة ذاك، وذاك بصنة هذا، ولو لم يكن هكذا لكان الواحد يحتاج ارلى آلة جميع الحرف وإلى تعلم كر حرفة فى الأرض، فيصيرون عجزة وأسواقهم بصنوف

(٣) سورة الجمعة الآية رقم ١٠.

(٤) سورة النساء الآية رقم ٣٢.

(٥) فصلت (١٠/٤١). الأقوات: جمع قوت، وهو كل ما أوتيه ابن آدم لأكله ومصلحته. أنظر جامع البيان (٦٣/٢٤) والبحر المحيط (٤٨٦/٧).

ما يحتاجون إليه مشحونة ثم صيرهم يبتغون من فضل الله تعالى فى هذه الأشياء بتغيير الأسعار فإن الله تعالى هو المسعر وهو القابض، والباسط، فبتغير الاسعار يتناولون الأرباح، ويدر عليهم الشيء بعد الشيء ويكون ذلك معاشا لهم تفضل الله تعالى عليهم به، فأهل الغفلة صبروا هذه الرحمة وبالأعلى أنفسهم يتعلق قلوبهم بالأسباب، وغفلتهم عن المدبر لها والسائق أرزاقهم إليهم من فضله فالناطق بهذه الكلمات بين أولئك الغفلة فى هذا الحظ من ربه فتكتب له الحسنات، وتمحى عنه السيئات وترفع له الدرجات.

قال عليه السلام: «ذاكر الله فى الغافلين كالشجرة الخضراء فى السنة الحمراء» وهذا لأن العدو قد انتهز الفرصة من أهل الأسواق لما رأى من أحوالهم من حرصهم، وشحهم، ورغبتهم فى الدنيا، وصيرها عدة وسلاحا لفتنته، فدخلوا أسواقهم وهم طالبون للمعاش، والرغبة فيهم حاصلة والحرص كامن، فنصب كرسيه فى وسط أسواقهم وركز رايته، وبث جنوده، وقال دونكم من رجال مات أبوهم، وأبوكم حىّ فمن بين مطغف فى كل وطايش فى ميزان، ومنفق سلعة بالحلف الكاذب، وحمل عليهم بجنوده حملة فهزمهم عن مقاومهم إلى المكاسب الردية وإضاعة الصلوات، ومنع الحقوق فأداموا فى هذه الغفلة على مثل هذه الأحوال فهم على خطر من ربهم من نزول العذاب وتغير الأمور، وكون الأحداث فالذاكر فيما بينهم يرد سخط الله تعالى، ويطفئ ثائر غضبه لأن فى كلماته هذه نسخا لتلك الأعمال قال تعالى:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (٦)

فيدفع عن أهل الغفلة بالذاكرين، وعن غير المصلى بالمصلين، وفى هذه الكلمات التى ذكرها عليه السلام نسخ لأفعال أهل السوق لأن قلوبهم

---

(٦) البقرة (٢/٢٥١).

قد وله بعضها إلى بعض فى النفع والضر فإذا قال لا إله إلا الله كان نسخا لوله قلوبهم، وإذا قال وحده لا شريك له يكون نسخا لما تعلقت قلوبهم بعضها ببعض فى نوال أومعروف أورجاء نفع أوخوف ضر، وقوله: «له الملك وله الحمد» نسخ لما يرون من صنع أيديهم وتصرفهم فى الأمور بتحمل (٧) بعضهم بذلك إلى بعض، وقوله: «يحيى ويميت» نسخ لحركاتهم ومايرجون فى أسواقهم للتبايع أحياهم حتى انتشرت الحركات، ويميتهم فلا يبقى متحرك، وقوله: «وهو حى لا يموت» نفى عنه ما نسب إلى المخلوقين من الموت، وقوله: «بيده الخير» أى هذه الأشياء التى تطلبونها من الخير فى الأسواق وهو على كل شىء قدير، ومثل أهل التخليط والغفلة فى الأسواق كمثل الذبان، والهمج (٨) يجتمعن على مزبلة يتطايرون فيها على ألوان القاذورات فيقعن على ضروب ما هناك، فعمد رجل إلى مكنسة ذات شعوب وقوة فكنس هذه المزبلة فجرفها فى الوادى، فإذا البقعة نظيفة وصاحبها معجب بها، فالناطق بهذه الكلمات وجد أسواقا مشحونة بالكذب، والفحش، والخيانة، والظلم، والعدوان، والأيمان الكاذبة والمكاسب الردية قد هزمهم العدو، وهم على شرف حريق، ونزول عذاب فنطق بهذه الكلمات ورمى بالمزابل فى وجه العدو، وطهر الأسواق منهم وأطفأ نائرة سخط الله تعالى، وستر مساوى أهل السوق، ونفى ظلمتهم وطهر أرجاسهم، فاستوجب من الله تعالى من الثواب ما أشار إليه صلوات الله وسلامه عليه.

---

(٧) فى نسخة أخرى [بتحمد] وهو تحريف خطير.

(٨) الهَمَج: بفتحتين جمع (همجة) وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها. راجع مختار الصحاح للرازى ص ٦٩٨.

[الأصل الرابع والأربعون والمائة فى أن الموحد والصديق فى الناس قليل]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تجدون الناس كالإبل المائة ليس فيها راحلة أوليس فيها إلا راحلة»(١) فالراحلة هى التى قد ربضت(٢) وأدبت فسمحت بالطاعة وتركت شرتها(٣) وسارت(٤) بزمامها وذلت لصاحبها وأعطت سيرها، وجادت بنفسها وأعطت من نفسها السير فى وجهها فمازال ذلك عادتها فى الرحل ودأبها فى الانقياد، وصاحبها يرعاها ويلى تأديبها(٥) ويتفقد أحوالها حتى تمكنت عنده منزلة، وحظا حتى صيرها نجيبة من نجائبه، وكريمة من كرائم إبله، سمحة لاتحرن، وكريمة لاتجمح، وجريئة لاتنفر، ووادعة لاتشمس، وساكنة لاتضطرب، إذا حملت حملت، وإذا سارت استمرت، وإذا حركت أعنقت، فصاحبها بأحوالها معجب وبها

---

(١) البخارى فى صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كابل مائة لاتجد فيها راحلة (١٠١/٧) من رواية ابن عمر. ومسلم فى صحيحه ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب قوله صلى الله عليه وسلم: الناس كابل مائة لاتجد فيها راحلة (١٩٧٣/٤) من رواية ابن عمر. والترمذى فى سننه ـ كتاب الأمثال ـ باب ما جاء فى مثل ابن آدم وأجله وأمله (١٥٣/٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه فى سننه ـ كتاب الفتن ـ باب من ترجى له السلامة من الفتن (١٣٢١/٢). وأحمد فى «المسند» من حديث عبد الله بن عمر (٧/٢، ٤٤، ٧٠).

(٢) ريضت: من الترويض والرياضة أى ذللت.

(٣) فى نسخة أخرى [سيرتها] وهو تحريف وتصحيف.

(٤) الزمام: المقود.

(٥) يلى: يتولى.

ضنين لا يملكه أحدا، ولا يطلق لغيره عليه يدا، حتى يتحمل أثقال صاحبه، فيكون من نجائبه فكانت كإحدى الإبل المائة سائمة (٦) ترعى فى مظانها وتذهب فى مهواها يمينا وشمالا لا ينتفع بها برسل ولا حمولة، فالواحد منها ركوبه وسائرها للأكل.

قال الله تعالى:

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ (٧).

فالذى ذلل للركوب صارت راحلة وسائرها لحم فكذلك الناس انتشروا على بسيط الأرض، فربتهم نعم الخالق، وأظلتهم سحائب رحمته، واكتنفتهم رأفته، وتولتهم نعمته ومنته فإذا ألجمت أحدهم بلجام الحق أو زممته بزمام الصبر هز رأسه، ولوى عنقه، فرمى باللجام، وجاذب بالزمام فر شاردا ورمى بحمولته، فمن المائة لا تجد فيها راحلة واحدة عز أن تجد نفسا سمحة سخية منقادة مطيعة لربها، قد ألقت بيدها سلما وانخشعت لعظمة ربها، ووطنت نفسها على العبودة فلا يزال فى عطف الله تعالى، ورحمته وتأييده ونصرته، حتى يصير ذا حظ من ربه فبحظه منه تنجب وتزكو نفسه، وتطيب أخلاقه، وينشرح صدره، وتلين عروقه، ويرطب قلبه، ويألف ربه، فإن رحله انقاد وإن سيره سار وإن عطفه انعطف، وإن كبح به وقف وإن بعثه انبعث، وإن حركه هملج أوجز وإن أوقره استمر، وإن أنصبه احتمل وإن خلى زمامه تفويضا إليه استقام، فهو لربه أليف وربه به ضنين.

قال عليه السلام «الله أضن (٨) بدم عبده المؤمن من أحدكم بكريمة ماله حتى يقبضه على فراشه».

---

(٦) سائمة: جمعها سوائم وهى الراعية.

(٧) يس (٣٦/٧٢).

راجع القرطبى (١٥/٥٥) وما بعدها.

(٨) فى نسخة أخرى [لله أضن].

وقال عليه السلام: «إن لله تعالى عبادا يضن بهم عن الأمراض والأسقام يحييهم فى عافية، ويميتهم فى عافية، ويدخلهم الجنة فى عافية» فالراحلة فى الإبل قليلة والنجيبة فى الرواحل قليلة، فالموحدون فى الناس قليل والمستقيمون بلجام الله فى سيرهم قليل فى الموحدين، والصديقون فى المستقيمين قليل.

قال الله تعالى:

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (٩).

فالسابقون أهل الشكر والوفاء. والمؤيدون بالمن والعطاء والممتلئة قلوبهم من الجلال والبهاء، والعظمة، والآلاء. قال عليه السلام «طوبى للسابقين إلى ظل الله تعالى. قيل: ومن هم يارسول الله؟ قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوا بذلوه والذين يحكمون للناس بحكمهم لأنفسهم».

وهذه صفة أهل القناعة فإنهم استغنوا بالله تعالى حتى قنعوا بما أعطوا، ولله انقادوا وألقوا بأيديهم حتى بذلوا الحق إذ سئلوا. وإلى الله تعالى أقبلوا حتى عدل قلوبهم فصاروا أمناءه وحكامه فى أرضه يحكمون للناس بحكمهم لأنفسهم، قال تعالى:

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١٠)

وفى مناجاة موسى عليه السلام يارب كيف أصل رحمى وقد تباعدوا عنى فى مشارق الأرض ومغاربها قال: ياموسى أحب لهم ما تحب لنفسك. ولا يقوى على ذلك إلا عبد سقط عن قلبه منزلة نفسه، ومنزل دنياه، ولها عنها، وشغف بمولاه فنبه من رقدة الغافلين فانتبه، وأشرق فى صدره النور فوقف بقلبه على جلال الله تعالى وعظمته، وعلى جماله

(٩) سبأ (١٣/٣٤).

(١٠) النحل (٩٧/١٦).

وبهائه وعلى كبريائه وسلطانه فصارت دنياه عنده أقل من جناح بعوضة، وصارت نفسه عنده قبضة من تراب، وردت على قلبه من محبة الله تعالى، والحلاوة التى وجد لها ما اسكرته، وألهته عن محبة نفسه ودنياه وما يؤمن بها إلا كل مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان، وقليل ما هم (١١).

قال عليه السلام: يقول الله تعالى: «يا جبريل إنسخ من قلب عبدى المؤمن الحلاوة التى كان يجدها لى، قال فيصير العبد المؤمن والها طالبا للذى كان تعاهد من نفسه، ونزلت به مصيبة لم ينزل به مثلها قط، فإذا نظر الله تعالى إليه على تلك الحال قال: يا جبريل رد إلى قلب عبدى ما نسخت منه فقد ابتليته فوجدته صادقا وسأمده من قبلى بزيادة».

فهذه حلاوة المحبة من نالها، فقد غلب على عقله وصارت جميع الأشياء خولا لها، كمن وجد درهما فأحبه على قدره، ثم وجد دينارا فأحبه على قدره ثم وجد جوهرا لا يدرى ما قيمته، قد دق فى عينه الدرهم، والدينار لاستغنائه به وانتفاعه بذلك أكثر من الاستغناء، والانتفاع بهما وإذا فتح الله قلب المؤمن ونور صدره وعرفه من صفاته ما جهله قبل ذلك علم أن الخير كله بيد الله تعالى، والنفع منه كان غناه بالله تعالى أكثر ورجاؤه منه أعظم من الدينار والدرهم، فإن أحبه حبا يلهيه عن حب الدرهم والدينار فليس بعجيب بل هو المتمكن فى العقول فإن من له بيت مملوء من دنانير فلو سقط منه عشرة مثلا لم يجد على قلبه حزنا عليها، ولو أهدى إليه هذا القدر لم يفرح بها لاستغنائه بتلك الدنانير، فإذا كانت هذه الدنانير قد أغنته، وفرحته فرحا لا يجده لحصول هذه الدراهم القليلة فرحا ولا لفواتها حزنا فأظنك بمن عرف الله

(١١) فى نسخة [وقليل منهم].

تعالى فى جلاله، وعظمته وملكه وعرف إحسانه إليه ألا يكون غناه به وفرحه فرحا لا يجد لشىء من عروض دنياه فرحا، ولا يجد على فواتها حزنا.

روى أنس رضى الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فاطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من ماء وضوءه معلق نعله فى يده الشمال، فلما كان من الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فاطلع ذلك الرجل على مثل مرتبته الأولى، فلما كان من الغد قال عليه السلام مثل ذلك، فاطلع الرجل فلما قام اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فقال: إنى لاحيت (١٢) أبى فاقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى يحل يمينى فعلت قال: نعم فإذا له خيمة ونخل، وشاة فلما أمسى خرج من خيمته، فاحتلب العنز واجتنى لى رطبة ثم وضعه فأكلت فبات نائما وبت قائما، وأصبح مفطرا وأصبحت صائما ففعل ذلك ثلاث ليال غير أنه كان إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى، وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر فيسبغ الوضوء غير أنى لا أسمعه يقول إلا خيرا فلما مضت الليالى وكدت أحتقر عمله. قلت: يا عبد الله إنه لم يكن بينى وبين والدى غضب، ولا هجرة ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لك ثلاث مرات فى ثلاث مجالس يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت تلك المرات الثلاث فأردت أن آوى إليك فانظر ما عملك. فأخبرنى ما عملك؟ قال: فائت الذى أخبرك حتى يخبرك بعملى. فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إئته فره فليخبرك فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تخبرنى قال أما الآن فنعم لوكانت الدنيا لى فأخذت منى لم أحزن

---

(١٢) لاحيت: هجوت من اللحو والتلاحى.

عليها ولو أعطيتها لم أفرح بها وأبيت وليس على أحد فى قلبى غل ولا أحسده على خير أعطاه الله اياه قال عبد الله لكنى والله أقوم الليل وأصوم النهار ولو وهبت لى شاة لفرحت بها ولو ذهبت لحزنت عليها والله لقد فضلك الله علينا فضلا بينا». وجماع الأمر فى هاتين الخصلتين سقوط منزلة دنياك من قلبك، وسقوط منزلة نفسك عن قلبك فإذا لم يكن لدنياك عندك قدر لم تفرح به ولم تحزن عليه، وإذا لم يكن لنفسك عندك قدر لم تغل ولم تحقد على من آذاك.

وقال عليه السلام حين سئل أى المؤمنين أفضل قال: مخموم القلب صدوق اللسان، قالوا يا رسول الله ما مخموم القلب؟ قال: التقى النقى لا إثم فيه ولا بغى، ولا غل ولا حسد قالوا: ما نعرف هذا فينا يا رسول الله فمن يليه؟ قال: الذين شنئوا الدنيا، وأحبوا الآخرة، قالوا: ما نعرف هذا فينا إلا رافع مولى رسول الله عليه السلام، فمن يليه قال: مؤمن فى خلق حسن. فالمخموم مؤمن ولج النور قلبه فأخرج ما فيه من شهوة النفس، والخمامة قماش البيت، وما يكنس عن وجه الأرض فعز وجود هذا فى وقتهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبى الله أن يكون ذاك إلا فى خاص من الناس قليل فى كل وقت.

قال تعالى فى التنزيل فى بيان المقربين السابقين:

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ (١٣).

وقال عليه السلام «فى كل قرن من أمتى السابقون» وقوله عليه السلام «الناس كالإبل المائة» تمثيل لأن الإبل المائة هى سائمة ترعى مرعاها بهواها ليس على ظهورها حمولة ولا فى أنفسها أزمة ولا خطم فهى فى استبدادها تعمل ما هويت، فإن لم يكن لها راع فكم من مترديه فى جرف هار، وكم من فريسة بين أنياب السباع، وكم من آكلة دفلى

(١٣) الواقعة (٥٦/١٣).

تموت آكلته وآخر تموت عطشا ، وآخر تموت جربا ، فالراعى يرعاهم المرعى ، ويجنبهم الدفلى ، ويذود عنهم السباع ، ويعدل بهم عن الجرف ويوردهم المياه العذبة ، وكذلك الناس هم بهذه الصفة فالراحلة هو الذى رحل نفسه ، وراضها وجنبها سموم الدنيا وآفاتها ، وقوم أخلاقها حتى استقامت لله تعالى فصارت راحلة تركبها حقوق الله تعالى فتنقاد لها ، وتحمل أثقال الحقوق فتسير بها إلى الله تعالى فإذا رحل نفسه وارتحل إلى الله تعالى ثم صار راعيا يرعى عباده فيصلح للرعاية يجنبهم الآفات ، ويهديهم للهدايات ، ويوردهم المياه العذبة ، وهو العلم الصافى بلا تخليط ولا كدورة ، ويعرفهم خداع العدوو ومراصده ومكامن النفس ، وهو فى ذلك يحب أن تكون أمورهم على وفاق ما بين الله تعالى لهم وعلى محاب الله تعالى ، ولا يكون كذلك فربما انتشرت الإبل عليه فيضطرب فى ذلك ، ويتلوى ويقبل ، ويدبر احتيالا وتكلفا ويضيق صدره بأمورهم فهو فى جهد من ذلك لما يحب أن تستوى أمورهم وتستقيم سيرتهم ، ويأبى الله إلا أن يكون كما قدر حتى إذا فتح عليه باب النجباء الكرام فأبصر بذلك النور أن هذا تدبيره لهم ومشيئته فيهم وأنه أعلم بما يراد لهم ، فإنما خلقهم من وجه الأرض تربتها مختلفة وأن القلوب أوعية فى أرضه يضع فيها ما أحب وأن العقول مقسومة بين العبيد ، وأن الأخلاق لهم من الخزائن ممنوحة وأن الأنوار على ما اختصه برحمته من بينهم ممنونة ، وأن له من خلقه صفوة «وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة» وأن العبيد فقراء حتى يغنيهم الله من فضله غنى القلب وأن القلوب بيده يقلبها كيف يشاء وأن الهداية منه يهدى الله لنوره من يشاء وأن الرسول عليه السلام عوتب فى ذلك حتى قيل له :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ (١٤) الآية .

---

(١٤) الأنعام (٦/٣٥).

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (١٥).

وكان ذلك بعد مضي السنين من النبوة ثم أدبه صلى الله عليه وسلم وقومه فألقى بيده سلما وذل لمولاه، وترك مشيئته لمشيئته، وراقب تدبيره فيهم، فصار نجيبة من نجائبه يصونه مولاه عن المكاره والآفات، والبلايا والعاهات وأثنى عليه فقال:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٦).

قالت عائشة رضي الله عنها «كان صلى الله عليه وسلم يرضى برضاه ويسخط بسخطه».

---

(١٥) القصص (٥٦/٢٨).

(١٦) القلم (٤/٦٨).

[الأصل الخامس والأربعون والمائة فى حقيقة الخشوع]

عن أم رومان والدة عائشة رضى الله عنها قالت: رآنى أبو بكر أتميل فى صلاتى فزجرنى زجرة كدت أنصرف من صلاتى ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود فإن سكون الأطراف من تمام الصلاة»(١). فالوقوف فى الصلاة ينبغى أن يكون وقوف تذلل وتخشع والخشوع البالغ خشوع القلب، قال الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ (٢).

وقد يتخشع الرجل باركانه وليس بخاشع فإن أراد بخشوعه ابتغاء وجه الله تعالى فهو محمود، وعلى ذلك مأجور وإن كان لغير الله تعالى فهو تماوت(٣) وعليه ممقوت.

قال عليه السلام: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق، قالوا: يا رسول الله وما خشوع النفاق؟ قال: خشوع البدن ونفاق القلب».

ومعنى ذلك أن يتماوت ويرمى ببصره إلى الأرض تقربا وترائيا. وقال عليه السلام حين رأى رجلا يعبث بلحيته فى صلواته «لو خشع

---

(١) ذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» (٣٢/١) وقال: أخرجه الحكيم وأبو نعيم فى الحلية، وابن عدى فى الكامل عن أبى بكر وأشار إلى ضعفه. وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٣٠٤/٩).
(٢) المؤمنون (٢/٢٣).
(٣) التماوت: من الموت.

قلبه لخشع جوارحه»([4]). فالخشعة للقلب الذى قد ماتت شهوات نفسه فاطمأن لفراغه من النفس، وفراغه من تكلفها. وأما تميل اليهود فأصله أن موسى عليه السلام كان إذا قرأ التوراة على بنى اسرائيل تلذذ بما فيه، وهاجت منه اللذة فكان يتمايل على قراءته كالذى يضطرب على الشيء يقرأه فخلت قلوب ما بعده مما كان يجده عليه السلام فاستعملوها من بعده على خراب القلوب، وخلاء الباطن من ذلك. قال موسى عليه السلام يوم الوفادة «إنا هدنا إليك» أى ملنا إليك، وهو التوبة فأخذوا هذا من قوله وجعلوا يتهادون فى صلاتهم وكان موسى عليه السلام هبط الوادى حين أنس النار، وكان نعلاه من جلد حمار غير مزكى فقيل له:

﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ ﴾ ([5]).

فأخذوا هذا من فعله وإذا صلوا خلعوا نعالهم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإهدار هذه الأفعال وقال: «اسكنوا أطرافكم فى الصلاة».

وقال فى حديث آخر: «صلوا فى نعالكم ولا تشبهوا باليهود» وكان موسى عليه السلام يعامل بنى إسرائيل على ظاهر الأمور لقلة ما فى باطنهم فكان يهيب الأمور، ويعظمها فى الظاهر لهم ويكتفى لنفسه بما فى باطنه عليه السلام حتى أن بنى اسرائيل لا تعظم التوراة فأوحى إليه أن هذه التوراة صارت فى حجور بنى إسرائيل، ولا تكاد تعظمها فحلها بذهب لم تمسه يد الآدميين فأنزلت عليه الكيمياء فعلمه فعمد([6]) إلى أسماء تلك الأدوية والعقاقير ففرقها ثلاثة أجزاء فأعطى جزءا منها هارون عليه السلام، وجزءا منها يوشع عليه السلام، وجزءا منها قارون ليأتوا بها من الجبال كى لا يجتمع عند أحدهم عملها فيعمل بها فذهب

---

(٤) وفى رواية [لخشعت].

(٥) طه (١٢/٢٠).

(٦) عمد إلى كذا: قصد إليه.

قارون فقعد على طريق هارون، ويوشع عليهما السلام حين رجعا من الجبال فاستدرجهما مختدعا (٧) لهما فقال لكل واحد منهما بما أمرك موسى فأخبره كل واحد منهما بالذى أمره فأثبتهما عنده فضم علم الجزئين إلى الجزء الذى عنده ثم عمد إلى الصفر فأذابه وألقى عليه فأخذ يعمل ذلك شهره ودهره، حتى اجتمع له أموال كانت تحمل مفاتيح كنوزه سبعون بغلا، قال الله تعالى:

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ (٨).

ونافق فوعظ فقيل له أحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض قال إنما أوتيته على علم عندى فخسف الله به وبداره الأرض، وكان موسى عليه السلام عمل هذا الذهب وحلى التوراة به ثم تركه، وكان يعامل أمته بظاهر الأمور فحلى باطنهم بتعظيم الله تعالى، وتعظيم كلامه فأمرت هذه الأمة بتسكين الأطراف والخشوع لربها فى الظاهر للعامة وفى الباطن للخاصة قال الله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (٩).

فأهل الظاهر يحفظون لحظات العيون عن الالتفات يمنه ويسرة، وجوارحهم عن الحركات فى غير ما أمروا به وأهل الباطن قد جاوزوا ذلك، وحفظوا لحظات القلوب، لئلا تلحظ أحدا سواء، فتكون قلوبهم منتصبة (١٠) بين يدى الله تعالى كما انتصبت جوارحهم فى الظاهر

---

(٧) أى خادعاً لهما.

(٨) القصص (٧٦/٢٨). العصبة: ما بين العشرة إلى الأربعين.

راجع الطبرى (٦٨/٤) ولسان العرب (٩٥/٢). وقد ذكر أبو صالح فى تفسيره (ما إن مفاتحه) يعنى الكنز نفسه، وقد تكون المفاتح مكان الخزائن. راجع تفسير غريب القرآن لابن قتيبة بتحقيق السيد أحمد صقر ص ٣٣٥ وتفسير الطبرى (٧١/٢٠) بتصرف.

(٩) المؤمنون (٢/٢٣).

(١٠) منتصبة: قائمة.

وذلك بما ولج (11) قلوبهم من عظمة الله تعالى وجلاله فهابت واستقرت فى تلك الهيبة لله تعالى، فانتفى عنهم وساوس نفوسهم ومن ههنا ما انب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الوسوسة، فقال هكذا أخرجت عظمة الله تعالى من قلوب بنى إسرائيل، حتى شهدت أبدانهم، وغابت قلوبهم لا يقبل الله صلاة أمرئ لا يشهد فيها قلبه ما يشهد بدنه وأن الرجل ليصلى الصلاة وما يكتب له عشرها.

---

(11) ولج قلوبهم: دخلها.

[الأصل السادس والأربعون والمائة فى سر التحية بالسلام]

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تبدؤا بالكلام قبل السلام ومن بدأكم بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»(١) شرط الله تعالى مع هذه الأمة فى دينهم أن يأمن بعضهم بعضا، ويسلم بعضهم من بعض، ولذلك سماهم مؤمنين مسلمين والأسماء سمات الشىء فكل اسم دليل على صاحبه، ومشتق من معناه والأسماء الأصلية هى التى جاءت من عند الله تعالى، مثل يحيى قال الله تعالى:

﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (٢).

أى لم نجعل أحدا لا يذنب سواه لأن يحيى من الحياة وقد أحيى الله تعالى قلبه به فلم يذنب، ولم يهم به، قال عليه السلام: «ما من آدمى إلا قد أخطأ أوهم بخطيئة، غير يحيى بن زكريا، ومثل أحمد» قال الله تعالى:

﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ (٣)

قال عليه السلام: «أعطيت ما لم يعط أحد سميت أحمد ونصرت بالرعب» فكذلك شأن هذه الأمة، والأمم فإن كل أمة تسمت باسم

(١) ذكره الهندى فى «كنز العمال» (٩/ ١٢٦) وقال: تفرد به الحكيم عن ابن عمر. وذكره ابن أبى حاتم فى «العلل» (٢/ ٢٩٤، ٣٣١، ٣٣٢). وأخرجه أبونعيم فى «حلية الأولياء» (٨/ ١٩٩).

(٢) مريم (١٩/٧). أى لم يُسَمَّ أحدٌ قبله: يحيى. (٣) الصف (٦١/٦).

من تلقاء نفسها مثل اليهود، والنصارى، والمجوس. فولىّ الله تعالى تسمية هذه الأمة فقال عز من قائل:

﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (٤).

وقال عليه السلام «إن الله سمى أمتى فاشتق لها اسمين من أسمه وهو السلام والمؤمن وسماهم مسلمين ومؤمنين» فاسم هذه الأمة على الحقيقة الأصلية التى علم آدم عليه السلام فاقتضى منها، وفاء هذا الإسم أن يأمن بعضهم من بعض ويسلم بعضهم من بعض قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٥).

وقال:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (٦).

وقال عليه السلام «المؤمنون كرجل واحد».

فوضعت هذه التحية فيما بينهم كرامة لهم فأكرم الله تعالى هذه الأمة بأن جعل تحيتهم على ألسنتهم أشرف القول وأطيبها من قوله السلام عليكم، وكان فى بنى اسرائيل إذا لقى بعضهم بعضا ينحنى له ويومئ برأسه كهيئة السجود فتلك تحيتهم.

روى أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطى أمتى ثلاثا لم يعط أحد قبلهن: السلام وهى تحية أهل الجنة، وصفوف الملائكة، وآمين إلا ما كان من موسى وهارون» وإنما جعل السلام وهو اسم من أسمائه موضوعا بينهم ليكون أماناً للعباد فى الدم والعرض والمال. قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: السلام أمان

(٤) الحج (٢٢/٧٨).
(٥) الحجرات (٤٩/١٠).
(٦) التوبة (٩/٧١).

للعباد فيما بينهم، وقال عليه السلام: «من بدأ بالسلام فهو أولى بالله وبرسوله» فلما كان هذا السلام مأمن العباد فيما بينهم كان من بدأ بالكلام فقد ترك الحق والحرمة فحقيق أن لا يجاب.

[الأصل السابع والأربعون والمائة فى هم الأنبياء الثلاث وتنزههم عما لا يليق]

عن أنس رضى الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن داود عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهم بها قطع على بنى إسرائيل بعثا، وأوصى صاحب البعث فقال: «إذا حضر العدو فقرب فلانا بين يدى التابوت فكان ذلك التابوت فى ذلك الزمان يستنصر به فمن قدم بين يدى التابوت لم يرجع حتى يقتل أوينهزم عنه الجيش الذى يقابله فقدم فقتل زوج المرأة ونزل الملكان على داود عليه السلام فقصا عليه القصة، ففزع منهم ففطن داود عليه السلام فسجد فمكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض جبينه يقول فى سجوده رب زل داود زلة أبعد ما بين المشرق والمغرب رب إن لم ترحم ضعف داود، وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديث فى الخلوق من بعده، قال: فجاء جبريل عليه السلام بعد أربعين ليلة فقال: يا داود إن الله قد غفر لك الهم الذى هممت به فقال له داود: وقد علمت أن الله تعالى قادر على أن يغفر لى الذى هممت وقد عرفت أن الله تعالى عدل لا يميل فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال: يا رب دمى الذى عند داود فقال له جبريل عليه السلام ما سألت ربك (١) ذلك، ولئن شئت لأفعلن قال: نعم فعرج جبريل عليه السلام إلى السماء وسجد داود عليه السلام فمكث ما شاء الله، ونزل فقال:

---

(١) فى نسخة أخرى [عن ذلك].

سألت يا داود عن الذى أرسلتنى إليه فقال: قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة ثم يقول(٢) له هب لى دمك الذى عند داود، فقال: هو لك يارب، فنقول له: فإن لك الجنة»(٣) فالهم من الأولياء والرسل عليهم السلام عظيم شأنه لأنه ميل عن الله تعالى: فنسأله العصمة فى الحركات، والسكنات إنه قريب مجيب.

وروى أن قاضيا فى بنى إسرائيل بلغ اجتهاده أن طلب إلى ربه أن يجعل بينه وبينه علما إذا هو قضى بالحق عرف ذلك وإذا قصر عن الحق عرف ذلك فقيل له ادخل منزلك، ثم مد يدك فى جدارك، ثم انظر كيف تبلغ أصابعك من الجدار فاخطط عندها خطا وكلما قمت من مجلس القضاء فامدد يدك إليه فإنك متى كنت على الحق ستبلغه وإن قصرت عن الحق قصر بك وكان يجتهد ولا يقضى إلا بالحق وإذا قام من مجلسه يأتى ذلك الخط فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحل الله له من أهل ومطعم ومشرب فلما كان ذات يوم وهو فى مجلس القضاء أقبل إليه رجلان يريدان أن يختصما إليه وكان أحدهما له صديق فتحرك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضى له به فلما أن تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه، فقام من مجلسه وذهب إلى خطه ومد يده إليه فإذا الخط قد شمر إلى السقف وإذا هو لا يبلغه فخر(٤) ساجدا، وهو يقول: يا رب شيئا لم أتعمده(٥) ولم أرده فبينه لى فقيل له: أتحسب أن الله

---

(٢) فى نسخة أخرى [فيقول له].

(٣) ذكره السيوطى فى «مسانيد الجامع الكبير» من مسند أنس (٢/ ٢٦٩) ونسبه لابن عساكر فى «التاريخ». وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٨٩). وأورده القرطبى فى تفسيره (١٥/ ١٦٧). وأشار إليه الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٣٢٥) وقال: رواه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن يزيد الرقاس عن أنس مرفوعاً. وعزاه الهندى فى «كنز العمال» (١٢/ ٤٧٨) لابن عساكر فى «التاريخ».

(٤) خر ساجداً: سقط، كناية عن سرعة الإنابة.

(٥) لم أتعمده: لم أقصده عمداً.

تعالى لم يطلع على جور(٦) قلبك حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك فتقضى له قد أردته وأحببته، ولكن الله قد رد الحق إلى أهله، وأنت لذلك كاره.

وعن ليث رضى الله عنه قال: تقدم إلى عمر رضى الله عنه خصمان فأقامهما ثم عاد ففصل بينهما. فقيل له فى ذلك فقال: تقدما إلى فوجدت لأحدهما ما لم أجد لصاحبه فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك ثم عادوا وقد ذهب ذلك ففصلت.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: اختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل امرأته جرادة، وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء له ثم قضى بينهما بالحق فأصابه الذى أصابه عقوبة لذلك الهوى.

وعن سالم مولى أبى جعفر المنصور قال: خرجنا مع أبى جعفر إلى بيت المقدس، فلما دخل دمشق بعث إلى الأوزاعى فأتاه فقال: يا أمير المؤمنين، حدثنى حسان بن عطية عن جدك ابن عباس فى قوله تعالى:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (٧)

« إن ارتفع إليك خصمان فكان لك فى أحدهما هوى فلا تشته فى نفسك الحق له فيفلج على صاحبه فامحو اسمك من نبوتى ثم لا تكون خليفتى ».

يا أمير المؤمنين، حدثنى حسان عن جدك قال: من كره الحق فقد كره الله لأن الله تعالى هو الحق، يا أمير المؤمنين حدثنى حسان عن جدك فى قوله تعالى:

﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ (٨)

---

(٦) جور: ظلم.
(٧) ص (٣٨ / ٢٦).
(٨) الكهف (٤٩/١٨).

قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك، فكيف بما جنتة الأيدى (٩)، فالهم بما عدل عن الحق هو ميل عن الله تعالى وإعراض وقلوب الأنبياء عليهم السلام معيار التوحيد، وموازين الأعمال، وحجج الله تعالى على الخواص، والهم همان: هم عارض لا قرار له ينفيه القلب بيقظته ونباهته وطيبه، ونزاهته، ونسيم روحه، وفسيح ساحته، وذاك يعترى الأنبياء، والأولياء عليهم السلام وذاك مرفوع عنهم لأنه عارض، لا يملكه ولا يتكلفه ولم يكن فيه حركة فى ظاهر ولا فى باطن، وإنما أيد من الروح والسكينة، واليقين. وهم آخر وهو هم عارض لله تعالى معه مشيئة وتدبير فى أموره، والأنبياء والأولياء عليهم السلام بمعزل عنه، وفى انحطاط منه، وإنما يعتريه العامة فإن ربوبيته قاهرة لجميع ما عند هذا العبد من القوة والتأييد، فإذا هو مخذول فصار همه عزما وهو عقد القلب، وصار بذلك فى ميل عن الله تعالى، وإذا استعملوا هذا العزم فأخرجوه إلى الأركان فعملت به جوارحهم، وقد بلى بالهم الأول ثلاثة أعلام فى الأرض من الرسل محمد وداود ويوسف صلوات الله عليهم أجمعين، أما يوسف عليه السلام فهم بها، حتى روى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قعد منها مقعد الرجال (١٠) فانفرج السقف، وتراءى له جبريل عليه السلام فى صورة يعقوب عاضا على أصبعه (١١) ونودى

---

(٩) جنته الأيدى: اقترفته، وارتكبته.

(١٠) فى نسخة [مقعد الخائن].

(١١) نرى فى قول الحكيم الترمذى رأيه فى جواز الهم من يوسف عليه السلام، وأنه لولا برهان ربه لكان ما كان، وقد أخذ بهذا الرأى بعض المفسرين، وأنكره آخرون.

قال أبو حيان (٥/٢٩٥): لقد نسب بعضهم ليوسف مالا يجوز نسبته الفساق، أهـ. وهو بهذا يستنكر الهم من جانب يوسف عليه السلام ترجيحاً لجانب العصمة على العموم لكن أبا السعود رأى أنه بشر يجرى عليه ما يجرى على البشر لكنه معصوم فيما يبلغ عن ربه فقط، لكن أبا السعود رأى أنه لم يكن غير مجرد ميول نفسى، فلم يجلس منها مجلس الختان، أو المخالط، فذلك فى نظره مدفوع، ومردود عليه لأنه لا يليق بقدسية النبوة، وأنها مزعومات تميحها الأذهان بله الأذواق الراقية والفطر المستقيمة. راجع رأى أبى السعيد فى تفسيره (٢/٦٣).

يـا يوسـف أتـعـمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء، فولى هـاربـا ثم أوصـلـهـا تزويجا بعد ما نالته العقوبة بالهم من طول اللبث فى السجن. عن وهب رضى الله عنه قال: أصابت امرأة العزيز حاجة فقيل لهـا لـوأتـيـت يـوسف فسألته فاستشارت الناس فى ذلك فقالوا: لا تفعلى فـإنـا نخـاف عـلـيك قالت: كلا إنى لا أخاف ممن يخلق الله تعالى [12] قـال: فـدخلت عليه فرأته فى ملكه فقالت: الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكا بطاعته، وجعل الملوك عبيدا بمعصيته.

قـال: فـقـضـى جميع حوائجها ثم تزوجها فوجدها بكرا فقال لها ليس هـذا أجمـل مما أردت قـالـت: يـا نبى الله انى أبتليت فيك بأربع: كنت أجمل النـاس كـلـهـم وكـنـت أنا أجمل أهل زمانى، وكنت بكرا وكان زوجـى عـنينا [13]. وأما داود عليه السلام ففتح من المحراب باب الكوة واطـلـع عـلـى تلك المرأة فوقع فى نفسه شأنها وفتنتها فلم يملك نفسه حتى وجه إليها من يومه لضمها إلى نسائه كى يسكن الهائج من نفسه إنتظاراً لـمـا يـكـون، فأبت المرأة فمشى إلى بابها فمر بملكين يناجى أحدهما صاحبه وهـو يقول: لقد أكرم الله إبراهيم وإسحق عن مثل هذا الممشى، ومضى فـلـم يـعتصم حتى وقف ببابها فاستفتح فقالت: من ذا فأخبرها فقالت: أعـاذ الله داود مـن أن يمشى هذا الممشى، فانصرف فكتب إلى صاحب بـعـث كـان زوجـهـا فيه وأمره أن يقدم زوجها فى مائتى رجل من بنى إسـرائـيـل مع تـابوت السكينة، وكان من قدم معها لم يرجع حتى يفتح عـلـيـه أويـقـتـل، فتقدم، فقتل، فلما انقضت عدتها خطبها فتزوجها فلبث بـذلـك مـا شـاء الله فـلـم يـرعه إلا وقد تسور [14] الخصمان عليه المحراب

---

(١٢) لأن الذى يخاف الله تعالى يتقى ظلم خلق الله، والافتراء عليهم، لذلك فليس ما يقتضى مع ذلك الخوف منه طالما أنتفى جانب الظلم عنده بخشية الله سبحانه وتعالى.

(١٣) عنينا: لا يقدر على معاشرة النساء.

(١٤) تسور: تسلق، يقال تسور الحائط والجدار إذا تسلقه.

ففزع فقصا القصة وعرجا (١٥) فانكشف الغطاء عن داود عليه السلام وخر لله ساجدا أربعين صباحا، حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر رأسه، ثم نودى: أجائع فتطعم أوعار فتكسى؟ فنحب نحبة هاج المرعى من حر جوفه فغفر له و وبشر بها فقال: يارب، هذا ذنبى فيما بينى وبينك قد غفرته فكيف بفلان وكذا رجلا من بنى إسرائيل تركت أولادهم أيتاما ونساءهم أرامل قال: يا داود لا يجاوزنى يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم استوهبك منه بثواب الجنة قال: يا رب، هكذا تكون المغفرة الهنيئة ثم قيل: يا داود ارفع رأسك فذهب، ليرفع رأسه فإذا به قد نشب فى الأرض فأتاه جبريل عليه السلام فاقتلعه عن وجه الأرض، كما تقتلع عن الشجرة صمغتها حتى سأل ربه تعالى أن ينقش خطيئته فى كفه فكان لا يبسط كفه لطعام ولا شراب إلا رآها فأبكته، قال عليه السلام «إنما مثل عينى داود مثل القريتين تنطفان الماء، لقد خدد الدموع (١٦) فى وجه داود خديد الماء فى وجه الأرض، وكان من دعاء داود: «رب اغفر للخطائين لكى تغفر لداود معهم، سبحان خالق النور إلهى خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداوا لى خطيئتى فكلهم يدل عليك إلهى أخطأت خطيئة قد خفت أن يجعل حصادها عذاب يوم القيامة أن لم تغفرها سبحان خالق النور إلهى إذا ذكرت خطيئتى ضاقت الأرض برحبها على وإذا ذكرت رحمتك ارتد إلى روحى» وروى أنه كان إذا ذكرها انحلت مفاصله، ثم يذكر رحمة الله تعالى، فيرجع بأوصالها إلى مكانها، وأما محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لما عاين زينب، فوقع فى نفسه شأنها وذلك أنه أبصرها قائمة فى صحن الدار فى درع وخمار أسود فلما وقعت فى نفسه فزع إلى الله تعالى، ووضع يده على وجهه وقال: سبحان مقلب (١٧) القلوب، فنزهه تعوذا بالتنزيه وتغوثا

---

(١٥) عرجا: تلبثا.

(١٦) كذا وردت بالأصول.

(١٧) هذه الرواية من أضعف الروايات، وقد استغلها المستشرقون للزراية والطعن والقدح فى=

بالاسم الذى منه حدث على قلبه التقليب عن أن يقلبه بمشيئة تورثه غدا الحياء، والعويل، واضطراب الصوت فى الملكوت، كما أورث من قبله من إخوانه عليهم الصلاة والسلام وصيره ملجأ ومفزعا. واستعمل التدبير الموضوع بين العباد أن غض بصره، وقال بيده على وجهه ليكون له فى ذلك تمسكن وتضرع، وانقياد ليرحمه ويصرف عنه الفتنة التى أحس بها فشكره على ذلك مولاه، حيث فزع إليه ولم يفزع إلى تهمة النفس، ولم يتدبر بالحيل التى توصله إليها. روى فى الخبر أنه أمسى زيد فآوى إلى فراشه قالت زينب رضى الله عنها لم يستطعنى زيد، وما أمتنع منه غير ما منعه الله منى فلا يقدر على، وفى بعض الروايات أن زيدا تورم ذلك منه حين أراد أن يقربها فعلم زيد بما أخبرته زينب من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله حين أبصرها [18] وصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن زينب تؤذينى ولا تأتينى ما أحب، ولا تبر قسمى، ولا تطيعنى وتفعل وتفعل، وإنى أريد أن اطلقها فقال له: أمسك عليك زوجك، واتق الله.

فلم يزل زيد على عزمه الذى عزم الله على قلبه فكما قلب قلب رسوله صلى الله عليه وسلم بهواها [19] قلب قلب زيد حتى يطلقها فلما انقضت عدتها نزل القرآن بتزويجها منه، وولى الله تعالى تزويجها [20] منه على لسان الروح الأمين [21].

= نقاء الغريبة، وقد أخذوا خيوطها من رواية الإمام الطبرى (٢٢/١٠) وتوسعوا فيها وجعلوا من تأويلاتهم ما يزرى على منصب النبوة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بريئاً من كل ظن شىء، وفوق كل شبهة، فهو الذى قال لزيد ابن حارثة بنص القرآن الكريم: «اتق الله، وأمسك عليك زوجك» فلو كان قد ارادها لنفسه ما كان قوله كذلك أن يذكره بتقوى الله، ويأمره بإمساك زوجة.

(١٩) نستغفر الله من هذا القول ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونسأل الله أن يتجاوز عن المؤلف ـ رحمه الله ـ ويتولانا وإياه بالعفو والمغفرة.

(٢٠) ونحن نؤثر دائماً أن يقال «تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب» لأنه بأمر الله سبحانه وتعالى لعلة تشريعية، ولم يكن بمحض إرادته.

(٢١) الروح الأمين: جبريل.

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن وكان قبل نزول الآية قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخطبة إليها ووجه زيد بن حارثه، يعلمها ذلك، فدخل عليها وهى فى مسجدها فذكر لها حاجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: حتى أؤامر ربى عز وجل، فنزلت قوله تعالى:

﴿ زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ (٢٢).

فهى بعد فى مؤامرتها وزيد عندها إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذن فقعد عندها، وتلا الآية فخرت ساجدة، وكانت تفخر بذلك على نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول إن الله أنكحنى من العرش، وهو ولى من دون الخلق، والسفير فى ذلك جبريل وكانت تسامى (٢٣) عائشة رضى الله عنها فى الوسامة والحظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: أنا الذى نزل تزويجى من السماء فقالت عائشة رضى الله عنها: أنا الذى نزل عذرى من السماء فى كتابه حين حملنى ابن المعطل على الراحلة.

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ (٢٤).

أى زيد بالعتق

﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ

---

(٢٢) سورة الأحزاب (٣٣/٣٧).

قال المفسرون: إن الذى تولى تزويجها هو الله جل وعلا. فلما انقضت عدتها دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا إذن ولا عقد ولا مهر ولا شهود. وكان ذلك خصوصية له صلى الله عليه وسلم.

وقد كان المقصود من التوسعة عليه صلى الله عليه وسلم فى النكاح أسوة بسنن الأنبياء السابقين عليه مثل داود وسليمان وغيرهما. راجع القرطبى (١٤/١٩٥) بتصرف.

(٢٣) تسامى: من التسامى وهو الرفعة. (٢٤) الأحزاب (٣٣/٣٧).

﴿ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ (٢٥) الآية.

فعوتب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحبيب يحب عتاب الحبيب، حتى يدوم الصفاء، ويكون العتاب بدل الوجد (٢٦)، قالت عائشة رضى الله عنها: «لو أن محمدا قدر على أن يكتم شيئا من الوحى لكتم هذه الآية، وسبب العتاب على وجهين أحدهما قول ابن عباس رضى الله عنها وتخفى فى نفسك الحب لها (٢٧) وطلاقه إياها وتزويجك بها، وكان عليه السلام يهوى أن يخلى سبيلها، وخشى قالة الناس وذلك أنه تبنى زيد بن حارثة، فقال المنافقون: ينهانا عن نساء أبنائنا، ويتزوج امرأة ابنه فخشى هذه القالة، وقالوها من بعد تزويجه إياها فنزلت قوله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (٢٨).

ونزلت:

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (٢٩).

إنما جاءت المعاتبة من قبل أنه قال أمسك عليك زوجك، وهو يحبها ويود فى نفسه أن يطلقها، وقد كان فى الغيب أن سيطلقها ويبدى الله تعالى ما فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم إذ يزوجها. الوجه الثانى: ما ذكره على بن الحسين رضى الله عنهما وهو جوهر من الجواهر إنما عتب الله تعالى عليه فإنه قد أعلمه أن ستكون هذه الأمة من أزواجك فكيف قلت بعد هذا لزيد أمسك عليك زوجك، وأخذتك خشية الناس أن

---

(٢٥) الأحزاب (٣٣/٣٧).

(٢٦) الوجد: الغضب.

(٢٧) أى الحب لزينب. وقلنا هذا القول مرفوض مردود عليه.

(٢٨) الأحزاب (٣٣/٤٠).

(٢٩) الأحزاب (٣٣/٥).

يقولوا تزوج امرأة ابنه والله أحق أن تخشاه فتراقب أمره وتدبيره فيك، وفيها. فتكون ممن أطلق ذلك:

﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ (٣٠).

ثم قال:

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (٣١).

فرض الله ما أعلمه أن تكون زينب من أزواجه، وذلك سنة الله تعالى في داود عليه السلام، حتى جمع بينه وبين تلك المرأة، وكان ذلك قدرا مقدورا على داود عليه السلام أن يكون الجمع بينهما على تلك الجهة ويغفر له ويضمن عنه تبعته لخصمه.

---

(٣٠) الأحزاب (٣٣/٣٧). والوطر: المطلوب.
(٣١) الأحزاب: (٣٣/٣٨).

[الأصل الثامن والأربعون والمائة فى الثلاثة التى تحت العرش]

عن الحسين بن عبد الرحمن عن أبيه رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة تحت العرش القرآن له ظهر وبطن يحاج العباد، والرحم تنادى صل من وصلنى، واقطع من قطعنى، والأمانة ظهر وبطن فالظهر يحاج العامة والبطن يحاج الخاصة»(١)، وهذا لأن الأمة على صنفين أهل يقين، وأهل علم: فأهل العلم صنفان مخلط، وهو الظالم ظلم نفسه، والحق عز وجل وملائكته، والأنبياء عليهم السلام فإن الله تعالى بعث بالحق على أيدى الملائكة على السنة الرسل عليهم السلام فإذا اخل بذلك سمى ظالما، ومستقيم: وهو المقتصد، وأما أهل اليقين وهم السابقون الأولياء المقربون فظاهر القرآن يحاج المقتصد فى تفسيره، والظالم فى تخليطه وباطن القرآن يحاج(٢) السابقين المقربين فى تقصيرهم، وخطراتهم وزلاتهم، قال الله تعالى:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣).

فالظالم يتقى تخليطه حتى لايدخل فى عمله شىء نهى الله عنه، والمقتصد قد فزع من التخليط فهو يتقى أن يشوبه عجب أوريء أرفساد

---

(١) أورده الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (١/٥٢٩). وأخرجه البغوى [illegible] شرح السنة -كتاب البر والصلاة- باب ثواب صلة الرحم وأثم من قطعها (١٣/٢٢). أخرجه [illegible] جرى فى الأمالى (٢/١٣٠). وأورده السيوطى فى الجامع الصغير (١/١٣٩) [illegible]: رواه الحكيم ومحمد بن نصر عن عبدالرحمن بن عوف ورمز له بالحسن.

(٢) يحاج: يعارض، ويقيم الحجة.

(٣) المائدة (٥/٧).

أوخطأ والسابق قد فرغ من هذا فهو يتقى الأسباب، والعلائق والاعتماد على شيء دونه، ويتقى الخطرات، وهذا كله هو التقوى ولكنه يتقى كل صنف مما بقى عليه من التقوى، فإن لم يفعل حاجه القرآن بما بقى عليه وأما قوله الرحم تنادى صل من وصلنى واقطع من قطعنى فالرحم لها شأن عظيم.

قال عليه السلام «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت (٤) الرحم فأخذت بحقوى الرحمن فقال: مه قالت: هذا مقام العائذ من القطيعة قال: نعم ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى قال: فذلك لك» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرؤا إن شئتم :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ (٥) الآية.

وقال عليه السلام فيما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال الرحمن للرحم: «خلقتلك بيدى وشققت لك اسما من اسمى وقربت مكانك منى وعزتى وجلالى لأصلن من وصلك ولأقطعن من قطعك ولا أرضى حتى ترضين».

فخلق الله تعالى الرأفة والرحمة. يرأف ويرحم بها عباده والرأفة غالبة على الرحمة، ولها سلطان إذا تحرك علا كل شيء وغلب وبدؤ الرأفة من رأفة الله تعالى، ورأفته من فضله، والفضل من جماله فهذه الرأفة التى خلقها يتراءفون، ويتعاطفون، وبها يتراحمون، ويتعاطفون فقامت تناشد ربها فقربها من رأفته وبين بدو مكانها، من أبد بدا ثم جعلها

---

(٤) فى نسخة أخرى [فأتت الرحم] وهو تحريف.

(٥) محمد (٢٢/٤٧).

قال قتادة: «كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام ويعصوا الرحمن؟!» قال صاحب البحر (٨٢/٨): «يريد ما جرى من الفترة بعد زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم» أهـ. بتصرف.

كالشبجنة (٦) قد برزت إلى ما دون العرش فلما قربها جعل لها السبيل إلى الحقو فى القرابة فشق لها اسما من اسمه وهو الرحمن ، ثم جعل لها سلطانا ممدودا من الحقوق كالشجنة إلى ما تحت العرش فاستعاذت هناك من القطيعة حيث أشارت من مقامها فقال الله تعالى : لأصلن من وصلك أى أصل واصلك بهذه الرأفة منى وأقطع من هذه الرأفة من قطعك ، فيكون صاحب القطيعة مقطوعا من رأفته .

قال عليه السلام «الرحم معلقة بالعرش» وقال فى رواية ابن عمرو رضى الله عنهما ، يقول الله عز وجل «أنا الرحمن ، وهى الرحم جعلت لها شجنة من وصلها وصلته ومن قطعها بتته لها يوم القيامة لسان طلق تقول فيما شاءت» فقد بين أنها الرأفة التى خلقها ثم قامت مقام العائذ إلى الحقو من القطيعة ، فتلك شجنة ناتئة (٧) من العرش معلقة منه . بها يتواصلون ويتقاطعون وحرقتها فى الأجواف والرحمة هناك ثم هى مقسومة بين الخلق فبها يتراءفون وبها يتعاظفون فإذا قطعها فقد انقطع من رأفة الله تعالى ، فلذلك يعجل عقوبته فى الدنيا ولذلك قيل أعجل البر ثوابا صلة الرحم فأسرع الشىء عقابا البغى ، وقطيعة الرحم ، وهذا لأن الله تعالى خلق الإنسان ، فجعل الرأفة منه فى الطحال (٨) وهو فى موضع الحقو يجد الآدمى منه حرقة تصل إلى الفؤاد فيعلمه وهو الذى يسمى بالعجمية مهر وجعلها دما فى الطحال لها حرارة ثم جعل لها فى العروق مجرى منها فصيرها فى الأرحام جارية ليصلوها ، قال عليه السلام «إذا أراد الله تعالى أن يخلق النسمة (٩) فغشى الرجل المرأة أحضر كل رحم له ثم قرأ :

---

(٦) الشجنة : أصلها عروق الشجر المشتبكة ، يقال : بينى وبينه شجنة مشتركة ، أو بينى وبينه شجنة رحم أى قرابة مشتبكة وفى الحديث أيضاً : «الرحم شجنة من الله تعالى» .

(٧) ناتئة : بارزة .

(٨) هذا القول غير العلمى من محض تصور المؤلف ـ رضى الله عنه ـ وقد قال به آخرون غيره .

(٩) النسمة : النفس .

﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [10]

وقال في رواية ابن بريدة ان رجلا من الأنصار ولدت له امرأته غلاما حبشيا أسود فأخذ بيد امرأته، فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والذى بعثك بالحق لقد تزوجنى بكرا وما اقعدت مقعده أحدا فقال عليه السلام: صدقت إن لك تسعة وتسعين عرقا، وله مثل ذلك فإذا كان حين الولد اضطربت العروق كلها ليس منها عرق إلا يسأل الله تعالى أن يجعل ذلك الشبه به فهذه عروق فيها دماء، والرحم خلقتها من المرأة كالكيس، وهى عضلة وعصب وعروق، ورأس عصبها فى الدماغ ولها فم بحذاء قبلها ولها قرنان شبه الجناحين تجذب بهما النطفة لقبولها ومن داخل فها أربعة أفواه إلى الرحم فإن دخل النطفة من باب فولد وإن دخل من بابين فولدان وعلى هذا، وهذه الدماء جارية من الأرحام إلى الأرحام منتقلة بعضها إلى بعض إلى هذه العروق فامروا بالصلة لهذه الدماء لئلا تنقطع.

قال عليه السلام «بلوا أرحامكم ولو بالسلام» فإن الدم إذا يبست تقطعت فتبل حتى لا تنقطع وبللها من السلام والزيارة والعطية، وقوله عليه السلام الأمانة تحت العرش فالأمانة معلقة بالإيمان، قال عليه السلام «لا إيمان لمن لا أمانة له» وإنما آمن ليأمن الخلق جوره فإن الله تعالى عدل لا يجور وبدؤه من عدله فهو معلق تحت العرش فهذه الثلاث تحت العرش القرآن وهو كلامه والرحم وهى رأفته [11] والأمانة وهى أمانته.

---

(١٠) الانفطار (٨/٨٢).

(١١) فى نسخة أخرى [وهى أمانة].

انتهى الجزء الأول

و يليه بحول الله

الجزء الثانى

وأوله الأصل التاسع والأربعون والمائة

فى أن الكلام عليك لا لك وضروبه

فهرس محتويات الجزء الأول

الأصل		الموضوع	الصفحة

الأصل	الموضوع	الصفحه

الأصل	الموضوع	الصفحة

الأصل	الموضوع	الصفحه

الأصل	الموضوع	الصفحة

مطابع الاهرام التجارية القاهرة - مصر